جائزة نوبل للآداب 1981

نار الله

رواية

إلياس كانيتي

ترجمها عن الألمانية: كاميران حوج

المتوسط

نار الله

هذه هي الرواية الوحيدة التي كتبها "إلياس كانيتي" صاحب نوبل للآداب 1981، والتي يعتبرها النقَّاد رائعته الخالدة (The Master-piece) وواحدة من الروائع الأدبية النادرة في عصرنا. تتمحور حول الشخصية الغريبة لمَهوُوس القراءة البروفيسور كين، "أعظم علماء الصينيات"، الذي يحتقر الأساتذة الأكاديميِّيْن، ويعتبر أن التواصل مع العالم لا لزوم له ما دام أنه توجد الكُتُب، لذا يعيش منعزلاً في بيته مع آلاف الكُتُب، ولأجلها؛ لكن التفاهة البشرية تتمكَّن من التسلُّل إلى بيته، وإحكام قبضتها عليه، وتقليص وجوده، وحَشْره في غرفة صغيرة مع كُتُبه، ودَفْعه للتواصل مع العالم، والذي سرعان ما سينهشه ويُنكِّل به، وكأن الحياة تنتقم منه انتقاماً شرساً، وهو يحاول أن يُراوغَها بالدقَّة والعناية نفسهما التي يُفسِّر فيها نصَّاً قديماً.

يقول سلمان رشدي عن هذه الرواية: لا ينجو أحدٌ في «نار الله»، فالجميع يُعاقَب، من البروفيسور إلى بائع الأثاث، ومن الطبيب إلى مُدبِّرة المنزل إلى اللصِّ. فالكوميديا القاسية التي لا ترحم (في هذه الرواية) تبني عالماً من أكثر العوالم الأدبية رعباً في هذا القرن.

وأنا بالفعل لم أنجُ كناشر، وأنتَ، أيُّها القارئ، يا صديقي، ويا أخي، ويا شريكي، بعد أن تقرأ هذه الرواية، لن تنجوَ.

الناشر

ISBN 979-12-80738-91-2

9 791280 738912

المتوسط

نار الله

t.me/yasmeenbook

حقوق النسخ © 2023 منشورات المتوسط - إيطاليا.

t.me/yasmeenbook

© 1935 by Elias Canetti
1994 by the heirs of Elias Canetti
Published by kind permission of Carl Hanser Verlag GmbH & Co. KG, München
Arabic translation copyright © **Almutawassit Books**

المؤلف: إلياس كانيتي / المترجم: كاميران حوج / عنوان الكتاب: نار الله
الطبعة الأولى: 2023
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

تُرجِمت الرواية بدعم من صندوق المترجمين الألمان:
Deutscher Übersetzerfonds
ضمن برنامج NEUSTART KULTUR

ISBN: 979-12-80738-91-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
الإمارات العربية المتحدة / الشارقة / المنطقة الحرة / مدينة الشارقة للنشر
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

t.me/yasmeenbook

نار الله

إلياس كانيتي

ترجمها عن الألمانية: كاميران حوج

ياسمين
قصص
روايات

المتوسط

t.me/yasmeenbook

مقدمة المترجم

السيرة

ولد إلياس كانيتي في بلدة بلغارية اسمها روسه، على نهر الدانوب في 25 تموز 1905 وتوفي في زيوريخ 14 آب 1996. كانت العائلة اليهودية السفاردية ميسورة الحال، وانتقلت إلى مانشستر ومنها إلى فيينا بعد وفاة الوالد عام 1912، وفي عام 1916 إلى سويسرا، التي ظلت على الحياد خلال الحرب العالمية الأولى. أُرسل كانيتي إلى ألمانيا للدراسة عام 1921، ثم عاد إلى فيينا بداية عام 1924. (للمزيد من تفاصيل السيرة الذاتية يرجى الاطّلاع على ملحق هذه الرواية). من البديهي أن حياة عائلته وتنقّلاتها أثّرت فيه عميقاً: "كان الأب روحاً طيّبة في بداية حياتي. ويبدو أن شعوري بالوالدة لم يتزعزع قطّ" (كانيتي: اللسان المنقَذ). اضطرّت الوالدة إلى تربية أطفالها وحدها بعد وفاة الأب. وأصرّت على أن يتعلموا عدة لغات، لذلك نشأ كانيتي وهو يتحدث الإنكليزية، والألمانية والفرنسية علاوة على لغة السفارديم الإسبانية: "لم تتسامح في أيّ حالٍ من الأحوال بأن أتخلّى عن اللغات الأخرى. كانت الثقافة بالنسبة لها تتألف من آداب كلّ اللغات". كانت الأم هي التي جعلت الأدب جزءاً مهمّاً من حياة ابنها: "الأهمّ بما لا ينسى، المثير والاستثنائي في تلك الأوقات، كانت أمسيات القراءة مع الوالدة والمحادثات التي تعقب تلك القراءات". و"لقد كنت خاضعاً لأحكامها". (كانيتي: اللسان المنقَذ). تعلّم كانيتي الألمانية في عمر الثانية عشرة وغدت هذه، بتعبيره، لغته الأم: "ستظلّ الألمانية لغة روحي، وهذا تحديداً لأني يهودي. سأحافظ، لأني يهودي، على ما يبقى

t.me/yasmeenbook

من البلاد التي تصحّرت بجميع الأشكال. كما أن مصيرها مصيري" (كانيتي: أقاليم الإنسان).

سيرة الرواية

كتب كانيتي روايته هذه بين عامي 1929 و 1931. لكنّه لم ينشرها اقتداءً برأي معلّمه كارل كراوس (1874 – 1936) الذي يرى أن على العمل الفني أن ينضج بعد الانتهاء من كتابته حتى يُنشر. "كانت مخطوطة الرواية التي ركّزتُ عليها من ثم، جهودي، وانهيتها خلال عام تحمل عنوان "كانط يحترق". ظلت المخطوطة عندي أربعة أعوام تحت هذا العنوان، وعندما تقرّر نشرها عام 1935 أعطيتها العنوان الذي تحمله مذّاك". (كانيتي: ضمير الكلام، منشورات المتوسط). كان كانيتي قد خطّط لكتابة ثمانية أعمال ضمن (الكوميديا الإنسانية عن المجانين): "فما يفترض به أن يكون كتابي الأول كان واحداً من ثمانية كتب خطّطت لكتابتها معاً خلال عام واحد بين خريف 1929 لغاية خريف 1930. ... قلت سأبني ثمانية كشّافات أسلّط بها الضوء على العالم من الخارج" (كانيتي: ضمير الكلام)، لكنه تخلّى عن فكرة الثمانية هذه عام 1930 لأن شخصية دودة الكتب بهرته جدّاً، فركّز عليها متخلّياً عن كلّ المسوّدات الأخرى.

كان العنوان الأساسي للرواية هو (حريق) على اسم بطلها براند. ثم غيّره إلى كانط، وبناء على نصيحة صديقه هيرمان بروخ (1886 – 1951) غيره إلى كانط يحترق. واستقرّ أخيراً على العنوان الذي عُرفت به الرواية إثر طبعتها الأولى عام 1935.

لم تلفت الرواية الأنظار حين نشرها، ولم تلقَ ما كان كانيتي يتوقعه لها. كان قد أرسلها إلى توماس مان عام 1935 فأعادها له هذا حتى دون أن يقرأها، ما ترك جرحاً عميقاً في نفسه. ورغم إعادة طبعها عدة مرات بعد

t.me/yasmeenbook

1936 إلا أن النقاد لم يحفلوا بها حتى طبعتها الثالثة 1963 إلا بتردّد مع أنها مترجمة إلى الإنكليزية والفرنسية. وبعد أن حصلت على جائزة نوبل عام 1981 لقيت إقبالاً شديداً وأُلّفت عنها مئات الدراسات. وقد تعدّدت قراءاتها على مستويات مختلفة بين الشكل والمضمون.

بعض خلفيات الرواية

يبدو أن من بين القراءات التي أثّرت في كانيتي حسب قوله كانت رواية (التحوّل، أو المسخ أو الانمساخ، وذلك حسب الترجمة العربية) لكافكا، التي قرأها خلال كتابة الرواية، وكذلك رواية "النفوس الميتة" لغوغول، و"الأحمر والأسود" لستاندال: "مع كافكا جاء شيء جديد للعالم، إحساسٌ أدقّ بعبثيّته، التي لا تُقارن بالكراهية إنما بالرعب من الحياة." (كانيتي: أقاليم الإنسان). كما أن تأثير (دون كيخوته) واضح، حين "تجاهد" الشخصية الرئيسية مع "خادمها الأمين" لافتداء الكتب.

صحيح أن كانيتي كان يعيش خلال الحرب العالمية الأولى في سويسرا الحيادية. لكنه خلال دراسته في فرانكفورت رأى ويلات الحرب وعواقبها الكريهة. فشهد تفكّك النظام القديم وبروز ظاهرة التعبئة العامة وظهور الجنود في الشوارع: "ذلك الحماس الهائل في الشوارع، المجنّدون يغنّون وهم ذاهبون إلى الحرب ... بشكل عام، لقد كان جنوناً" (ألفونس بيشوف: كانيتي - محطات العمل). خلال الحرب ساد البؤس والمشقة في كل مكان في أوروبا. كما تركت عواقب الحرب بصماتها عليه، كل أولئك المعاقين والمكفوفين والمتسولين وغيرها من المظاهر المفزعة. كان ذات يوم يراقب مع صديق له وصول العربات المحمّلة باللاجئين اليهود إلى فيينا، حيث لم يكونوا مرغوبين إلا على مضض. يكتب كانيتي عن ردة فعل صديقه ذاك: "كان اشمئزازه منهم مخفَّفاً لأني معه. ما كان

t.me/yasmeenbook

سيعبّر بالكلمات عما قد يؤرّقني" (كانيتي: اللسان المنقَذ). بل عانى شخصياً من هجوم الناس عليه حتى في زيوريخ. ثم اضطرّ لاحقاً إلى مغادرة فيينا من جديد 1938 بعد دخول هتلر إليها.

تميّزت سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى، في فرانكفورت حيث يعيش كانيتي، بالتضخم الاقتصادي. وقد خصّص فصلاً كاملاً من كتابه (المشعل في الأذن) لتلك الظاهرة حيث "أصبحت عمليات الانتقام والثارات كلمات يومية". وفي ذلك الوقت، رأى كانيتي لأول مرة الحشد في مظاهرة ضد مقتل وزير خارجية الرايخ الألماني راتنهاوس، اليهودي، في 24 حزيران (يونيو) 1922 على يد جماعة يمينية متطرفة، لأن هذا عقد معاهدة رابالو مع روسيا السوفيتية. كان اليمين المتطرف يدعو في صحافته بشكل صريح للقضاء على "جمهورية اليهود".

كتب كازانتزاكي في مذكراته: "كان العالم قد تغيّر حين توقفت في برلين مرة ثانية ثم في فيينا، في طريق عودتي إلى اليونان عند نهاية هذه الأشهر الثلاثة (في روسيا السوفييتية للاحتفال بالذكرى العاشرة لثورة أكتوبر 1917). لا، ليس العالم – بل عيناي، الرقصات الصفيقة، الموسيقا الهمجية الحديثة، النساء المتبرجات والرجال المتبرجون، الابتسامة الساخرة الجارحة، الشره للذهب وللقبلات – كل ما كان يبدو سابقاً غريباً ومغوياً لي صار الآن يثير فيّ القرف والرعب. صرت أرى أنها نذر النهاية. رائحة كريهة معلّقة في الجو وكأن العالم يتعفّن. لا بد أن سدوم وعمورة كان لهما الرائحة ذاتها" (نيكوس كازانتزاكي، تقرير إلى غريكو، ج2، ص 146، ترجمة ممدوح عدوان). ما يصفه كازانتزاكي بروحه المتصوفة عن ذلك الوقت، بلهجة أخلاقية عالية، كان بشائر على حدث أعظم. كانت ألمانيا والنمسا في وضع ميئوس منه بعد الحرب العالمية الأولى ومعاهدة فرساي. ساد الشعور بعار الهزيمة في الحرب وقضت الأزمة الاقتصادية على آخر أمل لدى الجماهير، ما أدى بالنتيجة

t.me/yasmeenbook

إلى سقوط الديموقراطية الناشئة في جمهورية فايمار (1918 1933-) في ألمانيا. وكان ظهور هتلر تعبيراً أقصى عن تلك الحالة الجنونية من الصراع بين أنصار النظام القديم واليمين المحتجّ على معاهدة فرساي من ناحية، وتطلعات الجمهورية الفتية من الناحية الأخرى. قاد هتلر أول محاولة انقلاب فاشلة 8و9 تشرين الأول 1923، متمثلاً بموسوليني للاستيلاء على السلطة. وهكذا فإن تلك اللحظات التي سبقت الكارثة الحقيقة، كارثة استيلاء النازية على الحكم واندلاع الحرب العالمية الثانية من ثم، كانت من أشد اللحظات التاريخية اضطراباً ورعباً لدى البشر. الأمر الذي انعكس على شكل الرواية، بل يكاد في كل جملة من جملها: "إن اضطراب عالم الرواية وما يتخللها من تشتّت في الشكل يتوافق بدقة مع تجربة الواقع الذي عمّ العالم، في قرن الحروب المجنونة وتدمير الطبيعة بالصناعة والتكنولوجيا" (إدغار بيل: إلياس كانيتي).

في 15 تموز (يوليو) 1927 احترق قصر العدل في فيينا خلال ما سمّي ثورة تموز، إثر النطق بما يعرف بحكم شاتندورف في 14 تموز (يوليو). في 20 كانون الثاني 1927 كان حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في النمسا وألمانيا قد عقد اجتماعاً في حانة في بلدة شاتندورف، هاجمه أعضاء اتحاد قدامى المحاربين على الجبهة في النمسا وألمانيا، وقتلوا رجلاً كرواتيّاً في الأربعين من العمر وطفلاً في السادسة من عمره. أعلنت المحكمة براءة ثلاثة أعضاء من منظمة اتحاد قدامى المحاربين. اعتبرت الجماهير الحكم جائراً. درءاً للتجمّعات قُطعت خطوط المواصلات العامة في فيينا، ورغم هذا تجمعت الجماهير وهجمت على البرلمان والقصر العدلي. أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين وقُتل 48 من المتظاهرين وخمسة من أفراد الشرطة.

ترك هذا الحدث في كانيتي، كما في غيره، أثراً لا يُمحى: "مرّ على هذا 46 عاماً وما زال اهتياج ذلك اليوم متجذّراً في نقيّ عظامي"

t.me/yasmeenbook

(كانيتي: ضمير الكلام، المتوسط). لا يمكن إلا القول إن هذا الحدث يمثل خاتمة الرواية: "في شارع جانبي، غير بعيد عن قصر العدل، كان رجلٌ، غير منعزل تماماً عن الحشد إلا أنه يتجنّبه بوضوح، رافعاً ذراعيه، عاقداً يديه على رأسه ويكرّر القول: "الملفّات تحترق! كلّ الملفّات". أشرت له: "هي ليست أفضل من البشر"، إلا أنه لم يعبأ بي، لم يكن يفكر سوى بالملفات. فكرت ربما كان هو ذاته على علاقة بتلك الملفات، ربما كان موظفاً في الأرشيف. كان في وضع مُزرٍ. حتى في تلك اللحظة شعرت أنه مضحك. إلا أنه أيضاً كان مزعجاً لي. قلت غاضباً: "لقد قتلوا الناس وأنتم تتحدثون عن الملفات". نظر إليّ كأني غير موجود وكرّر شاكياً: "الملفّات تحترق! كلّ الملفّات"" (كانيتي: ضمير الكلام).

مع تفاقم الأزمة الاقتصادية والتضخم المالي، سقط المجتمع الرأسمالي بأكمله في حالة من الفزع والفوضى. صدم كانيتي بـ "الأشخاص السطحيين في مرحلة التضخم الذين لم يكن لديهم همّ سوى المال ... لم أشعر قطّ بقلق في دواخل الناس أكثر مما كان عليه في هذه الأشهر الستة". (كانيتي: المشعل في الأذن). لم يتأثر كانيتي فقط بالأشخاص العاديين في مرحلة ما بعد الحرب، بل صُدم أيضاً بالمثقفين، بالفنانين والأدباء الذين التقى بهم لاحقاً في برلين في عشرينيات القرن. تركت فيه إقامته في برلين انطباعاتٍ مخيفة، فقد كشفت له عوالم مضطربة، "جنونية"، بخلاف عالمه الهادئ في فيينا. كان بريخت من بين الذين تعرّف عليهم كانيتي في برلين. وصدمه هذا بأنه يكتب مقابل المال. ولهذا أبرز له كانيتي احتقاره للمال كلما التقاه: "لم ألتقِ بريخت مرّةً إلا وأظهرت له احتقاري للمال". (كانيتي: المشعل في الأذن) كان كانيتي مؤمناً بألا يكتب أبداً لأجل المال: "لذلك عندما عدت إلى فيينا، قرّرت أن أعيش أكثر من أي وقت مضى كما طالب كارل كراوس، أي

t.me/yasmeenbook

صارماً ونقيّاً جدّاً، ألا أكتب من أجل المال، وقبل كل شيء ألا أنشر أيّ شيء، أنشر فقط ما عملت عليه سنوات كثيرة ويمكنني الوثوق به بعدها" (دورزاك، حوار حول الرواية، 1976). عدم الرغبة في الكتابة لأجل المال نجدها أيضاً عند بطل الرواية كين. تعدُّدُ الشرائح الاجتماعية التي شاهدها كانيتي في برلين تحديداً، وتنافرها، انعكسا في الرواية في ظاهرة التباعد الشديد بين أذهان مختلفة. لا أحد يفهم الآخر، بل تكاد جميع الشخصيات أن تسيء فهم بعضها البعض لأنها لا تعرف التعاطف. لا أحد يستطيع أن يضع نفسه في مكان الآخر. لقد انكفأ كل فرد على ذاته، يريد اقتناص ما قد يتمكن منه، دون أن يعبأ بقيم عامة، انعزل كل فرد عن الآخرين، ولاذ ضمن شبكة اجتماعية متحلّلة إلى ما يظن أنه الحقيقة، الحقيقة المفيدة له وحده. صار للحياة رهبة كالتي عبّر عنها كافكا. إنها ليست كراهية العالم إنما الرهبة منه، التساؤل في مضمونه. ما ينعكس في الفصل الثاني من هذه الرواية. حيث نرى عالماً يتأثر بواقع مخيف، منفصل عن واقعه هو، لكنه يتغلغل في صميم روحه ويقلب كيانه الهادئ، اللامبالي بالعالم الواقعي، متحولاً أو ممسوخاً إلى تمثال، كما يتصور. هنا تصل السخرية اللاذعة ذروة من ذراها، ويغدو الشكّ، الشك وحده، في كل شيء، في الأسس والقيم، تعبيراً عن عدمية شاملة. يليها الانحسار إلى حالة دونكيخوتية، حين يجاهد كين بمعونة "خادمه الأمين" لافتداء الكتب. لدى صدور الطبعة الثالثة للرواية عام 1963 كتبت مجلة "دير شبيغل": "كتاب لا يحتمل، غول أدبي ... لا يرد في هذا الكتاب سوى أعداء يتحاربون ليدفعوا ببعضهم البعض إلى الجنون". كان من أحد أسباب إهمال النقاد للرواية عند صدورها هو عدم لمس تلك السخرية اللاذعة التي تتخلّلها رغم الصرامة الشديدة ودقّة التعبير، لكن العناوين الفرعية توحي بكل ذلك الجنون، العماء الذي سيطر على البشرية في تلك الفترة بين حربين عالميتين.

t.me/yasmeenbook

الحبكة

بُنيت الرواية على ثلاثة أجزاء "رأس بلا عالَم"، "عالَم بلا رأس" و"عالَم في الرأس". وقُسم كل جزء منها إلى فصول فرعية. يبدأ الجزء الأول بحديث بين مثقف متغطرس وصبيّ في التاسعة من العمر، وينتهي الجزء الثالث باحتراق المثقف. تبدأ بسؤال وتنتهي بجواب يجده المثقف حلاً نهائياً لكل الأسئلة. الزمن في الرواية تصاعدي، تتطور أحداثها بتسلسل ورويّة، دون أن تدفع هذه الروية على الملل أو توقع لما قد يحدث في الفصل التالي، لأن الجملة الواحدة قد تنبئ أحياناً بعدة مصائر متباينة. والمؤلف يقفز بين الجملة والجملة التي تليها مثل بهلوان، نتوقع منه النجاح كما نتوقع أن يسقط في كل لحظة أو ينقطع الحبل، ذلك هو الخيط الذي يربط الحبكة.

في الجزء الأول يعرّفنا المؤلف على شخصية "أعظم علماء الصينيات" في حياته اليومية المحددة بصرامة تضعه في عزلة قاتلة، وتجعله كارهاً للبشر والواقع. في الجزء الثاني تبلغ "الفوضى" ذروتها، حين يختلط المثقف المنعزل ببشر حقيقيين في مدينة حقيقية خارج أسوار رأسه. في الجزء الثالث تصوير حدّي للفشل في محاولة استعادة ذلك العالم في الرأس، بعد أن تبيّن أن الجنون سيطر على البشرية. قبل وصول هتلر إلى السلطة كان السرياليون قد دعوا علماء النفس والأطباء إلى إخلاء سبيل مرضاهم، لأنه لا يستطيع إلا الاعتباط وضع حدّ بين "الذُهان والواقع". يحاول كانيتي عرض ذلك العالم البارانوي في صياغة روايته. يضع "نظُماً" جنونية بعضها جانب البعض الآخر، تتصادم لتؤدي من ثم إلى تلك السريالية، إلى جنون العالم. في دراسة متأخرة فسّر أحد النقاد نهاية الشخصية الرئيسية بأنها تحرير للمثقف من عزلته (سفين هانوشك: إلياس كانيتي، سيرة).

من عناوين الأجزاء لا يظهر البناء الواضح الصارم للرواية فقط، بل تتبدّى حبكة الرواية ذاتها، التي أرهق الكاتب نفسه في بناء كل جملة (هنا أيضاً بناء على نصيحة والدته التي كانت تمنع عليه النطق بكلمة واحدة

t.me/yasmeenbook

فائضة وخارج السياق) من جملها محاولاً مرّةً البلوغ باللغة إلى ذروتها، ومرّةً الهبوط بها إلى المحكي. عمل كانيتي كثيراً على تحوير اللغة، لذلك يتعثر القارئ أحياناً بالجملة. عمد مثلاً إلى تغيير قواعد علامات الترقيم أو تحوير الأمثال الدارجة، سواء الشعبية أو الحكم المقتبسة من الفلاسفة أو تراث الشعوب الأخرى، وتحديداً منها البائدة. وقد حاول المترجم أن يعكس هذه التناقضات في العربية بأن تعمّد ارتكاب أخطاء نحوية أو لغوية.

وبالتركيز على الشخصية "الرئيسية"، دودة الكتب كين، نراها تتشظّى في الجزأين الأولين بإحالة من عنوانيهما، إذ يتمزّق في الجزء الأول عالمه الذي أسّسه في رأسه، ويختلط في الجزء الثاني ببشرية "بلا رأس". وبمحاولة الجمع بين عالمَيْه في عالمٍ واحد في الجزء الثالث يحدث الانفجار الأزلي. بين عالَمين، ربما حربين، كان أولهما تمهيداً للثاني، يُنهَك كين بحيث لم يعد بإمكانه التصالح مع نفسه، إلا بالرغبة في إعدام نفسه، بالتخلص من الانفصام بإشعال النار بنفسه وبمكتبته. ربما يريد الكاتب أن يشير إلى تطهير ما، عماد بالنار، حرب، ينهي خراب العالم ليُبنى من جديد. فرغم محاولة الأخ الباريسي، الطبيب النفسي، في معالجة كين وإعادته إلى شقّته، لينعم بالحياة السابقة، المنعزلة قبل أن تختلط بالعالم الواقعي، لم يعد عالمه إلى ما كان، لم تعد النفس قادرة على التوحد بعد تشتتها. وفصامها يؤدي بها بالنتيجة إلى أن تحرق كل عالمها، حيث التحول الكلي بالمفهوم الكافكاوي كما طرحه كانيتي.

لا يتدخل الراوي في مصير شخصياته ولا ينطق باسمها. يعطي لكل منها منحىً متطرّفاً. يقول إنه تعمّد هذا لكي يكشف الفروقات الشاسعة بين البشر. مع أنه لم يتفق مع فرويد ونظريته في التحليل النفسي، واعتبر تحليله للحشود وبروز الزعماء ناقصاً، مقتصراً على ناحية واحدة فقط، إلا أن "تيار الوعي" كان آنذاك تجديداً في فن الرواية في بدايات القرن العشرين. استخدمه كانيتي ليوصل القارئ إلى دواخل شخصياته بناء على أفكارهم،

t.me/yasmeenbook

أوهامهم الخاصة. وعندما يدخل الكاتب في نفوس شخصياته عبر هذه الطرق، فإنه يرينا عوالمهم الداخلية كما يعبّرون عنها هم بلغتهم، بالأحرى بقناعهم اللغوي الخاص. لكل شخصية حلم غرائبي، منطق مستهجن، وحالة نفسية غير طبيعية وطموحات مستلبة، يريد تحقيقها على حساب الآخرين. يغور الكاتب في أعماق شخصياته كي يستنبط عوالمها اللاواعية عن طريق أحلامها أو هلوساتها.

لم يكن تلقّي الرواية على المستوى الشعبي واسعاً جدّاً. فالكاتب ذاته أراد أن يتحدّى القارئ، كما تحدّى نفسه. "رغم أن المرء لا يخشى اليوم أن يذكر كانيتي مع كافكا، وجويس، وبروست، فلا يمكن وصف الرواية بأنها مشهورة" (باربارا مايلي: ذكريات ورؤى). يتطلب كانيتي من قارئه مستوىً عالياً من الثقافة، ويتوقع منه أن يوسع مداركه في مختلف المناحي المعرفية، كأنه يكتب بحثاً علمياً وليس رواية فقط. "من يقرأ كانيتي يجد معلّماً، طبعاً ليس معلّماً مدرسياً يرفع إصبع التهديد، بل إنساناً متطبّعاً بالتربية بالمعنى السقراطي" (كارول بيترسون: إلياس كانيتي).

يمكن تقسيم شخصيات الرواية في أحد مستوياتها بين الذين أعماهم المال نتيجة القلق الدائم على مستقبل مجهول، والذين أعمتهم مصالحهم الخاصة أو جنون العظمة. تعاني كلٌّ من هاتين المجموعتين اضطرابات حدّيّة. يرى كلٌّ من الشخصيات أنه على حقّ، وأنه أفضل من الآخرين ويحقّ له أن يسيطر عليهم أو يستغلّهم لشؤونه، ما يندرج في مستوى ثانٍ، مبطّن، في تفاصيل الرواية. خاصة أنّ كانيتي قد شغل نفسه منذ ثورة تموز على مسألة الحشد والسلطة لمدة عشرة أعوام كاملة، واستغرق عشرة أعوام أخرى حتى انتهى من كتابه الموسوم "الحشد والسلطة". انطلاقاً من سلطة أخلاقية، كونفوشيوس، يتزوج كين مدبّرة منزله، فتستولي هذه شيئاً فشيئاً على الشقة، تحتلّها مع الوقت بقطع الأثاث التي يعتبرها كين كماليات لا داعي لها، وتنتهي إلى أن تطرده منها (هنا يمكن الإحالة إلى شخصية

t.me/yasmeenbook

كافكا الذي كان يرتعب من الأثاث الفائض لأنه يخنقه، وكان من دواعي رفضه للارتباط بخطيبته. راجع: المحاكمة الأخرى، ضمير الكلام، المتوسط أو رسائل كافكا إلى فيليس، ولو أن هذه نشرت بعد كتابة الرواية). كما أن البوّاب يتحكّم بسكّان البناية لأنه شرطي سابق، ويمارس ساديّته على زوجته في حياتها، ثم على ابنته، وعلى المتسوّلين الذين يجرؤون على التسلّل إلى بنايته، من خلال "نظام" يبتكره لنفسه. كذلك يسعى المسخ المضطهَد، فيشرله، للسيطرة على العالِم حين يجد الفرصة، في تماهٍ للضحية مع الجلاد، فهو ضحية لمجتمعه المهمّش ويقع على فريسته كين، "ابن الأكابر" ذي المحتد "الراقي". يتضح هذا النزوع إلى السلطة من خلال تعامله مع "موظفيه" الذين يطوّعهم لمصالحه "العظمى" بإغرائهم بالمال، فيحلم بعض هؤلاء بتحقيق طموحاتهم الخاصة وانتزاع السطوة على غيرهم.

شخصيات الرواية

بيتر كين، عالم صينيّات، يلقّب بالبروفسور. يعيش في عالمه الخاص بين كتبه ولكتبه. يتزوج تيريزه.

تيريزه، مدبرة منزل كين لمدة ثمانية أعوام. يتزوجها لأنه يجدها مهتمة بكتبه، حتى أحسن منه.

بينيديكت بفاف، بوّاب البناية التي يسكن فيها كين. توفيت زوجته وابنته. شرطي متقاعد.

فيشرله، "قزم"، يهودي مهووس بلعب الشطرنج يحلم ببطولة العالم، وقواد يتعرّف عليه كين في أحد المواخير. زوجته، المومس، تلقّب بالمتقاعدة. يؤسّس "شركة خاصة" ويوظف فيها أربعة عمال: "أعمى" من ضحايا الحرب، تاجر شنطة دائم الأرق، منظّف قنوات بليد، و"الصيادة"، بائعة جرائد "قزمة" تحب فيشرله. اسمه الأصلي هو فيشر، بمعنى صياد السمك.

t.me/yasmeenbook

غروب، عامل في محل أثاث، يتزوج مالكة المحل.

غروس، مالك محل الأثاث مع أمه.

خياط يعتبر نفسه بطلاً في لعبة الشدة.

غيورغ/جورج كين، أخو بيتر كين. طبيب أمراض نسائية يحوّل اختصاصه من النسائية إلى النفسية بعد أن يتعرف على مجنون أثناء عيادة زوجة أخيه.

مجنون يتصرف مثل غوريلا. استولى أخوه (تاجر فن) مع زوجته على نصيبه في ثروة الأهل. له صديقة، أو سكرتيرة، تتحول مثله إلى غوريلا.

جان، أحد نزلاء المصحّ النفسي الذي يشرف عليه غيورغ كين.

علاوة على عدة شخصيات ثانوية.

بناء الشخصيات

يقول كانيتي عن شخصياته: "كان العمل الأساسي الذي تفرّغت له محاولة غاضبة لأن أبتعد عن نفسي. طرحت شخصيات لديها طريقتها الخاصة في الرؤية، غير قادرة على التحرك، إنما دائرة مشاعرها وأفكارها محصورة في قنوات معينة" (كانيتي: المشعل في الأذن). على عدة أقطاب بلغ كانيتي بشخصياته إلى أقصى مدى من الحدّية "فكلما اختلفت بعضها عن البعض الآخر، وكلما زادت تطرّفاً، ازداد التوتر والتشاحن بينها" (كانيتي: المشعل في الأذن). تمثل كانيتي في طرحه هذا الكاتب الروسي غوغول: "كنت متأثراً بالدرجة الأولى بغوغول ... جعلتها شخصيات مضحكة ومرعبة في الآن ذاته، بحيث لا يمكن التمييز بين المضحك والمرعب أبداً" (كانيتي: لعبة العيون).

لكن شخصيات كانيتي لا تعدم أصولاً واقعية. فشخصية فيشرله مأخوذة عن صديق له كان يتردد على قاع المجتمع ويعرف تفاصيله: "لم يكن لديه

t.me/yasmeenbook

أي اعتراض على عنف قزم الشطرنج، وما كان هو ذاته سيتردّد مطلقاً إذا حانت له الفرصة لاسترداد قطعة. لم تكن تيريزه مبالَغة، فقد عرف أقسى منها" (كانيتي: المشعل في الأذن). حسب كانيتي أنه وجد شخصية تيريزه في شخص مؤجرة سابقة: "تحدثت في التفاصيل مع ربة المنزل عبر نافذة مفتوحة. كانت تنورتها تصل إلى الأرض، رأسها مائل وتقذفه بين الحين والآخر على الناحية الأخرى. بحذافيره انعكس أول خطاب لها في الجزء الثالث من الرواية: عن شباب اليوم وتضاعف سعر البطاطا" (كانيتي: ضمير الكلام، المتوسط).

يبدو أن الشخصية الرئيسية كين لا تعتمد على شخص واقعي معين، عدا الرجل الذي التقاه كين أثناء حريق قصر العدل (كانيتي: ضمير الكلام، المتوسط)، بما أن اسمها أساساً تغيّر كثيراً خلال سيرة الكتابة. فقد بدأ بحرف ب "اختزالاً لدودة الكتب"، ثم تحول إلى براند "الحريق" مروراً بكانط، حتى وصل إلى الاسم النهائي كين. علماً أن الاسم كين، الذي لم يعد مستخدماً في الألمانية، يعني خشب الصنوبر الذي يحوي الكثير من الراتنج، ولهذا فهو سريع الاشتعال. بينما يعيد بعضهم شخصية كين إلى إلياس كانيتي ذاته: "عندما زرته في لندن 1965 وعندما استقبلني على الباب فكّرت من فوري: هذا هو الدكتور كين، بشكله، برأسه، بنداءاته ..." (هورست بينيك: ورشة أحاديث مع مؤلفين).

يلاحظ من هنا أن معاني الأسماء كانت مهمّة جداً لدى كانيتي، ما يؤكد عليه هو نفسه: "لقد تعلّقت بالأشخاص والشخصيات من أجل أسمائهم، وقادتني خيبة الأمل في سلوكهم إلى بذل أقصى جهد لتغييرهم وجعلهم في تناغم مع أسمائهم" (كانيتي: المشعل في الأذن). ففيشرله محرّف من اسم فيشر بمعنى صياد السمك، وتلقّب صديقته بالصيادة. يحيل اسم البواب بفاف على شريحة الخوارنة التي صارت مع الزمن محل سخرية. ولا يخفى أن اسم تيريزه يحيل إلى القديسة تيريزا، المسمّاة أيضاً تيريزه الصغيرة

t.me/yasmeenbook

وتيريزه الرواية عجوز، يربطها المؤلف أيضاً بمؤسّسة الرهنيات وصاحبتها الأميرة "القديسة". كما أن اسم غيورغ أو جورج يحيل إلى مار جرجس؛ وهناك من يشير أيضاً إلى اسم أخي كانيتي ذاته الذي كان يعيش فعلاً في باريس. وربما لهذا يذكر الاسم في الرواية بلفظيه الألماني والفرنسي.

يرى كانيتي أن لكل شخصية، أو شخص، لغة خاصة، "قناعاً سمعياً" خاصاً، و"من الأقنعة السمعية تشكّلت مشاهد" (كانيتي: المشعل في الأذن). متأثراً بكارل كراوس، الذي وصفه شتيفان تسفايغ بـ "معلم السخرية السامة"، وبيوهان نيستروي (1801 – 1862)، حاول كانيتي الإلمام بـ "لغات" مختلف الشرائح الاجتماعية في فيينا عن طريق السمع وعمل على جمع طرائقها في الكلام. وبناء عليه وضع نظاماً لغوياً محدّداً لكل شخصية من شخصياته سمّاه "القناع السمعي". وبرأيه أن "القناع السمعي" أو القناع اللغوي لكل إنسان لا يتجاوز 500 كلمة، يظل يكرّرها في جميع أحاديثه. لكلّ قناع لغوي أسلوبه الخاص، وتيرته الخاصة في الكلام والنبر. يلاحظ هذا القناع السمعي في مزق كلام شخصيات تعيش على هامش المجتمع مثل تيريزه أو البواب. مثلاً حين يتحدث البواب عن "علف" ابنته أو "نفوق" زوجته. ما يشير إلى أن الابنة والزوجة بالنسبة له ليستا أكثر من حيوانين. أو حين تكرّر تيريزه جملها على الدوام، وهي غالباً ما تكون جملاً بسيطة، قصيرة وغير مفهومة حتى. بينما لغة كين، ذي الثقافة العالية، تنحو نحو الجمل الطويلة والمنمقة بالأمثال والأساطير المأخوذة عن مختلف ثقافات العالم. ونلاحظ تطوراً ما في لغة فيشرله، من لغة المواخير إلى استخدام بعض الكلمات المنمقة برأيه وله قاموسه الخاص - مثل حذلقة، تعبيراً عن الذكاء، "كار" التي يطلقها على شتى المهن، و"منحة" التي يعتبرها تعبيراً لا يفهمه إلا المثقفون - بل ينتهي به الأمر إلى استخدام الإنكليزية، التي يتعلمها في عدة ساعات من كتاب يذكّر بتلك الكتب التي درجت في مرحلة ما وكان عنوانها "تعلم .... في خمسة أيام".

t.me/yasmeenbook

تجد سوزان زونتاغ في الرواية "طريقة استثنائية خلّاقة في كره النساء" (سوزان زونتاغ: مساهمة في رعاة التحول. مساهمات حول أعمال كانيتي). يعبّر عن هذا الرأي استخدام الشخصيات، حتى كين المثقف في لحظات غضبه، لمفردة "الحرمة" في خطابها. ما قد يبدو مستهجنا لقارئ/ة اليوم، لكنه يعبّر تماماً عن "لغة" ذلك الزمان كما يعبّر عن القناع السمعي الخاص بكل شخصية.

كما ترد في الرواية مفردات وتعابير أخرى مستهجنة اليوم، مثل "الزنوج"، لكنها في زمن كتابة الرواية كانت مستخدمة في جميع الأفواه والكتابات.

بوخوم، 3 شباط 2021

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

تنبيه من الناشر

لمّا كان المؤلف يعمد إلى استخدام المحكي في حوارات الشخصيات، فقد لجأ المترجم إلى أن يتعمّد ارتكاب أخطاء نحوية ولغوية في هذه الحوارات، تفادياً لاستخدام عامية بعينها، ولكي ينقل للقارئ العربي ما يقصده المؤلف في طريقة تعبير شخصياته.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الجزء الأول
رأس بلا عالم

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الجولة

"ما الذي تفعله هنا يا صغيري؟"

"لا شيء".

"لمَ تقف هنا إذاً؟"

"هكذا".

"هل تستطيع القراءة؟"

"نعم، نعم".

"كم عمرك؟"

"فوق التسعة".

"ماذا تفضّل، قطعة شوكولاتة أم كتاباً؟"

"كتاب".

"حقاً؟ هذا حسنٌ منك. إذاً لهذا تقف هنا؟"

"نعم".

"ولمَ لم تقل هذا منذ البداية؟"

"الوالد يشتمني".

"هكذا إذاً! ما اسم والدك؟"

t.me/yasmeenbook

"فرانتس ميتسغر".

"هل تودّ السفر إلى بلاد غريبة؟"

"نعم. إلى الهند. فيها نمور".

"وإلى أين أيضاً؟"

"إلى الصين. هناك سور عظيم".

"لا بدّ أنك تودّ لو تسلّقته؟"

"إنه عريض جداً وعال جداً. لا يستطيع أحد تسلّقه. ولهذا بنوه".

"يا لسعة معارفك! لا بد أنك قرأت كثيراً".

"نعم، أنا أقرأ دائماً. الوالد يأخذ مني الكتب. أريد الذهاب إلى مدرسة صينية. هناك يتعلمون أربعين ألف حرف. وهذه لا يسعها أيّ كتاب".

"محض أوهام".

"لقد حسبتها".

"لكن هذا غير صحيح البتّة. دعك من الكتب في المكتبات. فيها الكثير من المعطيات الخاطئة. في حقيبتي شيء جميل. انتظر، سأريك إياه! هل تعرف هذا الخط؟"

"صيني، صيني".

"أنت ولد واعٍ فعلاً. هل سبق أن قرأت كتاباً صينياً؟"

"لا، لقد حزرت".

"هاتان الإشارتان ترمزان لمونغ تسه، الفيلسوف مونغ. هذا كان رجلاً عظيماً في الصين. عاش قبل 2250 عاماً وما زالت كتبه تُقرَأ حتى اليوم. هل ستحفظ هذا؟"

"نعم. يجب أن أذهب الآن إلى المدرسة".

t.me/yasmeenbook

"آها، حسناً، وفي الطريق إلى المدرسة تتفرّج على المكتبات. ما اسمك أنت؟"

"فرانتس ميتسغر. على اسم أبي".

"وأين تقطن؟"

"شارع إرليش، رقم الدار 24".

"هناك أقطن أيضاً، لكنني لا أتذكّر أنني رأيتك".

"أنتم تشيحون النظر عندما يمرّ أحد على الدرج. أنا أعرفكم منذ زمن بعيد. أنتم السيد البروفسور كين، لكنكم لا تداومون في مدرسة. تقول الوالدة إنكم لستم بروفسوراً. لكن أنا أعتقد أنكم بروفسور، لأن عندكم مكتبة خاصة. تقول ماري، وهي شغّالتنا، لا أحد يصدّق مثل هذا الشيء. عندما أكبر سيكون عندي مكتبة. سيكون فيها كل أنواع الكتب، بكل اللغات، وبينها كتاب صيني أيضاً. والآن يجب أن أركض".

"من كتب هذا الكتاب؟ أما زلت تعرف؟"

"مونغ تسه. الفيلسوف مونغ. قبل 2250 سنة بالضبط".

"حسناً. يمكنك أن تأتي إلى مكتبتي. قل لمدبّرة المنزل إنني أذنت لك. سأريك صوراً من الهند والصين".

"رائع، سأجيء، سأجيء بكلّ تأكيد. عصر اليوم؟"

"لا يا صغيري، لا. عندي عمل. لا تأتِ قبل أسبوع!".

البروفسور بيتر كين، الطويل الهزيل، العالم النحرير، المتبحّر في الصينيات، أودع الكتابَ الصيني في الحقيبة المليئة، التي يتأبّطها، أغلقها برفق وتطلّع إثر الصبيّ الذكي حتى اختفى. متجهّماً ونادر الكلام بطبعه، لام نفسه على مبادرة الصبي بالحديث دون سببٍ مقنع.

t.me/yasmeenbook

كان البروفسور كين يدأب على إلقاء نظرة على كلّ مكتبة يمرّ بها في جولته الصباحية بين السابعة والثامنة. ويتأكد المرة تلو الأخرى وهو شبهُ منتشٍ أن الركاكة والقذارة تستشريان. كان يملك أهم مكتبة خاصة في المدينة الكبيرة، ويحمل معه جزءاً ضئيلاً منها أينما حلّ. يرغمه شغفه بالكتب، وهو الشغف الوحيد الذي تملَّكه في مسيرة حياته الصارمة والمكتظّة على آخرها بالعمل، على توخّي الحيطة. فالكتب، حتى السيّئة منها، تغويه سريعاً باقتنائها. لحسن الحظ لا تفتح أغلب المكتبات أبوابها قبل الساعة الثامنة. أحياناً يبكّر صبيّ ما، طمعاً في كسب ثقة معلّمه، وينتظر أولَ الموظفين ليحتفي بتناول المفتاح منه، هاتفاً: "أنا هنا منذ الساعة السابعة" أو "لا أستطيع الدخول". يعدي هذا الحما س رجلاً مثل كين بكل سهولة، فيبذل جهوداً جبارة كي لا يتبع الصبي من فوره. كما أن بين أصحاب المكتبات الصغيرة من يستيقظ باكراً، ويبدأ بالتأفف والتذمر منذ السابعة والنصف خلف أبواب المكتبة المفتوحة. كي يقاوم الغواية يتشبّث كين بحقيبته المترعة. يضغطها، بطريقة ابتدعها لنفسه، على جسده، لتلامس أكبر مساحة ممكنة منه. تشعر بها الأضلاع عبر الحلّة الرقيقة والمهترئة. يضع العضد في الفتحة الجانبية، التي تسعه تماماً، بينما يدعمها الزند من الأسفل. أما الأصابع المحتقنة فتنتشر في المساحات التي تشتهي. يبرّر كين حرصه المبالغ فيه بغنى محتوى الحقيبة. فلو سقطت أرضاً وفُتح السحّاب، الذي يتوثّق منه يومياً قبل الخروج من البيت، في هذه اللحظة الخطيرة، ستتشوّه تلك النفائس. لا يكره شيئاً كرهه للكتب المتسخة.

حين توقف اليوم في طريق العودة إلى البيت أمام مكتبة، طرأ فتىً بينه وبين الواجهة. اعتبر كين سلوك الفتى علامةً على سوء التربية. المكان واسع كفاية. وهو عادةً يقف على مبعدة متر من اللوح الزجاجي، ويقرأ الأحرف المتناثرة خلفه بكل سهولة. بصره على أحسن ما يرام. الأمر المهم بالنسبة لأربعيني يعاشر الكتب والمخطوطات طوال اليوم. عيناه تبرهنان

t.me/yasmeenbook

له يوماً بعد يوم على سلامتهما. ثم إن الوقوف على مسافة من الكتب السخيفة في مكتبة عامة تعبيرٌ جليّ عن ازدرائه العميق، الذي تستحقّه مقارنةً بالأعمال القيّمة والجليلة في مكتبته الخاصة. كان الفتى قصيراً وكين طويلاً طولاً غير معهود، يمكّنه من الرؤية من فوق رأس الفتى بكل سهولة إلا أنه ابتغى المزيد من الاحترام. وقبل أن يلقّنه درساً قاسياً عن سلوكه، تنحّى جانباً ليتملّى فيه. كان الفتى يحدّق في عناوين الكتب ويحرّك شفتيه ببطء مُصدراً صوتاً خافتاً. ينقل بصره من مصنّف إلى مصنّف. يبعد رأسه بين الفينة والأخرى ناظراً إلى بقعة ما. على الطرف الآخر من الشارع، فوق محلّ الساعاتي، ساعة هائلة تشير إلى الثامنة إلا ثلثاً. من البيّن أن الصغير يخشى تفويت موعدٍ مهم. لا يعبأ بالسيد خلفه. ربما يتمرّن على القراءة. ربما يحفظ العناوين عن ظهر قلب. يعاملها جميعاً معاملة سواء وإنصاف. يبصر الناظر إليه أين تتوقف عيناه.

أشفق عليه كين. ربما أفسد الفتى عقلَه الغضّ والمتعطّش إلى القراءة بتلك المواد الضحلة منذ الآن. ربما قرأ بعض تلك الكتب المنحطّة في المستقبل لمجرّد أن عناوينها انطبعت في ذاكرته النضرة. كيف يمكن اتقاء شرّ شفافية سنوات اليفاعة. ما إن يتعلم الطفل المشي والقراءة حتى يتعرّض لنقمة عثرات شارع سيّئ وبضاعة تاجر سفيه، لا يعلم إلا الشيطان لماذا ينكبّ على الكتب. يجب أن يترعرع الغلمان في مكتبة خاصة ذات شأن. وما هو المحيط الأفضل لإعانة المخلوقات الرقيقة على تجاوز عثرات الشباب؟ إنه التعامل اليومي مع الأذهان النيّرة، الجوّ المصمت والمغلّف بالذكاء والحمية والانضباط الصارم في المكان والزمان. ولا أحد في هذه المدينة يملك مكتبة رصينة وجادّة غير كين. وهو لا يستطيع رعاية الأطفال. عمله لا يجيز له متع الحياة الدنيا. الأطفال يثيرون الضجيج وعليك أن تنشغل بهم. لا بد من وجود امرأة تعتني بهم. تكتفي بمدبرة منزل عادية لأجل الطبخ، أما لرعاية الأطفال فعليك بتدبّر أمّ. ولو اكتفت الأمّ بدور الأمّ

t.me/yasmeenbook

لهان الأمر، لكن أيّ امرأة تقصر حياتها اليوم على دورها الحقيقي؟ لكلّ امرأة متطلّبات لا يسع العالم الحقّ أن يلبّيها ولا في الأحلام. لهذا يزهد كين بالزوجة. لم يكترث لغاية الآن بالمرأة ولن يكترث بها مستقبلاً. بهذا انتهى بغتةً دور الفتى ذي العينين الثابتتين والرأس الهزّاز.

لقد بادره بالكلام خلافاً لعادته شفقةً عليه. كان سيتحرّر من واجباته التربوية لو وهبه قطعة شوكولاتة. لكن تبيّن أن هناك أطفالاً في التاسعة يفضّلون الكتاب على قطعة الشوكولاتة. ازدادت دهشته حين علم أن الفتى معنيّ بالصين. يقرأ رغم رفض أبيه. تغريه الشائعات عن صعوبة الخطّ الصيني عوض أن تكبحه. لقد عرفه منذ النظرة الأولى دون أن يراه قبلاً. نجح في اختبار الذكاء بامتياز. لم يلمس الكتاب الذي أطلعه عليه. ربما خجل من أصابعه القذرة. تفحّصها كين وكانت نظيفة. كان غيره سيمدّ يده وإن كانت أصابعه متّسخة. كان على عجلة من أمره. تبدأ المدرسة في تمام الثامنة لكنه تريّث حتى آخر ثانية. اندفع لقبول الدعوة كمن يتضوّر جوعاً. لا بدّ أن الوالد ينكّل به. كان بودّه أن يأتي عصر اليوم في ذروة العمل. فهو يقطن في البناية ذاتها.

غفر كين الحوار؛ لنفسه. بدا له الاستثناء الذي سمح به لذاته جديراً بالجهد المبذول. رحّب في رحاب أفكاره بالفتى المتواري عن الأنظار كعالم صينيات في المستقبل. من يعبأ بهذا العِلم المهمّش؟ الصبيان يلعبون كرة القدم والبالغون يسعون في كسب الرزق، ويقضون أوقات فراغهم في العشق والغرام. يستسلمون لعمل مقيت لمدة ثماني ساعات، كي يستمتعوا بثماني ساعات وثماني أخر من الفراغ. لقد رفعوا الجسد كلّه، وليس البطن وحده، إلى منزلة الإله. إن ربّ السماء الصيني أجلّ وأشرف. حتى لو لم يحضر الفتى في الأسبوع القادم، الأمر المحتمل جداً، فقد زرع في رأسه اسماً لن ينساه سريعاً، اسم الفيلسوف مونغ. إن الصدمات المباغتة تهدي الإنسان إلى سواء السبيل.

t.me/yasmeenbook

مضى كين في طريقه إلى البيت مبتسماً وهو نادراً ما يبتسم. قلّما كانت غاية غايات الإنسان هي أن يؤسّس مكتبة خاصة. تلظّى في التاسعة من عمره لتأسيس مكتبة عامة. آنذاك بدا له امتلاك مكتبة عامة، يصول فيها ويجول، منظراً مهيباً. مالك المكتبة ملك، الملك ليس مالك مكتبة. لكن العمل موظفاً في مكتبة عمومية تفاهة! ما مهمة الساعي! إنهم يرسلونه لإيصال الكتب للزبائن، وماذا ينتفع منها إذا وقف على تأبّطها؟ بحث طويلاً عن حلّ لمعضلته. ذات يوم لم يذهب إلى البيت بعد انتهاء دوام المدرسة. دخل أكبر محلّ قرطاسية في المدينة، ستّ غرف ملأى بالكتب. بدأ بالعويل. صرخ: "يجب أن أخرج من هنا بسرعة، أنا خائف!". دلّوه على المكان الذي تحرّاه جيداً. عندما عاد، شكرهم وسألهم ما إن كان يستطيع مساعدتهم. سُرّ الناس بوجهه المشرق الذي كان مشوباً قبل قليل بذعر غريب. تبادلوا معه أطراف الحديث وتبيّن لهم أنه ضليع بالكتب. وجدوا أنه أذكى من الأولاد في سنّه. أرسلوه مع حلول المساء بطردٍ ثقيل. صعد في الترام ورجع به. كان قد وفّر نقوداً كافية. قبل إغلاق المحل ومع حلول الظلام، أعلن أنه أنهى مهمّته ووضع وصل الاستلام على منضدة المحلّ. كافأه أحدهم بقطعة بونبون حامض. بينما يرتدي الموظفون معاطفهم، تسلّل إلى الخلف، ذلك المكان الآمن، وحبس نفسه هناك. لم يلاحظه أحد، لأن الجميع يفكر في نهاية الدوام. انتظر طويلاً. ولم يجرؤ على مغادرة محبسه إلا بعد ساعات؛ في وقت متأخر من الليل. المحل معتم. بحث عن زرّ الإنارة الذي لم يفكّر في مكانه خلال النهار. عندما عثر عليه ولمسه خشي من إشعال الضوء. ربما شاهده أحد المارة في الشارع وأخذه إلى البيت.

شيئاً فشيئاً تعوّدت عيناه على الظلام. لكنه، لخيبة أمله لم يستطع القراءة. أخذ عن الرفوف، المجلّد تلو الآخر، تصفّحها وتمكّن لدهشته من قراءة بعض العناوين. ثم صعد على السلم، سعياً منه ليعرف ما إن كانت الرفوف العليا تخفي أسراراً. سقط أرضاً وقال لنفسه: أنا لم أتأذَّ.

t.me/yasmeenbook

الأرضية صلبة، الكتب ليّنة. في المكتبة تسقط على الكتب. كان له أن يراكم الكتب في قلاع أمامه، لكنّه استاء من الفوضى ودسّ كلّ كتاب في محلّه قبل أن يمدّ يده إلى آخر. آلمه ظهره. ربما من التعب. لو كان في البيت لكان قد نام منذ زمن بعيد. غير أن النوم جافاه هنا بسبب الإثارة. لم تعد عيناه تسعفانه على قراءة العناوين العريضة بعد، الأمر الذي كدّره. أحصى عدد السنوات التي يستطيع قضاءها في المكتبة دون أن يضطرّ للخروج إلى الشارع أو الذهاب إلى المدرسة الغبية. لماذا لا يقضي عمره هنا! سيستطيع توفير ثمن سرير ضيق. الوالدة تخاف. هو أيضاً يخاف لكن قليلاً فقط لأن المكان هادئ جداً. انطفأت قناديل الغاز في الشارع. بدأت الظلال بالزحف. إذاً الأشباح حقيقة. تطير ليلاً وتحطّ على الكتب. تقرأ. لا تحتاج ضوءاً. عيونها واسعة جداً. لم يمدّ يده في هذا الوقت إلى أيّ كتاب فوق، لا، ولا في الأسفل. زحف تحت المنضدة واصطكّت أسنانه. عشرة آلاف كتاب وعلى كل منها يربض شبح. من هنا مبعث كلّ الهدوء. أحياناً يسمعها تقلب الصفحات. تقرأ بسرعته هو. ربما استطاع أن يتعوّد عليها، لكنها عشرة آلاف وقد يعضّه أحدها. فالأشباح تغتاظ حين تلمسها لأنها تعتقد أنك تسخر منها. انكمش على نفسه حتى تضاءل حجمه بأصغر قدر ممكن. الأشباح تطير فوق رأسه. لم يحلّ الصباح إلا بعد مرور ليالٍ كثيرة. غطّ في النوم. لم يتنبّه عندما فتحوا الباب. وجدوه تحت المنضدة وهزّوه حتى استيقظ. في البدء تظاهر بالنوم، ثم انطلق بالنحيب مدّعياً أنهم أغلقوا عليه المحل أمس، وأنه يخشى أمه التي ستكون قد بحثت عنه في كل مكان. استعلم منه صاحب المكتبة وأرسل معه أحد الموظفين حالما عرف اسمه، مبلِّغاً أنه يعتذر من السيدة الوالدة، فقد أغلقوا المحلّ على الصبي خطأً، لكنّه معافى. أما هو فيوصيها من ناحيته خيراً. صدّقت الأم الحكاية وسُرّت لرؤية ولدها. والآن يملك ذلك الكذّاب الصغير مكتبة عظيمة وصيتاً لا يضاهيه صيت.

t.me/yasmeenbook

كان كين يعاف الكذب. لقد التزم الصدق منذ نعومة أظفاره. لا يتذكر أنه كذب كذبةً أخرى طوال حياته غير تلك. وحتى هذه مذمومة، لم يوقظها من سباتها سوى الحديث مع التلميذ الذي بدا له صورة عن صباه. فكّر، لننسَ الأمر، حالاً تبلغ الساعة الثامنة. وفي تمام الثامنة عليه أن يبدأ خدمة الحقيقة. الحقيقة والعلم مصطلحان متكافئان بالنسبة له. كلّما نأى الرجل عن البشر دنا من الحقيقة. ليست الحياة اليومية سوى ثرثرة سفيهة من الأكاذيب. وكلّما تكاثر المارة تفاقمت الأكاذيب. لهذا لا ينظر إليهم. ثم أيّ وجه سيأسره بين كلّ هؤلاء الممثلين الصغار الذين يشكلون الحشد البشري؟ إنهم يغيّرون وجوههم كلّ غمضة عين، لا يثبتون على الدور ذاته حتى يوماً واحداً. هذا أمر مفروغ منه ولا داعي للمزيد من التجربة. أما هو فيصبّ كلّ طموحه في تعنّت الكائن. يستمرّ على ماهيّته لا شهراً وحسب، لا سنةً وحسب، إنما طوال العمر. والشخصية، هذا إن كان لأحدهم شخصية، تحدّد الشكل. ما فتئ طويلاً وهزيلاً مذ تسعفه الذاكرة. لا يعرف وجهه إلا لماماً ، وذلك من زجاج واجهات المكتبات. فهو لا يملك مرآة في البيت. لا مكان لمرآة في زحام الكتب. بيد أنه يعلم أن وجهه رقيق، حازم وبارز العظام. وهذا يكفيه.

بما أنه لا يستشعر أدنى رغبة في تملّي وجوه البشر، تظلّ عيناه في الأرض أو تمرّ نظراته السامية فوق رؤوسهم. له أن يكتفي بغريزته للاستدلال على مواقع المكتبات. في مقدرته أيضاً ما في مقدرة الخيول وهي تدور في الإسطبل. إنه يتمشّى ليأخذ جرعة من أنفاس الكتب الغريبة، فهي تغريه بالمقاومة، هي تنعشه قليلاً. أما في المكتبة الخاصة فتجري الأمور على أحسن حال. يمنح نفسه بين السابعة والثامنة جزءاً من الحرّيات التي تقوم عليها كلّ حياة الآخرين.

ورغم أنه يستمتع بهذه الفرصة إلا أنه يحافظ على الانضباط. تردّد قليلاً قبل تجاوز شارع مزدحم. لقد اعتاد أن يسير بخطوات وئيدة ومتناسقة،

t.me/yasmeenbook

وكي لا يتهوّر انتظر اللحظة الحاسمة. هنا هتف أحدهم لآخر: "هل لكم أن تدلّوني على شارع مُوت؟". لم يجاوب المسؤول. استغرب كين، فعلى الشارع العام غيرُه ممّن يلتزمون الصمت. أصغى إلى الحوار دون أن يرفع بصره. كيف سيتصرّف السائل إزاء هذا السكوت؟ صعّد هذا من درجة تهذيبه: "المعذرة، رجاء هل يمكن أن تدلّوني على شارع مُوت؟" إلا أن الظفر بالجواب ظل بعيد المنال. لم يردّ الآخر. "أعتقد أنكم لم تسمعوني، أودّ أن أعرف منكم معلومة. هل يسمح لكم لطفكم وتشرحون لي كيف أستدلّ على شارع مُوت؟". استيقظ حب المعرفة في نفس كين، فهو لا يعرف الفضول، وصمّم على النظر إلى الصامت شرط أن يلبث هذا على صمته. لا شك أن الرجل غارق في أفكاره ويتجنّب أيَّ قطعٍ لسلسلتها. لم يردّ. غبطه كين. شخصية حقيقية تتحدّى المصادفة بين الآلاف العابرة. صرخ الأول: "هل أنتم أطرش؟" فكّر كين، الآن سيردّ الآخر وبدأ يفقد فرحته بمواليه. من ذا يتحكّم بلسانه حين يُهان؟ اتجه صوب الشارع، فقد حانت لحظة العبور. تأنّى مذهولاً باستمرار الصمت. لم يردّ الآخر بعد. المفترض أن يندفع في سورة غضب. توقّع كين شجاراً. إذا برهن الآخر على أنه عادي، يظل كين ما يظنه عن نفسه، الشخصية الحقيقية الوحيدة على الشارع دون منازع. تفكر أن يلقي نظرة على المشهد الذي يجري على يمينه، حيث يجيش الأول غضباً: "أنتم عديم الذوق. سألتكم بكل تهذيب. ما الذي تتصوّرونه؟ أيّها الفظّ، هل أنتم أخرس؟!" ثابر الآخر على صمته. "يجب أن تعتذروا لي! أبصق على شارع مُوت. يستطيع أيٌّ كان أن يدلني عليه. لكن أنتم ستعتذرون لي. هل تسمعون؟!" وذاك لم يسمع. لهذا ارتفعت منزلته في نظر المُصغي. "سأسلّمكم للشرطة. هل تعرفون من أكون. أيّها الهيكل العظمي؟! وهذا يسمّي نفسه مثقفاً. من أين أتيتم بثيابكم الرثة؟ من مكتب الرهنيات؟ هكذا تبدون. وماذا تحملون تحت ذراعكم؟ سأريكم الآن، تماسكوا! هل تعرفون ما أنتم؟!".

t.me/yasmeenbook

هنا شعر كين بصدمة عنيفة. مدّ أحدهم يديه إلى حقيبته وجرّها. حرّر كين الكتب بجذبة، تتجاوز قواه المعتادة بكثير، من المخالب الغريبة، والتفت بحدّة نحو اليمين. تعقّبت أنظاره الحقيبة إلا أنها وقعت على رجل قصير وسمين يصرخ فيه محتدّاً: "قليل أدب، قليل أدب، قليل أدب!". الآخر، الصامت ذو الهيبة والشخصية، الذي يتحكّم بلسانه حتى في لحظات الغضب، كان كين ذاته. بكلّ أريحية أدار ظهره للكائن الأمي الذي يلوح بيديه. وبهذه السكّين الحادة شطر لغوه شطرين. لن يشعر بالإهانة من لغط وغدٍ سمين سرعان ما انقلب تهذيبه إلى وقاحة. على كل حال عبر الشارع بخطوات أسرع مما كان ينوي. على الرجل أن يتفادى الشجار بالأيدي إذا كان يحمل كتباً. وهو دائماً يحمل الكتب.

ثم إن الرجل غير ملزم بالخوض في غباء كلّ المارة. إن أخطر ما يهدّد العالِم هو التورّط في الأحاديث. يفضّل كين التعبير عن نفسه كتابةً لا شفاهة. يتقن عشرات اللغات الشرقية فضلاً عن عديد اللغات الغربية طبعاً. لا توجد ثقافة إنسانية إلا ونهل منها شيئاً. يعبّر عن أفكاره بالاقتباسات ويدبّج أبحاثه بعد تفكيرٍ ممضّ. يعود الفضل في تحقيق المئات من النصوص إليه. تعنّ له توليفات لا حصر لها في المواقع المتضرّرة أو الفاسدة من المخطوطات الصينية، الهندية، اليابانية المغرقة في القدم. يحسده الآخرون على هذا، وعليه هو أن يتّقي التفريط. لا يدلي برأي عن جملة، كلمة أو حرف، إلا بعد أن يتحقّق من منعته، وذلك إثر حذر شديد وتوثّق لأشهُر وتريّث لغاية السأم. وهو أشدّ النقّاد صرامةً لنفسه. لقد جلبت له أبحاثه القليلة عدداً، لكنْ كلٌّ منها أساس راسخ لمئات غيرها، لقبَ المعلّم الأول في زمنه في الصينيات. يعرف المتخصّصون أبحاثه لدرجة حفظها غيباً. كلّ جملة دوّنها تعتبر حكماً فصلاً ولازماً. يلجؤون إليه في المسائل المتنازع عليها، لأنه المرجعية العليا في التخصصات الفرعية أيضاً. لا يشرّف إلا قلةً بالكتابة إليهم. لكن إن اصطفى أحدهم، تلقّى هذا

t.me/yasmeenbook

في رسالة واحدة اقتراحات ومحفّزات تكفيه سنوات طوالاً لإنجاز أبحاث لا تُدحض نتائجها من وجهة نظر المرسِل. لا يتواصل مع أحد شخصياً. يرفض جميع الدعوات. كلما فرغ كرسي أستاذية في كليات الألسنيات الشرقية يقترحونه عليه. وهو يرفض بأدب مُهين.

يكتب لهم إنه ليس بالخطيب المفوّه، ويعتبر التعويض المادي عن عمله امتهاناً له. وحسب رأيه المتواضع، يجب أن يشغل كراسي الأستاذية في الجامعات أولئك المبسِّطون، غير المنتجين، الذين يكلَّفون بالتدريس في المدارس المتوسطة، كي يتفرّغ البحّاثة الأصلاء، المبدعون، لعملهم الحقّ. ثم إن العقول المتوسطة ليست بنادرة. لن تحظى المحاضرات التي سيلقيها سوى بقلّة من السُّمّاعة، لأنه سيفرض عليهم أرفع المتطلّبات، ويرجّح أنه لن ينجح أيٌّ منهم في الامتحانات. سيبذل كل ما وسعه كي يرسب الشباب الأغرار إلى أن يبلغوا الثلاثين من العمر وسيتعلمون من ثم نزراً يسيراً، ولو بشكل عابر، سواء من الملل أو لبلوغهم الرشد. إن مجرد قبول أناس لم تختبر ذاكرتهم بعناية فائقة في قاعة المحاضرات يثير ريبته وعديم الجدوى في نظره. لا شك أنّ عشرة طلاب يُصطفَون بعد إخضاعهم لأصعب اختبارات القبول، شرط أن يختلوا بأنفسهم، سينجزون أكثر مما لو اختلطوا بمئة من أولئك الكسالى الدارجين في حرم الجامعات، الذين يقضون الوقت في تجرّع الجعة. ولهذا فإن ارتيابه ذو طبيعة جادّة ومبدئية. وعليه يرجو مجلس الجامعة ألا يعود مرة أخرى إلى الاقتراح الذي ينحو نحو التكريم، بيد أنه غير مشرّف في الحقيقة.

كان كين موضوع الأحاديث في المؤتمرات العلمية حيث يجزل المشاركون في السمر. يجتمع السادة مرّة كلّ عدّة أعوام، هم الذين يقضون حياتهم في دعة، تلك الفئران المذعورة قصيرة النظر، ليسرفوا في الحديث قليلاً. يتبادلون التحيات، يدسّون رؤوساً غير متجانسة معاً، يتهامسون دون أن يقولوا شيئاً ويرفعون الأنخاب في المآدب بخراقة. بأذهان ممسوسة

t.me/yasmeenbook

وقلوب واجفة يبرزون لوحات أسمائهم ويخفون نياشينهم. يستمرئون مدح الشيء ذاته بكل اللغات، يوفون نذورهم، ولو لم يذكروها، ويعقدون الرهانات في الاستراحات. هل سيحضر كين هذه المرة حقاً؟ يتحدثون عنه بتبجيل أكثر مما عن مجرّد زميل مشهور لأن سلوكه يثير الفضول. يعتبر زملاؤه كلَّ ما يفعله تعفّفاً وتأجيلاً، فهو لا يطالب بأكاليل المجد، يتحاشى لأكثر من عشر سنين جميع المآدب وحفلات الاستقبال، حيث سيحتفون به رغم صغر سنه، يزفّ إليهم خبر إلقاء محاضرة مهمّة قبل انعقاد كل مؤتمر، ثمّ يُنيب عنه من يتلوها باسمه. يهفون لأن يحضرَ ذات مرة، ربما هذه، على حين غرّة، وأن يتقبّلَ التصفيق الحاد، الناجم عن إحجامه الطويل، بسموّ، ويوافق على تعيينه رئيساً للمؤتمر بالتزكية، المنصبَ الملائم له، والذي يقبل به ضمناً بطريقته؛ بالغياب عنهم. بيد أن كين يدأب على أن يخيّب ظنونهم ولا يحضر. وبذلك يخسر السذّج منهم رهانهم.

كان يعمد لرفض الحضور في آخر لحظة. يرفق مخطوطات أبحاثه، المرسلة إلى من انتقاه، بعبارات ملؤها الهزء والازدراء. إذا عنّ لهم أن جاؤوا، علاوة على برنامج التسالي، على العمل، ما لا يأمله حقيقة لأجل الصالح العام، فإنه يرجو أن تُطرَح هذه الفكر ضئيلة الشأن، عصارة كدّ عامين، على المؤتمرين. كان يحفظ خلاصات أبحاثه الجديدة والمفاجئة لأجل هذه اللحظات، ويتتبّع مآلاتها والنقاشات المترتبة عليها من بعيد بريبة وعناية، كأن عليه أن يختبر دقّتها الحرفية. لا يعترض المؤتمرون على سخريته. يتلقّف ثمانون من مئة من الحضور آراءه بسرور. إنجازاته لا تُقدّر بثمن. يتمنّون له حياة مديدة وتكاد الأغلبية العظمى تموت جزعاً من موته.

نسي أولئك الذين التقوا به في سني شبابه ملامح وجهه. طالما رجوه إرسال صورة شخصية، فيردّ بأنه لا يملكها ولا ينوي امتلاكها في المستقبل. وكلا القولين صحيح. بيد أنه امتثل طوعاً لامتيازٍ آخر. فقد عهد في الثلاثين من عمره بجمجمته، بما فيها، إلى معهد دراسات الدماغ دون أن يكتب

t.me/yasmeenbook

وصية. علّل خطوته هذه بالمنفعة التي قد يجنونها إذا فسّروا ذاكرته الخارقة حقاً إما ببنية استثنائية أو وزن أكبر من الطبيعي لدماغه. كتب إلى مدير المعهد، رغم أنه لا يؤمن أن العبقرية والذاكرة صنوان كما تنحو الآراء الحديثة، وهو بذاته ليس أقل شأناً من عبقري، إلا أن نكرانَ فضل ذاكرته المهيبة على إنجازاته العلمية، جحودٌ بحقّ العلم. فهو يحمل في رأسه مكتبة ثانية، غنية ومحكمة كتلك الواقعية التي يقرظها الجميع، كما يصل إلى أسماعه. يجلس إلى طاولة المكتب، يخطط لأطروحات يناقش أدقّ جزئياتها دون أن يعود إلى مرجع واحد، طبعاً خلا المراجع الموجودة في رأسه. من المؤكد أنه يتحقق تالياً من الاقتباسات والمصادر في المراجع الواقعية أيضاً، لكنه يفعل هذا من باب المعايرة والضبط، ليس غير. لا يتذكر قطّ أيَّ خطأ في ذاكرته. حتى أحلامه ذاتها تتمتع بوضوح أكبر مما لدى أغلب الناس. كل الأوهام الباهتة، الشاحبة، المبهمة، غريبة على الأحلام التي أخذها بعين الاعتبار حتى يومه. لم يحدث أن قلب الليل كيانه رأساً على عقب. الأصوات التي يسمعها ذات مصدر طبيعي، الأحاديث التي يخوضها تظل حصيفة وكل ما يجري يحتفظ بمعناه. إن دراسة الرابط المحتمل بين ذاكرته المدهشة وأحلامه الواضحة ليس من اختصاصه، لكنه يشير إليه بكل تواضع راجياً ألا يظنوا أن الانطباعات الشخصية، التي أباحها لنفسه في الرسالة، علامة على العجرفة أو الهراء.

استعاد كين عدّة وقائع أخرى من حياته، تسلّط الضوء الصحيح على شخصه الانعزالي، النادر الكلام والنافر عن كلّ زهو. غير أن تبرّمه بالرجل السفيه والفاجر، الذي سأله عن شارع ما ثم شتمه، تعاظم بين الفينة والأخرى. فكّر، إذاً ليس باليد حيلة، وصل إلى مدخل بناية، تطلّع حوله، لا أحد يراقبه، وجرّ دفتراً طويلاً ورفيعاً من الحقيبة كُتِب على غلافه بحروف بارزة: حماقات. للحظة توقفت عيناه على العنوان، قلب الصفحات، ذلك لأن أكثر من نصف الدفتر ملآن. فهو يسجل فيه كل ما يريد نسيانه.

t.me/yasmeenbook

يبدأ بالتاريخ، الساعة، المكان، تليها المناسبة التي تصوّر غباء البشرية. يختم التدوينة باقتباس تطبيقي مناسب. لا يقرأ مجموعة الحماقات، بل يكتفي بنظرة واحدة إلى الغلاف. كان يفكر بنشرها في خريف العمر بعنوان: "جولات عالم صينيات".

استلّ قلم رصاص مبريّاً جيداً وكتب على أول صفحة فارغة: "23 أيلول، الساعة الثامنة إلا ربعاً. على شارع مُوت صادفني رجل وسألني عن شارع مُوت. التزمت الصمت كي لا أحرجه. لكنه عاود السؤال المرة تلو الأخرى. كان مهذّباً. بغتةً وقع بصره على لوحة الشارع واكتشف غباءه. بدل أن ينصرف بكل سرعة، كما كنت سأفعل أنا لو كنت مكانه، استسلم لهياجٍ فاحش وسبّني أقذع السباب. لولا الإشفاق عليه، لوفرت على نفسي ذلك المشهد المؤذي. من منّا الأغبى؟!".

برهن بالجملة الأخيرة على أنه لا يغفل حتى ذاته. كان باغياً على الجميع. راضياً أعاد الدفتر إلى الحقيبة ونسي الرجل من فوره. كانت الكتب قد صارت في وضعية غير مريحة أثناء الكتابة. رتّبها بالصورة الأمثل. ارتعب على زاوية الشارع التالي من كلب ضخم يفتح طريقه بثقةٍ وسرعة، ويجرّ خلفه ضريراً مربوطاً إلى سَير مشدود، تتضح علامات عجزه، إذا صرفنا النظر عن الكلب، من العصا البيضاء في يمناه. تملّى المارّة مغرمين بالكلب، حتى أولئك العجالى ممّن ليس لديهم وقت للضرير. نحّاهم الكلب بخطم صبور. أحبه الجميع لأنه جميل وقوي. فجأة رفع الضرير قبّعته عن رأسه ومدّها مع عصاه نحو الناس متوسّلاً: "لأكل الكلب". تهاطلت عليه القطع النقدية. ازدحم حولهما الناس وسط الشارع. توقف المرور ولحسن الحظ لم يكن الشرطي على الزاوية لينظّمه. حدّق كين في المتسول عن قرب. كانت ثيابه رثّة تدلّ على الفقر المدقع، ووجهه بارز العلامات. ولأنه لا يكفّ عن تحريك عضلات عينيه، فيغمز، يرفع حاجبيه عالياً ويقطب جبينه، شكّ كين في أمره وقرّر أن يعتبره محتالاً. لاح صبي في حوالي الثانية عشرة من

t.me/yasmeenbook

العمر، أزاح الكلب جانباً وقذف في القبعة زرّاً ثقيلاً. تجمدت أسارير الضرير وشكر الصبي بلطف أبلغ قليلاً مما قبل. كان الصوت الذي أصدره الزرّ يشبه صوت القطعة الذهبية. شعر كين بطعنة في القلب. شدّ الصبيَّ من شعره المشعث وانهال عليه ضرباً بالحقيبة لأنه معاق، بينما يهتف فيه: "استحِ على حالك من خداع ضريرا!". بعد أن تمّ الأمر تذكّر محتويات الحقيبة: الكتب. فزع، فلم يسبق له أن تجاسر على تقديم قربان مثل هذا. فرّ الصبي باكياً. وكي يتراجع منسوب الشفقة إلى الدرجة العادية، الأعمق، أفرغ كين كلّ قطعه النقدية في قبعة الضرير. أومأ المحيطون بإعجاب. فأحسّ أنه أكثر حذراً وتفاهة. جرّ الكلب سيره. وعقب هذا، حين ظهر الشرطي، كان القائد والمقود قد غابا عن الأنظار.

أقسم كين أن يقتل نفسه حالما هدّده خطر العمى. يباغته هذا الشعور كلّما صادف ضريراً. يحبّ الخُرس، الطرشان. المشلولون وغيرهم من الكسحاء سيّان لديه. أما العميان فيقضّون مضجعه. لا يفهم لماذا لا ينهون حيواتهم. فقدراتهم على القراءة محصورة حتى لو أتقنوا طريقة برايل للمكفوفين. في الثمانين من عمره اكتشف إراتوستثيس، أعظم أمناء مكتبة الإسكندرية، العالِم الكوني من القرن الثالث قبل الميلاد، القيّم على أكثر من نصف مليون لفافة، اكتشافاً فظيعاً. بدأت عيناه تخذلانه. ما زال يرى لكنّه لا يستطيع القراءة بعد. كان غيره سينتظر العمى النهائي. أما هو فقد اعتبر الفراق عن الكتب عمىً كفاية. تضرّع إليه الأصدقاء والتلاميذ ليبقى معهم. ابتسم ابتسامة الحكيم، شكرهم، وجوّع نفسه عدة أيام حتى مات. وكين الصغير، الذي لا يتجاوز تعداد كتبه 25 ألف مجلّد، سيقتدي بهذا المثل الأعظم إذا آن الأوان.

غذّ السير في المسافة المتبقّية إلى المنزل. لا بدّ أن الساعة بلغت الثامنة وفي تمام الثامنة يبدأ العمل. يسبّب له عدمُ الانضباط الغثيان. تحسّس عينيه على الطريق. ما زالتا سليمتين، في منأى عن الخطر.

t.me/yasmeenbook

كانت مكتبته في الطابق الرابع والأخير من المنزل رقم 24 في شارع أرليش. باب الشقة محصّن بثلاثة أقفال معقّدة. فتحها جميعاً، تجاوز الممرّ، الذي لا يوجد فيه سوى مشجب، وولج المكتب. بحيطةٍ وضع الحقيبة على كرسيّ بمساند، ثم ذرع الممرّ المستقيم بين الحجرات الأربع، العالية والواسعة التي تؤلف مكتبته ذهاباً وإياباً عدة مرّات. جميع الجدران مغطّاة بالكتب حتى السقف. برويّة رفع ناظريه إليها. وضع في السقف كُوىً. وهو فخور بالضوء الساقط من الأعلى. سُدَّت النوافذ في الجدران بعد صراع مرير مع مالك البناية، وبذلك كسب جداراً رابعاً في كل غرفة، أي مجالاً أرحب للمزيد من الكتب. ثم إن ضوءاً ينير جميع الرفوف إنارة متساوية أعدل وأنسب لعلاقته مع الكتب. مع سدّ النوافذ في الجدران زالت غواية مراقبة مجريات الشارع، هذه العادة الذميمة التي تُخلق مع الإنسان كما يبدو وتنهب الوقت.

يسبّح يومياً، قبل أن يجلس إلى طاولة المكتب، بحمد المقدمات والنتائج التي ساهمت في تحقيق أقصى أمانيه، امتلاك مكتبة غنية، مرتبة، مغلقة من جميع الجهات، لا تلهيه فيها عن أفكاره الرصينة أيُّ قطعة أثاث فائضة أو أيّ إنسان فائض عن الحاجة.

جعل من الغرفة الأولى مكتباً، كل أثاثه طاولة عتيقة ضخمة، كرسيّ بمساند وآخر في الزاوية المقابلة، علاوة على أريكة ضيقة يصبر عليها لأنه ينام عليها. على الحائط سلّم متنقّل، وهو أهمّ من الأريكة، ويتنقّل خلال النهار من غرفة إلى أخرى. لا كرسيّ يشوّه فراغ الحجرات الأخرى. لا طاولة، لا خزانة، لا موقد قد يفسد رتابة الرفوف الملونة. يدفئ سجّادٌ جميل وثقيل، مفروش على كامل الأرضية، الظلامَ القاحل الذي يوحّد الحجرات الأربع في قاعة شاهقة عن طريق الأبواب المشرعة على وسعها.

مشية كين صلبة، قوية. يمشي على السجاد بثقة أكثر مسروراً بأن خطواته لا تصدر أدنى رجع. بل لو سار على السجاد فيلٌ، فلن يتمكن من

t.me/yasmeenbook

إصدار صوت من الأرضية. ولهذا يقدّر السجاد عالياً. توثّق من بقاء الكتب على النسق الذي اضطرّ لتركها عليه قبل ساعة. ثم بدأ بإفراغ الحقيبة من محتوياتها. اعتاد أن يضعها حين يدخل البيت على الكرسيّ أمام طاولة المكتب، كي لا ينساها قبل تفريغها ويبدأ العمل في تمام الساعة الثامنة. على السلّم وزّع الكتب على الرفوف الملائمة. ولأنه استعجل بسبب تأخره عن موعد العمل، سقط آخر مجلّد، رغم حذره، من الرفّ الثالث على الأرض مع أنه لا يحتاج إلى السلّم للوصول إليه. وهذا كان مونغ ذاته، مونغ الذي يحبه أكثر من الجميع. صرخ: "يا غبيّ، يا بربري، يا أمّيّ!". رفعه بحنوّ وأسرع نحو الباب. تذكّر أمراً مهمّاً قبل أن يصل. عاد ودفع السلّم بأضعف صوت ممكن عن الجدار المقابل إلى مكان الحادثة. وضع مونغ تسه بكلتا يديه على السجّاد عند قدمَي السلّم. له الآن أن يذهب إلى الباب. فتحه ونادى: "أفضل خرقة مسح، من فضلكم!".

بعد برهة نقرت مدبّرة المنزل على الباب الموارب. لم يردّ. دسّت رأسها في الباب في أناة ورهبة وسألت:

"هل صار شيء؟".

"لا، أعطونيها فقط!".

سمعت في صوته شكوى رغم أنفه. وأبى فضولها إلا أن تتطفّل. "لكن، رجاء يا بروفسور!"، قالت بنبرة فيها تأنيب، دلفت الغرفة وأدركت من النظرة الأولى أيَّ مصيبة حلّت على رأسه. انزلقت نحو الكتاب. لا تشاهَد قدماها تحت التنورة الزرقاء المنشّاة، التي تصل حتى السجاد. رأسها مائل، أذناها عريضتان، مسطّحتان وبارزتان، وبما أن اليمنى تلامس الكتف التي تخفيها جزئياً، تبدو اليسرى أكبر. يتراقص رأسها أثناء الكلام والسير، بينما يؤلف كتفاها الإيقاع. انحنت، رفعت الكتاب ومرّرت عليه الخرقة عشرات

t.me/yasmeenbook

المرات بتأنٍّ وإتقان. لم يعنّ لكين أن يستبقيها، فهو يكره المجاملات. ظل جانبها يراقب ما إن كانت ستؤدي واجبها بإخلاص.

"رجاء، يصير هذا بسرعة إذا كان الواحد على السلّم". ثم قدمت له الكتاب كصحن مُسِح عنه الغبار. بل ودّت أن تصل معه أطراف الحديث، لكن، هيهات! اقتصر على قول "شكراً" وأدار لها ظهره. فهمت ومضت. حين أمسكت مقبض الباب، التفت إليها على حين غرّة وسألها بلطف مصطنع: "لا بد أن هذا يحدث لكم كثيراً؟!".

فهمت مغزى سؤاله وامتعضت، حقيقة: "لكن، رجاء، يا بروفسور!". كانت "رجاء" هذه تخز كشوكة حادّة من خلال كلامها المتزلّف. فكّر أنها ستستقيل من فورها واستدرك مخفّفاً حدّته: "لا أقصد سوءاً. لا بد أنكم تعرفون قيمة الكنوز الموجودة في هذه المكتبة".

باغتتها هذه الجملة الحميمية. احتارت في الردّ وغادرت الغرفة راضية. راح يقرّع نفسه بعد أن خرجت. لقد تحدث عن كتبه كأقذر تاجر. وإلا كيف له أن يعلّم شخصاً مثلها أن تعامل الكتب باحترام؟ فهي لا تعرف قيمتها الحقيقية. لا بد أنها فهمت أنه يضارب بالمكتبة. هكذا هم البشر. هكذا هم البشر.

بعد انحناءة عفوية تجاه المجلّدات اليابانية، جلس أخيراً إلى طاولة المكتب.

t.me/yasmeenbook

السرّ

قبل ثماني سنوات نشر كين الإعلان التالي في الصحيفة: "عالِم مكتبته بالغة الحجم يبحث عن مدبّرة منزل تعرف إحساس المسؤولية. يتقدم للوظيفة فقط أشخاص يحترمون ذواتهم. الأوباش يتدحرجون على الدرج. الأجر أمر ثانوي".

آنذاك كانت تيريزه كرومبهولتس تشغل وظيفة جيدة ومريحة نوعاً ما. قبل أن تعدّ الفطور لمخدميها، تقرأ يومياً صفحة الإعلانات في الجريدة المحلية بتعمّق، لتطّلع على ما يجري حولها في العالم الواسع. ولا تفكر أن تقضي حياتها عند هذه العائلة العادية. ما زالت شابّة لم تبلغ الثامنة والأربعين من العمر، وتتمنى لو تنتقل للعمل لدى رجل أعزب، حيث يمكن تقاسم الأشياء بصورة أفضل. ثم إن الحياة مع النساء لا تطاق. لكنها بجميع الأحوال ستلتزم الحذر من فقدان وظيفتها الآمنة من حيث لا تدري، وستبقى حتى تتأكد مع من ستتعامل. فهي قد اختبرت الأكاذيب المنشورة في الجرائد، وجبالَ الذهب التي توعد بها النساء الشريفات. وما إن تحلّ إحداهن في الدار حتى تُغتصَب. تكافح منذ ثلاثة وثلاثين عاماً وحيدةً في هذا العالم دون أن يحدث لها مثل هذا. ولن يحدث، لأنها تعرف كيف تصون نفسها.

شغل الإعلان كامل انتباهها هذه المرة. توقفت عيناها عند "الأجر أمر ثانوي"، وقرأت الجمل البارزة بالخط العريض من البداية إلى النهاية ومن النهاية إلى البداية عدّة مرّات. أبهرتها نبرة الإعلان وتوسّمت فيه رجلاً.

t.me/yasmeenbook

استمرأت نفسها شخصية محترمة ورأت الأوباش يتدحرجون على الدرج، وسُرّت برؤيتهم أيّما سرور. لم يطرأ في بالها للحظة أن تعامَل معاملة الأوباش.

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي وقفت مبكرة جداً بباب كين، الذي سمح لها بالدخول إلى الممرّ، وبادر يشرح من فوره: "يمُنع منعاً باتاً دخول أيّ شخص غريب إلى شقتي. هل أنتم قادرون على ضمان أمن الكتب؟!"

تملّى فيها مرتاباً. لم يرغب في الخلاص إلى رأي نهائي قبل سماع جوابها. "لكن، رجاء، ما الذي تظنّونه؟!".

من خلال دهشتها بفظاظته أعطته جواباً لم يجد فيه ثغرة.

قال: "يجب أن تعلموا لماذا طردت مدبرة المنزل السابقة. لقد فُقِد كتاب من مكتبتي. أمرت بتفتيش كلّ جنبات الشقة لكنه لم يظهر. فوجدت نفسي مضطرّاً لطردها من فوري". سكت مستاءً ثم أردف متسائلاً: "تفهمون قصدي؟!" وكأنه يحمّل ذكاءها ما لا طاقة لها به.

ردّت ردّاً صاعقاً: "الترتيب ضروري". جرّدته من سلاحه. دعاها بحركة كريمة من يديه إلى المكتب. برهبة دخلت الغرفة الأولى وانتظرت.

قال بجفاء جازماً: "دائرة واجباتكم تنحصر في نفض الغبار عن غرفة واحدة يومياً من الأعلى للأسفل. في اليوم الرابع تنتهون. في الخامس تبدؤون من جديد بالأولى. هل تتولّون هذه المسؤولية؟"

"أنا بكامل حرّيتي".

خرج، فتح باب الشقة وقال: "إلى اللقاء. اليوم تبدئين العمل".

توقفت على الدرج متردّدة. لم يذكر الأجر بكلمة. المفترض أن تسأله قبل أن تترك وظيفتها. لا، يفضّل ألا تسأل، ربما كان السؤال غليظاً. وقد

t.me/yasmeenbook

يعطيها أكثر إذا لم تسأل. لكن بعد صراع بين قوتين، الحذر والطمع، فازت قوة ثالثة هي الفضول.

"نعم، وكيف هو الأجر؟" مضطربة من الحماقة التي ارتكبتها، نسيت أن تقدّم سؤالها بكلمة رجاء.

"كما تريدون"، قال بلا مبالاة وصفق باب الشقة.

أعلنت لمخدّميها العاديين، الذين كانوا يعتمدون عليها اعتمادهم على قطعة أثاث قائمة في البيت منذ اثنتي عشرة سنة، لهول صدمتهم، أنها لم تعد تتحمّل العمل في تدبير المنزل، وتفضّل كسب الرزق في الشارع على هذه الحياة المريرة. لم يُحِدْها عن قرارها أيُّ إغراء. قالت إنها ستذهب من فورها، وإذا كانت قد خدمتهم اثنتي عشرة سنة، فيحقّ لها بعض الاستثناءات من شروط الاستقالة. انتهزت العائلة الساذجة الفرصة لتوفير الراتب حتى العشرين من الشهر، ورفضت دفعه لأن الموظفة لم تلتزم بأجل العقد. فكّرت تيريزه: إذاً، عليه هو أن يعوّضني، ومضت.

أدّت واجباتها إزاء الكتب بما يرضي كين. اعترف بجميلها في سرّه، لكنه لم يجد نفسه ملزماً بالتصريح عن الشكر. وجبات الطعام جاهزة في مواعيدها. لا يعلم ما إن كان طبخها جيداً أم سيئاً، فالأمر سيّان لديه تماماً. أثناء تناول الطعام على طاولة المكتب كان ذهنه مشغولاً بأفكار أسمى. عموماً لا يعرف ما الذي يمضغه. يحفظ العالِم كامل وعيه للأفكار النبيلة فهي تتغذّى عليه، تحتاجه، لا تأتي دونه. أما المضغ والهضم فهي عمليات طبيعية لا تحتاج تفكيراً.

أضمرت تيريزه احتراماً معيّناً لعمله لأنه يدفع لها أجرها العالي بانتظام ولا يداهن أحداً، بل لا يتكلم حتى معها. كانت تشمئزّ منذ الطفولة من الطبائع الأنيسة، على غرار أمها. تلتزم بعملها بحرفية. لا تأخذ أكثر مما تستحقّ. ثم إن عملها منحها منذ بدايته الفرصة لحلّ لغز. الأمر الذي استحسنته.

t.me/yasmeenbook

كان البروفسور ينهض عن أريكة النوم في تمام الساعة السادسة. لا يستغرق الاغتسال واللبس طويلاً. مساءً، وقبل أن تلجأ إلى سريرها، تعدّ الأريكة وتدفع طاولة الاغتسال القائمة على عجلات إلى وسط المكتب، حيث سمح كين ببقائها ليلاً. تنصب تيريزه البارافان، المؤلف من أربعة جدران، رُسِم عليها من الخارج حروف عجيبة، بحيث تحجب عنه المنظر القبيح. كين لا يحب الأثاث. اخترع "عربة الغسيل"، كما يسمّيها، كي تختفي الأشياء المقزّزة من فورها حالما انتفت الحاجة إليها. يفتح الباب في السادسة والربع ويقذف العربة بكل ما فيه من طاقة. تحتفظ العربة بقوة الدفع طوال الممرّ حتى ترتطم بالجدار جانب باب المطبخ. في هذه الأثناء تنتظر تيريزه في المطبخ، فحجرتها الصغيرة ملاصقة له. تفتح الباب وتصيح: "فِقتم؟" لا يردّ ويسدّ الباب. يبقى محتجباً حتى الساعة السابعة. لا أحد على وجه البسيطة يعلم ما الذي يفعله طوال الوقت حتى السابعة. أما أوقاته الأخرى فيقضيها في الكتابة جالساً إلى طاولة مكتبه.

كانت أدراج الطاولة القاتمة والعملاقة محشورة على آخرها بالمخطوطات، وتتكدّس فوقها أكوام من الكتب. تصدر صفيراً حادّاً أثناء جرّ أحد الأدراج بحذر. رغم أنه يبغض الضجيج، حافظ كين على هذه القطعة الأزلية الموروثة، كي تتنبّه مدبرة المنزل فوراً إلى اللصوص حال لم يكن هو في البيت. لأن البوم غريب الأطوار يعمد للبحث عن النقود قبل أن يمدّ يد السرقة إلى الكتب. شرح لتيريزه آليات الطاولة العزيزة بثلاث جمل مقتضبة ومنهكة. وركّز بإشارة ذات خبث على استحالة إيقاف الصفير حتى عليه. كانت تسمعه في النهار كلّما جرّ كين أحد الأدراج بحثاً عن مخطوط وتستغرب من صبره على هذا الضجيج دون غيره. ليلاً يرتب جميع أوراقه في الأدراج. تلتزم الطاولة الصمت حتى الثامنة صباحاً. وحين ترتبها تيريزه لا تجد عليها سوى الكتب والأوراق الصفراء. فشلت محاولاتها في العثور على أوراق جديدة مكتوبة

t.me/yasmeenbook

بخط يده. من الواضح أنه لا يعمل بين السادسة والربع والسابعة. طوال ثلاثة أرباع الساعة.

هل يصلي؟ لا، لا تعتقد. ومن يصلي؟ هي لا تؤمن بالصلوات. لا تذهب إلى الكنيسة. ما إن ترى الرعاع الذين يدخلون الكنائس حتى تفهم لماذا. هناك يتجمع فعلاً صنف حلو. كما أنها تقرف من التسول الأبدي. تضطرّ لمنح الهبة لأن الجميع يتطلعون فيك. ولا أحد يعرف إلى أين تذهب النقود. الصلاة في البيت! لماذا؟ إنها مضيعة للوقت الغالي. لا يحتاج إليها أولاد الأكابر. وهي بنت أكابر أصلاً. الآخرون يكتفون بالصلاة. رغم هذا تتحرّق لتعرف ما الذي يجري في تلك الغرفة بين السادسة والربع والسابعة. ليست فضولية ولن يستطيع أحد اتهامها بهذا. بل لا تتدخل بشؤون الغرباء. نساء اليوم هكذا، يدسسن أنوفهن في كل شيء. هي تكتفي بأداء واجباتها. الأسعار ترتفع يوماً بعد يوم. سعر البطاطا تضاعف. تدبير المنزل في ظل هذه الأسعار يتطلب قدرات هائلة. يسدّ الأبواب الأربعة وإلا لاستطاعت التلصص عليه مرّة من الغرفة الجانبية. هذا السيد الذي يتدبّر شؤون الوقت أحسن تدبير، ولا يهدر دقيقة واحدة دون فائدة إلا هنا.

كانت تيريزه تفتش خلال جولاته الصباحية الغرف التي ولّيت عليها. تكهّنت بوجود آثار جريمة ما، دون أن تحدّد طبيعتها نهائياً. في البدء طافت بمخيّلتها جثّة امرأة في حقيبة. لكن بما أن لا مكان لها تحت السجاد، فقد أقصت الجثة المقطّعة بشناعة عن ذهنها. لم تدعم الخزن خيالها ولكم تمنّت ذلك. على كل جدار خزانة. بالتالي، لا بد أن الجثة مخبّأة وراء كتاب. وإلا أين تكون؟ ربما أدت واجبها على أكمل وجه إذا اكتفت بمسح الغبار عن ظهور الكتب، لكن السرّ الرذيل الذي تبحث عن آثاره يرغمها على التنقيب وراء الكتب أيضاً. تخرج كلّ كتاب، تنقر عليه، ربما كان مجوّفاً، تمدّ الأصابع الثخينة والخرقاء إلى ظهر الخزانة، تتلمّسه، تسحب أصابعها، تهزّ رأسها مستاءة. إلا أن هذا الشغف لم يستدرجها لتعمل دقيقة إضافية

t.me/yasmeenbook

خارج الأوقات المحدّدة. تكون في المطبخ قبل أن يفتح كين الباب بخمس دقائق. تؤدي واجباتها من قطاع إلى قطاع دون تسرّع، دون تراخٍ ودون أن تفقد الأمل نهائياً.

أحجمت طوال أشهر من البحث المضني عن وضع أجرها في صندوق التوفير. لم تلمسه، فمن يعرف من أين تأتي هذه الأموال. كانت تدسّ الأوراق المالية كما تستلمها في مغلف نظيف اشترته قبل عشرين عاماً بملحقاته من ورق رسائل ظل بِكراً. بعد تقليب الفكر تخفي المغلّف في حقيبة تحوي جهاز عرسها المؤلف من كثير من القطع الجميلة المنتقاة، التي اشترتها بالغالي خلال عقود.

أدركت شيئاً فشيئاً أنها لن تكشف السرّ بسهولة. لا بأس، لديها ما يكفي من الوقت ويمكنها الانتظار. موقفها غير محرج وإذا تبيّن شيء ما فليس الذنب ذنبها. فتّشت كل بقعة من بقاع المكتبة. لو أنها تعرف شخصاً موثوقاً عند الشرطة، إنساناً مؤتمناً ومحترماً، يأخذ وظيفتها الممتازة بعين الاعتبار، لاستطاعت أن تلفت انتباهه إلى الموضوع. رجاء، إنها تتحمل فعلاً الكثير، لكن من الصعب أن لا يكون لديها شخص وحيد تعتمد عليه في هذه الحياة. وبماذا ينشغل أولاد اليوم؟ بالرقص، بالسباحة، بالتسلية، نعم، لكن لا تجد أحداً يهتم بالجد والعمل. ربّ عملها، هذا الإنسان الجاد، له أيضاً جوانبه المعتمة. لا يدخل السرير قبل الثانية عشرة ليلاً. لكن أفضل أوقات النوم هي قبل منتصف الليل. ابن الأكابر يدخل سريره في التاسعة. وبجميع الأحوال لا يحدث شيء فذّ بعدها.

بهذا تضاءلت الجريمة إلى سرّ. التبس الإثم برداء سميك وقوي من الازدراء. لكنها لبثت على فضولها، متحفّزة أبداً بين السادسة والربع والسابعة. وضعت في حسبانها احتمالات نادرة، لكنها ذات طبيعة إنسانية. ربما أرغمته تشنّجات بطنه ذات مرة على الخروج. ستسرع وتسأله ما إن كان بحاجة إلى شيء ما. التشنجات لا تزول هكذا ببساطة. وخلال دقائق

t.me/yasmeenbook

ستفهم تماماً ما العمل. لكن نمط الحياة المعتدل والعقلاني الذي يتبعه كين كان صحّياً. لم يشتكِ من آلام البطن مرة واحدة خلال الأعوام الثمانية من خدمة تيريزه في المنزل.

قبل الظهر، وبعد اللقاء مع الضرير وكلبه، حدث أن احتاج كين إلى مقالات مختلفة مغرقة في القدم. نقب في الأدراج وخلط محتوياتها. لقد حشر فيها كمّاً هائلاً من الأوراق. كان معنيّاً بالحفاظ على كلّ ما يتعلق بالعمل من مسودات، تعديلات ونسخ. وجد وريقات عتيقة تجاوزها الزمن ودحض محتواها. يرجع تاريخ أرشيفه إلى أيام الجامعة. يمضي ساعات في البحث عن تفاهة يعرفها غيباً لمجرد التحقّق والإحكام. يقرأ ثلاثين صفحة لا يحتاج منها سوى جملة واحدة. وقعت بين يديه أشياء سخيفة ولّى زمنها. لعنها جميعاً، ما فائدة الاحتفاظ بها. لا يفوّت أيّ صفحة مطبوعة أو مكتوبة بخط اليد وقعت عليها عينه ذات مرة. يحجم غيره عن مطالعة تلك السفاسف، بينما يتجشّم هو عذاب قراءتها من أول كلمة إلى آخرها. لقد شحب الحبر ويصعب عليه تتبّع الآثار الباهتة. تذكّر الضرير الذي صادفه في الشارع. إنه يعبث بعينيه وكأنهما أبديّتان. عوض أن يحصر مجهودهما يزيده عبئاً من شهر إلى آخر. تكلفه كلّ صفحة ينهيها بعضاً من قوة البصر. حياة الكلاب قصيرة، الكلاب لا تقرأ ولذلك تساعد المكفوفين بعيونها. لا تتجاوز قيمة إنسان يفسد عينيه قيمة كلب الأعمى.

قرّر كين أن يفرغ مكتبته من القمامة. لكن صباحاً، فور استيقاظه، فهو الآن على رأس العمل.

في تمام الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، وبينما هو في منتصف حلمه، هبّ عن الأريكة، هجم على الطاولة العملاقة الطافحة وسحب جميع الأدراج. انطلق الصفير، تدحرج عبر المكتبة وتفاقم مقطّعاً نياط القلب. كأن لكل درج حنجرة خاصة تطلب النجدة بصوت أعلى من جيرانه. أحدهم يستولي عليها، يعذّبها، يسطو على حياتها. إنها لا تعرف

t.me/yasmeenbook

من يتجرّأ على حرمتها. لا عيون لها، عضوها الوحيد هو الصفير الحاد. فرز كين الأوراق. استغرق وقتاً طويلاً. تغاضى عن الضجيج، فهو ينهي كل ما قد بدأه. حمل ركاماً من سقط المتاع على ذراعيه النحيلتين إلى الغرفة الرابعة. هنا، بعيداً عن الصفير، مزّقها إرباً إرباً تحت سيل من اللعنات. نقر أحدهم الباب، صرّ على أسنانه. نقر الباب من جديد، خبط الأرض بقدمه. تحول النقر إلى طرقٍ شديد. لعن ونطق بالأمر: "هدوء!". يفضّل أن يكون وحده يستمتع بالحدث الجلل. إلا أن مخطوطاته آلمته. السخط وحده حثّه على إعدامها. أخيراً انتصب مثل لقلقٍ وحيد، طويل، وسط جبل من قصاصات الورق، التي تلمّسها بخشوعٍ وكرب، وشعر بالأسى عليها كأن بها روحاً. كي لا يعمّق جراحها أكثر رفع ساقه فوقها باحتراس. تنفَّس الصعداء عندما غادر المقبرة. وجد مدبّرة المنزل على الباب. أومأ إيماءة مرهقة إلى الركام وقال: "ارموه!". كانت الصفّارات ساكنة. عاد إلى طاولة المكتب وسدّ الأدراج. استأثرت هذه بالصمت. كان قد جرّها بقوة أكثر مما تحتمل ودمّر آليات الصفير.

حاولت تيريزه مرتديةً تنّورتها المنشّاة توّاً، والتي تنهي بها زينتها عادة، التوغّل في ساحة الوغى منذ بدء الجلبة. كادت تموت رعباً، ربطت التنّورة كيفما اتفق وانزلقت بسرعة إلى باب المكتب. شكت كالنّاي: "يا إلهي، ما الذي صار؟!" نقرت الباب متهيّبة ثم شدّت القرع. ولأنها لم تنل جواباً، حاولت فتح الباب عبثاً. انزلقت من بابٍ إلى آخر. سمعته يصيح هائجاً في آخر غرفة. هنا طرقت على الباب بكل عنفوان. صرخ حانقاً: "هدوء!". لا تعرف منه هذا الحنق. أنزلت يديها الخشنتين على التنّورة الصلبة في حال بين الاستسلام والاضطراب وتجمّدت كلعبة خشبية. همست: "ما لي حظّ، ما لي حظّاً!" وظلّت واقفة بحكم العادة حتى فتح الباب.

هي، البطيئة بطبعها، استوعبت منذ الوهلة الأولى أيّ فرصة سنحت لها. قالت بكثير من الجهد: "فوراً" وانزلقت إلى المطبخ. تذكّرت على

t.me/yasmeenbook

العتبة: "مصيبة، سيغلق الباب، ما الذي لا تفعله الطباع. سيصير الآن شيء ما، في آخر لحظة، هكذا نصيبي، ما لي حظ، ما لي حظّ!". وهذا ما تقوله لنفسها للمرة الأولى في الحياة، فهي تعتبر نفسها شخصاً سعيداً لأنها تستحقّ السعادة. راح رأسها يرتجّ من لوعة الخشوع. تسحّبت من جديد إلى الممرّ. انثنى جذعها أعمق. تذبذبت ساقاها قبل أن تجرؤا على التقدم. تموّجت التنورة المنشّاة كالصفيح. لو انزلقت كعادتها لكانت قد وصلت غايتها بهدوء أكثر، لكن هكذا طبعها، فالفرصة الاحتفالية تتطلب مسيراً احتفالياً. باب الغرفة مفتوح. ما زال الورق في وسطها. وضعت طوية السجاد الكثيف بين الباب وإطاره حتى لا يردّه الهواء. ثم رجعت إلى المطبخ وانتظرت، في يمناها الجاروف والمكنسة، حتى تسمع الهدير المعهود لعجلات عربة الاغتسال. هفت لتأخذها بنفسها من الغرفة، فقد طال الانتظار. وعندما اصطدمت العربة أخيراً بالجدار، نسيت ما حولها ونادت كعادتها: "فقتم؟". قذفت العربة إلى المطبخ وزحفت أعمق انحناءً مما قبل نحو المكتبة. ألقت المكنسة والجاروف على الأرض. انسلّت ببطء عبر الحجرات حتى عتبة غرفة نومه. كانت تتوقف بعد كلّ خطوة وترمي برأسها على الجهة الأخرى لتصغي بالأذن اليمنى التي لم تستهلك كثيراً. احتاجت عشر دقائق لتقطع ثلاثين متراً هي طول الممرّ. بدت لنفسها متهوّرة. تعاظم خوفها طرداً مع فضولها. كانت قد خططت لوقفتها في هذا الموقف آلاف المرات. استندت بكل قوة جسدها على إطار الباب. تذكرت التنورة المنشاة حديثاً بعد فوات الأوان. حاولت الإحاطة بالمشهد بعين واحدة، لكي تشعر بالأمان ما دامت العين الأخرى مترصدة. يجب ألا تُشاهَد، يجب ألا تفوّت المشهد. أرغمت ذراعها اليمنى، التي اعتادت أن تدسّها في خصرها ولا تكفّ عن محاولة الالتواء، على التزام الهدوء.

كان كين يتجول وديعاً أمام كتبه ويغمغم. الحقيبة الفارغة تحت إبطه. توقف. تملّى لحظة، جرّ السلم وصعد عليه. تناول كتاباً من أعلى رفّ.

t.me/yasmeenbook

تصفّحه ودسّه في الحقيبة. ما إن نزل على الأرض حتى ذرع المكان من جديد، تأمّل محتاراً، جرّ كتاباً لم يطاوعه، قطب جبينه وضربه بقوة حين نال منه أخيراً، ودسّه هو أيضاً في الحقيبة. اختار خمسة كتب. أربعة صغيرة وواحداً كبيراً. استعجل بغتةً. صعد السلم حاملاً الحقيبة الثقيلة إلى آخر درج. أعاد الكتاب الأول إلى مكانه. أعاقته ساقاه الطويلتان وكاد يسقط.

إذا سقط وحدث له مكروه، فقد انتهت حكاية الجريمة. ارتفعت ذراع تيريزه. لم تعد تتحكّم فيها، امتدّت إلى أذنها ونتفتها بقوة. بَحْلقت بكلتا العينين إلى السيد المعرّض للخطر. تنفّست الصعداء عندما حطّت قدماه على السجاد السميك. الكتب مجرّد خدعة، الآن ستظهر الحقيقة. تعرف تفاصيل المكتبة بدقة. الجريمة أمّ الاختراع. يوجد في الدنيا أفيون، يوجد مورفين، يوجد كوكائين، من يستطيع ملاحقة كلّ هذا؟ لن تسمح لأحد بخداعها. السر وراء الكتب. لماذا مثلاً لا يسير في الغرفة بالعرض أبداً؟ يكون واقفاً عند السلم وهو يريد شيئاً من الرف المقابل. يستطيع أن يأخذه بكل بساطة، لكن لا، يسير دوماً بجانب الحائط. يطيل طريقه متأبطاً الحقيبة الثقيلة. السرّ وراء الكتب. القاتل يحوم عادة حول موقع الجريمة. الحقيبة الآن مليئة. لا تسع أكثر. إنها تعرفها حقّ المعرفة فهي تنفضها يومياً. سيصير الآن شيء ما. ما صارت الساعة سبعة بعد؟ سيخرج من البيت في السبعة. لكن متى تصير الساعة السبعة؟ أكيد ما صارت سبعة.

بكل ثقة وجرأة تحني جذعها، تدسّ يديها في خصرها، كلّها آذان مُصغية وعيون نهمة. يلمس الحقيبة من طرفين ويثبّتها على السجاد. تبدو على وجهه علامات الفخر. ينحني ويظلّ منحنياً. تتصبّب تيريزه عرقاً ويقشعرّ بدنها. تغرورق عيناها بالدمع. إذاً فالجثة تحت السجاد. هذا ما توقعته منذ البداية. يا لها من غبية! ينتصب، يطقطق عظامه وينطق. أم أنه اكتفى بقول: "حسناً"؟ يمدّ يده إلى الحقيبة، يخرج منها مجلّداً ويعيده بتأنّ إلى مكانه. ثم يقوم بالفعل ذاته مع الكتب الأخرى.

t.me/yasmeenbook

تشعر تيريزه بالغثيان. اللعنة، أهذه هي كل الحكاية! هل هذا هو الإنسان الجاد، الذي لا يضحك قطّ ولا يتفوّه بكلمة؟ هي أيضا جادّة ونشيطة، لكن هل ترتكب فعلته؟ لا، إنها تفضّل أن يقطعوا يديها قبل أن تفعل ما يفعله. يتصرف بغباء أمام عيني مدبرة المنزل. ومثل هذا معه مصاري! مصاري كثير، كثير. يجب أن يُحجَر عليه. كيف يبذّر نقوده. لو كان في بيته واحدة أخرى، واحدة من الصنف النظيف، كما هنّ بنات اليوم، لسرقت منه آخر شرشف على سريره. إنه لا يملك سريراً حتى. ماذا يعمل بكل هذه الكتب؟ بالتأكيد لا يستطيع قراءتها كلّها دفعة واحدة. في عرفها يطلقون على إنسان كهذا صفة المجنون، يأخذون منه المصاري كي لا يبذّرها ثم يطردونه خارجاً. ستُريه ما إن كان قد أوقع في بيته ببنت أكابر أم لا. يظن أنه يستطيع الضحك على الجميع. لا أحد يضحك على تيريزه. ربما غشّها طوال ثماني سنين، لكن ليس بعد الآن. لا.

حين قرّ قرار كين على المجموعة الثانية من الكتب لأجل جولته، كانت غضبة تيريزه البدئية قد خمدت. لاحظت أنه يتهيّأ للخروج، عادت إلى وقفتها الطبيعية جانب كومة الورق وأعملت فيها جاروفها بإجلال. شعرت أنها أهمّ وأعلى شأناً.

قرّرت ألا تستغني عن الوظيفة. لكنها ضبطته في لحظة جنون. لقد اكتشفت سرّاً. وإذا اكتشفت تيريزه شيئاً فهي تعرف كيف تستغلّه. إنها لا تستكشف الكثير في حياتها. لم تتجاوز حدود المدينة قطّ. لا تتنزّه لأن النزهة مضيعة للمال، لا تذهب إلى المسبح لأن السباحة عيب، لا تحبّ السفر لأنها لا تعرف أيّ بقعة في الأرض. وإذا لم تضطرّ للتبضّع فإنها تفضّل البقاء في البيت دائماً وأبداً. جميع الناس محتالون. الأسعار ترتفع من سنة إلى سنة. قبلُ كانت الحياة أفضل بكثير.

t.me/yasmeenbook

كونفوشيوس، واسطة الزواج

عاد كين من جولته الصباحية في يوم الأحد التالي إلى البيت عالي المزاج. الشوارع خالية من البشر في صباحات الأحد الباكرة. يبدأ الناس يوم فراغهم وهم نائمون. يرتدون أفضل ثيابهم. يقضون الساعات الأولى في الصلاة أمام المرآة. ثم يريحون ضمير بشاعتهم ببشاعة الآخرين في الساعات المتبقية لهم. رغم أن كلاًّ منهم يرى نفسه الأفضل، إلا أنه يختلط بالآخرين ليبرهن على هذا. يتعرّقون طوال أيام الأسبوع أو يلفّون ويدورون لأجل كسب الرزق، وفي الآحاد يلفّون ويدورون جزافاً. كان الأصل في يوم الراحة أن يكون يوم الصمت. كان كين ينظر بعين الهزء إلى ما آلت إليه هذه المؤسسة، مثلما انحرف غيرها عن مغزاه. أما هو فلا حاجة به إلى يوم الراحة، بما أنه دائم الالتزام بالصمت والعمل.

وجد مدبرة المنزل أمام باب الشقة. من الواضح أنها تنتظره منذ زمن طويل.

"ابن الجزار من الطابق الثاني كان هنا. أنتم وعدته. قال إنكم في البيت. شافت الخادمة هيئة طويلة تطلع على الدرج. راح يرجع بعد نص ساعة. لا يريد إزعاجكم، قال راح يجيء ليشوف الكتاب".

لم يكن كين يصغي إليها. لكن عندما سمع كلمة "كتاب" استوعب متأخراً عما يدور الحديث: "كذّاب. لم أعده بشيء. قلت له إني سأريه صوراً من الهند والصين إذا كان عندي وقت. وأنا ليس عندي وقت أبداً. ردّيه على أعقابه!".

t.me/yasmeenbook

"تتواقح العالم بسرعة. رجاء، هذا أيضاً من الصنف النظيف. كان والده عامل عادي. أتمنى لو أعرف من أين جاء بالمصاري. هذا ما كان ناقصنا. في هذا الزمن يقولون: "الأولاد يحقّ لهم يعملو ما بدا لهم". ما عاد أحد يتشدّد. الأولاد وقحون بصورة لا تصدق. يلعبو طول الوقت في المدرسة ويطلعو مشاوير مع المعلمين. رجاء، كيف كان الوضع على أيامنا! إذا كان الولد لا يريد أن يتعلم، يخرجه أهله من المدرسة ويبعثوه للشغل. يضعوه بين يدي معلم صنعة شديد حتى يتعلم. واليوم ما يعملو له شيء. نعم، وهل تريد الناس أن تشتغل اليوم؟ ما عادت الناس ترضى بنصيبها. تطلّع بشباب اليوم لمّا يطلعو مشوار يوم الأحد. حتى بنت العامل، الآنسة لازم تلبس بلوزة جديدة. رجاء، ما هذا البطر!؟ هي بجميع الأحوال تروح للمسبح وتخلعها. لا! وتسبح مع الشباب. وهل كان يصير مثل هذا الشيء في الماضي! أحسن لها تشتغل، هذا أشرف لها بكثير. وأنا دائماً أعيد وأقول من أين لهم كل هذه المصاري؟ الأسعار ترتفع من يوم للثاني. سعر البطاطا تضاعف. فهل نستغرب إذا تواقح الأولاد؟ الأهل يسمحو لهم بكل شيء. قبل كان الأهل يضربوهم كم كفّ، على اليمين، على اليسار. والولد يقف باستعداد. الحياة في هذا العالم ما عادت حلوة. ماداموا صغار ما يتعلمو أي شيء وإذا كبرو ما يشتغلو!".

للفور شعر كين، الذي أحسّ بالضيق في البداية لأنها أوقفته طويلاً بخطابها، بنوع من الدهشة المثيرة في كلماتها. هذا الشخص الأمّي يولي أهمية عليا للعلم. نواتها جيدة. ربما ولد فيها هذا منذ أن بدأت تتعامل مع كتبه يومياً. الكتب لا تؤثر على غيرها من بنات شريحتها. إنها أكثر قابلية للعلم وربما تتوق للمعرفة.

قال: "معكم كلّ الحقّ. يسرّني أنكم تفكرون بهذه العقلانية. العلم فوق كل شيء".

كانا قد دخلا الشقة في هذه الأثناء. أمرها: "انتظروا!" واختفى في

t.me/yasmeenbook

المكتبة. عاد وفي يسراه كتاب صغير. زمّ شفتيه الرقيقتين الصارمتين بينما يقلّب الصفحات. قال: "اسمعوا!" وأومأ لها لتفسح المجال، فما يأتي يتطلّب فضاء رحباً. قرأ باحتفاء يتناقض وسذاجة النص تماماً:

"فرض عليّ معلّمي رسم ثلاثة آلاف إشارة في النهار وألفٍ في الليل. وفي أيام الشتاء القصيرة كانت الشمس تغيب باكراً وأنا لم أنتهِ من واجبي بعد. كنت أحمل لوحي إلى الشرفة الغربية وأتابع الرسم إلى النهاية. وفي العشاء، وأنا أراجع ما رسمته، لا أستطيع مقاومة التعب، فكنت أضع ورائي سطليَْ ماء. حين يكاد النعاس يغلبني أخلع ثوبي وأصبّ أول سطل فوق رأسي، وأعود إلى العمل عارياً من ثيابي. وأظل يقظا بعض الوقت بفضل الماء البارد. ثم يدفأ جسمي تدريجياً وأشعر بالنعاس من جديد. فأستخدم السطل الثاني. بمساعدة السطلين كنت أنهي واجبي بشكل شبه دائم. في ذلك الشتاء دخلت سنتي التاسعة".

مستثاراً ومعجباً أغلق الكتاب: "هكذا كانوا يتعلّمون سابقاً. فقرة من مذكرات الطفولة للعالم الياباني آراي هاكوسيكي[1]".

كانت تيريزه قد دنت منه أثناء المحاضرة ورأسها يتراقص على إيقاع الجمل. امتدّت أذنها اليسرى الطويلة ذاتياً نحو الكلمات وهو يترجمها من اليابانية بمطلق الحرية. أمال الكتاب لا إرادياً نحوها. من الواضح أنها شاهدت الإشارات الغريبة وأعجبت بسلاسة محاضرته كأنه يقرأ من كتاب ألماني. عقّبت: "يا إلهي، هكذا إذاً!". انتهى من القراءة وهي تتنفّس بعمق. آنسته دهشتها. فكّر: هل فاتها الوقت؟ كم عمرها يا ترى؟ الإنسان قادر على التعلم طوال عمره. يجب أن تبدأ بروايات بسيطة.

هنا رنّ الجرس بقوة. فتحت تيريزه الباب. دسّ الجزّار الصغير أنفه في الباب وهتف عالياً: "مسموح لي. السيد البروفسور أذن لي". صرخت فيه

---

1) أراي هاكوسيكي (1657 – 1725) من أتباع الكونفوشيوسية الجديدة، شارع ورجل دولة.

t.me/yasmeenbook

تيريزه: "لن تأخذ أيّ كتاب!" وصفقت الباب بوجهه. طاش الفتى خارجاً وتوعّد. لكن كلماته لا تفهم من شدّة غضبه. "رجاء، من أولها يريد اليد كلّها. وفجأةً يتبقّع الكتاب. يأكل خبزته بالزبدة على الدرج".

ظل كين على عتبة المكتبة ولم يلاحظه الفتى. أومأ لمدبّرة المنزل بودّ. يسعده أن يصون أحدهم مصلحة كتبه. إنها تستحقّ كلمة شكر: "إذا أحببتم أن تقرؤوا شيئاً فاطلبوه مني بكل بساطة!".

"أنا بكامل حرّيتي. كنت أريد أسألكم من زمان".

يا للعجب! إنها تتلقّف الأفكار من فورها، عندما يتعلق الأمر بالكتب ولو أنها غير جشعة في شؤون أخرى. كانت لغاية الآن قنوعة. لم يفكّر قطّ بفتح مكتبة لإعارة الكتب. كي يكسب بعض الوقت أجاب: "حسناً!، سأختار لك غداً شيئاً ما". ثم بدأ العمل. أقلقه وعده. صحيح أنها تنفض الكتب يومياً ولم تؤذِ أيّاً منها لغاية اليوم، لكن شتّان بين نفض الغبار والقراءة. إن أصابعها ثخينة وخشنة والورق الناعم بحاجة إلى معاملة رقيقة. المجلّد القاسي يتحمل أكثر من الورق الحساس. ثم، هل تستطيع القراءة أساساً؟ لقد تجاوزت الخمسين بكثير، تأخرت كثيراً. لقد أطلق أفلاطون على غريمه الكلبي أنتيستنس لقب العجوز الذي تعلّم متأخراً. والآن تظهر عجوز تريد أن تتعلم متأخراً. وتريد أن تطفئ عطشها من رأس النبع. أم أنها تخجل مني لأنها جاهلة كلياً. الإحسان خير، لكن ليس على حساب الآخرين. لماذا يجب على كتبه أن تدفع الخوّة؟ أنا أدفع لها أجراً عالياً. هذا مسموح لي، فالنقود نقودي. لكن من الجبن أن أعرض عليها كتباً. إن هذه عزلاء تماماً في وجه غير المتعلمين. ومن المؤكد أني لن أجلس بجانبها وهي تقرأ.

في الليل رأى رجلاً في أصفاد على درج معبد، يدافع عن نفسه بقرم الخشب التي يرميها بوجه فهدين يهجمان عليه من اليمين ومن اليسار،

t.me/yasmeenbook

بكل عنفوان. الفهدان مزيّنان بأربطة من كل الألوان. تبرز أسنانهما، يزمجران ويديران أعينهما بوحشية حتى يقشعرّ البدن منها. السماء سوداء وضيّقة تخفي نجومها. تسيل من عين السجين كريّات زجاجية وتنفجر على الأرض في آلاف الشظايا. لكن بما أن الحدث ثابت يتعوّد الرائي على الصراع الوحشي ويتثاءب. مصادفةً يقع نظر الرائي على قوائم الفهدين. إنها أقدام بشر. هكذا إذاً، يخطر على بال الرائي، السيد الطويل والمثقف، هؤلاء إذاً كهنة القربان المكسيكيون. إنهم يعرضون كوميديا مقدسة. الضحية تعرف بكل تأكيد أن الموت مصيرها المحتم. كهنة في ثياب الفهود، لكني كشفت سرّهم فوراً.

هنا استلّ الفهد على اليمين إسفيناً صخرياً ضخماً وغرزه في قلب القربان. الرأس المدبّب من الإسفين يشقّ الصدر. منبهراً أغمض كين عينيه. ظن أن الدم سيهرق الآن ووبّخ تلك البربرية القروسطية. سينتظر إلى أن يتوقف سيلان الدم في حسابه ثم يفتح عينيه من جديد. يا للرعب، من الصدر الجريح يقفز كتابٌ، فكتاب آخر ثم آخر، كتب كثيرة تتدفق. لا تتوقف، تسقط على الأرض، تطولها ألسنة النار اللزجة. أشعل الدمُ الخشبَ، الكتب تحترق. يصيح كين بالضحية: "أطبِق الصدر!"، يلوح له بيديه، يشير إليه بما عليه أن يفعل، بسرعة، بسرعة! السجين يفهم، يتخلّص من أغلاله بضربة قوية ويمدّ يديه إلى قلبه. يتنفس كين الصعداء.

تشقّ الضحية صدرها على وسعه، تتدحرج الكتب من الصدر غاضبة. العشرات، المئات، الآلاف، أعداد لا حصر لها من الكتب. تلعق النار الورق. كلّ ورقة تصرخ طالبة النجدة. يرتفع في الأرجاء صراخٌ مرير. يمدّ كين يديه نحو الكتب التي تحترق عن بكرة أبيها. المذبح أبعد مما كان يتصور. يقفز عدّة قفزات، لكنه لا يقترب. عليه أن يركض الآن إن أراد إنقاذها حيّة. يركض، يقع. يا للهاث اللعين! هذه نتيجة إهمال البدن. يودّ لو يقطّع جسده تقطيعاً لشدّة غضبه منه. إنسان عديم الفائدة، فاشل عند الحاجة إليه.

t.me/yasmeenbook

تلك الوحوش الوضيعة. كان يعلم بوجود القرابين البشرية، لكن كيف لهم أن يضحّوا بالكتب، الكتب! لقد صار عند المذبح. تلسع النار شعره وحاجبيه. كومة الخشب ضخمة جداً. لقد تصورها أصغر عندما كان بعيداً. لا بد أن الكتب وسط النار. ادخل أيّها الجبان، أيّها الدعيّ، أيّها الفظّ!

لكن لماذا يلعن ذاته. إنه وسط النار. أين أنت؟ أين أنت؟ ألسنة النار تبهر عينيه. ما هذا؟ اللعنة! كلّما مدّ يده لمس بشراً يصرخون. يتمسّكون به بكل قواهم. يذبّهم عن نفسه لكنهم يعودون. إنهم يزحفون من الأسفل ويتمسّكون بركبتيه، بينما تهطل عليه من الأعلى مشاعل حارقة. لا يرفع عينيه لكنه يراها بكل وضوح. إنهم يتعلقون بأذنيه، بشعره، بكتفيه، يقيدونه بأجسامهم. ضوضاء جنونية. يصرخ فيهم: "دعوني وشأني، أنا لا أعرفكم! ما الذي تريدونه مني؟ كيف سأنقذ الكتب!؟"

يرتمي أحدهم على فمه ويتمسك بالشفتين المزمومتين. يودّ أن يتابع الكلام لكنه لا يستطيع فتح فمه. يتضرّع في فكره: إنها تحترق، إنها تحترق. يودّ لو يبكي، أين الدموع، العيون مغمضة بوحشية، بهذه أيضاً تعلق البشر. يودّ لو يخبط الأرض بقدمه، يرفع اليمنى عالياً، عبث، تعود إلى ما كانت عليه، مغلولة بالبشر، مغلولة بالرصاص. إنه يحتقر تلك المخلوقات الجشعة، التي لا تشبع من الحياة قطّ، إنه يكرهها. كم يودّ لو أهانها، عذّبها، سبّها، لكنه لا يستطيع، لا يستطيع. لا ينسى لحظة واحدة سبب وجوده في المعمعة. إنهم يسدّون عينيه رغماً عنه، لكنه يتضرع في روحه إلى وجه جبّار. يرى كتاباً ينمو في الجهات الأربع، يملأ الأرض والسماء، يملأ الفضاء كله حتى المدى. تقضم جمرةٌ حمراء أطرافَه بتؤدة وهدوء. إنه يتحمل الشهادة ساكناً، صامتاً ومتمالكاً نفسه. البشر يزعقون، الكتب تحترق صامتة. الشهداء لا يصرخون، القدّيسون لا يصرخون.

ثم تأتي البشارة من صوت عليم، هو صوت الربّ: "هنا لا توجد كتب. كلّ هذا خيلاء فانية". من فوره يعرف كين أن الصوت يكرز بالحقّ. يتحرّر من

t.me/yasmeenbook

الأوباش المحترقين ويقفز خارج النار. لقد أنقذ نفسه. هل تألّمت؟ يجاوب على سؤاله: ألم الجحيم لكنه ليس بتلك الفظاعة التي يتخيّلها الكائن. إنه سعيد سعادة لا توصف بالصوت. يرى نفسه وهو ينزل مرحاً عن المذبح. يلتفت إلى الوراء بعد أن يبتعد قليلاً. يبتهج للضحك على النار الفارغة.

يقف غارقاً في تأمّل روما. يرى أعضاء بشرية تتملّص، تفوح رائحة أسماك تحترق. ينسى حقده على البشر، كم هم أغبياء! ما عليهم سوى القيام بقفزة واحدة لينجوا من النار.

بغتةً، دون أن يدري ماذا يحدث حوله، يتحول البشر إلى كتب. ينطلق في الصراخ ويهجم فاقداً الوعي تجاه النار. يركض، يلهث، يلعن قواه، يقفز في النار ويبحث وتمسك به الأجساد المتضرعة. يعود إليه الرعب السابق، يحرّره صوت الربّ، ينجو ويراقب من البقعة ذاتها الحدث ذاته. يستسلم للخديعة أربع مرات. وفي كل مرة تتسارع الأحداث أكثر. يعرف أنه غارق بعرقه. يشتاق سرّاً إلى الاستراحة الممنوحة له بين الهياج والهياج. في الاستراحة الرابعة يداهمه يوم الدينونة. تقترب حمولات بارتفاع المباني، بارتفاع الجبال وارتفاع السماء، من جهتين، من عشر جهات، من كل الجهات، نحو المذبح المفترس. والصوت الجهور، المفحم، يهزأ: "الآن هي كتب". يصرخ كين ويستيقظ.

دام ضيقه وانصعاقه بهذا الحلم، أسوأ ما يتذكره من أحلامه، نصف ساعة. جمرة حقيرة وتحترق كل مكتبته بينما هو يستمتع بالتجوال في الشوارع. لقد أمّن عليها أكثر من مرة. لكنه يشكّ بقدرته على البقاء على قيد الحياة بعد إعدام خمسة وعشرين ألف مجلد، فضلاً عن أن يولي بالاً لقبض مبلغ التأمين. لقد أبرم عقود التأمين وهو يحتقر الفكرة، ثم ندم عليها لاحقاً. ويفضّل أن يلغي عقوده مع تلك المؤسسة التي تؤمّن على الماشية والكتب حسب القانون ذاته، لكنه يستمر في دفع الأقساط كي لا يبتلى بالوكيل الذي لا بدّ أن ترسله إليه المؤسسة في البيت.

t.me/yasmeenbook

كل حلم يفقد سطوته حين يتم تحليله. لقد تملّى في المخطوطات المكسيكية المصورة أول أمس. إحدى اللوحات تصور عملية التضحية بسجين ينفذها كاهنان يرتديان جلود الفهود. وفكّر قبل عدة أيام في إراتوستثيس، أمين مكتبة الإسكندرية العجوز بعد لقائه مع الضرير. إن اسم الإسكندرية يثير في أيٍّ كان ذكرى احتراق مكتبتها المشهورة. ولطالما سخر من بلاهة تلك القطعة الخشبية القروسطية التي تصوّر عدّة ثلاثين يهودياً يؤدّون صلواتهم وهم يصطلون ناراً على المحرقة. كان معجباً بميكيل أنجلو، ويعتبر فريسكو "القيامة" أهمّ إنجازاته. هنا تجرّ شياطين غلاظ الخطّائين إلى الجحيم. يضع أحد الملعونين، في صورة للرعب والهوان، يده على رأسه المستكبر الجبان، بينما تعمل الشياطين عملها في ساقيه، لم يلحظ الشقاء يوماً، ولا الشقاء الذي يلحق به الآن. في أعلى اللوحة المسيح، بسحنة غير مسيحية قطّ، يلعن رافعاً ذراعاً عتيّة جبّارة. لقد استجمع كلّ هذه التفاصيل في حلم.

عندما قذف كين عربة الاغتسال نحو الغرفة سمع: "فقتم؟" غير معتادة. لماذا تصرخ تلك المرأة بهذا الصوت العالي. وهذا منذ الصباح الباكر، فما زال شبه نائم. صحيح، لقد وعدها بكتاب. لن تحصل منه سوى على رواية. للأسف لا تسمن الأرواح بالروايات. إن ثمن المتعة التي قد تقدّمها للقارئ باهظ جداً، فهي تفسد الكائن. يتعلّم القارئ أن يضع نفسه في كل أنواع البشر. ويتعود على التمزّق. يحلّ القارئ في الشخصيات التي تعجبه. يقبل بكل موقف. بطواعية يترك نفسه لأهداف غريبة عليه ويخسر بذلك أهدافه الذاتية. الروايات أسافين يدقّها ممثل كاتب في شخص قارئه المغلق. وكلما أتقن حساب الإسفين والمقاومة، تمزّق القارئ أكثر. يجب أن تُمنَع الروايات بحكم القانون.

في الساعة السابعة فتح كين الباب مرة أخرى. كانت تيريزه واقفة أمامه متهيّبة ومتفائلة كالعادة وأذنها أكثر ميلاناً.

t.me/yasmeenbook

ذكّرت كين بكلّ صفاقة: "أنا بكامل حرّيتي".

اندفع القليل من الدم في عروق كين إلى رأسه. هذه التنورة اللعينة ملتصقة بالأرض وتتذكر ما وعدت به مرّة في لحظة طيش. صرخ: "تريدين الكتاب!"، ثم علا الصوت أكثر: "حسناً، ستحصلون عليه".

سدّ الباب بوجهها. ذهب بخطوات مزلزلة إلى الغرفة الثالثة وتناول بإصبع واحدة رواية "سروال السيد فون بريدوف"[1]. كان قد اشترى الكتاب عندما كان تلميذاً في الابتدائية، وأعاره حينذاك إلى كل تلاميذ صفّه، ولا يطيقه بتاتاً بسبب وضعه المزري مذّاك. كان الكتاب المبقّع والأوراق الدهنية يثيران اشمئزازه. عاد إلى تيريزه بهدوء ووضع الكتاب أمام عينيها.

"ما كان هذا ضروري" قالت واستلّت من تحت إبطها رزمة من ورق التغليف السميك لم يلاحظها قبلاً. بحثت بخراقة عن ورقة ولفّتها على الكتاب كما تلبس طفلاً ثيابه، ثم تناولت ورقة أخرى وقالت: "الدرزة المضاعفة تدوم أطول". وعندما لم تلتفّ الورقة بجودة كافية مزّقتها وجرّبت غيرها.

تابع كين حركاتها وكأنه يراها للمرة الأولى في حياته. لقد بخسها حقّها. إنها تعامل الكتب أفضل منه. كان يكره ذلك الشيء العتيق وها هي ذي تغلّفه بغلافين. تبعد يديها الخشنتين عن الكتاب وتشتغل عليه برؤوس الأصابع. أصابعها ليست بكلّ ذلك السُّمك. شعر بالعار من نفسه والثناء

---

1) سروال السيد فون بريدوف، رواية لفيليباد ألكسيس (1798 – 1871)، الذي يعتبر مؤسس الرواية الواقعية التاريخية في ألمانيا. بطل الرواية غوتس فون بريدوف يدخل كعادته بعد معركة حامية الوطيس إلى حانة، فيتورط في شجار ويذهب من ثم إلى سريره. ولأن زوجته تعلم أنه سينام كعادته سبعة أيام متواصلة، تخلع سرواله الجلدي وتغسله، فهي تفترض أن عليها أن تغسله أخيراً بعد ثلاثين عاماً. السروال يحمي مرتديه من أي ضرر شرط ألا يُغسَل أبداً. تنسى الزوجة السروال على حبل الغسيل ويأخذه التاجر هيدريش. في هذه الأثناء يخسر بريدوف أمواله في القمار. يخوض معارك أخرى، واحدة منها في اللباس الداخلي، ويستعيد سرواله. وحين يعود إلى البيت يخلع بنطاله بنفسه قبل أن تخلعه زوجته.

t.me/yasmeenbook

عليها. ألا يفضّل أن يعطيها كتاباً آخر؟ إنها تستحقّ مطالعة أقلّ قذارة. حسناً، لتبدأ بهذا. وهي بجميع الأحوال ستطلب غيره حالاً. إنها تحافظ منذ ثمانية أعوام على عفّة مكتبته وهو لا يدري.

بينما هي تمسّد الغلاف الورقي بعظيماتها، فاجأها بالقول: "غداً أسافر لمدّة شهر".

"وقتها أنفض الغبار عن المكتبة مثلما أشتهي. وهل تكفيني ساعة واحدة لهذا العمل؟"

"ماذا تفعلون إذا شبّ حريق؟"

ذعرت. سقطت الأوراق على الأرض بينما ظل الكتاب في يدها: "الله لا يجعل. أفديها بروحي!".

تبسّم كين وقال: "لكنّي لن أسافر، كانت هذه مجرّد دعابة". مأخوذاً بثقته المطلقة في خياله أن يسافر ويترك الكتب وحيدة، دنا منها وربّت بأصابعه العظمية على كتفها، ونطق بكلمات تكاد تكون ودودة: "أنت شخص لطيف".

"لازم أشوف ما انتقيتوه لي"، قالت وزاويتا فمها تصلان إلى أذنيها. فتحت الكتاب وقرأت على سمعه: "سروال ..."، قطعت القراءة ولم يحمرّ خدّاها، بينما طفح العرق على وجهها.

"رجاء بروفسور!"، هتفت وانزلقت منتشية بالنصر نحو المطبخ.

جاهد كين في الأيام التالية ليستعيد تركيزه المعهود. فهو أيضاً تحلّ عليه لحظات يشعر فيها بالإرهاق من إنجازاته الحرفية، ويشعر بالرغبة في قضاء وقت أطول بين البشر أكثر مما تسمح له شخصيته. وحين يحاول التغلب على هذه المشاعر يخسر المزيد من الوقت، لأنها تكسب المزيد من القوة، ولهذا ابتدع لنفسه منهاجاً أذكى وهو أن يخاتلها. لا يلقي رأسه

t.me/yasmeenbook

على المكتب تائهاً في أمانيّ مرهقة، لا يهرب إلى الشارع ويدخل في حوارات تافهة مع أحد الأغبياء، بل على العكس، يحيي مكتبته بأصدقاء مصطفين. كان يفضّل مجادلة قدماء الصينيين، يدعوهم حسب المجلّد والجدار الذي يستندون عليه، يشير لهم، يفسح لهم المكان، يرحّب بهم، يهدّدهم، ويقوِّل كلاًّ منهم كلماته مدافعاً عن رأيه حتى يصمتوا. بهذا تكسب المحاورات التي يجريها على الورق جاذبية غير متوقعة. يتمرّن على الكلام بالصينية متذكراً التعبيرات السامية وكيف تتدفق ببراعة بين شفتيه. إذا ذهبتُ إلى المسرح سأسمع حواراً سخيفاً يسلّي عوض أن يعلّم، ويبعث على الملل عوض أن يسلي. سيكون عليّ التضحية بساعتين أو ثلاث وألجأ بعدها إلى النوم قلقاً. محاوراتي الخاصة أقصر وعلى مستوى أرفع. بهذا كان يبرّر لنفسه تمثيليته البريئة لأن حضور الجمهور سيكون مستغرَباً.

لم يندر أن التقى كين على الشارع أو في المكتبات بأناس برابرة يذهلونه بتعابيرهم البشرية، ولكي يشوّش انطباعاته التي تناقض احتقاره للجمهور، يقوم في هذه الحالات ببعض الحسابات. كم كلمة يهذر هذا الوغد في اليوم؟ عشرة آلاف في أدنى الحدود. لثلاثٍ منها معنىً، وبالمصادفة تُسمَع هذه الكلمات الثلاث. أما مئات آلافٍ الكلمات التي تمرّ برأسه، يفكّر بها ويلفظها، فهي غباء في غباء، يكشفها المرء من سيماه ولحسن الحظ لا يراها.

أما مدبّرة المنزل فقليلة الكلام، ربما لأنها وحيدة طوال الوقت. فجأةً تبيّن أن بينهما قاسماً مشتركاً تعود إليه أفكاره كل ساعة. كلما رآها تذكّر من فوره (سروال السيد فون بريدوف) المغلّف أحسن تغليف. قبع الكتاب في مكتبته لعدّة عقود، وكلما مرّ به شعر بطعنة في القلب إلا أنه تركه على حاله. لماذا لم يعنّ له أن يحسّن حاله بتغليفه؟ لقد فشل فشلاً ذريعاً. ثم ظهرت مدبرة المنزل البسيطة ولقّنته درساً.

أم أنها تمثّل عليه مسرحية كوميدية؟ ربما كانت تتملّقه لتطمئنه. مكتبته

t.me/yasmeenbook

مشهورة وقد سبق أن جاءه تجار لشراء بعض النوادر. ربما كانت تعدّ لسرقة كبرى. لا بد أن يعرف ماذا تفعل حين تكون وحدها مع الكتاب.

فاجأها ذات يوم في المطبخ. لقد عذّبته الشكوك وأراد الوصول إلى اليقين. إذا كشف حقيقتها فسيرميها من فوره إلى الشارع. ادّعى أنه طلب كأس ماء لكنها لم تسمع نداءه، وبينما هي تستعجل لتلبّي طلبه، تفحّص الطاولة التي كانت تجلس إليها. كان كتابه مستلقياً على مخدّة مخملية صغيرة مطرّزة. الصفحة 20. لم تتقدم كثيراً في القراءة. قدّمت له كأس الماء على صحن. رآها ترتدي قفازات كلاسيه بيضاء. نسي أن يضغط بأصابعه على الكأس، فسقطت على الأرض وتبعها الصحن. كان الضجيج إلهاءً محموداً. فما تمكّن من النبس بحرف واحد. بدأ القراءة وهو في الخامسة من عمره، منذ خمسة وثلاثين عاماً، ولم يعنّ له قط أن يرتدي قفازات أثناءها. غدت حيرته مضحكة حتى بالنسبة له. تماسك وسأل بظرف: "لم تتقدموا كثيراً؟"

"أقرأ كل صفحة دزينة مرّات، وإلا الواحد لا يحفظ منها شيء".

"أأعجبتكم؟" أرغم نفسه على المضيّ في السؤال، وإلا للحق هو بكأس الماء في السقوط.

"الكتاب عالم حلو دائماً. لكن الواحد لازم يفهمه. كان عليه بقع وحاولت بجميع الوسائل أن أمسحها، لكنها لا تروح. ماذا أعمل؟".

"كانت فيه من قبل".

"خسارة رغم هذا. رجاء، للكتاب قيمة كبيرة".

لم تقل "سعر" إنما قالت "قيمة". تقصد القيمة الداخلية، لا الثمن. وهو لم يثرثر لها طوال الوقت سوى عن رأس المال المدسوس في

t.me/yasmeenbook

المكتبة. لا بد أن هذه السيدة تحتقره. إنها نفس عظيمة. قضت ليالي طويلة في محاولة إزالة بقع قديمة بدل أن تنام. أعطاها أسوأ الكتب، أكثرها ابتذالاً وقذارة عن خبث، وهي أخذته برعايتها وحنانها. إنها رحيمة، ليس بالبشر، فهؤلاء ليسوا شأناً عظيماً، إنما بالكتب. إنها تفتح بابها للضعفاء والحزانى، تقبل أن ترعى في حضنها أحقر مخلوقات الرب على الأرض، وأنبذها وأضعفها.

غادر كين المطبخ مستثاراً. لم يتوجه بكلمة واحدة إلى القدّيسة التي سمعته يهمهم وأدركت مكانتها عنده. ذرع حجرات مكتبته طولاً وعرضاً ونادى كونفوشيوس. فجاء هذا من الجدار المقابل رزيناً وهادئاً، وهذا ليس إنجازاً عظيماً إذا كان المرء قد قضى نحبه منذ زمن بعيد. مضى كين نحوه بخطوات فاحشة ناسياً فروض الإجلال. علامات فارقة تميّز اضطرابه عن وقفة الصينيّ أشدّ التمييز.

صرخ بوجهه على مبعدة خمس خطوات: "أعتقد أني على قدرٍ حسن من العلم، كما أعتقد أني أتمتع ببعض الأدب. لقد حاول أحدهم إقناعي بأن على العلم والأدب أن يترافقا ويستحيل وجود أحدهما دون الآخر. من حاول إقناعي بهذا؟ إنه أنت". لم يتورّع عن عدم استخدام صيغة الجلال في حضرة كونفوشيوس. وأضاف: "وفجأةً يظهر إنسان ليس فيه أيّ جذوة من العلم، لكن فيه أدب، فيه قلب، فيه كرامة، فيه إنسانية أكثر مني ومنك ومن جميع صفوف العلماء قاطبة".

لم يرفّ لكونفوشيوس جفن. لم ينسَ أن ينحني له قبل أن يوجّه إليه الحديث، بل ولم يعقد، رغم الشتائم الفظيعة، حاجبيه الكثّين اللذين تطلّ من تحتهما عينان سوداوان سرمديتان، حكيمتان كعيني القرد. بتؤدة فتح ثغره ولفظ العبارة التالية: "في الخامسة عشرة من عمري وقفتُ نفسي

t.me/yasmeenbook

على المعرفة، ولما بلغت الثلاثين رسخت في العلم، فلما بلغت الأربعين اندثر في قلبي الشك، ولم ينفتح سمعي قبل أن أبلغ الستين[1]".

هذه هي الجملة ذاتها التي تنخر في رأس كين. إلا أنه تبرّم به نظراً لهجومه العنيف. وقارن المعطيات بسرعة ليتبيّن صحتها. في الخامسة عشرة من عمره، ورغم اعتراض أمه، كان يلتهم الكتاب تلو الآخر سرّاً في المدرسة نهاراً، وتحت اللحاف ليلاً في ضوء مصباح كئيب. وحين يستيقظ أخوه الأصغر غيورغ فجأة، هذا الذي عيّنته الأم رقيباً، لا يتورّع عن إزاحة اللحاف من باب الاحتياط. فقد كان مصير القراءة في الليلة التالية يتعلّق بمدى خفّته في إخفاء الكتاب وإطفاء المصباح. في الثلاثين كان راسخاً في علمه. رفض كراسي الأستاذية باستهزاء، فقد ضمن دخلاً يكفيه حتى نهاية عمره من الفوائد على حصّته من إرث أبيه. غير أنه فضّل أن يضخّ رأس ماله في الكتب، واستهلكه كلّه في عدّة سنين، ربما ثلاثاً، في شراء الكتب. لم يكن يحلم بالمستقبل الضيّق، أي لم يكن يخشاه. لقد بلغ الأربعين ولم يعرف الشّك طريقه إلى قلبه يوماً. بيد أنه لم يتغلّب على سروال السيد فون بريدوف. لم يبلغ الستين بعد وإلا لكان فتح سمعه. ثم لمن يفتح سمعه؟

تقدّم كونفوشيوس خطوة كأنه خمّن السؤال، ورغم أن كين أطول منه بمقدار، انحنى بودّ على رأس كين وأعطاه النصيحة السرّية التالية:

"انظر لتكون من طبيعة البشر وأبصر دوافع سلوكهم. اختبر ما يبعث فيهم الرضا. كيف للإنسان أن يختفي؟ كيف للإنسان أن يختفي؟"

وطئ الحزن قلب كين. لأنه ماذا ينفع الإنسان حفظ هذه الكلمات غيباً. يجب استخدامها، تجريبها، إثبات صحتها. لقد عاش إنسان بقربي

---

1) في الأصل يذكر كونفوشيوس سن الخمسين والسبعين أيضاً.

t.me/yasmeenbook

طوال ثماني سنوات عبثاً. لقد عرفت طبيعتها لكني لم أتفكر في دوافع سلوكها. كنت أعلم ما الذي تفعله لأجل كتبي وأرى النتائج يومياً. كنت أظن أنها تفعل هذا لأجل المال. ومنذ أن ألممت بمبعث رضاها عرفت دوافعها أكثر. إنها تزيل البقع عن الكتب المسكينة، المنبوذة، المكروهة التي لا يذكرها أحد بكلمة طيبة. لو لم أباغتها بنواياي الخبيثة في المطبخ لما ظهر عملها في وضح النهار. لقد طرّزت في مخبئها مخدّة لطفلها المستعار ومهّدت له السرير. لم ترتدِ قفازات طوال ثماني سنوات وقبل أن تقرّر فتح كتاب، هذا الكتاب بعينه، ذهبت إلى السوق وتبضّعت من دخلها المرير زوجاً من القفازات. إنها ليست غبية إنما عملية. تعلم أن بإمكانها الحصول على ثلاث نسخ جديدة من الكتاب بثمن القفازات. لقد ارتكبتُ خطأ مهولاً. كنت أعمى طوال ثمانية أعوام.

لم يدع له كونفوشيوس الوقت ليعيد التفكير: "أن تخطئ دون أن تصحّح خطأك، هذا هو الخطأ. إن أخطأت لا تستحيي من أن تعود إلى الصواب!".

هتف كين: سأعود إلى الصواب. سأعوّضها عن السنوات الثماني الضائعة. سأتزوجها. إنها أفضل وسيلة للحفاظ على مكتبتي. يمكنني الوثوق بها إذا شبّ حريق. لو أني صمّمت شخصاً على مخطّطاتي، لما وفى بغرضه مثل هذه. لديها أفضل الأصول. إنها ممرضة بالولادة. إنها بريئة القلب والروح. لا يتسكّع في قلبها أوباش أميون. بإمكانها أن يكون لها عشيق، خباز، جزار، خياط، أيّ بربري، أيّ قرد. لكنها لا ترضى بهم. قلبها معلّق بالكتب. هل هنالك أسهل من الزواج؟

لم يعد يأبه بكونفوشيوس. وإذ نظر مصادفة في اتجاهه كان ذاك قد ذاب، لكنه سمع الصوت الخفيض والواضح: "مشاهدة الحق دون تحقيقه عجز في الشجاعة".

t.me/yasmeenbook

لم يكن لدى كين وقت ليشكره على كلمات التشجيع. اقتحم المطبخ وتهجّم على الباب، فانكسر مقبضه. كانت تيريزه أمام مخدّتها تتظاهر بالقراءة، وعندما شعرت أنه صار خلفها نهضت ومنحته فسحة ليرى أين وصلت. لم تفوّت انطباع الحوار السابق بينهما. كانت تقرأ الصفحة الثالثة. تردّد لحظة لا يدري ماذا يقول ونظر إلى يديه فلاحظ مقبض الباب، فرماه غاضباً على الأرض، ثم انتصب أمامها وقال: "أعطوني يدكم!"، ففحّت تيريزه: "رجاء، بروفسور!" ومدّت يديها نحوه ظانّةً أنه سيغويها الآن، وبدأ العرق يتصبّب من جسدها، فقال كين: "لا، لا!"، معلناً أنه لا يعني اليد حرفياً إنما "أبغي أن أتزوجكم". لم تتوقع منه قراراً بهذه السرعة. ألقت رأسها المرهق على الناحية الأخرى، وردّت عليه فخورةً وهي تصارع التأتأة: "أنا بكامل حرّيتي".

ياسمين
قصص
روايات
t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

القوقعة

تمّ عقد القران بكل هدوء. كان شاهدا الزواج خادماً عجوزاً استخرج من بدنه المهترئ آخر طاقاته، وإسكافياً بهيجاً يتهرّب بكلّ خبث من عقد نكاحه الخاصّ، ويُسَرّ بالتفرج على نكاح الغرباء طوال حياته المعربدة. يدعو زبائنه الراقين بإلحاح إلى تزويج بناتهم وأبنائهم بسرعة، ويعثر دائماً على كلمات منمّقة تقنعهم بالزواج المبكر: "حالما نام الأولاد بجانب بعضهم، يجيبون الأحفاد بسرعة. والآن يجيء دور تزويج الأحفاد، وبذلك أحفاد الأحفاد، وهكذا دواليك". ويشير بنهاية الخطبة إلى برّته الجديدة التي تمكّنه من حضور عقود قران لانهائية، مشيراً إلى أنه يرسلها إلى المصبغة إذا كان أصحاب العرس من المجتمع الراقي، ويكويها بنفسه إذا كانوا بسطاء. والشيء الوحيد الذي يرجوه هو إعلامه في الوقت المناسب. وإذا غاب طويلاً يعرض، هو البطيء بطبعه، ترقيعات بالمجان ويفي بوعوده هذه، هو غير الموثوق في مجالات أخرى، ويطالب بسعر زهيد. كثيراً ما يلجأ إليه الأولاد الفاسدون بحيث يتزوجون رغم أنوف أهاليهم، لكنهم غير منحلّين كفاية ليُعرضوا عن الزواج، وفي أغلبهم البنات. مع أنه طليق اللسان إلا أنه صموت في هذا الشأن. لا يكشف عن دوره بأدنى إشارة، عندما يسرد على أسماع الأمهات تفاصيل زواج بناتهن سرّاً. قبل أن يتوجّه إلى "مثله الأعلى" كما يسمّيه، يعلّق على باب ورشته لوحة كبيرة يقرؤها الزبائن بحروف مجعّدة بسواد الفحم: "أنا أقضي حاجة. ربما أعود. الموقّع هوبرت بريدينغر".

وكان هو أول من علم بزواج تيريزه. ظلّ يشكّك طويلاً بحقيقة مزاعمها

t.me/yasmeenbook

إلى أن دعته إلى دائرة الزواج. وحين آن الأوان تبع الشاهدان العروسين على الشارع. تناول الخادم تعويضاته بكلمات شكر محنيّة الظهر، وانصرف مغمغماً عبارات تهنئة وصل منها إلى سمع كين: "... إذا احتجتموني ..." وكان الفم الأدرد مفعماً بالنشاط حتى بعد ابتعاده عشر خطوات. أما هوبرت بريدينغر فقد كانت خيبته بالغة العمق. كان قد كوى برّته في المصبغة، بينما جاء العريس كأنه ذاهب إلى العمل، كعبا حذائه مائلان، قفطانه مهترئ، لا رغبة فيه ولا شعلة حب، يحدّق في الملفات لا في العروس. نطق "قبلت" كأنه يقول شكراً، ثم لم يعرض ذراعه على غراب البين، ولم تحدث القبلة التي عاش الإسكافي على الحلم بها أسابيع طويلة. قبلة الغرباء تساوي عنده عشرين قبلة خاصة. القبلة التي راهن عليها، القبلة التي علّقها على باب ورشته كحاجة، القبلة العمومية التي يراقبها موظف حكومي، قبلة الشرعية الزوجية، القبلة الخالدة. لم يصافحهما الإسكافي للوداع. أخفى شعور الأذى الذي لحق به وراء ابتسامة عريضة لئيمة. ثم قهقه: "لحظة من فضلكم!" كمصوّر. تردّد آل كين. انحنى الإسكافي فجأة أمام امرأة، داعب حنكها وقال بصوت عالٍ: "غو غو" وتفحّص تكويرات جسدها بتشهٍّ. انتفخ وجهه المدوّر أكثر، اشتدّت عضلات الخدّين، ظهرت كتلة شحمية تحت الذقن، رفّت أفاعٍ صغيرة نشيطة حول العينين، واستمرّت يداه المتصلبتان في رسم المزيد من الأقواس. زاد وزن المرأة ثانية تلو الأخرى. نظرتان نحوها والثالثة لتسلية العروسين. ثم شدّها نحوه ومدّ يسراه إلى صدرها.

رغم أن المرأة التي ضاجعها الإسكافي غير موجودة، فهم كين اللعبة القذرة وجرّ وراءه تيريزه التي تتفرّج على الرجل. "هذا يشرب في عزّ النهار"، قالت تيريزه وتمسّكت بذراع بعلها، فهي أيضاً كانت ساخطة.

انتظرا الترام في الموقف التالي. لكي يؤكد أن الأيام كلها متشابهة وسيّان لديه، حتى هذا، لم يطلب سيارة أجرة. وصل الترام. قفز قبلها وتذكّر

t.me/yasmeenbook

على الدرج أن المفروض أن تتقدم عليه زوجه بالركوب. نزل إلى الشارع خلفاً وصدم تيريزه. أعطى الجابي إشارة غاضبة على الانطلاق وغادر الترام دونهما. "ما لك؟!" سألت تيريزه مؤنّبة. لا بد أنه آلمها. "رغبت أن أساعدك على الصعود، عذراً!". فردّت تيريزه: "هذا ما كان ناقصنا!". عندما استقلاّ الترام وجلسا أخيراً دفع عن اثنين آملاً أن يصحّح خراقته. سلّم الجابي البطاقات إليها، وبدل أن تبدي الشكر لوت شفتيها ودفعت الرجل بجانبها بكتفها. سأل: "نعم؟". "لا أحد يصدق"، قالت ساخرة ورمت التذكرتين خلف ظهر الجابي البدين. ظنّ كين أنها تسخر منه والتزم الصمت.

شعر بالضيق. امتلأت العربة. جلست قبالته امرأة تجرّ وراءها أربعة أطفال كلٌّ منهم أصغر من الآخر. وضعت اثنين في حضنها وظل الآخران واقفين. نزل سيد كان جالساً على يسار تيريزه. صاحت الأم: "هنا، هنا" ولوّحت لولديها، بنت وصبي لم يصلا سن المدرسة بعد. من الناحية الأخرى اقترب عجوز. رفعت تيريزه يديها الحاميتين فوق المقعد. زحف الأطفال من تحت ذراعيها. كانا مستعجلين ليقوما بشيء ما معتمدين على نفسيهما. لاح رأساهما العنيدان عند المقعد. نفضتهما تيريزه كما تنفض الغبار. صرخت فيها الأم: "أولادي، كيف تتصرفين معهم؟!".

ردّت عليها تير يزه وهي تنظر إلى زوجها نظرات ذات معنى: "لكن، رجاء، الأولاد آخر شيء". في هذه اللحظة كان العجوز قد أخذ مكانه وشكرها. شعر كين بنظرة زوجته وتمنّى لو كان أخوه غيورغ حاضراً معه. وهذا كان قد استقرّ طبيب أمراض نسائية في باريس وله شهرة طيّبة، غامضة السبب، رغم أنه لم يبلغ الخامسة والثلاثين بعد. كان يفهم في النساء أكثر مما يفهم في الكتب. بعد سنتين فقط من إنهاء دراسته التمّ عليه المجتمع الراقي حين يمرض، وهو دائم المرض، بكل نسائه المتذمّرات أبداً. وهذا النجاح الشكلي فقط كان مبرّراً كافياً ليجلب عليه احتقار بيتر. ربما غفر له جماله، فلا ذنب له فيه لأنه ولد جميلاً. وبما أنه شخصية ضعيفة لم يتمكّن من

t.me/yasmeenbook

إجراء تشويه صناعي على جسده لينجو من الآثار الخبيثة لكل ذلك الجمال. والبرهان الأسطع على ضعف شخصيته هو أنه خان اختصاصه الذي اختاره مرّة، وانتقل برايات ساقطة إلى علم النفس. ويزعمون أنه قدّم إنجازاتٍ ما هنا. إلا أنه ظل طبيب نساء في قلبه. الفساد في دمه. محتقناً من تقلّبات غيورغ قطع بيتر مراسلاته معه قبل ثماني سنوات تلقائياً، ومزّق عدّة رسائل أبدى فيها غيورغ قلقه. ومن طبعه ألا يردّ على الرسائل التي يمزقها.

كان الزواج فرصة سانحة لإعادة الحياة إلى مجاريها. أحبّ غيورغ العلم بفضل تحفيز بيتر له. وطلب النصح منه في هذه الحال ليس عيباً مشيناً بما أنها ضمن اختصاصه. كيف يمكن التعامل مع هذا الكائن الخجول الجزع؟ لم تعد شابّة وتأخذ الحياة على محمل الجدّ كثيراً. المرأة قبالتها، وهي أصغر منها سناً بكثير، ولدت أربعة أطفال بينما لم تنجب تيريزه. "الأولاد آخر شيء" جملة واضحة جداً، لكن ماذا تقصد من ورائها. ربما لا تريد أطفالاً! هو أيضاً لا يريد. لم يفكر يوماً في إنجاب الأطفال، فلماذا قالت هذا؟ هل لأنها تعتبره منحلاً؟ إنها تعرف خط حياته. إنها مطّلعة على طباعه منذ ثمانية أعوام. وتعلم أنه ذو شخصية.

هل يخرج ليلاً؟ هل زارته امرأة ولو لربع ساعة فقط؟ عندما دخلت في خدمته أعلمها بكل وضوح أنه لا يستقبل الضيوف من حيث المبدأ، ذكورا كانوا أم إناثاً، بدءاً من الرضيع وانتهاء بالشيخ، وعليها أن تطرد من يطرق الباب. كانت كلماته: "ليس عندي وقت أبداً". أيّ شيطان ركبها؟ ربما كان الإسكافي البذيء؟ إنها كائن بريء وإلا كيف كانت ستشمل الكتب بعطفها رغم جهلها؟ لكن ذلك الفتى القذر بالغ في مجونه. كانت حركاته واضحة. وحتى الطفل، الذي لا يدري لمَ يقوم بها، استوعب أنه يداعب امرأة. يجب دسّ هؤلاء الذين يفقدون السيطرة على أنفسهم في الشارع في مصحّات عقلية مغلقة. إنهم يولّدون أفكاراً شنيعة لدى البشر المجدّين. وهي مجدّة. وقد عداها الإسكافي. وإلا ما الذي جلب الأطفال على

t.me/yasmeenbook

خاطرها؟ لا يستبعد أن تكون قد سمعت بهم. النساء يهذرن كثيراً فيما بينهنّ. يجوز أنها شهدت ولادة لدى صاحب عمل سابق. وما المشكل إذا كانت تعرف كلّ شيء. هذا أفضل من أن يضطرّ لشرح كلّ الأمور لها. في نظراتها حياء ما، الأمر الذي يولّد انطباعاً غريباً في سنّها.

لم يخطر لي قطّ أن أطالبها بأمور خسيسة ولا بأيّ حالٍ من الأحوال. ليس لديّ وقت قطّ. أنا بحاجة إلى ستّ ساعات نوم. أعمل حتى الثانية عشرة لأستيقظ في السادسة. قد تقتنع الكلاب وغيرها من الحيوانات بهذا خلال النهار أيضاً. ربما توقعت هذا من الزواج. أغلب الظن لا. الأطفال آخر شيء. أحمق. أرادت القول إنها تعرف كل شيء. إنها تعرف السلسلة التي تكون آخر حلقاتها الأطفال. وتعبر عن هذا بأسلوب ظريف. تبني على مغامرة صغيرة. كان الأطفال لحوحين، والجملة شبه بديهية، لكن النظرة موجّهة لي أنا عوض أيّ اعتراف. مفهوم. هذا الإلمام مربك. أنا تزوجت بسبب الكتب، الأطفال آخر شيء. ليس بالضرورة أن يكون للجملة مغزى ما. سبَق أن وجدَت أن الأطفال لا يتعلمون. قرأت عليها مقطعا لآراي هاكوسيكي وغلبتها الفرحة. بها كشفت عن نفسها. من يعلم متى أدركت علاقتها بالكتب. آنذاك دنونا أحدنا من الآخر كثيراً. ربما أرادت أن تذكّر بتلك اللحظة. ما زالت هي هي. لم يتغيّر رأيها بالأطفال مذّاك. أصدقائي أصدقاؤها. وكذلك سيبقى أعدائي أعداء لها. الحاصل، لا معرفة لها بالعلاقات الأخرى. يجب أن أنتبه. قد ترتعب. سأكون حذراً معها. كيف أشرح لها؟ الكلام صعب. ليس لديّ كتب عن الموضوع. أشتري؟ لا. ما الذي سيتصوره صاحب المكتبة؟ لست خنزيراً. أرسل أحدهم لشرائها؟ لكن من؟ هي؟ اللعنة، زوجتي! كيف أصل إلى هذا الحضيض! يجب أن أحاول؟ أنا بنفسي. إذا لم تكن راغبة ستصرخ. سكان البناية، البواب، الشرطة، الخدم. لست مديناً لأحد بشيء. أنا متزوج. حقّي الطبيعي. مقرف. كيف أنزل لهذا المستوى؟ لقد أصابني الإسكافي أنا بالعدوى

t.me/yasmeenbook

وليس هي. اِخجل من نفسك! أربعون عاماً. وفجأة. سأراعيها. الأطفال آخر شيء. لو أفهم حقاً قصدها الحقيقي. اللعنة!

هنا نهضت أمّ الأطفال الأربعة. "انتبهوا!"، قالت ودفعتهم يساراً نحو الأمام، بينما وقفت هي يميناً جانب تيريزه كضابط مقدام، وأومأت خلافاً لتوقعات كين، حيّت غريمتها بودّ وقالت: "أنت مرتاحة، ما زلت عزباء!" ولمعت من ثنايا فمها أسنان ذهبية أثناء الوداع. وعندما صارت في الخارج، هاجت تيريزه وصرخت بصوت ملؤه اليأس: "تفضّلوا، زوجي، تفضّلوا، زوجي! نحن بكلّ بساطة ما نريد أولاد. تفضّلوا، هذا زوجي!". أشارت إليه، شدّته من ساعده. فكّر: عليَّ أن أهدّئها. أحرجه المشهد. إنها بحاجة إلى حِماه. صرخت وصرخت. ثم نهض أخيراً بكامل طوله وشهد أمام كل الركاب: "نعم". لقد أهانوها وهي مضطرّة للدفاع عن نفسها. دفاعها كان طائشاً مثل الهجوم. لا ذنب لها. انهارت تيريزه في مقعدها. لا يأخذ أحد، ولا حتى السيد الذي أتاحت له الجلوس، صفّها. العالم كلّه ملوّث بحب الأطفال. نزل آل كين بعد محطّتين. تقدّمت تيريزه. سمع من خلف ظهره صوتاً يقول: "أفضل ما فيها هي التنّورة". "قلعة حصينة". "الزوج المسكين". "ماذا تريد بعد، قشرة سميكة". ضحك الجميع. لم يسمع الجابي، ولا تيريزه الواقفة على منصّة النزول، شيئاً. إلا أن الجابي كان يضحك. استقبلت تيريزه زوجها على الشارع سعيدة وقالت: "إنسان ظريف". انحنى الجابي من الترام المنطلق، كوّر يده أمام فمه وزعق مقطعين صوتيين غير مفهومين. ترجرج. من الضحك ولا بدّ. لوّحت تيريزه واعتذرت بنظرة مستغربة بكلمات: "سيقع أرضاً، هذا ما كان ناقصنا!".

لكن كين تمعّن في تنّورتها خفيةً. كانت أكثر زرقة من العادة وأقوى تنشيةً. كانت التنورة عليها مثل القشرة على الحلزونة. ليحاول أيٌّ كان أن يفتح قشرة حلزونة منغلقة على نفسها. حلزونة عملاقة مثل هذه التنورة. لا بد من الدوس عليها حتى تغدو بزاقاً وشظايا، كفتى على شاطئ

t.me/yasmeenbook

البحر. آنذاك لم تظهر في الحلزونة أية خدوش. لم يرَ قطّ حلزونةً عارية. أيّ حيوان يتقوقع بكل هذه القوة تحت القشرة. أراد أن يكتشف. فوراً. كان يحمل ذلك الشيء القاسي، العنيد بيده، بذل قواه بالأصابع والأظافر والقوقعة من ناحيتها بذلت قواها. أقسم ألا يتحرك خطوة من مكانه قبل أن يكسرها. وأقسمت هي على العكس، لم ترغب أن تتعرّى. فكّر، لماذا تخجل، سأتركها بعد ذلك على راحتها، وإذا شاءت سأعيد إغلاقها، لن أفعل بها شيئاً، أعدها بهذا، وإذا كانت صمّاء، ليوصل لها الربّ الرحيم وعدي. فاوضها عدّة ساعات. كانت كلماته ضعيفة ضعف أصابعه. كان يكره التعرّجات ويفضّل الوصول إلى هدفه بخطّ مستقيم. مساء عبرت سفينة كبيرة في الأفق. انقضّ على الحروف السوداء الجبارة وقرأ الاسم "ألكسندر العظيم". فضحك في أوج غضبه، ارتدى حذاءه بسرعة البرق، قذف القوقعة بكلّ قواه على الأرض وأدّى رقصة خرقاء مرحة. صدفتها الآن عبث لا يفيد. سحقها حذاؤه. غدت عارية تماماً قبالته. إنها ركام من العجز والمخاط والكذب. ليست حيواناً في الحقيقة.

أما تيريزه! دون قشرة ودون تنورة! فلا وجود لها. التنورة منشّاة دائماً لا يشوبها عيب. إنها صَدَفتها، صَدَفةٌ زرقاء مقوّاة بالنشاء. إنها تقدّر القشور الجيدة. لماذا لا تتجعد الكسرات مع الزمن؟ من الواضح أنها تكويها كثيراً. ربما لديها اثنتان. لا يلاحظ المرء فرقاً. شخص عملي. يجب ألا أسحق التنورة بعد. سيغمى عليها حزناً. ماذا أفعل إذا غابت فجأة عن الوعي؟ سأعتذر منها سلفاً. ستعيد كيَّ التنورة فوراً. في هذه الأثناء سأكون في غرفة أخرى. لماذا لا ترتدي الثانية بكل بساطة؟ إنها تضع الكثير من العثرات في دربي. كانت مدبرة منزلي وأنا تزوجتها. عليها أن تشتري عشرات التنانير وتثابر على تغييرها. بذلك لن تكون مرغمة على تنشيتها بكلّ هذه القوة. القساوة المبالغ فيها مهزلة. الناس في الترام على حقّ.

لم يكن ارتقاء السلم سهلاً. أبطأ خطوه دون وعي منه. عندما وصل إلى الطابق الثاني ظنّ أنه وصل إلى شقّته وشعر بالذعر. جاء الجزار الصغير

t.me/yasmeenbook

مغنّياً. وما إن لاحظ كين حتى أشار إلى تيريزه وشكا: "لا تسمح لي بالدخول! تسدّ الباب بوجهي. اعملوا لها بهدلة، يا بروفسور!".

"ما القصد من وراء كلامك؟!" سأله كين مستهجناً، ممتنّاً للفتى الذي قابله فجأة كأنما لينجده.

"لقد سمحتَ لي. قلت لها هذا!".

"من هي؟"

"هاي"

"هاي؟!"

"نعم. قالت أمي يجب ألا تتواقح، فهي شغّالة!".

"أيها الحقير!"، صرخ فيه كين واستجمع يده استعداداً للصفع. انحنى الصبي، تعثّر، سقط وتمسّك بتنورة تيريزه كي لا يتدحرج على الدرج. سُمع صوت الثياب المنشّاة عندما تتقصّف.

"وتتواقح أيضاً؟!". هزئ به الولد. خارجاً عن طوره ركله كين عدّة مرّات، شدّه من شعره لاهثاً، رفعه، صفعه مرتين ثلاثاً بأيدٍ حادّة العظام، ثم رماه أرضاً.

صعد الصغير الدرجات باكياً. "سأقول لأمي، سأقول لأمي!". فُتح بابٌ في الأعلى ثم أُغلق، وبدأ صوت نسائي بالشتم.

"خسارة التنّورة الحلوة!"، اعتذرت تيريزه عن الضربات المبرحة، ظلت واقفة وتطلّعت بشكل ما إلى حاميها. حان الوقت المناسب تماماً لتحضيرها. لا بد من قول شيء ما. هو أيضاً ظل واقفاً.

"نعم، حقاً، التنورة الجميلة. وما الذي يدوم؟[1]"، اقتبس سعيداً

1) محاكاة لمطلع قصيدة للشاعر الألماني أوغوست فالازلبن (1798 – 1874): لا شيء في العالم يدوم. ما يأتي يذهب. هكذا يتصافح الفرح والتعاسة.

t.me/yasmeenbook

مما أوحي إليه ليشير بكلمات قصيدة قديمة جميلة بما سيحدث تالياً. بجميع الأحوال. يمكن التعبير عن كل شيء بقصيدة. القصائد تلائم جميع المواقف. إنها تسمي الشيء بأكثر أسمائه سراً ويفهمها المرء رغم هذا. خلال متابعة الصعود التفت إليها وقال: "يا لها من قصيدة جميلة، أليس كذلك؟!".

"آه! روعة. القصائد حلوة دائماً. يلزمك من يفهمها".

"يلزم من يفهم كل شيء"، قال متريّثاً ومشدّداً على المعاني. واحمرّ وجهه.

وخرته تيريزه بكوعها في أضلاعه، انتفض كتفها الأيمن، ألقت رأسها على الجهة غير المعتادة وقالت بحدّة وتحدٍّ: "نشوف، ياما تحت السواهي دواهي!".

شعر أنها تقصده بكلامها. فهم عبارتها استهجاناً وندم على تلميحه المتهتك، نبرتها الساخرة نهبت منه آخر بقايا الشجاعة.

"أنا، أنا لم أكن أنوي"، تلعثم.

أنقذه باب الشقة من المزيد من الارتباك. فراح يمدّ يده إلى جيبه بحثاً عن المفاتيح، بهذا يتمكّن من خفض ناظريه دون أن تلاحظ شيئاً على الأقل. لم يعثر عليها.

"نسيت المفاتيح!"، قال. عليه الآن أن يخلع الباب كما فعل آنذاك مع القوقعة.

مصاعب على مصاعب. لا يتمكّن من إنجاز أيّ شيء. محرَجاً مدّ يده إلى جيب البنطال الآخر. لكنه لم يعثر على المفاتيح. تابع البحث حتى سمع صوتاً من القفل. لصوص. حلّت الصاعقة على رأسه. في اللحظة ذاتها لاحظ يدها على القفل.

t.me/yasmeenbook

"لهذا معي مفاتيحي"، قالت وهي تفيض رضاً.

لحسن الحظ لم يطلب النجدة. كانت الكلمة على لسانه. لو قالها لخجل من نفسه طوال عمره. تصرّف مثل ولد صغير. يحدث للمرة الأولى ألا تكون مفاتيحه معه.

أخيراً صارا في الشقة. فتحت تيريزه باب غرفة نومه وأشارت له بالدخول. قالت: "أجيء حالاً!" وتركته وحيداً.

تطلّع حوله وتنفّس الصعداء كمن خرج من السجن إلى الحرية.

نعم، هذا هو وطنه. هنا لن يحدث له شيء. يبتسم هازئاً حين يتصور أن شيئاً قد يحدث له. يتفادى النظر نحو أريكة النوم. كل إنسان بحاجة إلى وطن، ليس وطناً كما يتصوره القوميون البدائيون، وليس كما تتصوره الديانات مجرد طعم بليد عن وطن في العالم الآخر، لا، إنما يكون وطناً يضمّ الأرض والعمل، الأصدقاء، الراحة والفضاء الروحي الرحب، عالماً خاصاً طبيعياً، كلاًّ منظماً. إن أفضل تعريف للوطن هو المكتبة. وقمة الذكاء أن تُقصى النساء عن هذا الوطن. وإذا قرّر الرجل أن يستقبل إحداهن، فعليه أن يصهرها قبلاً في الوطن كما فعل هو. لقد سعت الكتب طوال ثمانية أعوام من الرخاء والشدة إلى إخضاع هذه المرأة. هو شخصياً لم يبذل أي جهد في هذا. لقد غزا أصدقاؤه تلك المرأة باسمه. هناك الكثير ضد النساء، ولا بد، ولا يتزوج سوى مجنون دون مرحلة اختبار. أمّا هو فقد كان على قدرٍ عالٍ من الذكاء لينتظر حتى الأربعين من عمره. ليجرّب أحدهم ويخوض مرحلة اختبار لمدة ثمانية أعوام. لقد نضجت الثمرة وحان قطافها. الإنسان وحده يحدّد مصيره بيده. وإذا أمعن التفكير فلم يكن ينقصه سوى امرأة. إنه ليس برجل المتعة. كلّما ذكر هذه الكلمة، المتعة، تذكّر أخاه غيورغ، طبيب النساء. إنّه كل شيء آخر عدا رجل المتعة. لكن لا بد أن

t.me/yasmeenbook

الأحلام المرهقة في الأيام الأخيرة ناتجة عن حياته المبالغة في الشدّة والجدّ. الآن سيتغيّر كلّ شيء.

من المعيب أن يستمرّ في التهرّب من هذا الواجب. إنه رجل وما الذي سيحدث له؟ يحدث؟؟؟ هذا كثير. أولاً يجب تحديد متى سيحدث. الآن ستدافع عن نفسها يائسة. عليه ألا يعبأ بهذا. مفهوم إذا دافعت المرأة بآخر ما لها. وما إن يحدث ستندهش به لأنه رجل. يفترض أن تكون النساء كذا. إذاً سيحدث الآن. اتفقنا. إنه يقسم لنفسه بشرفه.

السؤال الثاني: أين سيحدث؟ سؤال قبيح. حقيقة توجد أريكة أمام ناظريه طوال الوقت. انزلقت عيناه على رفوف المكتبة وانزلقت معها الأريكة. على الأريكة قوقعة الساحل. عملاقة وزرقاء. حيثما نقل بصره لاحقته الأريكة. منتهَكة ومخترَقة. كأنها تحمل أحمال الرفوف. وحين يقترب كين من الأريكة الحقيقية يبعد بصره ويرجع في الدرب البعيدة. والآن، وبما أنه وعد وعد شرف، يتخذها، يتخذ الدرب البعيدة بحدّة أشدّ ومدى أطول. طبعا ترتدّ العين بحكم العادة. إلا أنها تظل بالنهاية مكانها. أما الأريكة، الأريكة الحقيقية والأصلية، فليس عليها لا قوقعة ولا أحمال. وماذا لو كانت تحمل أحمالاً فنية؟ ماذا لو حمِّلت عليها طبقة من الكتب الجميلة؟ لو كانت مغطّاة بالكتب بحيث لا تُشاهَد؟

يطيع كين رغبته العبقرية. يتناول مجموعة من المجلّدات ويجمعها بحذر على الأريكة. كان يفضّل أن ينتقي بعضها من الرفوف العليا، لكن الوقت ضيّق فقد قالت إنها سترجع فوراً. يتنازل عن رغبته، يدع السلم بحاله ويكتفي بأعمال مصطفاة من الرفوف الدنيا. يضع أربعة، خمسة مجلدات ثقيلة بعضها فوق البعض الآخر، ويمسّد عليها بحنوّ قبل أن يأتي بغيرها. لا يأخذ الأشياء السيئة كي لا يزعج الزوجة. صحيح أنها لا

t.me/yasmeenbook

تفهم منها إلا القليل إلا أنه يراعيها لأنها حانية على الكتب. ستأتي حالاً. وحالما ترى الكتب المتراكمة على الأريكة ستتقدم نحوها، بطبيعتها المرتبة، وتسأل أين مكان المجلدات. بهذا يغري الكائنَ المسكين بدخول الشرك. بكل بساطة يمكنه فتح حديث يرتبط بعناوين الكتب. سيتقدم خطوة تلو الأخرى ويأخذها على مهل. إن المصادفة التي تنتظرها لأعظم حدث في حياة المرأة. لا يريد أن يرعبها، يريد أن يعينها. الإمكانية الوحيدة للتصرف بشكل حاسم وجريء. إنه يكره العجلة. يبارك الكتب. آه لو أنها لا تصرخ.

سمع صوتاً خافتاً وكأن باب الغرفة الرابعة فُتح. لا يهمّه هذا الآن فلديه الأهم. يراقب الأريكة المصفحة من عند طاولة المكتب ومدى تأثيرها ويتدفق بالحب والاستسلام نحو الكتب. وهنا ينطلق صوتها: "جئت!".

يلتفت إلى الوراء. تقف على عتبة الغرفة المجاورة في تنورة داخلية ناصعة البياض موشّاة بكشكش عريض. كان يترقّب الأزرق، الخطر الأكبر. مذعوراً ينقل بصره نحو الأعلى. مازالت ترتدي البلوزة.

الحمد لله، الحمد لله، لقد زالت التنورة. لست مرغماً الآن على سحق أي شيء. هل هذا مشرّف؟ يا لحسن الحظ! كنت سأخجل. كيف فعلت هذا؟ كنت سأقول لها: انزعيه. ولو أردت لما استطعت قول هذا. إنها واقفة بكل بداهة هنا. لا بد أننا نعرف أحدنا الآخر منذ زمن بعيد. طبعاً، هي زوجتي. في كل حالة زوجية. من أين تعرف هذا؟ إنها مستعدّة. كما بين زوجين. لقد رأت كل شيء. مثل الحيوانات. هذه تجد الأمر صحيحاً ببداهتها، ليس لديها كتب في رأسها.

تقدمت تيريزه مختالة. لا تنزلق، تتهادى. إذاً التنورة الزرقاء هي سبب الانزلاق. تقول مستبشرة: "أنت وأفكارك؟ طبعاً الرجل وخيالاته". تثني خنصرها، تهدّده وتشير إلى الأريكة. يفكّر، عليّ أنا أيضاً أن أذهب هنالك،

t.me/yasmeenbook

يجد نفسه واقفاً جانبها دون علم. ماذا يفعل الآن؟ يرميها على الكتب؟ يتقدم واهناً من الرعب، يصلّي إلى الكتب، آخر رادع. تلتقط تيريزه نظرته، تنحني وبضربة شاملة من ذراعها اليسرى ترمي الكتب على الأرض. يقوم بحركة المستضعف نحوها، يريد أن يصرخ إلا أن الذهول يسدّ حنجرته، يبتلع الإهانة ولا تصدر عنه نأمة. يتصاعد فيه حقدٌ مخيف. لقد تجرّأت على هذا. تجرّأت على الكتب.

تنزع تيريزه تنورتها الداخلية. تطويها برفق وتضعها على الكتب فوق الأرض. ثم تستلقي على الأريكة، تثني خنصرها، تبتسم وتقول: "الآن!".

يخرج كين غاضباً وهو ينطق جملاً طويلة، يحبس نفسه في المرحاض، الغرفة الوحيدة الخالية من الكتب. ينزل بنطاله بحركة آلية ويجلس على الكرسي ويبكي كطفل.

t.me/yasmeenbook

أثاث مبهر

"أنا ما أبقى آكل بالمطبخ مثل الخدّامة. ربّة البيت تأكل على الطاولة".

"والطاولة غير موجودة".

"وهذا ما أقوله دائماً. يلزمنا طاولة. في أيّ بيت محترم يأكل الناس على طاولة المكتب؟ بقيت ساكتة طوال ثماني سنين. لازم أنطق الآن!".

تم شراء مائدة وغرفة طعام كاملة من خشب الجوز. نصبها العمال في الغرفة الرابعة، الغرفة الأبعد عن المكتب. وتناولا الطعام يومياً صامتين غالباً على الأثاث الجديد وجبتي الغداء والعشاء. بعد حوالي أسبوع قالت تيريزه:

"عندي اليوم رجاء. عندنا أربع غرف. للرجل والمرأة الحقوق نفسها. قوانين اليوم هكذا. لكلّ واحد منا غرفتين. كل واحد يأخذ حقّه. أنا آخذ غرفة الطعام والغرفة بجانبها. الرجل يحتفظ بغرفة المكتب والغرفة الكبيرة بجانبها. هذا أبسط حلّ. الأغراض تبقى على ما هي عليه. لا داعي للحسابات الطويلة العريضة. خسارة الوقت. لازم ننهي الموضوع. بذلك يكون الطرفان غير ملزمين أحدهما بالآخر. الرجل يقعد على طاولة المكتب والمرأة تشوف شغلها".

"والله! والكتب؟!"

أحسّ كين بنواياها. لا أحد يستطيع خداعه. وحتى لو كلّفه الأمر جملتين. تفحّصها.

t.me/yasmeenbook

"تأخذ كل المكان في غرفتي".

"سآخذها إلى حصّتي".

صوته حاقد. إلهي، إنه لا يتنازل عن شيء. يتحسّر على عدة قطع أثاث.

"رجاء. لماذا؟ النقل الكثير يضرّ بالكتب. عندي حلّ. اترك الكتب كما هي. لن ألمسها ومقابل هذا آخذ الغرفة الثالثة أيضاً. بجميع الأحوال الغرفة ما فيها شيء. غرفة الكتابة من حقّ الرجل وحده."

"تتعهّدين بالصمت خلال تناول الطعام!"

لا يعبأ بالأثاث. يبيعها إياه بثمن باهظ. إنها تبدأ بالحديث أحياناً أثناء تناول الطعام.

"أكيد. أنا يسعدني السكوت".

"نكتب تعهداً خطّيّاً!"

انزلقت بخفّة شديدة إلى طاولة المكتب خلفه. وقبل أن يجفّ حبر العقد الذي اقترحه وضعت اسمها تحته. "تعرفين علامَ وقّعت؟" سأل. رفع الورقة أمام ناظريه وقرأ عليها الجمل من باب التأكيد والأمانة.

"أؤكد أن كلّ الكتب الموجودة في الغرف الثلاث خاصتي ملك زوجي القانوني، وأنه لن يتغير حق الملكية هذا أبداً وتحت أية ظروف. أتعهّد مقابل التنازل عن ثلاث غرف بالصمت أثناء تناول الطعام المشترك".

اتفق الطرفان سعيدين. وتصافحا لأول مرة بعد حضورهما في دائرة الزواج.

بهذا علمت تيريزه قيمة صمتها بالنسبة له وهي التي تلتزم الصمت بحكم العادة. التزمت بكلّ دقّة بالشرط الذي فُرِض عليها. كانت تقدّم له الوجبات بصمت. تنازلت طواعية عن حلمها الأزلي بأن تشرح لزوجها طبيعة

t.me/yasmeenbook

الطبخ في المطبخ. حفظت كلمات العقد غيباً. الاضطرار إلى الصمت كان أشدّ وطأةً عليها من الصمت بحدّ ذاته.

ذات صباح، وهو يغادر غرفته مستعدّاً لجولة الصباح، اعترضت طريقه وقالت:

"الآن يحقّ لي الكلام. نحن لا نأكل. ما أقدر أنام على الكنبة. ثم هي ما تناسب طاولة المكتب. القطعة الأثرية الغالية وهذه الكنبة النشحة. بيت محترم يلزمه تخت محترم. نخجل إذا جاءنا ناس. الكنبة كانت ضاغطة عليّ دائماً. كنت أريد أقول هذا البارحة. لكني مسكت أعصابي. ربة البيت ما يناسبها الرفض. الكنبة قاسية كثير. أين في الدنيا يوجد مثل هذه الكنبة القاسية؟ وكلمة قاسي هنا ناعمة. أنا لست غير أخلاقية، لا أحد يقدر يتهمني بهذا. لكن النوم من حق الإنسان. النوم في وقت مناسب وتخت جيد، هذا هو الصح وليس هذا التخت الغليظ".

تركها كين تتكلم. لقد كان واثقاً من سكوتها طوال اليوم، لهذا وضع عقداً خاطئاً اشترط فيه الهدوء خلال أوقات الطعام فقط. هي لم ترتكب خطأً قانونياً. طبعاً فشلت أخلاقياً لكن مخلوقاً من نوعها لن يقرّ بهذا. فكّر أن يكون أكثر ذكاء في المرة القادمة. لو تكلم لأعطاها مناسبة للمزيد. مضى في طريقه كأنها خرساء وكأنه أصمّ.

إلا أنها ظلّت تتردّد عليه. تقف صباحاً تلو الصباح في الباب وتصرّ على تبيان قساوة الأريكة أكثر فأكثر. طال حديثها وازداد سوء مزاجه. ورغم أنه لم يتزحزح قيد أنملة إلا أنه أصغى إليها حتى النهاية من باب الدقّة والحرص. بدت معلوماتها عن الأريكة وافية كأنها هي من ينام عليها منذ سنوات. ولدت لديه وقاحتها انطباعاً معيّناً. كانت الأريكة أدنى إلى النعومة من القساوة. تمنّى أن يسدّ فمها الغبيّ بجملة وحيدة واحدة. تساءل إلى

t.me/yasmeenbook

أي مدى ستمضي في سفاهتها؟ ولكي يعلم هذا تجرّأ على إجراء اختبار صغير خبيث.

وعندما تهجّمت على الأريكة ذات مرة بمفردة قاسية، قاسية، قاسية، نظر إليها عن قرب نظرة استهزاء، وجنتان سمينتان، فم أسود وأعلن:

"أنت لا تعرفين هذا. أنا أنام عليها!".

"لكن أنا أعرف أنّ الكنبة قاسية".

"ومن أين لك أن تدري؟"

"لن أقول لك. لكلٍّ منا ذكرياته".

فجأة بدت له هي وابتسامتها الكريهة معروفتين. ظهرت تنورة داخلية ناصعة البياض، كشكش على أطرافها، ذراع ثقيلة تنهال على الكتب. فانتشرت هذه على الأرض كجثث. مسخ شبه عارٍ، شبه بلوزة، تطوي التنورة الداخلية وترتّبها وتغطّي بها الكتب، تكفّنها.

اعتكر كين من عمله في ذلك اليوم. لم ينجز شيئاً. شعر بالتقزّز من الطعام. لكن تمكّن مرة من النسيان. وبها قويت ذاكرته أكثر. لم يغمض له جفن طوال الليل. كأن الأريكة ملعونة ومصابة بالطاعون. لو أنها قاسية فقط لهان عليه الأمر، لكن قد التصقت بها ذكرى قذرة. نهض عدة مرات وأزال آثار الجريمة بيده. إلا أن الأنثى كانت ثقيلة وظلت حيث هي. رماها رمياً عن الأريكة، وما إن استلقى حتى حضرته صورتها من جديد. لم يقدر على النوم من شدة الكراهية. إنه بحاجة إلى ستّ ساعات نوم. بذلك ينتظر عملَه في الغد مصير عمله اليوم. لاحظ أن جميع الأفكار الشريرة تلفّ وتدور حول الأريكة. أنقذه خاطر خطر له في الساعة الرابعة صباحاً. قرّر التضحية بالأريكة.

t.me/yasmeenbook

انطلق بأقصى سرعة إلى غرفة المرأة بجانب المطبخ، وطرق على الباب حتى استيقظت من رعبها. لم تكن قد نامت. قلّ نومها منذ زواجها ومازالت تنتظر الحدث الأكبر ليلة بعد الأخرى. وقد حان موعده الآن. احتاجت عدة دقائق حتى تؤمن بما يجري حقاً. نهضت من الفراش بصوت خفيض، نزعت قميص النوم وارتدت التنورة الداخلية ذات الكشكش. كانت تخرجها ليلة بعد ليلة من الحقيبة وتعلّقها على الكرسي أمام السرير احتياطاً للحدث الأجلّ. رمت على كتفيها شالاً صوفياً عريضاً، القطعة الثانية الأصيلة من جهازها. فقد وضعت ذنب فشل المحاولة الأولى على البلوزة. اختفت القدمان العملاقتان، العريضتان في خف أخمر. همست من وراء الباب مبتهجة: "أعوذ بالله، هل يجب أن أفتح؟!". كانت تودّ القول: "ما الذي صار؟"

"بحق الشيطان، لا!"، صرخ كين غاضباً من نومها الثقيل المزعوم.

أدركت خطأها. حافظت النبرة الطاغية لصوته على بعض آمالها للحظة.

"غداً سيُشترى السريرا!"، زمجر. لم تردّ عليه.

"مفهوم؟"

استجمعت كل قدراتها على الاصطناع وفحّت عبر الباب: "مثل ما تريد".

ابتعد كين. صفق باب غرفته وراءه تأكيداً على ابتعاده وغرق من فوره في النوم.

نزعت تيريزه شالها. وضعته بحنان على الكرسي، ورمت صدرها الثقيل على الفراش.

إنه قليل الذوق. هل يعمل أحد هكذا؟ الواحد يظن أني أشحد منه شحادة. هل هو رجل؟ أنا ألبس له التنورة الحلوة بالكشكش الغالي وهو

t.me/yasmeenbook

لا يتحرك. لا يمكن أن يكون رجل. مقارنة به كان عندي غراميات مختلفة كلياً. ويا له من رجل حقيقي بطول وعرض أثناء خدمتي في البيت السابق حيث كان يزورهم دائماً. كان يمسك ذقني عند الباب ويقول كل مرة: "إنها تصغر يوم بعد يوم". هذاك كان إنساناً، طويلاً وقوياً وعليه الهيبة، ليس مثل هذا الهيكل العظمي. هذاك كانت نظرته مختلفة. همسة واحدة منه تكفيني. وعندما يجيء أذهب إلى غرفة الجلوس وأسأل: ماذا يريد السيد على وجبة الغداء غداً؟ لحم بقر مع كرنب أو مع بطاطا مسلوقة؟

مخدّماي لم يتفقا أبداً. هو يريد بطاطا مسلوقة وهي تريد كرنب. بذلك أتوجه إلى الزائر وأسأل: "ليقل السيد ابن الأخ ماذا يريد؟"

وها أنا ذا أراني حتى اليوم واقفة أمامه، هو الرتيلة الفاحشة، يقفز ويربت بيديه القويتين على كتفي: "لحم بقر مع كرنب وبطاطا مسلوقة".

هنا علينا أن نضحك؟ لحم بقر مع بطاطا مسلوقة؟؟؟ من يأكل هذا معاً؟ لم يعمل أحد مثل هذا الغداء قبلاً.

فأردّ: "السيد ابن الأخ عالي المزاج دائماً".

كان موظف بنك معفى من الخدمة مع تعويض نهاية خدمة، صحيح، لكن ماذا يفعل المرء بعد انتهاء هذه التعويضات؟ لا، أنا آخذ إنسان جاد عنده راتب تقاعد أو ابن ذوات عنده أملاك. والآن صرت بهذا الوضع. لازم المرأة ما تخرب كل حياتها لأجل علاقة غرامية. لازم تكون عاقلة. كل أفراد عائلتنا يعمرون طويلاً وهل هذا مستغرب مع نمط حياتنا الصحي؟ النتائج مضمونة إذا كان الواحد ينام باكراً ويظل طوال الوقت في البيت. حتى الأم، تلك العجوز البالية، نفقت وعمرها 74 سنة. مع أنها فعلياً لم تنفق. فطست من الجوع لأنه ما كان عندها شيء تعلفه في آخر أيامها. كانت بطرانة. تشتري بلوزة جديدة كل شتاء. وقبل أن تمرّ ستّ سنوات على وفاة الوالد أخذت واحد ثاني. ويا له من صنف. جزّار. يضربها ولا

t.me/yasmeenbook

يتوقف عن ملاحقة البنات الصغيرات. وأنا نفسي خربشت وجهه. كان يرغب فيّ، لكنني أقرف منه. وافقت على رغبته فقط لأزعج الوالدة. كانت تقول دائماً: كل شيء من حق الأولاد. وكيف كانت تبحلق لمّا تعود من العمل وترى زوجها عند بنتها. لم يحدث شيء بعد. الجزار يريد القفز إلى الأسفل، لكن أنا أمسكه بحيث لا يفلت من بين يدي حتى تدخل الختيارة إلى الغرفة، حيث التخت. هنا تطلق صرخة. تحضنني، تبكي وتريد حتى أن تبوسني. لكن لا أرضى وأخدش.

"أنت زوجة أب أنت، وأيّ زوجة أب!" أصرخ فيها. ظلت حتى نفوقها تظن أن الرجل نال عذريتي. مع أن هذا غير صحيح البتة. أنا شخص محترم وما أقمت علاقة مع أحد حتى الآن. إذا الواحدة لم تدافع عن شرفها يتجمع حولها الرجال مثل الذبّان. وماذا؟ كل شيء يغلى يوم بعد يوم. سعر البطاطا تضاعف ولا أحد يعرف إلى أين ستنتهي الأمور، وأنا لن أكون شريكة بهذا الشيء، أنا الآن امرأة متزوجة وأمامي وحدة الشيخوخة.

كانت تيريزه تعرف عدة تعابير جميلة من الإعلانات في الجريدة، مطالعتها الوحيدة، تقتبسها في ساعات التأثر أو بعد اتخاذ قرارات حاسمة. ولمثل تلك الكلمات تأثير مهدئ عليها. كرّرت: أمامي وحدة الشيخوخة. وغرقت في النوم.

بعد عدة أيام وبينما كين مثابر على عمله جاء رجلان بالسرير الحديدي. اختفت الأريكة واختفى معها ما كان ملتصقاً بها من آثار. أخذ السرير مكانها. نسي الرجلان إغلاق الباب بعد أن خرجا. فجأةً جاءا بمغسلة وسأل أحدهما: "أين نضع هذا؟" أبى كين: "لا مكان لها. أنا لم أطلب مغسلة".

"إنها مدفوعة"، قال القصير بينهما.

"والكومودينة أيضاً"، عقّب الثاني وجلبها من الخارج، برهاناً خشبياً على مقولته.

t.me/yasmeenbook

أطلّت تيريزه على العتبة. جاءت من التبضّع. وقرعت الباب المشرع قبل أن تدخل: "مسموح؟". "نعم"، هتف الرجلان مكان كين وضحكا.

"وصل السادة؟"، انزلقت بتهذيب نحو زوجها. سلّمت عليه بكتفيها ورأسها المألوف كأنهما صديقان حميمان منذ سنوات وقالت: "ألست شاطرة؟ بنفس المصاري! الرجل يطلب قطعة واحدة والمرأة تجلب ثلاث قطع إلى البيت".

"لا أريدها. أحتاج إلى السرير فقط".

"طيّب، ولمَ لا؟! الرجل لازم يتغسل!".

تبادل العاملان النظرات. ظنّاً أنه لم يكن يغتسل قبلاً. أرغمته تيريزه على حديث بين زوجين. هو لم يكن راغباً في أن يجعل نفسه أضحوكة. لو بدأ الكلام عن عربة الغسيل لاعتبروه أبله. فضّل أن يحتفظ بالمغسلة رغم قطعة المرمر الباردة. يمكن إخفاء نصفها خلف السرير. وكي ينتهي من الأثاث غير المرغوب بسرعة ساعد في العمل.

"الكومودينة فائضة عن الحاجة"، قال مشيراً إلى ذلك الشيء الواطئ القميء الذي ما زال في وسط الغرفة العالية.

"والمبولة؟"

"المبولة!!"، أذهلته فكرة وجود مبولة في المكتبة.

"نضعها تحت التخت؟"

"ما الذي يخطر لك؟"

"هل يجوز إحراج الزوجة أمام الغرباء؟"

إذاً هي تريد الكلام لغاية الكلام. هي بحاجة إلى الكلام، الكلام، الكلام، لا غير واستغلت وجود العمال لهذه الغاية. أما هو فلا يرضى أن يملي عليه أحد الهراء. ومقارنة بكلماتها، المبولة كتاب.

t.me/yasmeenbook

قال للرجلين بجفاء: "ضعاها هناك، عند السرير. والآن يمكنكما الانصراف".

رافقتهما تيريزه إلى الخارج. كانت لطيفة مهذّبة وأعطتهما خلافاً لعادتها إكرامية، من جيب الزوج. عندما عادت أدار لها ظهر الكرسي الذي عاد للجلوس عليه. لم يعد راغباً أن يتشارك معها في أي شيء، ولا حتى النظرات. وبما أن طاولة المكتب أمامه لم تستطع تيريزه الاقتراب منه، واكتفت بوجهه الغاضب من الجانب. شعرت أنه من الضروري لها أن تبرّر الموقف، وشكت من عربة الغسيل: "نفس العمل مرّتين في اليوم. مرّة في الصباح ومرة في المساء. هل هذا مقبول؟ لازم تراعي الزوجة أيضاً. الخادمة تأخذ ...."

نهض كين وأطلق أمره دون أن يلتفت إليها: "هدوء! ولا كلمة أخرى! يبقى الأثاث على ما هو عليه. لا حاجة إلى أيّ جدل. بدءاً من الآن سأغلق الباب إلى غرفك. أمنع عليك دخول هذه الغرفة ما دمت فيها. الكتب التي أحتاجها من هناك أجلبها بنفسي. أحضر على وجبات الطعام في تمام الواحدة وتمام السابعة. أرجو ألا أُنادى، لأني أستطيع قراءة الساعة بنفسي. سأتدخل ضد أيّ إزعاج. وقتي ثمين. أرجوك اخرجي!".

ضرب أنامل اليدين بعضها بالبعض الآخر. لقد عثر على الكلمات الصحيحة: واضحة، عملية، علمية ومحترزة. وكيف ستتمكن هي بلغتها الشحيحة من الردّ عليه. خرجت وأغلقت الباب وراءها. أخيراً تمكّن من إخراسها. لقد أراها من هو السيد، عوض عقد صفقات معها لا تفهم مغزاها ولا تحترمها. لقد ضحّى بالكثير: حرية الرؤية عبر الغرف المعتمة، المترعة بالكتب، نقاء مكتبه من الأثاث. أما ما كسبه فقد كان أكثر: إمكانية متابعة العمل وشرطه الأول والأخير هو الهدوء. كان يتنفس الصمت كما يتنفس الآخرون الهواء.

t.me/yasmeenbook

بجميع الأحوال اضطرّ للتعوّد على التغيّرات الهائلة في محيطه. ضاق فضاؤه إلى ربع المساحة السابقة، فبدأ يفهم مأساة السجناء الذين كان يعتبرهم سعداء خلافاً للرأي الشائع. كان السجن برأيه فرصة للتعلّم، الإنسان لا يتعلم بتاتاً في فضاء حرّ. إذاً، لقد ولّى زمن ذرع المكان أثناء التعمّق في التفكير. في سالف الأزمان، عندما كانت الأبواب كلّها مفتوحة، كان هواء المكتب طيّباً. كانت الكوّات في السقف تسنح المجال للهواء والأفكار. في لحظات التوتر كان يمشي أربعين متراً ويعود أربعين متراً. وكانت حرية الرؤية إلى الأعلى تحاكي هذا المدى المنعش، يشعر بالوضع العام للسماء عبر زجاج النوافذ، أهدأ وأخفّ مما هو في الواقع. كانت الزرقة الغلساء تقول: الشمس ساطعة لكن لا تصل إليّ، والرمادي المغبش يقول: ستمطر لكن ليس على رأسي. صوت ناعم يشي بالقطرات المنهمرة. يدركها المرء من بعيد دون أن يتبلّل بها. يعرف الناظر: الشمس تشرق، الغيوم تعبر، المطر ينهمر. كأن المرء تمترس ضد الأرض، ضد الكائنات المادية فقط، بنى حجرة للوقاية من كل الكوكب، حجرة هائلة، كبيرة بحيث تكفي القليل، القليل الذي هو أكثر من التراب على الأرض وأكثر من الرماد، الرماد الذي تتحول إليه الحياة. أحكم تحصينها وملأها بهذا القليل. كأن المسافر في المجهول لا يتحرك. يكفي التيقّن بالنظر عبر الكوى من بقاء بعض قوانين الطبيعة: تبدّل الليل والنهار، تقلّبات الطقس المزاجية المستمرّة وسيلان الزمن ليتحرّك المرء في ذاته.

الآن تضاءلت الحجرة. حين يرفع كين عينيه عبر طاولة المكتب في زاوية الغرفة تصطدم نظراته بباب عبثي. يقيناً تقع وراءه ثلاثة أرباع المكتبة، فهو يشعر بها عبر مئات الأبواب المغلقة، لكنّه شعور بالمرارة بعد الكتب التي كان يلمسها قبلاً لمس اليد. أحياناً يلوم نفسه لأنّه قطع بكل طواعية أوصال العضوية التي خلقها بنفسه. حسناً، ليس بالكتب حياة، ليس لديها مشاعر، إذاً فهي لا تحسّ بالألم، كما تعاني الحيوانات وربما النباتات أيضاً.

t.me/yasmeenbook

لكن! من هو الذي برهن حقاً على عدم وجود إحساس لدى اللاعضوي! من يعرف ما إن كان الكتاب لا يشتاق إلى من عاش معهم مدة طويلة بطريقة غريبة علينا ولهذا نتعامى عنها؟ تطرأ على أيّ كائن مفكّر لحظات تبدو له فيها الحدود التي وضعها العلم بين العضوي واللاعضوي مصطنعة وقديمة ككل الحدود الإنسانية. تتجلّى المفضّلة السرية لهذا التمييز في عبارة "المادة الميتة". ما هو ميت كان حيّاً. إذا كنا نقرّ لمادة ما أنها لا تحيا فإننا نتمنى أنها كانت حية يوماً ما. أشدّ ما يثير استهجان كين هو أن الناس يعتبرون الكتب أدنى قيمة من الحيوانات. أيجوز أن يكون أعظم ما يرسم لنا أهدافنا، أي وجودنا، أقل حظوة بالحياة من أوهى القرابين، أي الحيوان؟ إلى هذا الحدّ وصل به الريب، إلا أنه خضع للرأي الدارج. إن قوة العالِم تكمن في حصر كلّ الشكوك في دائرة تخصّصه. هنا يدعها تختمر اختماراً مستداماً ومتعنّتاً، ويستسلم عموماً لما هو سائد. يرتاب لأسباب مقنعة في وجود الفيلسوف لي تسه، يعتبر بداهة أن الأرض تدور حول الشمس وأن القمر يدور حولنا.

كما أن لدى كين أموراً أهمّ ليتدبرها ويقهرها. تستدرّ قطع الأثاث كراهيته، تنفّره لأنها تتمادى، تتكالب على دراساته، يتناقض عِظم المكان الذي تحتلّه مع تفاهة معناها. غدا تحت رحمتها، تلك الكتل الفظّة، متى كان يعنيه أين ينام وأين يغتسل؟! لا، بل قريباً سيبدأ الكلام عن الطعام أيضاً! مثله مثل تسعة أعشار البشر، الذين يملكون منه فائضاً أكثر بكثير من الذين يعوزونه.

كان مستغرقاً في إعادة إنتاج نصّ. الكلمات تتقصّف. جائعاً كصياد، عيناه ملهوفتان، مستثاراً، لكن ببرود يتسلّل من جملة إلى جملة. احتاج إلى كتاب. نهض وجلبه. وقبل أن يناله ألحّ عليه السرير اللعين، شتّت السياقَ المتقن وأبعدَه أميالاً عن طريدته. المغاسل تتعقّب أجمل الطرائد. رأى نفسه نائماً في عزّ النهار. كلما جلس، عليه البدء من جديد، البحث

t.me/yasmeenbook

في قطاع الصيد، التوغل في العمق. لماذا خسارة كل هذا الوقت؟ لماذا إضاعة كل الجهد والتركيز؟

شيئاً فشيئاً اغتلم قلبه على السرير. لم يأمر بتبديله بالأريكة فهذا بحدّ ذاته إزعاج. لم يأمر بإقصائه من الغرفة، فالغرف الأخرى ملك المرأة. وهي لن توافق أبداً على التنازل عما استحوذت عليه مرة. يشعر بهذا دون أن يفاتحها بالأمر. لا يرغب أساساً بخوض المفاوضات. لديه الآن ميزة لا تقدّر بثمن. لم يتبادلا كلمة واحدة منذ أسابيع وهو يتّقي كسر جدار الصمت. يفضّل تحمّل الكومودينة والمغسلة والسرير على أن يصل به العته إلى أن يشجّعها على ثرثرة جديدة. يتحاشى غُرَفَها كي تبقى الأوضاع على ما هي عليه. يأخذ الكتب التي يحتاجها من هناك بعد وجبة الغداء أو العشاء، لأنه في هذه الأوقات يقضي حاجة في غرفة الطعام، بتعبيره. لا ينظر إليها خلال تناول الوجبات، ولا يمكنه قطّ التخلّص من الرعب الخفي من أن تقول فجأة شيئاً ما. لكن ورغم ثقل ظلها عليه، يقرّ لها بأنها تلتزم بنص العقد.

كان كين يغمض عينيه في وجه الماء أثناء الاغتسال. عادة قديمة. يضغط جفنيه أكثر من اللازم كأنما ليمنع الماء من إذلال عينيه. لا يثق بأيّ شيء، فربما ضرّ الماء عينيه. وساعده هذا العرف في التغلّب على المغسلة. يفرح بالاغتسال حين يستيقظ صباحاً. وهل يتحرّر من الأثاث في أيّ وقت آخر؟ حين ينحني على حوض الغسيل لا يرى تلك الحاجات الكيدية (كل ما يشغله عن العمل كيدي). منحنياً بعمق على حوض الغسيل، رأسه تحت الماء، يحلم بالسنوات البائدة، حيث الخلاء الهادئ الحنون، عمليات تحقيق النصوص ترفرف في الفضاء دون أن تصطدم بأيّ شيء. لم تكن الأريكة تلفت الأنظار كثيراً بحيث يخال أنها غير موجودة، أنها سراب يظهر عنوةً في الأفق ويختفي فوراً.

نتج بداهة أن اعتاد كين العيون المغمضة. حين ينتهي من الاغتسال لا يفتح عينيه. يسكن برهة إلى حلمه عن قطع الأثاث المختفية عن الوجود.

t.me/yasmeenbook

وقبل أن يقف إلى المغسلة ينزل عن السرير، يغمض عينيه حادساً الخفّة القادمة فوراً. كإنسان يكافح ضد نقاط ضعفه، يحاسب نفسه ويجتهد لتحسين أدائه، يقول: إن هذا ليس ضعفاً بل قوة. يجب تنميتها حتى لو نتجت عن نزوة عميقة. ومن يعلم بكل هذا، إنه يعيش وحيداً، ما يفيد العلم أهمُّ من رأي العوامّ. تيريزه لم تتمكن من ضبطه متلبساً. وكيف تجرؤ على مفاجأته في خلائه الخاص وتنقض المعاهدة؟!

في البداية امتدّت فترة العماء حتى بعد ارتداء الثياب. ثم بدأ يجد طريقه إلى طاولة المكتب أعمى. فقد بدأ ينسى أثناء العمل ما يتربص به بسرعة أكبر مما لو رآه. يحرّر عينيه أمام المكتب. تفرحان بالفتح، تكسبان الخفة. ربما تستمدّان القوة من فترة الراحة التي يمنحهما إياها برحابة صدر. يؤمّن عليهما من الغارات الصاعقة. يستخدمهما فقط في المكان المثمر، في القراءة والكتابة. كان يأخذ الكتب التي يحتاجها وهو أعمى. بداية كان يضحك بنفسه على هذه الحيل الغريبة. كم مرّةً مدّ يده إلى الكتاب الخطأ وعاد خالي الذهن مغمض العينين إلى طاولة المكتب. فيلاحظ هنا أنه ابتعد بمقدار ثلاثة مجلدات يميناً، بمقدار مجلد يساراً، بل وأحياناً مدّ يده أعمق بمقدار رفّ كامل. لم يعبأ بكل هذا ولم ييأس، فهو صبور ويعود في دربه مرّة أخرى. لم يندر أن شعر بالرغبة في النظر إلى العنوان، تلمّس ظهر الكتاب، قبل أن يصل إلى مواقعه. فيرمش أو يلقي نظرة سريعة ويمضي بسرعة البرق. لكنه كان يسيطر على نفسه أغلب المرات وينتظر الوصول إلى طاولة المكتب حيث لا يهدّد عينيه أيُّ خطر.

جعل منه التمرّن على السير أعمى معلِّماً. لم تمضِ ثلاثة أو أربعة أسابيع حتى غدا يجد ما يحتاجه بأقصى سرعة دون غشّ وخداع وبعينين مغلقتين حقاً. اعتمد على فطرته حتى وهو على السلم. يضعه بدقّة تامة في المكان الذي يبغيه. يمسكه بأصابع مدبّبة من الجانبين ويصعد

t.me/yasmeenbook

الدرجات أعمى. كما أنه يحافظ على توازنه وهو فوق أو وهو ينزل الدرجات. بذلك تجاوز حتى تلك المصاعب التي كانت تصادفه حين كان يرى ولم ينتصر عليها آنذاك لأنها لا تعنيه. كما اعتاد كأعمى على استخدام أفضل لرجليه. سابقاً كانتا تعيقان حركته. كانتا هزيلتين جدّاً مقارنة بطولهما. أما الآن فهما تخطوان بقوة وحساب. كأنهما كسبتا عضلات وقوة، إنه يعتمد عليهما وهما تدعمانه. هما تريان مكانه، هو الأعمى، وهو دعم الأرجل التي كانت مشلولة سابقاً بأفضل منهما.

طرح عن نفسه عدة خصال ما دام لا يثق تماماً بالسلاح الذي سكّه لأجل عينيه. لم يعد يأخذ الحقيبة الملأى بالكتب أثناء نزهات الصباح. لأن تلك الجوقة، هكذا يسمّي قطع الأثاث التي بدأت تختفي من وعيه، لكن للأسف تدريجياً فقط، كانت ستلفت انتباهه إذا ظل ساعة يتأمل رفوف الكتب دون أن يحسم أمره. ثم حين لاحظ نجاحه، تشجّع وغدا يملأ الحقيبة وهو أعمى وجريئاً. وحين لا يعجبه محتواها فجأة، يفرغها ويعاود البحث كأن كل شيء ظلّ كما كان عليه، هو، المكتب، المستقبل والتوزيع الدقيق والعملي للساعات.

على كل حال، ظلت غرفته تحت سلطته. ازدهر العلم. اندفعت المقالات كالفطر من تحت طاولة المكتب. سابقاً كان يستخفّ بالعميان وفرحهم بالحياة رغم عجزهم الظاهر، لكنه، حالما قايض حكمَه السابق بميزة، عثر على الفلسفة الملائمة.

العماء سلاح ضد الزمان والمكان. كينونتنا عماء كليّ عدا ذلك القليل الذي ندركه بحواسنا التافهة، تافهة بكيانها ومداها. المبدأ السائد في الكون هو العماء. فهو يمكّن وجوداً مشتركاً للأشياء بعضها جانب البعض الآخر، أشياء ستكون مستحيلة لو رأى بعضها بعضاً. هو العماء يبيح تقويض

t.me/yasmeenbook

الزمن حين لا يستطيع المرء صرعه. مثلاً ما الفرق بين بَوْغ دائم وقطعة من الحياة مغلّفة بالعماء حتى أجل غير مسمّى؟ توجد فقط وسيلة واحدة للنفاذ من الزمن الذي هو استمرارية دائمة. وهي ألا يراه المرء من وقت إلى آخر، يهشّمه، يجزّئه إلى الجزيئات التي يعرفها منه.

كين لا يكتشف العماء إنما يستغلّه فقط، إمكانية طبيعية يعيش عليها المبصرون. ألا يستغل المرء اليوم كل الطاقات التي يسيطر عليها؟ وما هي الاحتمالات التي لم يستولِ عليها الإنسان بعد؟ البلهاء يعبثون بالكهرباء والذرّات. تملأ غرفةَ كين أوهامٌ يغطي عليها بخارُ العماء، أصابع وكتب. الصفحة المطبوعة، الواضحة، والمبوّبة مثل أيّ صفحة غيرها ليست سوى كمّ جهنّمي من الإلكترونات المتسارعة. لو كان وعى هذا دائماً لرقصت الحروف أمام عينيه. لشعرت الأصابع بضغط تلك الحركات الشرّيرة مثل لسعات دبابيس رفيعة الرأس. لأنهى في اليوم سطراً ضعيفاً، لا غير. من حقّه أن ينقل العماء الذي يقيه من مجون الحواس إلى جميع العناصر المزعجة في حياته. الأثاث غير موجود بالنسبة له مثل جيوش الذرات فيه ومن حوله. أن تكون هو أن تُدرَك حسّياً[1]، ما لا أدركه غير موجود. ويلٌ للمخلوقات الهشّة التي تميل حيث تميل الريح.

بهذا نتج بالمنطق السليم أن كين لا يخدع نفسه بأيّ حال من الأحوال.

---

1) في إحالة إلى جورج باركلي (1685 - 1753) الشهير بلقب الأسقف باركلي، أسقف كلوين، فيلسوف إيرلندي طور نظرية أطلق عليها اسم (اللامادية) ويشار إليها أيضاً باسم (المثالية الذاتية). في 1710 كتب كتابه الفلسفي الثاني بعنوان (بحث في مبادئ المعرفة الإنسانية) شرح فيه مبدأيه الأساسيين: esse est percipi أن تكون هو أن تُدرَك، و esse est percipere أن تكون هو أن تدرِك.

t.me/yasmeenbook

الرؤوم العزيزة

تعمّقت ثقة تيريزه بنفسها مع الأيام. لم تؤثّث من غرفها الثلاث إلا واحدة فقط، غرفة الطعام، بينما ظلت الأخريان فارغتين، وفي هاتين تحديداً كانت تقيم كي تتجنّب استهلاك أثاث غرفة الطعام. كانت تقف عادةً خلف الباب المؤدّي إلى غرفته، تلبث الساعات وأنصاف الأيام تصيخ السمع ساندةً رأسها إلى شقّ لا ترى من خلاله شيئاً، مسدّدةً مرفقيها نحوه دون أن تعتمد على كرسي، منتصبة على ذاتها وعلى تنورتها، وتنتظر. تعرف ماذا تنتظر. ولا تتعب. تضبطه متلبّساً بالكلام فجأة مع أنه وحيد. فتشمت: لا تعجبه زوجته ولذلك يتحدث إلى الفراغ. يستحقّ هذه العقوبة. وتنسحب قبل وجبتي الغداء والعشاء إلى المطبخ.

يشعر بالهناءة والرضا وهو يعمل بعيداً عنها. وهي لا تبعد عنه أغلب الأوقات إلا خطوتين بالضبط. يخطر له أحياناً أنها تكيد مكيدة، إلا أنها تلتزم بمعاهدة الصمت وتصمت. قرّر إجراء حملة تفتيش على الكتب في غرفها مرة في الشهر. فلا أحد لا يغترّ بسرقة الكتب.

ذات يوم، في العاشرة صباحاً وهي تمارس متعتها في إصغاء السمع، فتح الباب فجأةً وقلبه مشبوب بكل لوعة التفتيش. فزعت وكادت تسقط.

هتفت منذهلة من صفاقته: "وهذا أيضاً تصُّرف؟! الواحد يدقّ الباب قبل ما يدخل. يمكن أحد يظن أني أتجسّس، وهذا في غرفي أنا. ما فائدة التجسّس؟ الرجل يسمح لنفسه بكل شيء لمجرّد أنه تزوج. هنا تقول الناس: تفو، قلة أدب، تفو!".

t.me/yasmeenbook

ماذا؟ عليه أن يقرع الباب قبل أن يحقّ له الدخول على كتبه. قلة حياء وأدب. وقاحة، شذوذ! لقد طاش صوابها. ألا فليهوينّ عليها بصفعة! قد تعقل بها.

تخيّل آثار أصابعه على وجنتيها البدينتين، الدهنيتين واللماعتين. من الظلم تفضيل خدّ على آخر. إذاً يجب أن يضرب باليدين معاً وإذا لم تهوِ الصفعتان على المستوى ذاته، ستكون الخطوط الحمراء على جهة أعلى منها على الجهة الأخرى. سيكون المظهر قبيحاً وغير متناسق. لقد ولّد فيه الانشغال بالفن الصيني شبقاً عارماً تجاه الهندسة.

توسّمت تيريزه أنه يتفحّص وجنتيها. نسيت مسألة القرع على الباب، التفتت وقالت بغنج: "خلاص، لا داعي!". لقد انتصر دون صفعات. انطفأت جذوة رغبته بوجنتيها. توجّه منتشياً نحو رفوف الكتب. لبثت تنتظر. لماذا لا يقول أي شيء؟ بشزر حذِر لاحظت التغيّرات على سيماه، ولهذا آثرت الذهاب إلى المطبخ. حيث تفضّل حلّ أحاجيها.

لماذا قالت ما قالته؟ ها هو ذا يعوفها مرة أخرى. إنها محترمة. غيرها كانت سترتمي عليه من فورها. لا أحد يعرف كيف يتصرف معه. هكذا هو طبعها. لو كانت أكبر سناً لزعلَت. هل يطلقون على هذا صفة رجل؟ ربما ليس رجلاً؟ يوجد كثير من الرجال ليسوا رجالاً. البنطال ليس دليلاً كافياً، فهم يرتدونه دون وجه حقّ. لكنهم أيضاً ليسوا نساء. نعم، مثل هذه الحالات موجودة. من يعرف متى سيرغب مرة أخرى؟ مع إنسان كهذا يتطلب الأمر سنوات كثيرة. صحيح أنها ليست عجوزاً لكنها أيضاً لم تعد فتاة صغيرة. هي واثقة من هذا وليست بحاجة إلى أن يقوله لها أحد. صحيح أنها تبدو في الثلاثين لكنها لم تعد تبدو كابنة العشرين. يلتفت إليها جميع الرجال في الشارع. وماذا قال لها البائع في محلّ الأثاث: "نعم، في الثلاثينات، وفي مثل هذا العمر يتزوج أبناء الطبقة الراقية، سواء سيدات أم سادة". هي من ناحيتها كانت تعتقد أنها تبدو

t.me/yasmeenbook

في الأربعين، وهل هذا عيب في عمر السادسة والخمسين؟ لكن هل بيدها حيلة إذا أقرّ بذلك شابٌّ في مقتبل العمر، ولا بد أنه يعرف خبايا الأمور. "رجاء! أنت تعرف كل شيء"، هكذا ردّت عليه. شابّ مثير. لم يلاحظ سنّها فقط، بل أيضاً أنها متزوجة. وهي؟ إنها مضطرّة للعيش مع عجوز. قد يظن الناس أنه لا يحبها.

أضافت تيريزه مفردتيَ "الحبّ" و"أحبّ"، بكل تصريفاتهما، إلى ذخيرتها من معجم الإعلانات. كانت في فتوّتها قد تعلمت كلمات أكثر خشونة وأدقّ صواباً. ظلت هاتان اللفظتان أعجميتين، غريبتين على حياتها، حتى بعد أن تعلّمت لدى مخدّميها مصادر جديدة للكلام. شفتاها لم تنبسا قط بهذه السلوى المقدّسة، لكنها تستغلّ كلّ فرصة سانحة، فتتوقف طويلاً حين تقرأ كلمة "حب" وتتقرّى سياقاتها. بل كانت إعلانات الحب تحجب إعلانات الوظائف المغرية بين الحين والآخر. تقرأ "دخل كبير" فتمتد ذراعها وتتكور يدها تحت ثقل النقود المتدفقة. ثم ينزلق بصرها بعد عدّة خانات على مفردة "حب"، فيهنأ قليلاً ويهيم في حضرتها عدة دقائق. لكنها هنا أيضاً لا تنسى بغيتها ولا تتنازل بأي حال من الأحوال عن رهز جماع النقود في يدها، إنما تتستّر عليها بغلالة الحب برهة.

تظل تيريزه تكرّر: "ما يحبني". يتغير نطق الكلمة النطفة إلى "يعبّني" وتسيل قبلة على شفتيها. وهذه سلواها. تغمض عينيها، تضع البطاطا المقشّرة جانباً، تمسح يديها بمئزرها وتفتح باب الحجرة الصغيرة، تلجها، يحافظ الوميض على عينيها مغمضتين، ترتفع حرارتها فجأة، تتراقص كريات في الفضاء، حباحب حمراء، تضيق المسافة، تنشقّ الأرض، تسقط الأقدام في الشقوق، ضباب، ضباب، ضباب آسر، تشعر بالدوار، الحقيبة، جهاز العروس، من سرق أشياءها، النجدة.

وحين تستعيد وعيها تجد نفسها على السرير. تبدو الحجرة نظيفة ومرتبة، كل قطعة في مكانها الموائم. فتشعر بالخوف. قبل قليل كانت

t.me/yasmeenbook

الحجرة فارغة ثم امتلأت. من يفهم هذا؟ فلا تبقى فيها. الحرارة تسبّب المرض، المساحة تضيق، الفوضى تعثو. فجأة تشعر بالموت من الوحدة.

رتّبت ثيابها المتجعدة وانزلقت إلى المكتبة.

قالت مباشرة: "الآن كنت سأموت. غشي على قلبي. قلبي وقف. الشغل الكثير والأوضة النشحة. طبعاً يموت فيها الإنسان".

"كيف؟ ما إن خرجت من هنا حتى شعرت بالدوار؟"

"ما دوخة. إغماء!".

"لقد مرّ الكثير من الوقت. أنا مع الكتب منذ ساعة".

"ماذا! طول هذا الوقت!" بلعت تيريزه ريقها. لا تتذكر أنها مرضت يوماً ما.

"سأرسل في طلب الطبيب".

"ما أريد دكتور. أنا لازم أبدل غرفتي. ما أقدر أنام هناك. أنا أحتاج نوم صحي. الأوضة جنب المطبخ أنشح أوضة في كل الشقة. أصلاً هي أوضة خدّامين. لو عندي خدامة أجبرها على النوم فيها. البني آدم ما يقدر ينام فيها. أنت أخذت أحسن أوضة. يحق لي آخذ ثاني أحسن أوضة بجانبها. رجل مثلك يعتقد فعلاً إنه وحده يحتاج للنوم. إذا بقي الوضع هكذا سأمرض. وتبقى لحالك. يبدو إنك نسيت تماما تكاليف الخادمة".

ماذا تريد منه؟ إنها تتنقل في غرفها بكامل راحتها. سيّان لديه أين نامت. لم يقاطع حديثها بسبب الإغماء. يندر أن يغمى عليها، لحسن الحظ. ولشفقته المدّعاة عليها – كما قال لنفسه –، أرغم نفسه على الاستماع إليها من جديد.

"ومن جاء على سيرة التحرش؟ لكل واحد غرفته. ما يصير شيء. أنا ما

t.me/yasmeenbook

هكذا واحدة. غير نسوان يجلبون الفضيحة لنفسهن. تحمرّ خدود الواحدة منا. هل أنا محتاجة لهكذا شيء؟ أريد موبيليا جديدة. الأوضة الكبيرة فيها مكان كفاية. هل أنا شحّادة!؟"

أدرك الآن ماذا تريد. المزيد من الأثاث. هو من ضرب الباب في وجهها. إذاً هو السبب في إغمائها. هذا يعني أنه على المرء ألا يفتح الباب بكل ذلك العنف. لقد نالت منها الصدمة. هو ذاته خاف. لم تنهل على رأسه بالملامات. تعويضاً لسخائها هذا يمكن السماح لها بجلب قطع الأثاث.

قال: "الحقّ معك. اشتري أثاث غرفة نوم جديدة!".

عقب الانتهاء من وجبة الغداء انزلقت تيريزه على الشوارع حتى وجدت أغلى محلات الأثاث. وأمرت بأن يردّدوا على أسماعها أسعار غرف النوم. لم يبدُ أيٌّ منها غالياً كفاية. وعندما عرض عليها صاحبا المحل، وهما أخوان سمينان يزايدان كلٌّ منهما على الآخر، بالنهاية، سعراً يعرف كل إنسان شريف أنهما يبالغان فيه، التفتت، قذفت رأسها نحو الباب وأعلنت متحدّية:

"السادة المدراء مفكّرين أن الواحدة منا تسرق المصاري سرقة".

غادرت المحل واتجهت من فورها إلى المنزل، ومن ثم إلى مكتب زوجها:

"ماذا تريدين؟"، كان غاضباً. فقد دخلت مكتبه في الرابعة عصراً.

"لازم أحضّر الرجل للأسعار. وإلا خاف إذا طلبت المرأة فجأة مصاري كثيرة. يا إلهي، غرف النوم اليوم غالية كثير. لولا إني شفت بعيوني لما صدقت. وجدت غرفة عادية بسعر معقول. الأسعار هي هي في كل المحلات."

ثم لفظت المبلغ وجلة. لم تكن به أدنى رغبة في اجترار القصص التي

t.me/yasmeenbook

انتهى منها منذ زمن بعيد؛ منذ الظهر. عجولاً ملأ شيكاً بالمبلغ، وأشار بإصبعه إلى اسم المصرف حيث يحقّ لها أن تصرفه، ثم فتح الباب.

لمّا صارت في الخارج، تيقّنت تيريزه أن السعر الجنوني مكتوب في الورقة. فشعرت بالحسرة على النقود الغالية. وجدت أنها غير مضطرة لشراء غرفة نوم فاخرة. لقد عاشت طوال عمرها حياة عفيفة متقشفة. فهل تنسى الاحتشام فجأة بعد الزواج؟ إنها ليست بحاجة إلى البطر. تفضّل أن تشتري غرفة نوم بنصف المبلغ وتحول النصف الآخر على صندوق توفيرها. بهذا يكون عندها ما يمكن الاعتماد عليه في الأيام السوداء. كم كان عليها أن تعمل لتكسب كل هذا المال؟ لا يمكن حساب الوقت مطلقاً. كانت ستعمل لأجله سنوات كثيرة بعد. وهل تحصل على شيء بالمقابل؟ كان عليها أن تضبط أمورها قبل عقد الزواج. يجب أن تستمر في الحصول على أجرها، فهي مستمرّة في العمل نفسه. بل زاد عليها العمل الآن، لأن غرفة الطعام زادت وكذلك الأثاث في غرفته. وعليها هي أن تنفض الغبار عن كل هذه الأشياء. وهل هذا قليل؟ يجب أن تنال أجراً أعلى من السابق. لا توجد عدالة.

ارتعش الشيك في يدها لشدّة السخط. خلال العشاء رسمت على وجهها أكثر الابتسامات شرّاً. تلاحمت العينان وزاويتا الفم قرب الأذن. جحظت العينان من شقّيهما الضيّقين.

"غداً لا يوجد طبيخ. ما عندي وقت. ما أقدر أعمل كل شيء بنفس الوقت". والتزمت الصمت مستطلعة آثار كلماتها. لقد انتقمت على سوء فعلته. أخلّت بشروط العقد وتحدثت خلال تناول الطعام. "هل أكون رديئة لأني ما طبخت؟ الإنسان يأكل الغداء كل يوم، لكن غرفة النوم مرة واحدة بالعمر. دقّ الحديد وهو حامي. غداً ما أطبخ. لا".

"حقاً؟!" نزلت عليه فكرة فاحشة انتهكت حقوق المحظورات اليومية.

t.me/yasmeenbook

"حقاً لا؟" وكان صوته يشي بنوع من الضحك.

ردّت مهتاجة: "ما يوجد داعي للضحك. الإنسان ما يقدر يقوم بكل واجباته من كثر الشغل. هل أنا خدامة؟". فقاطعها بمزاج رائق:

"فقط الزمي الحذر! استطلعي أكبر قدر ممكن من الحوانيت، قارني الأسعار قبل أن تأخذي قرارك. التجار محتالون بطبيعتهم. وطبعاً يحاولون غشّ النساء أضعافاً مضاعفة. استريحي في الظهيرة في مطعم ما، لأن صحتك اليوم لم تكن على ما يرام، وتناولي وجبة غداء غنية. لا تأتي إلى المنزل. الطقس حار وسترهقين نفسك. لا تستعجلي كثيراً. ولا تقلقي بشأن وجبة العشاء. أنصحك بإطالة البقاء حتى تغلق الحوانيت أبوابها".

أرغم نفسه على نسيان أنها قد اختارت الغرفة وطلبت منه المبلغ المحدد لسعرها.

"يمكن أكل حواضر على العشاء"، قالت تيريزه وهي تفكر: الآن سيحمّلني جميلة. يُلاحظ هذا إذا خجل الذي أمامك. هل يقوم أحد باستغلال زوجته. من حقّ الرجل يعمل مهما يريد مع الخادمة، لكن ليس مع الزوجة. لهذا تسمى الزوجة ربة بيت.

حين غادرت تيريزه المنزل في الصباح التالي كانت تنوي أن تشتري عند ذلك الشابّ المثير الذي لاحظ عليها كل شيء مباشرة، عمرها الحقيقي وحالتها الاجتماعية.

صرفت الشيك في المصرف وحوّلت نصف المبلغ إلى صندوق توفيرها. ولكي تتعرف على الأسعار دخلت محلات مختلفة. قضت قبل الظهر في المساومات الحادة ورأت أنها قد وفّقت في الادخار، ويمكنها تحويل المزيد على صندوق التوفير. كان المحل الذي رفضت أسعاره أمس هو المحل التاسع الذي دخلته. عرفها العمال على الفور. فرأسها وحديثها المتقطع يتركان انطباعاً لا يزول على كل من رآها مرة. وبعد خبرتهم

t.me/yasmeenbook

معها أمس أرشدوها إلى غرف أرخص سعراً. فحصت الأسرّة من الأعلى إلى الأسفل، دقّت على الخشب ووضعت أذنها عليه لتتأكد ما إن كان مجوّفاً أم لا. فهناك أشياء تكون مستعملة قبل أن يشتريها الزبون. فتحت كل كومودينة، انحنت ودسّت أنفها فيها لتتأكد من أنها غير مستعملة. نفخت على المرايا ومسحتها عدة مرات بخرقة، أرغمت "السادة المدراء" على إحضارها لها، أظهرت تذمّرها من كل الخزن.

"ما تسع شيء. رجاء، لماذا صناديق اليوم صغيرة لهذا الحد؟ هذا شيء للفقراء. ما عندهم ثياب. الواحدة مننا تحتاج محل أكبر بكثير".

عاملوها رغم مظهرها المتواضع بتهذيب. اعتبروها واحدة من تلك الغبيات اللاتي يملن عادة لعدم الشراء. لم يكن الأخوان على اطلاع واسع بعلم نفس الزبائن. فهو يقتصر في عرفهما على العائلات الشابة التي يحثّونها على السعادة بالنجاح السريع عبر نصائح ذات حدّين، هازئة أو بيتوتية حسب الزوج. ولم يكن بيدهم شيء لعلاج هذه العجوز، هما العجوزان الحيويان. بعد نصف ساعة من الوعود بالضمانات الشخصية أفشلت جميع محاولاتهما. وكانت تيريزه تنتظر هذه المهانة تحديداً. فتحت حقيبة يدها العملاقة، التي تحملها تحت إبطها، مدّت يدها إلى رزمة النقود وقالت بسلاطة: "لازم أشوف إذا كان معي مصاري كفاية".

عدّت الأوراق النقدية ببطء أمام عيون الأخوين المدورة السوداء، التي لم تكن تتوقع كل ذلك المحتوى في الحقيبة. فكّرا: "يا إلهي، لديها نقود كثيرة، ربما لديها شركة، زوج" وحالما فرغت من العدّ أودعت الأوراق النقدية في الحقيبة، أغلقتها ومضت في سبيلها. التفتت على العتبة وهتفت: "السادة المدراء ما يعرفو يقدرو الزبائن الأكابر".

ثم اتخذت وجهة ذلك البائع المثير. وبما أن الساعة بلغت الواحدة، أسرعت في مشيها لتصل إلى المحل قبل استراحة الظهر.

t.me/yasmeenbook

أثارت الانتباه. بين جميع الرجال في بناطيل والنساء في تنورات قصيرة كانت هي الوحيدة التي تعمل ساقاها بطريقة سرّية تحت التنورة الزرقاء المنشّاة التي تصل إلى حدّ القدم. واقتنع الجميع أن بإمكان الإنسان أن يسير انزلاقاً أيضاً. بل تفوقت عليهم وتجاوزتهم. شعرت تيريزه بنظرات الناس. مثل الثلاثينية، فكرت وبدأت بالتعرّق من شُدّة السرعة وكلف السعادة. كلّفتها المحافظة على رأسها هادئاً الكثير من الجهد. رسمت ابتسامة دهشة. مستندتَين على الأذنين، على موجات الاهتزاز الواسعة، طارت عيناها في عنان السماء وحطّتا على غرفة نوم رخيصة. استقرّت عليها تيريزه، الملاك الموشّى بالكشكش. ومع هذا لم تسقط من السماء حين وقفت في المكان الذي تعرفه قبلاً. تحولت ابتسامتها المتعالية إلى ابتسامة سعادة عريضة. دخلت وانزلقت نحو الشاب المثير وهي تهزّ ردفيها بحيث تماوجت التنورة الواسعة.

قالت بكل تواضع: "جئت".

"أقبّل اليد، سيدتي الرؤوم، يا للشرف غير المنتظر! ما الذي جاء بكم إلينا، سيدتي الرؤوم، إذا سمحتم لي بالسؤال؟!"

"غرفة النوم. أنتم تفهمو عليّ".

"هذا ما خطر لي فوري، سيدتي الرؤوم. مزوج طبعاً، أكيد، إذا سُمح لي بقول هذا".

"رجاء، أنتم مسموح لكم كل شيء!". هزّ رأسه بعميق الأسى.

"آه، لا، ليس أنا. هل أنا سعيد الحظ؟ السيدة الرؤوم لن تتزوج واحداً مثلي بكل تأكيد. موظف فقير".

"لماذا. ما أحد يعرف النصيب. الفقراء أيضا بشر. أنا ما من المتكبرين".

"هكذا تُعرَف القلوب الذهبية، سيدتي الرؤوم. السيد بعلكم جدير بالحسد".

t.me/yasmeenbook

"رجاء، كيف هم رجال اليوم!".

"لن تقول سيدتي الرؤوم إن ...."، رفع الشاب المثير حاجبيه مستغرباً وعيناه خطمُ كلبٍ مبلّلٌ يمسحه بها.

"يظنو أنه الزوجة خادمة. مع إنهم ما يدفعو لها شيء. الخادمة تأخذ أجر".

"ولهذا تبحثون الآن، سيدتي الرؤوم، عن غرفة نوم جميلة. تفضّلوا رجاء. بضاعة نخب أول. عرفت أن سيدتي الرؤوم سترجع ولهذا حجزتها للسيدة الرؤوم. كان بإمكاننا أن نبيعها ستّ مرات، أقسم بشرفي، سيفرح قلب السيد بعلكم. تعود السيدة الرؤوم إلى البيت ويقول البعل: أقبّل اليد، حبيبتي. وتردّ السيدة الرؤوم: طاب نهارك حبيبي، وجدت لنا غرفة نوم. تفهمونني، سيدتي الرؤوم، هكذا تقول وتجلس في حضن السيد البعل. أرجو المعذرة، سيدتي الرؤوم، أنا قلبي على طرف لساني، لكن لا أحد يقاوم، لا أحد بالعالم كله يقاوم، ولا حتى السيد البعل. لو أني متزوج، لن أقول منكم طبعاً، سيدتي الرؤوم، وكيف أطول هذا، أنا الموظف الفقير، أقول من امرأة ما، بل أقول، من امرأة عجوز، لنقل في الأربعين، نعم، نعم، لا يمكنكم تصور هذا سيدتي الرؤوم".

"رجاء، أنا أيضاً ما عدت في أول العمر".

"أنا عندي رأي آخر، إذا لم تمانع سيدتي الرؤوم. أقرّ بأن السيدة الرؤوم تجاوزت الثلاثين لتوها، لكن الأمر لا يتوقف على هذا. أنا أقول دائماً: أهمّ شيء في المرأة هي الأرداف. يجب أن يكون لها أرداف ويحب الرجل أن يرى هذه الأرداف. وإلا ما فائدتي أنا إذا كان لها أرداف وأنا لا أراها. رجاء، تأكّدوا بنفسكم، هذه فاخرة ..."

كادت تيريزه أن تصرخ ولم تجد كلمة جواب من شدّة انبهارها.

تمهّل عدة لحظات وأضاف: "قطع فاخرة".

t.me/yasmeenbook

لم تلقِ نظرةً شريفة على أيّ قطعة أثاث. هيّجتها كلماته، دنت يداه كثيراً إلى ردفيها المرتعشين. وامتدّتا عوضاً عنهما إلى بطانة السرير العملية الباذخة. ربما أثارت تلويحة اليد الآسية، التي ودّع بها الردفين، هو الموظف الفقير الذي لا يطول الأرداف، هيجان تيريزه أكثر. لم تعد تتوقف عن التعرق اليوم. تابعت حركات فمه ويده مسحورة. عيناها اللتان تبرقان عادة بعدة ألوان غاضبة، سالتا، غامتا، فاضتا بزرقة خفيفة تلهثان وراء يده على البطانة. يعرف الشاب المثير كل شيء. يا إلهي، كم يفهم في الأثاث! يشعر المرء بالخجل أمام فيض معارفه. وهي ليست مضطرّة للكلام لحسن الحظ. وإلا، أي فكرة سيأخذها عنها. هي لا تفهم في الأثاث. لم يلاحظ الآخرون أي شيء. لماذا؟ لأن الآخرين أغبياء. الشاب المثير يلاحظ كل شيء. حسن أنها لا تتحدث. صوته مثل الزبدة الذائبة.

"أحلّفكم، سيدتي الرؤوم، لا تنسوا الشيء الأهم. على قدر جودة سرير السيد البعل يأتي ردّه للجميل. إذا تمدّد السيد البعل على شيء طريّ، يمكنكم أن تفعلوا به ما تشاؤون. طريق السعادة الزوجية ليست المعدة وحدها. الأثاث هو سرّ السعادة الزوجية، وأخصّ بالذكر غرفة النوم، بل أودّ القول، السرير، سرير الزوجية كما يمكن القول. تفهمون عليّ، سيدتي الرؤوم، السيد البعل أيضاً إنسان. قد يمتلك أجمل سيدة رؤوم، الرؤوم في أجمل سنوات تفتحها، وماذا يستفيد إذا كان نومه سيّئاً؟ إذا كان نومه سيّئاً، يكون مزاجه سيّئاً. وإذا كان نومه جيداً، أليس كذلك، فإنه يقترب أكثر بكل سرور. أريد أن أقول لكم شيئاً، سيدتي الرؤوم، السيدة الرؤوم يمكنها الوثوق بي، أنا أفهم بعض الشيء في الشغل، أعمل في هذا المجال منذ اثنتي عشرة سنة، وأقف في هذا المكان نفسه منذ ثماني سنوات. ما فائدة الأرداف إذا كان السرير سيئاً ؟ الرجل يهمل أجمل الأرداف، حتى لو كان بعلاً. قد تؤدي السيدة الرؤوم أجمل الرقصات الشرقية، قد تضفي السيدة الرؤوم آخر اللمسات على جمالها وتقف أمامه دون ثياب، لنقل

t.me/yasmeenbook

عارية، أنا واثق أن كل هذا لا يفيد إذا كان السيد البعل سيّئ المزاج، ولن يفيد حتى مع امرأة بحسنكم سيدتي الرؤوم الموقرة، وهذا يعني ما يعنيه. أتعرفون ماذا يفعل السيد البعل، إذا افترضنا أنها عتيقة وسيئة، أعني الأسرّة سيدتي الرؤوم، السيد البعل يطير من اليدين ويبحث عن سرير أفضل. وهل تعرفون إلى أيّ أسرّة يطير؟ إنها أسرّة من محلّنا. أستطيع أن أريكم شهادات اعتراف، سيدتي الرؤوم الأروع، من سيدات رؤومات على غراركم. ستندهشون بالزيجات السعيدة التي نفخر بها لأنها قائمة على راحة ضميرنا. عندنا لا توجد حالات طلاق. نحن لا نعرف الطلاق. نقوم بكل ما نستطيع القيام به. السادة راضون. أنصحكم بالدرجة الأولى بهذا الطقم سيدتي الرؤوم. البضاعة كلها جيدة، أضمن لكم هذا سيدتي الرؤوم، لكني أوصيكم، أوصي قلبكم الذهبي، بهذا تحديداً، سيدتي الرؤوم العزيزة!".

اقتربت تيريزه فقط لتلبي رغبته. كانت موافقة على كل كلمة من كلماته وتخاف أن تخسره. فحصت الطقم الذي نصح به، لكنها لا تستطيع أن تحكم عليه. هاجس ما في أعماقها يبحث عن إمكانية لسماع المزيد من الصوت الزبدي. إذا قالت نعم ودفعت فستذهب، وبذلك تنتهي علاقتها مع الشاب المثير. يحقّ لها الحصول على المزيد مقابل نقودها الغالية. الناس يكسبون منها، فليس معيباً إذاً أن تدعه يستمر في الكلام. هناك أناس يخرجون دون أن يشتروا. لا يخجلون. أما هي فإنها محترمة ولن تقوم بهذا. ثم إن المرء بحاجة إلى الوقت.

لم تعرف ماذا تفعل ولكي تقول أي شيء، قالت: "رجاء، أيّاً كان يقول هذا عن بضاعته!".

"اسمحوا لي، سيدتي الرؤوم، كي لا أقول سيدتي الرؤوم الجذّابة، أنا لن أكذب عليكم. ما أنصحكم به، أنصحكم به أنا شخصياً. صدّقوني سيدتي الرؤوم، أنا مصدر ثقة. لا ينقصني تقديم دليل على هذا سيدتي الرؤوم. سيدي المدير!"

t.me/yasmeenbook

ظهر المدير، السيد غروس[1]، الكائن الضئيل ذو الوجه المقعّر والعينين الضيقتين المضطربتين، على عتبة مكتبه المنفصل عن المحلّ، وانثنى، هو الصغير، في جزأين.

"ماذا؟"، سأل واقترب مرتبكاً كولد صغير خائف من تنورة تيريزه الجسيمة.

"قولوا بنفسكم سيادة المدير، هل سبق أن لم يثق بي زبون؟"

صمت المدير. خاف أن يكذب على الأم. فقد تضربه. تنازع على سيماه الخشوع مع أساليب إقناع الزبائن. لاحظت تيريزه النزاع وفسّرته تفسيراً خاطئاً. قارنت الموظف بمديره. إنه أيضا يريد أن يتدخل لكنه لا يثق بنفسه. وكي ترفع من شأن انتصار الشاب المثير حالفته بالطبول والأبواق.

"رجاء، لا داعي لشهادة أحد. كل امرأة تصدقكم من صوتكم. أثق بكل كلمة من كلماتكم. من سيكذب؟ ولماذا الكذب؟ لن أصدق كلمة من كلمات هذا".

انسحب الصغير من فوره إلى مكتبه. هكذا كانت حاله دائماً. لا يكاد يفتح فمه حتى تسرع الأم وتقول إنه كذاب. حظه هو ذاته مع كل النساء. في الطفولة مع أمه، ثم جاءت زوجته، الموظفة السابقة لديه. بدأ الزواج بأنه كان يهوّن على كاتبة الاختزال هنا وهناك بقول "يا أمّ" حين تشكو من شيء ما. منعت عليه تشغيل امرأة منذ زواجه. دائماً تأتي الأمهات إلى المحل. وهذه واحدة منهن ولا بد. لهذا فصل مكتبه في الخلفية. لا يحقّ لهم استخراجه منه إلا للضرورة القصوى. سيدفع غروب الجلف الثمن. فهو يعرف أنه يخفق في لعب دور المدير أمام الأمهات. غروب يريد أن يصبح شريكاً في المحل ولكي يستحكم فيه يحرجه أمام الزبائن. السيد غروس هو مدير شركة غروس وأمه للأثاث. أمه الحقيقية ما زالت على قيد الحياة

1) غروس (اسم المدير) يعني أيضاً: الكبير، الضخم.

t.me/yasmeenbook

وشريكته في الشركة. تأتي مرتين في الأسبوع، الثلاثاء والجمعة، لتجري الحسابات وتصرخ في الموظفين. تعيد الحسابات بدقة ولهذا يصعب جداً غشّها. لكنه يتمكن من ذلك رغم هذا. لأنه لا يستطيع الحياة دون أن يغشّ. إنّه يعتبر نفسه المدير الحقيقي للشركة كلما وبخت العمال أكثر ويستفيد منها. في الأيام السابقة لمجيئها، أي الاثنين والخميس، يصول ويجول ويطلق الأوامر. ينفّذ الجميع أوامره ويركضون بناء عليها، لأنه سيشكوهم لأمه في اليوم التالي إذا تباطأ أحدهم. وهي تقضي الثلاثاء والجمعة في المحل بجميع الأحوال. وفي هذين اليومين يسود الهدوء المطلق حيث لا يجرؤ أحد على قول كلمة، ولا حتى هو، لكن هذا أحسن. العمال يتواقحون عليه فقط أيام الأربعاء والسبت. واليوم هو الأربعاء.

جلس السيد غروس على كرسيّه وأصاخ السمع. استمرّ غروب في الكلام مثل الشلال. الرجل يقدّر بالذهب ولكن لن يصبح شريكاً. ماذا؟ تريد أن تتناول معه وجبة الغداء؟

"المدير لا يسمح بهذا إطلاقاً، سيدتي الرؤوم، مع أن هذه أقصى أمنياتي، سيدتي الرؤوم!".

"لكن، رجاء، هناك استثناءات. أنا أدفع عنكم".

"قلبكم الذهبي يلمس شغاف قلبي سيدتي الرؤوم، لكن هذا قطعي، قطعي كلياً. السيد المدير لا يعرف المزاح".

"كيف ممكن يكون الإنسان غليظ لهذه الدرجة؟".

"إذا كانت سيدتي الرؤوم تعرف ما هو اسمي، ستضحك السيدة الرؤوم، اسمي غروب[1]".

"أنا ما أضحك، ولماذا الضحك. غروب أيضاً اسم، وأنتم ما غليظ".

---

1) غروب (اسم العامل) يعني أيضاً: الجلف، الفظ، الغليظ.

t.me/yasmeenbook

"بالغ الشكر على هذا الإطراء، أقبّل اليد، سيدتي الرؤوم. وإذا استمرّ الأمر هكذا سأقبّل اليد الحلوة الناعمة حقيقة".

"رجاء، إذا سمع أحد سيظن الظنون".

"أنا لا أخجل سيدتي الرؤوم. ولا داعي للخجل كما قلت، في مرأى هذه الأرداف الفاخرة، عذراً، أردت القول، الأيدي. ماذا قرّرت السيدة الرؤوم؟ نبقى على هذا الطقم؟"

"لكن قبلها لازم تقبل دعوتي للغدا".

"بهذا أكون أسعد إنسان في الدنيا، سيدتي الرؤوم. البائع المسكين يرجوكم أن تعذروه. السيد المدير ...."

"ما يطلع بيده شيء".

"السيدة الرؤوم مخطئة هنا. أمه مثل عشرة مديرين. وهو أيضاً ليس هيّناً".

"ما هذا الرجل، هذا ما رجل. حتى الرجل عندي بالبيت، رجل بالمقارنة معه. طيّب، ماذا قرّرت؟ الناس قد يظنّون أني ما أعجبك".

"ما الذي تقولونه سيدتي الرؤوم. آتوني برجل واحد لا يعجب بكم. أراهن أنكم لن تجدوه. لا يوجد رجلٌ كهذا في الدنيا سيدتي الرؤوم. ألعن حظي الشؤم. السيد المدير لا يفرح لأحدنا بمثل هذا النصر. يقول: ماذا، تخرج الزبونة مع عامل عادي وفجأة تصادف الزبونة السيد بعلها. والسيد البعل، إذا سمحت لي بالتعبير، يغضب. تنتشر فضيحة علنية. العامل يرجع للشغل، لكن الزبونة لا. ومن يتحمل تكاليف هذا؟ أنا. فرحة تكلّف كثيراً، يقول السيد المدير. وهذه أيضاً وجهة نظري سيدتي الرؤوم. هل تعرف السيدة الرؤوم أغنية الجيغولو المسكين، الجيغولو

t.me/yasmeenbook

الجميل؟ حتى لو كان قلبك يتقطع[1] .... لنتوقف هنا. ستفرحون بهذا السرير سيدتي الرؤوم".

"لكن رجاء! أنتم الذي ما تريد تروح معي. أنا أدفع عنكم".

"لو كان للسيدة الرؤوم وقت فراغ مساء اليوم، لكن طبعاً أتوقع لا. لا بد أن السيد البعل جائر في هذا الموقف. أتفهّمه. لو كان لي حظّ، لكنت بعل سيدة جميلة – لن أتمكّن من التعبير أبداً سيدتي الرؤوم، عن مدى حذري في مواقف كهذه. حتى لو كان قلبها يتقطع، لن أسمح لها. الشطر الثاني مني. عندي فكرة سيدتي الرؤوم. سأكتب أغنية عنكم، سيدتي الرؤوم، أصف كيف تتمدّدون في السرير الجديد، في البيجاما وحدها، إذا جاز لي القول، الرائعة. عذراً، عذراً. إذاً، نبقى على هذا؟ هل يحقّ لي مرافقة السيدة الرؤوم؛ إلى الصندوق؟"

"لا، ما موافقة، الأول نأكل معاً!".

كان السيد غروس يصيخ السمع باضطراب يزداد. لماذا يتحجج غروب به دائماً؟ عوض أن يفرح بأن الأم ستدفع له ثمن وجبة الغداء. هؤلاء العمال يعانون جميعاً من جنون العظمة. كل مساء تصحبهم واحدة جديدة من المحل، شابّات في مقتبل العمر، في عمر بناتهم. ستغادر هذه الأم دون أن تدفع ثمن الطقم. لا تعذر أيّ أمّ رفض دعوتها. غروب يجيز لنفسه الكثير. غروب يريد أن يفلس الشركة. اليوم هو الأربعاء، لماذا لا يحقّ لغروس أن يكون مديراً يوم الأربعاء.

انتفخت أوداجه وهو يصغي. شعر بالإهانة تلحق به من الأم في الخارج خلال الحديث الهنيء مع الموظف. تتحدث عنه، هو غروس، كما تتحدث جميع الأمهات. كيف يشرحها لغروب؟ إذا أطال النقاش معه سيردّ عليه ردّاً

---

1) أغنية "الجيغولو الجميل"، لمؤلفها الايطالي ليونيلو كاسوجي (1885 – 1975) تقول في أحد السطور: حتى لو تقطع قلبك، دع وجهك مبتسماً.

t.me/yasmeenbook

قاصماً، اليوم هو الأربعاء، وبذلك يخسر زبونة جيدة. إذا اختصر الحديث ربما لن يفهمه. أفضل الحلول هو إصدار أمر قصير. هل ينظر خلاله إلى وجه الأم؟ لا. الأفضل أن يقف أمامها، مديراً ظهره لها، إذا اضطرّ لمواجهتهما معاً لازداد روعاً.

انتظر برهة حتى تأكد أن الطرفين لن يصلا إلى اتفاق جديد. قفز عن كرسيّه بصمت وقام بخطوتين واسعتين نحو الباب الزجاجي. فتحه على حين غرة، مدّ رأسه، وهو أكبر عضو فيه، بسرعة وصرخ بصوته الحاد كصوت المصاب بالناسور: "اذهب معها يا غروب!".

بهذا ظل عذره، "السيد المدير"، عالقاً بحنجرته للمرة المئة. حوّلت تيريزه رأسها إلى الجهة الأخرى وفحّت كعاصفة: "رجاء، ما قلت لك؟!" وكانت ستلقي على السيد المدير نظرة امتنان قبل الخروج إلى طعام الغداء، لكن هذا كان قد اختفى في جحره.

لاحت التماعة شريرة في عيني غروب، وركّزتا بسخرية على التنورة المنشّاة. كان يحذر النظر إلى وجهها. اكتسب صوته الزبدي طعم الحريق. يعرف هذا. صمت. ولم ينطق إلا بعد أن فتح باب المحل لتسبقه. فتح بحكم العادة يده وفمه: "اسمحي لي، سيدتي الرؤوم!".

t.me/yasmeenbook

النفير العام

طوال سنوات ظل المنزل رقم 24 في شارع إرليش مصوناً من المتسولين وبيّاعي الشنطة. كان البوّاب ينتظر في حجرته على جانب من الممرّ يوماً إثر يوم، يترصّد الحثالة. العين السحرية البيضاوية بارتفاع عادي وكتب تحتها "البواب" تبثّ الرعب في قلوب الطامعين ببعض الإحسان في هذه العمارة. ولكي يتمكن أحدهم من تجاوزها ينحني كأنما نال عطايا سخيّة ويحمد الرب على نعمة النفاذ. إلا أن كل الحذر يذهب هباء. فالعين السحرية العادية ليست مرقب البواب لأنه يكشفهم حتى لو تسلّلوا تحت مستوى ارتفاعها. له وسيلته الخاصة المجربة. فهو الشرطي، المتقاعد، على مبلغ من الذكاء لا يستغنى عنه. وسرعان ما يرى وجوههم عبر فتحة غير التي يحذرون منها.

فقد حفر في سور حصنه مرقباً آخر بارتفاع 50 سنتمتراً عن سطح الأرض. وخلفه، حيث لا يتوقع أحد رقابته، يجثو ويحرس قلعته. عالمه عالم من البناطيل والتنانير. يعرف منها التي يرتديها سكان العمارة ويحكم على الغريبة منها حسب الشكل، القيمة والوجاهة. كسب في هذه الساحة أيضاً كثيراً من العلوم اليقينية كما كان عهده وهو يعتقل الناس. ونادراً ما يخطئ. ما إن يظهر مشتبهٌ به حتى يمدّ ذراعه القصيرة القوية وهو ساجد بعد إلى مقبض الباب الذي اخترعه شخصياً وركّبه معكوساً. وحده العنف الذي ينهض به كافٍ لفتح الباب. يصرخ في المشتبه به ويضربه حتى حدود القتل. يسمح للجميع بالعبور في غرّة الشهر لأنه تلقّى راتب التقاعد. يعرف

t.me/yasmeenbook

المهتمون هذا ويدخلون أفواجاً على سكان البناية النهمين للمتسولين طوال الشهر. وقد يتمكن المتلكئون الذين يفدون في الثاني والثالث من الشهر من التسلّل أيضاً، أو لن ينالوا على الأقل الضرب المبرح كما في الأيام التالية. أما اعتباراً من الرابع فلا يحاول المرور به إلا الأغرار المستجدون.

كان كين قد عقد معه أواصر الصداقة بعد حدث صغير. عاد ذات مساء من نزهة استثنائية وكان الممرّ معتماً. فجأة زمجر أحدهم في وجهه:

"كل خراء، يا وسخ، سأجرجرك إلى المخفر!". اندفع البواب من حجرته وغار على خناق كين، لكن هذا كان مرتفعاً جداً ويصعب الوصول إليه. أدرك الرجل خطأه وخجل من نفسه؛ فالأمر يتعلق بشرف البنطال. بودّ القطط جرّ كين إلى المقرّ، دلّه على اكتشافه السري وأمر طيور الببغاء الأربع بالغناء. لكنها لم تكن راغبة. بدأ كين يفهم لمن يعود الفضل في الهدوء الذي ينعم به. لقد مرت سنين منذ أن توقف المتسولون عن قرع جرس بابه. الرجل الجسيم، القوي كدبّ، واقف معه في المأوى الضيق. وعد الرجلَ، الكفء بطريقته، بجعالة شهرية، وهو مبلغ أكبر من مجموع ما يدفعه سكان البناية قاطبة بقشيشاً. وفي الانفجار العظيم لفرحته شعر البواب برغبة جامحة في تحطيم أسوار الحجرة بقبضته حمراء الشعر، كي يعبّر لمولاه عن استحقاقه للمكافأة، إلا أنه تمكن من كبح جماح عضلاته واكتفى بالزمجرة: "يمكنكم الاعتماد علي، بروفسور!" وقذف بالباب نحو الممرّ.

بعد هذه اللحظة لم يعد أحد يجرؤ على مخاطبة كين إلا بصفة السيد البروفسور مع أنه ليس بروفسوراً في الحقيقة. وما إن يسكن مستأجر جديد حتى يطّلع على هذه المعلومة التي وضعها البواب أهم شرط للسكن في البناية.

ما إن غادرت تيريزه البيت ليوم كامل، حتى انكبّ كين على فتح مغاليق

t.me/yasmeenbook

يومه وتساءل عن اليوم في الشهر. كان الثامن منه. لقد مرّ الأول ولا داعي للخوف من المتسولين. يتمنّى ليومه هدوءاً أكثر من المعتاد. ينتظره احتفاءٌ خاص. ولهذه الغاية طرد تيريزه من البيت. الوقت ضيق، فهي ستعود في السادسة بعد إغلاق المحلات وهو بحاجة إلى ساعات ليتهيأ، كما أن عليه أداء أعمال يدوية من أصناف شتّى. استطاع خلال هذه الأعمال أن يعدّ خطبته في ذهنه. لا بد أن تكون آية من آيات العلم، لا جافة ولا شعبوية، يأتي فيها بأمثال على وقائع الزمن، اختزالاً لأحداث عمر مديد، كما يودّ ابن الأربعين أن يسمعها. اليوم سيخلع كين عن نفسه كلّ المحاذير.

علق القفطان والصديري على كرسي ورفع أكمامه بسرعة. رغم أنه يكره الثياب إلا أنه يقيها من الأثاث. ثم ارتمى على سريره، ضحك وأبرز له نيوبه. بدا له غريباً رغم أنه ينام فيه كل ليلة. لقد غدا في خياله أخرق وفاقعاً، فلم يُلقِ له بالاً منذ زمن بعيد.

نادى: "كيف حالك يا صديقي؟ لقد ارتحت كفاية". كان مزاجه رائقاً منذ الأمس. "لكن هيّا، اخرج الآن، فوراً. هل فهمت؟"، أمسكه بكلتا يديه من الرأس ودفعه. إلا أن العملاق قاوم. ضغط عليه بكتفيه وكان يتوقع المزيد من الصدمة الثانية، لكن السرير اكتفى بفرقعة. يبدو أنه يودّ السخرية من كين. تأوه كين وأنّ، دفعه بركبتيه، تجاوز الإجهاد قواه الضعيفة. غلبت عليه الرعشة. شعر بغضب شديد في رأسه وحاول بالحسنى.

مالأه: "كن عاقلاً. ستعود إلى مكانك مرة أخرى. اليوم فقط تغادر. اليوم أنا متفرغ وهي ليست في البيت. فلمَ الخوف إذاً؟ لن يسرقك أحد". كلّفته الكلمات التي وجّهها إلى قطعة الأثاث كثيراً من التذلّل بحيث نسي أن يدفع السرير بين الوقت والآخر. حاول إقناعه طويلاً بينما تتدلّى ذراعاه مرهقتين وتؤلمانه أشد الألم. أكد للسرير أنه لا يريد به سوءاً إنما لا يحتاجه الآن، حلّفه أن يفهم أخيراً قصده. مَن حجز الطلبية آنذاك؟ هو. من دفع الثمن؟ هو، وبكل سرور. ألم يعامله حتى اليوم بكل احترام؟ بل

t.me/yasmeenbook

إنه لم يتغافل عنه أحياناً إلا من باب الاحترام. الإنسان لا يرغب دائماً في إبداء الاحترام. الأحقاد تزول والزمن يشفي الجروح. هل له أن يبرهن على إساءة واحدة لئيمة بحقه؟ الأفكار حرة. يعده بعودته إلى المكان الذي احتله، يكفل له هذا، يقسم له.

ربما كان السرير سيرضخ للضغوط، غير أن كين صبّ كل إلحاحه في الكلمات. لم يبقَ للذراعين عزيمة. لبث السرير بكراً صامتاً. استشاط غضباً وصرخ: "يا قطعة الخشب الصفيقة. في صفّ مَن أنت في الحقيقة؟" شعر برغبة شديدة في التفريغ، تعطّش إلى أن يضع حدوداً للأثاث الدنيء.

تذكّر صديقه الجبّار، البواب. غادر الشقة على سيقان خشبية مجنحة، انتصر على الدرج، كأنها عشر وليست مئة درجة، وجلب العضلات التي يفتقر إليها من حجرتها.

"أنا بحاجة إليكم!". ذكّرَت الهيئةُ والنغمةُ البوابَ بناقورٍ وهو يفضّل الأبواق، لأنه يملك واحداً. لكنه يميل أكثر إلى الآلات الإيقاعية. اكتفى بالزمجرة: "نعم، الحريم" وتبع كين. كان واثقاً تمام الثقة أن ضرباً سينهال على الزوجة. ولكي تتحقق رغبته، قال في نفسه، ستكون قد رجعت، فقد رآها تخرج من خلال فتحة حجرته. كان يكرهها لأنها كانت مجرد مدبرة منزل، ويطلق عليها الآن لقب السيدة البروفسور. فهو، الشرطي السابق، لا يساوم أبداً على الألقاب وأخذ من إعلانه كين بروفسوراً درساً لن ينساه. لم يضرب امرأة منذ وفاة ابنته المسلولة ويعيش وحيداً. لم تترك له مهنته القاسية وقتاً للحريم كما أعجزته عن الغزوات. يحدث أن يمدّ يده تحت تنانير الخادمات ويقرص فخذاً، لكنه يقوم بهذا بمهنية عالية تفقده آخر حظوظه القليلة. لم يصل الأمر إلى الضرب أبداً. يشتاق منذ سنوات لأن ينهال على لحم حرمة. سبق كين وهو يلكم الحائط بقبضة والدرابزين بالأخرى؛ بهذا سخّن عضلاته. فتح السكان أبوابهم بسبب الضجيج وراقبوا

t.me/yasmeenbook

الرجلين المتباينين شكلاً والمتناغمين: كين في الأكمام[1]، البواب في القبضات. لم يجرؤ أحد على النطق بكلمة. تبادلوا النظرات خلف الظهور الآمنة. حين يكون البواب في عادته لا تجرؤ حتى البعوضة على الطنين، ولا تسقط على الأرض أكثر الإبر حدّة.

حالما وصل إلى الشقة زمجر مسروراً: "أين هي؟ نبدأ فوراً!".

اقتيد إلى المكتب. ظل السيد البروفسور على العتبة وأشار بإصبعه الطويلة إلى السرير متشفّياً وأطلق أمره: "إلى الخارج!". رطمه البواب عدّة مرات بكتفه ليختبر قوة مقاومة قطعة الأثاث. بصق في يديه باحتقار، دسّ اليدين في جيوبه لأنه لا يحتاجهما، استخدم رأسه وأزاح السرير في غمضة عين إلى الخارج. شرح: "هذا اسمه نطح". نطح جميع الأثاث إلى الخارج في بحر لحظات. "عندكم كتب كفاية، أتوقّع!"، تلعثم الرأس على شكل المُعيّن. أراد أن يلتقط أنفاسه دون أن يلفت الانتباه، ولهذا قال ما قاله بصوت لا يعلو عن صوت إنسان عادي ذي قوة عادية، ثم خرج وزمجر من الدرج نحو الشقة، بعد أن التقط أنفاسه: "إذا احتجتم أي شيء ثانٍ، سيدي البروفسور، يمكنكم الاعتماد عليّ!".

استعجل كين كي لا يردّ. بل ونسي أن يضع المزلاج، واكتفى بأن يلقي نظرة سريعة على السقط المتناثر في الممرّ المعتم. حشد من السكيرات لا نفع منها. من الواضح أنها لا تميّز من يضاجع من. لو انهال أحدهم على ظهورها بالسياط لَعادت إلى صوابها. تراها كل واحدة تذهل عن صاحبها وتحكّ رأسها الصقيل لدرجة الصلع.

محترساً من فضّ بكارة حملته بالجعجعة أحكم باب الغرفة وراءه. استعرض الرفوف متهوراً وربّت على ظهور الكتب برقّة. فتح عينيه بتشنّج وعنف كي لا تغمضا كما عهدهما. ترنَّحَ ترنُّح النشوى والاتحاد المتأخر.

---

1) الأكمام التي يرتديها الموظفون الكتبة منعا لتلوث قمصانهم.

t.me/yasmeenbook

نطق في بداية السَّوْرة كلماتٍ لم تكن محفوظة ولا عقلانية. قال إنه يؤمن بإخلاصها، إنها جميعاً في البيت، إنها ذات شخصية قوية، يحبها، يرجوها ألا تؤاخذه، طبعاً يحق لها الشعور بالغبن. يضمن بقاءه إلى جانبها بلمساته الخشنة. لكنه لم يعد يثق بعينيه وحدهما منذ أن تعدّدت وسائل استخدامهما من طرفه. هذا ما يقوله لها وحدها، لها يشي بكل أسراره. لأنها صموتة. إنه يشكّ بالعيون. يشكّ بالكثير. هذه الشكوك تسرّ أعداءه. أعداؤه كثر. لن يسمّي أحداً بالاسم. لأن اليوم يوم الربّ. وفيه يريد أن يغفر. ويريد أن يحب، بما أنه استعاد حقوقه الأزلية.

كلما طالت الصفوف التي يستعرضها، وكلما فاضت المكتبة الأبدية بوحدة الصف والسلامة، بدا الأعداء أتفه. كيف تجرّؤوا على تقطيع أعضاء جسد واحد، أعضاء حياة مشتركة، بالأبواب الموصدة. غير أن الآلام قاطبة لن تقدر عليها. لن تُهزم حقّاً حتى لو كُبّلت بالأصفاد وأُذيقت العذاب طوال أسابيع من الحنق والشرّ. هبّت نسمة منعشة عبر الجسد الذي اتحدت أعضاؤه من جديد. وسرّ بأن يسمع العضو الأعضاء الأخرى أخيراً. تنفّس الجسد، وتنفّس ربّ الجسد بعمق.

كانت الأبواب تنوس في مصائرها، الأمر الذي يحبط المعنويات. هناك هجوم عليها من عاديات الزمن. يمرّ التيار من مكان ما. رفع ناظريه، كانت الكوى العليا مفتوحة. بذراعيه حاصر أول باب، أخرجه من مفاصله- كم تعاظمت قواه في هذه الأثناء! -، حمله إلى الممرّ ووضعه على السرير. فعل الشيء ذاته بالأبواب الأخرى أيضاً. لاحظ كين قفطانه وصديريه ملقيان على كرسي كان البوّاب قد أبعده رغم أنه ينتمي لطاولة المكتب. إذاً فقد كان قد بدأ الحفل مرتدياً الأكمام. ارتبك قليلاً، ارتدى كامل عدّته وعاد أكثر هدوءاً إلى المكتبة.

باتّضاع اعتذر عمّا اقترفته يداه، فقد قطع البرنامج لفرحته الشديدة. المنحطّون وحدهم يمدّون أيديهم إلى حبيباتهم على حين غرّة. القدير لا

t.me/yasmeenbook

يمثل عليها دور الرجل العظيم. لا داعي على الإطلاق لأن يبرهن لها على ميل بديهي نحوها. يحيط المرء حبيبته بالحماية دون كبرياء. يحضنها في لحظة احتفاء وليس في حالة انتشاء. يعترف بالحب الحقيقي في الهيكل.

وهذا ما ينوي عليه كين الآن. دفع السلم العزيز إلى موقع ملائم وارتقاه عكسياً بحيث يلمس ظهره الرفوف، رأسه السقف، ساقاه المطولتان، أي السلم، الأرض وعيناه الفضاء الكامل والموحد للمكتبة، وألقى الخطاب التالي على أسماع حبيبته:

"منذ حين، تحديداً منذ أن طرأت سلطة غريبة على حياتنا، أحمل في جنباتي فكرة أن أضع أساساً راسخاً لعلاقتنا. حياتكم مؤمّن عليها بعقد، لكننا رغم هذا، كما أظن، على مبلغ من الذكاء بحيث لا ننكر الخطر الداهم رغم وجود العقد القانوني.

لا داعي هنا لتذكيركم بجزئيات درب آلامكم الطويل، ذي الكبرياء والمجد. إنما أكتفي بمثال واحد لأريكم بالبرهان المبين مدى دنوّ الحب والكراهية. في تاريخ بلاد نجلُّها جميعاً، بلاد يُسدى لكم فيها كامل التقدير، كامل الحب، بل العبادة التي تستحقّونها، هناك حدث جلل، جريمة تقرب الخرافة، ارتكبها بحقكم سلطان شيطاني بناء على وسوسة مستشار أكثر شيطانية. في عام 213 قبل ميلاد المسيح حُرقت جميع الكتب في الصين بناء على أمر القيصر شي هوانغ تي، الطاغية الهمجي الذي تجرّأ أن يسبغ على نفسه ألقاب "الأول، السامي، الإلهي". كان هذا المجرم الفظّ، المستسلم لأوهام الخرافة، على درجة من الجهل بحيث لا يعرف قيمة تلك الكتب التي بنى هرم سلطته على أساسها. لكن وزيره الأول لي سي، وهو ذاته ابن لكتبه، إذاً مارق حقير، عرف بوسوسة الداهية كيف يغري القيصر بارتكاب ذلك الإجراء الذي لم يسبق له مثيل. بل حكم بالموت حتى على من يتحدث مجرد الحديث عن كتاب الأغاني الكلاسيكي ومصنف التاريخ الكلاسيكي لدى الصينيين. كما استهدف النقل الشفهي وفرض محوه

t.me/yasmeenbook

مع التقليد الكتابي. لم يُعفَ من المصادرة إلا قليل من الكتب، وأنتم تستطيعون أن تتخيلوا ماهيتها. كتب الطبابة، العقاقير، العرافة، الفلاحة واستنبات الأشجار. أي الرعاع العمليين.

لا يشق عليّ الإقرار بأن رائحة تلك الحرائق ما زالت في أنفي حتى اليوم. وما الذي انتفعناه إن كان القيصر البربري قد لاقى مصيره الذي يستحقه بعد ثلاث سنوات. صحيح أنه توفي، لكن الكتب الميتة لم تستفد. فقد كانت وظلت محترقة. هنا لن أفوت ذكر ما حدث للمارق لي سي بعد وفاة القيصر بقليل. ما إن اعتلى خليفةُ القيصر العرشَ وهو يدرك الطبيعة الشيطانية له، حتى أقاله من منصب الوزير الأول، الذي تولاه ثلاثين عاماً. صفدوه ورموه في السجن وحكم عليه بالجلد ألف مرة. لم يوفروا عليه جلدة واحدة. أرغموه على الاعتراف بجرائمه تحت التعذيب، فقد ارتكب علاوة على حرق مئات آلاف الكتب فظائع أخرى. فشل لاحقاً في محاولة الرجوع عن الاعتراف، وجرى شقّه بالمنشار إلى شقّين في ساحة المدينة ببطء؛ وبالطول لأن هذا يستغرق أكثر. كان آخر ما فكر فيه هذا الوحش الدموي هو الصيد. كما أنه لم يخجل من الاندفاع في الدموع. أُعدِمت كلُّ سلالته من الأبناء إلى الأحفاد في عمر سبعة أيام، ذكوراً وإناثاً. لكن عقوبتهم خفّفت من الحرق المستحقّ إلى الشنق. في الصين، بلاد العائلة، بلاد تقديس الأسلاف والذكريات الذاتية، لم يحفظ ذكرَ السفاحِ لي سي عائلتُه، إنما التاريخُ، التاريخ ذاته الذي كان الوغد، المشطور شقّين، يبغي أن يهلكه.

كلما قرأت تاريخ محرقة الكتب في الصين لدى أيّ مؤرخ، لا أفوّت فرصة البحث في جميع المصادر المتوافرة عن الخاتمة المبهجة للسفاح، ولحسن الحظ يتكرر وصف هذه الخاتمة. لا يجد الهدوء والنوم طريقهما إلى عيني قبل أن أراه ينشطر شطرين أمام عيني عشر مرات.

كثيراً ما تساءلت: لماذا وجب أن يجري هذا الأمر الشائن في الصين، أرضنا المختارة جميعاً. فالأعداء، وهم ليسوا كسالى، يواجهوننا بكارثة 213

t.me/yasmeenbook

كلما أشرنا إلى التنزيل في الصين. ليس بيدنا الرد إلا بأن أعداد العلماء هناك أيضاً قليلة جداً إذا ما قارنّاها بحشود الآخرين. أحياناً يغمر وحلُ مستنقع الأمية الكتب وأصحابها. ليس من بلاد في العالم محمية تماماً من الكوارث الطبيعية. لماذا نطلب المستحيل من الصين؟

أعرف أن رعب تلك الأيام ما زال يجري في عروقكم على غرار مصائر أخرى أيضاً. إن ما يحثّني على الحديث عن الشهداء في تاريخكم العريق ليس عدم الإحساس ولا قسوة القلب، إنما أودّ فقط بثّ اليقظة فيكم وطلب العون منكم للقيام بالإجراءات التي سنتسلح بها ضد المخاطر.

لو كنت خائناً، لنافقتكم بالمعسول من الكلام تجاوزاً للخطر المحدق. إلا أنني أحمّل ذنب الوضع الذي وقعنا فيه على عاتقي. أنا على مبلغ من قوة الشخصية كي أقرّ لكم بهذا. وإذا سألتموني كيف عنّ لي أن غرقت، فهذا السؤال حقّ مشروع لكم. سأضطرّ لخجلي للردّ بأني تورّطت لأني نسيت كلمات المعلم العظيم مونغ الذي حدثنا في هذا الشأن قال: يتصرفون ولا يعرفون ماذا يفعلون، لهم عاداتهم ولا يعرفون لماذا، يغيّرون كلّ حياتهم ولا يعرفون طريقهم، هكذا هم أبناء الحشد.

بهذه الكلمات يدعونا المعلم الكبير إلى الحيطة من أبناء الحشد دائماً ودون استثناء. إنهم خطرون لأنهم لا يملكون ثقافة، أي عقلاً. لقد حدث أن رفعت قلقي على العناية بأجسادكم والمعاملة الإنسانية فوق نصائح المعلم مونغ. الإنسان بقوة شخصيته وليس بخرقة نفض الغبار.

لكن دعونا لا ننحرف إلى القطب المعاكس أيضاً. لغاية الآن لم تلحق الأذية بحرف واحد من حروفكم. لن أسامح نفسي إذا اتهمني أحدكم يوماً بإهمال حضانتي الشرعية لكم. إن كان لدى أحدكم ما يشتكي منه، فليعلنه أمامي الآن!".

صمت كين وتطلّع متحدّياً متوعّداً حوله. التزمت الكتب أيضاً الصمت،

t.me/yasmeenbook

لم يبرز أحدها، فتابع خطابه المحكم: "كنت أتوقع هذه النتيجة لسؤالي. أرى أنكم مخلصون لي وأريد، بما أنكم تستحقون، إطلاعكم على خطط أعدائنا. عليّ بدءاً أن أباغتكم بإعلان مهم ومثير. لقد تيقنت خلال فحص اختبار الجاهزية العسكرية من حدوث تحركات ممنوعة في ذلك القطاع الذي استوطنه العدو من المكتبة. ولم أقرع الأجراس كي لا أثير المزيد من الهلع في صفوفكم. لكني من الآن فصاعداً سأحتجّ على أي نذير من فوري وأعلن هنا، مشفوعاً باليمين، أنه لا توجد خسائر نشكو منها. ما زلنا في وضع يسمح لنا أن نتسلح للدفاع عن أنفسنا كفريقٍ متّحد، غير مخترق. فلا تتطيّروا، بل تفاءلوا. قد تتمزّق صفوفنا ابتداء من الغد.

أعرف ما ينويه العدو بتلك التحركات. يريد أن يعسّر علينا التحكم بعديدنا. يظن أننا لن نجرؤ على ردّ غزواته في المناطق المحتلة، بحيث يلجأ إلى عمليات خطف لا نلحظها قبل إعلان حالة الحرب، وذلك بناء على قناعته بجهلنا بالأوضاع الراهنة. كونوا على ثقة بأنه سيبدأ بأكثركم مناقب، بمن سيطالب بأكبر فدية ممكنة له. فهو لا يفكر مطلقاً بتبادل المختطفين مع رفاقه. يعرف ما هو عديم الجدوى ويحتاج إلى المال لشنّ الحرب، المال والمال والمال. أما المعاهدات التي أبرمت فهي في نظره مجرّد قصاصات ورق، لا غير.

هل تودّون أن تتشتّتوا من وطنكم في أصقاع العالم أجمعين، كسبايا يقدّرونها، يتفحّصونها، يشترونها، لا يكلمونها، قد يسمعونها حين تؤدي لهم خدماتها، لا يقرؤون أرواحها قطّ، يملكونها لكنهم لا يحبونها، يتركونها للهلاك أو يبيعونها بِرِباً، يستخدمونها لكن لا يفهمونها. إذاً، استسلِموا واخنعوا للعدو! لكن، إن كان فيكم قلبٌ باسل بعد، روحٌ شجاعة، نفس نبيلة، فانهضوا إذاً معي إلى الحرب المقدسة.

أيها الشعب، لا تبالغَن في تضخيم قوة العدو. ستعتصره حتى الموت بين حروفك، لتكن سطورك هراوات تنهال على رأسه، لتكن حروفك كرات

t.me/yasmeenbook

رصاص تكبل قدميه، أغلفتك مدرّعات تحميك منه. لديك ألف خدعة وخدعة لتغلبه، ألف شرك لتوقعه، ألف برق لتصرعه، أنت، يا شعبي، يا قوة آلاف السنين، يا عظمتها، يا حكمتها!".

تأنّى كين. مرهقاً ومتحمّساً انحنى على السلم. وهنت ساقاه - أم وهن السلم تحتهما؟ أدّت أنواع السلاح التي رفع مجدها رقصة الحرب أمام عينيه. سال الدم. ولأنه دم الكتب شعر بالغثيان. لا يغمينّ عليك! على جناح تصفيق مسكر ارتفعت هتافات التعظيم من كل الجهات، كأن عاصفة تمرّ عبر غابة من الورق. عرف بعض البارزين من بين الحشود من هتافاتهم، من لغتهم، نعم، هؤلاء هم، أصدقاؤه، حاشيته الوفية، يتبعونه إلى الحرب المقدسة. فجأةً ارتقى السلم مرة أخرى، انحنى عدة مرات ووضع - مشوّشاً من هيجانه - يسراه على يمين صدره، وهناك لم يجد هو أيضاً القلب. لم يتوقف التصفيق. كأنه يتشرّبه بالعينين، بالأذنين، بالأنف واللسان، بكل جلده الرطب الذي يُرجِع الطنين. لم يخيّل له أنه قادر على إلقاء مثل هذا الخطاب الناري. تذكّر خوفه من الأضواء قبل إلقاء المحاضرات - وإلا ما معنى تلك الاعتذارات الدائمة عن حضور المؤتمرات سوى الخوف من الأضواء - وتبسّم.

ولكي يضع حدّاً للهتافات العاصفة نزل عن السلّم. لاحظ قطرات الدم على السجاد ومدّ يده إلى وجهه. كانت تلك الرطوبة التي شعر بها دماً. تذكّر أنه كان قد سقط على الأرض وارتقى السلّم من جديد بفضل العاصفة التي حافظت على وعيه. ركض إلى المطبخ كي يخرج سريعاً من المكتبة، فمن يعلم ما إن كان الدم قد وصل إلى الكتب، وغسل كلّ احمرار عن بدنه. كان يفضّل أن يكون هو الجريح وليس أحد جنوده. بقوى نضرة ومهموزاً بروح القتال من جديد، عاد إلى ساحة الوغى. كان التصفيق المسكر قد توقف. الريح وحدها تصفر سوداوية من الكوة العلوية. فكر، لا وقت لدينا الآن للعويل وإلا اضطررنا إلى غناء المراثي على أمواه بابل.

t.me/yasmeenbook

هجم هجوماً ناريّاً على السلّم، أقحم كل ما فيه من جدّ على وجهه وجلجل بصوت القائد. ارتعد زجاج النافذة خوفاً.

"يسرّني أن أراكم قد عدتم إلى الرشد في الوقت الملائم. الحروب لا تشنّ بالحماس وحده. من خلال موافقكتم أفهم أنكم تنوون خوض الحرب تحت إمرتي.

أعلن:

نحن في حالة حرب.

الخونة يُقدَّمون للمحاكمة.

القيادة مركزية. أنا القائد الأعلى للحرب، الزعيم الوحيد والضابط الوحيد.

تلغى بين المشاركين في الحرب جميع الفروق الناتجة عن المحتد، الصيت، الحجم، أو القيمة. تتمثل دمقرطة الجيش عملياً، بأنه من اليوم فصاعداً يدير كلّ مجلّد ظهره إلى الجدار. هذا الإجراء يرفع من إحساسنا بالانتماء المشترك. ويسلب العدو الغاصب، لكن الجاهل، كل معاييره.

كلمة السر هي مونغ".

بهذا أنهى بيانه القصير. لم يأبه بتأثير هذه الكلمات. فقد عظّم نجاحُ خطاب الحرب السابق شعورَه بالسلطة. أدرك أنه محمول على حب جيشه بالإجماع. اكتفى بإعلان النوايا لمرة واحدة وتقدم للفعل.

أخرج كل كتاب وجعل ظهره إلى الجدار. آلمه أنه يتلقف أصدقاءه القدامى بين يديه سريعاً – بسبب العمل طبعاً – ويحرمهم من أسمائهم ليكونوا جنوداً مجهولين مقدمين على الحرب. ما كانت أيّ محنة ستدفعه على الإقدام على هذا قبل سنوات قليلة. لكن، العصا التي لا تكسر الظهر تقوّيه[1]. برّر موقفه وتنهّد.

---

1) العصا التي لا تكسر الظهر تقويه. في الأصل بالفرنسي: a la guerre comme a la guerre

t.me/yasmeenbook

بكلمات رقيقة جدّاً هدّدت رسائل غوتامو بوذوس[1]، ذات الطبيعة المسالمة، برفض أداء الخدمة العسكرية. ضحك ساخراً وصرخ: "حاولوا وسنرى!". لكن الثقة التي وشت بها نبرته لم تسرِ في نفسه أيضاً. فهذه الرسائل تشكيلة من عشرات المجلدات، مرصوصة بلغات بالي، سنسكريت، وبترجمات صينية، يابانية، تيبتية، إنكليزية، ألمانية، فرنسية، إيطالية، أيْ لواء كامل، قوة لا يستهان بها. اعتبر سلوكها نفاقاً محضاً.

"لمَ لمْ تعبّروا عن موقفكم سابقاً؟!".

"لم نصفّق لك يا سيدي".

"كنتم تستطيعون أن تقاطعوني".

"لقد صمتنا سيدي".

"هكذا أنتم"، قطع عليهم أيّ مجال للكلام.

إلا أن شوكة الصمت نالت منه. من جعل الصمت أهم مبدأ في الحياة منذ عقود؟ هو، كين. وعمّن أخذ قيمة الصمت، لمن يعود الفضل في الانقلاب الحاسم على حياته؟ لبوذا، المستنير. هذا يصمت أغلب الأحيان. وربما يعود الفضل في شهرته إلى حقيقة أنه يلتزم الصمت كثيراً جدّاً. لم يعطِ الكثير من القدر للمعرفة. كان يصمت عن الرد على جميع الأسئلة الموجّهة إليه، أو يُفهِم السائلَ أن الجواب غير جدير بالتعب. من هنا حقَّ الشك بأنه لا يعرف الجواب. فلا يني يبرز ما يعرفه، أي سلسلة السببية المشهورة، هذا المنطق البدائي، بكل مناسبة. وإن لم يصمت يكرّر ويعيد ما يقوله. ماذا يبقى من رسائله إذا استثنينا منها الأمثال؟ سلسلة السببية، لا غير. ذهن ضعيف. ذهن تجمعت فيه الدهون لدوام الثبات. هل يتصور أحدهم بوذا إلا سميناً؟ شتّان بين صمت وصمت.

---

1) اسم بوذا باللاتينية.

t.me/yasmeenbook

انتقم بوذا على هذه الإهانة المتخرّقة. صمت. استعجل كين في قلب الرسائل على ظهورها، ليخرج بسرعة من هذا المجال المحبط الذي يكسر المعنويات.

أمامه واجب صعب. تُتّخَذ القرارات الحربية بسهولة، ثم يكون عليك بعد ذلك الحرص على التزام الجميع بها. كان معارضو الحرب من حيث المبدأ أقلية لحسن الحظ. جاء أشدّ اعتراض على النقطة الرابعة من البيان، دمقرطة الجيش، الإجراء العملي الوحيد. ما هو كمّ الزهو الذي يجب تجاوزه هنا؟ هؤلاء المجانين يفضّلون أن تتم سرقتهم على أن يتنازلوا عن غرورهم. صرّح شوبنهاور بإرادته في الحياة. لقد اشتهى في أواخر أيامه هذا العالَمَ الأسوأ من بين جميع العوالم. وأعرب عن امتناعه عن القتال مع شخص اسمه هيغل كتفاً إلى كتف. أما شيلينغ فقد أعاد اتهاماته السابقة وبرهن على هوية تعاليم هيغل بتعاليمه هو، التي هي أقدم. صاح فيخته ببسالة: "أنا". دافع عمانوئيل كانط عن السلم الأبدي بقطعية أكثر مما كان في حياته. ألقى نيتشه بشكل مثير للشفقة بكل مواصفاته، ديونيس، فاغنر الدجال، المسيح الدجال، المخلّص. تدافع آخرون واستغلّوا الفرصة، هذه الفرصة تحديداً، ليحتجّوا على عدم ذيوع شهرتهم. أخيراً أدار كين ظهره لجحيم الفلاسفة الألمان الجنوني.

رغب في أن يعوّض هذا عند الفرنسيين الأقل تعاظماً والأكثر وضوحاً، لكنه أُستقبِل بعاصفة من الشرور. سخروا من شكله المضحك. وزعموا أنه لا يعرف كيف يتعامل مع جسده، ولهذا يدخل الحرب. أنه طوال عمره كان قنوعاً، ولهذا يحتقرهم كي يرفع من شأنه هو. هكذا هو شأن العشاق. يتصوّرون وجود تمنّع لكي يبدوا في أعين ذاتهم منتصرين. لا يكمن وراء حربه المقدسة إلا امرأة، مدبّرة منزل جاهلة، عجوز، عديمة الفائدة وعديمة الذوق. غضب كين وصخب: "أنتم لا تستحقّونني. سأترككم كلكم لمصيركم!".

t.me/yasmeenbook

نصحوه: "اذهب إلى الإنكليز!". وهؤلاء كانوا منهمكين بأرواحهم وليس بهم رغبة حقيقية لدخول صراع جادّ معه، وقدّروا الأمر جيّداً.

وجد لدى الإنكليز ما يحتاجه ليومه: أرضية ثابتة للوقائع، يقفون عليها بصلابة. فقد كانت اعتراضاتهم، هذا إن أبدوا منها شيئاً في ثنايا عطلاويتهم[1]، رصينة، مفيدة ومدروسة. إلا أنهم رغم كل شيء لم يستطيعوا أن يعفوه من مأخذ جادّ. لماذا أخذ كلمة السر من لغة عرق ملون؟ هنا احتدّ كين وصرخ حتى بالإنكليز.

لعن قدره الذي كتب له الخذلان إثر الخذلان. نادى: أفضّل أن أكون عبداً على أن أكون قائداً، وأمر المجمّع المؤلف من الآلاف بالصمت. انشغل ساعات بتقليب الكتب على ظهورها. كان يستطيع أن يخز بعضها بكل سهولة، إلا أنه لم يعد به طاقة لأن يستخلص العواقب من النظام الجديد ولم يؤذِ أحداً. جرجر نفسه مع الرفوف متبرّماً ومرهقاً، مخذولاً حتى الموت، ليس عن قناعة إنما عن شخصيته القوية، ذلك أنهم نزعوا منه إيمانه. استعان بالسلّم للوصول إلى العليا، وهذه أيضاً عاملته ببرود وعداء. خرج السلّم من مساره أكثر من مرة وسقط على السجاد صعب المراس. رفعه أكثر من مرّة بذراعيه الهزيلتين، الضعيفتين، فشعر بالثقل يزداد عليه. لم يعد فيه من الكبرياء ما يشجّعه حتى على شتمه، كما يستحقّ. كان يعامله بحذر شديد وهو يصعد الدرجات كي لا يستهزئ به. إلى هذه الدرجة من السوء وصلت حاله، بحيث يردّ هكذا على سلّمه، وهو مجرد أداة مساعدة. حين انتهى من تغيير اتجاه الكتب في الغرفة التي كانت غرفة الطعام، أشرف على شعب يديه. أخذ استراحة لمدة ثلاث دقائق، قضاها على السجاد في وضع أفقي، يتنهد ويراقب الساعة. ثم حان دور الغرفة المجاورة.

---

1) العطالوية: Sprunglosigkeit

t.me/yasmeenbook

الموت

على الطريق إلى البيت نفّست تيريزه عن استنكارها. تعزم ذلك الشاب إلى الغداء وعوض أن يشكرها يتمادى عليها. وهل كانت تريد منه شيئاً؟ ليست بحاجة إلى الركض وراء الرجال الغرباء. إنها سيدة متزوجة. ليست خدّامة تخرج مع أيٍّ كان.

بدأ بفتح قائمة الطعام في المطعم وسأل عما يمكنه طلبه. وهي البلهاء ردّت عليه: "لكن أنا أدفع". وكم طلب؟ مازالت تخجل من الناس. أقسم إنه إنسان يستحق حياة أفضل. لم يكتب على جبينه إنه سيكون عاملاً بسيطاً. واسَتْه، فقال: نعم، إنه سعيد الحظ مع النساء، ولكن ما الذي يكسبه من هذا؟ إنه بحاجة إلى رأسمال، ليس بالضرورة أن يكون كبيراً، لأن كل شخص يريد أن يكون سيد نفسه. النساء ليس لديهن رأسمال، إنما مدّخرات سخيفة، وبهذه التفاهات لا يمكن لأحد أن يفتتح مشروعاً، ربما يستطيع غيره، أما هو فلا، لأنه يراهن على العظائم، الصغائر لا تشبعه.

وقبل أن يبدأ بشريحة اللحم الثانية يأخذ يدها ويقول: "هذه هي اليد التي ستفتح لي طاقة القدر".

يدغدغها. دغدغته حلوة جداً. لم يقل لها أحد من قبل إنها طاقة القدر. سألها ما إن كانت تريد أن تشاركه في المشروع.

من أين جاء فجأة بالنقود اللازمة؟

فضحك وقال: رأس المال تعطيه إياه حبيبته.

t.me/yasmeenbook

شعرت برأسها يحمرّ من شدّة الغضب. ما حاجته بحبيبة إذا كانت هي معه، هي أيضاً إنسان.

كم عمر الحبيبة؟ سألت.

ثلاثين. أجاب.

وما إن كانت جميلة؟ سألت.

أجمل النساء. أجاب.

أرادت أن ترى صورة حبيبته.

"فوراً. تفضّلي، سأقدم لك هذه الخدمة أيضاً". فجأة يدسّ إصبعه في فمها. يا له من إصبع ثخين وجميل! ويقول: "هذه هي!".

وحين لا تردّ، يمدّ يده إلى ذقنها، يقوم بحركات ما بقدمه تحت الطاولة، يضغط، وهل يفعلون هذا!، ينظر إلى فمها ويقول إنه مطروب من الحب، وإذا كان مسموحاً له أن يجرّب الأرداف الفاخرة. عليها أن تثق به. إنه يفهم في التجارة. لا أحد يخسر معه شيئاً.

قالت إنها تحب الحقيقة فوق كل شيء. إنها امرأة دون رأسمال. أخذها زوجها عن حب. كانت موظفة بسيطة مثله. تستطيع أن تبوح له بهذا. أما بشأن التجربة، فعليها أن تفكر في حلّ. فهي أيضاً تحب التجربة. هكذا هي طبيعة النساء. إنها ليست من هذا النوع، لكن لديها استثناءاتها. يجب ألا يظن السيد غروب أن حياتها متوقفة عليه. كل الرجال في الشارع يلتفتون إليها. وهذا يسرّها. الزوج يذهب في تمام الثانية عشرة إلى السرير ويستغرق فوراً في النوم، فهو دقيق جداً. عندها حجرة خاصة كانت المستخدمة تنام فيها قبلاً. وهي لم تعد في البيت. لا تطيق الزوج لأنها تريد راحتها. ذلك الرجل متطلّب كثيراً. مع أنه في الواقع ليس رجلاً حقيقياً. ولهذا تنام وحدها في الغرفة التي كانت تنام فيها الخادمة. في الثانية عشرة وربعاً

t.me/yasmeenbook

تأخذ مفتاح البناية وتنزل وتفتح له الباب. عليه ألا يخاف. نوم البواب عميق جداً. فهو يتعب كثيراً من العمل خلال النهار. تنام وحيدة. وهي تشتري غرفة النوم فقط كي تبدو الشقة كشقة حقيقية. دائماً عندها وقت. سترتب الأمور بحيث يأتي كل ليلة. المرأة أيضاً تريد أن تعيش حياتها. فجأة تبلغ الأربعين وتصير الأيام الجميلة في خبر كان.

قال إنه موافق وسيطرد كلّ حريمه. فإذا عشق يقوم بكل شيء لأجل امرأة واحدة. عليها أن تنتقم، هذا ما يفترض، وتطلب رأس المال من الزوج. هو لا يأخذ المال إلا منها، لا يأخذ من امرأة أخرى، لأن نجم سعادته سيلمع هذه الليلة، نعيم الحب.

إنها تحب الحقيقة فوق كل شيء. تنبّهه وعليها أن تعترف له منذ الآن. زوجها بخيل ولا يمنح أحد شيئاً. لا يخرج من يديه شيء، ولا حتى كتاب. لو كان عندها رأسمال ستضعه فوراً في مشروعه. كل امرأة تصدق كلماته كلمة كلمة وتثق برجل مثله. ما عليه إلا أن يأتي. تشعر بالسعادة منذ الآن. على زمانها كان هناك مثل جميل: "لكل حادث حديث". كلّنا ميّتين ميتين. هكذا هي حياة البشر. سيأتي كل ليلة في الثانية عشرة وربعاً. وفجأة يصير بيدها رأسمال. لم تتزوج العجوز عن حب. الإنسان لازم يفكر بمستقبله أيضاً.

هنا يسحب رجلاً تحت الطاولة ويقول: "حسناً سيدتي العزيزة، لكن كم عمر الزوج؟"

فوق الأربعين، هي متأكدة من هذا.

هنا يسحب الرجل الثانية أيضاً تحت الطاولة. ينهض ويقول: "اسمحوا لي، هذا يدعو إلى الاشمئزاز!".

ترجوه أن يكمل طعامه. هذا ليس ذنبها هي، لكن الزوج يبدو مثل الهيكل العظمي ومن المؤكد أن صحته ضعيفة. تفكر كل صباح حين

t.me/yasmeenbook

تستيقظ أنه مات. وحين تدخل وتقدم له الفطور تجده ما زال على قيد الحياة. المرحومة أمها كانت أيضاً كذلك. مرضت في الثلاثين وماتت في الأربعين. ماتت من الجوع. لم يصدق أحد تلك الحرمة المهترئة. هنا يضع الشاب المثير الشوكة والسكين للمرة الثانية على الطاولة ويقول إنه لن يستمر في الأكل، إنه يخاف.

في البداية لا يريد أن يقول لماذا، ثم يفتح فمه وينبس: تعرفين أن تسميم الإنسان سهل جداً! وسنقضي حياة سعيدة ونتذوق النعيم بالليل بعد العشاء. صاحب المطعم أو النادل يضع بودرة سرّية في الطعام، لأنه حسود، ونذهب نحن الاثنين إلى القبر البارد. هنا يتوقف حلم الحب قبل أن نطول نشوته. طبعاً لا يعتقد أنهم سيفعلون هذا لأن الأمر سينكشف في مطعم عام. لو كان متزوجاً كان سيشعر بالخوف الدائم. يمكن للزوجة أن تفعل أي شيء. هو يعرف النساء أفضل من جيبه، قالباً وقلباً، وليس فقط الأرداف والأفخاذ، رغم أن هذه أفضل ما في المرأة، إذا كان الرجل فهيماً. المرأة بارعة، تنتظر حتى يكتب الزوج الوصية باسمها، ثم تفعل ما تشاء، ومن فوق جثته تمدّ بيدها عقد الزواج إلى الحبيب المخلص. طبعاً هو يردّ الجميل ولا يكشف السرّ.

لكن جوابها كان تحت إبطها. لن تفعل هذا. إنها سيدة راقية. أحياناً ينكشف الأمر وستوضع في الحبوس. والحبس لا يليق بسيدة راقية. ستكون الأمور أفضل بكثير لولا أنهم يحبسون الناس فوراً. يجب أن يكون الإنسان شديد الحذر. ما إن تطلع الرائحة حتى تأتي الشرطة وتحبسها. والشرطة لا تأخذ بعين الاعتبار أن المرأة لا تتحمل حياتها التعيسة. تدسّ أنفها بكل شيء. ما دخلهم هم في كيفية معيشة المرأة مع زوجها؟ على المرأة أن ترضى بكل شيء. المرأة ليست إنساناً. مع أن الزوج لا ينفع بشيء. وهل هذا رجل؟ إنه بالتأكيد ليس رجلاً. رجلٌ كهذا ليس خسارة. الأفضل من كل هذا، أن يأخذ العشيق بلطة وينهال بها على رأس الزوج عندما يكون

t.me/yasmeenbook

نائماً. لكنه يحبس نفسه في الليل لأنه خائف دائماً. على العشيق أن يعرف كيف يتصرف. هي لن تعملها. إنها سيدة راقية.

هنا يقاطعها الشاب المثير. عليها ألا ترفع صوتها كثيراً. يأسف لسوء الفهم. لن تدّعي أنه يحرّضها على تسميم زوجها. إنه إنسان طيّب القلب ولا يؤذي نملة. ولهذا تحبه كل النساء إلى درجة النهم.

"يعرفن النخب الجيد"، تقول.

"أنا أيضاً"، يقول. ينهض فجأة، يقف، يتناول معطفها عن المشجب ويتصرف كأنها تشعر بالبرد. لكن هذا كان في الحقيقة ذريعة ليقبّل رقبتها. شفتاه مثل صوته. وماذا قال عن هذا: "أنا أحب تقبيل الرقاب الجميلة. وفكّري في الموضوع!".

وما إن يجلس حتى يبدأ بالضحك: "هذا الذي يجب أن يكون. كيف كان الطعام؟ علينا أن ندفع الحساب".

ثم دفعت عن اثنين. لماذا كل هذا الغباء. لقد كانت لحظات جميلة. بدأت التعاسة على الشارع. توقف طويلاً عن الكلام ولم تعرف كيف تردّ عليه. وما إن وصلا إلى محل الأثاث حتى سأل: "نعم وإلا لا؟!".

"رجاء، طبعاً نعم، 12 وربع بالضبط".

"أقصد رأس المال".

وبكل براءة تعطيه جواباً رقيقاً: "لكل حادث حديث".

يدخلان المحل. يختفي في الخلفية. فجأة يأتي السيد المدير ويقول: "هنيئاً مريئاً. غداً قبل الظهر تكون غرفة النوم عندكم. أم عندكم مانع؟!".

تقول: "لا. أريد أدفع اليوم".

يأخذ منها النقود ويسلّمها الفاتورة. فيخرج الشاب المثير من الخلفية

t.me/yasmeenbook

ويعلن أمام الملأ: "سيدتي الرؤوم، عليكم أن تبحثوا عن غيري بوظيفة صديق العائلة. عندي أصغر منك. وأجمل منك بكثير، سيدتي الرؤوم!".

ركضت بسرعة إلى الخارج، صفقت الباب وراءها وبكت على الشارع أمام جميع المارة.

وهل كانت طامعة فيه؟ هي تدفع ثمن الطعام وهو يتواقح عليها. إنها سيدة متزوجة وليست بحاجة للجري وراء رجال غرباء. ليست خادمة تخرج مع أي كان. تستطيع أن تلفّ عشرة رجال على كلّ إصبع من أصابعها. على الشارع يلتفت إليها كل الرجال. ومن هو المذنب فيما جرى لها؟ زوجها. تروح من محلّ إلى محل في كل المدينة وتشتري أثاثاً لأجله هو. وشكراً على هذا عليها أن تقبل الإهانات. عليه أن يذهب بنفسه. إنه عديم النفع. الشقة شقته هو. لا يعقل أنه لا يهتم بالأثاث الذي يتراكم جانب كتبه. لماذا تصبر عليه كل هذا الصبر؟ مثل هذا الرجل يعتقد أن لديه الحق في أن يدوس على الآخرين. تفعل كل شيء لأجله ثم يدع الناس كلها تهين الزوجة. فليجرِ مثل هذا لزوجة الشاب المثير وسنرى. لكن هذا ليس لديه زوجة. ولماذا ليس لديه؟ لأنه رجل. الرجل الحقيقي ليس لديه زوجة. الرجل الحقيقي لا يتزوج إلا بعد أن يكون لديه ما يقدمه. وذاك في البيت لا يعرض أي شيء. وماذا يعرض؟ الهيكل العظمي. يمكن القول إنه ميت. لماذا يعيش مثل هذا الشيء؟ مثل هذا الشيء أيضاً حيّ. هذا إنسان غير صالح لأي شيء. لا يفعل شيئاً غير أن يستولي على نقود الآخرين.

دخلت البناية. ظهر لها البوّاب وزمجر: "السيدة البروفسور، اليوم ينتظركم شيء".

"سنرى"، ردّت عليه وأدارت ظهرها باحتقار.

فتحت باب الشقة. لم تسمع نأمة. رأت الأثاث مبعثراً في الممر. فتحت باب غرفة الطعام دون أن تصدر صوتاً. فشعرت بالذعر. للجدران منظر

t.me/yasmeenbook

مختلف. كانت بنية وغدت بيضاء. لقد حدث مكروه. ما الذي جرى؟ التغيّر ذاته في الغرفة الجانبية. في الغرفة الثالثة التي تنوي تحويلها إلى غرفة نوم. اتضح لها. لقد قلب الرجل كل الكتب.

الأصل في الكتب أن يرى المرء ظهورها. يجب أن تكون مصفوفة هكذا حتى يمكن مسح الغبار عنها. وإلا كيف يمكن إخراجها من الرفوف. ليكن. لقد ملّت من مسح الغبار. هي ليست خدّامة لتمسح الغبار. لديه ما يكفي من النقود. يرمي النقود من الشبّاك لأجل الأثاث. عليه أن يتعلم التوفير. هذا أحسن له. السيدة في البيت لديها أيضاً قلب.

بحثت عنه كي يعصف هذا القلب برأسه. وجدته في المكتب. ساقطاً بكل طوله على الأرض ملتحفاً السلم الذي يتجاوز رأسه طولاً. السجاد الغالي مبقع بالدم.

يصعب إزالة هذه البقع. ما هي أفضل وسيلة؟ لا يعنيه تعبها بتاتاً. لا بد أنه كان متسرّعاً فسقط عن السلّم. وماذا تقول دائماً، الرجل عافيته غير جيدة. لو رأى الشاب المثير هذا. هي لا تفرح بهذا، فهي ليست من هذا النوع. هل هذه جريمة قتل؟ يكاد ذلك الإنسان أن يثير شفقتها. من ناحيتها لا تريد أن تموت ساقطة عن السلم. هل يعمل أحد هكذا ولا ينتبه. كل ينال جزاءه. ظلت طوال ثماني سنوات تصعد السلّم وتنفض الغبار، فهل جرى لها شيء؟ الإنسان المحترم يحافظ على ثباته.

لماذا كل هذا الغباء منه؟ الآن صارت الكتب من أملاكها. لم يقلب في هذه الغرفة سوى نصف الكتب. إنها رأسمال، كان دائماً يقول. والمفترض أنه يعرف ما يقول، فهو من اشتراها. لن تلمس الجثة. تعذب نفسها برفع السلم الثقيل وفجأة تأتيها متاعب مع الشرطة. يفضّل أن تترك كل شيء على حاله. ليس بسبب الدم، فهذا ليس مشكلة بالنسبة إليها. وأصلاً هذا ليس دماً. ومن أين للرجل بالدم الحقيقي. كل ما يقدر عليه هو أن يبقع

t.me/yasmeenbook

المكان بالدم. خسارة السجاد. بالمقابل سينتقل كل شيء إلى ملكيتها. الشقة الحلوة لها قيمتها. ستبيع الكتب فوراً. ومن كان يصدق هذا أمس؟ لكن هكذا هي حال الدنيا. يتواقح الرجل على زوجته فيموت. كانت دائماً تقول إن الأمور لن تنتهي على خير، لكنه لا يسمح لها بالكلام. مثل هذا الرجل يعتقد أنه الوحيد على الأرض. يذهب إلى النوم في الساعة الثانية عشرة ولا يترك المرأة ترتاح. هل يعمل أحد شيئاً كهذا؟ الإنسان المحترم ينام في الساعة تسعة ويترك المرأة على راحتها.

شفقة منها على الفوضى السائدة على طاولة المكتب، انزلقت تيريزه نحوها. أشعلت المصباح وبحثت بين الأوراق عن وصيّة، افترضت أنه كتبها قبل سقوطه. لم يكن لديها أدنى شك بأنها الوريثة الوحيدة، بما أنها لم تسمع عن أفراد آخرين في الأسرة. إلا أنها لم تجد كلمة واحدة عن النقود في الملاحظات العلمية التي قرأتها من الألف إلى الياء. وضعت الأوراق المكتوبة بلغة غريبة تماماً جانباً بكل دقة وعناية. ففيها قيم خاصة يمكن بيعها. فقد قال لها مرّةً أثناء تناول الطعام إن ما يكتبه يقيّم بالذهب، لكنه لا يهتم بالذهب.

بعد ساعة من الترتيب والعناية الفائقة بالقراءة، تأكدت لشدة خيبتها من عدم وجود وصية. لم يكتبها. ظل حتى آخر لحظات عمره هو هو، الرجل الذي لا يفكر سوى بنفسه ولا يعطي أي قيمة للمرأة. قرّرت متنهّدة أن تفتّش بواطن طاولة المكتب، درجاً بعد الآخر حتى تظهر الوصية. تعمّقت خيبتها مع أول لمسة يد. كانت الأدراج مقفلة. يحمل المفاتيح في جيب بنطاله. مصيبة. ستخرج خالية الوفاض. لا يمكنها إخراج المفاتيح من الجيب. إذا وصل الدم إلى يدها ستظن الشرطة بها الظنون. اقتربت قدر ما فيها من الجثة، انحنت عليها واحتارت في أمرها أكثر. خافت أن تجثو. كانت قد اعتادت أن تخلع تنورتها في اللحظات العظيمة. طوتها بأمانة ووضعتها على السجاد في زاوية. ثم جثت على مسافة خطوة من الجثة، سندت رأسها

t.me/yasmeenbook

في وضعية مستقيمة، على السلّم، ودسّت من ثم سبابتها اليسرى في جيبه الأيمن بحذر. لم تتوغل كثيراً. لقد كان مستلقياً بطريقة خرقاء. ظنت أنها لمست شيئاً منتصباً في عمق الجيب. فعنّ لها أن السلّم قد يكون ملطّخاً بالدم، ما ولّد فيها الذعر. مدّت يدها إلى جبينها المستند على السلّم. لم تجد دماً. لكن أحبطها البحث المضني عن الوصية والمفاتيح. قالت رافعة صوتها: "لازم أعمل شي، لا يمكن تركه هكذا". ارتدت تنورتها من جديد وجاءت بالبواب.

"ماذا؟" سألها مهدّداً. لم يكن يسمح للناس العاديين أن يزعجوه خلال العمل. كما أنه لم يفهمها لأنها تتحدث بصوت خفيض كأنه يصدر عن جثة.

"رجاء، الرجل مات!".

الآن فهم. استعاد الذكريات القديمة. ببطء فسحت شكوكه المجال لليقين بجريمة مناسبة. وبالمقدار نفسه تغيّر موقفه. غدا ضعيفاً غير مؤذٍ، كما كان يتصرف آنذاك كشرطي حين يكون عليه إغراء حيوان برّي للإيقاع به. بل قد يبدو ضامراً. تبقى الزمجرة عالقة في حنجرته، عيناه المصوّبتان عادة إلى العدو، تعودان أليفتين إلى الزوايا وتربضان هنا. يحاول الفم أن يتبسم، ويمنعه عن هذا الشارب المنشّى والرفيع. هنا تساعده إصبعان سميكتان مهذبتان وتعدلان زوايا الفم على شكل ابتسامة.

القاتلة كسيرة لا علامة فيها على الحياة. سيظهر أمام القضاة بكامل زيّه الرسمي، ويشرح لهم ما عليهم أن يفعلوه في مثل هذه الأوقات. إنه الشاهد الرئيسي في هذه القضية المثيرة. سيستقي النائب العام معلوماته منه فقط. ما إن تصبح القاتلة بين أيدٍ أخرى حتى تتراجع عن كل أقوالها.

سيقول بصوته المجلجل بينما يكتب الصحفيون كل كلمة: "يا سادتي، الإنسان بحاجة إلى المعالجة. المجرم أيضاً إنسان. أنا محال على التقاعد منذ زمن بعيد. أدرس في أوقات الفراغ حياة هؤلاء المشتبهين وأفعالهم،

t.me/yasmeenbook

كما يقال. إذا عالجتم المشتبه بشكل جيد، سيعترف القاتل بالجرم. لكني أنذركم يا سادتي، إذا عالجتم المتهم بشكل سيّئ، فسيُنكر القاتل بكل صفاقة، وسيكون على المحكمة أن تجد طريقة للحصول على القرائن والأدلّة. يمكنكم الاعتماد عليّ في جناية القتل المثيرة هذه. يا سادتي، أنا شاهد إثبات. لكني أسألكم يا سادتي، كم شاهد إثبات لديكم؟ أنا الوحيد. والآن انتبهوا جيداً. الموضوع ليس بهذه السهولة كما تظنون. في البدء يكون الاشتباه. ثم لا يتكلم الواحد مع القاتلة، يفحصها بالأول فحصاً دقيقاً. على السلّم يبدأ بالكلام: "إنسان عنيف؟".

شعرت تيريزه بالخوف منذ أن بدأ البواب ينظر تلك النظرات الودودة. لم تجد تفسيراً لتحوّلاته، وأرادت أن تفعل أيّ شيء كي يعود لزمجرته. لم يدكّ الأرض دكّاً كعادته وهو يتقدّمها، إنما سار إلى جانبها بخنوع، وعندما سألها للمرة الثانية مهدّئاً: "إنسان عنيف؟"، لم تفهم من يقصد. في غير أحواله كان واضحاً دائماً. ولكي تعيده إلى طبيعته قالت: "نعم".

بينما عينه مصوّبة إليها بذكاء وقناعة، وخزها وطالبها بكامل جسمه بالدفاع عن نفسها ضد العنف: "الإنسان يدافع عن نفسه في مثل هذه الحالة".

"نعم".

"وهنا يجري أيّ شيء بكلّ سهولة".

"نعم".

"بذلك يروح الإنسان من بين اليدين".

"يروح، نعم".

"هذه ظروف مخفّفة".

"ظروف".

t.me/yasmeenbook

"هو المذنب".

"هو".

"نسي الوصية".

"وهذا ما كان ناقصنا".

"الإنسان يحتاج إلى شيء ما ليعيش".

"ليعيش".

"يصير أيضاً دون سمّ".

في اللحظة نفسها كانت تيريزه تفكر بالأمر نفسه. لم تعد تنطق بكلمة. أرادت أن تقول، ذلك الشاب المثير حاول أن يقنعني لكني رفضت، لأنه فجأة تحدث متاعب مع الشرطة. فتذكّرت أن البواب شرطي. يعرف كل شيء وسيقول حالاً: التسميم ما يجوز، لماذا فعلت هذا؟ لكنها لن تسمح له. الذنب ذنب ذلك الشاب المثير. اسمه السيد غروب، وهو موظف عادي لدى شركة غروس وأمه. في البداية وافق أن يأتي في تمام الساعة الثانية عشرة وربعاً إلى البيت كي يحرمها من راحتها. ثم قال إنه سيجلب بلطة ويقتل الزوج وهو نائم. لم توافقه على نواياه، ولا على السمّ، وها هي ذي تتورط بالمتاعب مع الشرطة. ما ذنبها إذا مات الرجل؟ الوصية حقها. كل شيء صار ملكها. قضت ليلها ونهارها عنده في البيت وقتلت حالها لأجله مثل الخادمة. لا يمكن تركه وحيداً. مرّة واحدة تركته وذهبت لتشتري له غرفة نوم، فهو لا يفهم بالأثاث، وهنا صعد السلّم ووقع ليموت. رجاء، إنها حزينة عليه. أليس من حق الزوجة أن ترث؟

استعادت شجاعتها طابقاً فوق الآخر. أقنعت نفسها ببراءتها. فلتتفضّل الشرطة. فتحت باب الشقة كأنها القيّمة على كل المحفوظات فيها. لاحظ البواب علامات الاستهتار التي رسمتها على وجهها من جديد. لكن لا

t.me/yasmeenbook

شيء ينفع معه. لقد اعترفت. وسُرّ بمواجهة القتيل بالقاتلة. سمحت له بالدخول قبلها. شكرها بغمزة عين ماكرة وظل يراقبها.

اتضح له الموقف منذ النظرة الأولى وهو واقف على عتبة المكتب. لا بد أنها وضعت السلّم على الجثة بعد ارتكاب الجريمة. لا أحد يستطيع خداعه. فهو يفهم عمله.

"يا سادتي، أتجه إلى موقع الجريمة. ألتفت إلى القاتلة وأقول: ساعديني على رفع السلّم. لكن لا تظنّوا أني لا أستطيع رفع السلّم وحدي"، يُريهم عضلاته، "أردت أن أتثبّت من ملامح وجهها. المرحلة الأهمّ هي الوجه. عليه ترون كل شيء. تقرؤون كلّ شيء من الوجه".

لاحظ أثناء المرافعة أن السلّم يتحرك. خاب رجاؤه. بل شعر لحظتئذٍ بالحسرة على أن البروفسور ما زال حيّاً. كلماته الأخيرة تهدّد الشاهد الرئيسي بأن تسلب منه كثيراً من رئاسته. مشى بخطوات رسمية نحو السلّم ورفعه بيد واحدة. استعاد كين الوعي متضوّراً من الألم. حاول النهوض لكنه لم يفلح.

"بعده حيّ!"، زمجر البواب مستعيداً طبيعته الأصيلة وساعده للنهوض على قدميه.

لم تصدّق تيريزه عينيها. بعد أن وقف كين، الأطول من عكارته رغم انحنائه، وقال بصوت ضعيف: "السلّم الملعون"، استوعبت أنه ما زال حيّاً.

ولولت: "هذا لؤم. هذا ما يجوز أبداً. قال أكابر قال! رجاء! الناس ستظن الظنون".

"هشّ، يا وسخة!"، قاطع البواب عويلها المتسارع. "اجلبي الدكتور وأنا أضعه في السرير في هذه الأثناء".

حمل البروفسور الهزيل على كتفه إلى الممرّ حيث كان السرير بين ركام

t.me/yasmeenbook

الأثاث. بينما يخلع البواب ثيابه أصرّ كين على الإعلان: "لم أفقد الوعي، لم أفقد الوعي". لم يطق فكرة أنه فقد الوعي لبرهة قصيرة. "أين هي عضلات الهيكل؟" تساءل البواب وهزّ رأسه. ولشدّة عطفه على كومة العظام نسي حلمه الرائع بالمحاكمة.

جاءت تيريزه بالطبيب في هذه الأثناء. هدأت على الشارع بالتدريج. ثلاث غرف ملكها وهذا مسجّل بعقد. أحياناً كانت تنتفض وتتنهّد: "هل يعملها أحد ويرجع يعيش بعد ما مات، هل يعملها أحد؟!"

t.me/yasmeenbook

المشفى العسكري

رقد كين في الفراش ستّة أسابيع طوال إثر الحدث الأليم. بعد إحدى الزيارات انتحى الطبيب بالمرأة جانباً وأعلن لها: "إن بقاء زوجك على قيد الحياة يتعلق برعايتك له. لا أستطيع الآن أن أؤكد شيئاً. هذه الحالة النادرة لم تتضح لي بعد. لماذا لم تطلبيني قبلاً؟! لا أحد يستهين بالصحة".

جاوبته تيريزه: "الرجل دائما كان هكذا؟ وما يصير له شيء أبداً. أعرفه من ثماني سنين. لماذا أجلب الدكتور إذا ما كان في البيت مريض؟"

أفحمت الطبيب بهذا الرأي، وفهم أن زبونه بين يدين سمحتين.

لم يشعر كين بأي راحة في السرير. كانت الأبواب قد غُلّقَت رغم أنفه من جديد، ولم يبقَ منها مفتوحاً سوى باب الغرفة المجاورة، التي باتت تيريزه تنام فيها. أراد أن يعرف ماذا جرى لباقي المكتبة. كان في البداية ضعيفاً لا يقدر على رفع رأسه. ثم تمكّن مع الوقت من رفع جذعه، رغم الطعنات المبرحة، بحيث يرى جزءاً من الجدار المقابل جانبياً. لم تظهر له تغيّرات طارئة. مرة دفع جسده خارج السرير وترنّح حتى العتبة. ولشدّة فرحه صدم رأسه بحافة إطار الباب حتى قبل أن يلقي نظرة إلى الداخل. انهار وأغمي عليه. وجدته تيريزه مباشرة وتركته مستلقياً في مكانه ساعتين عقاباً له على عصيانه. ثم سحبته إلى السرير، رفعته عليه وربطت قدميه بحبلٍ متين.

كانت راضية تماماً عن حياتها الراهنة. برهنت غرفة النوم الجديدة على

t.me/yasmeenbook

أنها مفيدة. فقد كانت تشعر برقّة ما تجاه السرير، وتقضي فيه وقتاً ممتعاً مع ذكرى الشاب المثير. سدّت بابي الغرفتين الأخريين ودسّت المفاتيح في جيب سرّيّ خاطته خصيصاً لهذا الغرض في تنورتها. وبهذا تحتفظ بجزء من أملاكها أينما سارت. وكانت تدخل غرفة الزوج قدر ما تشاء، فهي بالنتيجة مرغمة على العناية به، وهذا من استحقاقاتها. اعتنت به حقّاً، رعته أيّاماً وأياماً حسب تعليمات الطبيب الذكي، الجدير بالثقة. وفي هذه الأثناء حقّقت في دواخل طاولة المكتب ولم تعثر على وصية. كما علمت بوجود أخ له من خلال هذياناته في الحمّى. وبما أنه كان قد سكت عن الأخ كلّيّاً، ازدادت شكوكها في أن وجود هذا الأخ تدليس، ليغشّها إذا حان وقت الميراث الذي استحقّته بعد كلّ المرارة التي عانتها. لقد كشف الزوج نفسه خلال الحمى. لم تنسَ أنه ما زال يعيش رغم أنه كان ميتاً، لكنها غفرت له هذا لأن عليه أن يكتب وصيته بعد. وسيّان أينما توجهت، كانت قريبة منه دائماً. تتحدث بصوت عالٍ كي يسمعها من كل مكان، بينما هو مريض ضعيف نصحه الطبيب أن يسدّ فمه، وبذلك لا يزعجها حين يكون لديها ما تقوله. تكاملت طريقة كلامها خلال أسابيع قليلة وصارت تهذر بكل ما يدور في رأسها. كما أنها أغنت مفرداتها بألفاظ كانت تعرفها قبلاً لكن لا تنبس بها بتاتاً، ولا تسكت إلا على ما يتعلق بموته. وتشير إلى جريمته بعبارات عامة:

"الرجل لا يستحقّ كلّ هذه التضحيات من طرف الزوجة. الزوجة تعمل كلّ شيء لزوجها، وماذا يعمل الزوج للزوجة؟ الرجل يعتقد أنه الوحيد على الأرض. ولهذا تدافع المرأة عن نفسها وتذكّر الرجل بواجباته. الأخطاء تتصحّح. الرب ما يقطع أحد. في دائرة الزواج كان لازم الطرفين يكتبون وصية، حتى لا يجوع الثاني إذا مات واحد. كل واحد يموت، الموت حقّ على الإنسان. عندي لازم كل شيء يكون في مكانه المناسب. عندي ما يوجد أولاد ولهذا أنا موجودة. أنا أيضاً إنسانة. ليس بالحب وحده يحيا

t.me/yasmeenbook

الإنسان. بالنتيجة نحن واحد. المرأة لا تحمل في قلبها أي شي ضد الرجل. المرأة ليس عندها ساعة راحة واحدة، لأنها لازم تشوف كل لحظة ماذا يصير للرجل. إذا غشي عليه يكون العتب عليّ أنا!".

وحين تنتهي تعيد الكرّة. تكرّر ما تقوله عشرات المرات في اليوم. حفظ موعظتها كلمة كلمة. وصار يعرف، حسب الاستراحات بين الجمل، ما الضرب الذي تفضله. تطرد سفسطتها كلّ الأفكار من رأسه. تعوّدت أذناه، اللتين مرّنهما في البداية على حركات دفاعية، على متوالية التشنجات الشاذة في الإيقاع. ولأن قواه خائرة لم تستطع أصابعه الوصول إلى أذنيه لتسدّهما. ذات ليلة نما لأذنيه جفنان يفتحهما ويغلقهما كما يشاء، مثل جفني العينين. جرّبهما مئة مرة وضحك. كانا يسدّان الطريق على الصوت. كأنهما لبّيا نداء، نميا ونميا فوراً. قرصهما لشدّة فرحه بهما. استيقظ. فوجد أن جفني الأذنين صيوانان عاديان وكان ما رآه حلماً. فكّر، يا للتعاسة، أستطيع سدّ الفم متى ما أردت وبشدّة كما أردت، وما فائدة الفم؟ إنه فقط للتغذية ورغم هذا لديه حماية هائلة، لكن الأذنين، الأذنين معرّضتان لكلّ التسرّبات.

يتظاهر بالنوم عندما تقترب تيريزه من السرير. فإن كانت رائقة المزاج تقول: "نائم" بصوت خفيض، أما إن كان مزاجها سيئاً فتهتف: "وقاحة". ولم يكن لها أي تأثير على مزاجها، إنما يكون هذا حسب المقطع الذي تتلوه من مونولوجها. بل كانت حياتها مقتصرة على موعظتها. تقول: "الأخطاء تتصحّح" وتبتسم حتى لو كان مصحّح الخطأ نائماً. فهي تعنى بصحّته، الرب ما يقطع أحد! عند هذه النقطة يحقّ له أن يموت. لكن حين يعتقد الرجل أنه الوحيد على الأرض، تصرّ على إزعاج نومه أكثر. ثم تبرهن له على أنها هي أيضاً إنسانة وتوقظه بـ"وقاحة". كانت تسأل كل ساعة عن مقدار رصيده في المصرف، وما إن كان المال كلّه في المصرف نفسه. ليس مرغماً على أن يكون كامل المبلغ لدى المصرف نفسه، فهي موافقة على أن يكون جزء من النقود في هذا المصرف وجزء آخر في غيره.

t.me/yasmeenbook

تراخت شكوكه في أنها تستهدف الكتب منذ اليوم القدري الذي لا يحب ذكره. أدرك تماماً ما الذي تريده منه: وصيّة، وصيّة تقتصر على المال. ولهذا ظلت غريبة عليه رغم معرفته بموعظتها منذ أولى الكلمات إلى آخرها. كانت تكبره بست عشرة سنة ويتوقع أن تموت قبله. وما قيمة نقود محتمة العاقبة، وهي أنها لن تنالها. لو أنها مدّت يدها نحو الكتب بالطريقة العبثية ذاتها، لتيقّنت من مشاركته رغم كل العداء الطبيعي. ظل اهتمامها الأبدي الذي ينخر العظام بالنقود سرّاً عليه. المال أكثر الأشياء عبثية، وسطحية وعديمة الشخصية. فلقد ورثه بكل بساطة دون استحقاق أو تعب.

أحياناً يغلي فيه حبّ المعرفة، ويفتح عينيه على وسعهما في اللحظة ذاتها التي يغمضهما خشية خطوات المرأة. يأمل بتغيّر فيها، حركة غير معروفة، نظرة جديدة، جرساً رئيسياً يشي له بعلّة حديثها الدائم عن الوصايا والأموال. وسيسرّ أقصى السرور إذا قاطعها في مستوى تجتمع فيه تلك الأشياء التي لا يدرك لها تفسيراً رغم كل الثقافة والعقل. كانت له عن المجانين صورة بسيطة وعامة. يعرفهم بأنهم أناس يقومون بكل المتناقضات ويستخدمون المفردات ذاتها لكل أفعالهم. وحسب هذا التعريف كانت تيريزه مجنونة بالتأكيد، على العكس منه.

كان للبواب، الذي راح يزور البروفسور، يومياً، رأيٌ آخر. لا يولي الحرمة أي قيمة. تعاظمت مخاوفه من خسارة الجعالة الشهرية. كان واثقاً من الحصول على هذه الأموال الطائلة ما دام البروفسور على قيد الحياة. ومن يستطيع التوكل على حرمة في مثل هذه المسائل؟ غيّر المسار اليومي لحياته، وجعل يقضي ساعة كاملة قبل الظهر قرب سرير البروفسور.

كانت تيريزه ترافقه إلى الداخل صامتة وتترك الغرفة من فورها، لأنها تعتبره لئيماً. قبل أن يجلس يحدّق في الكرسي ساخراً ثم يقول إما: "أنا والكرسي"، أو يربت على ظهره ببالغ الشفقة. يتهدهد الكرسي، ما دام هو

t.me/yasmeenbook

جالساً، ويصدر قرقعة كسفينة مقبلة على الغرق. كان البواب قد نسي الجلوس. فهو يقضي الوقت جاثياً وراء العين السحرية في بابه أو واقفاً حين يضرب أحداً، أو راقداً حين ينام، ولم يعد لديه وقت للجلوس. حين يسود السكون على الكرسي فجأةً يتشوّش ويلقي نظرة قلقة على فخذيه. لا لم يضعفا بعد ويمكنه الاعتزاز بهما. ولا يتابع خطابه الذي قاطعه إلا بعد أن يسمعهما.

"الحريم حقّهن الضرب حتى الموت. كلّهن، بلا استثناء. أنا أعرف الحريم. عمري الآن 59 سنة. كنت متزوج طوال 23 سنة. أي نصف عمري تقريباً. دائماً مع زوجتي. أعرف الحريم. كلهن مجرمات. حاولوا أن تجمعوا كل جرائم التسميم، سيدي البروفسور، أنتم عندكم كتب كثيرة، سترون فيها الحاصل. الحريم جبانات. أعرف هذا. وإذا ردّت عليّ واحدة منهن بكلمة، أردّ عليها بواحدة لتعيد تفكيرها، يا خراء، يا وسخة، أقول لها، أنت تتجرّئين عليّ. قرّبوا أنتم إلى حرمة، ستهرب منكم، أراهن بقبضتي، شوف، هي تسوى. أنا أقدر أقول للحرمة ما أريد ولن ترد. لم لا ترد؟ لأنها تخاف. ولم تخاف؟ لأنها جبانة. كم ضربت حريم، كان لازم تشوف بعينك. حرمتي ما كانت تخلص من البقع الزرقاء. المرحومة بنتي كنت أفرح بضربها، ما أقصّر معها. وهذه كانت حرمة، خلينا نقول، بدأت فيها لما كانت صغيرة كثير. شوفي، كنت أقول لحرمتي، هذه كانت تبدأ بالصريخ أول ما أمدّ يدي على البنت، إذا تزوجت تصير لرجل. هي اليوم صغيرة، خلّيها تتعلم الحياة. وإلا ستهرب من عند زوجها. أنا ما أعطيها لرجل ما يضرب. أخرى على رجل كهذا. الرجل لازم يفهم هذا الشيء. أنا مع البوكسات. برأيك، استفادت هي شيء من هذا الحكي؟ ما عندي أدنى فكرة. كانت العجوز تقف بيني وبين بنتها وأنا أضرب الاثنتين. لأنه الحرمة ما لازم تعارضني. أنا لا. وأنت أكيد كنت تسمع صريخهن. كان سكان العمارة كلهم يفيقوا ويتسمعوا. وقتها ينزل الخوف على كل البناية. كنت أقول لهن، وقفوا

t.me/yasmeenbook

لأقف. وما عاد يتحركو. أقول لحالي أجرّب وأرى إذا يصرخو. كان لازم كله يكون هادئ مثل الفأر. أبدأ باليمين، وفجأة ما عاد أقدر أتوقف. لأني إذا ما تدربت أنسى. أنا أقول الضرب فن. فن لازم الرجل يتعلمه. عندي رفيق يضرب بالبطن أول ما يبدأ. من ينضرب يقع مباشرة وما عاد يحسّ بشيء. إيه، الآن، أقدر أضربه مثل ما أريد، هكذا يقول رفيقي. وأنا أقول له، إيه، وما استفدت أنا إذا ما عاد حسّ بشيء؟ أنا ما أضرب أحد غشيان على قلبه لأنه ما عاد يحس بشيء. هذا موقفي طول عمري. أنا أقول إنه الرجل لازم يتعلم كيف يضرب، بحيث أن الذي ينضرب ما يغشى على قلبه. الغشيان ممنوع. هذا اسمه عندي ضرب. أيّاً كان يقدر يقتل. هذا ما فن. الآن إذا عملت كذا، تنكسر صندوقة مخك. تصدّق؟ أنا ما فخور. أنا أقول، أيّاً كان يقدر يعمل كذا. شوف، سيدي البروفسور، أنت أيضاً تقدر تعملها. لكن الآن لا تقدر لأنك تموت ...”

رأى كين القبضات تتضخم بفعل البطولات الخارقة في ماضيه. غدت أكبر من صاحبها. ملأت الغرفة على آخرها. كما نما الشعر الأحمر بالسرعة نفسها. راح يمسح الغبار عن الكتب بعنفوان. تغلغلت القبضة في الغرفة الجانبية وطرحت تيريزه على السرير، حيث ظهرت فجأة. وحيث لا يدري لكمت القبضةُ التنورةَ التي تقصفت مصدرة ضجيجاً مهيباً. في الحياة متع كثيرة! هتف كين مرعداً. بينما هو ذاته ضئيل ونحيف، فلا خوف عليه. ثم ضمر أكثر من باب الاحتياط. غدا رقيقاً مثل ملاءة السرير. لا تستطيع أي قبضة في العالم أن تؤثر فيه.

يؤدي هذا المخلوق الوفي، المفتول العضلات واجبه بسرعة. ما إن يقضي ربع ساعة حتى تختفي تيريزه عن الوجود. لا قوة تصمد في وجه هذه السلطة، لكنه ينسى أن يذهب ويبقى ثلاثة أرباع ساعة إضافية دون هدف واضح. إنه على كل حال لا يؤذي الكتب، لكن كين يشعر مع مرور الوقت بالضيق منه. على القبضة ألا تتحدث كثيراً وإلّا تبيّن أن جوهرها

t.me/yasmeenbook

فارغ. واجبها الضرب وحده. وما إن تنتهي من الضرب، عليها أن تذهب أو أن تصمت على الأقل. إلا أنها لا تبالي كثيراً بأعصاب رجل مريض ورغباته، وتصرّ على التمدّد أكثر من هدفها الوحيد. تراعي في البداية قليلاً وتكافح شعب النساء المجرم لأجل كين، لكن ما إن تقضي على النساء حتى لا يبقى منها سوى خلائها: قبضة بذاتها. ما زالت قوية كما بدأت، لكنها وصلت رغم هذا إلى عمر تستسلم فيه كثيراً لتفاصيل ذكريات الماضي المجيد. هكذا علم كين كل تاريخها المليء بالانتصارات. عليه ألا يسدّ عينيه وإلا انهالت عليه وجعلت منه خرقة. ولن تحميه حتى أجفان الآذان، لا دواء لهذه الزمجرة.

حين تصل الزيارة إلى منتصفها يبدأ كين يتأوه ويئن تحت وطأة آلام سالفة ظن أنه نسيها. لم يتبارك بالحركة منذ صغره. بل إنه لم يتعلم المشي بشكل صحيح. في مدرسة الرياضة كان يسقط دائماً عن القنطرة على الأرض. وكان أسوأ تلميذ في الجري رغم ساقيه الطويلتين. أقرّ المدرّسون بأن قدراته الجسدية الضعيفة خارقة. لكنه الأفضل في باقي الأشياء الأخرى بفضل ذاكرته الجيدة. لكن ماذا ينتفع من هذا؟ لم يحترمه أحد بسبب شكله المثير للسخرية، وضعت في طريقه أرجل لا تحصى تعثّر بها بضمير حيّ . استخدموه شتاء كرجل ثلج. يرمونه فوق الثلج ويدحرجونه طويلاً حتى يكتسب جسده أبعاداً طبيعية. هذه كانت أكثر واقعاته برداً، لكنها الأكثر ليونة أيضاً. ذكرياته عنها مختلطة كثيراً. حياته كلّها سلسلة لا تنقطع من الواقعات. قهرها جميعاً بجلَد، لم يعانِ يوماً من ألم شخصي. لا يشعر بالضيق واليأس إلا حين تتفكّك في رأسه قائمة كان يحتفظ بها عادة بسرّية شديدة. قائمة الكتب البريئة التي أوقع بها، كتاب ذنوبه، السجل الذي دوّن فيه كل وقيعة باليوم والساعة. كان يرى نافخي الصور حين يُبعث، أمام عينيه، اثنا عشر بوّاباً مثل بوّابه، بأوداج منتفخة وأذرع قوية العضلات. يتفجر من أبواقهم نص القائمة في أذنيه. فيسخر لشدّة رعبه من نافخي الأبواق

t.me/yasmeenbook

المساكين لدى رسام اسمه ميكيل انجلو. فهؤلاء يقرفصون تعساء في زاوية ويخفون أبواقهم خلف ظهرانيهم، يمدّون أسلحتهم الطويلة باستحياء في وجه فتيان قبضايات مأفونين مثل هذا البوّاب.

يلوح في المرتبة 39 على قائمة الكتب الساقطة مجلّدٌ سميك عتيق بعنوان "تسليح وتكتيك سلاح البيادة". ما إن سقط على السلّم بقعقعة ثقيلة حتى تحول البوابون، نافخو الأبواق، إلى بيادة تاريخيين. اندفعت فيه حماسة عظمى. البواب بيادة، وإلا ماذا يكون؟ الهيئة المندفعة، الصوت الهادر، الإخلاص للذهب، التهوّر الذي لا يخشع أمام شيء، ولا حتى النساء، المباهاة والصلف دون أن يقول شيئاً. إنه التجسيد الحي للبيادة من القرون الوسطى.

بهذا لم يعد يرهب القبضة. قبالته تجلس شخصية تاريخية، يعرف ما تفعله وما لا تفعله. غباؤها المثير للفزع مفهوم. سلوكها سلوك البيادة الحقيقي. معوز، قبضاي ظهر متأخراً، نزل على الأرض في القرن العشرين، يرقد طوال الوقت في جحره المعتم، دون كتاب، وحيداً، مطروداً من العهد الذي خُلق لأجله، منفيّاً في غيره، حيث سيبقى غريباً إلى الأبد. ومهما تباهى، لن ينصهر البواب إلى أيّ شيء في الأيام الخوالي البريئة لمبتدأ القرن السادس عشر. يكفي أن يوضع الإنسان في دوره التاريخي حتى يمكن التسلط عليه.

نهض البواب في تمام الحادية عشرة. لقد كان قلباً واحداً مع البروفسور بصدد دقّة المواعيد. كرّر ما فعله حين جاء، ألقى نظرة شفقة على الكرسي. "بعده سليم"، وثّق هذا وبرهن على كلامه بأن خبط الكرسي بيمناه على الأرض التي تحمّلت الصاعقة بنفسٍ ساكنة. "لن أدفع ولا شيء"، أضاف وضحك مزمجراً حين تخيّل أنه عليه أن يدفع للسيد البروفسور ثمن كرسيّ مكسور.

t.me/yasmeenbook

"لا تمدّ يدك، سيدي البروفسور. معي أنا ينكسر كل شي. الوداع. لا تعملها مع المرأة. أنا ما أطيق العجائز". ألقى نظرة حربية في الغرفة الجانبية مع أنه يعلم أنها غير موجودة فيها. "أنا أحبّ الصغار. شوف، المرحومة بنتي كانت مناسبة لي تماماً. لماذا؟ لأنها بنتي. هي صغيرة، هي حرمة، ويحقّ لي أعمل فيها ما أريد، لأني أنا أبوها. هي الأخرى ماتت. وهذي الحيزبون، اللحمة القاسية، ما زالت عائشة!".

يغادر الغرفة وهو يهزّ رأسه. لم يغلِ دمه يوماً على ظلم النظام العالمي كما حدث له مع البروفسور. لم يكن له في جلسته في حجرته وقتٌ للتأمل. وتنتشر في رأسه الأفكار عن الموت حالما يصعد من تابوته إلى سموّ صومعة كين. تذكّر ابنته، البروفسور الميت راقد أمامه، قبضتاه عاطلتان، وشعر أن شعور الآخرين بالخوف منه ضعيف جداً.

يبدو لكين في لحظة الوداع جديراً بالسخرية. يستره زيّه التقليدي جيداً، لكن الزمن تغيّر. تأسّف على أن منهاجه التاريخي غير قابل للتطبيق دائماً. لا يمكن تصنيف تيريزه في أيّ حضارة أو لا حضارة من التي يعرفها.

تسير صيرورة هذه الزيارة كل يوم على النسق نفسه. كان كين أكثر ذكاء من أن يختزلها. لن يخشى تيريزه ما دام للقبضة هدفٌ سامٍ ومفيد وتيريزه لم تقتل بعد. لا يعنّ له البيادة التاريخيون ولا يصير البوابُ واحداً منهم قبل أن يتضخم الخوف من ظهور سجل الآلام السري. وحين يهلّ الرجل في الساعة العاشرة من الباب، يقول كين سعيداً: إنسان خطير، سيمزّقها إرباً إرباً. يشفى غليله يومياً بهلاك تيريزه، ويسبح في خياله بحمد الحياة التي كان يعرف قبلاً أيضا بعض أسرارها، دون أن يجد نفسه مضطرّاً للحمد. لم يقتصد في التهكّم المارق، الذي يجمعه بعناية، وتعود على تذوّقه يوميّاً بوجبات، لا على يوم الدينونة ولا على نافخي الأبواق في كنيسة سيستينا. ربما استطاع تحمّل الجدب، والجمود والضغوط طوال أسابيع تحت راية امرأته فقط، لأن الاكتشاف اليومي يمنحه القوة والصبر. تعتبر

t.me/yasmeenbook

الاكتشافات في حياة العالم أحداثاً عظيمة ومركزية. وهو مضطرّ للرقاد وتتسرّب الأعمال من بين يديه، فيرغم نفسه يومياً على اكتشاف ماهيّة البواب: بيادة. يحتاجه أكثر من قضمات الخبز التي لا يتناول منها سوى القليل. يحتاجه كقضمة عمل.

كانت تيريزه مشغولة خلال ساعات الزيارة. ولأنها تحتاج إلى الوقت، تسمح للبواب، الإنسان اللئيم، الذي أصغت إلى خطابه مرة واحدة فقط، بدخول منزلها. أجرت جرد حساب للمكتبة. أعملت فكرها في السرّ الذي دفع الرجل لتقليب الكتب على ظهورها، كما كانت تخشى من ظهور الأخ الجديد، الذي سيأخذ منها القطع الأغلى. ولمعرفة الموجودات، ودرءاً للخديعة، بدأت ذات يوم، بينما البواب يلعن الحريم عند المريض، بأهمّ أعمالها في غرفة الطعام.

قصت من الجرائد القديمة حوافها الضيقة الفارغة وتقدمت بها نحو الكتب. كانت تأخذ أحدها، تقرأ اسماً، تتلوه جهاراً وتدونه على إحدى الشرائط. تكرّر الاسم كاملاً عند كتابة كل حرف كي لا تنساه. كلما ازداد عد الحروف ازداد الاسم تكراراً، وبهذا تزداد التغيرات النطقية العجيبة على الكلمة. تتبدل مخارج الحروف لتكتسب مزيداً من القوة الضاغطة، فتنقلب الهمزة قافاً، التاء طاءً، والحاء عيناً. فهي مغرمة طوال عمرها بكل ما هو قوي وضاغط، وأرهقت نفسها حذراً من أن تخرق الشرائط الورقية بقلم الرصاص. تمكّنت أصابعها السميكة الخرقاء من رسم كمٍّ كبير من الحروف. ضاقت ذرعاً بالعناوين العلمية الطويلة لأنها لا تجد مكاناً كافياً بين حافتي الشريط الضيق. وقررت أن يأخذ كل كتاب سطراً واحداً فقط كي يسهل عليها الحساب ويبدو الشريط أجمل. كانت تتوقف عن الكتابة في منتصف العنوان إذا لم يكفِه الشريط، وتلعن النصف الآخر إلى جهنّم وبئس المصير، فتضع نقطة الانتهاء.

كانت النقطة حرفها المفضل. لم تنسَ جمال النقاط التي كانت تكتبها

t.me/yasmeenbook

في أيام المدرسة في درس الخط. (عليكم تدوير النقطة الحلوة مثل تيريزه، كانت المعلمة تثابر على القول. تيريزه ترسم أجمل النقاط. ثم رسبت في صفّها ثلاث مرّات. لكن لم يكن ذنبها. كان ذنب المعلمة. فهذه لم تكن تطيقها لأن تيريزه ترسم النقطة أجمل منها بكثير. كان كل الطلاب يرجونها لترسم لهم النقاط ولا أحد تعجبه نقاط المعلمة). وهي لهذا تستطيع كتابة النقاط بمختلف الحجوم الكبيرة والصغيرة. تضيع النقاط المكورة الجميلة بين جاراتها الكبيرات من الحروف والأعداد.

كانت تجرّ خطّاً أسفل كلّ شريط، تحصي العناوين وتجمع الأعداد، تحفظ الحاصل في رأسها، فقد كانت ذاكرتها تحسن التعامل مع الأرقام، وتدوّن المجموع كتابة إذا ظل على حاله بعد إعادة الحساب ثلاث مرات.

يوماً إثر يوم صغرت حروفها وكريات نقاطها أكثر فأكثر. حين تنتهي من ملء عشرة أشرطة تخيطها معاً في الترويسة بإتقان ومراس وتضيف قطعة جديدة، كسبتها بمرارة، إلى أملاكها التي تتجاوز 603 كتب، تخبئها في الجيب الجديد في تنورتها بجوار المفاتيح.

صدمت بعد حوالي ثلاثة أسابيع باسم بوذا، الذي ستضطرّ لكتابته مرات عديدة. أغرمت بأصوات الحروف اللينة. كان المفترض أن يكون اسم ذلك الشاب المثير هكذا ناعماً وليس جلفاً: "غروب". أغمضت عينيها وهي على السلم، ونفخت في الاسم بكل ما فيها من لدانة ونعومة: السيد بوزا. بذلك تحول بوتا، إلى بوظا، وبالتكرار إلى بوزا. بدا لها أنه يعرفها حقّ المعرفة، وشعرت بالفخر به لأن كتبه لا تحصى. كم كان لسانه معسولاً، وها قد تبيّن أنه كتب كل هذه الكتب! تودّ لو تتطلّع إلى دواخلها. لكن هل لديها الوقت؟

حفزها حضوره على الاستعجال. وجدت أنها بطيئة في التقدم وأن ساعة واحدة في النهار لا تكفيها، وقرّرت التضحية بنومها. قضت ليالي

t.me/yasmeenbook

طويلة على السلم وهي تقرأ وتكتب. نسيت أن الإنسان المحترم يذهب إلى النوم في الساعة التاسعة. انتهت من غرفة النوم في الأسبوع الرابع. ونتيجة لنجاحها الباهر بدأت تحب حياة الليل، وتشعر بسعادة كبيرة في التبذير بالنور. ازدادت ثقتها بنفسها في مواجهاتها مع كين. وغدت تركّز على جملها القديمة بنبرة جديدة. بدأت تتكلم ببطء أكثر لكن بمزيد من الإلحاح ونوع من الزهو. لقد تنازل هو لها عن الغرف الثلاث آنذاك، أما كتبها فقد كسبتها بجهودها.

انطفأت آخر جذوة من الخوف عندما بدأت بحرفتها اليدوية في غرفة النوم. فجعلت تصعد السلم في وضح النهار، والرجل يقظ في الغرفة المجاورة، تتناول شريطاً وتمتلئ بأداء الواجب تجاه الكتب. وكي تظل هادئة تعضّ على أسنانها. فلا وقت لديها للكلام، عليها أن تحافظ على رأسها سويّاً، فقد يشرد أحد الكتب وسيكون عليها أن تعيد الكرّة. لم تنسَ الوصية وتابعت عنايتها بالرجل بكل أناة والتزام. وحين يحضر البواب تقطع تجارتها وتذهب إلى المطبخ. فقد يزعجها ذلك الإنسان عالي الصوت أثناء العمل.

في الأسبوع السادس والأخير من رقاده، التقط كين بعض أنفاسه. لم يعد حدسه الأمين يصدقه. فالمرأة تتوقف في وسط موعظتها وتسكت. وإذا أجري حساب جميع الأوقات فهي تتحدث فقط نصف النهار. ظلت تقول الشيء ذاته كما هو شأنها، إلا أنه ما برح يتوقع المفاجآت وينتظر الحدث الجلل بقلب متسرع. ويغمض عينيه سعيداً وينام ما إن تصمت.

t.me/yasmeenbook

انتعاش الحب

ما إن قال له الطبيب: "غداً يمكنكم النهوض"، حتى شعر كين باستعادة الصحة في اللحظة ذاتها. غير أنه لم يقفز من السرير فوراً. فقد بشّره الطبيب مساء وهو يريد أن يبدأ حياته السليمة بانتظام في السادسة صباحاً.

بدأ في اليوم التالي. لم يشعر بكل ذلك الشباب والعنفوان منذ سنين. اكتشف فجأة وهو يغتسل كأن لديه عضلات. لقد أعانته الاستراحة التي أُرغم عليها. أغلق الباب المؤدي إلى الغرفة الجانبية، وجلس إلى مكتبه منتصباً كقضيب. لقد عبث أحدهم بأوراقه بحذر، لكنه لاحظ الاختلاط. سرّ باضطراره لأن يعيد ترتيبها، لقد اشتاق إلى المخطوطات. أمامه عمل لا ينتهي. كانت الحرمة قد بحثت هنا عن وصية ما، عندما سلبته الحمّى لبّه نتيجة تلك الواقعة. ظل في ظلّ تقلّباته تحت وطأة المرض مبيّتاً نيّته: لن يكتب وصية ما دامت تصرّ عليها. وقرّر أن يصدمها بالواقع، حالما يراها، ويريها حدودها القديمة بسرعة وفعالية.

جلبت له الطعام وكانت بصدد أن تقول له: "الباب يبقى مفتوح". لكنها، لأنها تخطط لعاصفة باسمة تغزو بها الوصية ولا تعرف مزاجه بعد أن استعاد صحته، أرغمت نفسها على ألا تثيره قبل الموعد المضروب. اكتفت بالانحناء ووضعت قطعة خشبية تحت الباب حتى لا ينسدّ دون استقدام قوة خارجية. كانت متسامحة ومستعدّة لأن تفرض إرادتها بطرق ملتوية. نطّ، نظر باسلاً إلى وجهها وقال محتدّاً:

t.me/yasmeenbook

"لقد طرأت فوضى شنيعة على المخطوطات، وأنا أتساءل كيف وصل المفتاح إلى أيدٍ غير أمينة. وجدته في جيب البنطال الداخلي. لأسفي الشديد أرى نفسي مضطرّاً للإيمان بأن أحدهم انتهبه بشكل غير قانوني، أساء استخدامه ثم أعاده إلى مكانه".

"هذا ما كان ناقصنا!".

"أسأل للمرة الأولى والأخيرة، من فتّش في أدراج مكتبي؟!"

"الناس ستظن الظنون".

"أريد أن أعرف".

"رجاء، هل سرقت؟"

"أطالب بإيضاح".

"أيّاً كان يقدر يوضح".

"ما قصدك من وراء هذا؟"

"هكذا هم البشر".

"من؟"

"كل شيء بوقته حلو".

"طاولة المكتب ..."

"هذا ما أقوله دائماً".

"ماذا؟"

"على قدّ بساطك مدّ رجليك"

"هذا لا يعنيني أنا".

t.me/yasmeenbook

"قال إنه التخوت جيدة".

"أي أسرّة؟"

"تخوت العرسان معتبرة".

"أسرّة الزوجية!".

"اسمها كذا عند البشر".

"ليست حياة زوجية هذه".

"وهل أنا تزوجت عن حب؟"

"أحتاج إلى الهدوء".

"الإنسان المحترم يفوت إلى التخت الساعة تسعة".

"يبقى هذا الباب محكماً في المستقبل".

"الإنسان مسيّر، ما مخيّر".

"خسرت ستة أسابيع عقب هذا المرض".

"المرأة تضحّي بنفسها ليل نهار".

"لن يدوم الأمر على هذا المنوال".

"وما يعمل الرجل للمرأة؟"

"وقتي ثمين".

"في دائرة الزواج كان لازم الطرفين ..."

"لن أكتب وصية".

"من جاء على سيرة السمّ أساساً؟!".

t.me/yasmeenbook

"رجل في الأربعين ..."

"المرأة مثل الثلاثين".

"سبع وخمسون".

"ولا أحد قال لي كذا".

"هذا ما هو مسجل في البطاقة الوطنية تماماً".

"أيّاً كان يقدر يقرأ".

"هيهات!"

"المرأة ما تصدّق غير الورق. أين هي الفرحة؟ ثلاث غرف من نصيب المرأة وواحدة للرجل، هذا مكتوب على الورق. ما إن تفتح الباب للرجل، حتى تلاقي نفسها بالشارع. ما كل هذا الغباء؟ الورق أحسن. أيّاً كان يقدر يعطي حكي. فجأة يدوخ الرجل ويروح من بين الأيادي. والواحدة مننا ما تعرف أيّ بنك. المرأة لازم تعرف اسم البنك. من غير بنك تقول لا. رجاء، معها حقّ وإلا لا؟ ما فائدة الرجل إذا كانت ما تعرف اسم البنك؟ والرجل ما يحكي لها اسم البنك. وهذا أيضاً يقول عن حاله رجل، رجل ما يكشف اسم البنك؟ هذا ما رجل. الرجل هو الذي يقول اسم البنك".

"اخرجي!"

"أيّاً كان يقدر يطلع. والمرأة ما تستفيد شيء. الرجل هو الذي يعمل وصية. المرأة ما تعرف ما ممكن يصير. الرجل ما الوحيد بالدنيا. المرأة أيضاً موجودة. في الشارع يتلفت لي كل الرجال. أهم شي في المرأة هي الأرداف الفاخرة. الطرد عيب. الغرفة تبقى مفتوحة. المفاتيح معي. الرجل يأخذ معه المفاتيح لحتى يقدر يقفل الباب. خلّيه يشوف المفاتيح من

t.me/yasmeenbook

جديد. المفاتيح مخبّأة هنا"، قرعت على التنورة "والرجل ما يريد يفوت تحتها. لا، يريد، لكن ممنوع عليه".

"اخرجي!"

"المرأة تنقذ حياة الرجل وبعدها تنطرد. الرجل كان ميت. ومن جلب البواب؟ يمكن الرجل؟ كان تحت السلم. رجاء، ولمَ ما جلب البواب بنفسه؟ ما يقدر يتحرك. كان ميت وبعده ما أعطى للمرأة أيّ شيء من حقوقها. والأخ الجديد ما كان راح يعرف شيء. والبنك طبعاً يتواصل. المرأة تريد تتجوز من جديد. وأنا ما جاء لي من الرجل؟ فجأة يصير عمري أربعين والرجال ما عاد تتطلع فيني. المرأة أيضاً إنسان. رجاء، المرأة عندها قلب."

انقلبت نبرتها من المشاحنة إلى النشيج. "القلب" الذي تملكه الزوجة خرج من فمها كأنه كسير. ظلت واقفة تستند على إطار الباب، جسدها كله مائل، مثل رأسها عادة، وألقت نظرة تشي بالعجز. كانت شبه مصرّة ألا تتحرك من مكانها متوقعة اعتداء يدوياً. وضعت يدها الحامية على التنورة، رغم صلابتها، تماماً في المكان الذي يفيض بالمفاتيح وسجلات الكتب، وحالما تأكّدت من ثرواتها ردّدت: "قلب، قلب" وعادت لتنفجر بالنشيج. هذه المرّة بسبب ندرة هذه الكلمة وعظمتها.

سقطت كل غشاوة الوصية القذرة عن عيني كين. رآها واهنة تستعطف حبه، تريد أن تغويه، لم يرها هكذا قبلاً. هو تزوجها من أجل كتبه وهي تحبه. ولّد فيه نشيجها رعباً شديداً. لأتركها وحدها، ستستعيد هدوءها أسرع إذا كانت وحدها، فكر وأسرع في مغادرة الغرفة، والشقة ومن ثم البناية.

إذاً فقد كان حنانها على رواية "سروال السيد فون بريدوف" مصبوباً عليه وليس على الكتاب. حبّاً به استلقت على أريكة النوم. للمرأة إحساس قوي برغبات الحبيب. أدركت ارتباكه. قرأت أفكاره من جبينه آنذاك، حين

t.me/yasmeenbook

غادرا دائرة الزواج، كما تقرأ من كتاب مفتوح. أرادت أن تعينه. المرأة حين تعشق تفقد كل شخصيتها. كانت تريد القول: تعال! لكنها خجلت منه وبدل أن تحرجه بمطلبها رمت الكتب على الأرض. هذا التصرف يترجم إلى الكلمات: قدر الكتب عندي قليل، كل القدر لك أنت. حركة رمزية إعلاماً بالحب. وظلت منذ تلك اللحظة تتودد إليه، أرغمته على تناول الطعام معاً، على شراء أثاث جديد، ما فتئت تلامسه بتنورتها المنشاة. ولأنها تبحث عن فرصة للحديث عن سرير الزوجية، حصل على سرير بدل الأريكة. غيّرت غرفتها وتبضّعت أثاثاً لأجل اثنين. كان تركيزها على الوصية خلال مرضه ذريعة لتتحدث إليه. وماذا كانت تقول دائماً، الرب ما يقطع أحد. مخلوقة مسكينة أعماها الهوى. لقد مرّت شهور على الزواج وما زالت تأمل بحبه. إنها أكبر منه بست عشرة سنة وتعرف أنها ستموت قبله، ولهذا تصرّ على أن يكتب الطرفان وصيّتيهما. لا بدّ أنها تملك بعض المدخرات التي تودّ إهداءها له. وكي لا يرفض قبول الهدية تطلب منه أن يكتب وصيته. وإلا ماذا تستفيد إذا كانت ستموت قبله بكثير؟ أما هو فيستفيد. إنها تبرهن على حبها بالمال. هناك فتيات كبيرات يهبن كل مدخرات حياتهن، مدخرات عشرات السنين، لا بل أفضل قطعة اقتطعنها من كدّ يومهن الذي عشنه للتضحية، فجأة إلى رجل. كيف تسمو فوق فضائها الاقتصادي؟ يُعتبَر المال بين الأمّيين الدليل القاطع لكل شيء: الصداقة، الطيبة، الثقافة، السلطة والحب. تعقّد المرأة أبسط الأمور لقصورها. لكي تمنحه مدّخراتها ظلّت تعذّبه طوال ستة أشهر بالكلمات نفسها. لا تقول بكل بساطة وصراحة: أحبّك، هاك نقودي! إنها تخفي المفتاح. هو لا يجده وهي تعتبر وجوده بداهة كالهواء. هو يمانع أن يتعلق بها وهي تقتنع بهوائه. ينسى أن يتساءل ما إن كان المصرف، حيث ماله، آمناً. وهي ترتعش لأنه قد يخسر أمواله. مدخراتها قليلة قد لا تكفيه للبقاء

t.me/yasmeenbook

على قيد الحياة طويلاً. وهي لا تتوقف عن السؤال عن المصرف بطرق ملتوية وكأنها تخاف على نفسها هي. تريد أن تنقذه من كارثة محققة. المرأة تخاف على مستقبل حبيبها. لم يعد أمامها سوى بضع سنوات. تستغل آخر قواها كي تؤمّن حياته قبل وفاتها. وليأسها منه فتشت طاولة مكتبه خلال مرضه راجية أن تجد بيانات مؤكدة. ولتوفر عليه القلق والهيجان لم تُخفِ المفتاح، بل أعادته إلى حيث كان. وهي البلهاء غير المثقفة، لا تدرك مدى دقّته وقدرته على التذكر. إنها على درجة من الجهل بحيث يشعر بالغثيان لمجرّد أن يتذكر لغتها. لا يستطيع مساعدتها إطلاقاً. الإنسان لا يوجد على الأرض لأجل الحب. لم يتزوج عن حب. أراد أن يضمن سلامة كتبه وبدت له مناسبة لهذه المهمة.

كأنه يجد نفسه للمرة الأولى على شارع. ميّز بين حشد النساء والرجال الذين يصادفهم. توقف عند المكتبات، وتحديداً عند الواجهات التي كان يحتقرها سابقاً. لم تزعجه جبال الكتب الرخيصة. قرأ العناوين ومضى دون أن يهزّ رأسه. جرت الكلاب على الرصيف، التقت بأبناء جنسها وتشمّمت بعضها البعض فرحة. تباطأ في سيره ونظر إليها معجباً. ارتطمت كتلة أمام قدميه بكل عنف، اندفع نحوها فتى، رفعها، صدمه ولم يعتذر إليه. تابع كين الأصابع التي تفتح الطرد، ظهر منه مفتاح، على الوريقة المتجعدة بضع كلمات. تبسّم القارئ ورفع عينيه إلى البناية. فتاة تطل من نافذة في الطابق الرابع فوق فراش معرّض للشمس، تلوح بشدة وتختفي بسرعة، مثل سرعة اختفاء المفاتيح في جيب بنطال الفتى الخلفي. "ماذا يفعل بالمفتاح؟ لصّ، مدبرة المنزل ترمي له المفاتيح، عشيقته!". في الشارع العرضي التالي تقع مكتبة مهمة، لم يعبأ بها. على الزاوية المقابلة يتحدث حارس بحيوية عالية إلى امرأة. جذبته الكلمات التي يراها من بعيد وأراد أن يسمعها. وعندما اقترب منهما كفاية انفصلا. "الوداع" نعق الرجل. وجهه الأحمر

t.me/yasmeenbook

يلمع تحت الشمس الساطعة. "إلى اللقاء، إلى اللقاء سيدي المفتش"، كركرت المرأة. الرجل سمين والمرأة خفيفة الحركة والالتفافات، لا يستطيع كين نسيانها. عندما مرّ بالكنيسة قرعت أصوات دافئة وحنونة في أذنيه. لو أطاعه صوته مثل مزاجه في تلك اللحظة، لغنّى على إيقاع القرع. فجأةً رماه أحدهم بزرق. رفع نظره بفضول وفزع إلى ألواح السقف. إنها الحمامات تهدل وتتناجى، لا ذنب لها في القذارة. لم يسمع مثل هذه الأصوات منذ عشرين سنة رغم أنه يمرّ يومياً من هنا خلال جولته الصباحية. إلا أنه يعرف الهديل من الكتب. "صحيح" قال بصوت خفيض وأومأ، كما يفعل دائماً حين يتثبت من محاكاة الواقع لصورته المطبوعة في الكتب. لم يفرح اليوم بهذا البرهان العقلاني. حطّت حمامة على رأس المسيح الخارج من قاعدة، المسيح المريض والنحيف يشوّه الألم وجهه. لم تكن تحب أن تظل وحيدة، فلاحظت أخرى هذه الرغبة وحطّت من فورها بجانب الأولى. يتألم المسيح لأجل الشعب كثيراً، والشعب يعتقد أنه يعاني ألم الأسنان. لكن حقيقة الأمر ليست كذلك، إنه لا يتحمّل وطأة مرأى هذه الحمامات، فلا بد أنها تفعلها طوال النهار. تذكّر وحدته. على المرء ألا يفكر بهذا وإلا فلن ينجح في شيء. لأجل من كان سيموت لو أنه تذكّر وحدته على الصليب؟ نعم، وحقّاً كان وحيداً جدّاً، وأخوه لم يعد يكتب له. لم يردّ طوال سنوات على رسائل ابن باريس، فبدا ذاك لنفسه غبيّاً وتوقف عن الكتابة. يحرم على الثور ما يحلّ لجوبيتر[1]. منذ أن توسّعت علاقات غيورغ مع النساء صار يعتبر نفسه جوبيتر. كان غيورغ إنساناً يحب قرب النساء طوال عمره، لم يكن قطّ وحيداً، لا يتحمّل الوحدة مطلقاً، ولهذا أحاط نفسه بالنساء. وهو

---

1) يحرم على الثور ما يحلّ لجوبيتر. في الأصل اللاتيني Quod licet Iovi, non licet bovi، مثل يعتقد أنه شاع في القرون الوسطى، مع أن هناك آراء تقول إنه نشأ في أواخر القرن الأول الميلادي بما أن القافية لم تكن معروفة أو دارجة قبله. جوبيتر هو كبير الآلهة في الأسطورة الرومانية. المعني بالمثل هو أن ما يقوم به جوبيتر والثور من ناحية يكون العمل نفسه، لكن التقييم يختلف. أي أن العمل يقيّم حسب من قام به، وليس بذاته.

t.me/yasmeenbook

أيضاً تحبه امرأة، وعوض أن يبقى معها يفرّ منها ويأسف لوحدته. التفت فوراً وعاد بخطوات واسعة، متفائلة، عبر الشوارع ذاتها إلى البيت.

سرّعت الأفكار الرحيمة في عزم حركته بشدة أكبر من بغيته. إنه سيد على الحياة. له أن يقصر ويفسد آخر سنوات هذه المخلوقة المسكينة التي تتعذب في ضرام الحب. لا بدّ له من حل وسط. آمالها عبث فهو لن يتحول إلى رجل يحب الحياة. ثم إن أخاه يأتي بأولاد كفاية إلى هذا العالم، ويؤمّن بذلك نسل عائلة كين. يشاع أن النساء لا يدققن كثيراً في هذا الشأن، وهذا صحيح فهن لا يعرفن مع من يتعاملن. تعيش معه منذ أكثر من ثماني سنوات في الشقة. المسيح أقرب إلى الغواية منه. لتشي لنا الحمامات بغاية حياتها؛ لا غاية لها. امرأة إضافة إلى كل هذا العمل! هذه جريمة بحقّ طبيعة العلم. يقدّر لها وفاءها، فهي تقدم كل ما تستطيع حسب قدراتها المحدودة. يكره الاختلاس ونهب الأموال العامة. ليس للملكية الخاصة علاقة بالطمع إنما بالنظام. ولا يودّ اختلاس ما هو لصالحها. لقد ظلت تحبه طوال ثماني سنوات صامتة، وهذا كثير بالنسبة لامرأة. وهو لا يلاحظ أدنى نأمة. لم ينطلق لسانها إلا بعد الزواج. ليتخلّص من حبها سيفعل كل ما بوسعه ليقدّم لها كلّ ما تطلبه منه لمصلحته. تخاف أن ينهار مصرفه؟ حسناً، سيقول لها في أيّ مصرف أودع نقوده، ثم إنها تعرفه بجميع الأحوال فقد صرفت فيه شيكاً. تريد أن تهديه مدخراتها؟ حسناً، سيمنحها هذه المتعة البريئة، سيكتب وصية كي يكون لديها أيضاً ذريعة لتكتب وصيتها. الإنسان لا يحتاج الكثير ليكون سعيداً. بهذا القرار سيحرّر عنقه من ربقة حبها الصاخب والمبالغ فيه.

لكنه اليوم ضعيف ويخشى الفشل. الحب الحقيقي لا يهدأ بتاتاً ويختلق جرحاً جديداً قبل أن يندمل الجرح القديم. لم يعشق في حياته، وكان مثل ولد صغير لا يعرف شيئاً وسيعرف قريباً؛ ويكمن فيه خوف غامض

t.me/yasmeenbook

من الحالتين، المعرفة واللامعرفة. لقد اختلطت الأفكار في ذهنه وبدأ يتخبط في أفكاره مثل الحرمة. يتمسك بكل ما يخطر في باله دون اختبار، ثم يفلته من فوره دون أن يتمّه لأن شيئا آخر، لكن ليس أفضل، يخطر له. سيطرت عليه صورتان، صورة المرأة العاشقة الصاخبة، وصورة الكتب المتحرقة للعمل. كلما دنا من الشقة تمزّقت روحه ورأى عقله السرّ الذي يخجل منه كثيراً. حاسب الحب بكلمات قاسية واستخدم أقذر الوسائل: استحضر تنورة تيريزه في المركز. كان للجهل، لنبرة الصوت، للسن، للتعبير، للأذنين مفعولها، لكن الطعنة القاتلة أتت على يد التنورة. وحين وصل إلى باب البناية كانت التنورة صريعة غضب الكتب القريبة.

قال لنفسه: "والآن؟ وحيد! أنا وحيد؟ والكتب؟" التي يقترب منها أكثر كلما ارتقى طابقاً. صرخ من الغرفة الأمامية نحو المكتب: "المصرف الوطني". كانت تيريزه واقفة إلى المكتب. "سأكتب وصيتي"، أمرها ونحّاها جانباً بعنف أقوى مما كان ينوي. كانت قد كتبت على ثلاث أوراق ترويسة "وصية" خلال غيابه. أشارت إليها ونوت أن تبتسم إلا أنها لم تتمكن من أكثر من التبسّم. أرادت أن تقول: "وأنا ماذا قلت لك؟"، لكن صوتها خانها. كاد أن يغمى عليها. تلقّفها الشاب المثير بين ساعديه وعادت إلى الوعي.

t.me/yasmeenbook

خمّنت، حين دوّن الوصية على الورقة، أنه أخطأ في الكتابة. ثم اعتبرتها مزحة سمجة، وبعد ذلك فخّاً. كل رأسماله في المصرف قد يكفي لتأمين حياة سنة أو سنتين، لا أكثر.

عندما رأت الرقم فهمت بكل سذاجة أن صفراً ينقصه، واعتبرت بكل بداهة أنه أخطأ. وحين راجع الرقم وتيقّن من صحته، ارتابت أن يكون عشرة أضعاف وأصيبت بخيبة أمل مريرة. أين هو الثراء؟ كانت ترغب في أن تجهّز للشاب المثير محل الأثاث في المدينة. والوصية لا تكفي سوى لشركة مثل شركة غروس وأمه. إنها تفهم في التجارة، إلى هذا الحد على الأقل، وتحسب منذ أسابيع أسعار اقتناء الأثاث قبل أن تنام. طرحت عن رأسها فكرة تأسيس معمل لها، لأنها لا تفهم في هذه الأمور، وتريد أن تكون لها كلمة في التجارة. وها هي ذي خالية الوفاض لأن شركة غروب وحرمه – هذه العلامة التجارية من أهم شروطها – لن تبدأ بحجم رأسمال يتجاوز رأسمال شركة غروس وأمه. الشاب المثير روح شركة غروس وأمه، وإذا أخذا هما الروح، ستنجو تجارتهما ويوظفان الجزء الأعظم من الأرباح فيها، فهما لا يحتاجان شيئاً. سيعيشان على الحب. بعد عدة سنوات ستختفي شركة غروس وأمه. لما بلغت هذا الطور وتخيّلت السيد المدير القصير خلف الباب الزجاجي متنهّداً يحكّ صلعته، لأن الشركة الجديدة غروب وحرمه، حرمته من أفضل زبائنه، قال كين:

"لا ينقص صفر. قبل عشرين سنة كان هناك صفر".

t.me/yasmeenbook

لم تصدّقه وردّت شبه مداعبة: "طيّب، وأين راحت النقود الغالية؟".

أشار صامتاً إلى الكتب. اختلس منها ذلك الجزء الذي صرفه على معيشته، وهو طفيف حقاً، وشعر بالخجل من نفسه.

فقدت تيريزه رغبتها بالمزاح وأعلنت بشموخ: "البقية يبعثها الواحد قبل ما يموت لأخوه. الأخ يأخذ تسعة أعشار قبل ما تموت. وأنا الغريبة آخذ عشر واحد بعد ما تموت".

لقد كشفته. توقعت أنه سيستحي ويضيف الصفر المتنازع عليه قبل فوات الأوان. لن ترضى بالأوساخ. تقامر بالكل. شعرت أنها صاحبة خزانة الشاب المثير واستخدمت أمثاله في فكرها.

لم يسمع كين تماماً ما تقول، لأنه ما زال مصوّباً نظرته إلى الكتب. حين انتهت، مرّ على الوثيقة سريعاً مرّةً أخرى من باب الواجب، طواها وهو يقول: "غداً نذهب إلى كاتب العدل".

اختفت تيريزه كي لا تبدأ اللعن. أرادت أن تمنحه الوقت ليعود إلى رشده، ويفهم أخيراً أن ما يفعله حرام. الزوجة القديمة أقرب إلى الإنسان من أخ جديد. لم تفكر في رأس المال المدسوس في الكتب، لأن ثلاثة أرباعه ملكها في جميع الأحوال. همّها الأوحد الآن هو الثروة خارج المكتبة. إذاً ستؤجل الذهاب إلى كاتب العدل قدر استطاعتها. لأن الوثيقة إذا صارت بين يديه، انتهت مسألة رأس المال. الإنسان المحترم لا يعدّل وصيّته كثيراً. عليه أن يخجل من كاتب العدل. يفضّل أن يعمل الوصية النهائية كي لا يذهب إليه أكثر من مرة.

أما كين فكان يفضّل الانتهاء من جميع الشكليات فوراً. لكنه يشعر اليوم بشيء من الاحترام تجاه تيريزه، لأنها تحبه. ولأنها أمية فهي تحتاج إلى ساعات طوال كي تكتب ورقة رسمية. لم يعرض عليها المساعدة لأن هذا سيهين مشاعرها. ومشاعرها تستحقّ هذا التقدير على الأقل. ثم لن يكون

t.me/yasmeenbook

لتعاونه معنى إلا إذا لم يسرّ لها أنه كشف سرّها. خاف أن تبدأ بالعويل حالما لمّح لها إلى هبتها التي تنوي أن تهديه إياها. ولهذا بدأ العمل. أزاح الوصية وأفكاره الأخرى جانباً، وترك الباب إلى غرفة نومها مفتوحاً. ثم انكبّ بكل طاقاته على مقالته القديمة بعنوان "عن تأثير شريعة بالي على شكل قصيدة البوسوكو سيكتاي اليابانية".

راقبا كلٌّ منهما الآخر بشكل سافر على الغداء، ولم ينطقا كلمة واحدة. هي تقيم الآمال في استدراك خطيئة الوصية، وهو يزن ورقتها على الأخطاء الإملائية، التي ستكون فيها ولا بدّ. هل يعيد كتابتها أم يكتفي منها بتصحيح الأخطاء؟ لا بد من أحد هذين الإجراءين. صحيح أن مشاعره الرقيقة نحوها تبلّدت نتيجة ساعات العمل القليلة، إلا أنها ما زالت كافية لتأجيل القرار إلى الغد.

ظلت تيريزه تعاني القلق على تجارتها خلال الليل. شعرت بالمرارة وتألمت على التبذير في النور، لأن الرجل يعمل حتى وقت متأخر من الليل، لغاية الثانية عشرة. وهي تتوجع على تبذير أي قرش منذ أن بدأت أحلامها تتحقق. لكنها كانت راقدة بخفة وحذر لأنها تنوي أن تبيع غرفة النوم في شركتها على أنها جديدة. لم تُصَب الغرفة حتى الآن بأيّ خدش، وسيؤسفها أشدّ الأسف إذا اضطرت إلى دهان الأشياء من جديد. أطال قلقُها على السرير والخشية من إيذائه سهرَها، بينما كين ينام وحساباتها تستقيم. لم تعد لديها أيّ شكوك، إنما تشعر بالملل. غداً لن تشعر بالملل بعد.

انشغلت في الهزيع الأخير من الليل بزيادة المبالغ التي ستنالها بمهاراتها في كتابة النقاط. تجاوزت كل منافساتها من النساء. ظهرت كثيرات لا محلّ لهن. لا ترتدي أي منهن تنورة منشّاة. لا تبدو أيٌّ منهن في الثلاثين. أفضلهن لا يقلّ عمرها عن الأربعين. لكن أصفارهن تبعث على السخرية، ولذلك يرميهن الشاب المثير إلى الخارج أجمعين. لا يلتفت إليها الرجال في الشارع. صرخت تيريزه في ظهر شخص وقح، عندك

t.me/yasmeenbook

مصاري كثير يا كلبة، لمَ ما تنشّي تنورتك؟ لا تشتغل لأنها كسلانة وبخيلة فوق هذا، أيّاً كان يقدر يعمل هكذا. ثم تتجه نحو الشاب المثير مقرّةً له بالفضل. أرادت أن تخبره بالاسم الجميل الذي اختارته له، غروب لا يليق به، لكنها نسيته. نهضت، أشعلت النور على الكومودينة، أخرجت محتويات جيب التنّورة وبحثت طويلاً حتى وجدت الاسم الذي لا يغلى عليه نور. كادت أن تنفجر من شدة الإثارة وتصرخ "بوزا"، لكن هكذا اسم يجب أن تهمس به همساً. أطفأت النور وألقت بنفسها الثقيلة على السرير. نسيت الرفق الذي يجب أن يعامل به. قالت له مرّاتٍ لا تحصى: "سيد بوزا"، لكن هذا لم يكن مثيراً فقط، إنما ذكيّاً أيضاً ولم يتوقف عن العمل. يمرّر أنظاره على النساء واحدة بعد الأخرى. بعضهن يتظاهرن بأنهن متقوسات الظهر تحت ثقل الأصفار. قالت تيريزه: "أنا أنبّهك، العمر يعمل كذا، ما الأصفار؟". فهي تحب الحقيقة فوق كل شيء آخر. أمام السيد بوزا ورقة ملساء نظيفة يكتب عليها الأصفار بخط جميل. كل بادرة في هذا الإنسان جميلة ونظيفة. ثم مرّ بعينيه الرحيمتين على الورقة وقال بصوته المعلوم: "آسف سيدتي الرؤوم، مستحيل سيدتي الرؤوم". وعلى الفور خرجت الحيزبون. كيف تتجرأ مثل هذه المرأة! لكن كيف هن نسوان اليوم؟ ما إن يصير بيد الواحدة منهن قليل من المصاري حتى تظن أن الشاب المثير صار ملكها. ما يغيظ تيريزه أكثر هو أن يجد الشاب المثير أن رأس المال الذي جاءت به إحداهن أكبر من رأسمال الأخريات. فيقول من ثم: "هنا عليّ أن أقول، سيدتي الرؤوم، تفضلوا بالجلوس، سيدتي الرؤوم!". وطبعاً للجميع أن يتصور عمر هذه. لكنها على كل حال تجالسه. يقول لها فوراً: "أجمل الرؤومات"، فتشعر تيريزه بقليل من الخوف. تنتظر حتى يفتح فمه، ثم تتقدم وتدخل بينهما. تحمل في يمناها قلم الرصاص المبري جيداً. تكتفي بالقول: "رجاء، لحظة!". وترسم على الورقة بنهاية رأس مالها نقطة حلوة. ورقتها فوق جميع الأوراق، فهي كانت أول امرأة ذات رأس مال

t.me/yasmeenbook

يقابلها. ويحقّ لها أن تتدخل، لكنها ترجع بتواضع وتسكت. فيتكلم السيد بوزا باسمها: "آسف جدّاً، سيدتي الرؤوم، مستحيل، سيدتي الرؤوم!". وهنا تبكي الحيزبونات. كادت اللقمة أن تصل إلى الفم، وزال عنهن النعيم. لكن السيد بوزا لا يبالي بدموعهن. يقول: "أليس على المرأة أن تبدو في الثلاثين حتى يحقّ لها أن تبكي؟". فهمت تيريزه من يعني وشعرت بالفخر. يذهب الناس ثماني سنوات إلى المدرسة ولا يتعلمون شيئاً. لماذا لا يتعلمون رسم النقطة؟ هل النقطة أيضاً صعبة؟

لم تعد تطيق المكوث في الفراش في باكورة الصباح. كانت على أهبة الاستعداد عندما استيقظ كين في السادسة. التزمت السكون وأصغت إلى حركاته وهو يرتدي ثيابه، يغتسل، ويربّت على الكتب. ارتفعت حساسية أذنها نتيجة لعزلة حياتها وخطواته الخفيفة. تعرف تماماً في أيّ جهة يتحرك رغم السجاد الليّن ووزنه الخفيف. لقد سار في كل الدروب الممكنة غير المجدية وأهمل درب طاولة المكتب، الذي لم يدخله إلا بعد السابعة حيث مكث برهة. ظنّت تيريزه أنها تسمع صرير ريشته. فكّرت: هذا اللخمة، يعمل خربشة حتى وهو يعمل نقطة. انتظرت خربشة أخرى. فقد كانت تنتظر صفرين على الأقل بعد أحداث الليلة الماضية، وتصورت نفسها رغم هذا في فقر مدقع وغمغمت: "في الليل كان كل شيء أحلى".

نهض ونحّى الكرسي. لقد استعدّ إذاً دون أن يخربش مرة أخرى. أقبلت عليه بتهوّر. تصادما على العتبة. سألها: "انتهيت؟". هي: "كل شيء تمام؟". كان النوم قد أفنى بقايا المشاعر الرقيقة فيه. لم يعد يعبأ بحكايات الحريم الغبية. لم يتذكر الوصيّة إلا بعد أن ظهرت له في روضة المخطوطات. قرأها بملل ولاحظ خطأً لا يُغتفر في العدد قبل الأخير من رصيد المصرف. وجد أنه كتب سبعة بدل خمسة. صحّح الخطأ منزعجاً وتساءل، كيف له أن يخطئ بين الخمسة والسبعة. هل لأنهما عددين أوليين. هدّأه هذا التفسير شديد الذكاء والوحيد الممكن، لأنه لا يوجد أي شيء مشترك بين الخمسة

t.me/yasmeenbook

والسبعة. غمغم: نهاراً سعيداً، يعني العمل والاستفادة من النهار. إلا أنه نوى أن ينتهي أولاً من ورقتها كي لا تزعجه بها أثناء العمل الجاد لاحقاً. لم يحدث لها شيء أثناء الاصطدام لأن تنورتها تحميها. وطبعا تألّم هو.

انتظر هو جوابها وهي جوابه. ولأنه لم يردّ عليها دفعته جانباً وانزلقت نحو طاولة المكتب. صحيح أن الوصية على المكتب. لاحظت أن العدد قبل الأخير تغيّر من السبعة إلى الخمسة. لكنها لم تكتشف صفراً إضافياً. إذاً فقد اقتطع منها جزءاً، هذا البخيل. وكما يتبيّن فهناك فرق عشرين شيلينغاً، وإذا أضيف إليه صفرٌ يبلغ مئتين، وبإضافة صفر آخر يكون الفارق كبيراً جداً: ألفين. لن تسمح له بأن يغشّها بألفي شيلينغ. وماذا سيقول الشاب المثير إذا علم بهذا؟ "رجائي الحارّ، هذا المبلغ يؤثر على رصيد تجارتنا، سيدتي الرؤوم!" وعليها أن تحذر هنا وإلا سيرميها إلى الشارع. هو يحتاج إلى شخص موثوق ولا يرضى بالوقوف على باب كلبة.

التفتت وقالت لكين، الذي كان في ظهرانيها: "لازم الخمسة تنمسح".

لم يأبه وأمرها من غير لطف: "هاتي وصيتك!".

طبعاً سمعته. كانت تتربّص به منذ الأمس وتسجل كل نأمة من نأماته. لم تكن يوماً، لأكثر من ثماني سنوات، سريعة البديهة كما هي في الساعات الأخيرة. فهمت أنه يطالبها بوصية. حضر في ذهنها ذلك الجزء النظري من موعظتها طوال أسابيع: "في دائرة الزواج كان على الطرفين" ولم تمضِ غمضة عين حتى ردّت الهجوم الصاعق: "رجاء، هل نحن الآن بدائرة الزواج؟!" خرجت من الغرفة ساخطة سخطاً صادقاً على تعجيزه لها. لم يحاسب نفسه على جوابها الحاد. فهم أنها لا تريد تسليمه وثيقتها بعد. بذلك يكون قد وفّر على نفسه اليوم تلك الزيارة المضنية إلى كاتب العدل، وهذا أفضل. تكيّف بكلّ سرور مع الفكرة واستسلم للمخطوطة بين يديه.

t.me/yasmeenbook

استمرّت لعبة الصمت بينهما عدّة أيام. وبينما يطمئنّ هو إلى صمتها يوماً إثر يوم – كاد أن يعود إلى سابق عهده – ازداد توترها ساعةً تلو ساعة. كانت تضغط بكل عنف على جسدها كي لا تقول شيئاً أثناء الطعام. بل لم تدخل في حضوره لقمة واحدة إلى فمها خشية أن تندلق منه كلمة. كبر جوعها مع مخاوفها. تأكل في المطبخ حتى تشبع قبل أن تجلس معه إلى المائدة. ترتعش من كل حركة من حركات وجهه، هل يعلم أحدٌ ما إن كانت إحدى الحركات قد تنقلب فجأة إلى "كاتب العدل". أحياناً كان ينطق بجملة واحدة، وعباراته نادرة. كانت تخاف كلَّ عبارة خوفَها من حكم إعدام. لو أنه تكلم أكثر لتناثر خوفها الأعظم إلى آلاف المخاوف الصغيرة. لحسن الحظّ أنه مُقلّ في الكلام. إلا أن الخوف ظلّ كبيراً وجسيماً. حين يبدأ بـ"اليوم"، تقول لنفسها: "اليوم ما يوجد كاتب العدل" وتكرّر العبارة بتسارع جديد لم تعرفه قبلاً. ينضح جسمها بالعرق، ووجهها كذلك، تلاحظ هذا وتتمنّى ألا تفضحها سيماها، تهرع إلى الخارج وتأتي بصحن. تقرأ من محيّاه رغبات ليس فيه منها شيء. كان له أن ينال منها ما يشاء شرط ألا يتكلم. فخدماتها الدؤوب تأتمر بالأصفار واستمرأ هذا. كانت تحدس بمصيبة مرعبة. تبذل جهوداً استثنائية في الطبخ ومناها أن يعجبه الطعام، تفكر وتبكي. ربما تريد أن تسمّنه، أن تدرج فيه القوة على كتابة الأصفار، ربما تريد البرهان على مدى استحقاقها للأصفار.

بلغت توبتها مبلغاً عميقاً. في الليلة الرابعة عنّ لها ما هو الشاب المثير: إنه إثم. لم تعد تناجيه وحين يعترض طريقها تنظر إليه شزراً وتقول: "كل شي بوقته حلو" وتلكزه بقدمها كي يفهم. لقد ركدت التجارة. لتنجح التجارة لا بد من الصبر عليها. ظل لديها مفرٌّ واحد، المطبخ، حيث تعود بسيطة وقنوعة، كما كانت في عهدها القديم. تكاد تنسى أنها ربّة البيت لأنه لا يحيط بها أثاثٌ غالٍ. لكن هنا أيضاً قطعة تزعجها، دفتر العناوين،

t.me/yasmeenbook

الطريح ميتاً. مزقت منه كل أسماء كتاب العدل احتياطاً ورمتهم بالجاروف خارج البيت.

لم ينتبه كين إلى ما يجري حوله. كان مكتفياً بأنها تلتزم الصمت. قال ذات مرة وهو يجول بين الصين واليابان إن هذا النجاح نتيجة لسياسته الذكية. فقد قطع عليها أي مبرّر للكلام. اقتلع الشوكة من حبها. وأنجز في أيامه تلك كثيراً من عمليات التحرير. تمكّن في بحر ثلاث ساعات فقط من استرداد جمال عبارة مشوّهة بشكل فظيع. أمطرت ريشته الحروف الصحيحة مدراراً. أرسل المخطوطة القديمة في اليوم الثالث. وبدأ باثنتين جديدتين. نزلت عليه مواعظ أقدم، أما مواعظها هي فقد نسيها. عاد رويداً رويداً إلى زمن ما قبل الزواج. أحياناً تذكّره تنورتها بوجودها لأنها فقدت الكثير من صلابتها ووقارها. صارت تتحرك أسرع ولم تعد مكويّة كما كانت قبلاً. ثبت لديه هذا ولم يتفكّر طويلاً بعلّته. لماذا لا يترك باب غرفة نومها مفتوحاً؟ فهي لا تسيء لتعاونه قطّ وتحذر من إزعاجه. يريحها حضوره على المائدة. تخشى أن ينفّذ تهديده بإلغاء وجبات الطعام المشتركة وتتصرّف بحياء شديد، مقارنة بالحريم. يفضّل أن تخفّف من إقبالها على خدمته. ستكفّ عن هذه العادة أيضاً، ما نفع الصحون الكثيرة. فهي تقتلع الأفكار العظيمة عن الذهن.

في اليوم الرابع غادر البيت في السابعة للقيام بجولته المعهودة، فانزلقت تيريزه إلى طاولة المكتب، مستعيدة حذرها السابق. لم تعد تجرؤ على مواجهته. دارت حوله عدّة مرّات، ثم بدأت بترتيب الغرفة دون أن تبلغ غايتها. أحسّت أن الوقت لم يحن بعد وأجّلت الخيبة أطول فترة ممكنة. تذكّرت فجأةً أنهم يكشفون المجرمين من بصماتهم. جلبت قفازاتها الحلوة من الحقيبة، القفازات التي أمّنت لها زوجاً، ارتدتها وأخرجت الوصية وجِلةً، كي لا توسخ القفازات، ولم ترَ الأصفار. ثم أملت أن تكون موجودة لكنها لا تُرى لصغرها. شعرت بالاطمئنان بعد اختبار أكثر دقّة. وقبل أن يعود كين بوقت طويل

t.me/yasmeenbook

كانت الاثنتان، هي والغرفة، تبدوان في حال كأن شيئاً لم يحدث لهما. اختفت في المطبخ وواصلت الغمّ العام الذي خرقته في الساعة السابعة.

في اليوم الخامس جرت الماجريات ذاتها. انشغلت مدة أطول بالوصية ولم تُراعِ لا الوقت ولا القفازات.

في اليوم السادس، يوم الأحد، نهضت بتثاقل، انتظرت جولة زوجها، واستطلعت الرقم الشرير مثل كل الأيام. لم يتلبّسها الرقم 12650 بكلّيته، بل صار كلّ عدد من أعداده وسواساً. جلبت شريطاً من الجريدة، نسخت عليه المبلغ كما هو في الوصية. الأعداد تشبه أعداد كين بالضبط، لن يميّز بينها أيٌّ خبير في الخطوط. استغلت الشريط الورقي طولياً لكي يكون لديها متسع لرسم ما يمكن من الأصفار، ثم خطّت عديداً منها في الأسفل. انبهرت بالنتيجة العظيمة. مسحت بيدها الخشنة على الشريط عدّة مرّات وقالت: "رجاءً، ما أجمله!".

ثم تناولت ريشة كين، أحنت قامتها على الوصية وحولت الرقم 12650 إلى 1265000. رأت جبلتها مع الريشة حسنة مثل عملها بالقلم الرصاص. لم تستطع الاستقامة حين أنهت عملها على الصفر الثاني. تمسّكت الريشة بالورقة وخلقت صفراً جديداً. لكن نظراً لضيق المكان جاء الأخير أصغر. وعرفت تيريزه المخاطر التي تتهدّدها. كلّ جرّة ريشة أخرى ستكون خروجاً على نظام حجم الحروف والأعداد وتلفت الأنظار إلى هذه البقعة. كادت أن تدمّر خليقتها. كان الشريط ذو الأصفار الكثيرة بجوار الوصية. ووقع نظرها، الذي نأى عن الوصية كسباً للوقت، على الشريط دون إرادتها. اشتدّت الرغبة في أن تكون أغنى بكثير من كلّ محلات الأثاث في العالم. لو أنها تبصّرت في البدء لكتبت أول صفرين بحجم أصغر ووفرت بذلك فضاءً لصفرٍ ثالث. يا للغباء! لكان كل شيء في أحسن تقويم.

t.me/yasmeenbook

قانطةً صارعت الريشة التي تودّ متابعة الكتابة. تجاوز الإرهاق طاقاتها. بدأت تلهث لشدّة الطمع والغضب والتعب. انتقلت رعشات تنفّسها إلى ذراعها، بدأت الريشة تلوح إلى أنها سترش الحبر على الورقة. مذعورة من الحبر رفعت تيريزه الريشة بسرعة. رأت أنها رفعت جذعها وغدا تنفسها أكثر انتظاماً. "القناعة كنز"، تنهّدت وتعلّقت حوالي ثلاث دقائق بذكرى الملايين التي خسرتها خلال عملها. ثم نظرت لترى ما إن كان الحبر قد جفّ، أخفت الشريط الجميل، ثنت الوصية وأعادتها إلى مكمنها. لم تشعر بالرضا، فرغباتها أسمى. وانقلب مزاجها لأنها حصلت على جزء طفيف من المحتمل. فجأةً بدت لنفسها محتالة وقرّرت الذهاب إلى الكنيسة. فقد كان اليوم يوم أحد. وضعت وريقة على باب الشقة: "أنا في الكنيسة"، كأن هذا المكان مقامها الآمن والطبيعي منذ سنوات.

بحثت عن أكبر كنائس المدينة، الكاتدرائية، لأن كنيسة صغيرة ستذكّرها بأنها تستحقّ ما هو أكبر. تذكّرت على الدرج أنها لم ترتدِ ثيابها. ورغم شعورها العميق بالكدر عادت وبدلت التنورة الزرقاء بالتنورة الزرقاء الثانية، التي تبدو تماماً مثل الأولى. نسيت على الشارع أن تلاحظ أن جميع الرجال يلتفتون إليها. خجلت في الكاتدرائية. الناس يضحكون عليها. وهل يجوز أن يضحك الناس في الكنيسة؟ لكنها لن تبالي بهذا لأنها سيدة محترمة. أصرّت في نفسها على النطق بكلمة محترمة، كرّرتها ولجأت من ثم إلى زاوية هادئة في الكاتدرائية.

عُلِّقَت هناك صورة عن العشاء الأخير ملوّنة بألوان غالية الثمن في إطار ذهبي. لم يعجبها غطاء المائدة. الناس لا يعرفون الجمال، ثم إنه وسخ. يكاد الناظر يتناول الكيس بيده، فيه ثلاثون قطعة فضة، لا يراها المراقب، لكن كأن في الكيس حياة. يمسكه يهوذا بقوّة ولن يفلته، ذلك البخيل. لا يحب الخير لأحد. مثل زوجها. ولهذا نصب على المخلّص.

t.me/yasmeenbook

زوجها نحيف ويهوذا سمين وبذقن حمراء. ووسط الجميع يجلس الشاب المثير. يا لوجهه الجميل، الشاحب! وكذلك عيناه، كما يجب أن تكونا بالضبط. وهو يعرف كل ما يجري حوله. إنه مثير وفطين فوق هذا. ينظر بدقّة إلى الكيس. رجاء، يريد أن يعرف، كم. غيره كان سيعد الشيلينغات أما هو فليس بحاجة إلى العدّ، يعرف المبلغ من منظره. زوجها واحد وسخ. يزرق لأجل عشرين شيلينغاً فقط. لا أحد يستطيع أن يغشّها. قبل كان فيه العدد سبعة. وهو عمل منه خمسة بأقصى سرعة. قيمتها الآن ألفين. الشاب المثير سيسبّ ويلعن. وهل هذا بيدها؟ إنها الحمامة البيضاء. تطير فوق رأسه. تلمع لأنها بريئة. أراد الرسام أن يشير إلى هذا ولا بد أنه يعرف، فهذه صنعته. هي الحمامة البيضاء. ليجرّب يهوذا حظّه. لن يستطيع الإمساك بها. فهي تطير حيث تشاء. تطير إلى الشاب المثير. هي تعرف ما هو الجميل. والقرار ليس بيد يهوذا. فليشنق نفسه. حتى كيسه لن ينفعه. يجب أن يتركه في مكانه. النقود نقودها. هي الحمامة البيضاء. يهوذا لا يريد أن يفهم هذا. هو لا يفكر إلا بكيسه. ولهذا يعطي المخلّص قبلة وينصب عليه. الآن سيأتي الجنود. سيلقون القبض عليه. ما عليهم إلا أن يحاولوا. ستتقدم وتقول لهم: "هذا ليس المخلّص. هذا السيد غروب، موظف بسيط لدى شركة غروس وأمه. ما يحقّ لكم أن تؤذوه. أنا الزوجة. يهوذا يريد دائماً أن يغشّ. الذنب ليس ذنبه!". عليها أن تنتبه لئلّا يؤذوه. وليشنق يهوذا نفسه. إنها الحمامة البيضاء.

كانت تيريزه جاثية تصلّي أمام الصورة. تصورت نفسها مراراً أنها الحمامة البيضاء. تقول هذا من أعماق قلبها وتظل عيناها على الحمامة. ترفرف إلى حضن الشاب المثير، يداعبها، يمسّد عليها برقة لأنها تخلّصه دائماً. هكذا يعامل الناس الحمامات.

حين نهضت شعرت لدهشتها بركبتيها. شكّت للحظة في أنهما

t.me/yasmeenbook

حقيقيتان ومدّت يدها إليهما. وراحت تضحك هي على الناس عندما غادرت الكنيسة. ضحكت على طريقتها؛ دون أن تضحك. بدا لها الناس جادّون وخجلون. وما هذه الوجوه: كلّهم مجرمون. الكل يعرف ماذا يجري في الكنائس. تمكّنت من التهرّب من كيس التبرعات. تصول حمامات كثيرات في صحن الكنيسة، لكنهن لسن بيضاوات. أسفت تيريزه لأنها ليس معها ما تطعمها به. ففي البيت خبزٌ كثير قاسٍ ومتعفّن. خلف الكنيسة تحطّ حمامة بيضاء حقيقية على إصبع حجرية. نظرت إليها تيريزه، لقد كان المسيح الذي يعاني من ألم الأسنان. فكرت: لحسن الحظ أن الشاب المثير لا يبدو هكذا. لازم هذا يخجل على حاله.

سمعت في طريق العودة إلى البيت موسيقا. جوقة عسكرية تعزف أعذب المارشات. هذه مسلّية وهي تحبها. فتعود القهقرى وتنزلق مع الإيقاع. السيد قائد الجوقة لا يكفّ عن التحديق فيها. وكذلك الجنود. لا غرابة. تبادلهم النظرات وذلك لأنها تودّ أن تشكرهم على الموسيقا. تجتمع نساء أخريات. هي أجملهن. السيد قائد الجوقة يقوم بحركات استعراضية. هذا رجل حقيقي، ويا له كم يفهم في العزف! العازفون يطيعون عصاه. لا أحد منهم يتحرك دون إشارة من عصاه. أحياناً يتوقف عن اللعب، فترفع رأسها عالياً، فيضحك السيد قائد الجوقة، ثم يبدأ من جديد. لو لم يكن كل هؤلاء الأطفال موجودين. وفوق هذا يحجبون المنظر. على المرء أن يسمع هذه الموسيقا يومياً. الأبواق أفضل الآلات. ومنذ أن وصلت يجد الجميع صوت الأبواق جميلاً. فجأةً يتزاحم الناس. الأمر لا يزعجها. الجميع يفسح لها المجال. لا أحد ينسى أن ينظر إليها. تدندن بصوت خفيض على الإيقاع: مثل الثلاثين، مثل الثلاثين، مثل الثلاثين.

t.me/yasmeenbook

وراثة الملايين

شاهد كين الوريقة على الباب. قرأها لأنه يقرأ كل ما تقع عليه عيناه، ونسيها حالما جلس إلى طاولة المكتب. فجأة قال أحدهم: "جئت". تيريزه تقف خلفه وتصبّ عليه الكلمات.

"نعم، الميراث الكبير. بعد ثلاث بنايات يوجد كاتب بالعدل. ما يجوز الواحد يترك الورثة مرميّة كذا؟ الوصية تتوسخ. اليوم أحد. غداً الاثنين. لازم الواحد يدفع شيء لكاتب العدل وإلا يعمل كل شيء غلط. ما ضروري يكون كثير. خسارة المصاري الغالية. الخبز القاسي يعفّن بالبيت. الحمامات ما صنعة. طبعاً، ما عندها شيء تأكله. الجيش يعزف أحلى المارشات. الاستعراض وملاحظة كل شيء بنفس الوقت! يلزمها رجل حقيقي. وحزرك على من ركز السيد قائد الفرقة نظره أكثر شيء؟ ما أحكي لأيّ كان. هؤلاء الناس ما يعرفو مزح. 1265000. تطلع عيون السيد غروب من رأسه. هو عيونه أصلاً حلوين. كلّ النسوان تحبّه. وأنا، أنا ما امرأة؟ أيّاً كان تقول عن حالها حلوة. لكن أنا أول واحدة عندها رأسمال ..."

دخلت واثقة بالنصر، ما زالت مستثارة بالموسيقا العسكرية والسيد قائد الجوقة. كان كلّ شيء جميلاً اليوم. يجب أن تكون كل الأيام هكذا. تريد أن تنطلق بالحديث. استعاذت بالرقم 1256000 ودقّت على خشب المكتبة في جيب تنورتها. من يعلم كم قيمتها؟ ربما ضعف المبلغ. صلصلت رزمة المفاتيح. انتفخت أوداجها اليوم أكثر خلال الحديث.

t.me/yasmeenbook

تحدثت دون انقطاع لأنها استراحت أسبوعاً كاملاً. وباحت في سكرتها بكل أسرارها. لم يعد لديها شك بأنها بلغت ما تريد بلوغه، إنساناً يلمس ملمس اليد. ظلت ساعة كاملة تهيل بالكلم على رأس الرجل أمامها. ونسيت من هو. نسيت الخوف الخرافي الذي رأته يتدلى من كل حركة من حركات جسمه خلال الأيام الزائلة. غدا إنساناً يمكن للمرء أن يفضفض له وهي بحاجة إلى إنسان كهذا الآن. أفشت بكل الصغائر التي رأتها أو مرّت برأسها يومئذٍ.

شعر بنفسه مباغتاً بالهجوم. لا بدّ أن أمراً خارقاً قد حدث. لقد تصرفت خلال الأسبوع بصورة مثالية. ولا بد إذاً من سبب استثنائي كي تزعجه بهذه الصورة الجلفة. كلامها مضطرب، متهوّر وبهيج. جاهد لأن يفهم وأخيراً بدأ يفهم:

هناك إنسان مثير ترك لها مليوناً. واضح أنه أحد أقربائها ويبدو أنه رغم ثرائه الطائل قائد جوقة عسكرية، ولهذا يبدو مثيراً. إنسان يثمّنها عالياً وإلا لما أوصى لها بتركته. ستؤسس بالمليون محل أثاث. اليوم علمت بالخبر المفرح ولهذا ذهبت إلى الكنيسة، وهناك رأت في لوحة ما المرحوم على هيئة المخلّص (الامتنان سبباً لفوضى الحواس). في الكاتدرائية نذرت أن تطعم الحمام بشكل منتظم. تمانع أن يأخذ المرء الخبز القديم المتعفّن من البيت. الحمام أيضاً كائن شبيه بالإنسان (حتى ولو!). تريد الذهاب به وبالوصية غداً إلى الكاتب بالعدل ليدقّق في الوصية. تخاف أن يطلب كاتب العدل أجراً عالياً لأن الميراث كبير، ولهذا تطلب أن يتم الاتفاق معه سلفاً على تعويضاته. مدبرة منزل ومدخرة لدرجة المليون!

لكن هل الميراث كبير إلى هذا الحد؟ كم كان؟ 1265000؟ لنقارن المبلغ بقيمة المكتبة. لم تكلّفه كل المكتبة أكثر من 600000 كورون ذهبي.

t.me/yasmeenbook

ورث عن والده 600000 كورون ذهبي، وما زال معه بقية منها حتى اليوم. ماذا ستفعل بميراثها؟ محل أثاث؟ غباء. يمكن توسيع المكتبة بهذا المال. سيستأجر الشقة المجاورة ويهدم الجدران. بهذا يكسب أربع غرف إضافية للمكتبة. سيأمر بإغلاق النوافذ الجانبية ويفتح كوى جديدة في السقف، كما في شقته هذه. ثماني غرف تستوعب 600000 مجلّد. قبل مدة وجيزة عُرضت مكتبة زيلتسينغر للبيع. أغلب الظن أنها لم تعرض في المزاد بعد. تضمّ 22000 مجلد. طبعاً لا يمكن مقارنتها بمكتبته، لكن فيها بعض النوادر. سيقتطع مليوناً للمكتبة ولتسرح وتمرح بالباقي كما تشاء. ربما يكفي الباقي لتأسيس محل أثاث، لا يفهم بهذه الأمور، ولا يريد أن يتدخل في التجارة. عليه أن يستعلم ما إذا كانت مكتبة زيلتسينغر قد عرضت في المزاد أم لا. بضياعها سيخسر صيداً ثميناً. إنه يدفن نفسه كثيراً في العمل، ويصير بهذا يتيم المادة الضرورية للعمل العلمي. لا بدّ للعالم من عين بصيرة في سوق الكتاب كما هي بصيرة مضارب البورصة نحو الأسهم.

توسيع المكتبة من أربع غرف إلى ثماني يدعو للمباهاة! عليه أن يطوّر نفسه. كيف يستطيع المرء أن يلزم الهدوء وهو ما زال في الأربعين من العمر؟ مرّ على أكبر صفقة سنتان. هكذا يتعفّن المرء. توجد مكتبات أخرى أيضاً وليس المكتبة الذاتية فقط. الفقر مقرف. إنها تحبني لحسن الحظ. تسمّيني سيد غروب لأني جلف معها. تجد عينيّ جميلتين. تعتقد أني أعجب جميع النساء. حقّاً، أنا جلف معها. لولا أنها تحبني لاحتفظت بالميراث لنفسها. يوجد رجال يعتاشون على النساء. قرف. أفضّل أن أنتحر قبل هذا. لكن يسمح لها أن تقوم بفعل شيء لأجل المكتبة، كي ترتاح. وهل نقدم الطعام للكتب؟ أظن لا. إيجار الشقة عليّ أنا. المعيشة تعني حرية الأكل والسكن المجاني. أنا سأدفع إيجار الشقة المجاورة. هي حمقاء وغير متعلمة، لكن لها قريب ميت. قسوة؟ لماذا؟ فأنا لا أعرفه. سأكون

t.me/yasmeenbook

منافقاً لو حزنت عليه. وفاته ليست مصيبة، لوفاته مغزى عميق. كل إنسان يملأ فراغاً حتى ولو للحظة قصيرة. مكان هذا الإنسان هو موته. وها هو ذا توفي. لن يبعثه الحداد. مصادفة عجيبة. إلى بيتي تحديداً تدخل هذه الوريثة الغنية بصفة مدبرة منزل. أدّت واجبها ثماني سنوات بصمت مطبق، وفجأةً ترث الملايين وأنا أتزوجها. ما إن علمت بقوة حبها لي حتى مات قائد الجوقة الثري. قدرٌ سعيد حلّ من حيث لا أدري دون استحقاق. كان المرض منعطف حياتي، الوداع للوضع القائم والمكتبة الضيقة الضاغطة، التي كنت أنحجر فيها حتى اليوم.

أليس هناك فرق شاسع بين أن يولد الإنسان على الأرض أو على القمر؟ وإن كان القمر بنصف حجم الأرض - الأمر لا يتوقف على مجموع المادة فقط، التفاصيل أيضا تختلف باختلاف الحجم. ثلاثون ألف كتاب جديد! كل كتاب فرصة لأفكار جديدة وعمل جديد. أيْ انقلاب على الوضع القائم.

في هذه اللحظة تخلّى كين عن الشكل المتحفظ لنظرية التطور الذي كان متعلقاً به حتى الآن، وانضمّ بأوراق خفّاقة إلى جبهة الثوريين. التغيرات الفجائية شرط التقدم. فجأة اتضحت كل الدلائل اللازمة لهذا أمام عينيه. البراهين التي كانت مخفية، كما في كل النظم التطورية، متسترة بورقة التوت، طفرت فوراً في وعيه. المثقف يعثر على كل شيء حين يحتاجه. روح الإنسان المثقف ترسانة مزودة بكل ما هو عظيم. لا يلاحظ المرء سوى القليل منها لأن أصحاب الشأن، طبقاً لثقافتهم، يندر أن يتشجعوا على استخدامها.

أعادته كلمة أطلقتها تيريزه بكل شهوة وشغف إلى أرض الواقع. "الجهاز". سمع الكلمة وتلقفها محوراً رئيسياً. تدفّق عليه كل ما يحتاجه لهذه اللحظة التاريخية دون استنفار. انبعث إرث الرأسمالية، التي مارستها عائلته وأحبّتها لعدّة قرون، من سباته، بقوة جبارة كأنه لم يكن المنهزم

t.me/yasmeenbook

خلال صراع دام خمساً وعشرين سنة. جاءه حب تيريزه، وتد الفردوس القادم، ببائنة. ومن حقّه ألا يزدريها. لقد اتخذها زوجاً كفتاة فقيرة دون أدنى علم بوجود قريب ثريّ يقف على حافة القبر، وبرهن بذلك على احترامه لعقيدته. ستسرّ أيمّا سرور أن تجول بين الحين والآخر بين القاعات الثماني للمكتبة الجديدة. وسيعوّضها إحساسها، بأن قريبها ساهم في إنشاء صرح المؤسسة العظيمة، عن خسارة محل الأثاث.

لشدّة فرحه بالسهولة التي نجحت بها ثورته، فرك كين أصابعه الطويلة بعضها بالبعض الآخر. لم يرتفع أيّ جدار نظري. أما الجدار العملي لشقّة الجيران فسيدكّ دكّاً. عليه البدء بالمفاوضات مع الجيران من فوره. إعلام البنّاء بوتس. عليه أن يبدأ العمل غداً. يجب تدقيق الوصية اليوم. لا بد أنه يمكن التواصل مع كاتب العدل اليوم أيضاً. انتباه! لا تنسَ مزاد زيلتسينغر! على البوّاب أن يتكفّل ببعض المشاوير فوراً.

تقدّم كين خطوة وأمر: "اجلبي البواب!".

كانت تيريزه قد عادت في تقريرها إلى الخبز العفن والحمامات الجائعة. أبرزت هذا التناقض الذي يستفزّ كفاءاتها الاقتصادية من جديد، وأضافت تشديداً على سخطها: "هذا ما كان ناقصنا!".

لكن كين لم يصبر على الاعتراض: "اجلبي البواب، فوراً!".

لاحظت تيريزه أنه قال شيئاً ما. لماذا يصرّ على مقاطعتها دوماً. عليه أن يتركها تكمل الكلام. وكرّرت "هذا ما كان ناقصنا!".

"ما الذي يعوزك؟ اجلبي البواب!"

وهي ساخطة على هذا بجميع الأحوال بسبب الإكرامية: "ما دخله هو؟ لن يأخذ شيء".

t.me/yasmeenbook

"أنا أقرّر هذا. أنا الرجل في هذا البيت!" لم يقل هذا لأنه يعتبره ضرورياً، إنما لاعتقاده أنه مفيد ليفرض عليها إرادته القطعية.

"رجاء، رأس المال، مالي أنا"

كان قد توقع هذا الجواب في سرّه. فقد كانت وما زالت إنساناً عديم التربية، عديم الثقافة. وتنازل قدر ما تسمح له كرامته لأجل خطته:

"لا أحد ينكر هذا. نحن بحاجته. عليه أن يقوم فوراً ببعض الجولات".

"خسارة المصاري الغالية فيه".

"لا داعي للقلق. المليون مؤمن". اشتاط شكّ تيريزه. يريد أن ينقص حصتها مرة أخرى. سبق أن دفعت ألفي شيلينغ. فردّت متوقفة على كل عدد بنظرات بادية المعنى: "والـ 265000؟"

الآن يجب مفاجأتها بالهجوم وبصورة نهائية: "المئتان وخمسة وستون ألفاً ملكك وحدك". طفح بعض الشحم على سيماه العجاف، لقد وهبها مبالغ سماناً وتقبّل الشكر سلفاً وبسرور.

بدأت تيريزه بالتعرّق: "كل شيء لي".

لماذا تصرّ على هذا دائماً؟ ألبس فراغ صدره بلبوس جملة رسمية: "لقد بيّنت سلفاً أن لا أحد سيمدّ يده إلى حصّتك. لست بصددها الآن".

"رجاء، أنا أعرف هذا وحدي. بالأبيض والأسود".

"علينا أن نرتّب شؤون الميراث معاً".

"ما دخل الرجل بهذا؟"

"أمدّ لك يد المساعدة بجميع صيغها".

t.me/yasmeenbook

"أيّاً كان يقدر يشحد. بالأول ينقص الحصة وبعدها يبدأ بالشحاذة. هذا ما يجوز".

"أخشى أن يغبنك أحدهم حقّك".

"هل يعمل أحد هكذا؟"

"حين يظهر ميراث بالملايين، يظهر فجأة أقارب مجهولون".

"الرجل وحده".

"لا زوجة؟ ولا أطفال؟"

"رجاء، ما هذه النكت السخيفة؟"

"ضربة حظ لا تعوض".

ضربة حظ؟ عادت تيريزه للشكوك. هذا الإنسان يتنازل عن نقوده حتى قبل أن يموت. فأين ضربة الحظ؟ منذ أن بدأ الكلام ولديها إحساس قاطع بأنه ينوي خداعها. وحرست كلماته مثل كلب في الجحيم بمئة رأس، وبذلت جهودها لتردّ عليه بحدّة ودون أي سوء تفاهم. ما إنْ يقول المرء شيئاً حتى يلتفّ الحبل حول رقبته. الرجل قرأ كل كتب الدنيا. وهو الخصم والحكم في الآن ذاته. طوّرت خلال مرافعتها عن نعمتها الحديثة قوى خافت منها بنفسها. وفجأةً صارت قادرة على أن تدخل في عقل إنسان آخر. شعرت أن وصيته ليست ضربة حظّ له. وتنسّمت وراء هذه الكلمات فخّاً جديداً. إنه يخفي عنها شيئاً. وما يخفي عليّ؟ ثروة. إنه يملك أكثر مما يعطيها. حكّتها كفّ يدها على الصفر الثالث. رفعت ذراعها كأنما فاجأها ألم. مناها أن تهجم على طاولة المكتب، تخرج الوصية، وتلطم الصفر في مكانه بقوة. لكنها عرفت السرّ وعليها أن تسيطر على نفسها. كل هذا لأنها قنوعة. لماذا كانت غبيّة إلى هذا الحدّ؟ القناعة

t.me/yasmeenbook

دلالة الغباء. إنها الآن أكثر ذكاء. عليها أن تجد السرّ. أين أخفى الباقي؟ ستطرح عليه السؤال بحيث لا يلاحظ شيئاً. ظهرت على وجهها الابتسامة المعلومة بالوسع والشرّ.

"وما يصير بالبقية؟". صعدت ذروة حكمتها، لم تسأله أين دفن الباقي. لأنه لن يجاوب عن هذا السؤال. تريد أن يقرّ لها بالباقي أولاً.

نظر إليها كين نظرة ودّ وامتنان. إذاً فقد كانت مقاومتها ظاهرية. وهذا ما كان يتوقعه طوال الوقت. بل وجدها ظريفة لأنها تعتبر المليون بقية باقية. يبدو أن هذا التحول من الجلافة إلى الحب ظاهرة طبيعية عند بشر من صنفها. وضع نفسه في مكانها وأدرك كيف كانت تتحرّق شوقاً لبيان إعلان الاستسلام، وكيف تردّدت طويلاً في التسليم لترفع من درجة التأثير. صحيح أنها خرقاء لكنها وفيّة. بدأ يفهمها أكثر من قبل. بدأ يفهمها أكثر. للأسف بلغت سنّاً عتيّاً وتأخّر الوقت ليصنع منها إنساناً. يجب ألّا يسمح لها بنزوات مجرّبة قبلاً. بهذا تبدأ التربية. تلاشى من وجهه ذلك الامتنان الذي كان موجّهاً لها، وذلك الحب الذي كان موجّهاً للكتب الجديدة. استعاد شدّته وتذمر كأنه هو المهان. "بالبقية أوسّع مكتبتي".

انتشت تيريزه بالرعب والانتصار. أمامها الآن فخّان بحجر واحد. مكتبته؟ مع أن المحتويات انتقلت إلى جيبها! إذاً فهناك فعلاً بقيّة. لقد قالها بنفسه. بذلك صار القرار النهائي بيد اليد التي امتدّت إلى الجيب بحركة لا إرادية.

"الكتب لي".

"ماذا؟"

"للمرأة ثلاث غرف، للرجل غرفة واحدة".

t.me/yasmeenbook

"نحن الآن بصدد ثماني غرف. ستضاف أربع جديدة، أقصد التي بالجوار. أنا بحاجة إلى مكان يستوعب مكتبة زيلتسينغر. هي وحدها تحوي 22000 مجلّد".

"ومن أين يجلب الرجل النقود؟"

رجعت لعادتها القديمة، لقد ملّ من هذه الألاعيب. "من ميراثك. لن نتحدث في هذا بعد".

"ما يوجد".

"ما الذي لا يوجد؟"

"الميراث ميراثي أنا".

"لكن أنا الموكل عليه".

"الرجل يموت بالأول وبعدها يتوكل".

"وماذا وراء القصد؟"

"أنا ما أحد يضحك عليّ".

ما هذا؟ ما هذا؟ هل عليه أن يشدّ على الأوتار المشدودة بعد؟ منحته القاعات الثماني التي يراها بعينه آخر بقايا الصبر.

"الأمر يتعلّق بمصلحتنا المشتركة".

"البقية منها".

"يجب أن تدركي أن...."

"وأين البقية؟"

"على المرأة أن تسمع كلام ...."

t.me/yasmeenbook

"الرجل يسرق البقية من المرأة".

"أطالب بالمليون لشراء مكتبة زيلتسينغر".

"أيّاً كان يقدر يطالب. أنا أريد البقية. أريد كل شيء".

"أنا الآمر هنا".

"أنا سيدة البيت".

"آخر إنذار. أطالب قطعاً بالمليون لشراء ..."

"أريد البقية، أريد البقية".

"خلال ثلاث ثوان. سأعدّ إلى الثلاثة"

"أيّاً كان يقدر يعدّ. أنا أيضاً أعدّ".

كاد الاثنان أن يجهشا بالبكاء من شدة الغضب. بشفاه متوترة يعدّ الاثنان: "واحد، اثنان، ثلاثة". خرجت الأعداد من الفمين كانفجارات صغيرة في الآن ذاته. اختلطت عليهما الأعداد بالملايين التي تضاف إلى الرأسمال الأساسي. وهذا يعني له الغرف. هي تستطيع العدّ إلى لا نهاية. هو تجاوز العدّ من الثلاثة إلى أربعة. وتوقف هنا. واجهها متشنّجاً أكثر من أيّ وقت مضى وزمجر، متذكّراً البوّاب كمدخل سماعي إلى أذنيه: "الوصيّة، فوراً!"

حاولت أصابع يمناه أن تشكل قبضة، ولطمت بأقصى قواها في الفراغ. تمهّلت تيريزه في العدّ، لقد صعقها. فوجئت حقّاً. توقعت صراعاً على الموت والحياة. فجأة قال: نعم. لولا أنها ممتلئة بالبقية لنسيت علومها. تسكن سورة غضبها حين يتوقف المرء عن خداعها. ليس كلّها محض غضب. تلتفّ حول الرجل وتتوجه إلى طاولة المكتب. هو يتنحّى جانباً. ورغم أنها محطمة إلا أنه يخشى أن تردّ عليه اللكمة، التي كانت موجّهة

t.me/yasmeenbook

إليها لا إلى الفراغ. أما هي فلم تلاحظ أيّ لكمة. مدّت يدها إلى الأوراق، خلطتها دون حياء، وسحبت من بينها واحدة.

"كيف جاءت هذه الوصية -الغريبة – بين أوراقي". يحاول أن يزمجر هذه الجملة الطويلة بوجه المرأة، ولهذا لا يتمكن من ختامها. يتنفس ثلاث مرات وقبل أن ينتهي تقول: "رجاء، أين الغرابة؟" تفتح الوصية بسرعة، تمسدها على الطاولة، تعدّ الحبر والريشة وتفسح المجال بكل تواضع لمالك البقية. وحين يتقدم، وأنفاسه لم تهدأ بعد، تقع أولى نظراته على الرقم. يبدو له معروفاً، لكن المهم أنه غير صحيح. أثناء النزاع نبّهه خوف طفيف إلى غباء هذه المرأة التي قد تقرأ الرقم خطأً. راضياً، يمرّر عينيه عليه، يتهيّأ للتدقيق.

فيتعرّف في الورقة وصيّته.

تقول تيريزه: "الأفضل أن تكتبها من جديد". تنسى المخاطر المحدقة بأصفارها، قد اقتنعت بصحّتها في أعماق قلبها، كما اقتنع هو في أعماق قلبه بحبها له. يقول: "لكن هذه وصـ..."، تبتسم له: "رجاء، وأنا ...". ينهض غاضباً. تشرح له: "الرجال بكلمتها". يفهم قبل أن يهجم على خناقها. تحثّه على الكتابة. أعلنت أنها هي ستدفع ثمن الورقة الجديدة. ينهار، كأنه سمين وثقيل، على الكرسي. تريد أن تعرف أخيراً، ما هو موقعها.

بعد لحظات قليلة فهم كلٌّ منهما الآخر للمرة الأولى بشكل صحيح.

t.me/yasmeenbook

الضرب

أنقذ التشفّي، الذي برهن به بالمستندات على قلّة ثروته، تيريزه من الموت. لو لم يتحول الحقد عليه، الذي صعّده هو متلذّذاً كشخص متحذلق، إلى مركز يحافظ على تماسكها، لتناثرت إلى عناصرها الأولية، التنورة، العرق والأذنين. أراها كم ورث هو آنذاك. أخرج كل فواتير شراء الكتب من مختلف الأدراج التي دفعها هواها للتفتيش فيها. أفادته ذاكرته عن أصغر الصغائر اليومية التي كانت وبالاً عليه في مناسبات أخرى. قيّد على ظهر الوصية الفاسدة جميع المبالغ التي عثر عليها. جمعتها تيريزه، مكسورة كما هي، في رأسها وقرّبتها لهذه الغاية. تريد أن تعرف كم بقي حقيقةً. بالحاصل تبيّن أن المكتبة كلفت أكثر من مليون بكثير. لم تكدره النتيجة المفاجئة، لكن قيمتها الباهظة لم تعوضه عن انهيار الحلم بالغرف الجديدة. كان مركز فكره هو الثأر للخديعة التي تعرّض لها. لم ينطق طوال الحساب بحرف واحد زائد ولا، ما كان إعجازاً، ناقص، واستبعد بذلك كل إبهام. وحين وصل إلى النتيجة النهائية وظهر الرقم القاتل، أردف بصوت واضح ونبرة مفككة: "الباقي صرفته على كتب مفردة وعلى معيشتي".

فذابت تيريزه وسالت تيّاراً جارفاً إلى الباب، عبر الممرّ وصبّ في المطبخ. لما آن أوان النوم قطعت نحيبها، خلعت تنّورتها المنشّاة، وضعتها بعناية على كرسي، وقفت إلى جانب الموقد، وتابعت النحيب. دعتها الحجرة المجاورة، التي قضت فيها ثماني سنوات جميلة من عمرها،

t.me/yasmeenbook

بكل راحة وهناء، إلى النوم. لكن بدا لها أن إنهاء الحداد باكراً علامة على الخلاعة، فواصلت ما كانت عليه.

بدأت بتنفيذ القرارات التي اتخذتها خلال الحداد، بعد فتوره في اليوم التالي قبل الظهر. أقفلت الغرف الثلاث، ملكيتها، فاصلة إيّاها عن باقي الشقة. لقد ولّى الزمن الجميل، هكذا هم البشر غالباً، لكنها تملك ثلاث غرف بما فيها من كتب. وقضت بألا تستخدم الأثاث قبل أن يموت كين. يجب أن يصان كل شيء.

أما هو فقد قضى بقية الأحد على طاولة المكتب. وعمل بكلّ همّة بما أنه انتهى من مهمته في التوضيح. لكنه كان يصارع في الحقيقة طمعه في الكتب الجديدة. فلقد استيقظ فيه هذا بعنف، بحيث بدا له المكتب بكل ما فيه من رفوف ومجلدات راكداً آسناً. أرغم نفسه مراراً على مدّ يده إلى المخطوطات اليابانية على الطاولة، وحين يبسطها، يلمس المخطوطات ويقبضها من ثم متقزّزاً. ما قيمتها الآن؟ إنها متهالكة في صومعته منذ خمسةٍ وعشرين عاماً. نسي الجوع ظهراً وعشاء. داهمه الليل وهو منكفئ على الطاولة. خلافاً لعادته رسم على المخطوط الذي بدأه إشارات لا معنى لها. غفا حوالي السادسة صباحاً، وحيث اعتاد الاستيقاظ حلم بمكتبة عملاقة في بناء عملاق شيّدت مكان المرصد على فوهة بركان فيزوس. مقشعرّاً من الخوف تجول فيها ينتظر ثورة البركان التي ستبدأ بعد ثماني دقائق. دام الخوف والسير دهراً وحافظت الدقائق الثماني حتى أوان الكارثة على ثباتها. عندما استيقظ كان باب الغرفة الجانبية مقفلاً. رآها لكنها لم تبدُ له أضيق من قبل. الحياة لا تتوقف على الأبواب، فلقد استوت الأشياء كلها، الغرف، الأبواب، الكتب، المخطوطات، هو ذاته، العلم، حياته.

مترنّحاً قليلاً من شدّة الجوع نهض وحاول أن يفتح الباب الآخر، المؤدي

t.me/yasmeenbook

إلى الممرّ. اكتشف أنه حبيس. تدارك رغبته في جلب ما يأكله، وخجل منها رغم ضعفه. الطعام في أسفل دركٍ من النشاط الإنساني. لقد رفع البشر الطعام إلى مرتبة العبادة مع أنه في الحقيقة مقدمة لعملية قذرة. فتذكر أنه قد حان وقت هذه العملية أيضاً. اعتبر نفسه مخوّلاً بهزّ الباب. أنهكه الجهد العضلي ومعدته الفارغة وصار أقرب إلى البكاء كما كان أمس أثناء إجراء الحسابات. إلا أن قواه اليوم لا تعينه حتى على هذا، فاكتفى بالنداء يائساً: "أنا لا أريد الأكل، أنا لا أريد الأكل!".

"رجاء، هذا هو الحكي الحلو"، قالت تيريزه التي كانت تنتظر خارجاً وتصغي إلى أولى تحركاته. يجب ألا يظن أنه قد ينال منها طعاماً. الرجل الذي لا يأتي بالنقود إلى البيت لا يحصل على طعام. كانت قد قرّرت أن تقول له، لكنها خشيت أن ينسى الطعام أيضاً! وحين تنازل بذاته عن الطعام فتحت الباب وأعلمته شخصياً برأيها بالموضوع. كما أنها لا تسمح لأحد بأن يوسخ شقتها. الممرّ أمام غرفها ملكها هي. وهذا منصوص عليه لدى المحاكم. كيف هي الفقرات المتعلقة بالممرّات؟ قرأت من ورقة تحتفظ بها مطويّة عدّة مرات في يديها، فتحتها وسوّتها: "يُسمح بالمرور حتى إشعار آخر. قراراً قابلاً للطعن".

فلقد كانت في الأسفل، وتبضّعت عند الجزّار وبائع الخضروات، حيث لا يطيقها أحد، ما يكفي شخصاً واحداً، وغطّت احتياجات عدة أيام رغم غلاء الأسعار بروايتها. وردّت على الوجوه المتسائلة بكل عنفوان: "بعد اليوم ما يطلع له أكل". استغرب الملّاك والزبائن والعاملون في المحلّين. ثم نقلت العبارة أعلاه بكامل نصّها من لوحة على الزقاق التالي، بعد أن وضعت الحقيبة المليئة بالطعام الغالي على الأرض القذرة.

كان مستغرقاً في النوم حين عادت. أقفلت باب الممرّ وربضت له.

t.me/yasmeenbook

والآن انتهت وأفرغت ما في جعبتها. وها هي ذي تتحفّظ على حقّ الطعن. يمنع عليه بعد الآن استخدام ممرّاتها إلى المطبخ والمرحاض. فليس لديه ما ضيّعه هناك. وإذا وسّخ لها ممرّها مرّة أخرى فعليه أن يمسحه بنفسه. هي ليست خادمة وستشكوه للمحاكم. يحقّ له الخروج من الشقة شرط أن يتصرف بشكل سليم. وستبيّن له كيف يتصرّف.

تسلّلت مع الحائط إلى باب الشقة دون أن تنتظر احتجاجه. حزرت تنورتها الجدار ولم يؤذَ حقّاً الجزء العائد لها من الممرّ. ثم انزلقت إلى المطبخ وجاءت بقطعة طباشير كانت تحتفظ بها منذ أيام المدرسة، ورسمت خطّاً عريضاً بين ممرّه وممرّها. "رجاء، هذا مؤقتاً"، قالت وأردفت: "الألوان الزيتية يأتي دورها بعد".

لم يفهم كين الأمر تماماً في بلبلته الجائعة. بدت له تحرّكاتها عديمة المعنى. هل ما زال على فيزوس؟ تساءل. لا. على فيزوس كان الخوف من الدقائق الثماني، لكن الحرمة لم تكن هناك، ربما لم يكن فيزوس بكل هذا السوء. هناك كانت المخاوف من شدة الانفجار وحدها. أما حاجته الذاتية فقد اشتدت عليه في الأثناء ودفعته إلى الممرّ المحرّم وكأن تيريزه لم ترسم حدوداً بالطباشير. بلغ هدفه بخطوات واسعة وتيريزه تتعقّبه. لم يكن ضغط سخطها يقل عن ضغط حاجته. وكانت ستلحقه لولا أن السبق له. سدّ الباب على نفسه، كما هي الأصول، الأمر الذي أنقذه من هجومها. رجّت الباب المغلق وصاحت على دفقات مكرّرة: "رجاء، راح أوصل هذا للمحاكم، رجاء، راح أوصل هذا للمحاكم!".

ولما لاحظت لا جدوى التهديد تراجعت إلى المطبخ. وقعت على العدالة الحقيقية أمام الموقد، حيث تأتيها أفضل الأفكار دائماً. حسناً، ستسمح له بالخروج، إنها تقدّر الموقف، فالرجل أيضاً مضطرّ للخروج. لكن

t.me/yasmeenbook

ما الذي تحصل عليه مقابل خروجه؟ هي أيضاً لا يأتيها شيء بالمجان. هي أيضاً مضطرّة لأن تكسب كل شيء بيديها. ستعطيه حق المرور شرط أن يتنازل بالمقابل عن جزء من حصته في غرفته. عليها أن تترفّق بغرفها. فأين تنام؟ لقد أحكمت سدّ الغرف الثلاث الجديدة وستسدّ الحجرة القديمة أيضاً. لا يحقّ لأحدٍ الدخول إليها. إذاً، رجاء، لم يبقَ لها إلا أن تنام في غرفته. وهل بيدها حلٌّ آخر؟ هي تضحّي بالممرّ وهو يفسح لها المجال في غرفته. ستأخذ أثاث النوم من الحجرة حيث كانت مدبرة المنزل تنام قبلاً. وبالمقابل يحقّ له دخول المرحاض قدر ما يشاء.

ونزلت من فورها إلى الشارع وجاءت بعتّال. لم تكن تريد الاختلاط بالبواب لأن الزوج يرشوه.

ما إن هدأ صوتها حتى غفا كين من شدة الإرهاق. عندما استيقظ شعر بنفسه منتعشاً وشجاعاً. دخل المطبخ وتناول عدة لقيمات دون أن يعضّه ضميره. وحين دخل مكتبه وهو غافل وجده أصغر بمقدار النصف. البارافان قائم في وسط الغرفة عرضياً. وخلفه رأى تيريزه بكامل أثاثها القديم. كانت قد انتهت من عملها ورأت أنه أيضاً حسن. لحسن الحظ كان العتّال الوقح قد ذهب. لقد طلب منها ثروة طائلة لكنها لم تعطه سوى النصف ثم طردته شرّ طردة، ما تفتخر به أشدّ الفخر. الأمر الوحيد الذي يغيظها هو البارافان لأنها تجده جنونياً. فهو من ناحية أبيض فارغ، ومن ناحية أخرى مطلي بخطافات معقوفة، وهي تفضّل أن يكون مكانها شمس المساء الدموية. أشارت إلى مظلة المصباح وقالت: "ما له لزوم، إذا عليّ تقدر ترميه". صمت كين. جرجر نفسه إلى طاولة المكتب وجلس في كرسيه مطلقاً تنهيداتٍ خفافاً.

استجمع قواه بعد دقائق عديدة. أراد أن يتحقق من بقاء الكتب على

t.me/yasmeenbook

قيد الحياة في الغرف المجاورة. كان قلقه عليها هذه المرة منبعثاً من الشعور المتجذر بالمسؤولية أكثر من الحب. لم يعد يشعر منذ الأمس بالحنوّ سوى على الكتب التي فشل في حيازتها. وقبل أن يصل إلى الباب كانت تيريزه تنتصب في مواجهته. كيف لاحظت تحركاته رغم البارافان. كيف نقلتها تنّورتها أسرع مما نقلته ساقاه؟ لم يشرع بمدّ يده لا إليها ولا إلى الباب. وقبل أن يستجمع القوى، التي تتطلبها الكلمات، بدأت باللعن:

"الأحسن للرجل ما يتجنّى على نفسه. لمجرد أني طيبة وسمحت له يستعمل الممرّ، يظن أن الغرف صارت ملكه. هي لي بحكم ورقة مكتوبة. واضح بالأبيض والأسود. ما يحقّ للرجل يمدّ يده لمسكة الباب. ولا يقدر يدخل ببساطة لأن المفاتيح معي أنا. وما أعطيها لأحد. المسكة جزء من الباب. والباب جزء من الغرفة. المسكة والغرفة ملكي أنا. وما أسمح للرجل يمدّ يده للمسكة".

صدّ كلماتها بحركة خرقاء من ذراعه وصادف أن لمس تنورتها. وهنا بدأت بالصراخ والعويل كأنها تطلب النجدة:

"وما أسمح للرجل يمدّ يده للتنورة. هل هو من اشتراها؟ أنا اشتريتها. هل هو نشّى التنورة وكواها؟ أنا نشّيتها وكويتها. هل المفاتيح داخل التنورة؟ أين بالله؟ ما يخطر على بالها هذا. ما أسلّم المفاتيح. حتى لو عضعض الرجل التنورة ما أسلم المفاتيح لأنها ما بالداخل. المرأة تعمل كل شيء لزوجها. لكن ما تشلح التنورة، ما تشلح التنورة."

مدّ كين يده إلى جبينه. "أنا في مصحّ عقلي"، قال خافت الصوت بحيث لا تسمعه. غيّرت نظرة واحدة إلى الكتب كل قناعاته. تذكّر النية التي قام عليها. لكن لم يجرؤ على تنفيذها. كيف يدخل الغرفة الجانبية؟ فوق جثتها؟ وما فائدة الجثة إذا لم تكن المفاتيح معه؟ كانت على قدر

t.me/yasmeenbook

كافٍ من الذكاء لتخفي المفاتيح. حالما يجد المفاتيح سيفتح الباب. إنه بالتأكيد لا يخاف منها. لتعطِه المفاتيح أولاً ثم سيطرحها أرضاً بكلّ بساطة.

وانسحب إلى طاولة المكتب لأن القتال لن ينفعه في هذه اللحظة. ظلت تيريزه تحرس بابها أكثر من ربع ساعة. وظلت تصرخ بلا هوادة. لم يقنعها جلوسه متظاهراً بالبراءة إلى طاولة المكتب. ولم تتوقف إلا بعد أن ضعف صوتها تدريجياً وتحصّنت بالبارافان.

لم تلُح حتى المساء. وفي هذه الأثناء كانت تصدر أصواتاً متقطعة كأنها مقتطعات من حلم. فهدأت أنفاسه أكثر، لكن لبرهة فقط. فهي تصدر خلال الفراغ الممتع أصواتاً غير مفهومة: "الغاوون حقّهم الشنق. بالأول يعدون الواحدة بالزواج وبعدها ما يكتبوا وصية. رجاء، سيد بوزا، في العجلة الندامة، أيضا حكي حلو. هل يعمل أحد هكذا شيء، بحيث ما يكون عنده مصاري كفاية للوصية؟". قال لنفسه إنها لا تتحدث وهذه ليست إلا أضغاث سمعي المستثار، أي أنها مجرد رجع كما يمكن القول. وبما أنها هدأت اطمأنّ لهذا التفسير، وتمكّن من تصفّح المخطوطات أمامه. ولمّا بدأ بقراءة الجملة الأولى، عاد الرجع ليزعجه من جديد. "هل أنا عملت جريمة؟ يهودا هو المجرم. الكتب أيضاً لها قيمتها. الدنيا ما عادت حلوة مثل قبل. السيد ابن الأخ كان دائماً مزاجه حلو. الحيزبون كانت طول عمرها مهترئة. كل شيء بوقته. المفاتيح لازم تخفى. البشر هكذا. أنا أيضاً ما أحد أعطاني المفاتيح هدية. المصاري الغالية كلها راحت. أيّاً كان يقدر يشحد. أيّاً كان يقدر يكون عنيف. أنا ما أشلح التنورة!".

هذه الجملة تحديداً، الأقرب إلى التفسير بأنها رجع في أذنيه للصراخ السالف، أقنعته بأنها تتحدث حقّاً. استرجع انطباعات، ظنّها منسية، مستعيدة شبابها ومحفوفة بنوع من السعادة. رأى نفسه في سرير المرض

t.me/yasmeenbook

يعاني ستة أسابيع من موعظتها. آنذاك كانت تكرّر ما تقول، حفظ كلماتها غيباً وبهذا كان سيّداً عليها بالمعنى الدقيق للكلمة. آنذاك كان يعرف سلفاً ما هي الجملة، ما هي الكلمة التالية. آنذاك كان البواب يزوره ويضرب المرأة حتى الموت. يا للزمن الرائع! كم مرّ عليه؟ حسب الزمن وتوصل إلى نتيجة مربكة. لقد نهض من سريره قبل أسبوع واحد فقط. بحث عن مبرر لهذه الهاوية التي تفصل الزمن الجديد القاتم عن الماضي الذهبي. ربما كان سيدها لكن تيريزه بدأت بالحديث مجدّداً. ما تقوله غير مفهوم ويستبد به. لا يمكن حفظه غيباً، ومن يدري سلفاً ما الذي قد يلي. كان مغلولاً لا يدري إلى ماذا.

مساءً حرّره الجوع من الأغلال. طبعاً توقّى سؤال تيريزه عن طعام يتناوله. تسحّب سرّاً، كما يظن، وبخفوت من الغرفة. تطلّع في المطعم حواليه ليتأكد ما إن كانت قد تعقّبته. لا، لم تكن في الباب. فلتتجرّأ! قال وأخذ مكاناً بكل بسالة في غرفة خلفية معزولة بين أزواج، من الواضح أنهم غير متزوجين. آه، فقد جئت في أواخر أيامي إلى غرفة معزولة، تنهّد واستغرب من عدم انسكاب الشامبانيا على الطاولات ومن أن الزبائن يأكلون ببرود وشراهة شرائح اللحم أو الريَش، عوض أن يسلكوا سلوكاً غير أخلاقي. كان سيشفق على الرجال لأنهم تورطوا مع النساء. إلا أنه كبح مشاعره، عطفاً على شراهتهم، وربما لأنه هو أيضاً كان يشعر بجوع شديد. أصرّ على أن يرحمه النادل من قائمة الطعام ويجلب له الوجبة التي يعتبرها الأحسن، لأنه خبير. فغيّر الخبيرُ رأيَه بالرجل الذي يرتدي الخرق وأدرك العارفَ السرّي في جسد السيد الهزيل، فجاءه بأغلى الوجبات. وما إن قُدِّمت الوجبة حتى صار قطباً لبصائر العشاق. شاهد قطبُ الرفاهية الأمرَ ولاك الغذاء بتعافٍ واضح مع أنه استطيبه. بدا له فعلا "استملك" و"لاك" أكثر التعبيرات سواسية ولهذا ملاءمة لصيرورة الهضم. ركّز على أفكاره عن هذه المادة

t.me/yasmeenbook

وشبّع بها بالطول والعرض روحه التي تتنفس ببطء. أعاد له التركيز على هذه الخصيصة شيئاً من الثقة بالنفس. شعر بكل سرور أنه ما زال فيه احتياط عظيم من صفات الشخصية القوية وقال إن تيريزه جديرة بالشفقة.

كان يفكر في طريق العودة إلى البيت في أن يشعرها بهذه الشفقة. فتح باب الشقة بحيوية ونشاط. شاهد من الممرّ أن لا نور في غرفته. شعر بالسعادة المطلقة عندما تخيّل أنها نائمة. فتح الباب باحتراس وبطء، شديد الخشية من أن تثير أصابعه العظمية ضجيجاً بقرعها على المقبض. تذكّر نيّته بالشفقة عليها في أشدّ اللحظات سوءاً. قال لنفسه، سأبقى على أمري. لن أوقظها شفقة عليها. تمكن من الحفاظ على قوة شخصيته برهة. لم يشعل النور وتسلّل على رؤوس أصابعه إلى سريره. تململ حين خلع ثيابه، لأن المرء يرتدي صدرياً تحت القفطان وقميصاً تحت الصديري. كل قطعة ثياب تثير ضجيجها الخاص. لم يكن الكرسي المعهود بجانب السرير. امتنع عن البحث عنه ورمى ثيابه على الأرض. وكان له أن يزحف تحت السرير كي يحافظ على تيريزه نائمة. فكّر في كيف يدخل السرير بأدنى حدّ من الضجيج. وبما أن الرأس أثقل عضو من أعضائه والأقدام أبعدها عن الرأس، قرّر أن تكون هذه، باعتبارها الأخف وزناً، مبتدأ الصعود. كانت إحدى الرجلين قد وصلت إلى حافة السرير، وكان من المقرّر أن تلحق بها الرجل الأخرى بقفزة متقنة. حلّق الرأس والجذع برهة في الفراغ، ثم أسرعا بحركة لا إرادية نحو المخدّة للتمسّك بشيء ما. فشعر كين بشيء طريّ غير معتاد. فكّر: "اللصّ" وسدّ عينيه بأقصى ما فيه من سرعة.

لم يجرؤ على التحرك رغم أنه مستلقٍ فوق اللص. أحسّ رغم خوفه أن اللص من سلالة الأنثى. شعر براحة عابرة لأن هذه السلالة والزمن انخسفا تحته. رفض اقتراح الدفاع عن النفس، الذي طرح عليه في وهدة قصيّة في أعماق قلب القاتل. إذا تأكد أن اللصّة نائمة فعلاً، كما بدا له في البداية،

t.me/yasmeenbook

فسيتسحّب بعد اختبار طويل سرّاً، يحمل ثيابه بيده، يترك باب الشقة مفتوحاً ، ويرتدي ثيابه قرب البواب. لن يخرجه من جحره فوراً، سينتظر طويلاً، طويلاً. لن يقرع طبول مقرّ البواب إلا بعد أن يسمع طرق خطوات تنزل من فوق. ستكون اللصّة قد قتلت تيريزه في هذه الأثناء. وستقتلها بالتأكيد لأن تيريزه ستدافع عن نفسها ولا بدّ. تيريزه لن تسمح لأحد بأن يسرقها دون أن تدافع عن نفسها. إنها قتيلة. تيريزه تتخبّط في دمها خلف البارافان. لو أن اللصّة لا تخطئ. ربما ظلت على قيد الحياة حتى وصول الشرطة وحمّلوه الذنب. للتأكد من موتها يجب طعنها طعنة أخرى. لا، هذا ليس ضرورياً. لقد استلقت اللصة في السرير من شدة التعب. واللصوص لا يتعبون بسهولة. لا بد أن عراكاً طويلاً قد نشب. شخص قوي. بطلة. ترفع لها القبعات. ما كان هو سيتمكن من هذا. كانت ستلفّ تنورتها حوله وتخنقه. يدفعه مجرد تصور هذا إلى اللهاث. والمؤكد أنها كانت تخطّط لفعلٍ شبيه ضدّه، كانت تريد قتله. كل امرأة تريد قتل زوجها. كانت تنتظر الوصيّة. ولو كتبها لكان ميتاً مكانها الآن. في الإنسان متسع للمكر، لا لا، ليس في الإنسان إنما في المرأة. يجب ألا يظلم المرء الكل. ما زال يكرهها حتى الآن. سيطلقها. سيتم هذا مع أنها ميتة. لن تدفن وهي تحمل اسمه. ولا بأي حال من الأحوال. يجب ألا يعلم أحد أنها كانت زوجته. سيَرشو البواب، مهما طلب. قد يفسد هذا الزواج صيته. العالم الحقّ لا يسمح لنفسه بهذه الكبوة. من المؤكد أنها خانته. كل امرأة تخون زوجها. اذكروا حسنات موتاكم. لو أنهم موتى، لو أنهم موتى. يجب أن يتأكد. ربما تتظاهر بالموت. قد يحدث هذا مع أقوى القتلة. هناك أمثلة كثيرة في التاريخ. التاريخ وضيع. التاريخ يبثّ الرعب في النفوس. إذا ظلت حية فسينهال عليها بالضرب حتى الموت. هذا حقه الطبيعي. لقد منعته من الاستمتاع بالمكتبة الجديدة. كان سينتقم منها. ثم يأتي أحدهم ويقتلها. كان هو الجدير بأن يرميها بأول حجر. لكنهم سرقوه منه.

t.me/yasmeenbook

سيرميها بآخر حجر. عليه أن يرميها، سواء كانت ميتة أم لا. سيبصق عليها. سيطأ عليها، سيصرعها.

نهض كين وهو يتأجّج غضباً. ووقعت في اللحظة ذاتها صفعة قوية على وجهه. كاد أن ينادي القاتلة: "هسّ!"، خوفاً من الجثة التي، ربما، لم تمت بعد. بدأت المجرمة بالصخب. لها صوت تيريزه. بعد ثلاث كلمات أدرك أن القاتلة والقتيلة جسد واحد. أدرك ذنبه صامتاً واستسلم للعقاب.

كانت تيريزه، حالما خرج من البيت، قد بدّلت مواقع الأسرة، أبعدت البارافان وقلبت باقي الأثاث رأساً على عقب. وكرّرت أثناء أداء عملها بهمة ونشاط القول الشائع ذاته. السمّ الهاري، السم الهاري. وبما أنه لم يعد حتى الساعة التاسعة إلى البيت، فقد استلقت في سريرها كما يفعل كل إنسان محترم، وانتظرت اللحظة التي سيشعل فيها النور، لتفرغ احتياطيّها من السباب التي تراكمت خلال غيابه. أما إذا لم يشعل الضوء ودخل سريرها، فستنتظر المسبّات إلى أن ينتهي. ولأنها سيدة محترمة فقد مالت إلى الفرضية الأولى. وعندما تسحّب على رؤوس أصابعه وخلع ثيابه بجانبها توقف فمها وقلبها. وكي لا تنسى السباب صمّمت أن تفكر فيها طوال فترة النعيم في "هل هذا أيضا رجل؟ هكذا واحد ما رجل". وعندما باغتها لم تصدر نأمة خشية أن يهرب من جديد. ربض هنيهات فوقها، بالنسبة لها كانت أياماً. لم يتحرّك وكان خفيفاً كالريشة. تنفّست بصعوبة. تحوّلت آمالها نفَساً نفَساً إلى مرارة. عندما قفز، شعرت أنه نفذ منها. ضربته مثل المجنونة وانهالت عليه بأقذع الألفاظ.

الضرب بلسم يداوي الفطرة القاتلة، التي تكاد أن تتوه في مدار الجريمة. وما دام الضرب ليس مؤلماً جدّاً، يضرب كين نفسه بيد تيريزه وينتظر الصفعة التي استحقّ. فمن هو إذا فكرنا بدقة؟ منتهك حرمة الموتى.

t.me/yasmeenbook

دهش برقّة سبابها، فقد توقع الأسوأ وتحديداً مسبّة بعينها يستحقها. هل تراعيه أم توفرها للحظة الأخيرة؟ لم يكن له ما يعارض به العموميات. وحالما تنزل عليه عبارة منتهك حرمة الموتى سيومئ مُقرّاً ويكفّر عن ذنبه بالاعتراف، ففضل هذا عند رجل من طرازه أكبر بكثير من عدّة صفعات.

إلا أن الصفعات لم تنته فوجدها فائضة عن الحاجة. آلمته عظامه ورغم هذا لم تجد الوقت لعبارة منتهك حرمة الموتى، لأنها شغلته بالخطابات المبتذلة والقذرة. كانت قد انتصبت وراحت تعمل عليه بالقبضات مرّةً والمرافق مرّة. كانت شخصاً قوياً، لم تشعر بتعب خفيف في الذراع إلا بعد دقائق كثيرة، فقطعت صراخها المؤلف من الأسماء بالجملة المفيدة: "هذا ما كان ناقصنا!"، قذفته عن السرير ممسكةً بشعره كي لا ينفذ منها، وظلت تطأ عليه بقدميها وهي جالسة على حافة السرير، حتى استراحت ذراعاها. ثم جلست كمن يمتطي حصاناً على بطنه وجعلت تصفعه يميناً ويساراً بالتناوب. غاب كين عن الوعي تدريجياً. وقبل أن يغمى عليه نسي الغفران الذي يدين به لها. أسف لأنه طويل جداً. دمدم: نحيف وقصير، نحيف وقصير. بهذا تكون مساحة الضرب صغيرة. تقلّص، فجاءت ضرباتها في الفراغ. أما زالت تسبّ؟ تضرب على الأرض، تضرب على السرير، يسمع صوت الضربات القاسية. لم تعد تجده، لقد صغر ولهذا تشتم. صرخت: "يا حقيرا!". لحسن الحظ أنه حقير. لقد صغر بشكل ملحوظ بسرعة شديدة. وبدأ يبحث عن نفسه. لن تجده أبداً، لأنه صغير جدّاً، اختفى حتى عن عيني ذاته.

استمرّت بالضرب المبرح والهادف. ثم قالت وهي تلتقط الهواء: "رجاء، الواحدة منا لازم ترتاح"، قامت على جسمه وقامت رجلاها بالواجب، فأدّتا عملهما بضمير أقل. تباطأتا بالعمل حتى توقفتا عنه. حالما لم يعد أيّ عضو من أعضاء جسمها يتحرك، توقف سيل سبابها. سكتت. لم

t.me/yasmeenbook

يتحرك. شعرت بنفسها محطّمة. تنسّمت وراء هدوئه غدراً استثنائياً. ولكي تحتمي من اعتداءاته بدأت تهدّده. "سأوصلها للمحاكم. ما أسكت عليك. الرجل ما يغدر. أنا سيدة محترمة. أنا امرأة. الرجل يأخذ فيها عشر سنين. وهذا اسمه بالجريدة هتك أعراض. عندي أدلّة. أنا أقرأ أخبار الجرائم. ما تتحرك، إيه! أيّاً كان يقدر يكذب. رجاء، ما يعمل هو هنا؟ كلمة ثانية وأجلب البواب. واجبه يحميني. المرأة تعيش لحالها. أيّاً كان يقدر يمارس بالعنف. أريد أتطلّق. الشقة حقّي. المجرم ما يطلع له شي. رجاء، لا داعي للتشنّج. أنا ماذا أريد؟ كل شيء فيّ ما زال يوجعني. الرجل لازم يخجل على حاله. وفوق كل شيء يرعب المرأة. كان ممكن أموت. وهو يتورط بالمتاعب. ما لابس قميص نوم. هذا ما شغلي. ينام من غير قميص نوم. الآن نشوف. ما إن أفتح فمي ويصدّقني الكل. أنا ما أنحبس. معي سيد بوزا. يكون رجل ويتجرأ. شغله يصير مع بوزا. ما أحد يقدر عليه. سأقول له فوراً. هذا ما يأتي للواحدة منا من وراء الحب!".

ثابر كين على الصمت بصلابة. قالت تيريزه: "يكون مات". وعندما نطقت الكلمة أدركت كم كانت تحبه. جثت بجانبه وفتشت في جسمه عن آثار لكماتها ورفساتها. رأت أن الغرفة معتمة ونهضت وأشعلت النور. لاحظت على بعد ثلاث خطوات منها أن جسمه في حالة يرثى لها. قالت: "لازم يخجل على حاله، الرجل المسكين" ووشى صوتها بالرحمة. أخذت ملاءة سريرها هي – بل كادت أن تبذل له قميصها – ولفّته بها بعناية. "الآن ما أحد يشوف شيء"، وأخذته برقّة مثل طفل في أحضانها. حملته إلى سريره، غطته لتدفئه وتسكنه. بل ووهبته الملاءة، "حتى ما يبرد"، وشعرت بالرغبة في الجلوس جانب سريره والعناية به. إلا أنها امتنعت عن تحقيق حلمها، لأنه ينام بدِعة، أطفأت النور واستلقت لتنام. لم تحاسب الرجل على عدم وجود ملاءة في سريرها.

t.me/yasmeenbook

الصّلابة

جرى يومان في صمت وتحوّط. ما إن استعاد وعيه حتى تجرّأ سرّاً على التفكّر مليّاً في عظم مصيبته. كان لا بد له من صدمات كثيرة حتى تهتدي روحه إلى السراط السويّ. لقد نزل عليه المزيد. لو نقص الضرب عشر دقائق، لكان مستعدّاً لارتكاب جميع أنواع الانتقام. ربما حدست تيريزه هذا الخطر واستمرّت لهذا في ضربه إلى النهاية. لم يرغب خلال عجزه في شيء وخشي شيئاً: المزيد من الضربات. كلما اقتربت من سريره، ارتعد ككلب معذّب.

كانت تضع الصحفة على الكرسي بجانب السرير ثم تدير ظهرها. لم يصدّق أن الطعام توافر له من جديد. إذاً، ما دام هو مريضاً، تظل بلهاء. جرجر نفسه نحو الطعام وتناول جزءاً يسيراً من أُعطيتها الكريمة بعسر. سمعت صوت تمطّق لسانه الشره وشعرت برغبة في السؤال: "كيف الأكل؟"، لكنها ارتدعت عن تحقيق هذه السعادة أيضاً، وعوّضت نفسها بأن تذكّرت متسولاً وهبته شيئاً قبل أربع عشرة سنة. لم يكن له أرجل، لم يكن له أيدٍ، رجاء، أيَّ صنف من البشر كان ذاك، مع أنه يشبه السيد ابن الأخ؟ ليتها لم تعطه، كلّ الناس غشاشون، يتظاهرون بالعجز وما إن يدخلوا البيت حتى يكونوا أصحاء. سألها العاجز: "كيف حال السيد بعلكم؟!". يا لروعته! وعليه حصل على عشرة قروش رمتها بذاتها في قبعته، فقد كان على مبلغ من الفقر. لا ينشرح صدرها بهذه الأعمال، ولا تفعلها مع غيره. لكن لديها أيضاً استثناءات ولهذا يحصل الرجل على بعض الطعام.

t.me/yasmeenbook

كان كين، المتسول، يعاني آلاماً شديدة لكنه يحذر من الصراخ. وعوض أن يستدير نحو الجدار، يتوجه إلى تيريزه ويراقب تحركاتها محترزاً. كانت ساكنة وليّنة رغم ثقلها. أم أن السرّ يكمن في الغرفة، بحيث تظهر فجأة وتختفي فجأة؟ عيناها، عينا القطة، تسطعان غاضبتين. وحين تنوي قول شيء ما ثم تقطع خطابها قبل أن تنطق به، يصدر منها هرير.

نمر متعطّش للدم يطارد البشر في جلد فتاة، تقف باكية على الشارع، جميلة أغوت العالِم، كذبت عليه بذكاء ورقّة، فأخذها إلى بيته شفقةً عليها مثلها مثل نسائه الكثيرات. وهو شجاع يفضّل مضاجعتها. خلعت ذات ليلة جلد الفتاة وشقّت صدره. التهمت قلبه واختفت عبر النافذة. تركت جلدها الناصع على الأرض. وجدتهما إحدى نسائه السابقات، وجرحت حنجرتها لشدّة الصراخ في طلب سحر يعيد الحياة. تذلّلت كثيراً حتى وصلت إلى أقوى رجل في المنطقة، مجنون يقيم بين القاذورات في الساحة العامة، وتمرّغت ساعات طويلة أمام قدميه. فبصق المجنون في يدها أمام الملأ وأمرها أن تتجرّع البصقة. بكت واغتمّت أياماً وأياماً لأنها تحب الميت حتى لو كان دون قلب. ونما من العار الذي بلعته لأجله قلب جديد على تراب صدرها الدافئ. فأعطته للرجل وعاد إليها.

في الصين نساء يعشقن. وليس في مكتبة كين سوى النمر. لكنه ليس فتيّاً ولا جميلا ويرتدي مكان الجلد البضّ تنورة منشّاة. ولا يعبأ بقلب العالِم قدر ما يعبأ برصيده. إن لأكثر الأرواح الصينية شرّاً سلوكاً أنبل من سلوك تيريزه. آه لو أنها شبح، كي لا تستطيع ضربه. يودّ لو خرج من جلده وترك لها جلداً تستطيع ضربه كما تشاء. عظامه بحاجة إلى الراحة، يجب أن تستعيد عظامه عافيتها. سينتهي العلم دون عظام. هل عملت بسريرها أيضا ما عملته به؟ لم تتكسر الأرضية تحت ضربات قبضتها. لقد تحمّل هذا البيت الكثير. إنه قديم، وهو على غرار كل قديم، متين وقوي الهيكل. هي ذاتها تصلح مثالاً على هذا. هنا يجب

t.me/yasmeenbook

مراقبتها دون انحياز. ولأنها نمر، تتجاوز طاقتها طاقة النساء الأخريات. بل يمكنها حتى أن تتحدى البواب ذاته.

أحياناً كان يثابر حالماً على طعن تنورتها حتى تسقط أرضاً. يجرّها من قدميها، وفجأة يظهر له مقصّ ويقصقصها في قطع بالغة الصغر. انشغل بهذا كثيراً. عندما قصقص التنورة وجد أن القطع كبيرة. ربما رتقتها. لهذا لم يرفع ناظريه وبدأ المهمة من جديد. قسم كل خرقة إلى أربعة أقسام. ثم بعثر على رأس تيريزه كيساً معبّأ بخرق زرقاء صغيرة. كيف دخلت الخرق الكيس؟ ذرتها الريح نحوه، التصقت به، شعر بالبقع الزرقاء في كامل جسمه وأنّ بصوت عالٍ.

تسلّلت تيريزه نحوه وسألت: "ما أريد أنين. ماذا تريد؟". عادت زرقاء من جديد، إذاً فقد سكن فيها جزء من البقع. عجيب، تصور أنه وحده يحملها كلّها. لكن توقف عن الأنين. رضيت بجوابه. تذكرت فجأة كلب مخدّميها السابقين. كان يستكين حتى قبل أن يصرخ فيه أحدهم، وهذا هو الصحّ.

في بحر أيام قليلة غدت المعونات، التي تظل في الصحفة من الصباح إلى المساء، عبئاً مثل آلام جسده المتورّم. شعر بارتياب المرأة فيه حين تقترب منه. في اليوم الرابع ملّت من متابعة إطعامه. أيّاً كان يقدر يظل متسطّح. فحصت جسمه دون رفع الغطاء عنه، من باب السرعة، وقرّرت أنه سيستردّ صحته قريباً. فهو لم يعد يلتوي على نفسه. ومن لا يلتوي لا يتألم. يجب أن ينهض، لم يعد بحاجة إلى الطبيخ. خطر لها أن تأمره بكل بساطة: "قم!"، لكنْ، لديها خوف ينبئها بأنه قد يقفز فجأة، يرمي الغطاء والملاءة عن جسمه ويكون فيه بقع زرقاء كثيرة وكأن الذنب ذنبها هي. تفادياً لهذا سكتت وجاءت بالصحفة في اليوم التالي نصف ملآنة. كما تعمّدت أن يكون الطبخ سيّئاً. لاحظ كين التغيرات، لا على الطعام إنما على المرأة. فسّر نظراتها المتفحصة تفسيراً خاطئا وخشي أن تضربه مرة أخرى. فهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه في السرير. إنه مستلقٍ بكلّ طوله

t.me/yasmeenbook

وسيّان أينما وجهت ضرباتها، إلى فوق أم إلى أسفل، فستصيب جزءاً منه. قد تخطئ في العرض، لكن هذا ليس ضمانة كافية.

دام الأمر نهارين وليلتين أخريين، حتى شدّ الرعب من عزيمة إرادته في النهوض، ليقوم بهذه المحاولة. لم يمت إحساسه بالوقت قطّ، فكان يعرف كم هي الساعة دائماً، وكي يعيد النظام إلى دورته مرة واحدة وإلى الأبد ارتفع من السرير في تمام الساعة السادسة. سمع في رأسه طقطقة مثل طقطقة الخشب الجاف. كان الهيكل قد تمرّد على مفاصله، فلم يستطع الوقوف بصورة سليمة. لكنه تمكن من تحاشي الوقيعة، بأن تجنّب اليمين حين يميل شمالاً وتجنّب اليسار حين يميل يميناً. شيئاً فشيئاً دخل في ثيابه التي أخرجها من تحت السرير. سرّ متشفّياً بكلّ غلاف جديد، امتداد لدرعه، حماية ضرورية. بدت حركاته للحفاظ على التوازن مثل رقصة ذات مغزى عميق. مهموزاً بالآلام، الشياطين الصغيرة، ناجياً من الشيطان الأكبر، الموت، تراقص كين في طريقة إلى طاولة المكتب. منتشياً قليلاً بالاختلاج أخذ مكاناً وأرجح ساعديه وساقيه قليلاً حتى هدأت جميعاً وعادت إلى خنوعها القديم.

كانت تيريزه تنام إلى الساعة التاسعة منذ أن لم يعد لديها ما تفعله. فهي ربة البيت وربات البيوت يطلن النوم. الخادمات عليهن الاستيقاظ في السادسة. إلا أن النوم كان يجافيها، وإذا استيقظت تظل مستثارة بالشوق إلى أملاكها. فتضطرّ إلى ارتداء ثيابها كي تشعر بضغط المفاتيح الخشنة على لحمها. ولأجل هذا ابتدعت حلاًّ منذ أن رقد الرجل في الفراش. تستلقي الساعة التاسعة في السرير وتدسّ المفاتيح بين ثدييها. وتحذر لئلاّ تنام حتى الثانية. في الثانية تنهض وتخفي المفاتيح في التنورة. حيث لن يجدها أحد، ثم تنام. فتتعب من طول السهر بحيث تنسى النوم في الساعة التاسعة، تماماً كما يفعل السادة المحترمون. هنا ينال المرء حقه وما للخدم إلا الخسران.

t.me/yasmeenbook

بهذا تمكن كين من تنفيذ مراده دون أن تلاحظ. تعامى عن سريرها وهو على طاولة المكتب. يحرص على أوقات نومها كأغلى ما يملك، ويكاد يموت رعباً مئة مرة خلال ثلاث ساعات. فقد كان من مواهبها أن تتراخى في النوم، فإذا أكلت شيئاً طيباً في الحلم تتجشّأ وتطلق ريحاً. قالت في الآن ذاته: " هل يعمل أحد هكذا شيء؟" وهي تعني شيئاً لا يعلمه إلا هي، بينما يجد كين نفسه معنيّاً. تقلبها الحوادث من جنب إلى جنب، يتأوه السرير بصوت عالٍ ويتأوه معه كين. تبتسم أحياناً مغمضة العينين، فيداني كين البكاء. وإذا امتدّت ابتسامتها أكثر يتصور أنها تعوي، فيودّ الضحك. ولو لم يأخذ درساً في الحذر لضحك فعلاً. سمعها لدهشته تنادي بوذا. شكّ في أذنه، إلا أنها كرّرت: "بوزا، بوزا" بينما تبكي، وفهم ما يعنيه بوذا بلغتها.

ارتعد حين خرجت يدها من تحت الغطاء. لكنها لم تضرب واكتفت بتكوير القبضة. لماذا، ما الذي فعلتُه؟ تساءل وردّ على نفسه: هي تعرف الجواب. كان يحترم مشاعرها الحقيقية. لقد كفّر كفاية عن ذنبه الذي عاقبته عليه دون أن تنساه. مدّت تيريزه يدها إلى الموقع الذي تخفي فيه المفاتيح عادة. خُيّل لها أن الغطاء السميك تنورتها ووجدت المفاتيح رغم أنها لم تكن هناك. وضعت كلّ ثقل يدها عليها، تحسّستها، داعبتها، أخذتها الواحد تلو الآخر بين أصابعها، نضحت لشدّة سعادتها بقطرات كبيرة متلألئة من العرق. احمرّ كين دون أن يعرف لماذا. ذراعها السمينة في كمٍّ مشدود، حادّ. رؤوس الكشكش مقبلة على الرجل الذي ينام معها في الغرفة نفسها. بدت لكين منهارة. نطق هذه الكلمة التي تعصر قلبه بصوت خفيض. سمع كلمة "منهار". من الذي تكلم؟ بسرعة البرق رفع رأسه ووجّه أنظاره نحو تيريزه. من غيرها يعرف كم هو منهار. إنها نائمة. لم يثق في العيون المغمضة وانتظر مكتوم الأنفاس تعبيراً آخر. فكّر: "كيف للمرء أن يكون بكل هذا التهور. هي مستيقظة وأنا أنظر إلى وجهها بكلّ

t.me/yasmeenbook

صفاقة". منع على نفسه الوسيلة الوحيدة ليتقرّى الخطر وأسبل رموشه كشابّ خجول. توقّع شتيمة شرسة بآذان مفتوحة على آخرها – هكذا تصوّر. وسمع عوض هذا أنفاساً رتيبة. إذاً، فقد عادت للنوم. بعد ربع ساعة توجّه نحوها خلسة، بالعينين، مستعداً دائماً للهرب في اللحظة المناسبة. اعتبر نفسه شديد الذكاء وسمح لها بفكرة رائعة. إنه داؤود يحرس الجالوت النائم. ويحقّ له أن يصف كل ما يحيطه بالغباء. صحيح أن داؤود لم يربح المعركة الأولى، لكنه نجا من الضربة القاتلة لجالوت، ومن يجرؤ على التكهّن بالمستقبل.

المستقبل، المستقبل، كيف يطال المستقبل؟ لندع الحاضر ينتهي ولن تستطيع أن تفعل به شيئاً. آه، لو أمكننا إلغاء الحاضر. إن مصيبة البشرية هي أننا نعيش قليلاً جداً في المستقبل. أي معنى سيكون لهذا بعد مئة عام إذا انهال عليه الضرب اليوم؟ لندع الحاضر ماضياً ولن نلحظ البقع الزرقاء. الحاضر يحمل ذنب جميع الآلام. إنه يتشوق إلى المستقبل لأنه سيكون هناك ماضٍ أكثر على هذه الأرض. الماضي خير، لا يؤذي أحداً، لقد تحرّك فيه عشرين عاماً وكان سعيداً. ومن يشعر بالسعادة في الحاضر؟ نعم، إذا لم تكن لنا حواسّ، سيمكن تحمّل الحاضر أيضاً. لأننا سنعيش في الذكريات، أي في الماضي. في البدء كان الكلم، أي وُجِد، أي أن الماضي كان قبل الكلم. إنه ينحني احتراماً لأزلية الماضي. الكنيسة الكاثوليكية فقيرة جداً، إنها في عينيه تحوي القليل من الماضي، ألفي سنة، جزء منها مختلق، وما هذا مقارنة بتقاليد تتجاوز أعمارها ضعفي، بل ثلاثة أضعاف، هذه المرحلة الزمنية؟ أي، إن أيّ مومياء مصرية متفوقة على الكاهن الكاثوليكي. لكنه يخال نفسه أسمى منها لمجرد أنها ميتة. غير أن الأهرامات ليست أعمق موتاً من كنيسة بطرس، بل العكس، إنها أرفع حياة لأنها أقدم. لكن الرومان يظنون أن الماضي كله ملكهم. يحجمون عن إجلال أسلافهم. يا للكفر! الرب هو الماضي. إنه يؤمن بالرب. سيأتي

t.me/yasmeenbook

زمان، فيه يحيل البشر كل أفكارهم إلى ذكريات وكل أزمانهم إلى ماضٍ. سيأتي زمان، فيه ماضٍ واحد لجميع البشر، فيه لا زمن غير الماضي، فيه يؤمن الجميع، بالماضي.

سجد كين في ذهنه وصلّى في حاجته إلى ربّ المستقبل، الماضي. لقد نسي الصلاة منذ زمن بعيد. لكنه رجع إليها قدّام هذا الرب. في النهاية رجاه الاستغفار على أنه لم يسجد حقيقة. لكنه يعلم: العصا التي لا تكسر الظهر تقوّيه. وليس مضطرّاً لأن يعيد هذا على أسماعه هو. وهذه هي سمة الربوبية الحقّة التي لم يسمع لها مثيل. ربّ التوراة أمي جاهل. بعض صغار أرباب الصين أكثر قراءة منه. ويمكنه هنا أن يذكر أشياء عن الوصايا العشر تقزّز النفس. لكنه، هو، عليم بجميع الأحوال أكثر منه. وهنا يسمح لنفسه برجاء أن يحرّره من سلالة الأنثى التافهة، التي علّقها الألمان في رقبته. أن يعمد الألمان إلى تأنيث أفضل ما فيهم، أفكارهم التجريدية، لإحدى العلامات على بربرية غير مفهومة يقضون بها على كل مكاسبهم. أمّا هو فسيطوّب كلّ ما يتعلق به مستقبلاً بالتذكير. المحايد صغيرة من الصغائر في عين الرب. وبصفته فيلولوجياً يدرك تماماً أيّ عبء يحمّل نفسه بهذا العداء. لكن اللغة بالنتيجة في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة اللغة. ولهذا يرجو الماضي أن يوافقه على هذا التغيير.

وبينما يفاوض الرب عاد تدريجياً إلى مرقبه. تيريزه لا تُنسى، لم يخلص من ربقتها تماماً حتى وهو يصلّي. تشخر في دفقات يسير عليها إيقاع صلاته. شيئاً فشيئاً غدت حركاتها أقوى، ولم يعد مجالٌ للشكّ في أنها ستستيقظ حالاً. قارنها بالرب فوجدها صغيرة. ينقصها ذاك الماضي. فلا هي تتحدر من أحد ولا هي تعرف شيئاً. جلد شرّير كافر. فكّر كين ما إن لم يكن الأفضل له أن يغفو، فربما انتظرته ليستيقظ ويزول في هذه الأثناء غضبُها البدئي على ظهوره الذاتي على طاولة المكتب.

t.me/yasmeenbook

صبّت تيريزه جسدها من السرير على الأرض بدفقة جبارة. صدرت صيحة عظيمة. ارتعد كلّ هيكل كين. أين المفرّ؟ لقد رأته. ستأتي. ستقتله. يبحث في الزمن عن مخبأ. يجري عبر التاريخ، قروناً طلوعاً وقروناً نزولاً. أفضل القلاع لن تحميه من المقاليع. الفرسان؟ عبث – الدبابيس السويسرية[1] – ستشطر بواريد الإنكليز عتادنا ورؤوسنا نصفين– سيقضى على السويسريين على أبواب مارينيانو[2] – لا بيادة – لا مرتزقة – يتقدم جيش الظلاميين – غوستاف أدولف[3] – كرومويل[4] – سيذبحنا - يعودون من العصور الحديثة – يعودون من العصور القديمة - يتجمعون في التشكيلات السلامية[5] - الرومان يخترقونها - الفيلة الهندية -رماح الحريق - الكل يتملص - إلى أين - أين المفر - على ظهر سفينة - نيران اليونان - إلى أمريكا - إلى المكسيك - قرابين بشرية – سيذبحوننا – الصين – الصين – المغول - أهرامات الجماجم. أتى في نصف غمضة عين على كلّ إرثه التاريخي. لا خلاص. كل شيء يغرق. حيثما ولّى وجهه، سيخرجه الأعداء من الجحر، بيوت من ورق، تتساقط، تنهار الحضارات العزيزة، أمام قطّاع الطرق البرابرة، أمام الرؤوس الفارغة الصلبة.

---

1) الدبوس السويسري، Morgenstern، سلاح استخدم في القرن الرابع عشر، وهو هراوة يزرع في رأسها دبابيس، كان يقذف عن ظهر الخيل أو يستخدمه الراجلة حين يكون طويل الأخمص. واستخدم حتى في حرب الفلاحين 1653.

2) في 13 و 14 أيلول 1515 قامت معركة بين مقاطعات سويسرا اليوم ومملكة فرنسا وإمارة ميلانو. أنهت هذه المعركة محاولات السويسريين في التوسع. مارينيانو، اسمها اليوم ميلينيانو، تقع في مقاطعة لومبارديا شمال إيطاليا.

3) غوستاف أدولف (1594 – 1632) بالتقويم الغريغوري، كان ملك السويد وله دور كبير في تاريخ السويد وحرب الثلاثين عاماً.

4) اوليفر كرومويل (1599 – 1658) كان عضواً في البرلمان وغدا خلال معارك البرلمانيين ضد الملكيين قائداً للجيش. بإعدامه للملك كارل الأول منع قيام الملكية المطلقة في إنكلترا. كان له الدور الرئيسي في تحويل إنكلترا من الملكية إلى الجمهورية التي دامت مدة قصيرة جداً.

5) التشكيلة السلامية، فلنكس (إصبع باليونانية)، هي تشكيلة عسكرية للمشاة المدججين بالرماح وما شابهها من أسلحة.

t.me/yasmeenbook

فيتصلّب كين.

دعك رجليه الهزيلتين إحداهما بالأخرى. ارتمت يمناه متكوّرة في قبضة على الركبة. هدأ الساعد والفخذ أحدهما على الآخر. دعم جذعه بذراعه اليسرى. ارتفعت الهامة قليلاً. حدّقت العينان في البعيد. حاول أن يغمضهما ولأنهما امتنعتا تخيّل نفسه كاهناً مصرياً من الغرانيت. تصلّب مثل التمثال. لم يتخلَّ التاريخ عنه إذاً. لقد وجد في مصر القديمة مأوى آمناً. وما دام التاريخ في صفّه فلن يستطيع أحد قتله.

عاملته تيريزه كالهواء. كحجر، صحّح لها رأيها. ببطء فسح ذعره متسعاً لشعور قويّ بالسكينة. ستتحرّز من الحجر ولا بد. ومن يدفعه غباؤه ليجرح يديه بالحجر؟ تذكّر حواف جسده. الحجر قوي، والحواف الحجرية أقوى. عيناه المترقبتان ظاهرتان للأبد، تتفحّصان تفاصيل هيئته. أسف على أنه لا يعرف الكثير عن شكله. كانت الصورة التي يعرفها عن جسده هزيلة. تمنّى لو يستحضر مرآة على الطاولة. تمنى لو يدخل تحت جلد ثيابه. لو كان الأمر بيد حب المعرفة فيه، لتعرّى نهائياً وقام بفحصٍ دقيق، لمرّ على عظامه عظمةً عظمة وحرّضها. يا للفرحة! أدرك وجود كثير من الزوايا السرية، رؤوس وحواف حادة قاسية. عوّضته البقع الزرقاء عن المرآة. هذه الأنثى لا تشعر بالحياء أمام عالم. لقد تجرّأت على لمسه كأنه إنسان عادي. سيعزّرها بأن يستحيل إلى حجر. على صلابته العظيمة ستتحول كلّ خططها عاراً عليها.

تكرّرت اللعبة ذاتها يومياً. وجدت حياةُ كين المنهارة تحت قبضات زوجته، الحياةُ المتحرّرة من الكتب الجديدة والكتب القديمة، نهجاً جديداً. صباحاً ينهض قبلها بثلاث ساعات، فيستطيع استغلال هذا الوقت الأكثر سكينةً في العمل. واستغلّه حقاً، لكن ما كان مفهوم العمل قبلاً انحلّ وأُجّل إلى مستقبل أفضل. كان يستغلّ القوى التي يجمعها للقيام بفنّه الجديد. الحاجة أمّ الفنّ. نادراً ما ينجح المرء في إنجاز أعماله بعد الاستيقاظ مباشرة.

t.me/yasmeenbook

عليه الاسترخاء أولاً ليقبل من ثم بحرية وحياد على خلقه. بهذا كان كين يقضي ثلاث ساعاتٍ في الفراغ أمام طاولته. كان يسمح لبعض الأفكار بعبور رأسه، لكنّه يحتاط لئلّا تشغله كثيراً عن موضوعه. ثم، حين تدقّ عقارب الساعة في مخّه لأنها تقترب من التاسعة، يبدأ بالتصلّب رويداً رويداً. يشعر بالبرودة تسري في جسمه ويقدرها حسب توزعها المتجانس. في بعض الأيام تبرد الناحية اليسرى من جسده أسرع من الناحية اليمنى. فيثير هذا مخاوف جدية. فيأمر: "تقدّم إلى الناحية الأخرى!"، وتصحّح تيارات الدفء اليمينية أخطاء اليسار. تحسّن أداء طاقاته على التصلّب يوماً بعد الآخر. وحالما يبلغ درجة التحجّر، يفحص صلابة المادة بأن يضغط بالفخذ قليلاً على قاعدة الكرسي. تدوم تجربة الصلابة هذه عدة ثوان لأن ضغطاً أشدّ سيحطم الكرسي. وعندما صار يخشى على مصير الكرسي، حوّله هو أيضاً إلى حجر. إن السقوط خلال النهار بحضور الأنثى إهانة للصلابة وألم مرير. الغرانيت ثقيل. مع الزمن انتفت الحاجة إلى التأكد من درجة الصلابة عن طريق الشعور الآمن.

يتصلّب كين من التاسعة صباحاً إلى السابعة مساءً في موقفه منقطع النظير. على الطاولة كتاب مفتوح، هو ذاته دوماً. لم يشرّفه بنظرة واحدة. عيناه مشغولتان فقط بالبعيد. والمرأة على مقدار كاف من الذكاء بحيث لا تقلق عرضه. تتحرك بنشاط في الغرفة. أدرك أن الاقتصاد صار طبيعة ثانية لها وأخفى ابتسامة غير ملائمة. كانت تطوف حول التمثال الملحمي من مصر القديمة في دوائر بعيدة. لا ترميه لا بالسباب ولا بالطعام. منع كين على نفسه الجوع وأعراض الجسد الأخرى. ينتظر حتى تصير تيريزه في أقصى زاوية من زوايا الغرفة، فلديه شعور أمين بالمسافة عنها، فينهض ويغادر البيت. يكاد ينام من شدة الإرهاق وهو يتناول وجبته الوحيدة في المطعم. يمدّ يديه إلى مصاعب اليوم الفارط، ويومئ برأسه موافقا إذا خطرت له فكرة حسنة ليوم الغد. يتحدّى كلّ من يتجرأ على محاكاة

t.me/yasmeenbook

تمثاله. لكن لا يقبل أحد التحدي. في التاسعة يستلقي في السرير وينام.

كما تأقلمت تيريزه أيضاً بالتدريج مع العلاقة المحدودة. كانت تأخذ كامل حريتها في غرفتها الجديدة دون أن تزعج أحداً. تصول وتجول في الصباح فوق السجاد بنعومة قبل أن ترتدي الجوارب والحذاء. كان أجمل سجاد في الشقة وبقع الدم لم تعد مرئية. تستمتع قرنيتها العجوز بملامسة السجاد الناعم. وما دامت تشعر بلمساته تنزلق في رأسها صور جميلة كثيرة. لا يزعجها سوى الرجل الذي لا يحب لها الخير.

وصل إبداع كين بكيانه من الصمت إلى درجة بحيث لا يصدر حتى الكرسي، قطعة الأثاث العتيقة المتعنتة، صريراً إلا نادراً. المرات الثلاث أو الأربع، بما أن الكرسي يلفت الانتباه أكثر في السكون، بعثت فيه الخجل. يعتبرها أولى علامات الإرهاق ولهذا يتعمّد تجاهلها.

وما إن يصدر صرير حتى تحدس تيريزه خطراً، فتقطع أواصر سعادتها، تنزلق إلى الجوارب والحذاء، ترتديها، ثم تستمر في سلسلة أفكار اليوم السابق. وتتذكر مخاوفها الكبيرة التي تعاني منها دوماً. لقد احتفظت بالرجل في البيت شفقة عليه. فسريره لا يأخذ سوى حيّز صغير. تحتاج مفاتيح أدراج الطاولة. ففيها دفتر الحساب الصغير. وما لم تنل دفتر الحساب والبقية تمنّ على رأسه بسقف عدّة أيام أخر. ربما فهم هذا وخجل من نفسه لأنه كان دائماً يتقصّد الإساءة إليها. كلما تحرّك شيء في محيطه، شكت في إمكانية الحصول على كتابها، هذه الإمكانية التي تترسخ في الأوقات الأخرى. فهي لا تخشى مقاومة قطعة الخشب، التي كانها طوال الوقت، لكن تتوقع من الرجل الحي أسوأ الأشياء، حتى سرقة دفتر حسابها.

ارتفعت درجة التوتر بين الاثنين في المساء عالياً. استجمع البقية الباقية من قواه كي لا يدفأ في وقت غير ملائم. استشاطت غضباً وهي

t.me/yasmeenbook

تتخيّله ذاهباً حالاً إلى المطعم، حيث يعلف ويسكر، بنقودها التي كسبتها بمرارة، مع أنها كادت تنفد تقريباً. منذ متى يعتاش هذا الإنسان عليها ولا يأتي إلى البيت بنقود؟

الإنسان عنده قلب. هل هي من حجر؟ يجب إنقاذ الثروة المسكينة. المجرمون يلاحقونها مثل الوحوش، كلٌّ منهم يريد منها شيئاً. لا يخجلون على حالهم. هل هي حرمة وحيدة. والرجل يسكر بدل أن يساعدها. لم يعد ينفع في شيء. سابقاً كان يملأ الأوراق بكتابات تقدر بالنقود. والآن صار يتكاسل حتى في هذا. وهل تدير مأوى فقراء؟ ليذهب إلى العصفورية. هي لا تطيق من يأكل ولا ينفع. سيدفعها بالنتيجة لحمل عصا الشحاذين. ليحتفظ بها لنفسه. إنها تشكره على هذه الفرحة. لن يعطيه أحد شيئاً على الشارع. صحيح أنه يبدو عليه الفقر، لكن هل يعرف كيف يقول رجاء! إنه حتى لا يفكر بهذه الكلمة. رجاء، فليمت من الجوع. سنرى حاله إذا جاءت نهاية طيبتها. المرحومة أمها ماتت من الجوع وها هو زوجها أيضاً يموت الآن جوعاً.

يوماً بعد يوم تسلق حنقها درجة أعلى. رازته لتخمّن ما إن كان كافياً للمصير النهائي، فوجدته خفيفاً جدّاً. كان مقدار الحذر الذي عالجته به يماثل مقدار صلابتها. تقول لنفسها: هو اليوم كثير مسكين (لن أثور عليه اليوم) وتتوقف على الفور عن غضبها، لكي تبقى منه حصة للغد.

ذات مساء، وتيريزه تحرِّك جمراتها بالشوب[1]، وبلغ هذا درجة حرارة متوسطة، تقصّف كرسي كين ثلاث مرات متوالية. ما كان ينقصها سوى هذه الوقاحة. رمته في النار، هو قطعة الخشب الطويلة بالكرسي الذي صار جزءاً منه. فاتقدت النار واضطرمت وارتفعت حرارتها غاضبة. فأخذت جمراتها باليد - إنها لا تخشى الجمرات، بل كانت تنتظر الاجتمار- واحدة تلو

1) الشوب: قضيب معدني لتحريك الجمرات والرماد في موقد، يقال له أيضاً محراك ومفواج.

t.me/yasmeenbook

الأخرى، مهما كانت صفاتها: الشحاذين، السكيرين، المجرمين، وتقدمت بهم صوب الطاولة. كانت مستعدة لتسوية حتى في هذه اللحظة العظمى. إذا أعطاها دفتر الحساب الآن، ستؤجل رميه إلى الشارع. وإن لم يتكلم، لن تقول له شيئاً. ستسمح له بالبقاء حتى تجد الكتاب. لكن عليه أن يسمح لها بالتفتيش وهي ستضع النهاية.

بكل ما في تمثال من أحاسيس مرهفة خمّن كين، ما إن طقطق كرسيّه ثلاث مرات، إلى أي حد بلغ رهان الفن. سمع تيريزه قادمة. أخمد انفعالاً فرحاً لأن هذا سيضرّ ببرودته. لقد تمرّن ثلاثة أسابيع طوال وحان موعد رفع الستارة. الآن سيبرهن التمثال على كماله. وكان واثقاً من هذا التمثال ثقة لم يسبقه إليها فنان. مرّر قبل العاصفة بعض الاحتياط الفائض من البرودة في أصقاع جسمه. ضغط كعبيه على الأرض فوجدها صلبة مثل الصخر، درجة صلابة 10، ألماس، قاطع، أكثر الحواف حدّة. ذاق بلسانه، خفية عن الهجمة، قضمة من العذاب الحجري الذي يعدّه للأنثى.

أمسكته تيريزه من أقدام الكرسي ونحّته جانباً بصعوبة. تركت الكرسي، تقدّمت صوب الطاولة وجرّت درجاً. بحثت فيه فلم تجد شيئاً. هجمت على التالي. لم تجد بغيتها لا في الثالث ولا في الرابع ولا في الخامس. أدرك نواياها: الحرب خدعة. إنها لا تبحث عن أيّ شيء، وما الذي ستبحث عنه؟ كل المخطوطات سواء لديها. لو أنها تبحث عن ورق لوجدته في الدرج الأول. إنها تبني على فضوله. عليه أن يسأل عمَّ تبحث. إذا نطق لن يعود حجراً وستضربه حتى الموت. إنها تحاول أن تغويه للخروج من الحجر. جرّدت حملة على الطاولة. إلا أنه حافظ على دمه البارد ولم يصدر منه نفس.

خلطت الأوراق. وعوض أن تعيد ترتيبها تركتها مرمية على الطاولة. سقطت أوراق كثيرة على الأرض. كان يعرف محتوياتها جيداً. فيما استجمعت غيرها بشكل خاطئ. عاملت مخطوطاته كأنها خرق. أصابعها

t.me/yasmeenbook

متصلبة وتناسب لولب الإبهام[1]. في باطن الطاولة جهدٌ وصبر على مدى عشرات السنين.

أثاره انشغالها الفظّ. عليها ألا تتطاول على الورق. ما شأنه هو بخدعتها الحربية؟ إنه بحاجة إلى المدوّنات لأجَل آخر. فبانتظاره عمل كثير. لو استطاع البدء به فوراً! لم يولد ليكون فنّاناً. يكلّفه الفنّ وقتاً كثيراً. إنه عالم. متى تأتي الأيام الأفضل؟ فنه مجرد برزخ. إنه يخسر أسابيعَ وأسابيع. كم مضى عليه وهو يمارس الفن؟ عشرون، لا عشرة، لا خمسة أسابيع. لم يعد يعرف. لقد تداخل عليه الزمن. إنها توسّخ مخطوطاته. سيثأر ثأراً مريعاً. يخشى أن ينسى نقمته. لقد بدأت بتقاذف رأسها. ترميه بألحاظ ماكرة. تكره سكينته المتصلبة. لكنه لم يعد يتحمل، يريد السلام، يقدّم لها مقترحاً، هدنة، عليها أن تبعد أصابعها. أصابعها تمزق أوراقه، عينيه، مخّه، عليها أن تسدّ الأدراج، تبتعد عن طاولة المكتب، تبتعد عن الكتب، فهذه ساحته هو، لن يتحملها، سيحطمها، فقط لو كان قادراً على الكلام. لكن الحجر صموت.

تدفع بتنورتها الأدراج الفارغة إلى الوراء. تطأ المخطوطات على الأرض. تبصق على كل ما هو فوق. بكل حنق تمزق محتوى آخر درج. يعذّبه صرير الورق العاجز. يقمع الحرارة في داخله، سينهض حجراً بارداً، سيهشّمها بنفسه. سيجمع قطعها قطعة قطعة ويطحنها طحناً لتصير غباراً. سيتهاوى فوقها، يتفشى فيها كجائحة مصرية قاتلة. يرفع لوح الوصايا العشر ويرجم به شعبه. لقد نسي شعبه وصايا الربّ. الربّ عزيز وموسى يرفع ذراعه المهددة. من يملك قوة الربّ؟ من يملك برودة الربّ؟

بغتةً ينهض كين ويسقط بعنف على تيريزه. يبقى صامتاً، يعضّ على شفتيه، يجعل من أسنانه مقراضاً، إن تكلّم لن يعود حجراً، تعضّ الأسنان عميقاً في اللسان. "أين دفتر الحساب"؟ يرتجع صدى تيريزه قبل أن تتهشّم.

---

1) وسيلة تعذيب استخدمت لانتزاع الاعتراف منذ القرون الوسطى.

t.me/yasmeenbook

"أين دفتر الحساب؟ يا سكّير، يا مجرم، يا حرامي؟!" إذاً كانت تبحث عن دفتر الحساب! يبتسم هازئاً بكلماتها الأخيرة.

لكنها ليست الأخيرة. تمدّ يدها إلى رأسه وترطمه بطاولة المكتب. تدقّ مرفقيها بين أضلاعه. تصرخ: "اطلع من بيتي!". تبصق، تبصق في وجهه. يحسّ بكلّ ما يجري. يشعر بالألم. إنه ليس حجراً. ولأنها لا تتهشم، يتهشم فنه. كله نفاق، لا يوجد إيمان. لا يوجد ربّ. يتهرّب. يدافع عن نفسه. يردّ عليها. تصادفها عظامه الحادة. "سأشتكي للشرطة. الحرامية للحبوس. الشرطة تلقطهم أين ما كانوا. الحرامية للحبوس. اطلع من بيتي!". تجرجر ساقيه كي توقعه. ستكون مشيئتها على الأرض، كما حدث قبلاً. لكنها لا تتمكن من إسقاطه، إنه قوي. فتمسك خناقه وتجره إلى خارج الشقة. تصفق الباب وراءه. يسمح لنفسه بالسقوط في الممرّ. إنه مرهق. ينفتح الباب من جديد. تقذف تيريزه المعطف والقبعة وحقيبة الكتب خارجاً. "إيّاك تتجرّأ على الشحادة مرة ثانية"، تصرخ وتختفي. تعطيه حقيبة الكتب لأنها فارغة. تحتفظ بكل الكتب في الشقة.

دفتر الحساب في الحقيبة. يضغطه على جسمه رغم أنه مجرّد دفتر حساب. لا تدرك تيريزه ما الذي خسرته مع الشحّاذ. رجاءً، هل هناك لص يحمل جريمته معه أينما ذهب؟!

t.me/yasmeenbook

الجزء الثاني
عالم بلا رأس

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

السماء المثلى

تراكمت الأعمال على رأس كين منذ أن طُرِد من شقته. كان يمشي طوال النهار في أرجاء المدينة رزيناً ومتماسكاً: يسير منذ باكورة الصباح على رجليه الطويلتين، لا يمنح نفسه لا راحة ولا غذاء في الظهيرة. ولكي يتدبر قواه الجسدية قسم منطقة نشاطاته إلى قطاعات يحرص على الالتزام بها، حاملاً في حقيبته خريطة كبيرة للمدينة، قياس 1 / 5000، رسم عليها دوائر حمراء دقيقة.

يدخل مكتبة ويسأل عن المالك شخصياً، فإن كان هذا مسافراً أو غائباً لتناول الطعام، يكتفي بأول موظف وينقض عليه: "أنا بحاجة ماسة وعاجلة إلى الأعمال التالية للقيام بدراسة علمية" ويقرأ قائمة طويلة من ورقة؛ ليست بين يديه. وكي لا يضطرّ إلى التكرار يبالغ في الإبطاء والإيضاح بلفظ أسماء المؤلفين. فقد كانت أعمالاً نادرة وغباء أولئك الموظفين لا يطاق. رغم أنه يقرأ إلا أنه يلقي نظرة نبيهة بطرف عينه إلى الوجوه التي تصغي إليه. يتوقف وقفات قصيرة جداً بين العنوان والعنوان. كان يحب أن يصدم السامع باسم تالٍ، قبل أن يشفى هذا من اسم غرائبي. ويتسلى بالقسمات المنذهلة. يرجوه بعضهم: "لحظة"، وغيرهم يرفع اليد إلى الجبين والصدغ، لكن السائل لا ينقطع عن السرد. كل ورقة من أوراقه تحوي عشرات العناوين. عناوين يملكها جميعاً في البيت. يعاود ابتياعها متفكّراً أن يقايض النسخ المتكررة أو يبيعها لاحقاً، ما يضاعف من قهره. لم يكلفه عنفوانه الغضّ قرشاً واحداً. كان يرتب قوائمه على الشارع. ويقرأ في

t.me/yasmeenbook

كل مكتبة قائمة جديدة. وكلما انتهى يطوي الورقة بحركات قليلة رشيقة، يدسّها بين الأخريات في الحقيبة، ينحني باحتقار عميق ويغادر الحانوت. لا ينتظر جواباً. وهل للأغبياء أن يجاوبوه؟ لو خاض معهم في تفاصيل عن الكتب المرغوبة فسيخسر المزيد من وقته مرة أخرى، هو الذي ضيّع ثلاثة أسابيع طوال في التصلّب والانتصاب على طاولة الكتابة. كي يعوّض ما فاته، يسعى طوال النهار بدأب، بثبات ونشاط بحيث يمسي، دون أدنى أثر من التكبّر، راضياً عن نفسه. وكم كان راضياً!

كان الناس الذين يختلط بهم بحكم مهنته يسلكون سلوكاً يتقلّب حسب المزاج والحيوية. ندرة منهم تحتدم لأنه لا يترك لهم فرصة للكلام، وأكثريتهم تتلهّى بالإصغاء إليه. يرون من سيماه سعة معارفه ويسمعون. كل جملة من جمله تماثل محتويات حوانيت مكتظّة على آخرها. ونادراً ما يحيط السامع بكامل معانيها. وإلا لترك المجذوبون جميعاً أعمالهم، التمّوا حوله، فتحوا آذانهم وأصاخوا أسماعهم إلى أن يتمزّق غشاء الطبل. فمتى يسنح لهم لقاء وجه مثل هذه الشعلة من العلم مرة أخرى؟ غالباً ما كان واحد فقط يستغل المناسبة للاستماع إليه. كانوا يتوجسون منه توجّسهم من كل الكبار، فهو غريب وقصيٌّ جدّاً؛ ويفتنه ارتباكهم، الذي قرّر حتى نقيّ عظامه ألا يأبه به. ما إن يدير ظهره لهم، حتّى يقتصر موضوع الحديث طوال النهار عليه وعلى قوائمه. كان المالك والعمال يقومون مقام مستخدميه. فأنعم عليهم بفرصة ذكرهم جميعاً في سيرته الذاتية. فلم يكن سلوكهم بالمحصلة سيئاً، بل يبدون إعجابهم به ويمدّونه بكل ما يحتاج. يحزرون من يكون وفيهم من العزيمة ما يكفيهم على الأقل للسكوت قبالته. لا يدخل المكتبة ذاتها مرّتين قطّ. وحين أخطأ مرة وفعلها، طردوه. فقد كان كثيراً جداً عليهم، يُقبضهم مظهره، وتحرّروا منه. آنذاك شعر بدونيّتهم واشترى خريطة المدينة بالدوائر الحمراء المذكورة. وضع إشارة صليب صغيرة في كل دائرة مرّ بها. وبذلك ماتت في عينيه.

t.me/yasmeenbook

كان لانشغاله الشديد غاية جبرية. فمنذ تلك اللحظة التي بات فيها على الشارع ضاق بكل شيء وركز على أبحاثه في البيت. يفكر بإتمامها، ما لم يكن ممكناً دون مكتبة. ولأجلها وسّع النظر وجمع ما يحتاجه من مراجع خاصة. كانت قوائمه تنشأ بحتمية، يعطل كل اعتباط ومزاجية ويخوّل لنفسه فقط شراء الكتب الجديدة التي لا يمكنه الاستغناء عنها في العمل، لأن ظروفاً بعينها ترغمه على إغلاق مكتبته في البيت آجلاً. يتظاهر بالاستسلام للقدر غير أنه في الحقيقة يتحايل عليه. لم يفرّط بقيد أنملة من علمه. يقتني ما يحتاجه، سيبدأ بالعمل من جديد خلال أسابيع قليلة، كان أسلوبه في الصراع متمهّلاً ومتلائماً مع الظروف القاهرة، لا يمكن غلبته، يتسع أفق ذكائه في الحرية. كبر بعدد الأيام الزاهية، واكتفى خيلاء بأن تجمعت لديه في الأثناء مكتبة جديدة صغيرة عدادها آلاف، ولو قليلة، من المجلدات. بل خشي أن يغالي. كان يبات كل ليلة في فندق. فكيف له أن يحمل الثقل المتعاظم؟ بما أن ذاكرته لا تدمر، حمل مجمل مكتبته الجديدة في رأسه. وظلت حقيبته فارغة.

كان يعي تعبه مساء بعد إغلاق المحلات، ويدخل أقرب فندق بعد أن يغادر آخر مكتبة. يثير ارتياب البوّابين كما هو بحلّته المهترئة ودون متاع. ولأنهم يتخيّلون طريقة معتبرة لطرده شرّ طردة ولفرحتهم بهذا، كانوا يسمحون له بإلقاء جملتين أو ثلاثاً. يقول إنه يرغب في غرفة كبيرة وهادئة لليلة واحدة. ويرجو أن يخبروه فوراً إن كانت هذه الغرفة متوفرة فقط قرب نساء أو أطفال أو رعاع، لأنه سيحجم عن قبولها في هذه الحالة. يشعر البوّابون أنهم جُرِّدوا من سلاحهم حين يسمعون كلمة رعاع. قبل أن يعطوه الغرفة، يعلن أنه يرغب في الدفع مقدّماً ويخرج محفظته. وهذه مترعة بالأوراق النقدية، لأنه سحب كل إيداعاته لدى المصرف. حبّاً بها يفرج البواب عن أسارير وجه لا يراها أحد، لا كبار الضيوف؛ ولا حتى الأمريكان. يملأ كين استمارة التسجيل الإلزامية بخط واضح ودقيق، ومتعالٍ. يسجل

t.me/yasmeenbook

في خانة المهنة: أمين مكتبة. ويتجاهل الحالة العائلية، فلا هو عزب ولا متزوج وليس مطلّقاً بعد، ويؤشر عليها بخط مائل. يدفع للبواب بقشيشاً كبيراً يبلغ خمسين بالمئة من أجر الغرفة. يفرح كلما دفع بأن تيريزه أخفقت في الاستيلاء على دفتر الحساب. يراه المعجبون المحدودبون في حلّة جديدة ويلبث هو صلباً دون حراك مثل لورد. خلافاً لعادته – فهو يكره التقنيات المريحة – يستخدم المصعد لأن المكتبة في رأسه تثقل عليه مساء بعد الإرهاق الشديد. يأمر بإحضار العشاء إلى غرفته. وهذه وجبته الوحيدة طوال اليوم. ثم، ولكي يرتاح قليلاً، يتخفّف من عبء المكتبة ويتطلّع حوله ليرى ما إن كان لها مكانٌ كافٍ فعلاً.

في البدء، عندما كانت حريته فتية بعد، لم يكن يأبه كثيراً بكيفية الغرفة. كان كلّ ما يهمّه هو النوم وأن يضع الكتب على الأريكة وحده. ثم استعمل الخزانة أيضاً. سرعان ما كبرت المكتبة على الاثنتين وكي يستفيد من السجاد القذر، كان يرنّ جرس المستخدمة ويطلب منها عشر ملزمات من أرقى أنواع ورق التغليف. يمدّه على السجاد وفي كامل مساحة الغرفة، وحين يبقى منه شيء، يغطي الأريكة أيضاً ويبطّن الخزانة. بهذا اعتاد أن يطلب كل مساء مع العشاء ورق تغليف جديداً. صباحاً يترك القديم حيث هو. ارتفعت الكتب أكثر فأكثر، لكنها لا تتوسخ حتى لو سقطت، لأن الغرفة ملبّسة بورق التغليف. حين يستيقظ أحياناً في الليل على قلق، يكون قد سمع صوتاً مثل صوت سقوط الكتب.

ذات مساء ارتفعت قلاع الكتب بحيث لم يعد يطول قممها، فقد اقتنى لدهشته عدداً هائلاً من الكتب الجديدة. فطلب سلّماً. ولما سئل عن سبب حاجته للسلّم أجاب قاطعاً حازماً: "لا شأن لكم بهذا البتة!". كانت المستخدمة ذات طبيعة مذعورة قليلاً. كادت عملية سطو على غرفة، جرت قبل برهة وجيزة، أن تكلفها وظيفتها. ركضت إلى البواب وأعلمته مهتاجة بما يحتاج السيد في الغرفة رقم 39. كان البوّاب، العالم بدخائل النفس والبشر، يعرف بما يدين للبقشيش رغم أنه صار في جيبه.

t.me/yasmeenbook

تبسّم لها: "روحي، نامي، يا بهيمة! أنا أتكفّل بالقاتل".

لم تتحرك من مكانها. قالت بخجل: "هو مخيف. شكله شكل الحورة. في الأول طلب ورق تغليف. والآن يريد سلّم. الغرفة ملآنة بورق التغليف".

"ورق تغليف؟!"، سأل البوّاب، فقد ولّد فيه هذا الإبلاغ انطباعاً ممتازاً، فالنبلاء وحدهم يبالغون في النظافة إلى هذا الحدّ.

"نعم، وإلا!". قالت فخورة، فقد استمع إليها.

سأل: "هل تعرفون من هو السيد؟". لم يقل "هذاك" حتى أمام موظفة، بل قال "السيد". "إنه صاحب مكتبة البلاط" وهو يلفظ كل مقطع من مقاطع المهنة المهيبة كأنها أحد أركان الإيمان. ولكي يسدّ فم الصبية أضاف كلمة البلاط من تلقاء نفسه. واستوعب مدى وجاهة السيد فوق، لأنه أسقط كلمة البلاط في استمارة التسجيل.

"لكن ما عاد عندنا بلاط".

"لكن مكتبة البلاط موجودة. ما هذا الغباء! هل تظنّون أن الناس افترسوا الكتب؟"

سكتت الفتاة. كانت تحب إثارة غضبه لأنه قويّ جدّاً. ولا يلاحظها إلا وهو منفعل. تركض إليه لأتفه الأسباب. يصبر عليها لحظات قليلة ثم تتقيه ما إن تثور ثائرته. انفعاله يمنحها القوة. أخذت السلّم لكين بسرور. كان لها أن تطلب ذلك من المستخدم، لكنها فعلت ذلك بنفسها لأنها تبغي طاعة البواب. سألت السيد صاحب مكتبة البلاط ما إن كانت تستطيع مساعدته.

قال: "نعم، وذلك بأن تغادروا الغرفة من فوركم!"، ثم أحكم الباب. ولأنه يرتاب بالمخلوق المتطفّل سدّ ثقب المفتاح بالورق، نصب السلم بحذر بين قلاع الكتب وصعد عليه. أخرج الكتب المرتبة في قوائم حزمة

t.me/yasmeenbook

حزمة، وملأ بها الغرفة حتى السقف. حافظ على توازنه رغم ثقل الحمل، بدا لنفسه مثل الراقص على الحبال. لقد بدأ يتجاوز الصعاب بخفّة أكثر منذ أن أصبح سيد نفسه. ما إن انتهى حتى سمع نقراً متصاغراً على الباب. ثار لأنهم أزعجوه. صار يخاف خوفاً شديداً على كتبه من نظرات الأغرار منذ تجربته مع تيريزه. كان الطارق هو المستخدمة التي طلبت السلّم بكل تواضع (من قبيل الخنوع للبواب).

"أكيد، لن ينام السيد صاحب مكتبة البلاط في الغرفة مع السلم!". كان حماسها حقيقياً. تطلعت في الحورة المخيفة بفضول، بحبّ وحسد، وتمنّت لو يتملّقها البواب مثله.

ذكّرته لغتها بتيريزه. لو كانت هي هي لخافها. لكن لأنها تذكّره بها تذكيراً وحسب، صرخ: "السلّم يظل هنا! سأنام مع السلم".

يا روحي، هل هذا إنسان راقي؟ فكرت الصبية وتراجعت جزعاً. ما كانت تتوقع أنه على درجة من الوجاهة بحيث لا يحقّ لأحد الكلام أمامه.

أما هو فقد استخلص من هذه الحادثة عبراً. يجب تحاشي الحريم سواء كن مدبّرات منزل، زوجات أو مستخدمات. وبدأ بعد ذلك يطلب غرفةً واسعة جداً بحيث لا يحتاج إلى سلم ويحمل ورق التغليف في حقيبته. لحسن الحظ كان النادل الذي يطلب منه الطعام رجلاً.

كان يستلقي في السرير حالما شعر بخفّة رأسه. يقارن قبل النوم ظرفه السابق بالوضع الآني. وعلى كل حال كانت أفكاره تعود مساءً إلى تيريزه، ويتذكر غالباً بسرور، أنه يدفع كل النفقات من النقود التي أنقذها من بين يديها ببسالته. تحضر صورتها سريعاً مع حضور الفضائح المالية. لم يكن له مع المال علاقة طوال النهار، فعلاوة على وجبة الغداء يوفر على نفسه ركوب الترام، وذلك لأسباب معلومة. فهو لن يسمح لأيّ تيريزه بتدنيس العمل الرائع والجاد الذي يخوضه الآن. تيريزه القرش الذي يوسّخ اليد،

t.me/yasmeenbook

تيريزه الكلمة التي ينطقها الأمي، تيريزه الصخرة المطبقة على روح الإنسانية، تيريزه العته متجسّداً.

لأنه حُبس أشهراً مع امرأة معتوهة، لم يعد قادراً بالنهاية على مقاومة تأثيرها الشرير وأصابته العدوى. نقلت إليه الجشعة جزءاً من شرهها إلى المال. غرّبه الإدمان المشوّه على كتب غريبة عن كتبه. كاد أن يسطو عليها بسبب مليون توقع وجوده لديها. لقربها الدائم منه تعرّضت شخصيته لخطر أن تتحطم على المال. بيد أنه لا يتحطم. اخترع جسمه درعاً. لو استمر بالتحرك في الشقة على هواه، لسقط صريع مرضها. لهذا مثّل عليها دور ذلك التمثال. طبعاً لا يمكنه أن يستحيل حجراً. لكن يكفيه أنها هي اعتبرته حجراً. كانت تخاف من الحجر وتلتف حوله. شوّشها الفن الذي تمكّن به من الجلوس عدة أسابيع متصلّباً على الكرسي. وهي بجميع الأحوال مشوّشة. لكنها لم تعد تعرف من هو بعد تلك البدعة البارعة. تواتر الوقت حتى تحرّر منها. استشفى ببطء. انقطع تأثيرها عليه. وحالما شعر بالقوة الكافية وضع خطة للهرب. خطّط للخلاص من أسرها ورهنها للحبس. وكي ينجح في الهرب، كان عليه إقناعها بأنها هي من تطرده. وهكذا أخفى دفتر الحساب. فتّشت الشقة كلّها خلال مرور أسابيع طويلة. وهذا كان مرضها، طمعها في المال. لم تعثر على دفتر الحساب في أيّ مكان. ثم تجرّأت على طاولة الكتابة. فتصادمت معها. أثارتها الخيبة إلى حدّ الغضب. وصعّد هو غضبَها حتى طردته من شقّته مغشيّاً عليها. صار خارجاً، انفكّت قيوده. تعتبر نفسها منتصرة. وهو حبسها في الشقة. لن تنفذ بكل تأكيد وها هو ذا آمنٌ تماماً من اعتداءاتها. صحيح أنه ضحّى بشقته، لكن ما الذي لا يفعله الإنسان لينقذ حياته، إذا كانت هذه الحياة مفرّغة للعلم؟

دسّ رأسه تحت اللحاف وجعله بذلك يتلامس مع مساحة كبيرة من الملاءة. رجا الكتب ألا تسقط، فهو متعب ويتمنّى أخيراً بعض الهدوء. دمدم وهو يغفو: "تصبحون على خير".

t.me/yasmeenbook

استمتع بحرّيته الغضّة طوال ثلاثة أسابيع. استغلّها بنشاط يحسد عليه. وعندما انتهت تلك الأسابيع الثلاثة كان قد فرغ من جميع مكتبات المدينة. وذات عصر لم يعد يدري أين يذهب. هل عليه أن يعيد الكرة ويذهب إلى المكتبات السابقة بالتسلسل الذي عهده؟ ألن يعرفوه؟ يفضّل أن يتحاشى الإهانات. هل وجهه من تلك الوجوه التي تنطبع في الذاكرة من النظرة الأولى. اقترب من مرآة صالون حلاقة وتطلّع في ملامحه. عيناه زرقاوان رماديتان ولا وجنات له على الإطلاق. جبهته سفح صخري متشقّق. الأنف ينحدر كجرف عمودي حادّ إلى قعر. في العمق، تتربص حشرتان قميئتان متخفيتين. لن يتوقع أحد أنهما منخران. الفم شقّ في آلة. ثنيتان عميقتان تتجهان كندبتين صناعيتين من الصدغين نحو الذقن وتلتقيان في ذروته. بهما وبالأنف ينفلق الوجه، طويل أصلاً ونحيف، إلى خمسة قطاعات ضيقة مهولة ولكن ذات هندسة دقيقة، لا مكان للاستكشاف فيه ولا للتطلّع، وكذلك فعل كين ولم يتطلّع إلا قليلاً. فإنه حين رأى نفسه، وقد اعتاد ألا يرى نفسه، شعر بغتةً بالوحدة. قرّر أن يدخل بين بشر كثيرين، فربما نسي هناك مدى وحدة وجهه، وربما خطر له كيف يواصل نشاطه.

وجّه بصره إلى لوحات المحلات حوله، جزء من المدينة لم يلحظه من قبل، وقرأ: السماء المثلى. فدخل بكل سرور. دفع الستائر الثقيلة. أثقل بخارٌ كريه على أنفاسه. تقدم خطوتين بآلية كأنما ليدافع عن نفسه. فلقت هيئته القاطعة كمديةٍ الهواءَ الثقيل. دمعت عيناه. فتحهما على وسعهما ليرى. ازداد دمعهما ولم يتمكن من الرؤية. رافقته هيئة سوداء إلى طاولة صغيرة وأمرته أن يأخذ مكاناً. أطاع. طلبت له تلك الهيئة قهوة مضاعفة واختفت في الضباب. في هذا الجزء الغريب من العالم تمسّك كين بصوت مرافقَته وعرف أنه ذكر، إلا أنه مموّه ولهذا مقرّز. سُرّ لأنه استبان من جديد أن الإنسان قميء كما يتصور البشر عامة. دفعت يد سميكة القهوة نحوه. شكر بأدب. ظلت اليد مستلقية للحظة ومستغربة على الطاولة،

t.me/yasmeenbook

ثم ضغطت مبسوطة على المرمر ومدّت خمستها. لماذا هذه الابتسامة الخبيثة؟ تساءل وتعاظم ارتيابه.

عندما انسحبت اليد مع الرجُل الذي ينتمي إليها، عاد سيدَ نظره. انشطر الضباب. تابع كين بنظرة شكّاكة القامة التي كانت طويلة ونحيلة مثله. توقفت عند البوفيه، التفتت وراءها وأشارت بذراع ممدودة إلى الزبون. نطقت عدة كلمات مبهمة وارتجّت ضحكاً. إلى من تتكلم؟ لم يكن هناك إنسان في محيط البوفيه. كان المحل مهملاً دنيئاً. يشاهَد خلف البوفيه جبلٌ من أسمال ملونة. كان الرواد أكسل من أن يفتحوا الخزانة ويرموا ثيابهم في المساحة بين المرآة والبار. ألا يخجلون من زبائنهم! وبدأ كين يولي اهتمامه بهؤلاء أيضاً. على كل طاولة تقريباً يجلس نديم مشعر بوجه كوجه القرد، يحدق به جاحظ العينين. في الخلفية تقهقه بنيّات عجيبات. السماء المثلى دانية جدّاً وملبّدة بغيوم رمادية لزجة. هنا وهناك تمزّق بقايا نجمة الطبقات العكرة. في عهد ما كانت السماء كلها تزهو بنجوم ذهبية. أطفأ الدخان أغلبها وأصيبت الأخريات بضمور الضوء. العالم تحت هذه السماء صغير. تسعه غرفة في فندق. إلا أنه يبدو واسعاً ومشوّشاً ما دام الضباب يخدع البصر. كل طاولة مرمر صغيرة تمثل كوكباً فرداً. أما روائح العالم الكريهة جملة فيشترك الجميع في تشكيلها. كل منهم يدخن، يصمت أو يهوي بقبضته على المرمر القاسي. من أركان صغيرة تصدر صيحات استغاثة. فجأة سمع صوت بيانو عتيق. حاول كين العثور عليه عبثاً. أين أخفوه؟ قبضايات شيوخ يرتدون المزق وعلى رؤوسهم قبعات، يدفعون بحركات مسترخية ستائر الباب الثقيلة، ينزلقون بهدوء بين الكواكب، يهدون هذا سلاماً ويهدّدون ذاك، ثم يجالسون من يرحب بهم بأقسى العبارات. تغيّرت صورة المحلّ في أقصر وقت. صارت الحركة مستحيلة. من يتجرأ على إزعاج رفيق كهذا؟ ما زال كين وحده وحيداً. خاف أن ينهض وظل حيث هو. تطاير السباب بين الطاولات هنا وهناك. وهبت الموسيقا

t.me/yasmeenbook

الناس القوة والرغبة في العراك. ما إن صمت البيانو حتى ارتدعوا إلى أنفسهم. مدّ كين يده إلى رأسه. أيّ مخلوقات هي هذه؟

هنا ظهرت بجانبه حدبة عملاقة وسألت ما إن كان يسمح له بالجلوس. أشرف عليه كين بنظرات واهنة. أين هو الفم الذي يتكلم منه؟ وإذ بصاحب الحدبة، قزمٌ، يقفز على كرسي نحو الأعالي. اتخذ جلسة صحيحة وصوّب زوجاً من العيون الواسعة، الملانخولية نحو كين. ذروة الأنف شديد التقوّس في نقرة الذقن. لا جبين، لا أذنان، لا رقبة، لا بدن. هذا الإنسان يتألف من حدبة، أنف هائل وعينين سوداوين، هادئتين وحزينتين. ظل ساكتاً. لا بد أنه ينتظر مفعول مظهره. اعتاد كين على الظرف الجديد. بغتة سمع صوتاً خشناً يسأل من تحت الطاولة:

"كيف أخبار الشغل؟"

نظر نحو ساقيه، حيث جار الصوت: "هل أنا كلب؟"، فأدرك أن القزم هو من يحدّثه. لكنه لم يعرف ما الذي سيقوله عن العمل. تفحّص أنف الصغير الذي وشى له بالارتياب. وبما أنه ليس رجل أعمال اكتفى برفع كتفيه قليلاً. ولدت لا مبالاته انطباعاً عميقاً.

"اسمي فيشرله[1]". نقر الأنف على سطح الطاولة. كبر في عين كين اسمه، فلم يسرّ به واكتفى بانحناءة جامدة قد تفسّر بالرفض أو القبول. قرّر القزم أن يأخذ بالتفسير الثاني. أظهر ذراعين طويلتين كذراعي الجيبون ومدّهما نحو حقيبة كين. دفعه محتواها على الضحك. وبرهن أخيراً على وجود الفم، بزاويتين ترتجّان على يمين الأنف ويساره.

"كار الورق؟ معي حقّ؟"، نعق ورفع ورق التغليف الملفوف بكل عناية. انفجرت كل الدنيا تحت السماء في صهيل موحّد لمرأى هذا المشهد. ودّ كين، الذي يدرك المغزى الأعمق لورقه، لو يصرخ: "صفاقة!" ويستلّه

---

1) فيشرله، هي صيغة التحبب أو الاستصغار لاسم فيشر، بمعنى الصياد، صياد السمك.

t.me/yasmeenbook

من يد القزم. بدت له هذه وحدها، على كل جسارتها، جريمة عملاقة. وكي يكفّر عنها أبدى وجهاً تعيساً ومحتاراً.

لم يكفّ عنه فيشرله. "خبر جديد يا ناس، خبر جديد. عميل أخرس!". لوّح بالورق بين أصابعه المقوسة وكسّره في عشرين موضعاً على الأقل. شعر كين بالألم يخز قلبه. فالأمر يتعلق بنقاء مكتبته. لو أنه يجد وسيلة لإنقاذها. وقف فيشرله على كرسي، وبهذا صار بطول كين الجالس، وراح يغنّي بصوت صدّاح: "أنا الصياد وهو السمكة" وهو يضرب مع كل حرف صوتي بالورق على حدبته ومع كل "هو" على أذني كين الذي حافظ على هدوئه بكل صبر. عليه أن يسرّ بأن القزم العنيف لم يقتله. بدأ سلوكه يؤلمه. لقد دُنّست المكتبة. وأدرك أن المرء مفقود هنا دون كار. استغلّ الاستراحات الطويلة بين الحروف الصوتية و"هو"، نهض، انحنى عميقاً وأعلن بحزم: "كين، كار الكتب!".

قطع فيشرله نشيده قبل "هو" التالية وجلس. كان راضياً عن نجاحه. انسحب متكوّراً في حدبته وسأل بخنوع لا حدود له: "تلعبون شطرنج؟!". عبّر كين عن عميق الأسف.

"إنسان ما يلعب شطرنج، ما هو إنسان. أنا أسمّيها الحذاقة أنا. حتى لو كان الواحد طوله أربعة أمتار، لازم يعرف يلعب شطرنج، وإلا يكون حمار. أنا ألعب شطرنج. وأنا لهذا لست حمار. والآن أسألكم أنا، إذا تحبّون ردّوا عليّ، وإذا ما تحبّون لا تردّوا علي. لماذا الإنسان عنده رأس؟ أنا أقولها لكم بنفسي، وإلا كسرتم رأسكم، وسيكون خسارة. الرأس لأجل الشطرنج. تفهموني؟ إذا قلتم نعم، انتهينا. وإذا ما قلتم نعم، سأعيدها عليكم مرة أخرى، لأنكم أنتم أنتم. قلبي على ناس كار الكتب. وأنبّهكم، أنا تعلّمته وحدي، ما من الكتب. وبرأيكم، من هو البطل هنا، في كل المحل؟ أراهن أنكم لن تعرفوا. أنا سأكشف لكم الاسم. البطل اسمه فيشرله ويجلس على نفس طاولتكم. ولماذا جلس معكم؟ لأنكم إنسان سافل. والآن ربما تظنون

t.me/yasmeenbook

أني أندلق على السافلين. غلط، غباء، غير صحيح. هل يمكنكم تتصوروا جمال زوجتي؟ هكذا شيء فريد ما شاهدتموه طوال عمركم. لكن، أسأل أنا، من يملك الحذاقة؟ أنا أقول الإنسان السافل يملكها. ولماذا يحتاج واحد يده خفيفة للحذاقة؟ زوجته تكسب له الفلوس، لا يحب لعب الشطرنج لأنه لازم ينحني وقتها على اللعبة وممكن يضرّ بجماله، وماذا يطلع منه بالنتيجة؟ الإنسان السافل يحتكر كل الحذاقة. خذوا مثلاً أبطال الشطرنج. كلّه سافل. تفهم عليّ، لمّا أشوف إنسان مشهور في المجلات المصورة، يكون هكذا حلو، أقول لنفسي فوراً: فيشرله، فيه شيء غير مزبوط. يكون أخذتم صورة غلط. إيه، ماذا تتصورون مع كل هذه الصور وكل واحد يظن نفسه إنسان مشهور؟! إلى أي مدى تصل مثل هذه الجريدة؟ المجلة المصورة أيضاً ليست أكثر من إنسان. لكن هل تعرفون ما هي المعجزة؟ هي أنكم لا تلعبون شطرنج. أهل كار الكتب كلهم يلعبون شطرنج. وهل هذا شيء عجيب من أهل كار الكتب؟ الرجل يأخذ معه علبة الشطرنج ويتعلم المباراة على الغائب. لكن هل تظنون أن أحد غلبني لهذا. ولا واحد من كار الكتب، طالما أنتم منهم، هذا إذا كنتم منهم."

هنا كانت الطاعة والسمع واحداً لدى كين. منذ أن بدأ الصغير يتحدث عن الشطرنج تحول إلى أكثر اليهود براءة في العالم. لم ينقطع عن الكلام، أسئلته استنكارية، لكنه يردّ عليها بذاته. ينطق بكلمة شطرنج كأنه يصدر أمراً، كأن نقلة "مات" القاتلة خاضعة لمشيئته وحده. اعتبر صمت كين، الذي هيّجه في البداية، علامة اهتمام وداهنته.

أثناء اللعب كان شركاؤه يخشون جداً من إزعاجه بالتعليقات، لأنه ينتقم منهم انتقاماً رهيباً ويعرّض نقلاتهم الطائشة لقهقهة الجمهور. ويعاملونه، خلال الاستراحات بين المباريات، فقد قضى نصف حياته على رقعة الشطرنج، معاملة تتناسب طرداً مع قطعته. كان يودّ اللعب دون انقطاع، يحلم بحياة يؤدي فيها واجبات الأكل والنوم خلال نقلات الخصوم. وحين

t.me/yasmeenbook

ينتصر ستّ ساعات متواصلة بمنتهى السهولة ويجد بالمصادفة مرشحاً آخر للهزيمة، تدخل امرأته وترغمه على التوقف؛ وإلا يبدو لها مغروراً كثيراً. لا يبالي بها كأنها قطعة حجر. التزم بها لأنها تطعمه. لكن حين تقطع عليه سلسلة انتصاراته، يرقص حواليها غاضباً ويضربها في المواقع الحساسة القليلة من جسدها المتبلد. تبقى ساكنة وتدعه يفعل بها ما يشاء رغم كل قوتها. فالضربات هي التعبير الوحيد عن لمسات الزوجية الرقيقة التي يمنحها إياها. فقد كانت تحبه وهو طفلها. والشغل يحول بينها وبين غيره. كانت تتمتع ببالغ الاحترام في مجمع السماء المثلى لأنها الوحيدة بين البنات الفقيرات والرخيصات التي لديها زبون ثابت، عجوز يتردّد عليها كل اثنين بوفاء لا ينقطع. ويطلقون عليها بسبب هذا الدخل الآمن لقب المتقاعدة. يهلّل الزبائن خلال نزالاتها الكثيرة مع فيشرله، لكن لا أحد يجرؤ على اعتراضها والبدء بمباراة جديدة. وفيشرله يضربها لأنه واثق من هذا. كان يشعر بالرقة حيال زبائنها ما دام حبّه الشطرنج ترك بعض الرقة في قلبه تجاه غيره. وما إن تتنحّى مع أحدهم حتى يبدأ بالرقص فرحاً على الرقعة. وهو صاحب الامتياز في المجهولين الذين تقودهم المصادفة إلى المحل. يتوقع في كل منهم بطلاً كبيراً قد يتعلم منه شيئاً. ويعرف بداهة أنه سيغلبه رغم هذا. وبعد أن تنتهي كل خططه، يقود الزبون إلى زوجته، ليرتاح منها قليلاً. وينصح كلاًّ منهم سرّاً، لأن قلبه على كل كار، أن يقضي عدة ساعات فوق مع المرأة قائلاً إنها ليست سيئة وتعرف كيف ترضي الرجل الأنيق، لكنه يرجو ألا يخونه، فالشغل شغل وهو يعمل ضد مصالحه الذاتية.

سابقاً، قبل سنوات كثيرة، عندما لم تكن الزوجة متقاعدة بعد ولا تسمح لها الديون المتراكمة بأن ترسله إلى المقهى، كان على فيشرله، عندما تستقبل زوجته أحد زبائنها في مخدعها الضيق، أن يختبئ تحت السرير رغم حدبته. وهناك يصغي بكل عناية إلى كلمات الرجل - كلمات زوجته

t.me/yasmeenbook

سيّان عليه – ويشعر من فوره ما إن كان لاعب شطرنج أم لا. حين يتيقّن، يزحف لحظة قضاء الأمر من تحت السرير بأقصى سرعة – وغالباً ما يوجع حدبته كثيراً- ويدعو الرجل المباغَت إلى مباراة شطرنج. كان بعض الرجال يوافقونه إذا راهن على نقود، متوخّين أن يستعيدوا من اليهودي القذر، النقود التي أهدوها للمرأة نزولاً عند إرادة قوة عليا. يعتقدون أن الغلبة لهم، وإلا لما تورّطوا. لكنهم يخسرون المبلغ ذاته مرة أخرى. وأغلبهم يرفضون طلب فيشرله تعباً، أو ارتياباً أو سخطاً. لم يفكّر أيٌّ منهم من أين خرج فجأة. إلا أن ولع فيشرله نما مع السنين. صار يصعب عليه المرة تلو الأخرى أن ينتظر طويلاً. كثيراً ما توحي له سلطة قاهرة فجأة بأن فوقه بطلاً عالمياً متنكراً. فيظهر مبكّراً جدّاً جانب السرير، يربت بأصابعه، أو بأنفه، على كتف الشخصية المشهورة، حتى يرى هذا القزمَ خلافاً لتوقعاته عن حشرة لسعته، ويدرك مبتغاه. وكان هذا مزعجاً لجميع الأطراف، ولا يوجد أحد إلا واستغل الفرصة لطلب استعادة نقوده. وبعد أن تكرّر هذا كثيراً – بل إن تاجر ماشية طلب الشرطة – أخذت المرأة قراراً قطعياً بإجراء تغييرات جذرية، وإلا لاضطرّت أن ترتبط بقبضاي آخر. أُرسِل فيشرله – لحسن الحظ أو لسوئه – إلى المقهى وحظر عليه المجيء إلى البيت قبل الساعة الرابعة فجراً. بعد ذلك بقليل استوطن سيد الاثنين المتمكّن وانتفت بذلك الحاجة الماسة. كان يقضي الليل بكامله معها. ويجده فيشرله عندما يعود إلى البيت حيث يرحب به ذاك بلقب "بطل العالم"، معتبراً أنها مزحة مضحكة – في الأثناء بلغ عمرها ثماني سنوات – إلا أن فيشرله يعتبرها استهانة. حين يكون السيد، الذي لا يعرف أحد كنيته ويتحفظ حتى على اسمه الأول، راضياً كل الرضا، يسمح للصغير أن يغلبه في مباراة، بأقصى سرعة من باب الشفقة. فقد كان السيد من أولئك الذين يفضلون الانتهاء من كل الشؤون الفائضة بأقصى سرعة ويكون، حين يغادر المخدع، قد انتهى من الاثنين، الحب والشفقة، لمدة أسبوع. بهزيمته أمام فيشرله

t.me/yasmeenbook

يوفر على نفسه القروش التي سيخصّصها في محلّه، يحتمل أن يخصّصها، للمتسوّلين، فقد علّق على بابه لوحة تقول: هنا لا نعطي للشحاذين.

أما فيشرله فكان يكره كل الكره صنفاً معيناً من البشر على الأرض، وهؤلاء هم أبطال العالم في الشطرنج. كان يتابع جميع المباريات المهمة التي يراها في الجرائد والمجلات بنوع من السعار. ويحتفظ بكل نقلة من نقلاتها في رأسه لسنوات طويلة. وكان من الهيّن عليه البرهان أمام أصدقائه على تفاهة تلك الأسماء الكبيرة خلال البطولات المحلية التي يخرج منها خروج الأبطال دون منازع. يُري منافسيه، الذين يثقون بذاكرته دون أيّ تحفّظ، ما جرى في هذه البطولة أو تلك. وما إن يبلغ إعجابهم بتلك المباريات درجة تعكّر صفوه، حتى يبتدع نقلاتٍ خاطئة، لم تحدث، ويتابع المباراة كما عنّ له. وبسرعة تحل الكارثة التي يعرف الجميع على رأس من تصبّ، وللأسماء هنا قداستها. تعلو الأصوات معلنة أن هذا تماماً ما كان سيجري لفيشرله أثناء البطولة. لا يلحظ أحد خطأ المهزوم. فيبعد فيشرله كرسيه عن الطاولة بحيث لا تطال أصبعه الممدودة القطع إلا بصعوبة. وهذه كانت طريقته في التعبير عن الاحتقار، لأن محيط الفم، حيث يعبر البشر عادة عن شعورهم هذا، مختفٍ بشكل شبه تام تحت الأنف. ثم ينعق: "أعطوني منديل! أنا أربح اللعبة وعيوني مغمضة". إن كانت زوجته حاضرة، فإنها تعطيه شالها المتسخ. ما كان يحقّ لها أن تحبط انتصاراته البطولية التي تجري مرة كل عدة شهور، وكانت تعلم هذا علم اليقين. وإن لم تكن في المحل، تضع إحدى البنات يديها على عيني فيشرله. بسرعة وثقة يعيد المباراة نقلة نقلة ويتوقف هناك، حيث جرى الخطأ. وهنا كانت انطلاقة احتياله. وباحتيال ثانٍ يقود الطرف الآخر بالصفاقة نفسها إلى النصر. يتابعه الجميع مكتومي الأنفاس. يدهش الجميع. تربت البنات على حدبته ويقبّلن أنفه. القبضايات، الجميلون بينهم أيضاً والذين لا يفقهون شيئاً في الشطرنج، يهوون بقبضاتهم على مرمر الطاولات ويعلنون بسخط

t.me/yasmeenbook

حقيقي، إنه من النذالة ألا ينال فيشرله بطولة العالم. ويعلو صراخهم فتعود البنات للميل نحوهم فوراً. وكلّ هذا سيّان عند فيشرله. يتظاهر وكأن كل هذا التمجيد لا يعنيه بشيء ويكتفي أن يلاحظ بجفاء: "ما لكم بالحكي. أنا شيطان فقير. لو أعطاني أحد الكفالة اليوم، أكون غداً بطل العالم". "اليوم قبل الغد"، يصرخ الجميع وعند هذا الحد ينتهي التشجيع.

كان فيشرله يتمتع بامتياز خاص تحت قبة السماء المثلى بفضل صفته كعبقري شطرنج مغمور؛ والسيد الثابت لزوجته، المتقاعدة. يحقّ له أن يشقّ جميع مباريات الشطرنج من المجلات ويحتفظ بها، رغم أن هذه تمنح بعد عدة شهور لمحل آخر، أكثر قذارة، بعد أن تكون قد مرّت بين مئات الأيدي. غير أن فيشرله لم يكن يحتفظ بالوريقات المربعة، إنما يمزّقها قصاصات قصاصات ويرميها متقزّزاً في المرحاض. كان يخاف خوفاً جحيمياً من أن يطالبه أحدهم بمباراة. هو ذاته لم يكن مقتنعاً قطّ بقيمته. كانت النقلات الحقيقية التي يخفيها تدفع في رأسه المتواضع أفكاراً مريرة. ولهذا كان يكره أبطال العالم كرهه للطاعون.

بدأ يقول لكين: "ماذا تتصورون، لو كان عندي منحة. الإنسان دون منحة مكرسح. أنا أنتظر منحة منذ عشرين سنة أنا. تتصورون أني أريد شيء من زوجتي أنا؟ أريد منها الراحة أنا، وأريد منها المنحة أنا. قالت لي، اقعد عندي، وأنا بعد ولد صغير أنا. قلت لها أنا، ما حاجة فيشرله لامرأة. قالت لي: كل ما تريد ولم تتركني بحالي. ماذا أريد أنا؟ أريد منحة أنا. لا شيء يطلع من لا شيء. أنتم أيضاً ما تبدؤون شغل دون رأسمال. كار الشطرنج هو أيضاً كار، ولماذا لا يكون كار؟ أين يوجد شيء، شيء ما هو كار؟ قالت لي: طيب، إذا قعدت معي تأخذ المنحة. والآن أسألكم أنتم أنا، هل تفهمون شيء؟ تعرفون ما معنى منحة؟ أنا أقولها لكم أنا بجميع الأحوال. إذا كنتم تعرفون سلفاً، فلا ضرر، وإذا كنتم لا تعرفون سلفاً، فلا ضير أيضاً. انتبهوا لي بشكل جيد. المنحة كلمة راقية. وتعني نفس الشيء مثل رأسمال اليهودي".

t.me/yasmeenbook

ازدرد كين. يا له من مكان! ازدرد وسكت. وهذا أفضل ما خطر له في بؤرة المجرمين هذه. تمهّل فيشرله قليلاً ليختبر عمل لفظة يهودي على جليسه. من يدري؟ العالم مليء بمعادي السامية. اليهودي على حذر دائم من الأعداء. الأقزام المحدودبة، وتحديداً الذين بلغوا رغم عاهتهم مبلغ القواد، مراقبون متمحّصون. لم يفُته ازدراد الآخر. فسّره على أنه اضطراب وتمسّك منذ هذه اللحظة بكين، الذي ثبتت لديه يهوديته.

"تُستخدَم في المهن الراقية فقط"، شرح منبسط السريرة وهو يعني المنحة. "بناء على وعدها المقدس انتقلت عندها أنا. تعرفون متى كان هذا؟ أقولها لكم أنتم أنا، لأنكم صديقي. كان هذا قبل عشرين سنة. من عشرين سنة وهي توفر وتوفر، لا تصرف شيء على نفسها ولا عليّ أنا. هل تعرفون ما هو الراهب؟ أكيد لا تعرفون، لأنكم يهودي، اليهود ما عندهم مثل هذا الشيء، الرهبان، ولا يهمّك، نحن نعيش مثل الرهبان، عندي فكرة أحسن أنا، ربما تفهمون هذا أكثر، لأنكم لا تفهمون أي شيء. نحن نعيش مثل الراهبات، هؤلاء نسوان الرهبان، كل راهب عنده زوجة، وهذه يسمّونها راهبة. لكن تصوروا، كل واحد منهم يعيش لحاله. مثل هذه الزيجة يتمنّاها كل واحد، لازم يعملوا مثلها عند اليهود أيضاً، أقول لك إياها أنا. ومثل ما ترى، لحد الآن ما لملمنا المنحة. احسبوها معي، لا بد أنكم تعرفون الحساب على الأقل. الآن تعطون أنتم عشرين شيلينغاً. ما كل واحد يعطي نفس المقدار. أين تجدون اليوم ناس نبلاء؟ من أين يستطيع الإنسان أن يأتي بهذه البلاهة؟ أنتم صديقي. تقولون لنفسكم، أيها الإنسان الطيب، وأنتم إنسان طيب، لازم فيشرله يأخذ منحته. وإلا انتهى في الحضيض. هل أسلم فيشرله للدرك الأسفل؟ لا، هذه خسارة كبيرة. وماذا أعمل؟ أهدي المرأة العشرين شيلينغاً، هي تأخذني معها وصديقي يفرح. أنا أعمل كل شيء لأجل الصديق. سأبرهن لكم على هذا. اجلبوا امرأتكم، والمنحة عندي، تقولون، وأنا أعطيكم كلمتي، أنا

t.me/yasmeenbook

ما غدّار. هل تتصورون أني أخاف من امرأة أنا؟ وماذا تقدر هذه تعمل؟ هل عندكم امرأة؟"

هذا كان أول سؤال يتوقع فيشرله جواباً له. كان واثقاً من وجود المرأة التي يسأل عنها ثقته من حدبته. إلا أنه كان يتحرّق لمباراة جديدة، فهو مراقب منذ ثلاث ساعات ولا يطيق هذا. يودّ أن يصل بالنقاش إلى نتيجة عملية. صمت كين. فماذا عليه أن يجيب؟ المرأة هي نقطته الحسّاسة التي لا يعرف أن يقول شيئاً حقيقياً بصددها مهما حاول. فقد كان، كما هو معلوم، لا متزوجاً، ولا عزباً ولا مطلّقاً. "هل عندكم امرأة؟" سأل فيشرله للمرة الثانية. لكن بنبرة تهديد هذه المرة. اشتدّ عذاب كين في البحث عن الحقيقة. هنا أيضاً حدث له ما حدث له مع كار الكتب. الضرورة أم الكذب؟ "ما عندي امرأة"، ادّعى بابتسامة تجلّى فيها جدبه الشديد. فإذا اضطرّ للكذب فليكن مقبولاً. "إذاً أعطيكم تباعي"، انفجر فيشرله. لو كان لكار الكتب امرأة لاقترح فيشرله اقتراحاً آخر: "إذاً عندي ما تغيّر به الزيت"، لكنه هنا نعق نعيقاً عبر المحل: "تجيئين وإلا ما تجيئين؟!"

وجاءت. كانت طويلة، سمينة ومدوّرة، عمرها نصف قرن. قدّمت نفسها بأن أشارت إلى فيشرله بكتفها، وأضافت بمسحة من الاعتزاز: "زوجي". نهض كين وانحنى لها عميقاً. كان مرعوباً؛ تحديداً مما سيلي. قال بصوت عالٍ: "لي الشرف!" وبصوت خفيض، خفيض بحيث لا يسمع: "اسمي ميتسه[1]". فقال فيشرله: "والآن اقعدي!". وأطاعت. وصل أنفه إلى صدرها، استند الاثنان على الطاولة. فجأة بدأ الصغير وانطلق بعجلة كأنه نسي أهم شيء: "كار الكتب".

عاد كين إلى الصمت. كان مقرّزاً للمرأة الجالسة إلى الطاولة. قارنت عظامه بحدبة زوجها ووجدت أن هذه جميلة. أرنبها لا يتوقف عن الحكي ولا

---

1) ميتسه، Metze، كلمة لها عدة معاني، بينها المومس، "البنت الخفيفة"، كما أنها مقياس للحجوم.

t.me/yasmeenbook

يعرف السكوت. حتى إنه كان يتحدث معها هي أيضاً في السابق. وهي الآن عجوز في عينه. معه حقّ، لكنه لا يمشي مع غيرها. إنه ولد طيب النفس. يعتقد الجميع أنه ما زال بينهما شيء ما. البنات صديقاتها طامعات فيه. الحريم مزيّفات. وهي لا تعرف هذا الزيف. الرجال أيضاً كذّابون. فيشرله يمكن الوثوق به. وقبل أن يرتبط بحرمة، يعلمها، ويُفضّل ألا يكون على علاقة بأي واحدة. هي موافقة على أي أحد، ولا تحتاج لهذا. لكن لا يحقّ له أن يعلن هذا لإحداهن. إنه قنوع. ولا يطالبها بأي شيء. لو أنه فقط ينتبه لقفطانه أكثر. أحياناً يظن الناس أنه خرج لتوه من علبة الخراء. وقد حدّد الأرنب مهلة نهائية للعصفورة: سينتظر الدراجة النارية التي وعدته بها، وإذا لم تصل خلال سنة، فإنه يخرى عليها، ويمكنها وقتئذٍ أن تبحث لنفسها عن رجل آخر. وهي الآن توفر وتوفر لكن من أين تجمع ثمن دراجة نارية. لن يفعل بها أرنبها ما يهدّد به. والعيون الحلوة، كم هي حلوة عيونه! وهل يتحمل هو ذنب الحدبة؟

كلّما دبّر لها فيشرله زبوناً، تشعر أنه يريد التخلص منها وتكنّ له الامتنان على حبّه. بعد ذلك يكون عزيز النفس جدّاً. كانت في العموم مخلوقاً قنوعاً لا يعرف من الكراهية إلا القليل رغم حياتها الكريهة. وهذا القليل ينصبّ على رقعة الشطرنج. فبينما تعلمت البنات الأخريات مبادئ اللعب بعد إقامة قصيرة، ظلّت طوال عمرها لا تفهم لماذا تنتقل قطع الشطرنج بخطوات مختلفة. تستنكر ضعف الملك وتودّ لو تقتل الحرمة الغليظة، الملكة. لماذا يحقّ لها أن تفعل ما تريد ولا يحقّ للملك؟ غالباً ما كانت تشاهد المباراة متوترة. ويعتقد أيّ مشاهد غريب من قسماتها أنها لاعبة متمكنة. وهي في الواقع لا تنتظر سوى سقوط الملكة. ما إن تقع هذه حتى تطلق صيحة نصر وتغادر الطاولة من فورها. كانت تشارك زوجها في كراهية ملكة الخصم، بينما تغار من الحب الذي يعامل به ملكته. صديقاتها، وهن أكثر استقلالية منها، يضعن أنفسهن على ذروة الهرم الاجتماعي،

t.me/yasmeenbook

ويلقّبن الملكة بالقحبة والملك بالقواد. كانت المتقاعدة هي الوحيدة التي تتمسّك بالهرم الواقعي للأمور، الذي صعدت أولى درجاته بفضل سيدها الثابت. هي التي تملك ناصية كل النكات البذيئة، لا تشارك في التهجّم على الملك. أما بالنسبة لملكة الشطرنج فترى أن كلمة قحبة بذاتها كبيرة عليها. تعجبها القلاع والأحصنة أكثر لأنها تبدو واقعية، وتنطلق بصوتها الهادئ الكسير في ضحكة جميلة عندما يكتسح حصانا فيشرله الرقعة خبباً. بعد عشرين سنة من انتقاله مع رقعته للسكن معها ما زالت تسأله أحياناً بكل براءة، لماذا لا تبقى القلاع في الزوايا كما في بداية اللعب، لأنها هنا أكثر جمالاً. يبصق فيشرله على عقل الحريم ولا يعلّق. حين تثقل عليه بأسئلتها – فهي تريد أن تسمعه يقول أي شيء، كانت تحب نعيقه، فليس لأحد غيره صوت يشبه صوت الغراب – يسدّ فمها بأحد طلباته العنيفة: "عندي حدبة وإلا ما عندي؟ وأيّ حدبة عندي أنا! يمكنك أن تتزحلقي عليها. يمكن يصير عندك قليل من العقل". كانت حدبته تؤلمها وتفضّل ألا تتحدث عنها أبداً. كانت تشعر بأنها تتحمل جزءاً من الذنب في عضو طفلها المشوّه. وما إن اكتشف هذه العلامة، التي تبدو لها جنونية، حتى عرف كيف يستغلّها. كانت حدبته أخطر تهديد بيده.

وفي تلك اللحظة تماماً كانت تنظر إليها بودّ. الحدبة هيبة، أما الهيكل العظمي فلا شيء. فرحت بدعوته لها إلى طاولته. ولم تبذل أيّ جهد مع كين. صمت الجميع وبعد عدة دقائق سألت: "والآن، ماذا؟ كم تهديني؟!". احمرّ كين. قرّعها فيشرله: "لا تحكي هذا الحكي الغبي. لا أسمح بإهانة صديقي. عنده حذاقة. لا يحكي شروي غروي. هو يفكّر في كلّ كلمة مئة مرّة. وإذا قال شيء فإنه يقول شيء عليه القيمة. تهمّه منحتي وسيساهم بعشرين شيلينغاً طواعية.". "منحة؟ ما معنى منحة؟". هاج فيشرله: "منحة! كلمة راقية. وتعني نفس الشيء مثل رأسمال اليهودي". "ومن أين لي برأسمال؟". لم تفهم المرأة حيلته ولماذا ألبسها بكلمة غريبة؟

t.me/yasmeenbook

كل ما يهمّه هو أن يكون الحقّ معه. نظر إلى المرأة نظرة عميقة وحادة وأشار بأنفه إلى كين، وشرح لها برحابة صدر: "هو يعرف كل شيء". "نعم، وماذا يعرف؟". "إننا نوفر معاً لأجل الشطرنج". "ما يخطر لي على بال أبداً. أنا أصلاً ما أكسب كثير مصاري. لا أنا عصفورة ولا أنت أرنب. وأنا ما فائدتي منك؟ ما يطلع لي منك إلا الخراء. تعرف ما أنت؟ أنت واحد مكرسح. وإذا ما أعجبك الكلام، تقدر تضرب رأسك بالحائط". وأعلنت كين شاهداً على هذا الظلم الصارخ إلى السماء: "هذا واحد وقح، أقولها لكم. لن يصدقني أحد. مثل هذه العاهة. لازم أصلاً يكون فرحان بأني أنا عائشة معه".

ازداد فيشرله صغراً، أعلن خسارته وقال متوجّهاً إلى كين بحسرة: "لحسن حظكم أنكم غير متزوج. بقينا نوفر معاً طوال عشرين سنة كل قرش، والآن بعزقت كل المنحة مع صاحبها". أفقدت هذه الكذبة الفاضحة المرأة قدرتها على الكلام. وما إن تحكمت بأعصابها حتى صرخت: "طوال عشرين سنة ما رحت مع رجل ثاني غيره". مستسلما بسط فيشرله راحته في وجه كين: "قحبة، وما كان لها علاقة مع رجل". ومع كلمة قحبة رفع حاجبيه. إثر هذه الكلمات انطلقت المرأة في العويل. غدت كلماتها غير مفهومة، لكن يتوقع السامع أنها تولول على راتب تقاعد ما. استجمع فيشرله شجاعته: "شوفوا، الآن تعترف هي نفسها بكل شيء. ومن أين تتصورون لها التقاعد؟ من سيد يجيء كل اثنين. وفي شقتي أنا. تعرفون ماذا، الحرمة لازم تحلف كذب، ولماذا لازم تحلف الحرمة كذب؟ هل أقدر أنا أحلف كذب؟ مستحيل. ولماذا؟ لأننا نحن الاثنين عندنا حذاقة. هل شفتم مرة حذاقة تكذب؟ أنا لا." وعلا عويل المرأة أكثر.

وافقه كين من كل قلبه. لرعبه لم يتساءل قط ما إن كان فيشرله يكذب أم يقول له الحقيقة. منذ أن جالستهما المرأة، كان كل لفظ ضدّها خلاصاً له، سواء من أين جاء. ومنذ أن طلبت منه هدية أدرك من يقابله: تيريزه ثانية. لم يفهم سوى القليل من آداب المكان، لكن أمراً واحداً اتضح له

t.me/yasmeenbook

كل الوضوح: إن ذهناً محضاً في جسد بائس يسعى منذ عشرين عاماً أن يتعالى على قذارة محيطه. وتيريزه لا تسمح بهذا. إنه مرغم على أن يقدم تنازلات لا حدود لها، واضعاً نصب عينيه هدف الذكاء المستقل. وبالثبات نفسه تجرّه تيريزه نحو القذارة كلما وجد منفذاً. إنه يوفر، لا من باب التفاهة، إنما لأنه شخصية واسعة الأفق، وهي تبذّر كل ما جمعه كي لا ينفذ منها. لقد أمسك بذيل رقيق من ذيول عالم العقل ويتمسك به بقوة من يغرق. الشطرنج مكتبته. إنه لا يأتي بلفظة الكار إلا لأن كل لغة أخرى محظورة هنا. لكن تقديره العالي لكار الكتب ذو دلالة. يتصور كين الصراعات التي يخوضها هذا الإنسان المنصرف عن الحياة في سبيل شقته. يأخذ معه كتاباً ليقرأه سرّاً في البيت وهي تمزقه فيتفاقم الشجار. ترغمه على أن يتخلى لها عن شقته لغاياتها المنحطّة. وربما تدفع لخادمة، لجاسوسة، لتحرص على نقاء الشقة من الكتب، حين لا تكون في البيت. الكتب ممنوعة، تقلبات حياتها مسموحة. تمكّن بعد صراعات مديدة من إنقاذ رقعة شطرنج من براثنها. لقد قصرت حياته على أصغر رقعة في الشقة. هناك يقضي لياليه الطويلة مستمدّاً كرامته الإنسانية من القطع الخشبية. ولا يشعر بجزء من الحرية إلا حين تستقبل أولئك الزوار. ففي مثل هذه الحالات فقط تنساه. يجب أن تصل بها الأمور إلى هذه الدرجة حتى تكفّ عن تعذيبه. لكنه حتى في تلك اللحظات يصيخ السمع خشية أن تباغته وهي مخمورة. تفوح منها رائحة الكحول. تدخن، تدفع الباب على مصراعيه وترفس رقعة الشطرنج بقدميها الخرقاوين. يبكي السيد فيشرله مثل طفل صغير، فقد كان قد وصل في تلك اللحظة إلى أهم فقرة من كتابه. يجمع الحروف المتناثرة ويشيح بوجهه كي لا تفرح بدموعه. إنه بطل صغير. ذو شخصية قوية. كم كادت شفتاه تنطقان بكلمة "مومس"، لكنه يحبسها، لأنها لن تفهم. لم تطرده من شقته لأنها منذ زمن بعيد تنتظر الوصية التي عليه أن يكتبها باسمها. أغلب الظن أنه يملك القليل، لكن

t.me/yasmeenbook

حتى هذا القليل كفاية كي تنهبه. وهو لا يفكر أساساً أن يضحّي لها بآخر ما يملك. يدافع عن نفسه وبهذا يحافظ على سقف فوق رأسه. لو أنه يعرف أنه يدين بهذا السقف لتخميناتها عن الوصية! يجب ألا يباح له بهذا وإلا تألم. إنه لم يُقدّ من الغرانيت. إن هيكله القزم ....

لم يسبق لكين أن شعر بمشاعر إنسان بكل هذا العمق. تمكّن هو من التحرر من تيريزه: لقد ردّ عليها بسلاحها، احتال عليها وحبسها. وها هي ذي الآن فجأة تجالسه، تتطلّب كما في السابق، تتشاجر كما في السابق، وتمكّنت أخيراً من ممارسة مهنة تلائمها، وهذا هو الوجه الجديد الوحيد فيها. إلا أن قواها التدميرية لا تنصبّ عليه هو، فهي لا تلقي له أيّ بال، بل تنصبّ على الرجل قبالتها، هو الذي شوّهته الطبيعة من حيث لا يدري بسبب طفرة بذيئة. يدين كين لهذا الإنسان بالكثير. وعليه أن يجترح شيئاً ما لأجله. إنه يوقره. لو لم يكن السيد فيشرله بكل هذا السمو لعرض عليه نقوداً. لا بد أنه يحتاجها. لكنه لا يرغب قط في إهانته، تماماً كما لن يخطر له أن يهين نفسه. ربما عرض عليه لو عادا إلى ذلك الحديث الذي قطعته تيريزه بسفاهة الأنثى.

أخرج المحفظة التي ما زالت تضجّ بالأوراق النقدية. احتفظ بها في يده طويلاً، ثم استلّ منها، خلافاً لعادته، كلّ الأوراق النقدية وعدّها بطمأنينة. سيقتنع السيد فيشرله، بمرأى النقود، بأن ما اقترحه عليه قبل قليل ليست بتلك التضحية العظيمة. حين وصل في العدّ إلى الورقة الثلاثين من فئة المئة شيلينغ نظر كين إلى الصغير أسفله. فربما وصل إلى مقدار من القناعة بحيث يجرؤ المرء على تقديم الهدية، فمن يسرّ بعدّ النقود؟ استرق فيشرله النظرات حوله. يبدو أنه لا يهتم فقط بالرجل الذي يعدّ. ولا بد أن هذا يعود إلى رقة مشاعره وعزوفه عن المال القذر. لم تسكن حماسة كين وواصل العد، لكن بصوتٍ عالٍ، واضح وجليّ. اعتذر في سرّه من الصغير عن إلحاحه، فهو يلاحظ كم يؤلم أذنيه. تأرجح القزم

t.me/yasmeenbook

قلقاً في كرسيه. وضع رأسه على الطاولة. بذلك سدّ على الأقل إحدى أذنيه، ذلك الإنسان الحساس، ثم بدأ يشدّ صدر زوجته، ماذا يفعل، إنه يمطّ الصدر أكثر، هو العريض كفاية، يمنع على كين المشهد. دعته المرأة يفعل ما يشاء، كما أنها توقفت هي الأخرى عن الكلام. لا بد أنها أيضاً طامعة في النقود. هيهات! لقد أخطأت حساباتها. تيريزه لن تحصل على قرش واحد. عند الرقم خمسة وأربعين وصلت عذابات الصغير إلى أقصى مراتبها. همس متضرعاً: "هس، هس!". رقّ قلب كين. هل عليه أن يتخلى عن الهدية، فهو بالنتيجة لا يستطيع إرغامه، لا، لا، سيسرّ بها لاحقاً، ربما هرب بها وتخلّص من تيريزه. عند الرقم ثلاثة وخمسين أمسك فيشرله وجه زوجته ونعق كالممسوس: "ما تقدرين تهدئي؟ ماذا تريدين يا غبية، أنت ماذا يفهمك بالشطرنج؟ يا بقرة. لقد أكلتك أنت! ديري وجهك ...". كان يقول شيئاً جديداً مع كل رقم. بدت المرأة مجنونة وتأهبت للذهاب. لم يلائم هذا كين. يجب أن تكون حاضرة وهو يهدي الصغير هديته. يجب أن تحتقن لأنها لن تنال شيئاً، وإلا لن يفرح زوجها. المال وحده لا يسعده كثيراً. عليه أن يسلّمه إياه قبل أن تهرب.

انتظر عدداً صحيحاً - كان التالي هو الستين - وتوقف عن العد. نهض وأمسك ورقة من فئة مئة شيلينغ. كان يفضل أن يأخذ منها عدة أوراق في يده إلا أنه لا يود إهانة القزم لا بمبلغ طائل ولا بزهيد. ظل واقفاً، طويلاً وصامتاً، كي يصخب الاحتفاء بمقصده. ثم تكلم وكانت هذه ألطف الكلمات طوال حياته:

"السيد فيشرله الموقر! لا يسعني قطّ أن أخفي رجاء أتوخّاه من سماحتكم. امنحوني شرف تقديم هذه المساهمة الصغيرة في منحتكم، كما تسمّونها، وقبولها مني!".

عوضاً عن "شكراً"، همس الصغير: "هس، طيّب، طيّب!". وتابع الصراخ بوجه زوجته، يبدو أنه كان مضطرباً. كادت نظراته وكلماته الغاضبة

t.me/yasmeenbook

ترميها عن الطاولة. لم يعبأ بالنقود المعروضة عليه بحيث يكاد لا ينظر إليها. وكي لا يؤذي مشاعر كين، مدّ يده وتناول الأوراق. وعوض الورقة المفردة حاصرت يده عفواً الرزمة كلها، فقد كان متوتراً لهذا الحد. طرأت ابتسامة على وجه كين. لشدة تواضعه يتصرف الإنسان مثل لصٍّ جشع. ما إن يلاحظ هذا سيخجل أشد الخجل. وكي يوفر عليه هذا الخجل، بادل كين الرزمة بورقة واحدة. كانت أصابع القزم صلبة وغير حساسة، تقبض على الرزمة، طبعاً دون إرادة صاحبها، ولم تشعر بشيء حتى عندما بدأ يستلّ الورقة تلو الأخرى من الرزمة، ثم انغلقت آليّاً على ورقة المئة شيلينغ التي ظلت وحيدة. فكر كين أن الشطرنج قسّى تلك الأصابع، فقد اعتاد السيد فيشرله على التمسك بقطعه هكذا، فهي الوحيدة التي تعطيه رمقاً من الحياة. كان قد عاد إلى الجلوس. شعر بالسعادة على عمله الخيري. وتيريزه أيضاً، بعد أن صُبّت اللعنات على رأسها، كانت قد نهضت محمرّة الوجه وغادرت الطاولة حقاً. لتذهب، لم يعد بحاجتها. خيّب آمالها. واجبها هو مساعدة زوجها على النصر وتمكّن من إحرازه.

خلال فوضى مشاعره المشبعة لم ينتبه كين لما يجري حوله. فجأة جاءت صدمة قوية على كتفه. اقشعرّ بدنه ونظر نحو الكتف. فرأى عليها يداً عملاقة وصوتاً يدوّي: "لي أيضاً تهدي شيء". منذ متى يجلس قربه نحو عشرات القبضايات؟ لم يلاحظهم قبلاً. عشرات القبضات متكومة على الطاولة، التحق بهم المزيد من القبضايات، استند المتأخرون وقوفاً على المتقدمين جلوساً. هتف صوت بُنيّة شاكياً: "أريد إلى قدّام، لا أرى شيء". وصوت آخر رنان: "أرنوب، الآن تحصل على درّاجتك". رفع أحدهم حقيبة الكتب المفتوحة عالياً، فتشها، لم يجد مالاً وزأر خائباً: "انقلع يا حمار، أنت والورق!". لم يعد المرء يرى المحلّ من كثرة البشر. نعق فيشرله. لم يطعه أحد. كانت زوجته قد عادت. نعبت. أنثى أخرى، أسمن منها بكثير، دفعت المحيطين بها يميناً ويساراً، فتحت طريقها بين

t.me/yasmeenbook

القبضايات وصاحت صيحة عظيمة: "أنا أيضا أريد شيء"، كانت مغطاة بكل أنواع الأسمال التي رآها كين عندما دخل المحل خلف طاولة البار. ارتجّت السماء. تلاحمت الكراسي. بكى صوت ملائكي؛ من فرط السعادة. عندما أدرك كين الأمر كانت حقيبته قد سُرقت منه. لم يعد يسمع أو يرى، كل ما شعر به هو أنه على الأرض وأن أيديَ مختلفة الأحجام والأوزان تنقب في جيوب حلّته، وثقوبها ودروزها. اقشعرّ كل جسده خوفاً، ليس على ذاته إنما على الرأس، فقد يخطر لهم أن يشوّشوا ترتيب كتبه هناك. ليقتلوه، لكنه لن يخون الكتب. هات الكتب! سيأمرونه، أين الكتب؟ لن يشي بمكانها أبداً، أبداً، إنه يحتضر في سبيل كتبه. شفتاه تتحركان، تريدان البوح بقوة حزمه، لكنهما لا تجرؤان على إصدار الصوت. تفكران بأنهما تقولانه.

لكن لا يخطر لأحد أن يسأله. يودّون التأكّد بأنفسهم. يسحلونه عدة مرات هنا وهناك. لن يسقط منه شيء بعد حتى لو نزعوا عنه كل ثيابه. لن يجدوا شيئاً مهمّاً، قلبوه وأداروه. فجأة يشعر أنه وحيد. اختفت جميع الأيادي. يمدّ يده خفية إلى رأسه ويتركها هناك كدرع واقٍ من الهجوم التالي. تتبعها اليد الأخرى. يحاول النهوض دون أن يرفع يديه عن رأسه. فالأعداء يتربصون هذه اللحظة ليُغيروا على الكتب العزلاء في الأعلى، حذار، حذار! يتمكن من النهوض. حظّه سعيد. تمكّن من الوقوف. أين القبضايات؟ يفضّل ألا يتطلع حواليه، ربما لاحظوه. تقع أنظاره، التي يصبّها من باب الحذر على الزاوية المعاكسة من المحل، على كومة من البشر يتساجلون بالقبضات والسكاكين. بدأ يسمع الصريخ المتداخل أيضاً. لا يريد أن يفهمهم، لأنهم قد يفهمونه آنئذٍ. يخرج متسحّباً على رؤوس أصابع رجليه الطويلتين. يلامس أحدهم ظهره. يسير حذراً كي لا يلتفت. ينظر إلى الخلف شزراً، بأنفاس مكتومة، يضغط بكل قوة يديه على رأسه، لم تكن إلا ستائر الباب. يلتقط نفساً عميقاً على الشارع. يشعر بعميق الأسف لأن المرء لا يستطيع إغلاق هذا الباب. المكتبة في أمان.

t.me/yasmeenbook

على بعد عدة مبانٍ كان القزم ينتظره. سلّمه حقيبة الكتب. قال: "الورق أيضاً فيها. لازم تعرفوا كيف أنا". كان كين قد نسي خلال أزمته وجود كائن في العالم اسمه فيشرله، ولهذا عظمت دهشته بهذا المقدار العالي من التبعية. تلعثم: "الورق أيضاً. كيف لي أن أشكركم!". لم يخب ظنه في هذا الإنسان. فأعلن الصغير: "هذا ولا شيء. تعالوا الآن بسرّية إلى باب البناية". أطاع كين. كان متأثراً من أعماقه ويودّ لو يعانق الصغير. سأل هذا ما إن أخفاهما باب البناية عن الأعين: "تعرفون ما معنى كلمة مكافأة؟ أكيد تعرفون، عشرة بالمئة. في الداخل يتقاتل الحريم مع الرجال، وأنا أنقذتها". استلّ محفظة كين وسلّمها إليه كهدية رائعة. "كنت سأكون غبيّاً! تعتقدون أني أدخل الحبس بسببهم". كان كين قد نسي النقود أيضاً منذ أن صار كنزه الحقيقي في خطر. ضحك بصوت عالٍ لكل هذا الإخلاص، استلم المحفظة مسروراً بوجود فيشرله أكثر من سروره باستعادة النقود، وكرّر: "كيف لي أن أشكركم؟!". "عشرة بالمئة"، قال القزم. مدّ كين يده إلى رزمة الأوراق النقدية وناول فيشرله جزءاً كبيراً منها. فصرخ به هذا: "عدّها أوّلاً. الشغل شغل. يمكن تقولون أنا سرقت منها شيء". لكن هل يعرف كين كم كان فيها؟ على النقيض منه كان فيشرله يعرف بالضبط عدد الأوراق النقدية التي خبّأها. أما أمره بالعدّ فكان محصوراً بمبلغ المكافأة. عدّ كين جميع الأوراق بدقة كي يرضيه. عندما وصل للمرة الثانية إلى الستين شعر فيشرله بأنفاسه تضيق. قرّر الهرب لأنه كان قد أنقذ مكافأته محتاطاً لهذه الحالة. وقام بآخر محاولة مفاجئة: "تشوفون كل الفلوس في مكانها". "طبعاً"، قال كين وفرح لأنه غير مضطر لمتابعة العد. "والآن عدّوا المكافأة ونحن راضين". بدأ كين من جديد ووصل للتسعة وكان سيعد إلى اللانهاية لكن فيشرله قاطعه: "وقوف! عشرة بالمئة". كان يعرف المبلغ بالضبط، فقد فحص المحفظة خلال الانتظار تحت باب البناية خفيةً وبكلّ دقّة.

عندما انتهيا من الصفقة مدّ يده إلى كين. نظر نحوه إلى الأعالي

t.me/yasmeenbook

نظرة حزينة وقال: "لازم تعرفون ما الذي قاسيته من أجلكم. حياتي تحت السماء المثلى انتهت. وهل تظنون أنني يمكنني دخولها مرة ثانية؟ سيجدون معي الفلوس الكثيرة ويضربونني حتى الموت. لأنه، من أين جاء فيشرله بالفلوس؟ هل أقدر أقول من أين جئت بها؟ إذا قلت من عند كار الكتب، سيكسرون رقبتي ويسرقون الفلوس من جيب فيشرله المكسّر. إذا ما قلت أي شيء، سيأخذونها من فيشرله وهو عائش. تفهمونني. إذا بقي فيشرله عائش، لن يكون معه ما يعيش منه. وإذا مات فيشرله، فهو ميت. شوفوا، هذا ما يجيء للإنسان من وراء الصداقة". كان يطمع بالقليل من البقشيش أيضاً.

وجد كين أن من واجبه أن يؤمن لهذا الإنسان، أول إنسان يلتقي به في حياته، حياة جديدة كريمة. قال: "أنا لست تاجراً، أنا عالم وأمين مكتبة" ومال إلى القزم مستعطفاً: "ادخلوا في خدمتي وأنا أؤمّن لكم رزقكم!".

أردف الصغير: "مثل الأب. هذا ما تصوّرته. إذاً لنذهب". غذّ السير وتبعه كين وهو يعرج. بحث في أفكاره عن عمل لهذا العضو من أسرته. يجب ألا يفكر أي صديق أنني أهديه شيئاً بالمجان. يمكنه أن يساعد مساء في تفريغ الكتب وترتيبها.

ياسمين
قصص
روايات
t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الحدبة

بعد سويعات من دخوله في الخدمة، اتضحت لفيشرله رغبات مخدّمه وخصوصيته. قدّمه كين حين النزول في المقرّ الليلي للبوّاب بصفة "الصديق والمساعد". لحسن الحظ تعرّف ذاك على صاحب المكتبة السخيّ، الذي كان قد بات ليلة في فندقه، وإلا لطُرد الخادم والمخدوم معاً. بذل فيشرله جهداً ليرى ما يكتبه كين في استمارة التسجيل. لشدّة قصره لم يتمكّن من دسّ أنفه في البيانات الشخصية. كان جلّ خوفه من ورقة أخرى أعدّها البواب له. إلا أن كين، الذي تدارك في مساء واحد كل تلك الأحاسيس المرهفة، التي فاتته طوال عمره، لاحظ المشقة التي يعانيها الصغير من الكتابة، ودوّن اسمه في استمارته هو في خانة "المرافقون" ثم أعاد الاستمارة الثانية إلى البواب قائلاً: "لا حاجة لهذه" وهكذا وفر على فيشرله الكتابة، والأهم، بنظره، العلم المهين بالتسجيل في خانة الخدم.

ما إن دخلا غرفتيهما حتى استخرج كين ورق التغليف وبدأ يمسّده. قال: "صحيح أنه مجعّد، لكن ليس لدينا غيره". استغل فيشرله الفرصة ليكون كائناً لا يستغنى عنه، واشتغل من جديد على كل ورقة اعتبرها مخدّمه مستواة معلناً: "أنا سبب الجعلكة". وكان نجاحه يوافق مهارة أصابعه التي يحسد عليها. ثم مددت الصفحات على أرضية الغرفتين. تنطنط فيشرله هنا وهنالك، ضجع وحبا، مثل أحد الزواحف الحدباء النادرة، من زاوية إلى زاوية. لهث بين الفينة والأخرى: "فوراً نخلص، شغلة صغيرة"، يلهث بين الفينة والأخرى. تبسّم كين. لم يكن قد اعتاد لا الحدبة

t.me/yasmeenbook

ولا الحبو، وشعر بالسعادة للشرف الاستثنائي الذي يحبو به عليه الصغير. تخوّف مما سيقدم عليه من إعلان. ربما كان يبالغ في تقدير ذكاء هذا الأُنَيسِن، الذي يقاربه سنّاً وقضى سنوات لا تحصى دون كتب، هباء في المنفى. كانت له قدرة عالية على سوء فهم الواجبات التي تفرض عليه. وربما تساءل: "أين هي الكتب؟" قبل أن يفهم أين كانت محفوظة طوال النهار. لذلك فالأفضل أن يظل يتدحرج على الأرضية بعض الوقت. وفي هذه الأثناء سيفكر كين في صورة شعبية، أكثر وضوحاً للعقل البسيط. كما أقلقته أصابع الصغير. فهي لا تتوقف عن الحركة وتمسد الورق مدة أطول من اللازم. إنها نهمة. الأصابع النهمة تريد غذاء. ستمتد إلى الكتب التي لا يسمح كين لأحد أن يلمسها، مهما كان. بل إنه يخشى أن يدخل في نزاع مع جشع الصغير إلى الثقافة. سيتّهمه، ببعض الحق ظاهراً، أن الكتب بائرة. كيف سيدافع عن نفسه؟ المهرّج يسأل أكثر مما لا يعيره عشرة حكماء بالاً.[1] وحقيقة، انتصب المهرّج أمامه وقال: "انتهينا".

فقال كين دون تروّ: "فلتساعدوني إذاً، من فضلكم، في تفريغ الكتب" واستغرب من تهوره. تفادياً لكل الأسئلة المزعجة أخرج رزمة كتب من رأسه وناولها للصغير. وتمكّن هذا من الإمساك بها بذراعيه الطويلتين ببراعة وقال: "كل هذا! أين أضعها؟". هتف كين متكدّراً: "كثير! هذا ليس سوى نسبة واحد من ألف".

"مفهوم، نسبة كحول. لازم أبقى واقف هنا سنة؟ لا أتحمل، ثقيل كثير، أين أضعها؟". "على الورق. ابدؤوا بالزاوية هناك كي لا نتعثر بها تالياً".

تسلّل فيشرله بحيطة إلى حيث أشار. احترس من أي حركة متسرعة

---

1) في هذه الجملة خلط بين المثل الألماني "المجنون / المهرج يسأل أكثر مما يستطيع الحكيم الجواب عليه" مع المثل الفرنسي Honi soit qui mal y pense الذي يعني مما يعنيه "مجرم من يفكر بالسوء هنا، أو ليخجل من يفكر بالسوء/ يخطر له السوء/الشر". أو ربما تكون إشارة إلى الحكماء السبعة في قصص السندباد.

t.me/yasmeenbook

قد تؤذي حمولته. جثا في الزاوية، وضع الرزمة على الأرض بكل حذر، ومسّد المساحات المجاورة جيداً، بحيث لا تزعج أيّ مطبّات الرؤية. تبعه كين. ومن فوره مدّ له الرزمة التالية، لم يثق بالصغير تماماً، بدا له أنه يهزأ. تم العمل بمطلق السهولة تحت يدي فيشرله. استلم الحزمة تلو الحزمة وازدادت خفّته مع المران. ترك مسافة عدة سنتمترات بين الأكوام بحيث يمدّ أصابعه بينها بأريحية. فكر في كل شيء، حتى في الانطلاق صباح الغد. لم يرفع قلاع الكتب كثيراً، وفحصها حين بلغت الحدّ بتمرير أنفه على السطح. ورغم استغراقه التام في قياس الارتفاعات يقول كل مرة: "ليعذرني السيد". لم يستطع رفعها أعلى من أنفه. كان لكين مخاوفه، بدا له أن الفضاء سينفد سريعاً بسبب طريقة البناء الواطئة هذه. لم تكن به رغبة في أن ينام ونصف المكتبة في رأسه. إلا أنه سكت مؤقتاً وترك المساعد وشأنه. فقد ضمّه إلى قلبه بطريقة أو أخرى. وغفر له الاستخفاف الذي أبداه قبل الآن بهتاف: "كل هذا!" وسُرّ سلفاً باللحظة التي ستستنزف فيها أرضية الغرفتين المتاحة، وينظر آنئذٍ من عليائه باستهزاء إلى الصغير تحته ليسأله: "والآن؟"

بعد ساعة بدأ فيشرله يعاني الصعاب بسبب حدبته. فمهما تحرك وتحاشى يصطدم. تغطّى المكان كله بالكتب عدا ممرّ ضيق من سرير إحدى الغرفتين إلى سرير الغرفة الأخرى. تعرّق فيشرله ولم يعد يجرؤ على تمرير أنفه فوق سطح منصّات قلاعه. حاول أن يقلّص الحدبة إلا أنه لم يتمكن. أرهقه العمل الجسدي. لشدّة تعبه كان يفضّل أن يتبرّز على كل القلاع ويلجأ للسرير. إلا أنه تحامل على نفسه حتى لم يعد هناك أي مكان رغم كل المحاولات وانثنى شبه ميت. تذمر: "لم أشاهد طوال حياتي مثل هذه المكتبة". ضحك كامل وجه كين. قال: "هذا ليس سوى النصف". لم يكن فيشرله قد حسب هذا الحساب. ادّعى مهدّداً: "غداً دور النصف الثاني". شعر كين أنه ضُبط متلبّساً. ففي الواقع كان ذاك مجموع ثلثي

t.me/yasmeenbook

الكتب. ما سيكون رأي الصغير فيه إذا كشفه. لا يودّ الدقيقون أن يقال عنهم كذّابون. عليه أن ينزل غداً في فندق غرفه أصغر. سيعطيه حزماً صغيرة. كل حزمتين تشكلان قلعة بالضبط. وإذا لاحظ فيشرله شيئاً عن طريق أنفه، سيقول له: "إن أرنبة أنف الإنسان ليست على ارتفاع واحد دوماً. معي ستتعلمون الكثير". لا يمكن لأحد أن يتحمّل مرأى الصغير المرهق بعد. يجب أن يُمنح استراحة، فلقد استحقّها. قال: "إني أحترم تعبكم. كل ما يفعله المرء لأجل الكتب هو عمل خير. يمكنكم الرقاد. يتبع غداً!". صحيح أنه يعامله بكل احترام، إلا أنه يعامله كخادم والعمل الذي يؤديه يعمق مهانته.

بعد أن استلقى فيشرله في السرير وارتاح قليلاً، نادى: "تخوت رديئة". كان يشعر براحة شديدة، فهو لم ينم طوال حياته على فراش وثير، لكن شعر أن عليه أن يقول شيئاً ما.

كعهده كل ليلة قبل النوم كان كين في الصين. ووفقاً للأحداث الاستثنائية ليومه كان شكل تصوراته قد تغير. رأى علومه تعمّ الأصقاع دون أن ينشرها كلها. شعر أن القزم يفهمه. وأقرّ أنه يمكن للمرء أن يجد بشراً يفكرون مثله. فإذا تمكن من أن يمنحه قضيضاً من العلم، قضيضاً من الإنسانية، فسيكون قد أنجز شيئاً ما. كل البدايات صعبة. كما أنه لا يجوز للمرء أن يستبدّ. سيزداد نهم الصغير إلى العلم حين يحاط يومياً بكل هذه الكميات الهائلة من الثقافة. فجأةً سيُضبط وهو يمسك كتاباً ويحاول قراءته. هذا غير لازم، سيضرّ به، سيفسد بذلك ذهنه الصغير. ترى كم يتحمل الصغير؟ يجب إعداده شفوياً. لا داعي للاستعجال في القراءة الذاتية. ستمرّ سنوات طويلة حتى يتقن الصينية. لكن يفترض أن يعتاد آراء الثقافة الصينية ودائرة حامليها قبل هذا. وكي يوقظ اهتمامه يجب أن يبني على الحياة اليومية. يمكن الوصول إلى رؤية مشتركة جميلة تحت عنوان "نحن ومونغ تسه". ما سيكون رأيه يا ترى؟ تذكر كين أن القزم قال شيئاً ما لتوّه، دون أن يعرف ما هو، إلا أنه صاح على كل حال.

t.me/yasmeenbook

ناداه: "ماذا يعلّمنا مونغ تسه؟". هذا العنوان أفضل. فمنه يفهم المرء مباشرة أن مونغ تسه بشر. العالم الحقّ يوفر على نفسه الحماقات الفظّة.

"تخوت رديئة، أقول أنا"، نادى فيشرله بصوت أعلى.

"أسرّة؟؟"

"طيّب، بقّ".

"ماذا؟ الأفضل أن تناموا ولا تتنادروا. أمامكم غداً الكثير من الاجتهاد".

"تعرفون ماذا؟ اليوم تعلّمت أنا ما فيه الكفاية".

"هذا ما تتصورونه. ناموا الآن سأعدّ إلى الثلاثة".

"أنا والنوم؟ وفجأة يسرق أحد الكتب منا ويخرب بيوتنا. أنا ما أحب المخاطرة أنا. هل تتصورون، أن أحد يقدر يغلق عينيه؟ ربما أنتم، لأنكم رجل غني، أنا لا".

حقّاً كان فيشرله يخشى النوم. فلديه طبائع راسخة. قد يسرق خلال النوم كل النقود من كين. فهو لا يعلم ماذا يفعل وهو يحلم. الإنسان يحلم بالأشياء التي تبهره. وأحلى أحلام فيشرله أن ينبش في جبال الأوراق النقدية. حين يشبع من النبش ويتأكد من أن لا أحد من أصدقائه المزيفين قريب منه، يجلس فوقها ويلعب مباراة شطرنج. يكون للمرء ميزات خاصة إذا كان طويلاً. هكذا يحرس الشيئين في وقت واحد، يرى من البعيد كل من يأتي ليسرق بينما الرقعة بين يديه. هكذا يمارس السادة الكبار أعمالهم. ينقل المرء القطع باليمنى وباليسرى يمسح أصابعه المتسخة بالأوراق النقدية. عنده الكثير منها، لنقل ملايين. ماذا يعمل المرء بالملايين الكثيرة؟ لا ضير من أن يهدي جزءاً منها، لكن من القادر فعلاً على هذا؟ ما إن يروا أن لدى الصغير مالاً، الأوباش، حتى يأخذوه منه. لا يحقّ للصغير أن يعمل نفسه كبيراً. عنده أساس لكن لا يحقّ له هذا. لماذا إذاً كل هذه الأملاك؟

t.me/yasmeenbook

يقولون، إيه، كيف يتصرف الصغير بالملايين إذا ما كان عليه القيمة؟ عملية جراحية أفضل حلّ. يدسّ المرء مليوناً أمام أنف الجراح المشهور، يقول له: يا سيد، اقطع لي الحدبة وتحصلون على هذا المليون فوقها. لأجل مليون يصير كل إنسان فناناً قديراً. وحين تقطع الحدبة يقول المرء: سيدي العزيز، المليون كان غلط، أعطيك عدة آلاف زيادة. وهو قادر مقتدر ويشكره أيضاً. تُحرق الحدبة. وهكذا يستقيم طوال حياته. لكن الإنسان الفطين ليس بكل هذا الغباء. يأخذ المليون، يلفّ الأوراق النقدية ويكومها في حدبة جديدة. يحملها على ظهره. لا أحد يلاحظ. هو يعرف أنه مستقيم والناس تظن أنه أحدب. هو يعرف أنه مليونير والناس يظنون أنه شيطان فقير. وعندما ينام، يزيح الحدبة على بطنه. يا ربّ، هو أيضاً يريد أن ينام مرة على ظهره.

هكذا يستلقي فيشرله على حدبته ويكاد يمتنّ للألم الذي يوقظه من نعاسه. يقول لنفسه إنه لا يتحمّل هذا، فجأةً يحلم بأن الكومة هناك، يسرقها ويصير ما لا يحمد عقباه. المال ماله بجميع الأحوال ولا داعي للشرطة. إنه يتنازل عن تدخلها. سيكسب بجهده الخاص. هناك بجانبه يرقد أبله، وهنا يرقد إنسان عنده حذاقة. إذاً، لمن ستكون الفلوس في النهاية؟

يقتنع فيشرله بسهولة. إنه مطبوعٌ على السرقة. لم يسرق شيئاً منذ فترة بعيدة لأنه لم يعد له ما يسرقه في محيطه. ولا يشرع لنفسه نزهات بعيدة لأن الشرطة تراقبه. من السهل التعرف عليه. هنا لا حدود لاندفاع الشرطة الناري. قضى نصف الليلة أرقاً، العينان المفتوحتان متشنجتان، اليدان متشابكتان بطريقة غريبة. يبعد كومة الفلوس عن قربه. وعوضاً عنها يستعيد جميع الضربات على الأضلاع والسباب التي انهالت عليه في المخافر. وهل هذا ضروري؟ ثم إنهم فوق هذا سيأخذون منه كل ما لديه ولن يرى منه شيئاً بعد ذلك. هذه هنا ليست سرقة. عندما ينتهي مفعول السباب، والشرطة تمسك بخناقه وإحدى يديه تتدلّى من السرير،

t.me/yasmeenbook

يفكر في عدة مباريات شطرنج. وهذه على مبلغ من الإثارة بحيث تحبسه في سريره، بينما تبقى اليد متأهبة للانطلاق. يلعب بحذر أكبر من العادة ويفكر أطول قبل النقلات ما يدعو إلى السخرية. يضع نصب عينيه أحد أبطال العالم خصماً له. يملي عليه النقلات بفخر. مستغرباً من الطواعية التي يلمسها، يغيّر بطل العالم ببطل غيره، وهذا أيضاً يأتمر بأوامره. فيشرله يلعب للاثنين. لا يجد الآخر نقلات أفضل من التي يأمر بها فيشرله، فيومئ مطيعاً ورغم هذا يلطمه فيشرله على رأسه. يتكرّر هذا عدة مرات حتى يقول فيشرله: "أنا لا ألعب مع أغبياء كهؤلاء أنا"، ويمدّ ساقيه صوب السقف ثم يعلن: "بطل العالم؟ أين هو بطل العالم؟ لا يوجد أحد هنا!".

وكي يتيقّن من حكمه ينهض ويفتش الغرفة. ما إن يحصلوا على اللقب حتى يختفي هؤلاء الناس عن الأنظار. لا يجد أحداً. مع أنه تخيل أن بطلاً للعالم يجلس على السرير ويلعب معه، يقسم على هذا. هل تسلّل هذا إلى الغرفة المجاورة؟ لا تخاف، فيشرله سيجدك. هناك أيضاً يبحث بكل اطمئنان، الغرفة فارغة. يفتح العلبة ويمدّ يده بسرعة، لا أحد ينفذ منه. وهذا هنا هادئ في سلوكه، مفهوم، ما الذي يدعو صاحب الكتب الطويل ليفكر بأن فيشرله يريد إزعاج نومه، كل ما يريد هو أن يلقّن خصمه درساً؟ ربما لم يكن هنا وتاه وخسر موقعه بسبب عادة سيئة فيه. يفتش كل رقعة تحت السرير بأنفه. لم يدخل تحت سرير منذ مدة بعيدة، يتصور نفسه في البيت. حين يخرج من تحت السرير تستقر أنظاره على معطف ملقى على كرسي. فيتذكر شدّة طمع أبطال العالم في النقود، فهم لا يشبعون بتاتاً. وكي تأخذ منهم لقبهم يجب أن تضع لهم أموالاً هائلة على الطاولة نقداً، ومن المؤكد أن هذا القبضاي جاء ليأخذ النقود ولا بد أنه قرب المحفظة. ربما لم يحظَ به بعد، يجب إنقاذه منه، فمثله قادر على كل شيء. غداً تكون النقود قد ضاعت ويظن الطويل أن فيشرله سرقها. لكن لا، لا أحد يستطيع أن يغشّه. يمدّ ذراعيه الطويلتين من الأسفل نحو

t.me/yasmeenbook

المحفظة، يأخذها ويعود إلى موقعه تحت السرير. كان يستطيع أن يبرز كل جسمه من تحت السرير، لكن لماذا؟ بطل العالم أطول وأقوى منه ومن المؤكد أنه واقف خلف الكرسي، يراقب النقود وسيضرب فيشرله لأنه سبقه. وبطريقته الذكية لم يلاحظ أحد شيئاً. ليبقَ المحتال إذاً في مكانه. لا أحد دعاه. الأفضل أن يتبخر. من يحتاجه؟

ينساه فيشرله فوراً. يعدّ في مخبئه تحت أقصى زوايا السرير الأوراق الجديدة؛ لمجرّد الاستمتاع. فما زال يعرف عددها بالضبط ويبدأ من جديد كلما انتهى. ثم يسافر إلى بلاد بعيدة، إلى أمريكا. هناك يذهب إلى بطل العالم كابابلانكا. يقول له: "عنكم كنت أبحث"، يضع مبلغ الرهان ويلعب طويلاً حتى يقضي على الفتى. في اليوم التالي تظهر صورة فيشرله في كل الجرائد. كما أنه يعقد صفقة ناجحة. الأوباش في الوطن، في السماء، يحلقون، زوجته، القحبة، تبدأ بالنواح وتصرخ لو أنها كانت تعرف هذا لسمحت له باللعب طوال الوقت، يهوي عليها بعضهم بالضرب، يصدر ضجيج، طبعاً هذه هي النتيجة، إذا كانت الواحدة لا تفهم شيئاً في اللعب. الحريم تخرب بيت الرجال. لو أنه ظل في البيت لما نجح في أيّ شيء. الرجل الشاطر هو الذي يهرب، هذا هو سرّ الصنعة الحقيقي. إذا كان الرجل جباناً لا يصبح بطل العالم. فليجرؤ أحد على القول بعد ذلك إن اليهود جبناء. يسأله المراسلون من يكون. لا أحد يعرفه. شكله ليس شكل الأمريكي. اليهود منتشرون في كل العالم. لكن من هو هذا اليهودي الذي قضى على شهرة كابابلانكا؟ في اليوم الأول يترك الناس يتحرقون. تودّ الجرائد أن تعلن لقرائها لكنها لا تعرف الجواب. في كل مكان تقرأ: "سرّ بطل العالم". تتدخل الشرطة؛ طبعا تتدخل. يريدون سجنه من جديد. لا، لا، يا سادتي، الأمر لم يعد بهذه السهولة، إنه الآن يرمي النقود حوله وللشرطة الشرف بإطلاق سراحه. في اليوم الثاني يلتمّ حوله حوالي مئة صحفي. كلٌّ منهم يعِده، لنقُل بألف دولار، إذا قال شيئاً ما، وهذا نقداً

t.me/yasmeenbook

في اليد. فيشرله يلتزم الصمت. تبدأ الجرائد بالكذب. وماذا يمكنها أن تفعل؟ القراء لا يتحملون بعد. فيشرله يجلس في فندق عملاق، مع بار باذخ طبعاً، كما في باخرة عابرة للمحيطات. يريد الشيف أن يُجلِس إلى طاولته أجمل الفتيات، لسن قحاباً، إنما مليونيرات، يبدين اهتماماً به. يشكرهم جازماً، يقول: لاحقاً، الآن ليس عندي وقت. ولماذا ليس عنده وقت؟ لأنه يقرأ جميع الأكاذيب المنشورة عنه في الجرائد. وهذا يقتضي طول النهار. وهل يتركونه لينهي القراءة؟ إنهم يزعجونه كل لحظة. يستسمحه المصورون لحظة. يقول: "ولكن يا سادتي، مع الحدبة؟". "بطل العالم هو بطل العالم! أيها السيد الموقر فيشرله. لا علاقة للحدبة بالأمر". يصورونه من اليمين، من اليسار، من الأمام ومن الخلف. يقترح عليهم: "امسحوها من الصورة أحسن، بهذا تكون لديكم صورة جميلة لجريدتكم". "كما تشاء، أيها السيد الموقر، يا بطل العالم". حقاً، أينما وجّه عينيه وجد صورته دون حدبة. لقد زالت. لم تعد على ظهره. لكنه ما يزال قلقاً بسبب القصر. ينادي الشيف ويريه الجريدة: "صورة سيئة، ما رأيك؟" يسأل. يقول الشيف: "well". ناس أمريكا يتكلمون بالإنكليزي. لكنه يجد الصورة متميزة ويقول: "لا يوجد في الصورة إلا الرأس". ومعه حقّ. يقول فيشرله: "يمكنكم الذهاب" ويعطيه بقشيشاً، مئة دولار. يبدو في الصورة وقد طال. لا أحد يلاحظ شيئاً من قصر طوله. وبهذا يتخلص من رغبته في قراءة المقالات. ولماذا يقرأ كل تلك العبارات بالإنكليزي. فهو لا يفهم غير well. لاحقاً سيأمر بإحضار الجرائد الخارجة لتوها من المطبعة ويدقق في صورته أكثر. يجد رأسه في كل مكان. صحيح أن الأنف طويل، لكن لا بأس، هل يتحمل الإنسان الذنب في شكل أنفه؟ لقد أصرّ منذ صغره على لعب الشطرنج. طبعاً كان يستطيع أن يلحّ على شيء آخر أيضاً، ممارسة كرة القدم أو السباحة أو الملاكمة. لكن هذه الأشياء لم تكن ترضيه. لحسن حظه. فلو كان الآن بطل العالم في الملاكمة لاضطرّ أن يلتقط صورة شبه عارية

t.me/yasmeenbook

للجريدة. كان الجميع سيضحكون عليه ولن يستفيد هو شيئاً. في اليوم التالي ينتظره ألف صحفي. يقول: "يا سادتي، أنا مندهش لأن الجميع يطلقون عليّ اسم فيشرله. اسمي فيشر. ستصحّحون الخطأ، أتمنى ذلك". يقسمون له على هذا. ثم يسجدون أمامه، البشر صغار، ويتضرعون إليه أن يشي لهم بأي شيء. يقولون: سيُطرَدون من العمل، سيخسرون وظائفهم، إذا لم يستخرجوا منه اليوم خبراً. يقول لنفسه: ما مشكلتي، لا يوجد شيء مقابل لا شيء، لقد أهدى لتوه مئة دولار للشيف ولن يهدي الصحفيين أيضاً. "قدّموا عروضكم، يا سادتي!". يقول لهم بكل صراحة. ألف دولار، يقول أحدهم، فيصرح آخر: صفاقة، عشرة آلاف. يأخذ آخر بيده ويهمس له: مئة ألف، يا سيد فيشر. الناس عندهم نقود مثل القش. يسدّ أذنيه. لا يريد أن يسمع شيئاً قبل أن يصلوا للمليون. يتحول الصحفيون إلى متوحشين ويشدّ بعضهم شعر البعض الآخر، كل منهم يريد عرض المزيد، لأن بياناته محطّ المساومات. يبلغ أحدهم خمسة ملايين وفجأة يسود صمت ثقيل. لا أحد يقدر أن يتقدم بعرض أعلى. يرفع بطل العالم فيشر أصابعه من أذنيه ويعلق: "أريد أن أقول لكم شيئاً، يا سادتي. وهل من مصلحتي أنا أن تفلسوا؟ أبداً، لا. كم أنتم؟ ألف. كل واحد منكم يعطيني عشرة آلاف دولار وأنا أتكلم للجميع معاً. بهذا أحصل على عشرة ملايين ولا أحد منكم يفلس. اتفقنا، فهمنا؟". يرتمون في أحضانه، وهو عند وعده. ثم يصعد كرسياً، رغم أنه غير مضطرّ إلا أنه يفعلها، ويروي كامل الحقيقة. لقد سقط من السماء بطلاً للعالم. وتمضي ساعة كاملة حتى يصدقوه. كان زواجه تعيساً . خرجت زوجته، المتقاعدة، عن الطريق القويم، كانت، كما يقولون عنده في الوطن، في السماء، قحبة. كانت تريد أن يقبل منها المال. ولم يعد يعرف ماذا يعمل. قالت إنها ستقتله إذا لم يقبل. يجب أن يقبل. استسلم للابتزاز واحتفظ بالفلوس لأجلها. اضطرّ لمشاركتها في هذا طوال عشرين سنة. بالنهاية لم يعد يطيق. ذات يوم طلب منها قطعياً

t.me/yasmeenbook

أن تتوقف وإلا صار بطلاً للعالم في الشطرنج. بكت بكاء مريراً لكنها لم ترد أن تتوقف عن عملها. كانت قد اعتادت البلادة، الثياب الجميلة والسادة الراقين، حليقي الذقن، بشكل مبالغ فيه. يؤسفه حالها، لكن الرجل وكلمته. سافر مباشرة من السماء إلى أمريكا، حطم كابابلانكا وها هو ذا هنا. الصحفيون مذهولون. هو أيضاً. يفتح مؤسسة خيرية. يخصّص منَحاً لكل مقاهي العالم. للحصول عليها يجب أن يلزم الملاك نفسه قانوناً بإلصاق جميع المباريات التي يلعبها بطل العالم على الجدران. يمنع إتلاف الملصقات بحكم الشرطة. على كل واحد أن يقتنع شخصياً بأن بطل العالم يلعب أفضل منه. وإلا ظهر مشعوذ، أغلب الظن قزم، أو أي مكرسح آخر، وزعم أنه يلعب بشكل أفضل. لن يخطر للناس أن يراجعوا نقلات المكرسح. هم مبهورون ويصدّقونه فقط لأنه يعرف كيف يكذب. يجب أن يتوقف هذا. منذ الآن يجب أن يلصق على كل جدار ملصق. إذا عمل الدجال نقلة واحدة غلط، ينظر الجميع إلى الملصق ويشعر بالعار حتى آخر نقطة من حدبته الكريهة. الدجّال! عدا هذا يلزم المالك نفسه بأن يضربه عدة ضربات لأنه اغتاب بطل العالم. عليه أن يتحدّى بطل العالم إذا كان معه مالٌ كافٍ. سيخصّص فيشر مليوناً كاملاً لأجل هذه المنحة. إنه ليس تافهاً. كما أنه سيرسل مليوناً إلى الزوجة، كي لا تضطرّ بعد ذلك للخروج مع الزبائن. شرط أن تتعهّد خطّياً أنها لن تأتي إلى أمريكا وتروي شيئاً عن نكايات الشرطة السابقة. يتزوج فيشر مليونيرة. وبهذا يعوض عن خسائره. سيأمر بخياطة طقم جديد عند خياط من الطراز الأول، كي لا تلاحظ الزوجة شيئاً. سيبني قصراً هائلاً، بقلاعٍ حقيقية، فيلة، أحصنة، بيادق، كما يجب أن يكون. يرتدي الخدم أزياء رسمية. في ثلاثين قاعة عملاقة يلعب فيشر ليل نهار ثلاثين مباراة بالتوازي، بقطَع حيّة تأتمر بأمره. ما عليه إلا أن يهمس حتى يركض عبيده إلى حيث يشاء. يأتي الخصوم من جميع بلاد الدنيا، شياطين فقيرة، تريد أن تتعلم منه. بعضهم يبيع آخر أحذيته ومعطفه كي

t.me/yasmeenbook

يموّل الرحلة. يحسن ضيافة الجميع، يعطيهم وجبة كاملة، حساء وحلويات، مع اللحم طبقين آخرين، وأحياناً لحم خنزير مشوياً بدل لحم البقر. يسمح لكل منهم أن ينهزم أمامه مرة. لا يطالب بشيء مقابل رحمته. كل ما عليهم هو أن يقيّدوا أسماءهم في سجل الضيوف، ويؤكدوا بشكل لا غبار عليه أنه هو بطل العالم. يدافع عن لقبه. في هذه الأثناء تتنزّه الزوجة الجديدة في السيارة. يخرج معها مرة واحدة في الأسبوع. هنا تطفأ جميع الأضواء في القصر، لأن الإنارة وحدها تكلف مبالغ طائلة. يعلّق على البوابة لوحة: أعود قريباً، بطل العالم فيشر. لا يتغيّب أكثر من ساعتين في الخارج، لكن الضيوف يصطفّون على الباب كما في حرب. "ماذا يباع هنا؟"، يتساءل أحد المارّة. "ماذا؟ لا تعرفون؟ لا بد أنكم غريب!"، وشفقة عليه يقول له الآخرون، من يسكن هنا. ولكي يفهم تماماً يقولها له كل منهم على حدة، ثم يقولها الجميع في جوقة: "بطل العالم في الشطرنج يحسن على الفقراء". يصعق الغريب ولا يعرف ماذا يقول. ثم يتمكن بعد ساعة من الكلام: "إذاً، اليوم هو يوم الاستقبال؟" وهذا ما كان ينتظره المواطنون. "اليوم تحديداً ليس يوم الاستقبال وإلا لشاهدت هنا المزيد". ثم تتداخل أقوال الجميع. "وأين هو؟ القصر معتم". "مع الزوجة في السيارة. هذه زوجته الثانية. الأولى كانت متقاعدة عادية. الثانية مليونيرة. السيارة ملكه هو. إنها ليس سيارة أجرة. لقد أمر بتصنيعها حسب احتياجاته هو". وما يقولونه هو مطلق الحقيقة. يجلس في السيارة التي تلائم حجمه. صغيرة نوعاً ما على الزوجة، عليها أن تحدودب طوال النزهة. وبالمقابل يحقّ لها التجوّل معه. أما غير ذلك فلها سيارتها الخاصة. هو لا يسافر في سيارتها لأنها كبيرة جداً عليه. لكن سيارته كلفت أكثر. صنع المعمل قطعة وحيدة. يشعر فيها المرء بأنه تحت السرير. النظر إلى الخارج مملّ. يغمض عينيه بقوة. لا شيء يتحرك. تحت السرير يشعر بنفسه في البيت. يسمع صوت المرأة من فوق. لقد شبع منها، ما شأنه بها؟ لا تفهم شيئاً في الشطرنج. الرجل

t.me/yasmeenbook

أيضاً ينطق بشيء ما. هل هو رجل؟ يلاحظ المرء الحذاقة. انتظر، انتظر، لماذا عليه الانتظار؟ ما شأنه هو والانتظار؟ ذاك فوق يتكلم ألمانية الكتب، هذا أيضا ابن كار، من المؤكد أنه بطل متخفٍّ. يخاف الناس من أن يُعرَفوا. مثلهم مثل الملوك. يذهبون متنكّرين إلى الحريم. هذا بطل للعالم وليس مجرد معلم. يجب أن يلاعبه. لا يتحمل أكثر. يتفجّر رأسه بالنقلات المتقنة. سيدمّره نهائياً.

بسرعة وهدوء يخرج فيشرله زاحفاً من تحت السرير ويقف على ساقيه المقوّستين. كانتا قد تنمّلتا، فيترنّح ويتمسّك بطرف السرير. اختفت المرأة. وهذا أفضل لأنه سينعم بالهدوء. ليس في السرير سوى زبون طويل؛ يبدو نائماً. ينقر فيشرله على كتفه ويسأل: "هل تلعبون الشطرنج؟". الزبون نائم حقاً. وكي يستيقظ يجب هزّه. يريد فيشرله أن يمسك كتفيه باليدين. فيلاحظ أنه يمسك بشيء ما في يسراه. رزمة صغيرة تزعجه، يرميها. انتبه فيشرله! يقذف باليسرى لكن اليد لا تتنازل عن الرزمة. عليك ولا بدّ! يصرخ فيها، ما معنى هذا؟ تظل اليد جامدة، تتمسك بالرزمة كما تمسك بملكة سلبت توّاً. يقرّبها من عينيه. إنها رزمة أوراق نقدية. لماذا يرميها؟ ربما احتاجها، فما هو إلا شيطان فقير. ربما كانت للزبون. وهذا لا يزال نائماً. إنها ملك فيشرله لأنه مليونير. من أين جاء الزبون؟ من المؤكد أنه غريب. يريد أن يلاعبه. يجب على الناس أن يقرؤوا اللوحة على البوابة. لا يجد المرء الهدوء حتى خلال اللعب مع الذات. يبدو له الغريب معروفاً. ضيف من السماء. أليس هذا بشارة خير. لكنه كار الكتب. ماذا يريد هذا هنا؟ كار الكتب، كار الكتب ... لقد كان ذات مرة في خدمته. كان عليه أن يمدّ ورق التغليف و.....

يزداد احديداب فيشرله من شدة الضحك. ويستيقظ تماماً بينما هو يضحك. إنه في غرفة الفندق. كان عليه أن ينام في الغرفة المجاورة. سرق النقود. ليبتعد بها بسرعة. عليه السفر إلى أمريكا. يركض خطوتين، ثلاثاً

t.me/yasmeenbook

باتجاه الباب. كيف تجرّأ على الضحك بذلك الصوت العالي. ربما أيقظ كار الكتب؟ يتسلّل نحو السرير ليتأكد من أنه نائم. لا بد أنه سيبلغ الشرطة. لا، جنونه لا يصل إلى حد ألا يشتكي. يقوم بالخطوات ذاتها تجاه الباب وهو يسير هذه المرة بدل أن يركض. كيف ينجو من الفندق؟ الغرفة في الطابق الثالث. سيوقظ البواب. وغداً تلقطه الشرطة حتى قبل أن يستقلّ القطار. ولماذا تلقطه؟ لأن عنده حدبة. يتحسّسها كارهاً بأصابعه الطويلة. لا يريد العودة إلى ذلك الجحر من جديد. ستأخذ منه الخنازير رقعة الشطرنج. لا يستمتع باللعب إذا لم تكن القطع في يده. سيرغمونه على اللعب في رأسه فقط. لا إنسان يتحمل هذا. يريد أن ينجح. يمكنه أن يقتل كار الكتب. لكن اليهودي لا يفعل هذا. وبماذا يقتله؟ يمكنه أن يجعله يحلف ألا يبلغ عنه. يقول له: "وعد أو موت". لا بد أن هذا الإنسان جبان. وسيعطيه الوعد. لكن هل يمكن الوثوق بمثل هذا الأبله. معه يفعل أيُّ شخصٍ ما يريد. إنه لن يحنث بوعده هكذا، بل سيحنث به لشدّة غبائه. غباء. بين يدي فيشرله كل المال. لقد انتهت قصة أمريكا. لا، لا، سيهرب. وليمسكوه. إذا لم يلقطوه صار بطل العالم في أمريكا. إذا لقطوه، يشنق نفسه. يا للفرحة! اللعنة. لن يستطيع إتمام الأمر. فليس لديه رقبة. مرة علّق نفسه من رجله، فجرحوه. ولن يعلّق نفسه من الرجل الثانية، لا.

يتعذّب فيشرله بين الباب والسرير للعثور على حلّ. محبط على سوء حظّه. يريد النحيب، لكنه سيوقظ ذلك الكائن إن فعلها. قد يدوم الأمر أسابيع حتى يصل مرّة أخرى إلى النقطة التي وصلها الآن. أسابيع، أسابيع، إنه ينتظر منذ عشرين سنة. رجل في أمريكا ورجل في الحبل. ليجرّب أحدهم ما يعانيه. تتقدّم الرِّجل الأمريكية خطوة إلى الأمام، فتتراجع الرِّجل المعلّقة خطوة إلى الوراء. يجد هذا عذاباً. يبدأ بضرب حدبته. يدسّ النقود بين قدميه. كل الذنب في رقبة الحدبة. عليها أن تتألم. لقد استحقّت العذاب. سيبكي إذا لم يضربها وإذا بكى طارت أمريكا.

t.me/yasmeenbook

تماماً في وسط المسافة بين السرير والباب، يقف فيشرله متجذّراً في خانة ويسوط الحدبة. يرفع الذراعين كسوطين وينهال بخمسة أحزمة مضفورة مرّتين، أصابِعه، عبر الكتفين على الحدبة. وهذه راسخة. جبل عنيد يرتفع فوق هضبة الكتفين المنخفضة مترعاً بالصلابة. يمكنه أن يصرخ: لقد نلت ما يكفي، لكنه يلتزم الصمت. يتمرّس فيشرله ويرى كم تتحمّل الحدبة. تتأهّب لعذاب طويل. غضبه ليس مهمّاً، المهمّ أن تأخذ السياط مفعولها. تبدو له ذراعاه الطويلتان قصيرتين جداً. يستخدمهما كما هما. تهوي السياط بانتظام. فيشرله يلهث. يحتاج إلى موسيقا مرافقة. في السماء يوجد بيانو. يعزف موسيقاه بنفسه، تنقطع أنفاسه. يغني. يسمع صوته حادّاً ورنّاناً من شدّة هياجه. "ستتوقف حالاً، ستتوقف حالاً!". يعذب الوحش عذاباً جمّاً. هل سيشتكي عليه؟ يفكر قبل كلّ ضربة: "انزلي يا جيفة" والجيفة لا تتغير. يغرق فيشرله في عرقه. تؤلمه الذراعان، الأصابع تتراخى وتضعف. يحتمل، يصبر، يقسم على أنه لم يبقَ الكثير من النقلات لتموت الحدبة. وهي لعجرفتها تتصور أنها صامدة. فيشرله يعرفها جيّداً. يريد أن يراها. يدير رأسه كي يشمت بالوجه الدميم لخصمه. ماذا؟ يختبئ! يا جبان، يا مكرسح! سكّين، سكّين. يطعنه حتى الموت. من أين له الآن بسكّين؟! يزبد فيشرله. تنهمر دموع ثقيلة من عينيه. تخونه قوة الذراعين. ينهار كصفن فارغ. تم الأمر، سيشنق نفسه. تسقط النقود على الأرض.

فجأةً يقفز فيشرله عالياً ويهتف: "شاه مات!".

كان كين يحلم طوال الوقت بكتب تسقط ويحاول التقاطها بجسمه، الرفيع مثل الدبوس. على يمينه ويساره تقع أكباش فداء على الأرض، والآن تنخسف الأرض أيضاً ويستيقظ. أين هي؟ يبكي متسرّع الأنفاس، أين هي؟ لقد حاصر فيشرله المكرسحَ في خانة مات. يرفع رزمة الأوراق النقدية عند قدميه، يتقدم نحو السرير ويقول: "تعرفون ماذا؟! عليكم أن تعترفوا بحسن حظّكم!".

t.me/yasmeenbook

"الكتب، الكتب"، يتنهّد كين.

"أنقذنا كلّ شيء. هنا رأس المال. لقد وجدتم جوهرة فيّ أنا".

"أنقذت. لقد حلمت ...."

"أنتم نعم، وأنا أكلت الضرب أنا".

يقفز كين: "إذاً، فقد كان هنا أحدهم حقّاً؟ علينا أن نتحرّى الأمر!".

"لا تتوتّر! سمعته أول ما دخل، قبل أن يدخل من الباب. أتسلّل إلى الغرفة تحت سريركم لأرى ماذا يفعل. بتصوركم ماذا كان يريد؟ يمدّ يده وأنا أمسكها أنا. هو يضرب وأنا أضرب. يطلب الرحمة وأنا ما عندي رحمة أنا. يريد إلى أمريكا وأنا لا أتركه أنا. هل تتصورون أنه لمس كتاب واحد؟ ولا واحد. كان عنده حذاقة. لكنه مع هذا كان غبي. ما كان سيصل إلى أمريكا في حياته. تعرفون إلى أين كان سيصل؟ بيننا، إلى الجنائية. والآن هرب".

"حسناً، كيف كان مظهره؟"، سأل كين راغباً أن يبرهن للصغير على شكره ليقظته الشديدة. دون أن يهمّه المجرم مطلقاً.

"ماذا أقول؟ كان واحد مكرسح مثلي. أقسم أنه قوي في الشطرنج. شيطان فقير".

"لندعه وشأنه!"، يقول كين ويلقي بنظرة ملؤها الرقة نحو القزم -كما يظن-. ثم يلجأان إلى السرير من جديد.

t.me/yasmeenbook

الرحمة الواسعة

سمّيت مؤسسة الرهان الرسمية، باللقب الملائم تيريزيانوم، على اسم أميرة ورعة وتقيّة تستقبل المتسولين مرة في العام. حتى آنذاك كان يُنتزع من المحتاجين آخر ما لهم: ذلك الجزيءُ الذي يحسدون عليه من الحب الذي منحهم إياه المسيح قبل حوالي ألفي عام، ووسخُ أقدامهم. وبينما تغسل الأميرة هذا، تحلم بلقب المسيحة التي تسعى إلى ضمّها إلى الألقاب اللانهائية التي تكسبها سنوياً. تنتصب المؤسسة، قلب الأميرات العفيف، من عدة طوابق سامية، محاطة بأسوار عالية وثخينة. تستقبل المساكين عدة ساعات وتؤثر دخول المتسولين أو الذين سيغدون متسولين بعد الاستقبال. يرتمي الناس عند قدميها ويقدّمون كما في العهود الغابرة مكس العشر، الذي ليس منه سوى اسمه. لأنه بالنسبة إلى قلب الأميرات ليس سوى جزء من مليون، وبالنسبة للمتسولين كل ما لهم. يقبل قلب الأميرات كل شيء، فهو شاسع، رحب، فيه آلاف الحجرات، وكذلك آلاف الاحتياجات. يُسمح للمتسولين الخاشعين لوجه النعمة أن ينهضوا ويُناوَلون هدية صغيرة مقابل مبايعتهم، حسنةً نقدية. فيخرجون فرحاً عن أطوارهم؛ ومن القصر. أما عن خليقة غسل الأقدام فقد انحرفت الأميرة، منذ أن اقتصرت حياتها على كونها مؤسسة رهنيات. تعويضاً عن تلك الأخلاق الحميدة استوطنت عادة جديدة. يدفع المتسول على الحسنة فوائدَ. ولأن الأخيرة ستكون الأولى فإن سعر فائدتها هو الأعلى. إن شخصاً يطالب بمثل تلك الفوائد، سيقدَّم للمحكمة بتهمة الربا. لكن القضاء يضع استثناءات للمعوزين لأن المبالغ التي يتعاملون بها ليست إلا مبالغ معوزة.

t.me/yasmeenbook

لا ينكر أن هؤلاء يسرّون بتجارتهم. يتزاحمون أفواجاً على شبابيك الصرف، ويتدافعون للالتزام بأداء فريضة الربع على رهنياتهم. لأنه من لا يملك شيئا يسرّ بالدفع. لكن حتى بين هؤلاء يوجد محتالون جشعون، يمتنعون عن إعادة الربع وفوائده، ويفضّلون التخلّي عن رهنيّتهم على فتح أكياس نقودهم. يدّعون أنهم لا يملكون أكياساً. يسمح بالدخول حتى لهؤلاء. فإن القلب الكبير، السموح، الواقع وسط المدينة، يعوزه الوقت اللازم لاختبار مصداقية تلك الأكياس الكاذبة. فيزهد بأصل الحسنة، يزهد بالفائدة، ويكتفي بالاحتفاظ بالرهنيات التي تبلغ قيمتها خمسة إلى عشرة أضعاف. هنا يتراكم كنزٌ ذهبي على القروش. يأتي المتسولون بأسمالهم، والقلب يرفل بالحرير والمخمل. في خدمته جيشٌ من العاملين الطيّعين. يعملون ويديرون حتى أجل التقاعد المرتجى. كمرابعين أوفياء لسيدهم الإقطاعي يضعون قيمة بخسة للكلّ ولكلّ شيء. كلّما غالوا في تطفيف الحسنات، غالى الشعب السعيد بالاحتشاد. القلب كبير لكنه ليس لا نهائياً. يرمي بين الوقت والآخر ثرواته بأبخس الأثمان كي يخلي المكان لعطايا جديدة. إن قروش المعوزين لا تنضب، تماماً مثل حبّهم للقيصرة الأبدية. حين تتوقف الأعمال في مختلف أصقاع البلاد يلجؤون إليها. نادراً ما تكون الرهنيات مسروقات، كما يرجو المرء لصالح تدوير البضاعة الأكثف.

بين كلّ حجرات الكنوز والتقييم العائدة للسيدة الرحيمة، تأخذ حجرات المجوهرات، الذهب والفضة مكاناً فخريّاً، غير بعيد عن البوابة الرئيسية. فهي راسخة هنا على أرض صلبة. تم توزيع الطوابق حسب قيمة الرهنيات. فوق الجميع، أسمى من المعاطف والأحذية والطوابع البريدية، في الطابق السادس والأخير، تجمع الكتب في جناح جانبي، يصعد إليه الراغب على سلم عادي، شبيه بأدراج بيوت الإيجار. لا ترى هنا أيّ أثر يدلّ على العظمة الأميرية في الجناح الرئيسي. في هذا القلب المترف ليس سوى القليل من المكان للعقل. يظل المرء بأفكاره في الأسفل ويشعر بالعار من الهمج

t.me/yasmeenbook

الذين يأتون بكتبهم إلى هنا من باب الجشع، من الدرج لأنه غير نظيف كما يجب، من العاملين الذين يتناولون الكتب كبضاعة بدل أن يقرؤوها، من الغرف المهدّدة بالحرائق تحت السقف مباشرة، من دولة لا تمنع المراهنة على الكتب تلقائياً، من بشرية نسيت تماماً وكلّياً، منذ أن سهلت عليها الطباعة، أيّ قداسة تكمن في كل حرف مطبوع؟ يتساءل الزائر، لماذا لا يُغسل عار المجوهرات التافهة فوق، في الطابق السادس؟ ولماذا لا يفرغون الغرف الجميلة في الطابق الأرضي للكتب، بدل المجوهرات، بما أنه لا أحد يفكر كما يبدو واضحاً في علاج جذريّ لهذا العار الثقافي؟ فلو شبّ حريق يمكن بكل بساطة رمي المجوهرات على الأرض، فهي معلّبة بشكل جميل، أكثر مما تستحق تلك المعادن. الحجارة لا تتألم. أما الكتب التي تسقط من الطابق السادس على الشارع فإنها ستموت نظراً لرقّة مشاعرها. وليتصوّر أحدهم مدى عذابات ضمير العاملين. تتأجّج النار، يثبتون في أماكنهم، لكنهم مغلوبين على أمرهم. ينهار الدرج. تختلف آراؤهم. ما يضعه أحدهم لحظتئذٍ على النافذة، يتلقّفه آخر ويرميه في النار. "يفضّل أن تحترق على أن تتشوّه"، يقذف احتقاره في وجه زميله. لكن هذا يأمل في أنهم مدّوا شبكة في الأسفل لتتلقّف المخلوقات المسكينة دون أن تصاب بأذى. "ستتحمّل ضغط الهواء ولا بدّ"، يصرخ نحو عدوّه. "وأين هي شبكتكم، إذا سمحتم لي بالسؤال!؟". "ستمدّه الطوارئ فوراً". "حالياً لا أسمع سوى صوت ارتطام الأجساد". "اصمت، بحقّ الربّ!". "إذاً، ارمِها في النار بسرعة!". "لا أقدر". قلبه لا يطيق، لقد صار الإنسان الوحيد بينهم. إنه مثل الأم التي ترمي ولدها من النافذة على أمل أن يلتقطه أحدهم، وهو ينتهي خائباً في النار. عابد النار أعتى شخصية. والآخر أرحم قلباً. يمكن تفهّم الاثنين، الاثنان يؤدّيان واجبهما، الاثنان يحترقان حتى النهاية، ولكن ما الذي تنتفعه الكتب من كلّ هذا؟

يستند كين منذ ساعة إلى الدرابزين ويشعر بالعار. يبدو لنفسه كمن

t.me/yasmeenbook

قضى حياته هباءً. كان يعلم أن البشر يعاملون الكتب كهمج، فقد حضر مزادات علنية كثيرة، ووجد فيها نوادر ما كان سيجدها في دور بيع الكتب التحفية. كان على استعداد لتقبّل كلّ ما يغني علومه. ولّدت فيه تلك المزادات انطباعاتٍ عميقة، مؤلمة. لن ينسى قطّ الكتاب المقدّس بترجمة لوثر، الذي تشاجر عليه أهل نيويورك ولندن وباريس مثل الحوم، ثم تبيّن في النهاية أنه مزيّف. سيّان عنده خذلان المضاربين المشعوذين، لكنه فُجع بأن الخديعة وصلت إلى هذه الأجواء. لقد جرح قلبه عميقَ الجرح إذ رآهم يلمسون الكتب قبل الشراء، يتفحّصونها، يفتحونها ويغلقونها، كأن الأمر يتعلق بعبيد. يعتبر النداء، العرض، المزايدة عن طريق بشر لم يقرؤوا في حياتهم ألف كتاب، صفاقةً صارخة. كان كلّما اضطرّ لدخول جحيم تلك المزايدات، رغب أقصى رغبة أن يأخذ معه مئة من المرتزقة المدججين بالسلاح، يهوي على التجار بألف، وعلى محبّي الكتب بخمسمئة سوط، ويصادر الكتب المعروضة في المزايدة لأجل رعايتها. لكن لا مقارنة لكل تلك المعاناة، رغم المرارة التي لا تغور، مع مؤسسة الرهنيّات. تشبّثت يدا كين بالتعشيقات، الفنية من ناحية والمبتذلة من ناحية أخرى، في حديد الدرابزين. جرّتها بأمل أن يسقط المبنى على رأس الجميع. أثقل عليه عار الوثنية. كان مستعداً لأن يُدفَن تحت الطوابق الستّة شرط ألا يعاد البناء من جديد. لكن من يثق بكلمة الهمج؟ أسقط إحدى النوايا التي جاء من أجلها: لن يطلع على الغرف الأخرى. فقد تحققت حتى الآن أكثر التنبّؤات سوءاً. كان الجناح الجانبي أكثر تفاهةً ووضاعة مما قيل له. عرض الدرج، الذي زعم دليله أنه يبلغ مئة وخمسين سنتمتراً، لا يتجاوز في الواقع مئة وخمسة سنتمترات. إن من تجرّد من نفسه يخطئ غالباً في تسلسل الأعداد. الوسخ متجمّع منذ عشرين يوماً وليس يومين فقط. جرس المصعد لا يعمل. الأبواب الزجاجية التي تؤدي إلى الجناح الجانبي مزيّنة بشكل سيّئ. اللوحة التي تشير نحو قسم الكتب مكتوبة بأصابع خرقاء،

t.me/yasmeenbook

مكتوبة على ورق مقوّى سيّئ النوع وبحبر هندي مزور. تحتها عُلّق بعناية وبحرف طباعي: الطوابع البريدية في الطابق الأول. عبر نافذة كبيرة يرى المرء باحة كبيرة. لون السقف غير محدّد. حتى في عزّ النهار يشعر المرء بضعف النور الذي يمنحه المصباح الكهربائي مساء. بدقّة تأكّد كين من كل هذا. إلا أنه خشي من أن يطأ الدرجات. لن يتحمل المنظر المرعب فوق. صحّته متدهورة. خاف من جلطة قلبية. يعرف أن كل حياة فانية، لكن عليه أن يقي نفسه ما دام يشعر فيها بالحمل العزيز عليه. أمال رأسه الثقيل عبر الدرابزين وشعر بالعار.

نظر إليه فيشرله بكبرياء. كان على مسافة جيدة من صديقه. كان يعرف مؤسسة الرهنيات معرفته بالسماء. أراد أن يفكّ علبة سجائر فضية لم يرَها من قبلُ قطّ. ربح بطاقة الرهنية من صعلوك بعد أن هزمه عشرات المرات في الشطرنج، ويحرص عليها حتى بعد دخوله في خدمة كين. قيل له إنها علبة سجائر جديدة وثقيلة، بضاعة فخمة. كان فيشرله قد نجح آلاف المرات في بيع بطاقات الرهنيات في تيريزيانوم إلى أناس تهمّهم تلك. وبعدد المرّات ذاته شهد كيف يتم فكّ كنوزه وكنوز غيره. علاوة على حلمه الكبير في بطولة العالم في الشطرنج، كان له حلم أصغر وهو أن يفك بطاقة رهنية يملكها هو، أن يرمي كامل المبلغ بفوائده أمام خطم العامل البارد، وينتظر ملكه أمام شباك الصرف مثل غيره، يتشمّم ملكه ويتفحّصه كأنه كان دائماً أمام عينيه وأنفه. بما أنه لا يدخن فهو ليس بحاجة إلى علبة السجائر، إلا أنه رأى أن الوقت قد حان الآن لتحقيق أحد أحلامه واستسمح كين إجازة ساعية؛ ورغم أنه شرح له السبب إلا أن كين رفض رفضاً مطلقاً. قال إنه يثق به كل الوثوق لكنه يحترس من أن يبتعد عنه لحظة منذ أن حمّله نصف المكتبة، فطمعاً بالكتب تتحول أكثر الشخصيات قوة إلى لصوص، فكيف يكون مفعول الغواية على إنسان ذكي، نهم إلى العلم، تضغط عليه الكتب للمرة الأولى بكل إغراءاتها.

t.me/yasmeenbook

الحمل المشترك. منذ ذلك الصباح، حين بدأ فيشرله بترتيب الكتب، لم يعد كين يفهم كيف كان يتحمّل العبء وحده. كادت دقّة خادمه أن تلقي به إلى المخاطر. قبلاً كان يستيقظ صباحاً ويخرج بأسفاره، لم يعنِ له قطّ شيئاً أن يتساءل كيف وجدت الكتب، التي صفّها في المساء السابق، طريقها إلى رأسه. كان يشعر بنفسه ممتلئاً ويمضي. وبتدخل فيشرله تغيّر كل هذا مرة واحدة. دنا في صباح الغارة الفاشلة بسيقان خشبية إلى سرير كين، طلب منه أن ينتبه وهو ينهض وسأل ما إن كان عليه أن يبدأ بالتحميل. وكما هو لم ينتظر جواباً، رفع أقرب حزمة بخفّةٍ عالياً ووضعها في رأس كين الذي ما زال مستلقياً. "صارت في الداخل" قال. وبينما كين يغتسل ويرتدي ثيابه، تابع الصغير، الذي لا يلقي بالاً للنظافة، العمل بهمّة. أنهى الغرفة الأولى خلال نصف ساعة. تقصّد كين إطالة مدة انشغاله بالاغتسال. فكر كيف كان يعمل حتى الآن ولم يجد جواباً. إذاً، فقد بدأ ينسى؛ للغرابة. لكنه لم يحزن ما دام الأمر يتعلق بالسخافات الشكلية. على كل حال يجب أن يحترس ويراقب نفسه جيداً، ليرى ما إن كان النسيان قد انتقل إلى مجال العلم أيضاً. سيكون هذا مخيفاً. فذاكرته كانت هبة ربانية حقيقية، ظاهرةً؛ حتى وهو تلميذ اختبر علماء نفس مشهورون استيعاب ذاكرته. في غمضة عين حفظ الثابت الدائري حتى 65 عدداً يمين الفاصلة غيباً. هزّ السادة العلماء رؤوسهم جمعاً وفرادى. ربما أرهق رأسه بأعباء شديدة. ليراقب هذا، خزن الكتب حزمةً حزمة، قلعة قلعة، وحرص على رأسه قليلاً. لا يحصل الإنسان إلا على رأس واحدٍ، ومرة واحدة فقط يتمكن من تثقيفها بكل هذا الكمال، ما يتدمر فيها يذهب ولا يعود. تنهّد بعمق وقال: "حياتكم هنيئة، عزيزي فيشرله!". فهم الأُنيسِن من فوره ماذا يعني: "تعرفون ماذا، أنا سأحمل الغرفة الثانية. فيشرله أيضاً له رأس. أم لا تصدقون؟". "حسناً، ولكن ...". "أي لكن. تعرفون ماذا، أنا أشعر بالإهانة أنا". وافق كين بعد تردّد طويل وأعطاه الرخصة. اضطرّ

t.me/yasmeenbook

فيشرله ليقسم بحياة الحذاقة أنه لم يسرق قط طوال حياته. علاوة على هذا أصرّ على براءته وكرّر القول: "لكن يا سيدي، مع هذه الحدبة. كيف تتصورون الحرامية؟!". فكر كين لحظة أن يطلب كفالة، لكنه غيّر خطته لأن أيّ كفالة لن تصرفه هو عن "غرامه" بالكتب. لكنه أردف: "من المؤكد أنكم حصان سريع السبق". أدرك فيشرله المصيدة ورد: "هل أنا كذاب أنا؟ إذا عملتم خطوة أعمل أنا نصف خطوة أنا. في المدرسة كنت دائماً أضعف متسابق". اختلق اسم مدرسة محتاطاً لأن يسأله كين عنه. في الحقيقة لم يدخل مدرسة قطّ. لكن كين كان ينازع أفكاراً أهم. فقد كان نصب عينيه أكبر دليل على الثقة في حياته. وقال بكل هوان: "أصدّقكم". شمت به فيشرله: "ترون؟! هذا ما أقوله أنا أيضا أنا!". بذلك عقد ميثاق الكتب. ولأنه الخادم أخذ الصغير النصف الأثقل على عاتقه. كان يتقدم كين على الشارع بخطوتين لا غير. لم تدع له الحدبة، الموجودة أصلاً، الفرصة ليبرهن على انحنائه المصطنع أكثر. لكن الخطوة المتثاقلة كانت تقدّم أسطع برهان. شعر كين بخفّة الأعباء عن كاهله. تبع موضع ثقته مرفوع الهامة دون أن يحيل نظره يميناً أو شمالاً، بل ركّزه على الحدبة، التي تهتزّ كحدبة جمل، ليس ببطء مثلها لكن بإيقاع. مدّ يده بين الحين والآخر ليتأكد ما إن كانت أنامله تصل إلى الحدبة. وإلا أسرع الخطو قليلاً. لقد وضع خطة محكمة لمحاولات الهرب. سيمسك بالحدبة بيد من حديد ويرتمي بكامل طوله على المجرم، حذراً من أن يتضرّر رأس ذاك. وحين تتحقق تجربة الذراع بالضبط، بحيث لا يضطرّ كين للإسراع ولا للإبطاء، يتولد فيه شعور مثير متألق، لا يعرفه إلا من وجد رفاهية الثقة بالقدرة على تجاوز أيّ محنة.

قضى يومين هكذا بذريعة الراحة من المشقّة التي عاناها والإعداد لمكتبة المستقبل، لآخر رحلة استكشاف في المدينة بحثاً عن مكتبات مجهولة. كانت أفكاره نيرة وفرحة، ساهم خطوة خطوة في عهد نهضة ذاكرته، قضى أول إجازة يمنحها لنفسه منذ وقت الدراسة الجامعية بصحبة

t.me/yasmeenbook

مخلوق خانع، رفيق يقدّر عالياً قيمة الحذاقة، كما يودّ تسمية الثقافة، ولا يزاحم رغم هذا، يحمل مكتبة لا يستهان بها، ولا يبادر من ذاته لفتح أيّ مجلّد من المجلدات التي يتحرّق لقراءتها. شكل مشوّه وحصان ضعيف باعترافه، ورغم هذا فيه من القوة والجلد ليبرهن على أنه عتال قدير. كاد كين يشعر بغواية الإيمان بالسعادة، الهدف الذليل الذي يسعى إليه الأمّيّون. إن جاء من نفسه ولم يتصيّده المرء، إن لم يتشبّث به بقوة وعامله بنوع من الاستخفاف، يمكنه أن يصبر عليه عدّة أيام، لا ضير.

عندما انبلج صباح اليوم الثالث من عصر السعادة، طلب فيشرله إجازة ساعية. رفع كين يده ليعلن الرفض. ولفعلها في ظروف أخرى. وبما أنه شديد الاطلاع على شؤون العالم قرّر أن يصمت ويكشف خطط الصغير الشريرة، هذا إن كان عنده خطة. اعتبر حكاية العلبة الفضية كذبة مفضوحة. بعد أن ألبس الـ"لا" مختلف الأثواب، ونطقها من ثم ببساطة وغضب، قال فجأة: "حسناً، سأرافقكم". فليقرّ الصغير البائس بنيّته القذرة، سيلحقه حتى الشباك ويشاهد من ثم بطاقة الرهنية وعلبة السجائر المزعومتين. وبما أن هاتين غير موجودتين، سيخرّ الوغد الخسيس على ركبتيه بحضور جميع الناس ويستسمحه باكياً. لاحظ فيشرله درجة الاشتباه وشعر حقّاً بالمهانة. ربما يعتبره ذاك مجنوناً. يسرق كتباً؟ وأيّ كتب هذه؟ هل لأنه يودّ الذهاب إلى أمريكا ويكسب رحلته بمرارة، يعامل معاملة إنسان لا حذاقة لديه؟

على الطريق إلى مؤسسة الرهنيات شرح لكين مداخلها ومخارجها. وصف له المبنى الهائل بكلّ حجراته من القبو إلى السقف. وفي النهاية أخفى تنهيدة صغيرة وقال: "الأحسن لا نحكي عن الكتب". التهب الفضول في قلب كين. ما برح يسأل ويسأل حتى استنبط من فم الصغير، الذي تظاهر بالهشاشة، الواقعة المرعبة. صدّقه لأن البشر قادرون على كل أنواع الخبث ولام نفسه لأنه عاند الصغير اليوم. وجد فيشرله نبرة لا يمكن

t.me/yasmeenbook

إهمالها، صوّر له طريقة استلام الكتب. قال إن من يقيّمها خنزير، ومن يصدر بطاقة الرهنية كلب، وإن حرمة تلفّها في مناديل متسخة وتلصق عليها أرقاماً. يجرجرها عجوز متهالك لا يني يسقط على الأرض. يتقطّع القلب لمرآه. يرغب المرء بالوقوف قليلاً وراء اللوحة الزجاجية حتى تجفّ دموعه ويستطيع العودة إلى الشارع، لأنه يخجل من العيون الحمراء، لكن الخنزير يخنخن: "لقد أخذتم ما تريدون"، يطرد المرء خارجاً ويغلق شباكه. لكن هناك طبائع رقيقة لا تذهب مباشرة. فيبدأ الكلب بالنباح، فيهرب المرء، لأنه يعضّ.

فلت لسان كين: "هذه همجية". كان قد لحق بالقزم خلال روايته. سار بجانبه بقلب متلعثم، وقف في منتصف الشارع، الذي سيتجاوزانه. أعلن فيشرله بنبرة متباكية: "هو مثل ما أقول أنا" وتذكّر الصفعة التي تلقّاها من الكلب بعد أن تردّد على المؤسّسة أسبوعاً كاملاً، يوماً إثر يوم، متوسلاً رقعة شطرنج قديمة. بينما كان الخنزير بجانبه يتمرّغ في شدّة السرور والشحم.

توقف فيشرله عن الكلام. فقد تصوّر أن انتقامه كافٍ. ظل كين أيضاً ساهماً. عندما بلغا هدفهما كان قد فقد كلّ اهتمام بعلبة السجائر. شاهد فيشرله يفكّها، ثم يفركها المرة تلو الأخرى بمعطفه: "ما عدت أعرفها. إنهم فعلاً يحفظون الأغراض جيداً". "أغراض". "ما أدراني ما إن كانت هذه علبتي أنا؟". "علبة". "تعرفون ماذا، سأشكوهم للشرطة أنا. كلّهم حرامية. لن أترك هذا يمرّ مرور الكرام. ألست إنساناً؟ حتى الشيطان الفقير عنده حقوق". اندفع بالحديث، حتى انتبه إلى كلامه المحيطون، الذي اكتفوا حتى الآن بالاستغراب من الحدبة. أخذ الناس، الذين يشعرون بنفسهم مخدوعين بجميع الأحوال، صفّ الحدبة، التي كانت أسوأ حظّاً منهم خلقة، رغم أنهم لم يصدقوا حكاية تبديل الرهنيات. أثار فيشرله تذمراً جمعياً، لم يصدّق أذنيه، الناس يستمعون إليه. تابع الحديث وعلت الدمدمة، كاد أن

t.me/yasmeenbook

يصرخ من شدّة الحماس، هدر بجواره إنسان سمين: "اذهبوا واشتكوا!". كرّر فيشرله فرك العلبة عدّة مرات، فتحها ونعق: "لا، لا، من قال هذا؟ تعرفون ماذا؟ إنها هي!". سامحوه على الإحباط الذي نشره بكل ذلك التهور، فرحوا لعلبته الصحيحة، فهو بالنهاية لم يكن سوى مكرسح مسكين. لو كان غيره للقي مصيراً أسوأ. سأله كين حين غادرا القاعة: "ما سبب تلك الضوضاء؟". اضطرّ فيشرله لتذكيره بسبب مجيئهم. أراه العلبة طويلاً حتى رآها. ولّد التخفيف من حدّة شبهة، ازداد وزنها قليلاً بعد آخر الأخبار، انطباعاً متواضعاً: "قدني إلى هنالك!". نطق الأمر.

ظل كين يشعر بالخزي ساعة كاملة. إلى أيّ مهالك يودي بنا هذا العالم؟ من الواضح أننا ننحو نحو الكارثة. ترتعد فرائص الخرافة بوجه رقم السنة الصحيح 1000 وأمام الشهب. والعارف، المقدَّس منذ أيام قدماء الهنود، يلعن كل الخزعبلات والشهب ويعلن: إن السبب في زحف الفساد هو العقوق الذي تسلّل إلى قلوب البشر، سيقضي هذا السمّ علينا كلنا. الويل لمن يخلفنا! إنهم ضالّون، سيستلمون منا مليون شهيد ووسائل التعذيب، التي سيضطرّون لاستخدامها كي يكملوا المليون الثاني. لا حكومة تصبر على هؤلاء القدّيسين. يبنون في كل مدينة محاكم تفتيش من ستّة طوابق على غرار هذه. من يدري، ربما يبني الأمريكان دور الرهنيات عندهم حتى تبلغ عنان السماء. هناك يذوق العذابَ الأسرى، الذين ينتظرون على المحرقة سنوات طوال، في الطابق الثلاثين. يا لها من طامة، هذه الزنازين العالية. ساعِد بدل أن تنوح؟ افعل بدل أن تدمع؟ كيف يبلغ المرء هنالك؟ كيف يسترشد إلى تفاصيل المكان؟ يقضي المرء حياته أعمى. ما الذي يراه من كل البؤس المرعب الذي يحيط به، متى يكتشف هذا العار، هذا العار القاتل، الدموي، البربري، إذا لم يشِ به مصادفة قزمٌ يؤمن بالحقّ، متردّداً من شدّة خجله، كأنما تلبّسه حلمٌ شرّير، منهاراً تحت عبء كلماته المروعة؟ يجب أن يُقتَدى

t.me/yasmeenbook

به. لم يتحدث لأحد قبلاً. كان يجلس صامتاً في ماخوره العطن، حتى وهو يلعب الشطرنج يفكر في صور البؤس التي رسخت في ذهنه إلى الأبد. كابد ولم يثرثر. كان يؤمن أن يوم الدينونة آتٍ لا ريب. انتظر، يوماً إثر يوم، يراقب الغرباء حين يدخلون مقهاه، يتلوّع لمرأى إنسان، لمرأى قلب، لمرأى أحد يرى، يسمع ويحسّ. أخيراً جاء هذا الأحد، فلاحقه، عرض عليه خدماته، تصاغر أمامه صاحياً ونائماً، ولم يتكلم إلا حين آن الأوان. لم يتعرّج الشارع إثر كلماته، لم يتساقط بيت، لم يزدحم السير، إلا أن أنفاس ذلك الأحد، الذي تحدث إليه، انقبضت، وكان ذاك كين. لقد سمعه، فهمه، سيقتدي بهذا القزم الأسطوري، الموت للثرثرة، حان وقت الفعل.

دون أن يرفع بصره أفلت الدرابزين ووقف بالعرض وسط الدرج الضيق. شعر بدفعة. بذلك تكون أفكاره قد بدأت تتحول ذاتياً إلى أفعال. حدّق في عيني الضالّ وسأل: "أيّ خدمة؟". كان الضالّ طالباً يكاد يموت جوعاً، يتأبّط حقيبة كتب ثقيلة. بيده أعمال شيلر ويأتي للمرة الأولى إلى مكتب الرهنيات. بما أن تلك الأعمال درست والطالب غارق إلى ما فوق أذنيه الطويلتين في الديون، دخل خجِلاً. وقبل أن يصل إلى الدرج انسحبت من رأسه الصغير آخر مسحة من الغطرسة. لماذا درس في الجامعة؛ كان الأب، الأم، الأعمام، العمات والأخوال والخالات في صف التجارة. تحفّز واصطدم بقامة حازمة، لا بد أنه المدير، يحدّق فيه ثاقباً ويأمره بالوقوف بصوت قاطع.

"أيّ خدمة؟!"

"أنا. كنت أريد دخول قسم الكتب".

"أنا هو".

الطالب، المذعور من البروفسورات وممّن هم على غرارهم لأنهم

t.me/yasmeenbook

يتسلّون بالسخرية منه طوال عمره، ومن الكتب لأنه يملك القليل فقط منها، مدّ يده إلى قبّعته ليرفعها. فتذكّر أنه لا يعتمر قبعة.

سأله كين مهدّداً: "علام تنوون فوق؟"

"لا شيء، فقط شيلر".

"أروني إياه!".

لم يجرؤ الطالب أن يمدّ الحقيبة إليه. كان متيقّناً أن لا أحد سيقبل منه مجلدات شيلر تلك. وهذه كانت أمله الوحيد للأيام التالية. لم يرغب أن يدفنه هكذا بسرعة. جرّ كين الحقيبة من يده بجذبة قوية. حاول فيشرله أن يعطي سيده إشارات وهمس أكثر من مرة: "بست، بست". أبهرته الجسارة على النهب علناً على الدرج. إذاً، ربما كان كار الكتب أكثر ذكاء مما ظن. ربما يتظاهر بالجنون. لكن لا يجوز هذا هنا على الدرج العام. لوّح خلف ظهر الطالب بيديه وهو يستعدّ للهرب عند الاقتضاء. فتح كين الحقيبة وفحص شيلر جيداً. أكّد: "ثمانية مجلدات. الإصدار بحد ذاته لا قيمة له، وضع المجلدات مخزٍ". اصطبغت أذنا الطالب بالأحمر الناري. "ماذا تريد مقابلها؟ أعني كم؟ نقود". نطق بالكلمة المستهجنة في آخر الجملة، وذلك أيضاً بتردّد. تذكّر الطالب من أيام فتوته، التي قضاها بالدرجة الأولى في دكان والده، أن عليه رفع السعر قدر الإمكان كي يخفضه بعد ذلك. "كلّفني وهو جديد 32 شيلينغاً". تبنّى نبرة أبيه وبناء جملته. تناول كين المحفظة، أخرج منها ثلاثين شيلينغاً ورقياً، أضاف عليها قطعتين معدنيتين، وسلم كامل المبلغ إلى الطالب وقال: "لا تعملوها مرّة أخرى البتّة يا صديقي! لا يوجد إنسان يستحقّ قيمة كتبه، صدّقوني!". أعاد له حقيبة الكتب المليئة وشدّ على يده بكل ودّ. كان الطالب مستعجلاً، لعن الشكليات التي ما زالت توقفه. كان قد وصل إلى الباب الزجاجي وفتح له فيشرله، المرتبك،

t.me/yasmeenbook

المجال عندما ناداه كين: "لماذا شيلر تحديداً؟ اقرؤوا الأصل. اقرؤوا إيمانويل كانط!". تبسّم الطالب: "أنت الأصلي" في دخيلته وجرى بأقصى سرعته.

تجاوز هيجان فيشرله كلّ طور. كاد يبكي. أمسك كين من أزرار بنطاله – كان المعطف مرتفعاً كثيراً – ونعب: "تعرفون ماذا يسمّون هذا الشيء؟ يسمّون مثل هذا الشيء جنون. الإنسان عنده فلوس أو ما عنده فلوس. إذا كان عنده فلوس، ما يبذّرها هكذا. إذا ما كان عنده فلوس، ما يبذرها بجميع الأحوال. هذه جريمة. اخجلوا على حالكم، يا طويل!".

لم يسمع كين كلماته. كان راضياً جدّاً عن عمله. استمر فيشرله في شدّ البنطال حتى انتبه له المجرم. من سلوك الصغير شعر بالتوبيخ الصامت، كما قال لنفسه، وكي يسكّنه روى له عن الانحيازات النفسية التي تغتني بها حياة الإنسان في بلدان عجيبة.

كان أثرياء الصين، الخائفون على خلاص أرواحهم في العالم الآخر أيضاً، يرصدون مبالغ طائلة على تربية التماسيح والخنازير والسلاحف وغيرها من الحيوانات في المعابد البوذية. يحفرون بركاً أو يزرعون مراعي خاصة للحيوانات، وليس للرهبان من عمل سوى رعايتها، والويل لهم إذا عانى أحد تلك التماسيح الخيرية الألم. الخنزير السمين ينعم بموت رحيم طبيعي والمنعم النبيل بالجزاء على فعل الخير. يكسب الرهبان الكثير بحيث يستطيع الجميع الارتزاق منه. أما في اليابان، فحين يزور المرء مزاراً يرى على حافتي الشارع أطفالاً يقعون أمام طيور حبيسة في أقفاصها، قفص صغير بمحاذاة الآخر. ترفرف الحيوانات المدجنة بأجنحتها وتؤدّي صراخاً عالياً. يذرع الحجاج البوذيون الشارع دون هوادة ويغدقون بالحسنات على الحيوانات من أجل خلاص أرواحهم. مقابل فدية صغيرة يفتح الأطفال أبواب الأقفاص ويطلقون سراح الطيور. افتداء الطيور تقليد جمعي هنالك. ما يهمّ الحجّاج إذا أعاد الملّاك الطيور المدجنة إلى الأقفاص؟ يقدم الطير منها خدماته عشر مرات،

t.me/yasmeenbook

مئة مرّة وألف مرة خلال حياته في الأسر جالباً نعيم الخلاص للحجاج. هؤلاء، باستثناء عدة نماذج فلاحية ضيقة الذهن، يعرفون تماماً ما يحدث للطيور ما إن يديروا ظهورهم لها، لكنهم لا يكترثون بمصيرها العملي.

استخلص كين العبرة من قصته: "من السهل إدراك السرّ. إنها بالنتيجة ليست إلا حيوانات. والمرء لا يكترث بها طبعاً. سلوكها الأحمق يوجّهها. لماذا لا تفرّ؟ لماذا لا تتقافز على الأقل حين يقصقصون أجنحتها؟ لماذا تغترّ مرّة أخرى؟ لتحلّ لعنة الغباء الحيواني على رأسها! إن للافتداء بذاته ولذاته مغزى أعمق مثل كل خرافة أخرى. إن الأثر الذي يتركه مثل ذلك الفعل على الإنسان الذي يقوم به يتعلق طبعاً بالشيء الذي يفتديه. لو راهنوا على الكتب، الكتب الحقيقية، الذكية، عوض تلك الحيوانات السفيهة، لكسب الفعل الذي يجترحونه أسمى قيمة أخلاقية. لأصلحوا الضالّ الباحث عن ملاذ في الجحيم. ثقوا أن أعمال شيلر هذه لن تجد طريقها مرّة ثانية إلى هذا المذبح. إنكم إذ تصلحون إنساناً، يحقّ له حسب عدالة اليوم – أقول جور اليوم – أن يحوز الكتب بحرّية، لكأنها حيوانات أو عبيد أو عمال، تضعون قدر كتبه في سبيل أفضل. سيرتمي شخص، ذكّره أحدهم بواجبه بهذه الطريقة، تحت أقدام ما كان يعتبرها خادماً له، والأصل أن يكون هو خادماً لها، ويدعو إلى الصلاح. وحتى لو كان أحدهم غليظ القلب، لا يمكن إصلاحه، فإنكم تنقذون ضحاياه من النار بافتدائها بالمال. هل تعرفون معنى أن تحترق مكتبة؟ مكتبة في الطابق السادس؟ تصوّروا هذا مجرّد تصوّر! عشرات آلاف المجلدات، ملايين الصفحات، مليارات الحروف، كل حرف يحترق، يتضرّع، يصرخ، يزمجر منادياً: النجدة! هنا يتمزّق غشاء طبل السامع، تتمزّق نياط قلبه، لكن دعنا من هذا. إنني سعيد الآن سعادة لم أشعر بها منذ سنوات. سنكمل الدرب الذي بدأناه. إنه لضئيل ما نتبرّع به لتخفيف الوجع العام، لكن لا بد من إنهائه. لو أن كلّ امرئ قال أنا وحدي ضعيف، فلن يتغير شيء، بل يلتهم البؤس المزيد. ثقتي بكم أنتم لا حدود لها. لقد جرحت مشاعركم قبل الآن لأني لم أشِ

t.me/yasmeenbook

لكم بنواياي. لقد اتخذت صيغتها النهائية لما أفقدَتني أعمال شيلر القدرة على الكلام. وعطفاً عليه أعلن لكم الآن الشعارين اللذين ستجري عمليّتنا تحتهما: "ساعِدْ بدل أن تنوح! افعل بدل أن تدمع! كم معكم من النقود؟"

فيشرله، الذي قاطع سرديات كين في بدايتها بصيحات غاضبة على غرار: "أنا ما دخلي بأهل اليابان؟"، "لماذا ليست أسماك ذهبية؟" ووصف الحجّاج الورعين بالصعاليك، ولم يفوّت كلمة واحدة رغم هذا، هدأ عندما جاء الحديث على التبرع وخطة المستقبل. فكر كيف يقي نفسه من خسارة الأموال المخصصة للرحلة الأمريكية، المال الذي كان ملكه، كان بين يديه ولم يرجعه إلا من باب الحيطة مؤقتاً، فنزل به سؤال كين: "كم معكم من النقود؟" من طباق السماوات. صرّ على أسنانه وصمت، طبعاً من باب الحرص على المصالح، وإلا لعبّر عن رأيه بوضوح. بدأت الملهاة تتضح له. السيد النبيل نادم على المكافأة التي استحقّها فيشرله على جهوده. يجبن عن أن يأخذ منه الفلوس في الليل، كما أنه ما كان سيجدها، فقد دسّها فيشرله ليلاً بين رجليه. وماذا يفعل هذا السيد المحترم، المدّعي أنه عالم وأمين مكتبة، وهو في الحقيقة ليس حتى كار الكتب، ويتحرك بكل حرية مثله مثل أيّ غشاش لأنه ليس عنده حدبة، ماذا يفعل؟ آنذاك، حين وقف على مخرج السماء، كان فرحاً باستعادة الفلوس التي سرقها من يعلم من أين. خاف أن ينادي فيشرله الآخرين ولهذا أعطاه المكافأة بسرعة. ولكي يستعيد نسبة العشرة في المئة هذه قال له بكرم: "ادخلوا في خدمتي"، وماذا يفعل هذا المشعوذ بعد ذلك؟ يتظاهر بالجنون. والحقّ يقال إن طريقته في هذا مبدعة. لقد وقع فيشرله في حباله. لعب له ساعة كاملة على المشاعر حتى جاء واحدهم بكتب. وطبعاً يضحي لأجلها باثنين وثلاثين شيلينغاً بكل سرور، إذا كان سيأخذ من فيشرله عشرة أضعاف. إنسان يتلاعب بهذه المبالغ الطائلة ولا يرضى لنشّالٍ مسكين بالمكافأة الزهيدة. يا لهم من تافهين هؤلاء السادة الأكابر! لا يجد فيشرله

t.me/yasmeenbook

كلمات مناسبة. ما كان يتوقع هذا. وأقل ما يتوقعه كان من هذا المجنون. إنه غير ملزم أن يكون مجنوناً في الواقع، طيّب، لكن لماذا هو بكل هذه الوساخة؟ سيردّها له فيشرله. ويعرف دائماً أن يحكي حكايات حلوة أيضاً. هذا الإنسان عنده حذاقة. وهنا يلاحظ فوراً الفرق بين نشّال مسكين ودجّال شاطر. يصدّقه الجميع في الفنادق. حتى فيشرله كاد يصدّقه.

بينما هو يغلي حقداً ويهمد في الآن ذاته إعجاباً، لامسه ذاك بحميمية وقال: "لم تعودوا غاضبين مني، أليس كذلك؟ كم معكم من النقود؟ علينا أن نتعاون!".

فكّر فيشرله: "يا قرباطي! أنت تلعب جيداً، لكن سألعب أفضل منك". ثم أفصح بصوت عالٍ: "سيكون معي حوالي ثلاثين شيلينغاً"، كانت البقية مخبّأة.

"هذا قليل لكنه أحسن من لا شيء". لم يعد يتذكر أنه أهدى الصغير مبلغاً طائلاً قبل عدّة أيام. تقبّل تبرّع فيشرله للفور، شكره من أعماق قلبه على رغبته العارمة في التضحية، وكاد أن يبشّره بنعيم السماء.

ابتداء بذلك اليوم خاض الاثنان صراعاً على الحياة أو الموت كلٌّ منهما ضد الآخر، أحدهما لا يعلم به أدنى علم. الآخر، الذي يشعر أن قدراته على التمثيل أضعف، استلم المبادرة راجياً أن يعوّض عن نقيصته بهذه الطريقة.

صباحاً بعد صباح راح كين يتسمّر أمام القاعة. يسير قبل افتتاح شبابيك الصرف قرب البوابة الرئيسية لمؤسسة تيريزيانوم الخيرية ويراقب المارّة بدقّة. حين يتوقف أحدهم، يتقدم نحوه ويسأل: "ماذا تريدون هنا؟"؟ لا تزحزحه أكثر الردود فظاظة وإساءة. أظهر له نجاحه أنه على حق. من يمرّ قبل الساعة التاسعة في هذا الزقاق، يتطلع حوله من باب الفضول إلى اليافطات في الخارج، ويقرأ منها موعد المزايدة التالية وتوقيتها وما هي بضاعتها. تعتبره الطابع المذعورة عميلاً سرّياً يراقب كنوز تيريزيانوم

t.me/yasmeenbook

ويتهربون بسرعة من أي نزاع معه. أما الرزينون منهم فيعون سؤاله بعد تجاوز زقاقين. يشتمه المتهورون ويطيلون المكوث أمام اليافطات خلافاً لطباعهم. يستجيب لهم، يتقرّى وجوههم، يعتبرهم مدركين خطيئتهم التي لا يغفرونها لأنفسهم، يستطلعون المكان قبل أن يعودوا متأبّطين قرابينهم بعد ساعة، ربما. وإن لم يعودوا، فلأن نظراته كانت ثاقبة. في أوقات معينة يدخل الغرفة الأمامية للجناح الجانبي. من يفتح الباب يصطدم أول ما يصطدم بالكائن الأعجف، القائم كشمعة بجانب النافذة، ويضطرّ للمرور به قبل أن يصل إلى الدرج. عندما يخاطب كين أحدهم لا تتحرك قسماته. يحرك شفتيه فقط، السكينتين المشحوذتين. همّه الأول إنقاذ الكتب، وهمّه الثاني إصلاح الوحوش البشرية. كان محيطاً بالكتب ولا يعلم عن البشر، كما أقرّ لنفسه، إلا القليل. لهذا قرّر أن يكون عليماً بالبشر.

ولكي يصنّفهم قسمهم إلى ثلاث فِرق حسب طريقة دخولهم عبر الباب الزجاجي. الحقيبة المليئة عبء للفرقة الأولى، خطيئة للثانية، وللثالثة عشق. الأولى تمسك الكتب باليدين معاً، دون رشاقة، دون حب، كما يحمل المرء طرداً ثقيلاً. بها يفتحون الباب، يكشطون الدرابزين أيضاً إن وصلوا إليه. وبما أنهم يودّون التخلّص من حملهم بسرعة، لا يفكّرون بإخفائه ويحملونه دائماً على صدورهم أو بطونهم. يوافقون على كل عرض ويرتضون بأي مبلغ، لا يساومون ويخرجون تماماً كما دخلوا؛ أخفّ بمقدار فكرة، لأنهم يسحلون نقوداً وبعض الشكوك في قانونية قبولها. يبغض كين هذه الفرقة، فاستيعابهم بطيء جداً وعليه أن يقضي مع كل منهم ساعات طويلة حتى يصلحهم نهائياً.

إلا أنه يصبّ حقده الحقّ على الفرقة الثانية. فأصحابها يخفون الكتب على ظهورهم. ومثلهم مثل أصحاب الفرقة الأول يظهرون شقّاً صغيراً بين الذراع والأضلاع ليثيروا طمع الشاري. لا يوافقون على ألمع العروض إلا بارتياب. يرفضون فتح الحقيبة أو العلبة. يساومون حتى آخر لحظة ويأخذون

t.me/yasmeenbook

بالنهاية أكثر مما يستحقّون. كما أن بينهم من يدسّ النقود في جيبه ثم يرتقي الدرج إلى الجحيم. وهنا يشدّ كين أوتاراً يستغرب منها فيه: يدلّهم على الطريق ويطالبهم بإعادة النقود فوراً. يركضون حين يسمعون هذا. القليل في الجيب أحسن لهم من الكثير تحت السقف. كان كين واثقاً كل الثقة أنهم هناك، فوق، يدفعون مبالغ طائلة. كلما أفرط في العطاء وكلما قلّت نقوده، ضاق عليه الخناق في المنافسة الوضيعة مع الشيطان في الأعلى.

لم يهلّ من الفرقة الثالثة أحد بعد. لكنه واثق أنها موجودة. ينتظر، بصبر وشوق، ممثليها الذين يعرف سيماهم كما يعرف المؤمن التعاليم الكنسية. ذات يوم سيظهر الرجل الذي يحمل كتبه بعشق، طريقه إلى الجحيم مرصوف بالعذابات، ينهار لولا أن أصدقاءه ينفخون فيه نبض الحياة. يمشي كالمسرنم. يظهر خياله خلف الباب الزجاجي، يتردّد، كيف له أن يفتح الباب دون أن يؤذي أصدقاءه أدنى أذى؟ يفلح. الحب أمّ الاختراع. يحمرّ كالنار حين يرى كين، ضميرَه المتجسّد. يلملم قواه مركّزاً كلّ إرادته ويتقدم بضع خطوات. مطأطئ الرأس. يقف بحذاء كين ملبّياً نداءً داخلياً قبل أن يكلّمه. يحدس ما الذي سيقوله له الضمير. تنطلق الكلمة المروّعة: "نقود". يرتجف، كمن حكم عليه بالموت على المقصلة، يبدأ بالنحيب: "هذه لا، هذه لا!". لا يأخذ النقود، يفضّل أن يطعن نفسه قبل ذلك. يودّ الهرب. تخونه قواه. لكن عليه أيضاً أن يتحاشى أيّ خضّ كي لا يؤذي أصدقاءه. يعانقه الضمير ويطيّب خاطره. يقول إن خطّاءً تاب لأفضلُ من ألف تقيّ. ربما أوصى له بمكتبته. حين يأتي، سيترك موقفه ساعة، هذه الساعة فقط؛ هذا الواحد الذي لا يأخذ يوازي ألف طماع. وما دام هو بالانتظار سينفق ماله في سبيل الألف. ربما صلح واحد من الفريق الأول. لا أمل له في الثاني. سينقذ جميع القرابين. ولهذا يقف هنا، لا لأجل متعته الخاصة.

فوق رأس كين على اليمين عُلّقت لوحة تحظر الوقوف على الدرج

t.me/yasmeenbook

والممرات وكذلك قرب المدفأة. نبّه فيشرله خصمه اللدود لهذا منذ اليوم الأول. قال: "سيظن الناس أنكم ما عندكم فلوس، هنا لا يقف أحد غير الذين ما عندهم فلوس، وهؤلاء غير مسموح لهم بالوقوف. ينطردون. التدفئة ليس بالمجان. حتى لا تنصاب فطنة الناس بالزكام لمّا يطلعون على الدرج. إذا برد الواحد لازم يطلع فوراً. لأنه يمكن يستطيب القعدة. إذا ما برد، يحق له يبقى. بالنسبة لكم، يتصور الكلّ أنكم تتجمدون من البرد".

"غير أن المدفأة تقع بين طابقين، خمس عشرة درجة في الأعلى"، ردّ كين.

"لا تدفئة بالمجان مهما كان ضعيف. تعرفون ماذا، هناك، في المحل الذي واقفون أنتم فيه، وقفت أنا مرة وانطردت رغم هذا". لم يكن يكذب.

تذكّر كين أن منافسيه يبذلون قصارى جهدهم ليطردوه، وقبِل اقتراح الصغير في أن يحلّ محلّه بكلّ شكر. كان حبّه لنصف المكتبة، الذي كلّفه بحمله، قد شحب. هناك مخاطر أكبر. ولم يعد يتوقع الخديعة بعد أن تعاهدا على العمل المشترك تحت شعارات موحدة. عندما اتجها في اليوم التالي إلى مكان العمل، قال له فيشرله: "تعرفون ماذا؟! امشوا أمامي، نحن لا نعرف بعض. أنا سأبقى في الخارج أنا. من قال إنكم ثقيل عليّ. لن أقول لكم أساساً أين أنا. إذا لاحظوا مرة أننا نشتغل مع بعض، ضاع كلّ تعبنا على الفاضي. في حالات الطوارئ أطل عليكم وأغمز لكم بعيني أنا. في الأول تركضون أنتم وبعدها أركض أنا. لن نركض مع بعض. موعدنا وراء الكنيسة الصفراء. هناك تنتظروني حتى أجيء. مفهوم!". وكان سيزعل حقّاً لو رفض اقتراحه. ولأن له مصلحة مع كين لا يفكر في التخفّف منه. هل من يصدّق أنه سيهرب بسبب مكافأة بسيطة، بسبب بقشيش، بينما هو طامع في كل المال؟ كشف المشعوذ، كار الكتب، هذا الكلب الفهيم، القسم الصادق من نواياه وأطاعه.

t.me/yasmeenbook

الأربعة والمستقبل

ما إن اختفى كين في المبنى حتى خفّ فيشرله إلى الناصية التالية، دخل زقاقاً جانبياً وبدأ بالركض بأقصى قوى جسده. لما وصل إلى "السماء المثلى" منح جسده المتعرّق، اللاهث، الواهن، بعض الراحة ثم دخل. عادةً ما كان أغلب سكان السماء نائمين في هذه الأوقات. وكان قد حسب حسابه، لهذا فهو بغنى عن أناس خطرين وعنيفين. كان الحضور: النادلُ الطويل؛ تاجر شنطة، استخلص من أرقه الدائم ميزة واحدة على الأقل فيظل سائحاً أربعاً وعشرين ساعة في اليوم؛ عاجزٌ ضرير يستخدم عينيه مادام يحتسي القهوة الرخيصة قبل بدء يوم العمل؛ بائعة جرائد عجوز يلقبونها الصيادة[1]، لأنها تشبه فيشرله وتحبّه سّراً حبّاً يائساً كما يعلم الجميع؛ ثم منظفُ قنوات اعتاد أن يستريح من عناء الخدمة الليلة وعطن المراحيض في غلالة رائحة السماء. ويعتبر الوحيد المستقر بين المتردّدين على المكان لأنه يقتطع ثلاثة أرباع أجره الأسبوعي لزوجته، التي ولدت له ثلاثة أطفال في حياة زوجية سعيدة، ويصب الربع الباقي خلال ليلة أو نهار في صندوق مالكة السماء.

وضعت الصيادة جريدة أمام حبيبها الداخل، وقالت: "خذها! أين كنت طول الوقت؟". كان فيشرله يتخفّى عدة أيام حين تتعقّبه الشرطة ويقولون: "راح إلى أمريكا" ويضحكون كل مرة على المزحة ذاتها – كيف يستطيع مسخ الذهاب إلى بلاد ناطحات السحاب العملاقة - ثم ينسونه

1) "الصيادة": فيشرين، تلاعب على اسم فيشرله، الذي هو بالأساس فيشر، ويعني الصياد، صياد السمك.

t.me/yasmeenbook

حتى يظهر من جديد. لم يكن عشق زوجته، المتقاعدة، يصل بها إلى حدّ القلق على غيابه. تحبّه مادام قربها وتعلم أنه اعتاد التحقيقات والزنازين. ومع المزحة الأمريكية تفكر كم ستكون سعيدة لو احتفظت بكل أموالها لنفسها. فهي تفكر منذ زمن بعيد في شراء صورة للعذراء لتعلّقها في مخدعها. لكل متقاعدة أيقونتها. ما إن يتجرّأ على الخروج من مخابئه، التي يلجأ إليها غالباً وهو بريء، ذلك أنهم يحتفظون به دائماً على ذمة التحقيق ويأخذون منه رقعة الشطرنج، حتى يذهب أول ما يذهب إلى المقهى، ويصبح بعد عودته بعدة دقائق طفلها المدلل من جديد. أما الصيادة فكانت الوحيدة التي تسأل عنه يومياً وتعرب عن كلّ الأسباب الممكنة لغيابه. يحقّ له قراءة جرائدها بالمجان. قبل أن تبدأ جولتها تعرج مسرعة إلى السماء، تضع الصفحة العليا لحزمتها الخارجة للتو من المطبعة أمامه وتنتظر، متحمّلة عِبأها الثقيل تحت الذراع، حتى ينتهي من القراءة. يحقّ له فتح الجريدة، تجعيدها، طويها بشكل سيّئ، ولا يسمح للآخرين إلا بالنظر من فوق كتفيه. حين يكون معتكر المزاج، يطيل القراءة عمداً، وهي تعاني خسائر فادحة. عندما يهزؤون بها على غبائها، الذي يتجاوز الأفهام، ترفع كتفيها وتهزّ حدبتها – وهذه لا تقل شأناً وقوة تعبير عن حدبة فيشرله – وتقول: "هو الشيء الوحيد الذي أملكه في الدنيا". ربما كانت تحب فيشرله كرمى لهذه الجملة الأليمة، التي ترشقها بنبرة فيها جلبة، كأنها تنادي على جريدتين "الوحيد" و"ملك الدنيا".

لم يكن لفيشرله اليوم نظرة إلى جريدتها. تفهّمت هذا، فالصحيفة لم تعد طازجة بعد، تصوّرت بحسن نيتها أنه لم يحصل على ما يقرؤه منذ زمن بعيد، فمن يعلم من أين يأتي؟ أمسكها فيشرله من كتفيها – كانت قصيرة مثله -، هزّها وصاح كديك: "تعالوا يا ناس، لكم عندي خبر!". عدا النادل المسلول، الذي لا يرضى أن يأتمر بأوامر يهودي، لا يتمتع بأي فضول وظل هادئاً عند البوفيه، تقدّم إليه الحشد، أي ثلاثة، وكادوا يقتلونه من شدة

t.me/yasmeenbook

الاهتياج. "معي يقدر كل واحد يكسب عشرين شيلينغاً في اليوم. أتوقع ثلاثة أيام". "ثمان كيلوات صابون تواليت"، حسبها تاجر الشنطة متسرّعاً. مرتاباً عاين الأعمى عين فيشرله. همهم منظف القنوات: "هذي نكتة!". علّقت الصيادة: "معي" وتغافلت عن المبلغ.

"أنا فتحت شركة خاصة. وقِّعوا لي على أنكم تسلّمون كل شيء للمدير، وهذا أنا، وأنا أعيّنكم". أبدوا رغبة في أن يفهموا أولاً ما هي طبيعة العمل. إلا أن فيشرله امتنع عن إفشاء أسرار الشركة. اكتفى حاسماً بأنها كار، ولن يقول أكثر من أنه كار. سيأخذ كلٌّ منهم خمسة شيلينغات مقدماً في اليوم الأول. وهذا ما جلب الرضا. "يتعهد الموقع أدناه ويؤكد فوراً أنه استلم كل قرش بتفويض من شركة زيغفريد فيشر. يتحمل الموقع أدناه كامل المسؤولية عن الأضرار المترتبة". على الفور كتب فيشرله هذه الجمل على أربع وريقات من دفتر ملاحظات قدّمه له تاجر الشنطة. باعتباره رجل الأعمال الوحيد بين الحاضرين، كان يأمل أن يصبح مساهماً في الشركة ويتحمّل أكبر المهمّات، وأراد أن ينظر إليه المدير بعين العطف. كان أول الموقعين هو منظف القنوات، ربّ العائلة وأغبى الحاضرين. ضجّ فيشرله لأن التوقيع كبير مثل توقيعه، فقد كان يتصور أن توقيعه أكبر توقيع. سبّ: "طويل لسان"، فاكتفى تاجر الشنطة بزاوية قصيّة واسم ضئيل. "لا أحد يقدر يقرأ هذا"، أعلن فيشرله وأرغم الرجل، الذي يرى نفسه نائباً عامّاً، على خطّ أقلّ تواضعاً. رفض الأعمى أن يوقّع قبل أن يرى النقود. لقد اضطرّ كثيراً للنظر إلى الناس وهم يرمون أزراراً في قبعته، ولم يعد يثق بأحد حين يكون خارج أوقات الدوام. قال فيشرله متقزّزاً: "ماذا؟! كأني سبق أن كذبت على أحد!". أخرج من تحت إبطه بضعة أوراق متجعّدة، دسّ في يد كلّ رجل ورقة نقدية من فئة خمسة شيلينغات، ووقّعهم على وصل المقدّم. قال الأعمى: "هذا شيء ثانٍ. الوعد شيء وتنفيذه شيء. إذا اضطرّيت، أروح أشحذ لأجل إنسان كهذا". أعلن تاجر الشنطة أنه يسير على الجمر لأجل

t.me/yasmeenbook

مديرٍ كهذا، ومنظف القنوات أنه معه في السراء والضراء. تردّدت الصيادة وحدها، زعمت: "مني لا يحتاج توقيع. هو الشي الوحيد الذي أملكه في الدنيا". كان فيشرله يعتبر خنوعها بداهة بحيث أنه أدار لها ظهره منذ تحية الصباح. حدبته تعزّز قوّتها، من هذه الناحية يمدّها بالحب لا بالخوف. لم تكن المتقاعدة في المحلّ، ولهذا تكاد تبدو كأنها زوجة المدير الجديد. ما إن سمع هذا صفاقتها حتى استدار إليها، وضع الريشة في يدها وأمرها: "اكتبي! أنت ما يحقّ لك ولا كلمة!". أطاعت نظرة عينيه السوداوين؛ عيناها ليستا أغمق من الرمادي؛ وأكّدت على الخمسة شيلينغات مقدّماً دون أن تستلمها أساساً. "انتهينا" قال فيشرله ودسّ الوريقات الأربع بعناية وهو يتنهّد: "ما الذي يأخذه واحدنا من الشغل؟ ولا شيء غير الهمّ. أقسم لكم، أفضّل أن أكون ذلك الرجل الصغير الذي كنته من قبل. أنتم حياتكم هنيئة"، كان يعرف أن الراقين يتحدثون هكذا إلى موظفيهم سواء كانوا على قلق أم لا. وهو حقّاً قلق. ثم قال: "لنذهب!" ولوّح، كمنعمٍ قصير، من تحت إلى فوق، للنادل وغادر المحلّ مع موظفيه الجدد.

شرح لهم على الطريق ما هي واجباتهم. انتحى بكلٍّ منهم على حدة، بينما يلحق به الثلاثة الآخرون على مسافة، كأنه لا يعرفهم. بدا له ضرورياً أن يعامل الناس حسب مستوى حذاقتهم. بما أنه مستعجل ويعتبر منظّف القنوات أكثرهم جدارة بالثقة، فضّله على الآخرين ما أثار غضب تاجر الشنطة.

قال له: "أنتم أبٌ طيب ولهذا فكرت فيكم أولاً. إنسان يعطي حرمته خمسة وسبعين بالمئة من أجره، يقدَّر بالذهب. انتبهوا جيداً ولا تخربوا بيتكم بيدكم!". قال إنه سيعطيه طرداً، اسم الطرد "فنّ" - "ردِّد ورائي: فنّ!". "وأنتم تظنّون أني ما أعرف ما يعني فنّ، لأني أعطي المرأة كثير من فلوسي". كان سكان السماء يتندّرون على منظف القنوات بسبب وضعه العائلي، الذي يحسدونه عليه. من خلال لكزات كثيرة على كرامته الخرقاء

t.me/yasmeenbook

تمكّن فيشرله من نبش القليل من الذكاء الذي يملكه الرجل. وصف له الطريق ثلاث مرات بمنتهى الدقة. لم يكن منظف القنوات قد ذهب إلى تيريزيانوم من قبل. كانت زوجته تتحمل مسؤولية المشاوير الضرورية. قال له إن العميل يقف وراء الباب الزجاجي عند النافذة. هو طويل ونحيف. تمرّ جنبه على مهل، لا تقول ولا كلمة، ولا كلمة واحدة، وتنتظر حتى يكلّمك. ثم تصرخ بصوت عالٍ: "فنّ يا سيد، بأقل من مئتي شيلينغ لا أرضى. كله فنّ". ترك فيشرله منظف القنوات ينتظره أمام مكتبة. اشترى بضاعته. عشر روايات رخيصة بسعر شيلينغين اثنين لكل رواية تم تعليبها بشكل جميل. أعيدت التعليمات السابقة ثلاث مرات، وبذلك افترض أن الغبي ذاته فهمها. إذا أراد العميل أن يزيل الورق عن الكتب، عليه أن يتمسك بها بقوة ويصرخ: "لا، لا!". عليه أن يحضر في نقطة معيّنة خلف الكنيسة مع النقود والكتب. هناك سيحصل على أجره. يحقّ له الحضور غداً الساعة التاسعة صباحاً خلف الكنيسة شرط ألا يخبر أحداً بطبيعة عمله، ولا حتى الموظفين الآخرين. فهو، فيشرله، قلبه على منظفي القنوات الشرفاء، لأنه ليس بالضرورة أن يكون كل الناس أولاد كار. مع هذه الكلمات أخلي سبيل رب العائلة المحترم.

بينما منظف القنوات ينتظر أمام المكتبة تابع الثلاثة الآخرون طريقهم نزولاً عند أمر المدير، دون أدنى إحساس بنداءات زميلهم، الذي نسي التعليمات القديمة بسبب الجديدة. وكان فيشرله قد حسب هذا الحساب. انعطف منظف القنوات في زقاق جانبي، قبل أن يلاحظ الآخرون العلبة التي يحملها مثل رضيع فريد لأهل أثرياء. صفر فيشرله. لحق بالثلاثة الآخرين وأخذ الصيادة. أدرك تاجر الشنطة أنه منذور لمهام أخطر وقال للأعمى: "ستشوفون، أنا سأكون الأخير".

اختصر الصغير الأمر مع الصيادة. "أنا الشيء الوحيد الذي تملكينه في الدنيا"، ذكّرها بجملة العاشقة المفضلة. "تعرفين، كل واحدة تقدر تقول

t.me/yasmeenbook

هذا. أنا أريد البراهين أنا. إذا سرقت قرش واحد انتهى كل شيء بيننا ولن أمدّ يدي إلى جريدة واحدة من جرائدك بعد اليوم. أقسم لك. وطبعاً يمكنك وقتها أن تنتظري حتى تجدي واحد ثاني يشبهك تماماً". ثم تمت الشروحات التالية بسرعة قصوى. كانت الصيادة مبهورة بالكلمات التي تتدفق من فم فيشرله، ولكي تستمتع بمرآه وهو يتحدث، تصاغرت أكثر مما هي. هو لا يستطيع التقبيل بسبب الأنف وهي الوحيدة التي تعرف فمه. كانت خبيرة في دار الرهنيات. أمرها أن تسبقه وتنتظر المدير وراء الكنيسة. فهناك ستحصل على علبة عليها أن تكسب بها مئتين وخمسين شيلينغاً ثم تعود إلى مركزها بالمال والعلبة. ثم هتف في النهاية: "اركضي!". كان يشمئزّ منها لأنه تظل على حبّه.

توقف على الناصية التالية حتى التحق به "الأعمى" وتاجر الشنطة. ترك الأخير الأعمى يتقدّمه وأومأ للمدير بسرعة وتفهّم. "أنا غضبان" زعم فيشرله وألقى بنظرة وقار على الأعمى الذي يتطلّع رغم لباس العمل المتشقّق إلى كل امرأة ويحدق فيها بارتياب. كان يريد أن يعرف تأثير شاربه الجديد عليها. يكره الفتيات لأنهن يتقزّزن من مهنته. أردف فيشرله: "رجل مثلكم ويترك الآخرين يغشّوه!؟". تنبّه الأعمى. "يجيء واحد ويرمي زرّ في القبعة. أنتم بنفسكم حكيتوها لي. شوفوا، هو زرّ، وتقولون شكراً. إذا ما قلتم شكراً انكشف سرّ العمى وتبخّر الزبائن. ولأجل هذا تسمحون للآخرين أن يغشّوكم. وأنت أيضاً تقول عن نفسك رجل! الواحد يتمنى يقتل نفسه لو كان مكانك. الغشّ وساخة. معي حقّ وإلا ما معي حقّ؟". اغرورقت عينا الأعمى بالدموع، الرجل الفارع، الذي خدم الجيش في الحرب الأخيرة ثلاث سنوات على الجبهة الأمامية. فقد كانت الخديعة التي يذوقها يومياً أكبر مصادر همّه. لأنه مضطرّ لكسب الرزق بهذه الطريقة، يجرؤ طفل مقمّل على السخرية منه كحمار. غالباً ما فكّر جادّاً بقتل نفسه. ولولا أن له بعض الحظوة لدى النساء هنا وهناك لفعلها فعلاً منذ زمن بعيد. كان يروي لكل

t.me/yasmeenbook

من في السماء حكاية الأزرار، ما إن فتح الحديث معه، وينهيها مهدّداً بقتل أحد أولئك الغشّاشين ثم قتل نفسه. وبما أن هذا الأمر استمرّ سنوات، لم يعد أحد يحمله على محمل الجدّ، وبهذا تعمّقت خيبته أكثر. صرخ وهو يلوح بيده فوق حدبة فيشرله: "نعم، طفل عمره ثلاث سنين يعرف إذا كان في يده زرّ أم قرش. فكيف لا أعرف أنا؟ أنا الذي يعرف، أنا لست أعمى!". أخذ فيشرله نوبته: "وهذا ما أقوله أنا أيضاً. هذا كلّه بسبب الغشّ. لماذا يغشّ البشر؟! ليقل الواحد منهم: سيدي العزيز اليوم ما معي قرش ولهذا أعطيكم غداً اثنين. لكن طويل اللسان يفضّل أن يغشّ وأنت ما يبقى لك غير أنك تبلع الزر. لازم تجدوا مهنة أخرى سيدي العزيز. أفكّر طوال الوقت أنا، ما الذي يمكنني أن أفعله لكم. سأقول لكم شيئاً. إذا برهنتم على جدارتكم خلال هذه الأيام الثلاثة، سأوظفكم عندي للأبد. لا تقولوا للآخرين أي شيء، سرّي جداً، أنا أشغلهم الآن كم يوم من باب الشفقة. معكم أنتم شيء ثاني. أنتم لا تطيقون الغشّ، أنا لا أطيق الغشّ، أنا إنسان أكابر، لازم تعترفوا، نحن مناسبان لبعضنا. ولكي تروا كم أبجّلكم، سأدفع لكم كامل دخل اليوم مقدّماً. الآخرون لن يحصلوا على شيء". وفعلاً حصل الأعمى على خمسة عشر شيلينغاً الباقية. في البداية لم يصدق أذنيه، والآن لا يصدق عينيه. هتف: "راحت أيام القتل!". ولأجل هذه السعادة يتنازل عن عشر حريم. الحريم وحدة الحساب عنده. فهم بحماس، أي بكل سهولة، ما فصفصه له فيشرله. ولأنه رائق المزاج، ضحك على العميل الطويل. سأل: "يعضّ؟". تذكّر كلبه الطويل النحيل الذي يقوده صباحاً إلى مكان العمل ويعيده مساء إلى البيت. هدّد فيشرله: "ليعملها إذا كان يجرؤ!". بل وتردّد لحظة متفكّراً أن يحمّل الأعمى مسؤولية أكبر من الثلاثمئة شيلينغ المخصصة له، فقد كان الرجل متحمّساً فعلاً. ساوم فيشرله نفسه، كان يشتهي أن يكسب خمسمئة شيلينغ في صفقة واحدة. لكنه خاف أن يكون هذا المبلغ مخاطرة كبيرة، ستؤدي خسارته إلى

t.me/yasmeenbook

الهلاك وخفّض سقف شهوته إلى أربعمئة شيلينغ فقط. كان على الأعمى أن يحضر أمام الكنيسة وينتظره هناك.

عندما اختفى عن الأنظار ظنّ تاجر الشنطة أن نجمه قد سطع. لحق بالقزم بخطوات قصيرة وسريعة، سار بجانبه بمشية عسكرية وقال: "يا ربي، صعب الواحد يخلص منهم". حافظ على رأسه منحنياً، ولكنه لم يتمكن من إنزاله إلى مستوى فيشرله، على الأقل نظر عالياً وهو يتكلم. كأن طول القزم تضاعف منذ أن صار يدعى مديراً. صمت فيشرله. لم يعنّ له أن يبادر بالدخول في شؤون حساسة مع هذا الإنسان. كأن الثلاثة الآخرين نزلوا من السماء على طلبه أما مع الرابع، فقد كان حذراً جداً. قال في سرّه: "اليوم فقط، لن يتكرّر". كرّر تاجر الشنطة: "يا ربّي، صعب الواحد يخلص منهم، ألا توافقون؟". نفد صبر فيشرله: "تعرفون ماذا؟ لا يحقّ لكم الكلام الآن. أنتم على رأس العمل. أنا الآن صاحب القول. إذا كنتم تريدون كثرة الكلام فابحثوا عن وظيفة أخرى!". سيطر تاجر الشنطة على أعصابه وانحنى. انبسطت اليدان اللتان كانتا قبل قليل تفركان كلٌّ منهما الأخرى. سيطرت رجفة قوية على البدن والرأس والذراعين. كيف له أن يبرهن على خنوعه أكثر؟ في تلاطم أعصابه كاد أن ينقلب رأساً على عقب كي تتشابك القدمان أيضاً دليلاً على الخضوع. كان يخوض صراعاً مستميتاً للفكاك من أرقه المستديم. يحلم بمصحّات وعلاجات معقدة للوصول إلى "الثروة". في فردوسه توجد مواد منوّمة معصومة عن الخطأ. هناك ينام المرء أربعة عشر يوماً متواصلاً دون أن يفيق البتّة. يأكل وهو نائم. لا يستيقظ إلا بعد أربعة عشر يوماً؛ لا يحقّ له الاستيقاظ قبل انتهائها؛ على النزيل أن يلتزم، وماذا بيده!؟ الأطباء متشدّدون مثل رجال الشرطة. ثم يذهب للعب الشدة طوال نصف نهار. ولأجل هذا خصّصت غرفة، لا يدخلها إلا رجال الأعمال المحترمون. يثري خلال لحظات، فهو سعيد الحظ في القمار. ثم يستلقي مرة أخرى للنوم أربعة عشر يوماً. عنده ما

t.me/yasmeenbook

يطمع به من وقت. صرخ فيشرله: "لماذا تهتزّون هكذا؟ اخجلوا! توقفوا عن الاهتزاز! أو سأتوقف عن توظيفكم". استيقظ تاجر الشنطة مرتعباً وهدّأ أعضاءه المرتجّة قدر الإمكان. غدا جشَعاً محضاً.

رأى فيشرله أنه لا يجد في المشتبه ذريعة للإقالة. بدأ بإلقاء تعليماته غاضباً: "انتبهوا جيداً وإلا رميتكم للشيطان! ستحصل مني على علبة. علبة، مفهوم؟ المفترض أنه تاجر الشنطة يعرف ما هي العلبة. تذهبون بها إلى تيريزيانوم. ولا داعي لأشرح لكم كيف تذهبون، فأنتم بجميع الأحوال تقضون طول النهار هنالك، يا عديم الموهبة. تدفعون الباب الزجاجي، قبل ما تصعدون إلى قسم الكتب. لا تهتزّوا، أقول لكم. إذا بقيتم تهتزّون هناك أيضاً ستكسرون الزجاج، وهذه مشكلتكم أنتم. عند الشبّاك يقف سيد أكابر نحيف. وهذا عميل مقرّب مني. تذهبون إليه وتسدّون فمكم. إذا تكلّمتم قبل أن يتكلم هو، يدير ظهره لكم ويترككم. هو هكذا، عنده سطوة. إذاً، الأحسن أن تخرسوا. ما عندي أيّ رغبة أدخل معكم محاكم طويلة عريضة بسبب تعويض عطل وضرر. لكن إذا عملتم أي شيء غلط، ما عندي مانع. صدّقوني، لن أدعكم تستولون على تجارتي المريرة. إذا كنتم غبي متوتر، ضبّوا حالكم. أنا أفضّل منظف قنوات على واحد مثلكم. أين وصلت؟ هل تعرفون؟". لاحظ فيشرله أنه يخرج عن اللغة الراقية التي اكتسبها خلال عدة أيام من علاقته مع كين. لكن يعتبر هذه اللغة تحديداً، اللغة الوحيدة الموائمة للحديث بها مع الموظف المتعجرف. استراح ليستعيد هدوءه ويستغلّ الفرصة ليكشف نوايا المنافس الكريه على غفلة منه. ردّ تاجر الشنطة ببداهة: "أنتم تقفون مع العميل النحيف وأنا لا أفتح فمي بكلمة". هبّ فيشرله بوجهه: "أنتم تقفون، أنتم تقفون، لا أنا. وأين هي العلبة؟". "في يدي". شعر فيشرله بالقنوط من شدة خنوع هذا المخلوق المنافق. تنهّد: "أوف، تطلع للواحد حدبة ثانية حتى تفهموا!". تبسّم تاجر الشنطة ووقف في صفّ الحدبة التي صارت سوراً بينه وبين الشتيمة. في عليائه

t.me/yasmeenbook

أيضاً لم يشعر بالأمان ونظر خفيةً نحو الأسفل. لم يلاحظ فيشرله شيئاً لأنه يبحث بتشنّج عن إهانات جديدة. أراد أن يتحاشى ألفاظ السباب الدارجة في السماء لأنها لن تؤثر في أحد سكانها. ملّ من تكرار كلمة غبي. بغتة أسرع سيره وعندما تأخر عنه تاجر الشنطة في البداية بمقدار نصف خطوة، التفت إليه باحتقار وقال: "تعبتم. تعرفون ماذا، روح اندفن!". ثم أملى عليه أوامره بأن يطلب من العميل النحيف مئة شيلينغ "مقدّم"، لكن ليس قبل أن يوقفه ويحدثه ذاك، ويعود من ثم دون كلمة إضافية بالمقدّم والعلبة إلى الساحة خلف الكنيسة. سيعلم بالتالي هناك. كلمة واحدة قاتلة عن العمل، حتى ولو أمام الموظفين الآخرين، ويعتبر مُقالاً.

تراخى فيشرله قليلاً حين تخيّل أن تاجر الشنطة قد يفشي أسراره ويحشد آراء الآخرين ضده. ولكي يخفّف من أثر شتائمه أبطأ خطوه وقال، عندما كان التاجر قد سبقه بحوالي متر: "وقوف! إلى أين تركضون؟ لسنا مستعجلين إلى هذه الدرجة!". اعتبر تاجر الشنطة هذه المقولة تنكيلاً جديداً وفسّر الكلمات التالية، التي وجّهها فيشرله إليه بهدوء وودّ، كأنهما مازالا سميرَين متساويين في السماء، بتخوّفه من الاستبداد. فلم يكن قد انقلب رأساً على عقب رغم توتره. كان خبيراً في تقييم البشر وبواطنهم. فلكي يقنعهم باقتناء أعواد الكبريت، رباطات الأحذية، دفاتر الملاحظات والصابون، وهذه أغلى بضاعته، تمرّس في توقّد الذهن وتبصّر المشاعر وكتم الأسرار أكثر من دبلوماسيين ذاع صيتهم. ولكن أفكاره تتموّه في ضباب غامض حين تتعلق بحلمه بالنوم الطويل كما يشتهي. هنا، خلص إلى أن نجاح العمل الجديد مبنيّ على سرّ ما.

استغلّ فيشرله الطريق المتبقي لبلوغ غايتهما في البرهان على خطورة صديقه البريء ظاهرياً، السيد الأكابر النحيف، برواية أقاصيص مختلفة. لقد ظل يقاتل على الجبهات حتى غدا بكل هذا العنف والجحود. يستطيع الوقوف نهاراً كاملاً في مكانه دون أن يؤذي نملة، لكن إذا قال له أحدهم

t.me/yasmeenbook

كلمة واحدة زيادة، يسحب طبنجته العسكرية القديمة ويطلق النار على محدّثه فوراً ويقتله. لا تمسك عليه المحاكم شيئاً، إذ يقال إن تصرفاته ناتجة عن خلخلة في عقله ويحمل معه التقرير الطبي أينما ذهب. والشرطة أيضاً تعرفه. يتساءلون: لماذا نقبض عليه إذا كان سيخلى سبيله بجميع الأحوال؟ بالمناسبة، هو لا يصوّب ليقتل فوراً. يسدّد رصاصاته إلى الرِّجلين وبعد عدة أسابيع يستعيد الذين أطلق عليهم النار عافيتهم. هناك حالة واحدة فقط لا يعرف فيها المزاح. وهذه الحالة هي كثرة الأسئلة. لا يتحمّل الأسئلة. مثلاً إذا سأل أحد بكل براءة عن صحته، يصير في الثانية التالية جثة، لأن العميل يسدّد في هذه الحالة إلى القلب مباشرة. هكذا هي طبيعته. لا ذنب له فيها. يتأسّف بعد ذلك. لا يوجد سوى ستة قتلى حقيقيين بهذا الطريقة. كل الناس سمعوا بعادته الخطيرة ولم يجرؤ أحد على أن يسأله سوى ستة. وعدا هذا هو أفضل عميل.

لم يصدق تاجر الشنطة كلمة واحدة. إلا أن خياله كان يلتهب بسرعة. رأى سيداً يرتدي ثيابا أنيقة، يطلق النار على أحدهم، حتى قبل أن يشبع هذا من النوم. قرّر أن يتحاشى الأسئلة بكل حال وأن يصل إلى السرّ بطريقة أخرى.

وضع فيشرله إصبعه على فمه وقال: "هس". كانا قد وصلا إلى الساحة أمام الكنيسة حيث ينتظر الأعمى وفي عينيه خنوع الكلب. في هذه الأثناء لم يكن قد حدّق في أيّ امرأة، كل ما يعرفه أن العديد منهن مررن به. في فرحته العظمى قرّر أن يعامل زملاءه بالحسنى، فالشياطين الفقيرة ستطرد من العمل بعد ثلاثة أيام، وهو سيحظى بعمل طول الحياة. رحّب بتاجر الشنطة ترحيباً حارّاً كأنه لم يلتقِ به منذ سنين. التقط الثلاثةُ الصيادةَ خلف الكنيسة. كانت تحاول التقاط أنفاسها منذ عشر دقائق، لأنها ركضت طويلاً. ربت الأعمى على حدبتها. "ما رأيك، زميلتي؟!" زمجر وضحك كل وجهه المخدّد الممتقع، "يومنا حلو". ربما ضاجع الزميلة مرّة. هاأهات

t.me/yasmeenbook

الصيادة. شعرت أن التي تداعبها ليست يد فيشرله، لكنها أقنعت نفسها بأنه هو من يداعبها وسمعت صوت الأعمى الخشن. بهذا انتقلت هأهأتها من مقام الرعب إلى مقام البهجة ومن البهجة إلى الخذلان. كان صوت فيشرله مغرياً. جديراً بالنداء على الجرائد. وكان الناس سيلتقطونها من يديه التقاطاً. لكن حرام أن يعمل هذا العمل. سيتعب بسرعة. وبدا لها أن الأفضل له أن يظل مديراً.

علاوة على الصوت المناسب كانت عيناه حادّتين. فما إن انعطف منظف القنوات على الزاوية، حتى لاحظه أول من لاحظ وأمر الآخرين: "ابقوا مكانكم!" واتجه صوبه. جرّه تحت عريشة الكنيسة، أخذ منه العلبة، المستلقية في حضنه بعناية كما وضعت هناك، والمئتين من أصابع يمناه. تناول منها خمسة عشر شيلينغاً ووضعها في يده، التي اضطرّ لفتحها بنفسه. بعد أن فرغا من الأمر، تشكّلت في فم منظف القنوات البليد أول جملة من تقريره وبدأ "مشي الحال". قاطعه فيشرله: "شايف، شايف. غداً تمام التاسعة. تمام التاسعة. هنا. هنا. تمام. التاسعة هنا!". ابتعد منظف القنوات بخطوات عصية وخرقاء وبدأ بالتفرج على أجره. بعد مرور فترة ركود أعلن: "صحيح". ظل يصارع طبعه طوال الطريق حتى وصل إلى السماء، وهناك سقط صريعاً له. الزوجة ستحصل على خمسة عشر شيلينغاً وهو يسكر بخمسة. وهذا ما حدث. الأصل أنه كان يريد الشرب بكامل المبلغ.

لم يلاحظ فيشرله مساوئ توليفاته إلا تحت عريشة الكنيسة. إذا سلّم الصيادة العلبة الآن، فإن تاجر الشنطة واقف بجانبه ويشاهد تماماً ما يعمل. وإذا فهم هذا أنه يعطي العلبة ذاتها للجميع، انتهى أمر السرّ الخفيّ. فجاءت الصيادة، كأنما تقرأ أفكاره، من ذاتها إليه تحت سقف الكنيسة وقالت: "جاء دوري". "تأخرت كثيراً يا عزيزتي" صاح بها وسلّمها العلبة. "هيا انطلقي!". ابتعدت وهي تعرج بكل سرعة. تحجب حدبتها العلبة التي تحملها عن الآخرين.

t.me/yasmeenbook

كان الأعمى يحاول في هذه الأثناء أن يشرح لتاجر الشنطة أن تطبيق الحريم سهل جداً. أولاً على الإنسان أن يكون لديه مهنة محترمة، مهنة يحق للإنسان أن يفتح عينيه خلال ممارستها. كما أن العمى أيضاً ليس مصيبة. يظن الناس أنه يحق لهم أن يفعلوا ما يشاؤون بأحدهم إذا بدا لهم أعمى. إذا كان الإنسان ناجحاً تأتي الحريم وحدهن، بالعشرات، ولا يعرف أين يضاجعهن جميعاً. الحثالة لا تفهم شيئاً في الموضوع. إنهم يعملونها مثل الكلاب في كل مكان. اللعنة، إنه هنا يختلف كلّياً عن الآخرين. لا بدّ له من سرير محترم، فراش من شعر الخيل، موقد جيد في الغرفة، لا تفوح منه رائحة عطن، وحرمة غضّة. لا يتحمل رائحة الفحم، وهذا منذ أيام الحرب. وهو مثلاً لا يذهب مع أيّ كانت. سابقاً، عندما كان مجرد شحاذ، كان يحاول ركوب أيّ واحدة. أما الآن فسيشتري قفطاناً أفضل، قريباً سيكون معه فلوس مثل القش، وينتقي الحريم على كيفه. مئة قطعة، يمدّ يده إلى كلّ واحدة منهن، ليس من الضروري أن يكنّ عاريات، هكذا أيضاً يمشي الحال، وينتقي من بينهن ثلاثة إلى أربعة. لا يتحمل أكثر دفعة واحدة. تنهّد: "لازم أدبّر تخت مزوج، وإلا أين أحطّ القطع الثلاث الثخينة". أما تاجر الشنطة فقد كانت همومه مختلفة. خلع رقبته ليرى ما خلف حدبة الصيادة. هل تحمل علبة أم لا تحمل؟ لقد جاء منظف القنوات بعلبة وذهب خالي اليدين. لماذا جرّه فيشرله إلى تحت سقف الكنيسة؟ لا يمكن رؤيته ولا رؤية منظف القنوات ولا الصيادة ما داموا واقفين هناك. من المؤكد أنهم يخفون العلبة داخل الكنيسة. فكرة مذهلة. من يبحث في كنيسة عن مسروقات؟ إذاً، المكرسح ذكي فعلاً. قد تكون طرد كوكائين! من أين حصل هذا الدجال على هذا العمل؟

في هذه اللحظة كان القزم يقترب منهما وقال: "صبراً، يا سادتي. سنموت إلى أن تصل العرجاء وترجع". فزمجر الأعمى: "ولّى زمن القتل يا

t.me/yasmeenbook

سيدي!". "كلنا للموت سيدي المدير"، انحنى تاجر الشنطة عدة مرات وبسط راحتيه إلى الخارج، كما كان فيشرله سيفعل لو كان مكانه، وأردف: "آه، لو كان معنا لاعب شطرنج جيد، لكن واحدنا ولا شيء مقابل بطل". هزّ فيشرله رأسه مهاناً: "بطل، بطل. أنا سأصير بطل العالم بعد ثلاثة أشهر، يا سادتي!". تطلّع الموظفان كلٌّ منهما نحو زميله مستعجبين وفجأة هتف الأعمى: "عاش بطل العالم!". شارك تاجر الشنطة بصوته الرقيق، المهتزّ (كانوا يقولون في السماء ما إن يفتح فمه: "إنه يعزف المندولين") في الهتاف. تمكّن من لفظ "العالم" أما "بطل" فقد استعصى في حلقه. لحسن الحظ كان البشر قد غادروا الساحة الصغيرة. لم يكن فيها أحد ولا من أقصى مَراقب الحضارة في المدينة، الشرطة. انحنى فيشرله، لكنه شعر أنه بالغ كثيراً ونعق: "للأسف أجد نفسي مضطرّاً لطلب المزيد من الهدوء أثناء ساعات العمل. يفضّل ألّا نتحدث". "لماذا لا؟!"، علّق الأعمى الذي أراد العودة إلى خطط المستقبل، واعتقد بعد رفع الهتاف أنه سيكافأ بالحقّ في الكلام. وضع تاجر الشنطة إصبعه على فمه وقال: "أقول دائماً: الصمت من ذهب". وصمت.

ظل الأعمى مع حريمه وحيداً. لم يرتضِ بقطع مسرّاته وتابع الكلام. بدأ بأن الأمر سهل جداً مع الحريم، انتهى بالسرير المزدوج، ولأنه أدرك أن فيشرله لا يتفهّم هذه المغامرات، عاد مرة أخرى إلى البداية وحاول أن يصف تفاصيل بضع من المئة اللواتي حُفِظن له. قدّر لكلٍّ منهن أردافاً فاخرة، أدلى بمعطيات عن الوزن بالكيلوغرامات وزاد المجموع من واحدة إلى أخرى. عند المرأة الخامسة والستين، التي اعتبرها مضرب مثل على الستينات، بلغ وزن الأرداف وحدها خمسة وستين كيلوغراماً. لم تكن قدراته على الحساب عالية ويتوقف عند عدد ذكره سابقاً. على كل حال بدا له العدد خمسة وستون مبالغاً فيه، وأعلن: "كل ما أقوله صحيح دائماً. أنا لا أعرف الكذب، هذا ما تعلّمته من

t.me/yasmeenbook

الحرب". كان فيشرله في هذه الأثناء منكفئاً على نفسه. عليه أن يستبعد الأفكار المتصاعدة في رأسه عن الشطرنج. لا يخشى شيئاً خشيته من الرغبة العارمة في لعبة جديدة. قد تنهار الأعمال بسببها. نقر على رقعة الشطرنج الصغيرة في جيب قفطانه على اليمين، التي تحوي القطع أيضاً، سمعها تتقافز فرحاً في الداخل ودمدم: "هدوء!" ونقر عليها مرة أخرى حتى شبع من الضجيج. كان تاجر الشنطة يفكّر بالمخدرات وربط مفعولها مع حاجته إلى النوم. سيأخذ من العلبة عدّة كييسات إذا وجدها في الكنيسة ويجرّبها لينام. ما يخشاه هو أن يضطرّ للحلم في حالة النوم الخدر. يفضّل أن لا ينام على أن يحلم في النوم. يبغي النوم الحقيقي، حيث يقدَّم له الطعام دون أن يستيقظ، اللهم إلا بعد أربعة عشر يوماً.

هنا لاحظ فيشرله الصيّادة وهي تختفي تحت سقف الكنيسة، بعد أن لوّحت له بشدّة. أمسك ذراع الأعمى وقال: "طبعاً، معكم حقّ!" وقال لتاجر الشنطة: "أنتم تبقون هنا" وأخذ معه الأول حتى باب الكنيسة. هناك أمره بالانتظار وجرّ الصيادة إلى داخل الكنيسة. كان وضعها مزرياً ولم تتمكّن من النطق بكلمة. ولكي تهدأ قليلاً سلّمته العلبة بسرعة ووضعت المئتين وخمسين شيلينغاً في يده. وبينما يعد النقود أخذت نفساً عميقاً وأجهشت بالبكاء: "سألني، إذا كان اسمي السيدة فيشرله". صرخ فيها: "وأنت قلت ....". ارتعد خوفاً من أن تفسد عليه أعماله بجواب غبي. لا، لقد أفسدت الأعمال وهي سعيدة بذلك منذ الآن، هذه البطة العرجاء. حين يقول لها أحدهم إنها زوجته تفقد عقلها، لم يستسغها قطّ، وذلك الحمار هناك، لماذا يسألها هذا السؤال الغبي، فلقد عرّفه على زوجته. لمجرّد أن لهذه حدبة وهو له حدبة يظن أنها زوجته، الحاصل، لقد لاحظ شيئاً ما وعليه الآن أن يهرب بالأربعمئة وخمسين شيلينغاً الوسخة. يا لسوء الحظ! صرخ فيها للمرة الثانية: "وأنت، ماذا قلت له؟". نسي أنه في

t.me/yasmeenbook

كنيسة. عادة ما كان يحترم الكنائس ويخاف منها لأن أنفه يلفت الأنظار. "أنا .... ممنوع .... أقول ... أي ... شيء. هرّبت ... رأسي"، كانت تنشج مع كلّ كلمة. خفّف عن قلب فيشرله كل المال الذي ظن أنه خسره. دفع فيه الخوف الذي جلبته إليه غضباً شديداً. تمنّى لو يلطمها على اليمين وعلى اليسار. للأسف لم يكن لديه وقت. دفعها خارج الكنيسة ونعب في وجهها: "غدا ترجعين إلى توزيع جرائدك الوسخة من جديد. لن أنظر إلى أيٍّ منها!". فهمت أن وظيفتها عنده انتهت تماماً. لم تكن في وضعٍ يسمح لها حساب كلّ الذي خسرته. لقد ظنها السيد المحترم زوجة فيشرله، ولم يحق لها أن تعلّق. يا للتعاسة، يا للتعاسة الشنيعة! لم تشعر طوال عمرها بمثل تلك السعادة. لم تتوقف عن النشيج طوال الطريق إلى البيت. "هو الشيء الوحيد الذي أملكه في الدنيا". نسيت أن عليه أن يدفع لها عشرين شيلينغاً، مبلغ عليها أن تجوب من أجله في الشوارع أسبوعاً كاملاً في الأزمنة الحالكة. أرفقت أنغامها بصورة السيد الذي قال لها "سيدة فيشرله". نسيت أن الجميع يسميها الصيادة. وبكت أيضاً لأنها لا تعرف أين يسكن ذلك السيد وإلى أين يذهب. لكانت أخذت له كل يوم جريدة. وكان سيسألها كل مرة.

إلا أن فيشرله تخلّص منها. لم يخنها عمداً. كلّفه الخوف وتحول الخوف إلى الغضب صفاء ذهنه. كان سيحاول، حتى لو تخلّص منها بهدوء، أن يحتال عليها بأجرها. سلّم العلبة إلى الأعمى ونصحه أن يثبت جدارته بصمت، فوظيفة حياته متعلقة بهذا. أغلق الأعمى عينيه في هذه اللحظات لينسى الحريم اللواتي يكاد يلمسهن لمس اليد. وعندما فتحهما كنّ قد اختفين، حتى أثقل واحدة فيهن، وتحسّر حسرة طفيفة على هذا. عوضاً عنهن ابتهج لواجبات جديدة. إذاً، فقد كانت نصيحة فيشرله فائضة عن الحاجة. لكنه، ورغم عجلة عمله، لم يحلّ عنه بسهولة، فقد قامر بالكثير

t.me/yasmeenbook

على الأزرار. استحال عليه، هو الذي تستوي عنده النساء، أن يخمّن تخميناً صحيحاً، كم ينفق الرجل على شراء الحريم.

حين عاد إلى تاجر الشنطة قال: "وعلى رجل الأعمال أن يثق بهؤلاء الأوباش". "معكم حقّ"، قال الثاني الذي استثنى نفسه من الأوباش بصفته رجل أعمال. "ومن أجل ماذا يعيش الواحد؟!"، كان قد يئس من الحياة بسبب الأربعمئة شيلينغ التي خاطر بها. "لأجل النوم"، ردّ تاجر الشنطة. "أنتم والنوم"، سيطر على القزم ضحك وحشي وهو يتصور تاجر الشنطة، الذي يشكو يوميّاً وساعيّاً من الأرق، نائماً. حين يضحك يشبه منخراه فماً مزدوجاً مشقوقاً، شفتين رفيعتين، تلوح تحتهما زاويتا الفم. وهذه المرة كان الأمر على درجة من الخبث، بحيث أمسك حدبته، كما يمسك الناس الآخرون بطونهم. وضع يده تحتها وامتصّ كلّ دفقة ترجّ جسمه.

ما إن انتهى من الضحك – شعر تاجر الشنطة بالإهانة حتى أعمق أعماق روحه بسبب الاستنكار الذي قوبل به نومه – حتى ظهر الأعمى ودخل تحت سقف الكنيسة. انهال عليه فيشرله، جرّ النقود من يده وشدّه ودهش أشدّ الدهشة، من أن المبلغ صحيح. أم أنه كان قد قال له خمسمئة؟ لا، لا، أربعمئة. وسأله ليخفي هياجه: "ماذا حدث؟". "على الباب الزجاجي التقيت بوحدة، حرمة، وأقول لكم، إذا لم تكن العلبة بيدي، كنت سأقابلها، كانت فعلاً سمينة. صاحبك ساقط". "لماذا، ما الذي يخطر لكم؟". "لا تغضبوا مني، لكنه ظل يسبّ الحريم. قال أربعمئة كثير. لكنه راعاني بسبب الحرمة ودفع. قال كل الذنب على الحريم. لو كان يحقّ لي الكلام، كنت علّمته درس، ذلك الكلب الغبي. الحريم، الحريم. لماذا أعيش إن لم يكن لأجل الحريم؟ أنا فرحان لأني أقابلها وهو يسبّ". "هكذا هي طبيعته. هو أعزب عن قناعة. لا أسمح بالمسبّات، هو صديقي. كما لا أسمح بالكلام وإلا شعر بالإهانة. لا أحد يهين أصدقاءه. هل أهنتكم مرة؟". "لا،

t.me/yasmeenbook

يفترض بالمرء أن يعترف بهذا. أنتم إنسان طيّب القلب". "ترون! غداً في التاسعة تعالوا مرة ثانية إلى هنا، نعم. وحافظوا على بوزكم مسدوداً، لأنكم صديقي. وسترون إذا كان الإنسان يهلك بسبب الأزرار". مضى الأعمى، شعر بغامر السعادة ونسي غرابة العميل فوراً. العشرين شيلينغاً ليست هيّنة. بها سيبدأ بأهم شيء. والشيء الأهم هو الحرمة والبدلة. يجب أن تكون البدلة الجديدة سوداء كي تناسب الشارب الجديد، ولا توجد بدلة سوداء بعشرين شيلينغاً. فوقف على الحرمة.

نسي تاجر الشنطة، المهان والفضولي خلقة، مراعاة الخوف المتأصّل فيه. أراد أن يضبط القزم وهو يبدل العلبة. لم يغترّ بأمل تفتيش الكنيسة بأكملها، ولو كانت صغيرة، بحثاً عن علبة. لو دخل فجأة، سيعرف الموقع التقريبي، فلا بد أن القزم سيجيء من ناحية ما. صادفه على البوابة، أخذ حمولته وابتعد صامتاً.

تبعه فيشرله ببطء. نتيجة المحاولة الرابعة ليست ذات قيمة مالية إنما مبدئية. إذا دفع كين مئة شيلينغ أخرى، تجاوز المبلغ الذي يدخل جيب فيشرله وحده – تسعمئة وخمسين شيلينغاً –المبلغ الذي ناله مكافأة. كان فيشرله قانعاً طوال زمن الاحتيال المنظم ضد كار الكتب أنه يعمل ضد عدو حاول بالأمس القريب أن ينهب منه كامل المبلغ. من البديهي أن يدافع إنسان من جلدته عن نفسه. قبالة المقاتل يصبح الإنسان قاتلاً. قبالة المشعوذ، يتضع الإنسان إلى مشعوذ. هنا توجد نكشة صغيرة. ربما أصرّ ذلك الإنسان على استعادة المكافأة، ربما تعنّت في لؤمه، فكم يضع الإنسان في رأسه هدفاً مستحيلاً، وربما قامر لأجله بكلّ ثروته. وحتى هذه كانت ذات مرة بين يدي فيشرله، ولهذا يحقّ له أن يستعيدها منه براحة ضمير. لكن ربما توقفت الفرصة الحسنة هنا. ليس الجميع يصرّون على شيء ما. لو كان لذلك الإنسان شخصية قوية مثل فيشرله، لو كان

t.me/yasmeenbook

مولعاً بمكافأة كما يقدّر فيشرله الشطرنج، لسارت الأعمال على أحسن ما يرام. لكن هل نعلم مع من نتعامل؟ ربما كان مجرّد متشدّق، إنساناً ضعيفاً، يتحسّر على خسارة أمواله ويقول فجأة: "قف، لقد اكتفيت!". إنه قادر على هذا وقد يتنازل عن المكافأة بسبب مئة شيلينغ. من أين له أن يعرف أنهم سيأخذون منه كل شيء، وأنه بالنتيجة لن يحصل على أي شيء؟ لو كان لدى كار الكتب هذا ذرة حذاقة، وهذا ما يبدو عليه حتى الآن، سيظل يدفع حتى لا يبقى معه شيء. يشكّ فيشرله بكلّ ذلك الكمّ من الحذاقة كما أنه ليس الجميع يملكون المثابرة التي تولدت فيه نتيجة لعب الشطرنج. إنه يحتاج شخصية، شخصية ثانية مثله، إنساناً يمضي حتى النهاية، سيدفع بسرور شيئاً ما لأجل هكذا إنسان، سيشارك إنساناً كهذا في شركته، هذا لو وجده، سيذهب معه حتى باب تيريزيانوم. وهنا ينتظره. فهو يستطيع خداعه لاحقاً.

عوض الشخصية القوية تهادى نحوه تاجر الشنطة واهناً. توقف قبالته مرعوباً . فلم يكن يتوقع وجود المدير هناك. كان على درجة من الكفاءة ليطلب عشرين شيلينغاً زيادة على المبلغ الذي وُعد به. مدّ يده إلى جيب البنطال الأيسر، فقد أخفى مستحقّاته هناك دون أن يلاحظ عليه هذا، وأسقط العلبة على الأرض. لم يعبأ فيشرله بما يجري لبضاعته لحظتئذٍ، أراد أن يعرف شيئاً محدّداً. سجد موظفه ليرفع العلبة وقلّده فيشرله لعجبه. على الأرض مدّ يده إلى يمنى تاجر الشنطة ووجد المئة شيلينغ. فكر الآخر أن هذه مجرد ذريعة، فهو يخاف على علبة الجريمة الغالية، اللعنة، لماذا لم أنظر داخلها قبل الآن، لقد تأخرت. نهض فيشرله وقال: "لا تسقطوا! خذوا العلبة إلى البيت وتعالوا بها غداً في تمام التاسعة إلى الكنيسة. استأذن!". "ماذا، وأجري؟!". "المعذرة، أنا أنسى كثيراً"، وهذا صحيح بالمصادفة، "تفضّل!"، أعطاه باقي مستحقاته.

t.me/yasmeenbook

ولج تاجر الشنطة الكنيسة ("من قال غداً في التاسعة. لا، اليوم يا عزيزي"). خرّ مرّة أخرى على ركبتيه خلف عمود وفتح العلبة وهو يصلّي، احتياطاً من أن يدخل أحد خلال انشغاله. وجد كتباً. تلاشت آخر شكوكه. لقد خُدع. العلبة الصحيحة في مكان آخر. حزم الكتب، أخفاها تحت مقعد، وبدأ بالبحث. تسحّب عبر الكنيسة وهو يصلّي هنا وهنالك، ونقب وهو يصلي تحت كل مقعد. كان دقيقاً، فهي فرصة قد لا تتكرر. غالباً ما عثر على سرّ ما، لكنه يكون مجرّد كتاب صلاة أسود. بعد ساعة اشتعل في قلبه حقدٌ لا يمحى على تلك الكتب. بعد ساعة أخرى آلمه ظهره، وخرج لسانه من فمه ذابلاً، بينما تتحرك الشفتان كأنهما تغمغمان بصلاة. عندما انتهى بدأ من جديد. كان أحدّ ذكاء من أن يعيد الحركات ذاتها آلياً. يعرف أن الإنسان يتعامى عن الأشياء التي تعامى عنها قبلاً وغيّر تسلسل خطواته. نادراً ما يدخل الناس الكنيسة في هذه الأوقات. كان يصيخ السمع إلى الأصوات الغريبة ويظل في مكانه حين يسمعها. أوقفته أخت في الصلاة عشرين دقيقة عن سعيه، وخاف أن تجد السرّ المقدّس قبله وراقبها بحدّة. قبل الظهيرة، لم يعد يعرف ما هو الوقت، كان يتعثّر في خط متعرّج من اليسار نحو صفّ المقاعد الثالث يميناً، ومن اليمين نحو صف المقاعد الثالث يساراً. وهذا كان آخر صفّ في سياق أفكاره. انهار قبل حلول المساء في مكان ما على الأرض. نام ميتاً من التعب. صحيح أنه بلغ مناه، لكن قبل أن تمرّ الأيام الأربعة عشر، هزّه خادم الكنيسة قبل أن تغلق الأبواب مساء، أيقظه ورماه خارجاً. ونسي العلبة الحقيقية.

t.me/yasmeenbook

المكاشفة

حين ظهر فيشرله في الباب الزجاجي وعيناه ترمشان، استقبله كين بابتسامة حنون. كانت المهنة الرحيمة التي يمارسها منذ وقت قصير قد رقّقت روحه، فدعتها للحديث بالأمثال. تساءلت عن معنى ومضات المنارتين الميلانخوليتين؛ تدفقت منهما الإشارات المتفق عليها مع تيار الحب الجارف. وقع إيمان كين، الذي لا يتزعزع مثل ارتيابه في البشرية التي تستبيح الكتب، على أرض خصبة. أسف لضعف المسيح، ذاك المبذّر الأبله. مرّ به إطعامٌ على إطعام، شفاءٌ على شفاء، كلمةٌ على كلمة، وفكّر بكمّ الكتب التي كان يمكن إنقاذها بتلك المعجزات. شعر أن حاله الآنية قرينة حال المسيح. كان سيقوم بكثير على غراره، إلا أن مواضيع حبّ المسيح بدت له غلطاً، على غرار مواضيع حبّ اليابانيين. وبما أن روح الفيلولوجي لا تزال متقدة فيه، قرّر أن يعمل على دراسة نقدية، مختلفة كليّاً، للعهد الجديد، بعد أن يرسو الهدوء على الأرض. ربما لم يكن الإنسان موضوع حب المسيح في حقيقته، ربما افترَت معابد بربرية على الكلمات الأصل لخالقها وزيّفتها. إن بروز اللوغوس بغتةً في إنجيل يوحنّا، تحديداً بسبب التأويل المعهود الذي يشير إلى تأثيرات الإغريق، يعطي مسوغات كثيرة للشك. وجد في نفسه فيضاً من المعارف يخوّله لإثابة المسيحية إلى أصولها الحقّ، ورغم أنه لن يكون أول من يضع كلمات الفادي الحقيقية بين يدي بشر، يفتحون آذانهم دائماً لتقبّلها، فإنه يطمح، بهاتف داخلي، لأن يكون تأويله خاتم التأويلات.

أما تأويل إشارات فيشرله على المخاطر المحدقة فظل مغلقاً عليه.

t.me/yasmeenbook

ثابر فيشرله مدّة على إرسال علامات الإنذار من رموشه وهو يغمض عينه اليمنى مرة واليسرى مرة. ثم هجم على كين، أمسكه من ذراعه، وهمس: "الشرطة"، أكثر الكلمات ترويعاً، "اركضوا، سأركض أمامكم!" ووقف، خلافاً لوعده، من جديد في الباب لينتظر أثر كلماته. رفع كين نظرة ألم، ليس إلى السماء، بل على العكس، إلى الجحيم في الطابق السادس. ووعد بالعودة إلى الأرض الموعودة هذه؛ ربما اليوم. ازدرى من كل قلبه الفريسيين القذرين الذين يزاحمونه. ولم ينسَ، كمخلّص حقيقي، أن يشكر القزم على تنبيهه بانحناءة عميقة قبل أن يبدأ بتحريك الساقين الطويلتين. نذر أن يحرق مكتبته إن أنساه الجبن فروضه. تأكد بجلاء أن أعداءه لن يظهروا. ممّ يخشون؟ أمِنَ القوة الأخلاقية لشفاعته؟ إنه لا يصلّي للخطائين، إنه يصلّي للكتب البريئة. ليظهرنَّ لهم وجهاً آخر إن تأذّى أيٌّ منها في البرزخ. كان يتقن العهد القديم أيضاً ويحفظ حقّه في الانتقام. نادى: آه أيتها الشياطين! إنكم تربضون لي في مكمن ما، إني أغادر مستنقعكم مرفوع الهامة. أنا لا أخاف، فمعي ملايين لا تحصى. أشار بإصبعه نحو الأعالي. ثم لاذ ببطء بالفرار.

لم يفلته فيشرله من أنظاره. لم يكن راغباً في أن يلقي نقوده في جيوب كين لأجل بعض المشعوذين. يخشى ظهور بعض المقامرين المجهولين؛ ودفع بالأنف والذراعين على الاستعجال. تقيم الوقفة المتردّدة للآخر أود مستقبله. إذاً، فلذلك الإنسان شخصية رغم كل عيوبه؛ ووضع نصب عينيه استعادة مكافأته بهذه الطريقة وليس غيرها. لم يتصور قط أن يكون ذاك بكل هذا الثبات وأعجب به. قرّر أن يطور خطط هذه الشخصية. أراد أن يساعد كين على التخلص من رأسماله حتى القرش الأخير، في أقصر وقت ودون جهود بالغة. لكن لأنه يتحسّر على تضييع مبلغ جليل، سيحترس فيشرله من تدخّل شخص غير مجاز. ما يجري بين هاتين الشخصيتين شأنهما الخاص ولا شأن لآخر فيه. رافق كل خطوة من خطوات كين بإيماءة مشجعة من حدبته، دلّه هنا وهناك على زاوية معتمة، وضع إصبعه على

t.me/yasmeenbook

فمه وسار على رؤوس أصابعه. عندما مرّ به أحد العاملين، مصادفة الخنزير المكلّف بالتقييم في قسم الكتب، حاول أن ينحني له؛ قذف حدبته نحوه. كذلك انحنى كين، بداعٍ من الجبن المحض، شعر أن المدعو إنساناً، الذي نزل قبل ربع ساعة على الدرج، يمثّل دور الشيطان في الأعلى، واقشعرّ من أن يحرموه من الوقوف عند النافذة.

بالنتيجة انتهى به فيشرله، بقوة مشيئته، إلى خلف الكنيسة وتحت العريشة. "نفذنا!"، قال مستهزئاً. دهش كين بعظم الخطر الذي كان معرّضاً له قبل قليل. عانق الصغير وقال بنبرة ملؤها اللين والحنان: "لولا أنكم معي ...". "لكنتم الآن في الحبس" أضاف فيشرله. "إذاً، فإن نهجي يخالف القانون؟". "كل ما نعمله يخالف القانون. تذهبون لتأكلوا شيئاً ما لأنكم جوعان، فيتم اتهامكم بالسرقة. تسعدون شيطاناً فقيراً وتهدونه زوج أحذية، يركض هو بالأحذية، ويعتبرونكم شريكاً في الجريمة. تأخذون غفوة على مقعد عام، صار لكم تحلمون عليه منذ عشر سنين، وفجأة يوقظونكم لأنكم عملتم شيء ما قبل عشر سنين. من قال يوقظون! يجرجرونكم جرّاً. تريدون أن تساعدوا بعض الكتب المسكينة، وفجأة تحاصر الشرطة كل تيريزيانوم، في كل جحر يختبئ شرطي، ليتكم رأيتم المسدسات الجديدة. يقود المداهمة رائد، لقد رأيته من تحت رجليه. برأيكم، ما هو ذلك الشيء الذي يحتفظ به عميقاً تحت كي لا يراه البشر الطوال الذين يمرّون بجانبه؟ أمر قبض. أصدر رئيس الشرطة أمر قبض خاص لأنكم إنسان راقٍ. أنتم نفسكم تعرفون من أنتم، فما الحاجة لأقولها لكم أنا. في تمام الحادية عشرة يتم القبض عليكم في غرف تيريزيانوم حيّاً أو ميتاً. إذا صرتم في الخارج لا يجري لكم شيء. في الخارج أنتم لستم مجرماً. في تمام الحادية عشرة. وكم هي الساعة الآن؟ الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق. تأكدوا بنفسكم!".

جرّه إلى الناحية المقابلة للساحة، حيث تشاهد ساعة برج الكنيسة. ما إن جلسا عدّة لحظات هناك حتى دقّت الساعة الحادية عشرة. "وماذا

t.me/yasmeenbook

قلت، إنها الحادية عشرة. تصوروا حسن حظكم! هل تتذكرون الرجل الذي سلّمنا عليه. هذا الرجل هو الخنزير". "الخنزير؟"، لم يكن كين قد نسي كلمة واحدة من الطبعة الأولى لحديث فيشرله. فقد عادت ذاكرته ممتازة منذ أن خفّف حمل رأسه. كوّر قبضته، متأخراً، وهتف: "مصّاص دماء بائس. لو أنه أمامي الآن". "لحسن حظكم أنه ليس أمامكم. لو أنكم استفززتم الخنزير، لألقي القبض عليكم قبل وقت بعيد. برأيكم، كم تقزّزت من الانحناء للخنزير؟ لكن كان عليّ أن أحذّركم. عليكم أن تكشفوا أيّ إنسان وجدتموه في شخصي". تذكّر كين مظهر الخنزير، ثم قال خجلاً: "وأنا تصورته مجرد شيطان عادي". "وهو كذلك، إنه شيطان أيضاً. لماذا لا يكون الشيطان خنزيراً. هل شاهدتم كرشه؟ يشاع في تيريزيانوم .... الأحسن ألا أحكيها". "ماذا يشاع؟" "ستثور أعصابكم". "ماذا يشاع؟" "احلفوا أنكم لن تركضوا مباشرة إلى هناك إذا حكيت لكم! لأنكم ستركضون إلى موتكم ولن يستفيد أي كتاب". "حسناً، أقسم، تكلموا أخيراً!". "أنتم حلفتم. هل شاهدتم الكرش؟". "نعم، لكن الشائعة، الشائعة". "فوراً، فوراً. ألم تلاحظوا على الكرش أي شيء مثير؟". "لا". "يوجد ناس يقولون إن للبطن زوايا". "وماذا يعني هذا؟" ارتعش صوت كين. لا بد أنه شيء لم يسمع له مثيل. "يقولون. يجب أن أسندكم وإلا وقعتم. يقولون، إنه سمين كل ذلك السمن من وراء أكل الكتب". "إنه ...". "هو يفترس الكتب".

صرخ كين وسقط على الأرض. وجرّ معه الصغير الذي تألّم لارتطامه بحجارة الشارع، ولكي ينتقم لنفسه استمر بالكلام: "ماذا تريدون، يقول الخنزير، أنا شخصياً سمعته مرّة، ماذا أعمل بكل هذه القاذورات. قال قاذورات. هو دائماً يقول قاذورات بدل أن يقول كتب. بالنسبة له الكتب لا نفع منها إلا للافتراس. يقول: ماذا تريدون، القاذورات تبقى هنا شهور وشهور، الأحسن أن أستفيد منها وأشبع بطني. ألّف كتاب طبخ خاص به. فيه وصفات كثيرة. ويبحث الآن عن ناشر لكتابه. يقول: يوجد في العالم

t.me/yasmeenbook

كتب أكثر من اللازم ويوجد كثير من المعدات الجائعة. يقول: كرشي هذا من فضل مطبخي، أريد أن يكون لكل واحد كرش مثل كرشي، وأريد أن تختفي الكتب من الوجود، إذا كان الأمر بيدي يجب أن تختفي كل الكتب. يمكن طبعاً حرقها كلها لكن بهذه الطريقة لا يستفيد منها أحد. لهذا أقول، يجب أن نأكلها، نيئة، بالزيت والخل، مثل السلطة، مخبوزة بفتات الخبز، مثل شريحة لحمة مغموسة في مسحوق الخبز، بالملح والفلفل، بالسكر والقرفة. الخنزير عنده مئة وثلاث وصفات. يكتشف كل شهر وصفة جديدة. هذا لؤم، معي حقّ وإلا ما معي حقّ؟"

بينما فيشرله ينعق بهذه الكلمات دون توقف، تلوّى كين على الأرض. ضرب بقبضتيه الواهنتين على حجر الرصيف، كأنه يريد البرهان على أن قشرة الأرض القاسية أرقّ من الإنسان. شقّ ألمٌ واخز صدره، أراد أن ينادي، ينقذ، يخلّص، لكن القبضات تكلّمت بدل لسانه، وهذه كانت خافتة الصوت. لكمت الحجارة واحدة بعد الأخرى ولم تفلت أيٌّ منها. نزّ منها الدم ومن فمه الزبد، الذي امتزج بدم القبضات؛ كان قد قرّب شفتيه المرتعشتين إلى أرضه. نهض كين بعد أن سكت فيشرله، ترنّح، اعتكز على الحدبة وصرخ، بعد أن حرّك الشفتين عدّة مرات دون جدوى، زاعقاً في الساحة: "أكلة لحوم بشر، أكلة لحوم بشر!" مادّاً يده الحرّة باتجاه تيريزيانوم، ضارباً بقدمه الأخرى الحجر الذي كاد يقبّله قبل برهة.

توقّف بعض المارة، الموجودين آنئذٍ في الساحة، مذعورين، فقد كان صوته صوت جريح يموت. فُتحت النوافذ، نبح كلب في زقاق جانبي، خرج طبيب في ثوب أبيض من أحد الأبواب، وفاحت رائحة الشرطة من زاوية الكنيسة. المرأة الخامل، بائعة الزهور في دكانها أمام الكنيسة، كانت أول من يصل إلى الصارخ، وسألت القزم عمّا جرى للسيد وفي يدها الزهور الغضّة والشريط الذي ستربطها به. "مات أحد أقربائه"، قال فيشرله متظاهراً بالحزن. لم يسمع كين شيئاً. ربطت بائعة الزهور ورودها في باقة، وضعتها على ذراع

t.me/yasmeenbook

فيشرله وقالت: "له، مني". أومأ فيشرله وهمس: "دفنوه اليوم" وأخلى سبيلها بحركة خفيفة من يده. انتقلت، من أجل ورودها، من عابر إلى عابر وروت أن زوجة السيد توفيت. وبكت لأن المرحوم، الذي مات قبل اثنتي عشرة سنة، كان لا يتوقف عن ضربها، وما كان سيبكي كل هذا البكاء إذا توفيت هي. وأسفت أيضاً على حالها في صورة زوجة السيد الهزيل المتوفاة. الحلاق في الصالون، مدّعي الطب، أومأ ببرود: "بكل هذا الشباب وترمّل!"، انتظر قليلاً وتبسّم لطرفته. رمته بائعة الزهور بنظرة غاضبة ونشجت: "الورود مني أنا". انتشرت شائعة وفاة الزوجة إلى المباني، أغلقت بعض النوافذ. وجد أحد المتأنقين: "لا اعتراض على مشيئة الرب" ووقف مكانه، فقط لأجل خادمة شابة، شفوقة، أرادت أن تواسي الإنسان المسكين. لم يعرف الحارس كيف يتصرف، فقد أخبره أحد الأغرار في الخدمة العسكرية بالمجريات. عندما عاد كين للصراخ، لأن الناس أثاروا أعصابه، أراد ابن السلك أن يتدخل إلا أن رجاء بائعة الزهور المتضرعة أوقفه. كان لقرب الشرطة أثرٌ مخيف على فيشرله، قفز نحو الأعالي، إلى كين، أمسك فمه، سدّه، وشدّه نحو الأسفل، وهكذا جرجره، مثل سكين كباس موارِبة، حتى باب الكنيسة، وهتف: "ستهدّئه الصلاة". أومأ للجمهور وولج الكنيسة بكين. كان الكلب لا يزال يعوي في الزقاق الجانبي. قالت بائعة الزهور: "الحيوانات عندها إحساس، مثل المرحوم" وحكت قصة حياتها للحارس. وبما أنها ما عادت ترى السيد، حزنت على ورودها.

كان تاجر الشنطة لا يزال عاكفاً على التفتيش داخل الكنيسة. فجأة ظهر فيشرله بصحبة العميل الغبي، أجلس الإنسانَ الذاهل على مقعد، وقال بصوت عالٍ: "هل جننتم؟"، تطلّع حوله وعاد للكلام هامساً. خاف تاجر الشنطة، فقد كان قد خدع فيشرله والعميل بمبلغ محترم. زحف بعيداً عنهما واختبأ وراء عمود. راقبهما من عتمته الآمنة، فقد أخبره حدسٌ ذكيّ لماذا جاءا. إما أنهما جاءا بالعلبة أو أنهما سيأخذانها.

رويداً رويداً استعاد كين وعيه في الكنيسة المظلمة والضيقة. شعر

t.me/yasmeenbook

بقرب كائن يتدفأ على جمر تقريعه. لم يفهم ما يقوله ذلك الكائن، لكنه كان يهدّئه. بذل فيشرله جهوداً يائسة، فقد تجاوز غايته كثيراً. وبينما يلفظ ما يعرفه من كلمات مسكّنة، يختبر الإنسان بجانبه. إذا كان مجنوناً، فإنه مجنون كلياً، وإذا كان فقط يتظاهر بالجنون، فإنه أقوى غشّاش في العالم. بل إنه بطل العالم في الغشّ، هذا الدجّال الذي يقترب كثيراً من الشرطة ولا يهرب، بل يرغم صاحبه على إنقاذه بالقوة، تصدّقه بائعة الزهور، بل وتهديه ورودها مجاناً، يغامر بتسعمئة وخمسين شيلينغاً دون أن يذكرها ولو بكلمة واحدة، يروي له مكرسح أكبر الأكاذيب ولا يضربه عليها. من المتعة هزيمة بطل كهذا في مجاله، ففيشرله لا يطيق أعداء يجلبون العار. يودّ اللعب مع شركاء من مستواه، مهما كانت اللعبة، وبما أنه عيّن كين شريكاً له لأسباب مالية، فإنه يعتبره من مستواه، إلا أنه يتعامل معه كما يتعامل مع أغبى الأغبياء؛ هو نفسه يريد هذا النوع من التعامل. وكي ينقل أفكاره إلى ملعب آخر، سأله ما إن هدأت أنفاسه، عما جرى له قبل الظهر. لا مانع لدى كين من التطهّر من الضغوط الهائلة بتذكّر لحظات أهنأ، منذ أن علم بتلك الفظائع. سند الكتفين، الأضلاع، وغيرها من العظام، إلى عمود في نهاية صف المقاعد، وابتسم الابتسامة الباهتة لمريض في طور النقاهة، لكنه لا يزال بحاجة إلى رعاية. وفيشرله يفهم أصول الرعاية. لا بد من الحفاظ على حياة عدوّ كهذا. يصعد على المقعد، يجثو فوقه، ويضع أذنيه في أقرب مكان من فم كين، خشية أن يسمعه أحدهم ويقول له: "حتى لا ترهقوا نفسكم". كين لم يعد يأخذ أيّ شيء ببداهة. كلّ حركة ودّية من البشر معجزة في عينيه.

وشوش: "أنتم لستم بشراً!".

"المكرسح ليس إنساناً؟ وهل هذا ذنبي أنا؟!"

"الكسيح هو الإنسان وحده"، حاول صوت كين أن يرتفع. إنهما يقفان عيناً لِعين ولهذا ينسى ما يجب أن يصمت عليه أمام القزم.

t.me/yasmeenbook

قال فيشرله: "لا، الإنسان ليس مكرسحاً، وإلا لكنت إنساناً".

"لا أسمح بهذا. الإنسان هو وحده الغول"، يرتفع صوت كين، يأمر وينهى.

سرّ فيشرله بهذه الفكاهة اللغوية، هكذا اعتقدها: "ولماذا لا يسمّون خنزيرنا إنساناً؟!". لقد قضى عليه.

يقفز كين. إنه لا يقهر. "لأن الخنازير لا تستطيع الدفاع عن نفسها. أنا أحتجّ على هذا الاغتصاب. البشر بشر والخنازير خنازير. كلّ البشر مجرّد بشر. اسم خنزيركم إنسان. ويلٌ لإنسان يتطاول على خنزير. سأحطّمه. أكلة لحوم البشر، أكلة لحوم البشر!".

تردّد رجع الشكوى العميقة في الكنيسة. كأنها فارغة. استسلم كين لمشاعره. بوغت فيشرله. لا يشعر بالأمان في كنيسة. كاد أن يجرجر كين إلى الساحة. لكن الشرطة هناك. لتسقط الكنيسة بما فيها، فهو لن يذهب بقدميه إلى الشرطة. كان فيشرله قد سمع بحكايات مرعبة عن يهود دُفنوا تحت أنقاض كنائس منهارة، لأنهم ليسوا من أتباعها. روتها له زوجته المتقاعدة لأنها ورعة وتحب أن تدخله دينها. وهو لا يؤمن سوى أن "اليهودي" من المجرمين الذين يعاقبون أنفسهم بأنفسهم. في حيرته رأى يديه، اللتين ما زالتا على ارتفاع رقعة شطرنج متخيلة، ولاحظ الورود المسحوقة تحت ذراعه اليمنى. هتف: "ورود، ورود جميلة، ورود جميلة". امتلأت الكنيسة بورود تنعق، رفرفت الطيور الحمراء نحو كين من الصحن الأوسط، من الصحون الجانبية، من منصّة المغنّين ومن كل مكان.

(تلوّى تاجر الشنطة من الخوف خلف عموده. فهم أن شجاراً يجري بين شركاء العمل وسرّه هذا، لأن الشجار سينسيهما العلبة. إلا أنه يتمنى أن يخرجا، فقد كان الضجيج يصرع الآذان وربما لملم الناس، وفي هذه المناسبات يدخل كل من هبّ ودبّ، وربما سرقوا منه علبته).

t.me/yasmeenbook

خنقت الورود أكلة لحوم البشر في خيال كين. ما زال صوته مستضعفاً، لم يغلب صوت القزم. ما إن سمع كلمة ورود حتى توقف عن الصراخ واستدار شبه مستغرب وشبه خجل نحو فيشرله. من أين جاءت الورود؟ لقد كان في مكان آخر، الورود بريئة، تعيش على الضوء والماء، على التراب والهواء، ليست بشراً، لا تؤذي أيّ كتاب، تُفترَس، يسحقها البشر، الورود بحاجة إلى الحماية، يجب حمايتها من البشر والحيوانات، ما الفرق بين هؤلاء وهؤلاء؟! وحوش وحوش، هنا أو هناك، بعضهم يفترس النباتات والآخرون يفترسون الكتب، الورود هي حليف الكتب الوحيد. أخذ الورود من يد فيشرله، شعر برائحتها الطيبة، التي يعرفها من قصائد الحب الفارسية، وقرّبها من عينيه؛ حقّاً، إن لها رائحة. سكّنه هذا أخيراً. قال: "يمكنكم الاستمرار في تسميته بالخنزير. لكن لا تسبّوا الورود أبداً!". "أنا جلبتها لكم"، قال فيشرله الذي سرّ بأنه لم يعد مضطرّاً للصراخ في الكنيسة. "كلّفتني مبالغ كبيرة. سحقتموها بصراخكم. ما الذي تقدر عليه الورود المسكينة بمواجهة البشر؟" وقرّر أن يوافق كين على كل شيء بعد الآن. الاعتراض خطير. ستودي به هذه الغطرسة إلى الجنائية. من جديد انهار مَن أُهديَت إليه الورود على مقعده، استند على عموده، وبينما يمرّر الورود أمام عينيه بحذر، كأنها كتب، بدأ برواية أحداث ما قبل الظهر العظيمة.

كان الزمن، الذي افتدى فيه ضحايا المجزرة بدعةٍ في تلك الردهة حيث لا ينفذ منه أحد، قد غدا بعيداً جداً مثل يفاعته. أما البشر الذين أعانهم للعودة إلى سبيل أفضل، فقد كان يراهم بوضوح كأنه شاهدهم قبل ساعة فقط. استغرب من وضوح ذكرياته التي تجاوزت ظلها في هذه الحالة. "أربع علب كبيرة كانت ستنتهي في معدة الخنزير، أو يحتفظ بها ليحرقها بعد ذلك. لكني سعدت بإنقاذها. وهل أنا فخور بهذا؟ لا أعتقد. لقد صرت أكثر تواضعاً. إذاً، فلماذا أروي لكم؟! ربما لكي تدركوا أنتم أيضاً، يا من تخاطرون بكل كبير، قيمةَ أيّ إحسان صغير". يستشعر السامع من

t.me/yasmeenbook

هذه الكلمات الهواء العليل بعد العاصفة. لغته الجافة والخشنة عادة، كانت في هذه الساعة وردية، ومبهّرة. كانت الكنيسة هادئة جدّاً. كان يتوقف كثيراً بين الجملة والأخرى ثم يبتدئ من جديد بصوت خفيض. وصف الأربعة التائهين الذين مدّ لهم يده، تموّهت هيئاتهم فوق قليلاً بسبب الأطراف الحادّة لعلبهم، وصف هذه بالتفصيل من ناحية الورق، الشكل، المحتوى المتوقع. لم يخرج خاسراً. كانت العلب نظيفة، وكان حمَلَتُها بسطاء وخجولين، لم يرغب أن يسدّ أمامهم طريق العودة عن الخطأ. فما معنى سعيه إن كان فظّاً غليظ القلب معهم؟ عدا الأخير، كانوا مخلوقات طيبة، يندر أن يوجد أحد من طينتها، يتعاملون برهافة مع أصدقائهم، طلبوا مبالغ طائلة لكي يحتفظوا بثروتهم من الكتب. لو أنهم صعدوا إلى فوق لرجعوا خائبين. ترى في سيماهم عزّة أنفسهم. أما منه فقد قبلوا النقود ومضوا دون كلام وبمُهَج متزلزلة. الأول، أغلب الظن عامل من حيث المهنة، صرخ فيه ردّاً على سؤاله، اعتبره تاجراً ولم يرضَ قطّ بكلمات قاسية كما ارتضاها منه. ثانياً ظهرت سيدة، ذكّره مرآها بصديق، تصوّرت أن أحد الشياطين الخدم يهزأ بها واحمرّت كالدم لكنها ظلت صامتة. بعدها مباشرة جاء ضرير، اصطدم بامرأة عادية، زوجة أحد شياطين البوابة، لكنه أنقذ نفسه، مدّ يده نحو العلبة التي يحملها وظل واقفاً بصلابة أمام المُحسن بثقة غريبة. مظهر العميان الذين يحملون الكتب مهيب، يتمسكون بكل قوة بعزائهم. ومنهم، ممّن لا يتقنون لغة بريل لأن المطبوعات بها قليلة جداً، يحجمون ولا يقرّون بالحقيقة لأنفسهم. يكذبون على أنفسهم ويعتقدون أنهم يقرؤون. هؤلاء ندرة، وإن كان هناك من يستحقّ ضياء البصر، فإنهم هؤلاء الضريرون. لأجلهم يتمنى المرء لو أن الحروف الخرساء تنطق. طالب الضرير بأكبر مبلغ. سكت المحسن على السبب لشفقته عليه؛ واعتبر أنثى لامبالية هي السبب. لماذا نذكّره بقدره؟ لكي نواسيه، نهنّئه على سرّ سعادته. لو كان يمتلك أنثى لاضطرّ للاصطدام بها في كل

t.me/yasmeenbook

لحظة من لحظات حياته، والآن يخطئ، هكذا هن الحريم. الرابع، تافه وأقلّ عطفاً من الآخرين على كتبه المرتعشة بحيوية على ذراعيه، أظهر نفسه، كما يتوقع، رخيصاً ووشى من خلال كلماته بمسحة من الوضاعة.

فهم القزم من هذا السرد أن نقوده لم تضع، الأمر الذي كان سيؤذي مشاعره. أكد على المنظر الوضيع للرابع، الذي صادفه أمام البوابة. لا بد أن الرجل تاجر شنطة وسيأتي بالتأكيد غداً أيضاً. يجب أن يوقف عن شرّ أعماله.

بعد أن تعوّد على نبرة الصوت، سمع تاجر الشنطة الجملة الأخيرة. فبعد انقضاء الشجار العالي تسلّل قريباً منهما بهوان، ووصل تماماً في الوقت الذي بدأ الحديث عنه. استنكر نذالة القزم، ولهذا تحمّس لأعماله أكثر بعد أن خرج الآخران من الكنيسة.

قرّر فيشرله أن يقوم بتضحية كبيرة. أخذ كين إلى أقرب فندق لكي يعيد له جاهزيته ليوم الغد، وتغافل عن البقشيش الكبير الذي دفعه ذاك من أمواله هو. عندما دفع كين حساب غرفتين، علماً أن غرفة واحدة تكفيهما، ألقى على الطاولة خمسين بالمئة من إجمالي المبلغ بقشيشاً، كأن فيشرله موافق على هذا الجنون، ثم نظر إليه مبتسماً دون أن يقرّ بذنبه. ودّ فيشرله لو يصفعه. أليست هذه التكاليف الباهظة تبذيراً؟ ما الفرق إن أعطى البواب شيلينغاً واحداً أم أربعة؟ فخلال عدة أيام ستكون النقود كلها في جيب فيشرله على الطريق إلى أمريكا. لن يصبح البواب أكثر غنىً بهذا المبلغ التافه، بينما فيشرله يصبح أكثر فقراً. وعليه أن يكون ودوداً مع كائن غشّاش كهذا؟ لا بد أنه يتعمد إثارته لغاية واحدة فقط وهي أن يفقد أعصابه قبل بلوغ الهدف، ينسى نفسه ويقدم مبرّراً لإنهاء الخدمة. سيحذر. اليوم أيضاً سيمدّ الأوراق على الأرضية ويرتّب الكتب

t.me/yasmeenbook

على شكل قلاع، سيتمنى له ليلة سعيدة ويضطرّ للإصغاء قبل النوم إلى أسماء جنونية، سيستيقظ غداً في السادسة، بينما تستمتع العاهرات والمجرمون بالنوم اللذيذ، يحزم الكتب ويمثل المسرحية. إن أسوأ مباراة شطرنج لأفضل من كل هذا. الطويل ذاته لا يصدّق أن فيشرله يؤمن بتلك الكتب المستحيلة. يريد فقط أن يفرض عليه الاحترام، لكن فيشرله يحترم مادام بحاجة إلى هذا الاحترام، ولا ثانية زيادة. سيعبّر له عن رأيه بصريح العبارة ما إن جمع تكاليف الرحلة. سيصرخ فيه: "تعرفون يا سيد ماذا أنتم؟ أنتم محتال عادي جداً، لا أكثر. نعم، هذا أنتم!".

قضى كين الأصيل في السرير مرهقاً بضجيج الغداة. لم يخلع ثيابه لأنه لا يحترم الراحة في وقت غير مناسب. ردّاً على سؤال فيشرله المكرّر، إن كان عليه بدء العمل مع الكتب، اكتفى بهزّ كتفيه بلا مبالاة. فقد هان خوفه على مكتبته الخاصة، التي كانت في مأمن بجميع الأحوال. لاحظ فيشرله التغيّرات المستجدّة. وتوقع منه شَركاً، يجب معرفة مآربه، أو فرجاً لا يمكن النفاذ منه إلا بعد عدة سياط قصيرة ومؤلمة. ألحّ على السؤال عن الكتب: إن لم تكن تثقل على السيد مالك المكتبة؟ فلا الرأس ولا الكتب كانت معتادة على الوضع الآني. لا يريد أن يتدخل لكن وضعيته ليست مناسبة نظراً إلى الفوضى في الرأس. ألا يفضّل على الأقل طلب المزيد من المخدّات لكي يصير الرأس في وضع عمودي؟ وإن حرك كين رأسه، يطلق الصغير علامات الرعب: "بحقّ الرب، انتبهوا!". بل إنه قفز مرة عليه ووضع يده تحت أذنه اليمنى ليلتقط الكتب. قال مؤنّباً: "إنها تقع منها!".

شيئاً فشيئاً تمكّن من إعادة كين إلى الوضعية المرغوبة. تذكّر واجباته، امتنع عن الكلمات الزائدة، واستلقى متصلباً وهادئاً. لو أن الصغير يسكت. تشي خطاباته ونظراته بأن المكتبة معرّضة لأخطر المهالك، والأمر ليس كذلك. إن القلق المبالغ فيه يسبب عذاباً أليماً. كما أنه يفضّل التفكير

t.me/yasmeenbook

بحياة الملايين المهددة بالخطر، وبدا له فيشرله مبالغاً في الدقّة. لقد كان - مؤكّد بسبب حدبته - مهموماً كثيراً بجسده ويحيل هذا على جسد سيده. يسمّي الأشياء بمسمّيات، يفضّل أن يسكت المرء عليها، ويتمسك بالشعر والعيون والآذان. لماذا؟ من المعروف أن الرأس يستوعب أيّ شيء، لكن الصغار وحدهم ينشغلون بالمظاهر. لم يثقل عليه لحدّ الآن.

لكن فيشرله لم يتوقف. نزل أنف كين وبعد أن ترك الأمر يأخذ مجراه مدة طويلة دون أن يتحرّك، قرّر، حبّاً في الانضباط، أن يتدخل ضدّ القطرة الكبيرة، الثقيلة على الذروة. جرّ منديلاً وأراد أن يتمخّط فيه. هنا تنهّد فيشرله: "قفوا، قفوا، انتظروا حتى آتي!". جرّ المنديل من يده، لم يكن عنده منديل خاص، اقترب بحذر من الأنف، التقط القطرة كدرّة نفيسة. وقال: "تعرفون ماذا؟! لن أبقى معكم. كنتم ستتمخّطون، كانت الكتب ستخرج من أنفكم. ولا داعي لأن أقول لكم أنتم كيف سيكون منظرها. أنتم لا تشفقون على الكتب. لن أستمرّ مع واحد مثلكم!". دهش كين. وافقه في أعماق قلبه. ولهذا تماماً هيّجته نبرته الفظّة أكثر. بدا لنفسه كأنه هو من تحدث بلسان فيشرله. لقد تغيّر القزم تغيّراً كبيراً تحت ضغط الكتب التي لم يقرأ أيّاً منها. ثبتت صحة نظرية كين القديمة. وقبل أن يستجمع جواباً، استمرّ فيشرله في الشجار مستغرباً من مرونة سيده. لم يخاطر بشيء ونفّس بالسباب عن كل غضبه على البقشيش. "تصوروا أني أنا أتمخط، ماذا ستقولون؟ ستطردونني من العمل مباشرة. الإنسان الذكي يتصرف هكذا. تفتدون كتب الغرباء وتعاملون كتبكم معاملة الكلاب. فجأة لا يبقى معكم فلوس، وهذه ليست المصيبة الكبيرة، لكن إذا لم يبقَ معكم كتب أيضاً، ماذا تفعلون وقتها؟ هل تريدون أن تشحدوا في آخر العمر؟ أنا، لا. ويقول فوق هذا إنه كار كتب! انظروا إليّ أنا. هل أنا كار كتب؟ لا. وكيف أعامل الكتب؟ أتعامل معها بحسّ سليم، مثل معاملة لاعب

t.me/yasmeenbook

الشطرنج مع الملكة. مثل القحبة وقوادها. ماذا أقول لكم حتى تفهموا: مثل أم مع رضيعها". حاول أن يستعيد لغته القديمة، لكنه لم يتمكن منها تماماً. عنّت له كلمات كثيرة أفضل ولأنها أفضل قال لنفسه: "أيضاً مليح" وكان راضياً عنها.

نهض كين، اقترب منه كثيراً وقال، ببعض الإجلال: "أنتم مكرسح وضيع. غادروا غرفتي فوراً. أنتم مُقال من العمل!".

صرخ فيشرله: "إذاً، أنتم ناكر جميل أيضاً! يا يهودي، يا خنزير! ماذا يتوقع المرء من خنزير يهودي؟! اطلعوا من غرفتي فوراً أو أتصل بالشرطة. أنا دفعت. عوِّضوني عن النفقات وإلا اشتكيت. فوراً!".

تردّد كين. تصور أنه هو من دفع، لكنه لم يكن واثقاً قطّ عندما يتعلق الأمر بالفضائح المالية. كما أنه شعر بأن القزم يريد الاحتيال عليه، وإذا أصدر أمر إقالة خادمه الأمين، فليلتزم على الأقل بوصاياه، ولا يزيد الخطر على الكتب. سأل: "كم المبلغ الذي أنفقتموه لأجلي على الكتب؟" وسمع صوته المتردّد بوضوح صارخ.

تنفس فيشرله، الذي لاحظ في الأثناء مدى ثقل الحدبة على ظهره، الصعداء. ولأنه في حالة مزرية، لأن الحلم الأمريكي قد ينتهي. ولأن غباءه هو سبب هذا الانقلاب، لأنه يكره نفسه، نفسه، صغره، وضاعته، مستقبله التافه، الهزيمة قبل النصر بخطوة، الدخل الضئيل (مقارنة بالكل الملكي، الذي كان سيكسبه في أيام)، ولأن هذا الدخل الابتدائي، التافه، الذي يبصق عليه، يودّ لو يرميه بوجه كين، لولا أنه خسارة فيه، مع كل المكتبة التي يخرى عليها، تنازل أيضاً عن المبلغ الذي أنفقه كين على الغرف وبقشيش البواب. قال: "أحجم لكم عنه". كانت الجملة ثقيلة عليه، حتى إن طريقة النطق بها منحته وقاراً وجلالاً أكثر بكثير مما لكين بكل طوله

t.me/yasmeenbook

وحدّته. أوحى التنازل بكل المهانة الإنسانية وبالوعي بكل طيبة قائلها وسوء فهمها من الطرف الآخر.

هنا بدأ كين يفهم. فهو لم يدفع قرشاً واحداً أجراً للقزم، بالتأكيد لا، فلم يتطرق الحديث إليه قطّ، وعوض أن يطالب باستعادة نفقاته، يتخلى عنها. لقد أقاله لأن القلق النبيل على مكتبته أرغمه على النطق بعبارات غير مستحسنة. عيّره بالكسيح. وهذا الكسيح أنقذ حياته قبل عدة ساعات، عندما تعرّضت له شرطة العاصمة. يستحسن به أن يشكر القزم على الانضباط والأمان، بل والواعز على عمل الخير. لقد استلقى في السرير دون أن يُرقِد الكتب للنوم من شدّة التراخي، ولمّا ذكّره الخادم، وهذا هو واجبه، بالوضع المزري للكتب والمخاطر التي تتهدّدها، أراد أن يطرده من غرفته. لا، لم يغرق قطّ في الانحطاط بهذا العمق، بحيث يثابر على الخطيئة بحقّ روح كتبه لمجرّد التعنّت. وضع يده على حدبة فيشرله، ضغط عليها بود كأنه يريد القول: لا تغتمّ، الآخرون يحملون الحدبات على رؤوسهم، ترّهات، لا يوجد آخرون، لأن الآخرين مجرّد بشر، عدانا نحن السعيدين، وأمره: "حان وقت العمل، يا عزيزي السيد فيشرله!".

"هذا رأيي أنا أيضاً"، ردّ ذاك وهو يجاهد لئلا تطفر الدموع من عينيه. لاحت له أمريكا عملاقة، شابة، ولا يمكن لأيّ غشّاش تافه مثل كين أن يغرقها.

t.me/yasmeenbook

الجوع

قرّبتهم جلسةُ صلح صغيرة أحدهما من الآخر أكثر. علاوة على حبهما المشترك للعمل، أو الحذاقة، كان أحدهما قد مرّ بتجارب كثيرة على غرار الآخر. للمرة الأولى تحدث كين عن زوجته المجنونة التي حبسها في البيت حيث لا يمكنها إيذاء أحد. مازالت مكتبته العظيمة هناك، لكن، وبما أن المرأة لم تُبدِ أدنى علامة على حبها للكتب، يُستبعد حتى أن تحدس في جنونها مجرّد حدس بالكنز الذي يحيط بها. لا بد أن كائناً رقيق النفس مثل فيشرله يعي الألم الذي يسبّبه له البعاد عن مكتبته. لكن لن يكون أيّ كتاب في العالم في مكان آمن أكثر مما لدى تلك المعتوهة التي لا تفكر سوى فكرة واحدة، ألا وهي المال. يحمل معه تعويضاً بسيطاً عنها، وأشار إلى قلاع الكتب التي وضعت على الأرض في هذه الأثناء. أومأ فيشرله مطواعاً.

تابع كين حكايته: "إيه، إيه! أنتم لا تتصورون وجود بشر لا همّ لهم سوى المال. أنتم أبيتم لفتة خير، المال، حتى لو كان مكيدة. أودّ أن أبرهن لكم أن غزوتي السابقة عليكم كانت نابعة فقط من نوبة غضب، بل وربما من شعوري أنا بالذنب. أودّ أن أعوّضكم عن المهانات التي تحمّلتموها مني بأناة. واعتبروا شرحي لكم الحياة على حقيقتها تعويضاً كفاية. صدّقوني يا صديقي العزيز، ثمة بشر لا يفكّرون فقط أحياناً، ثمة بشر يفكّرون دائماً، كل ساعة، كل دقيقة، كل ثانية من حياتهم بالمال. بل أمضي أبعد وأزعم أن هذه النقود نقود غرباء. هذه الخلائق لا ترتدع عن شيء. أتعلمون ما الذي

t.me/yasmeenbook

أرادت زوجتي أن تبتزّه مني؟!". "كتاب"، هتف فيشرله. "لكنت تفهّمت هذا رغم أنه بحد ذاته جريمة لا تغتفر. كلا، وصية!".

تبيّن أن فيشرله سمع بمثل تلك الأحداث. بل إنه يعرف امرأة حاولت شيئاً مماثلاً. وكي يردّ على ثقة كين بالثقة، روى له الحكاية المشتبهة، إلا أنه رجاه قبل ذلك رجاء حارّاً، ألا يفشي السرّ، فقد يكلفه هذا رأسه. لم يكن استغراب كين هيّناً عندما علم ببطلة القصة، زوجة فيشرله، فهتف: "الآن أستطيع أن أقرّ لكم، لقد ذكّرتني زوجتكم أول ما رأيتها بزوجتي. هل اسمها تيريزه؟ لم أبغِ آنذاك جرح مشاعركم ولهذا تكتّمت على هذا الانطباع". "لا، اسمها المتقاعدة وليس لديها اسم آخر. وقبل أن تصير متقاعدة كان اسمها الرفيعة؛ لأنها سمينة".

لم يتطابق الاسم، لكن البقية تطابقت. وبذكر قصة وصية فيشرله طرأت شتّى أنواع الاشتباهات. أليست تيريزه مومساً تعمل في السرّ؟ يمكنها أن تفعل كل الشرور. كانت تدّعي أنها تنام مبكراً. ربما كانت ترتاد ليلاً مثل تلك السماوات. تذكّر ذلك المشهد المرعب، حين تعرّت قبالته ورمت الكتب عن أريكة النوم على الأرض. لن يجرؤ على كل ذلك التهتّك سوى مومس. وبينما يسرد فيشرله عن زوجته، قارن كين الحيثيات – المرض، تكرار الكلام، محاولة القتل – مع الحيثيات التي يعرفها عن تيريزه والتي أعلم بها القزم قبل عدة دقائق. لا ريب، إن لم تكونا واحدة، فإن المرأتين توأم بالتأكيد.

لاحقاً، عندما اقترح عليه فيشرله في لحظة اندفاع التخاطب بصيغة المفرد وترقب الجواب مقشعرّاً من شدة الصداقة، قرّر كين ألا يكتفي بتحقيق رغبته هذه فقط، بل وعده أن يهديه دراسته التالية العظيمة، بل ربما الانقلابية عن اللوغوس في العهد الجديد، رغم أن القزم ليس عالماً وما زال يخطو خطواته الأولى في مسالك الثقافة. علم فيشرله خلال جلسة الصلح أن في البلاد أناساً يتحدثون الصينية أفضل من الصينيين أنفسهم

t.me/yasmeenbook

وعشرات اللغات غيرها. قال: "كنت أتصور هذا". أعجبته هذه الواقعة، إن كانت واقعة، إلا أنه لم يؤمن بها. على كل حال، إنه أيضاً إنجاز إذا كان أحدهم قادراً على ادّعاء كل هذه الحذاقة.

ما إن تخاطبا بصيغة المفرد حتى غدت الأمور المشتركة بينهما دون نهاية. عملا معاً على خطة الإنقاذ في الأيام التالية. حسب فيشرله أن رأس المال سينفد خلال أسبوع، فقد يأتي أناس بكتب عالية القيمة وإهلاك هذه تحديداً جريمة استحقّت حكم الإعدام. رغم الحسابات البغيضة طرب كين لسماع هذه الكلمات. أضاف فيشرله، إذا تم استهلاك رأس المال، سيعمدون إلى إجراءات حازمة ورسم علامات الجدّ على وجهه. لم يشِ بما يعنيه. وأعلم كين بمعطيات المستقبل القريب. تفتح الدار في الساعة التاسعة والنصف وتغلق في العاشرة والنصف. وفي هذا الوقت تكون الشرطة مشغولة بأمور أخرى. يعلم من تجاربه السابقة أن رجال الشرطة يعيدون الزحف على تيريزيانوم في الحادية عشرة إلا ثلثاً. تجري الاعتقالات في الحادية عشرة ولا بد أن الصديق الغالي يتذكر محاولة الاعتقال التي نجا منها بصعوبة صباح اليوم. طبعاً تذكّر كين، فقد قرعت الساعة الحادية عشرة حين رفع أنظاره إلى ساعة الكنيسة. قال: "أنت حقاً مراقب دقيق النظر، يا فيشرله". "صديقي العزيز، لما يعيش المرء طويلاً بين الأوباش! هذه ليست حياة سارّة، مهما كان فإن إحساس الواحد باحترام نفسه يتأذّى، اللهم نفسي كما يقال، لكن كلّ واحد أيضاً يتعلّم". أقرّ كين أن فيشرله يملك تماماً ما يعوزه هو، معرفة الحياة العملية بكل تشعّباتها.

في الصباح التالي، في تمام التاسعة والنصف، وقف منتعشاً ومنشرحاً، متهيّئاً لكلّ مغامرة في موقفه. منتعشاً لأنه يتجشم علوماً أقل، فقد حمل عنه فيشرله بقية المكتبة. مازحه: "رأسي يستوعب الكثير، وإذا لم يكفِ المكان، أحشو الحدبة بالبقية". ومنشرحاً، لأنه تخفّف من السرّ البشع عن زوجته، ومتهيّئاً لكل مغامرة لأنه يطيع أوامر الغرباء. استودعه فيشرله

t.me/yasmeenbook

في الثامنة والنصف، زاعماً أنه سيقوم بجولة استطلاع قصيرة. إن لم يرجع فكلّ الأمور تجري على ما يرام.

التقى خلف الكنيسة بموظفيه. جاءت الصيادة إلى العمل رغم أنها أقيلت. كانت رافعة أنفها عدة سنتمترات أكثر من المعتاد. المدير مدين لها بأجر عشرين شيلينغاً ويقع تحت رحمتها إن أرادت أن تذكّره أم لا. واتكالاً على هذا الدين تجرّأت على الدنوّ منه أكثر. كان منظف القنوات يسبّ زوجته. عوض أن ترضى بخمسة عشرة شيلينغاً، التي أخذها إلى البيت، سألت فوراً عن الخمسة الأخرى. كانت تعلم كل شيء. ولهذا يوقّرها. أيقظته اليوم باكراً مؤنّبة إياه على عدّة شيلينغات سكر بها. قال الأعمى، الذي يذرع الساحة خلف الكنيسة منذ ساعتين ذهاباً وإياباً، حتى إنه لم يحتسِ قهوة الصباح المعتادة: "هذا ما يصير لما يكون عند الرجل امرأة واحدة. الرجل يحتاج إلى مئة امرأة". ثم استعلم عن زوجة منظف القنوات. تأثر عميقا بوزنها ثم سكت. تذكّر تاجر الشنطة، الذي أيقظه خادم الكنيسة أمس من نوم خالٍ من الأحلام، العلبة المنسية تحت المقعد. بحث عنها مرتعباً رغم أنها علبة كتب ليس غير. وجدها، كان فيشرله قد صار في الخارج وحيّاه بإيماءة خفيفة من أنفه.

بدأ المدير: "سيداتي، سادتي، ليس لدينا وقت نخسره. هذا يوم مهمّ. الشركة تقلع إقلاع سريع. الاستثمارات تكبر. في عدة أيام أكون رجل ثري. قوموا بواجبكم وأنا لن أنساكم". نظر نظرة خالية من أي تعبير إلى منظف القنوات، نظرة واعدة إلى الأعمى، سموحة إلى الصيادة، ومحتقرة إلى تاجر الشنطة. "سيظهر عميلي بعد نصف ساعة. سأعلمكم حتى ذلك الوقت لتعرفوا ماذا تعملون. من لا يعرف يفصل من العمل". استلمهم بالتسلسل السابق واحداً بعد الآخر، وألقى على أسماعهم المبالغ التي عليهم طلبها اليوم.

لم يتعرّف العميل على منظّف القنوات، ما لا غرابة فيه، لأنه يحمل مكان

t.me/yasmeenbook

الوجه لوحة روث براقة. سأل الصيادة ما إن لم تحضر أمس، فأجابت بصبّ اللعنات على شبيهتها، كما تم توصيتها. تلك المرأة قاسية القلب ترهن الكتب منذ سنوات، بينما هي لم تعملها قط. صدّقها كين لأنه أعجب باستيائها ودفع لها ما طلبت.

كان فيشرله قد وضع أكبر آماله في الأعمى: "في الأول تقولون له سعركم. ثم تنتظرون عدة لحظات. إذا راجع نفسه تدوسون له على طرف حتى يصحو وتهمسون في أذنه: زوجتكم تيريزه تسلّم عليكم، لقد ماتت". أراد الأعمى أن يستعلم عنها، فقد تحسّر على أن يفوته وزنها المعتبر، كما توقع، بسبب الموت. كان يحزن على كلّ امرأة تتوفى ولا يعرف الشفقة على الرجال حتى لو ماتوا ألف مرة. عندما يسمع بموت نساء سمينات، لن يستطيع امتلاكهن بعد، يتحول في أيام السعد إلى منتهك حرمات وفي أيام الأزرار إلى شاعر. أما اليوم فقد قطع عليه فيشرله أسئلته بإشارة إلى مستقبل لا أزرار فيه: "سيدي العزيز، الحريم لا تأتي قبل أن تتخلّص من الأزرار. الحريم والأزرار معاً، ما يصير!". وفي ضوء هذه الفرص انتقلت تيريزه الميتة بخفة إلى كين. لم يسقط اسمها في النسيان خلال المسافة من هويماركت خلف الكنيسة إلى ردهة قسم الكتب. منذ إصابته في الحرب اقتصر ذكاء الأعمى وذاكرته على أسماء الحريم وأنواعهن. عندما لاح في الباب الزجاجي بعينين جاحظتين على ردفي تيريزه العاريين، انفجر فمه باسمها، ركض نحو كين، وتلبية لتكليف مديره، داس على أصابع قدمه.

تلوّن وجه كين. رآها قادمة. لقد هربت من السجن. التنورة الزرقاء تلمع. المعتوهة، طالما زرعت في جسمه بقعاً زرقاء وقوّت من عزيمته. كين مزرقّ ومستضعف. إنها تبحث عنه، إنها تحتاجه، تحتاج قوى جديدة لتنورتها. أين الشرطة؟ يجب أن يحبسوها، فوراً، إنها خطر على الأمن العام، تركت المكتبة وحدها، شرطة، شرطة، أين الشرطة، آه، الشرطة لا تأتي قبل الحادية عشرة إلا ثلثاً، يا لسوء الحظ، لو كان فيشرله هنا! فيشرله على الأقل، هو لا

t.me/yasmeenbook

يعرف الخوف، لقد تزوّج أختها التوأم، إنه يفهم في هذه الأمور، لقد تخلص منها، سيقضي عليها، التنورة الزرقاء، رهيبة، رهيبة، لماذا لا تموت؟! عليها أن تموت، في هذه اللحظة، على الباب الزجاجي، قبل أن تصل إليه، قبل أن تضربه، قبل أن تفتح فمها، نذر عشرة كتب، مئة، ألف كتاب، نصف المكتبة، كل المكتبة، التي في رأس فيشرله، إذا ماتت، للأبد، هذا كثير، يقسم، سيضحّي بكل المكتبة، شرط أن تكون ميتة، ميتة، ميتة، ميتة تماماً. أعلن الأعمى بحزن صادق: "للأسف، ماتت وتسلّم عليكم أحرّ السلام!".

أمر كين بتكرار البشرى السارة حوالي عشر مرات. لم يهتم بالتفاصيل، كاد ألّا يتشبّع بالحقيقة المجردة، قرص عظامه ليتيقّن ونادى اسمه. وعندما تأكد من أنه لم يخطئ السمع، لا يحلم ولم يخطئ، سأل ما إن كان الخبر صحيحاً وكيف علم به السيد؟ كان شاكراً. كرّر الأعمى مغتاظاً: "تيريزه ماتت وتسلّم عليكم أحرّ السلام". هزل حلمه لرؤية هذا الإنسان. زعم أن مصدره موثوق لكن لا يسمح له بذكره. يريد 4500 شيلينغ لأجل العلبة. لكن عليه أن يستردّها منه بعد استلام الثمن.

أسرع كين ليغسل ذنبه بالنقود. كان يخشى أن يطالبه الرجل بالمكتبة التي نذرها. لحسن الحظ حملها فيشرله كلها صباح اليوم. إذاً يستحيل على كين أن يفي نذره فوراً، فيشرله غير موجود، ومن أين له أن يأتي بالكتب فجأة؟ على كل حال، أسرع بالدفع حتى يذهب البشير. لو كان فيشرله، الذي لا يعرف أين هو، قد شعر بأيّ خطر لكان جاء ونبّهه ولخسر المكتبة بذلك. لتولِّ كل النذور، المكتبة فوق كل نذر.

عدّ الأعمى النقود على مهل. إذا كان أحدهم قادراً على دفع هذه المبالغ، فإنه يستحقّ بقشيشاً، ويحقّ له أن يطلب البقشيش، لكنه لم يعد متسولاً. بل إنه موظف في شركة ذات استثمارات كبيرة. يحب مديره لأنه أنهى عهد الأزرار. لو حصل مثلا على 100 شيلينغ بقشيشاً، لاشترى عدة حريم دفعة واحدة. لا يمكن أن يعترض المدير على هذا. وعلى عادته

t.me/yasmeenbook

القديمة مدّ يده الخاوية، وقال إنه ليس شحاذاً لكنّه يرجو حسنة. ألقى كين نظرة على الباب، لاح له ظلٌّ ما، دسّ ورقة نقدية في يد الرجل، وكانت هذه بالمصادفة من فئة مئة شيلينغ، دفعه بيده وتوسّل إليه: "حاولوا أن تذهبوا، بسرعة، بسرعة!".

لم يبقَ للأعمى وقت للندم على سوء فعلته؛ كان يقدر على طلب المزيد، لكن عواقب مقامرته سيطرت على كيانه. ظهر رافعاً صوته عند فيشرله، وهذا تهمّه نتيجة فعلته أكثر من كلمات الإطراء والتملّق من فم الأعمى الذي لم تعد الدنيا تسعه من شدة الحب وكثرة الأموال. تردّد قليلاً قبل أن يعطف عليه بالمال، فقد كان الوقت مبكراً دائماً على المبلغ الزهيد والخيبة الكبيرة. تغلبت عليه الدهشة بالنجاح التام. عدّ النقود عدّة مرّات وهو يكرّر: "هذا فعلاً شخصية. الرجل عنده شخصية. فيشرله، لازم تنتبه مع هكذا شخصية". أحال الأعمى "الشخصية" على ذاته وتذكّر فوراً ورقة المئة شيلينغ في يسراه. قرّبها من أنف القزم وهتف: "انظروا إلى بقشيشي. سيدي المدير، أنا ما شحدت. إنسان يعطي 100 شيلينغ بقشيش، هو إنسان جيد". وحدث أن فيشرله فوّت على نفسه جزءاً من غنيمته للمرة الأولى منذ افتتح شركته الجديدة، لأنه مشغول جداً بشخصية عدوه.

فزاحمهما تاجر الشنطة، الذي كان الأخير مثل أمس. قلب وجهُه التعيس مزاجَ الأعمى. وبحسن نيّة، كما هي طبيعته، نصحه أن يطلب بقشيشاً. سمع المدير هذا. وما إن اقترب منه تاجر الشنطة، هذه الأفعى اللئيمة، التي لا تفكر سوى بمصلحتها، استيقظ آليّاً من حلمه وصرخ فيه: "أنت تتطاول كثيراً!"، فردّ المصعوق: "أين تطاولت؟".

رغم النوم القصير كان على أتمّ يقظة منذ الأمس. اقتنع أنه لن ينال شيئاً بالقوة. ما يزال يؤمن بقوة وصلابة بأن العلبة الحقيقية مُخفاة في الكنيسة، لكن بطريقة متقنة بحيث لا يجدها أحد. لهذا ترك هذا السبيل وطرق آخر. تمنى لو أنه يصغر مثل فيشرله كي يفهم أفكاره، بل أصغر، صغيراً بحيث

t.me/yasmeenbook

يجد مكاناً داخل العلب السرية ويسيّر بيعها من الداخل. قال لنفسه: "أنا مجنون، لأنه لا يوجد أحد أصغر من قزم". لكنه كان أحدّ ذكاء من ألا يدرك علاقة قامة القزم مع مخبأ العلبة. لقد كان أكثر نباهة. بينما ينام الآخرون، يكون يقظاً. إذا جمعنا زمن النوم إلى زمن الصحو، نستنتج كم أنه أكثر نباهة من الآخرين. كان يعرف هذا، لكنه يتمنى لو أنه انقطع عن هذه النباهة، لنقل لمدة أربعة عشر يوماً، لينام طوال هذه المدة مثل الآخرين، في تلك المنتجعات بكل ما فيها من رفاهية؛ إنسان مثله يتجول كثيراً ويسمع كلّ ما هبّ ودبّ، الآخرون أيضاً يسمعون لكنهم ينسون خلال النوم، وهو لا ينسى شيئاً، لأنه لا يستطيع النوم، ولهذا يتذكر ويتألم لكل كلمة.

يلوح له الأعمى من خلف ظهر فيشرله، يرفع ورقة من فئة مئة شيلينغ عالياً وينصحه محرّكاً شفتيه بطلب البقشيش. يرتعش من أن يعود تاجر الشنطة بوجه متبرّم، لأنه يودّ أن يناقشه في شؤون حريمه. المدير لا يفهم في هذه المسائل لأنه بكل بساطة قزم مكرسح. منظف القنوات جبان يخاف من حرمته، لا يعاشر غيرها؛ فقط يسكر دون حرمته. ويفضّل ألا يقول المرء شيئاً للآخرين عن الوظيفة الجديدة، فكلّهم طماعون وبالنتيجة لا يبقى من كل المال ولا حرمة واحدة في اليد. تاجر الشنطة هو الوحيد. لا يقول كلمة واحدة عندما يتحدث معه المرء، يسكت، وهو لذلك أفضل شريك للحديث.

في هذه الأثناء يتذكر الوحيد مهامه. عليه أن يطلب المبلغ الهائل، ألفي شيلينغ، إذا سأله العميل ما إن لم يكن أمس هنا، عليه القول: "نعم، طبعاً، مع نفس العلبة، ألا تتذكروني؟". إذا بدا الطويل بمزاج سيّئ عكس التوقعات، فعلى تاجر الشنطة أن ينسحب بأقصى سرعة، دون نقود، بل ويمكنه ترك العلبة عند الضرورة. فالطويل يعمد إلى جرّ مسدّس أو اثنين من مسدّساته ويطلق النار. لتبقَ العلبة هناك. فالكتب ليست غالية الثمن. وفيشرله سيحاسب العميل عندما يعود إلى طبيعته ويمكن التكلم

t.me/yasmeenbook

معه. فكّر فيشرله في التخلّص من تاجر الشنطة بهذه الطريقة الشيطانية. رأى أمام عينيه كين الغاضب واستنكاره للطلب الوقح وتكرار مجيء تاجر الشنطة بالكتب ذاتها. ورأى نفسه، فيشرله، يكتفي برفع كتفيه وإقالة موظفه مبتسماً بودّ: "لا يريد أن يراكم بعد. ماذا أفعل؟ للأسف أنا مضطر لإقالتكم. يدّعي أنكم أهنتموه. ما الذي فعلتموه معه؟ ما عاد أي شيء ينفع. يمكنكم الذهاب. عندما أقوم بأعمال مع أحد آخر سأشغّلكم، لنقل في سنة، سنتين. حافظوا على نفسكم حتى ذلك الوقت، ودعوني أرى ما الذي يمكنني فعله لأجلكم. أنا قلبي على تجار الشنطة. هو يقول إنكم إنسان لئيم، أفعى لئيمة، لا تفكر إلا في مصلحتها. ما أدراني أنا ماذا يقصد. اذهبوا!".

حسب فيشرله الحساب لكل الاحتمالات، لكنه لم يتوقع وقع النعوة على كين. وجد تاجر الشنطة العميل ذاهلاً، لا يتوقف عن الابتسام حتى خلال أكثر الأعمال جداً، دفع المبلغ الهائل مبتسماً وأعلن في النهاية، بابتسامة لا تخلو من الرقة: "كأني أعرفكم!". "أنا أيضاً" ردّ تاجر الشنطة بفظاظة. شعر بالاشمئزاز من أن يظل يبتسم له، إما أن هذا العميل يهزأ به أو أنه مجنون. وبما أنه يتلاعب بتلك المبالغ الطائلة، بدا الاحتمال الأول أقرب. سأل كين: "من أين أعرفكم؟"، كانت به حاجة للتحدث مع إنسان بسيط عن سعادته، إنسان، لم ينذر له المرء مكتبة ولا يعرفه. "نعرف أحدنا الآخر من الكنيسة"، ردّ تاجر الشنطة بعد أن بهته الاهتمام المفاجئ من طرف السيد. أراد أن يعرف ردّ فعل الإنسان الغني على ذكر الكنيسة. فربما نقل الشركة كلّها على اسمه. كرّر كين: "من الكنيسة! طبعاً من الكنيسة" دون أن يدري عن أي كنيسة يتحدث. "يجب أن تعلموا أن زوجتي قد توفيت"، قال ووجهه الهزيل يشعّ. انحنى، تنحّى تاجر الشنطة بحركة لا إرادية وألقى نظرة خائفة على يديه وحقيبته. كانت اليدان خاليتين، أما ماذا عن الحقيبة، فلا أحد يعرف. لحق به كين، أمسك الكائنَ المرتعش

t.me/yasmeenbook

أمام الباب الزجاجي من كتفه وهمس في أذنه: "كانت أمية". لم يفهم تاجر الشنطة شيئاً، كان كل جسده يرتجف وهمهم متأثراً: "تعازيّ، تعازيّ!". حاول أن يتهرّب من يديه، لكن كين لم يفلته وادّعى مبتسماً أن هذا هو مصير الأميين، وهو مصير يستحقونه كلهم، وكانت امرأته أكثر من يستحق هذا المصير، وبلغه خبر نعيها قبل دقائق عديدة. الموت محتّم على الجميع، وتحديداً على هؤلاء الأميين. قال وهو يحرك القبضة الحرة ووجهه يستعيد التعابير الصارمة المعهودة. بدأ تاجر الشنطة يفهم، الرجل يهدّده بالقتل، استغرق في صلاته، تنهّد تنهيدة عالية راجياً المساعدة وأفلت العلبة الثقيلة وسقطت على قدمي العدو المخيف، الذي أفلته منذ لحظة الألم الأولى. ثم ضغط فكّيه أحدهما على الآخر وانهزم بسرعة، ربما لن يطلق عليه الطويل النار إذا توقف عن الصراخ. توسّل إليه في خاطره أن ينتظر قليلاً قبل إطلاق النار، حتى ينعطف على الزاوية، مُقسماً إنه لن يعيدها مرة ثانية. أمام تيريزيانوم فتش في ثيابه عن جروح متوقعة. وكان على حدّة من الذكاء ليطلب أجره من فيشرله ويستقيل من العمل. غير مصدّق السعد الذي لاقاه هذا حيث لم يتوقعه، عدّ القزم الألفي شيلينغ ودفع عشريناً منها، حينئذٍ بدأ تاجر الشنطة يرتعد مرة أخرى وسرد وهو يشهق بالبكاء أن العميل الغني أطلق عليه النار وكاد يصيبه، حتى قبل أن يسأله أي سؤال. يحجم عن العمل مع مثل هذه الوكالة. وعلى فيشرله أن يدفع له تعويضاً مادّياً عن كلّ هذا الألم. وعده القزم بدفع أقساط تبلغ خمسين شيلينغاً طوال ستة أشهر، يدفع الأول بعد شهر من اليوم (حينئذٍ سيكون في أمريكا). أعلن تاجر الشنطة أنه موافق ومضى.

رفع كين الكتب الساقطة. آلمه مصيرها، لكن ألمه الأكبر كان اختفاء ذلك الإنسان، فقد كان يودّ أن يشي له بمكنونات نفسه. ناداه بودّ وصوت خافت: "لكنها ميتة، متأكد، صدقوني، لا تسمعنا". ولم يجرؤ على النداء بصوت أعلى. كان يعلم لماذا هرب ذلك الرجل. كل رجل يخاف من

t.me/yasmeenbook

تلك المرأة، فعندما تحدث عنها أمس مع فيشرله، شحب وجه ذاك. اسمها ينشر الرعب، ما إن يسمعه أحدهم حتى يتحول إلى حجر. حتى فيشرله، الصاخب والضاجّ، يهمس همساً عندما يتحدث عن أختها. وهذا المجهول، الذي أعتق كتبه، لم يصدق موتها. لماذا هرب؟ لماذا كل هذا الجبن؟ كان سيبرهن له على أن موتها محقّق، موتها بديهي، يُستَنتج من طبيعتها، بالأحرى من وضعها. لقد أكلت نفسها بنفسها، افترست نفسها من شّدة جشعها للمال. ربما كان لديها احتياط في البيت، فمن يعلم أين خزنت التموين، في المطبخ، في حجرة الخدم القديمة (لكنها في الواقع كانت مدبرة منزل)، تحت السجاد، خلف الكتب، لكن لكل شيء نهاية. عاشت على تموينها أسابيع، لكنّه نفد. رأت أنها استهلكت احتياطيّها. لكنها لم تستلقِ لتموت. لو كان مكانها لفعلها هو. يفضّل أيّ شكل من أشكال الموت على حياة وضيعة. أما هي، لأن طمعها في الوصية أودى بها إلى الجنون، فقد افترست ذاتها قطعة قطعة. وكانت تحلم بالوصية حتى آخر لحظة. قطعت اللحم عن جسدها مزقةً مزقة، هذه الضبعة، تدبرت معيشتها اليومية على جسدها، أكلت اللحم الدامي، قبل أن ينضج، وكيف لها أن تطبخه، ثم ماتت مثل هيكل عظمي، التنورة تحتوي العظام الخالية، كأن عاصفة نفختها. في الحقيقة ظلت التنورة كما كانت والعاصفة ذرتها هي تحت التنورة. وجدوها، فالشقة اقتُحمت يوماً ما. البيادة الوفي، العنيف، البواب، كان يبحث عن سرّ غياب سيده. طرق الباب يوميّاً وقلق لأنه لا يتلقى جواباً. انتظر عدة أسابيع قبل أن يقدم على كسر الباب. كان باب الشقة مقفولاً من الخارج. عندما كسر الباب وجد الجثة والتنورة. وُضعا معاً في التابوت. لا أحد يعرف عنوان البروفسور، وإلا كانوا سيخبرونه قبل مراسم الدفن. لحسن حظه، لأنه كان سيضحك أمام جميع المارة بدل أن يبكي. خلف التابوت يسير البواب وحده، أهل الميت الوحيد، وهذا أيضاً من باب الوفاء لسيده المتوارَث. قفز كلب جزارين

t.me/yasmeenbook

على التابوت، رماه أرضاً، سحل منه التنورة المنشّاة. أدمى خطمه من شدة العضّ. فكر البواب أن التنورة جزء منها، كانت التنورة أقرب إليها من قلبها، لكن لأن الكلب تصرف بسعار من شدة الجوع، لم يتجرأ على العراك معه. اكتفى وراقب متأثراً، كيف تختفي التنورة قطعة قطعة في بلعوم الكلب، مشربة بدم الحيوان العملاق. تابع الهيكل العظمي رحلته. وبما أن لا أحد يرافقه، رُمي على مكبّ القمامة العالي على أطراف المدينة، ما كانت أي مقبرة أو أي كنيسة سيقبلها. أرسلوا سفيراً ليُعْلم كين بنهايتها الفاجعة.

هنا دخل فيشرله من الباب الزجاجي وقال: "يبدو أنكم تنوون الذهاب كما أرى". قال كين: "كانت فكرة الحبس حسنة". ردّ فيشرله مرتعباً: "تحبسني أنا؟ عليكم أن تحذروا!". "استحقّت تلك الميتة. لست واثقاً حتى اليوم ما إن كانت تجيد القراءة والكتابة". فهم فيشرله: "وتبعي ما تلعب شطرنج. ما رأيكم بهذا؟ مقرف، ما؟". "وددت لو أعرف التفاصيل. لأنه لا توجد غير هذه الأنباء الموجزة. لقد هرب مصدري الموثوق". كان هو من أبعده، لكنه خجل من أن يقرّ لفيشرله بذلك النذر المرعب. "وهذا الحمار ترك العلبة! أعطوني إياها. بما أني أنا من يحمل كل شيء، يمكنني حمل هذه أيضاً".

مع هذه الكلمات تذكر رابطة الأخوّة بينهما أمس، واعتذر لكين لأنه يخاطبه بصيغة الجمع، قائلاً إن هذا نابع من التبجيل ليس غير. مع أنه يحتقره في الواقع لأنه ثروته تبلغ الآن أربعة أضعاف ثروة كين، ويرى أنه يتكرم عليه حين يتحدث إليه ولولا أن هناك خُمسٌ أخير من رأس المال عنده لكان سكت. لربما ماتت الزوجة فعلاً. كل العلامات تشير إلى هذا. لأنها لو كانت على قيد الحياة، لاسترجعت الزوج منذ زمن بعيد. فرجل بهذا الغباء وكل هذا المال، تسترجعه أي امرأة. لم يصدّق حكاية جنونها، فكل التفاصيل التي رواها عنها كين كانت طبيعية جداً. بدا له من المستحيل أن يسجن هذا الإنسان الضعيف، الهزيل، أحداً، فما بالك بامرأة متينة.

t.me/yasmeenbook

كانت ستكسر الباب حتماً، خاصة إذا كانت مجنونة. وعليه فقد تحتّم موتها. لكن ما الذي سيجري للشقّة؟ إذا كان فيها أشياء ثمينة، سيمكن الاستفادة منها بجميع الأحوال، وإذا لم يكن فيها غير الكتب، يمكن رهنها على الأقل. ثم يمكن بيع الشقة ذاتها بسعر عالٍ. على كل حال، لقد حدث شيء ما وهناك رأس مال مرمي على الأرض، سواء كان كبيراً أم صغيراً.

على الشارع رفع فيشرله عينيه نحو أعالي كين وسأل: "والآن صديقي العزيز، ماذا نفعل بالكتب في البيت؟ القحبة رحلت والكتب وحيدة". ضغط أصابع يمناه الممدودة بشدّة بعضها على البعض الآخر، أمسكها باليسرى وشطرها فجأة نصفين كأنه هو من كسر رقبة القحبة. كان كين شاكراً له على هذا التذكير الذي كان ينتظره منه وقال: "على رسلك، لا بد أن البواب أحكم الشقة. إنه أشرف إنسان على وجه الأرض. وإلا، هل كان لي أن أسير جانبك بهدوء؟ ولعلمك، لا يسعني الاستقرار على رأي إن كانت بغيّاً أم لا". إنه منصف وهي ميتة، وبدا له من العدل ألا يحكم عليها دون أدلّة قاطعة. ثم إنه يخجل من جهله بمهنتها الحقيقية طوال ثماني سنوات. "ما توجد امرأة ما هي قحبة"، كعادته حسم فيشرله الأمر. فهذه كانت زبدة حياته التي قضاها في السماء. اقتنع كين. لم يكن قد لمس امرأة طوال حياته. فهل هناك – عدا العلم – تبرير أفضل لهذا من الحقيقة المبسطة أنهن جميعاً قحاب؟ قال: "للأسف، عليّ أن أقرّ لك" كي يلبس موافقته لبوس التجارب الخاصة على الأقل. لكن فيشرله اكتفى من الداعرات وانتقل للهجوم على البواب. عبر عن شكّه في شرفه. وشرح: "أولاً، لا يوجد إنسان شريف، طبعاً عدانا نحن الاثنين. ثانياً، لا يوجد بوّاب شريف. من أين يعيش البواب؟ من الابتزاز. ولماذا؟ لأنه بغير هذا ما يقدر يعيش. البواب لا يشبع من الشقة وحدها. ربما شبع شخص آخر، لكن البواب لا. كان عندنا بواب يطالب زوجتي بشيلينغ على كل زبون. وإذا جاءت إلى البيت ليلة من الليالي دون زبون، كل الاحتمالات في هذه

t.me/yasmeenbook

المهنة ممكنة، كان يسألها: أين الزبون؟ تقول له: ما عندي. فيردّ عليها: أريني إياه وإلا شكوتك للشرطة. هنا تبدأ بالبكاء. ومن أين تخرج له بزبون. وغالباً ما تمر ساعة على هذه الحال. وبالنهاية تضطر أن تريه الزبون، وهذا يكون مرّات زبون صغير جداً"، مدّ فيشرله يده المفتوحة أمام ركبتي كين وأردف: "كان يمكن طبعاً تخبّئه لو كان عند الثاني شوية تقدير. خسارة الشيلينغ. ومن يتحمل الأضرار؟ طبعاً أنا!".

حاججه كين بالقول إن الأمر هنا يتعلق بسيادة ورجل أمين مخلص، وقوي كالدب، لا يسمح بمرور المتسولين، ولا لتجار الشنطة وغيرهم من الرعاع بتجاوز عتبة البيت. من الممتع رؤيته وهو يعالج هؤلاء الفجرة، ومنهم الكثير ممن لا يجيد حتى القراءة والكتابة. بل إنه يكرسح بعضهم حرفياً. وقد وضع له جعالة صغيرة من مئة شيلينغ على الهدوء الذي يشكره عليه، فدرب العلم بحاجة إلى الهدوء، الهدوء ثم الهدوء. ارتفع صوت فيشرله: "وهذا الإنسان يأخذها! هذا الإنسان يأخذها! مبتزّ. معي حقّ وإلا ما معي حقّ؟ مبتزّ عن حقّ وحقيق! يجب حبسه فوراً، الحبس، أقول أنا، نعم، الحبس!".

حاول كين أن يهدّئ صديقه. يفترض به ألا يقارن إنساناً بسيطاً كذاك مع نفسه. طبعاً لا يحبّذ قبول المال مقابل خدمة، لكن هذا الطبع السيّئ منتشر لدى الحثالة وقد يصل حتى إلى الحلقات المثقفة. حاول أفلاطون مكافحة هذا دون جدوى ولهذا كان يكره، هو كين، فكرة استلام كرسي أستاذية طوال عمره. لم يرضَ أن يأخذ قرشاً واحداً على أبحاثه العلمية. "أفلاطون كيّس"، ردّ عليه فيشرله الذي يسمع الاسم للمرة الأولى في حياته: "أفلاطون أعرفه. أفلاطون رجل غنيّ، أنت أيضاً رجل غنيّ. ومن أين أعرف هذا؟ لأنه لا يقول هذا الكلام إلا رجل غنيّ. انظر إلى حالي! أنا شيطان فقير، ما عندي أيّ شيء، أنا ولا شيء، ولن أصير شيء ورغم هذا لا آخذ أيّ شيء. هذه هي الشخصية. وبوّابلك، هذا المبتزّ، يأخذ المئة شيلينغ، أقول هذه ثروة، وفي النهار يضرب المساكين. لكن في الليل، أراهن، في

t.me/yasmeenbook

الليل ينام، إذا تسلّل أحد، لا يلاحظ شيء، يستلقي وينام، المئة شيلينغ في جيبه، ويترك الكتب للنهب، لا أقدر أن أتعايش مع هذا، هذه جريمة، معي حقّ وإلا ما معي حقّ؟".

قال كين إنه لا يعلم ما إن كان نوم البوّاب عميقاً. ولنفترض هذا جدلاً، ذلك أنّ كلّ شيء فيه قويّ، باستثناء أربعة طيور كناري عليها أن تغني عندما يرغب (ذكر هذه من باب الدقّة). ومن ناحية أخرى فالرجل يتمتع بيقظة خارقة، أنشأ في الباب عيناً سحرية على ارتفاع خمسين سنتمتراً من الأرض كي يتمكن من مراقبة الداخلين والخارجين بشكل أفضل. وخلفه يجثو طوال النهار. انفجر فيه فيشرله: "أنا أكره كذا ناس. إنهم أفضل عواينية. عوايني. واحد لئيم. لو كان بين يدي، يا صديقي العزيز، لن تحب أن ترى المنظر، كنت سأضربه ضرب، بإصبعي الصغير أرميه على الأرض. أنا لا أطيق الجواسيس. هل الجواسيس أوباش أم أنهم ليسوا أوباش؟ إنهم أوباش، أقول أنا، معي حقّ وإلا ما معي حقّ؟". ردّ كين: "لا أعتقد أن بوّابي يمارس الجاسوسية، هذا إن كانت هذه المهنة موجودة أصلاً. كان في السابق موظف شرطة، مفتّشاً، إن لم يخطئني الظن، وخرج على التقاعد من زمن بعيد".

فأحجم فيشرله على الفور. إنه يبصق على هكذا عملية سطو. لن يورّط نفسه الآن مع الشرطة، خاصة قبل السفر إلى أمريكا، وتحديداً مع شرطة متقاعدين، المتقاعدون منهم أشد وبالاً. يهجمون على الأبرياء من شدة الفراغ لديهم. وبما أنه لا يحقّ لهم أن يعتقلوا أحداً، فإنهم، حين تسنح لهم الفرصة، أكثر قسوة ويضربون المساكين ويكرسحونهم. خسارة، لكن لا ضير إذا كان المرء يستعدّ لأمريكا. الإنسان يسافر إلى أمريكا مرة واحدة وللأبد. لا يستحسن أن يصل بطل العالم مثل شحاذ، فهو لم يصبح بعد، لكن سيمسي، ويجوز أن يقول الناس، لقد جاء بأيدٍ فارغة ولن يبقى بأيدٍ مليئة، يفضّل أن نأخذ منه كل شيء. فيشرله لا يشعر بالأمان في أمريكا رغم

t.me/yasmeenbook

لقبه. الغشّاشون في كل مكان، وكل شيء في أمريكا عملاق. يدسّ أنفه بين الوقت والآخر في إبطه اليسرى ويقوّي عزيمته برائحة نقوده الموجودة هناك. هذه تواسيه، وبعد أن يقيم أنفه هناك برهة، يرتفع مرحاً في عنان السماء.

إلا أن سعادة كين بموت تيريزه خمدت. نبّهته كلمات فيشرله إلى الخطر الذي يتهدّد كتبه. كل ما حوله يشدّه إليها، وضعها المزري، واجبه، عمله. ما الذي يبقيه هنا؟ حبّ أسمى. مادام يشعر بقطرة دم في عروقه، سيخلّص الساقطين، يفتديهم من الموت حرقاً، يحفظهم من مريء ذلك الخنزير. في البيت ينتظره السجن المحتم. عليه أن يبصر الحقيقة في عينها. فهو مشارك في قتل تيريزه. هي تتحمل المسؤولية الأساسية، لكنه هو من حبسها. كان ملزماً حسب القانون أن يدخلها مصحّ المجانين. شكر الربّ أنه لم يلتزم بالقانون. لو كانت في مصحّ المجانين لظلّت على قيد الحياة حتى اليوم. لقد حكم عليها بالموت، ونفذ الجوع والجشع هذا الحكم. لم يندم على جريمته بمقدار ذرّة. تأهّب لتحمّل كلّ المسؤوليات أمام المحكمة. ستنتهي محاكمته بإعلان براءة مدوّ. إلا أن اعتقال عالم بهذه الشهرة، أعظم عالم صينيات في زمنه، سيثير صيحات استنكار شديدة، ما يجدر تجنّبه لمصلحة العلم. أهم شهود النفي هو ذلك البواب. رغم أن كين يعتمد عليه إلا أن رؤى فيشرله عن ذمم مثل تلك الشخصيات لم تبقَ دون أثر. البيادة يحولون ولاءهم إلى السيد الذي يدفع أكثر. المسألة الجوهرية تكمن في الفريق الخصم. هل هذا الفريق موجود؟ هل له مصلحة في رشوة البواب بمبالغ طائلة مغرية؟ تيريزه كانت وحيدة. لم تتحدث قطّ عن أقرباء لها. لم يرافقها أحد للدفن. إذا ظهر أحد ما خلال المحاكمة يزعم أنه قريبها، سيطالب كين بإجراء تحريات دقيقة عن أصله. يحتمل دائماً وجود أقرباء. فكر أن يتحدث مع البواب قبل القبض عليه. سيكسب هذا الجاسوس، كما عبر فيشرله، برفع الجعالة إلى مئتَي شيلينغ. بهذا لا

t.me/yasmeenbook

يقدم على رشوة أو أي عمل غير قانوني. ليس على البواب سوى أن يقول الحقيقة، الحقيقة المحض. على كل حال لا يجوز أن يعاقب أسمى علماء الصينيات في زمنه لأجل حرمة دنيا، حرمة لا يمكن التأكد من أنها كانت تتقن القراءة والكتابة. تطلّب العلم موتها. وهو يتطلب أيضاً إعلان براءته المطلقة وإعادة الاعتبار إليه. يُعَدّ العلماء من طرازه على أصابع اليدين. وللأسف توجد الملايين من النساء. وتيريزه من أدناهن. لا ينكر أن موتها كان عذاباً أليماً لا يتصور. لكن هي التي تتحمل كامل المسؤولية عن هذا العذاب تحديداً. كان يمكنها أن تستسلم للجوع. لقد توفي آلاف الهنود قبلها هذه الوفاة البطيئة تكفيراً عن ذنوبهم، مؤمنين بالخلاص عبرها. وما زالوا يسحرون العالم حتى اليوم. لا أحد يحزن على مصيرهم بل يطوبهم شعبهم، وهو الثاني حكمة بعد الصينيين. لماذا لم تهتدي تيريزه إلى هذا القرار؟ كانت متعلقة بالحياة جداً، جشعها لا يعرف الحدود. تمسّكت بكل ثانية حقيرة من الحياة. لو كان بقربها أحد لافترسته. كانت تكره البشر. فمن سيضحي بنفسه لأجلها؟ كانت في ساعاتها الأخيرة وحيدة ومهجورة كما استحقّت. فشرعت بآخر وسيلة بقيت لها: افترست جسدها، مزقة مزقة، قصاصة قصاصة، قطعة قطعة، وظلت على قيد الحياة تحت آلام لا توصف. لم يعثر الشاهد عليها هي، إنما على عظامها، متجمعة تحت تنورة زرقاء منشّاة، كانت ترتديها دائماً. هذه كانت نهايتها المستحقة.

تحوّل دفاع كين إلى ادّعاء لا ثغرة فيه ضد تيريزه. لقد أبادها بعد وفاتها للمرة الثانية. كان قد نزل من زمن بعيد مع فيشرله في غرفة فندق، دخلاه كأنما ببداهة. لم تنقطع سلسلة أفكاره الصارمة لحظة واحدة. صمت وفكّر وتمعّن في كل الحيثيات. نسّق مرافعة نموذجية من الكلمات المقتبسة من الزمن المفترَس لحياتها. كان معلّماً في الحدسيات الباهرة ويتحمّل مسؤولية كلّ حرف. إلا أنه تأسّف كثيراً على استهلاك كل تلك الدقة الفيلولوجية في قضية قتل تافهة. يتصرف مكرهاً ويعد العالم بتعويض

t.me/yasmeenbook

كافٍ في إبداعات مستقبله القادم. فقد نهته عن العمل تلك المرأة التي يتدارس حالتها الآن. شكر رئيس المحكمة على حسن المعاملة المثالي، الذي لم يكن متوقعاً بما أنه المتهم بالقتل. انحنى له الرئيس وأعلن بكل ودّ واحترام أنه يعلم بالتأكيد ما يجدر بأهم عالم صينيات في زمنه الراهن. لم ينطق الرئيس بلفظة "بالتأكيد" المتقدمة على "أهم عالم صينيات" التي يقولها كين حين يتحدث عن نفسه، لأنها بداهة فائضة عن الحاجة. امتلأ كين بالفخار الحقّ من هذا التشريف العلني. خفّت حدّة نقمته على تيريزه.

قال لفيشرله: "على المرء أن يقرّ لها ببعض الظروف المخفّفة"، كان هذا جالساً جانبه على السرير متحسّراً على عملية السطو الفاشلة، متشمّماً نقوده. "حتى في أحلك الأوقات، إذ تفسّخت شخصيتها نتيجة الجوع، لم تجرؤ على لمس كتاب واحد. هنا أدلي بهامش ثانوي أن الأمر يتعلق بامرأة غير متعلمة". انزعج فيشرله لأنه لا يفهمه، إنه مضطرّ لأن يفهم كل حماقة، لعن حذاقته الخاصة وشارك في حوارات الشيطان المسكين بجانبه بحكم العادة فقط. قال: "صديقي العزيز، أنت مجنون، برأيك، بأيّ شراهة كانت ستلتهم الكتب لو كانت تعرف كم هذا سهل؟! أقول أنا، لو كانت تمت طباعة كتاب الطبخ الذي أعده خنزيرنا في تيريزيانوم، بالمئة والثلاث وصفات. لا، لا، الأفضل أن لا أقول شيء". "ماذا تقصد؟"، سأل كين بعينين جاحظتين. فهم قصد القزم بالتأكيد، لكنه يريد أن يتلفظ آخرُ بالأمر المرعب عطفاً على مكتبته، ليس هو ذاته، ولا حتى في أفكاره. "ما أستطيع قوله يا صديقي العزيز هو إنك لو رجعت إلى البيت، كنت سترى شقتك قرعاء، ولا ورقة واحدة، فما بالك بالكتب". تنفس كين الصعداء: "الحمد لله! لقد دفنت. وكتاب العار لن يصدر قريباً. سأذكر هذا في مرافعتي. سينصت العالم كله. أفكر أن أعرّي كل ما أعرفه دون هوادة. ما زال لدى العالِم ما يقوله".

ازدادت لغة كين جسارة منذ وفاة زوجته، وراحت التحديات التي

t.me/yasmeenbook

سيواجهها تحت رغبة الكفاح لديه نحو اجتراح أعمال جديدة. قضى مع فيشرله ظهيرة ممتعة. كان القزم يتمتع بحس فكاهة عالٍ خلال ساعاته السوداوية. أصغى إلى أدقّ تفاصيل فضيحة المحاكمة ولم يعترض على أيّ نقطة. أعطى كين نصائح جيدة بالمجان. سأله ما إن لم يكن لديه أقرباء يساعدونه فإن قضايا القتل ليست هيّنة. ذكر كين أخاً له يعيش في باريس، طبيب نفسية مشهور، صنع لنفسه قبل هذا ثروة كبيرة من عمله كطبيب نسائية. "تقول ثروة؟"، قرّر فيشرله على الفور أن يتوقف في زيارة قصيرة إلى باريس في طريقه إلى أمريكا قائلاً: "هذا هو الرجل المناسب لي. سأستشيره بموضوع حدبتي". "لكنه ليس جراحاً". " ما مشكلة، إذا كان طبيب نسائية فهو قادر على كل شيء". ابتسم كين على سذاجة هذا الإنسان الطيب، الذي لم يسمع شيئاً عن التخصصات في العلم كما يبدو. ورغم هذا أعطاه العنوان الدقيق، الذي دوّنه فيشرله على ورقة وسخة، وروى له عن العلاقة الجميلة التي كانت بينه وبين أخيه قبل سنوات، عشرات السنوات وأنهى حديثه: "العلم يستهلك الإنسان بكلّيته. لا يفسح فرصة للعلاقات المعتادة. فرّقنا واحدنا عن الآخر". "إذا جاء وقت محاكمتك، لن تستفيد مني شيء. تعرف ماذا، وقتها أسافر إلى باريس وأقول لأخيك إني من طرفك. لن أكون مجبر على أن أدفع له إذا كنتَ صديقي المقرب؟". ردّ كين: "طبعاً لا. سأكتب لك رسالة توصية لكي تتأكد. سيسرّني حقيقة إن تمكّن من تخليصك من الحدبة". جلس وكتب إلى أخيه – للمرة الأولى منذ ثمانية أعوام. وافقه اقتراح فيشرله كثيراً. كان يتمنى أن يتفرغ قريباً لحياته العلمية كلّياً وبدا له الصغير عبئاً، رغم كلّ التقدير له. أصلاً كان فيه إحساس أنه يجب أن يتخلّص منه عاجلاً أم آجلاً، وذلك منذ أن بدأ التخاطب بصيغة المفرد. وإذا تخلّص فيشرله من حدبته، فقد يعيّنه غيورغ حارساً في مصحّه العقلي. أخذ القزم الرسالة المعنونة والمختومة إلى غرفته، أخذ من علبة الكتب، بضاعته التي تركها

t.me/yasmeenbook

تاجر الشنطة، كتاباً ودسّ فيه الرسالة. أما بقية العلبة فستخضع غداً لقدرها المحتوم. حسب مراجعة الحسابات ما زال لدى كين ألفا شيلينغ. ويمكن نهبها منه خلال صباح واحد بكل سهولة. وبهذا مضى المساء بأحاديث مستهجِنة عن الخنزير ومثيلاته من الخلائق المنحطة.

بدأ اليوم التالي بداية سيئة. ما إن وقف كين أمام نافذته حتى صدمه إنسان بعلبة. كان فيه من القوى ما يكفي بعدُ كي لا يصطدم بالباب الزجاجي. تجاوزه القبضاي الفظ وذهبت كل نداءات كين: "تفضّلوا! ماذا ترغبون هنا؟ انتظروا قليلاً!" هباء. ارتقى الإنسان الدرج سريعاً ولم يلتفت إليه. بعد تفكّر طويل، توصل كين إلى نتيجة مفادها أنها كتب بورنوغرافيا ولا شكّ. فليس من تفسير آخر لذلك التسرّع الوقح لكل من يتهرّب من تفتيش علبته. ثم ظهر منظف القنوات، توقف قبالته بخراقة وطلب أربعمئة شيلينغ. ونتيجة لغضبه على سابقه عرفه. فصرخ فيه بصوت متزلزل: "لقد حضرتم أمس إلى هنا، اخجلوا!". انطلق منظف القنوات ببراءة: "أول البارحة أيضاً". "عليكم الانصراف من هنا! تماسكوا. نهايتكم قاتمة". قال منظف القنوات: "أنا أريد فلوسي". كان مسروراً بالخمسة شيلينغات التي سيسكر بها. دون تفكير – ما لم يفعله قطّ – كان واثقاً من أنه لن يحصل على أجره قبل أن يؤدي عمله، أي يسلّم النقود إلى ربّ العمل. أعلن كين بحزم: "لن تحصلوا على شيء". وقف على الدرج. كان مستعدّاً لكل الاحتمالات. لا رهنية إلا على جثته. حكّ منظف القنوات رأسه. كان يقدر على سحق الولد الهزيل بكل سهولة، لكنه لم يؤمر بهذا. فهو لا يعرف غير أن ينفذ الأوامر. "سأروح وأسأل المدير"، ضرط وأدار مؤخرته للآخر. فهذا الوداع أسهل عليه من الكلمات. تنهّد كين. زيق الباب الزجاجي.

لاحت فيه تنورة زرقاء وعلبة كتب ضخمة. تلتها تيريزه. يسير البواب جانبها. يحمل بيسراه علبة أكبر فوق رأسه، رماها من ثم إلى يمناه، التي تلقّفتها بكل سهولة.

t.me/yasmeenbook

التحقّق

ظلت تيريزه تفتش الشقة طوال أسبوع بعد أن طردت زوجها؛ اللصّ. تصرّفت كأنها تؤدّي عملاً بالغ الدقّة وقسمت العمل. كانت تزحف على القدمين، الركبتين، اليدين، المرفقين في المكان من السادسة إلى الثامنة باحثة عن شقوق سرّية. تجد غباراً في أمكنة ما تكهّنت بوجوده فيها خلال أكثر أوقاتها نظافة ووضعت الذنب فيه على اللص، لأن ناس مثله وسخين. تفحص بورقة تغليف قوية كلّ شقّ أرفع من أن تدخله دبابيس شعرها الثخينة. تنفخ الغبار عن الورقة بعد الاستخدام وتمسحها من ثم بخرقة. لأنها لا تتحمّل فكرة أن تلمس دفتر الحساب الضائع بورقة وسخة. لم ترتدِ قفازات أثناء العمل، فقد تفسد، إلا أنها مغسولة ومُلقاة ناصعة البياض قربها، احتياطاً للحظة العثور على دفتر الحساب. غُلفت السجاجيد الجميلة، التي تعرّضت لأضرار طفيفة نتيجة الجرّ، بورق جرائد ووضعت في الممرّ. فُتشت محتويات الكتب واحداً تلو الآخر. لم تفكّر بعدُ جدّياً في بيعها. أرادت قبل ذلك أن تستشير رجلاً فطِناً. إلا أنها تفحّصت أعداد الصفحات، شعرت بالرهبة من الكتب التي يزيد عدد صفحاتها على الخمسمئة، فلا بد أن لها قيمة ما، وزنتها مثل دجاجات منتوفة في السوق، قبل أن تقرّر إعادتها إلى أمكنتها. لم تعد تتحسّر كثيراً على دفتر الحساب. اقتنعت بالشقة. ودّت لو كان لديها أثاث أكثر. فلو تصورنا عدم وجود الكتب، نلاحظ فوراً من كان يعيش هنا؛ لصّ. أعلنت بعد أسبوع: لا شيء هنا. في مثل هذه الحالات يذهب الإنسان الأكابر إلى الشرطة. لم تقدّم بلاغاً وفضّلت الانتظار حتى ينتهي آخر مصروف أخذته. أرادت أن تبرهن

t.me/yasmeenbook

للشرطة أن الرجل هرب بكلّ شيء ولم يوصِ لها بقرشٍ واحد. حين تذهب للتسوّق تتجنّب البواب من مسافات بعيدة. تخاف من سؤاله عن السيد البروفسور. صحيح أنه لم يقم حتى الآن بأي شيء، لكن لا بد أنه سيسأل في أول الشهر. فهو يحصل على بقشيشه في أول كل شهر. ولم يحصل على شيء هذا الشهر وتصوّرته يشحد أمام بابها. كانت تنوي نية قاطعة أن تطرده خالي اليدين. لا أحد يستطيع إرغامها على الدفع. وإذا تواقح عليها، تبلّغ عنه الشرطة.

ذات يوم ارتدت تيريزه التنورة المنشّاة الأفضل. فهي تضفي عليها الشباب. زُرقتها أفتح قليلاً من الآخر، الذي ترتديه يومياً. لاءمتها بلوزة بيضاء مبهرة. فتحت باب غرفة النوم الجديدة، تزحلقت نحو مرآة الخزانة، قالت: "جئت" ومدّت ابتسامتها من الأذن للأخرى. بدت كأنها في الثلاثين ولها غمازة في الحنك. الغمازات حلوة. اتفقت مع السيد غروب على موعد غرام. فالشقة الآن ملكها ويستطيع أن يأتي. وتودّ أن تسأله ما هو الحل الأفضل. ففي الكتب ملايين وسيسعدها أن تتفضل بالبعض منها على غيرها. هو بحاجة إلى رأسمال. تعرف الرجل الفطين. لا تريد أن تنيم النقود الغالية. وما فائدتها من هذا؟ التوفير جيد، لكن الربح أفضل. ثروة الإنسان تتضاعف. لم تنسَ السيدَ غروب. ولا امرأة تستطيع أن تنساه. هكذا هن النساء. كل واحدة تتمنى أن يكون لها. هي أيضاً تريد منه شيئاً. الزوج ضاع. لن يرجع أبداً. لن تقول ما الذي فعله. لم يكن طيباً معها، لكنه رغم هذا كان زوجها. ولهذا تفضل ألا تكشف أسرارها. في السرقة كان شاطر، لكن في الفطنة لا. لو أن كل رجل مثل السيد غروب. أيّ صوت عليه! أيّ عيون! لقد أعطته اسماً، وهذا الاسم هو بوزا. الاسم جميل، السيد غروب أجمل. هي تعرف الكثير من الرجال، لكن هل يعجبها أحد غير السيد غروب؟ فليبرهن على العكس إن كان يسيء الظن. عليه ألا يظن، عليه أن يأتي، أن يذكر الأرداف الفاخرة. فهو يقولها بشكل رائع.

t.me/yasmeenbook

تتأرجح أمام المرآة مع هذه الكلمات. وهنا تكتشف كم هي جميلة. تخلع التنورة وتتملّى في الردفين الفاخرين. صحيح. إنه فعلاً فطين. إنه ليس فقط مثيراً. إنه كل شيء. من أين يجيء بكل تلك الكلمات الحلوة. لم يرَ الردفين من قبل. إنه يعرف بكل بساطة. يدقّق النظر في النساء، ثم يسأل متى يقدر أن يجرّ بها. الرجل الحقيقي يكون جريء. وإلا فهو ليس رجل. وهل تستطيع الواحدة أن تقول له لا؟ تداعب تيريزه ردفيها بيديه. إنهما ناعمتان مثل صوته. تنظر إلى عينيه بغمّازتها. تقول، ستهديه شيئاً ما، تذهب إلى الباب وتأتي بربطة المفاتيح المعلّقة هناك. تسلّمه الهدية أمام المرآة برفقة الصليل وتقول، يحقّ له دخول غرفتها متى ما أراد. تعرف، لن يسرقها حتى لو لم تكن موجودة. تسقط المفاتيح على الأرض وتخجل لأنه لا يأخذها. تهتف: سيد بوزا، هل يسمح لها بأن تقول بوزا هكذا. لا يردّ عليها، لا يكتفي من الردفين. وهذا حلو. تتمنى لو تسمع صوته. تروي له سرّاً عميقاً. عندها دفتر توفير ويحقّ له أن يأخذ النقود باسمها. هل تبوح له بكلمة السرّ أيضاً؟ لا، إنها تمزح. ترتعب، فقد يطلبها منها فعلاً، لن تفعلها أبداً. حتى تتعرّف عليه بشكل أفضل. معرفتها به سطحية جداً. لكنه لحسن الحظّ لم يعلّق. أين هو؟ تبحث عنه عند ردفيها، تشعر بالبرد. حرارة صدرها مرتفعة. هناك يداه تحت البلوزة، لكنه هو غير موجود. تبحث عنه في المرآة ولا تجد سوى تنورتها. تبدو جديدة، والأزرق أحلى الألوان لأنه مخلص للسيد بوزا. ترتديها من جديد، تناسبها، وإذا أراد السيد بوزا مرة أخرى فستخلعها من جديد. سيأتي اليوم، سيبقى طوال الليل، سيأتي كل ليلة، إنه شاب. عنده حريم، سيطرد كل حريمه من أجلها. ما المشكلة إذا كان غليظاً ذات مرّة؟ وهكذا هو اسمه. لا ذنب له في الاسم. تتعرّق وتخرج إليه من فورها.

تناولت تيريزه المفاتيح الأبية، أغلقت الباب بطريقة معقدة، شتمت نفسها لأنها استخدمت المرآة في الغرفة النظيفة مع أن عندها قطعة مرآة

t.me/yasmeenbook

مكسورة غيرها وضحكت من كل قلبها، لأنها مدّت يدها عفواً إلى جيب المفاتيح الداخلي، مع أنه ليس في هذه التنورة أساساً. استغربت من رنين ضحكتها، لم تكن تضحك قطّ، خالت أنها تسمع غريباً في الشقة. فشعرت بالرعب، للمرة الأولى منذ أن صارت وحيدة. بسرعة ذهبت إلى مخبأ دفتر التوفير، كان في مكانه الصحيح. إذاً لم يسطُ أحد على البيت وإلا لسرقوا دفتر التوفير قبل غيره. أخذته معها من باب الاحتياط. انحنت عميقاً عند باب البناية لتمرّ بالبواب. كانت تحمل الكثير من النقود وتخاف أن يطلب منها البقشيش اليوم تحديداً.

رفعت حركة المرور الصاخبة على الشارع من سعادة تيريزه. أسرعت لتلحق بموعد عرسها، هدفها يقع في قلب المدينة. ازداد الصخب زقاقاً بعد زقاق. تلفّت نحوها كل الرجال. لاحظت هذا، لكنها تعيش لأجل رجل واحد بعينه. طوال عمرها كانت تتمنّى أن تعيش لأجل رجل وها قد آن الأوان. تواقحت عليها سيارة لأنها كادت تدعسها. ألقت رأسها نحو السائق وقالت: "رجاء، ما عندي وقت لكم!" ثم أدارت ظهرها للخطر. في المستقبل سيحميها بوزا من الحثالة. كما أنها لا تخاف الآن عندما تكون وحدها لأن كل شيء غدا ملكها. أثناء سيرها في المدينة تملّكت كلّ المحلات. ففيها درر تناسب تنورتها وماسات لبلوزتها. لن ترتدي الفراء، فهي غير محترمة، لكن لا ضير من تعليقها في الخزانة. أما الثياب الداخلية فلديها أجملها، بما أن كشكشها أعرض (أجمل الثياب الداخلية لديها هي، كشكشها أكثر عرضاً). ورغم هذا فقد اشترت عدة قطع من هذه أيضاً. وضعت الثروة على دفتر توفيرها الذي انتفخ وانتفخ، حيث كل شيء في أمان، وبهذا يكون لديه ما يسرّ ناظريه.

وقفت أمام شركته. دنت حروف لوحة الشركة من عينيها. قرأت في البداية غروس وأمه، ثم قرأت غروب وحرمه. وسُرّت بهذا. تضحّي لأجله حتى بوقتها المستعجل. يتشاجر المتنافسون، السيد غروس ضعيف

t.me/yasmeenbook

وينال حصته من الضرب. تراقصت الحروف من السعادة، وعندما انتهت قرأت بوضوح غروس وحرمه. لم يعجبها هذا قطّ. هتفت: "قلّة أدب!" ودخلت المحل.

على الفور قبّل أحدهم يد الرؤوم. كان صوته هو. على بعد خطوتين منه رفعت الحقيبة عالياً وقالت: "جئت". انحنى وسأل: "أيّ خدمة؟ كيف أستطيع أن أخدمكم؟ ربما غرفة نوم جديدة؟ للسيد البعل الجديد؟". كانت تيريزه تتعذّب من عدة أشهر خشية ألا يعرفها. بذلت كل ما فيها لتعرّف عن نفسها. عالجت التنورة، غسلتها، نشّتها، كوتها يومياً، لكن الإنسان المثير يعرف الكثير من النساء. فها هو ذا يقول: "للسيد البعل الجديد". فهمت المعنى السرّي. لقد عرفها. زالت كل مخاوفها، لم تتطلع حولها لتعرف ما إن كان في المحل أحد، اقتربت منه وأعادت كلماتها كما تدرّبت أمام المرآة. نظر إلى وجهها بعينيه الرطبتين. كان جميلاً، كانت جميلة، كل ما حولها جميل، وعندما وصلت إلى الردفين الفاخرين، مسّدت تنورتها، تردّدت، تمسّكت بحقيبتها وبدأت من جديد. طوح بذراعيه وهو يقول: "أيّ خدمة للسيدة الرؤوم، رجاء يا سيدتي الرؤوم، أي خدمة للسيدة الرؤوم؟!" ودنا منها أكثر كي تتحدث بصوت أخفض، انفتح وانغلق فمه لصق فمها، كان بطولها تماماً، وتحدثت أعلى وأسرع. لم تنسَ كلمة واحدة، كل كلمة تنفجر كرصاصة من فمها، فأنفاسها متقطعة ومتدفقة. عندما وصلت للمرة الثالثة إلى الردفين، فتحت الرباط في الخلف، لكنها ضغطت الحقيبة على التنورة بحيث لم تسقط هذه. شعر البائع بالدوار لشدة خوفه، وهي لم تخفض صوتها بعد، لامست وجنتاها الحمراوان المتعرّقتان وجنتيه. ودّ لو يفهمها، لم يكن لديه أدنى علم بمن هي وماذا تريد. أمسكها من ذراعيها السمينتين وتنهّد: "أيّ خدمة للسيدة الرؤوم؟" كانت من جديد بصدد الردفين، أنهتهما بفاخرة. فحّت: "نعم" وارتمت بين ذراعيه. كانت أسمن منه وظنّت أنه يعانقها. وهنا سقطت التنورة على الأرض. لاحظت

t.me/yasmeenbook

تيريزه هذا وازدادت سعادتها لأن الأمور سارت على هواها. عندما شعرت بتمنّعه، ارتعشت في قمة السعادة وقالت وصوتها يتهدّج: "أنا بكامل حريتي". قال صوت بوزا: "لكن يا سيدتي الرؤوم، لكن يا سيدتي الرؤوم!". هي كانت السيدة الرؤوم. اختلطت أصوات أخرى، ليست جميلة، الناس ينظرون، وهذا لا يهمّها، إنها سيدة محترمة. شعر السيد بوزا بالخجل، تهرّب وتهرّب، لم تتركه، كانت قد شبكت يديها على ظهره بقوة. صرخ: "رجاء، فوراً، سيدتي الرؤوم، رجاءً حارّاً، حلّوا عني، من فضلكم سيدتي الرؤوم!". كان رأسها على كتفه ووجنتاه مثل الزبدة. لماذا يستحي؟ هي لا تستحي. قد تتركهم يقطعون يديها لكنها لن تفلته من بينهما. دقّ السيد بوزا على الأرض بقدميه وصرخ: "بعد إذنكم، رجاء، لكني لا أعرف من أنتم، بعد إذنكم رجاء، أعتِقوني!". ثم جاء كثيرون، طرقوا على يدي تيريزه، بدأت بالبكاء لكنها لم تعتق. فكّ إنسانٌ قويّ أصابعها الواحد بعد الآخر وحرّر السيد بوزا منها. ترنّحت تيريزه، مسحت عينيها بكم البلوزة وقالت: "رجاء، كيف يمكن لأي إنسان يكون كذا غليظ؟!". وتوقفت عن البكاء. كان الإنسان القوي امرأة طويلة سمينة. كان السيد بوزا قد تزوج في الأثناء. في المحل ضجيج مرعب. عندما وقع نظر تيريزه على تنورتها على الأرض فهمت سرّ الضجيج.

ضحك على مقربة منها جمعٌ من البشر كأن أحدهم دفع لهم ليضحكوا. ارتعشت الجدران والسقف، ترنّحت قطع الأثاث. هتف أحدهم: "النجدة!"، وآخر: "الشرطة!". مسح السيد غروب حلّته مستاءً، كان يحب الأكتاف المحشوّة حبّاً خاصاً وغنّى مكرّراً: "حتى آداب السلوك لها حدودها، سيدتي الرؤوم" وبدأ، ما إن شعر بالرضا عن وضع حلّته، بتنظيف وجنتيه اللتين لمستهما تيريزه. هو وتيريزه الوحيدان اللذان لم يضحكا. حدّقت فيه منقذته، "الأم"، بارتياب، متوقعة قصة حب وراء الواقعة. وبما أنها شريكة فيه، فقد مالت أكثر إلى الشرطة. ذلك الكائن قليل الأدب يستحقّ مذكرة

t.me/yasmeenbook

إنذار. أما هو فقد حصل على مذكرته. بخلاف هذا كان إنساناً لطيفاً، ما لم تعبّر عنه قطّ. العمل يتطلّب شدّة لا هوادة فيها. وضحكت رغم كل هذه الحسابات ضحكة مجلجلة. تخالطت الأحاديث. ارتدت تيريزه تنورتها تحت أنظار الجمع. ضحكت موظفة المكتب على التنورة. لكن تيريزه لم تسمح بإهانة تنورتها وقالت: "رجاء، لو كان لديكم مثلها، لكنت سعيدة" وهي تشير إلى الكشكش العريض لتنورتها الداخلية، التي تشي أيضاً بغوايات ما، وليس التنورة وحدها. لم تتوقف القهقهة. كانت تيريزه سعيدة جداً، كانت تخاف من زوجته. لحسن الحظ أنها عانقته، فلن تسنح لها فرصة أخرى. وما دام الناس يضحكون فلن يجري لها شيء. لا أحد يؤذي الآخرين خلال الضحك. قال موظف نحيف، لا يبدو عليه أنه رجل، مثل زوجها السابق، اللص: "رفيقة غروب". قال آخر، وهذا كان رجلاً: "رفيقة حلوة". ورأت أنهم خبثاء لأن ضحكاتهم تعالت أكثر. صرخت: "رجاء، أنا أيضا حلوة، أين حقيبتي؟" كانت الحقيبة قد اختفت. "أين حقيبتي، سأجلب الشرطة!". وجدت الأم في هذا صفاقة وأعلنت: "طيب، أنا من سيتصل بالشرطة الآن!". التفتت واتجهت نحو الهاتف.

كان السيد غروس، المدير الصغير، ابنها، واقفاً طوال الوقت وراءها ويريد قول شيء ما. لم يطعه أحد. كلّما شدّ كمّها يائساً أبعدته وأعلنت بصوت رجولي خشن: "سنريها! سنرى من هو السيد هنا!". لم يعد السيد غروس يعرف بماذا يستعين. وحين رفعت سماعة الهاتف تجرّأ على أقصى ما فيه، قرصها وهمس: "لكنها اشترت من عندنا". "ماذا؟" سألت. "غرفة نوم جيدة". كان الوحيد الذي عرف تيريزه.

أسقطت الأم الهاتف، التفتت إلى العمال وأقالت الجميع من فورها، دون استثناء. "لا أسمح بإهانة زبائني". ومن جديد تزلزلت قطع الأثاث، لكن ليس بسبب الضحك. "أين هي حقيبة السيدة؟ الحقيبة تكون عندي خلال ثلاث دقائق". ارتمى جميع العمال على الأرض وزحفوا مطيعين

t.me/yasmeenbook

الأمر. لم يفت أحدهم أن تيريزه رفعت في هذه الأثناء حقيبتها التي كانت في موقع الأم السابق. كان السيد غروب أول من نهض وشاهد مندهشاً الحقيبة تحت ذراع تيريزه. دندن: "كما أرى سيدتي الرؤوم، فإن السيدة الرؤوم قد عثرت على حقيبتها. السيدة الرؤوم محظوظة دائماً. أي خدمة سيدتي الرؤوم، إذا سمحتم لي!". أطرت الأم على سعيه في العمل. تقدمت منتصبة نحوه وأومأت. قالت تيريزه: "اليوم لا، شكراً!". انحنى غروب عميقاً على يدها وقال بخنوع شديد: "إذاً، أقبّل يديكم الكريمتين، سيدتي الرؤوم". قبّل الذراع فوق القفازات، دندن: "أقبّل يدكم، مدام!" وتراجع، متنازلاً بيده اليسرى عن شيء ما برشاقة. قفز العمال واصطفّوا في عرض شرف. تردّدت تيريزه، رفعت رأسها بكل فخر وقالت مودّعة: "رجاء، اسمحوا لي أهنئكم!" لم يفهمها، لكن طبعه أمره بالانحناء. ثم مرّت بعرض الشرف. كانت جميع الظهور منحنية وكلٌّ منهم يحيّيها. في آخر الصف كانت الأم واستودعت هادرة. فضّل المدير بجانبها أن يسكت. إذ كان قد برز اليوم كثيراً. وكان عليه أن يعلن مبكّراً أنها زبونة. عندما صارت تيريزه في الباب الذي فتحه اثنان تشريفاً لها، اختفى في مكتبه بسرعة. ربما نسيته الأم! سمعت تيريزه صيحات الإعجاب حتى آخر لحظة. "شخص جريء"، "التنورة الحلوة!"، "إيه، كم هي زرقاء!"، "والحقيبة!"، "مثل أميرة"، " غروب محظوظ"، ولم يكنْ هذا حلماً. واستمرّ المحظوظ في تقبيل يدها، حتى لما صارت على الشارع. تطلّعوا نحوها عبر زجاج الواجهة. لم تلتفت وراءها سوى مرة واحدة فقط وتزحلقت في طريقها مبتسمة.

هكذا تجري الأمور إذا كان رجل استثنائي يحب امرأة. لقد تزوج! وهل كان يستطيع انتظارها؟ كان عليها أن تأتي أبكر. ما أروعه وهو يحتضنها. ثم شعر فجأة بالخوف. كانت زوجته الجديدة في المحل. رأسماله من المرأة، فلا يسمح له أن يفعل ما فعله. ابن أكابر. يعرف الأصول. يعرف كل شيء. لقد عانقها من مقدّم وتمنّع من دبر. سبّ كي تسمع الزوجة. يا للإنسان

t.me/yasmeenbook

الذكي! عيونه جميلة، كتفه جميل، خدّه جميل. والزوجة قوية. الزوجة تريد أن تمسك عليه شيئاً، لكنها لم تقدر. أرادت أن تتصل بالشرطة لأجل حقيبتها. هذه امرأة بجدارة. تتمنى أن تكون في مكانها. اللص لم يختفِ أبكر فوصلت متأخرة. هل تتحمل ذنب اللص أيضاً؟ لقد قبّل يدها. شفاهه حلوة. لقد كان في انتظارها. كان بالأصل يريد رأس المال منها تحديداً، وفجأة جاءت واحدة عندها رأسمال أكبر، النسوان لا يتركنه على راحته، فأخذها. طبعاً لا يقدر أن يترك المصاري الحلوة. لكنه لا يحب غيرها. لا يحب الزوجة الجديدة. عندما تجيء يجب على الجميع أن ينحنوا لحقيبتها. الباب ملآن بالعيون وكلها تنظر وراءها. لماذا ارتدت التنورة الجديدة؟ إنها مسرورة. لحسن الحظ أنها تمكنت من معانقته بسرعة. من يعلم، متى تسنح لها فرصة أخرى؟! التنورة تناسبها، التنورة الداخلية أيضاً. كشكشها غالٍ. هي ليست هكذا واحدة. تذكرت ذلك الإنسان المسكين. ولماذا لا يستمتع بتلك الأرداف قليلاً؟ إنها بنظره فاخرة. والآن رآها. تمنّ بها حتى على رجل متزوج.

سارت تيريزه إلى البيت حالمة. لم تنتبه لا إلى الشارع ولا إلى التلطيشات. وَقَتْها سعادتُها من التعاسة. انفتحت أمامها كل المسارب واتخذت هي الآمن، الذي يعيدها إلى أملاكها. بث مظهرها المقوّى الذعرَ في البشر ووسائل النقل. ثارت نظرات المحبة أينما حلت. قدم لها موظفون كبار عرض الشرف. صفقت القبلات على اليد، انهمرت زخّات البَرَد، امتلأ بها الفضاء، وكل هذا لها وحدها. الزوجات الجديدات، الغيورات، يتصلنَ بالشرطة، سُرِقت حقائب تيريزه. لم يعد هناك مديرون صغار، اختفوا عن الوجود، لم يعد المرء يراهم في محلاتهم، لم يبقَ منهم إلا أسماؤهم على المحلات. عشرات النساء، يبدون في الثلاثين، يتساقطن بين يدي بوزا بشفاه، عيون، أكتاف ووجنات. التنانير المنشّاة تسقط على الأرض. الأرداف الفاخرة تتملى نفسها في المرايا. الأيدي لا تعتق. المحلات

t.me/yasmeenbook

مكتظة تضحك فخورة بكل هذا الجمال. تسقط الخرق من أيدي مدبرات المنازل. اللصوص يعيدون ما سرقوه ويشنقون أنفسهم ثم يندفنون. على الأرض توجد ثروة وحيدة، وهذه تجمّعت. ليست لأحد. لأنها ملك امرأة واحدة. يمكن الاحتفاظ بها. السرقة ممنوعة. لا، يجب الحذر. فعند المرأة أشياء أفضل تقوم بها. تخضّ الحليب. الزبدة التي تطفو على سطحه من ذهب، في سبيكة مثل رأس طفل. دفاتر التوفير تتفجر. كذلك تتفجر صناديق جهاز العروس. فبداخلها كثير من دفاتر التوفير. لا أحد يطالب المرأة بشيء. إنسانان فقط يعرفان كيف يتصرفان. أحدهما امرأة تملك كل شيء. الآخر اسمه بوزا، لا يملك شيئاً، لكن يجوز له أن يكون رفيق المرأة. الأمهات المرحومات يتقلّبن في قبورهن. فهن لا يفرحن للمرأة. ألغي بقشيش البوابين لأن هؤلاء جميعاً يحصلون على راتب تقاعد. كل ما تقوله المرأة يتحقق فوراً. مقابل الورق الذي خلّفه لصّ تحصل المرأة على أوراق نقدية. الكتب أتت بنقود كثيرة. بيعت الشقة مقابل النقود. شقة أجمل لا تكلّف شيئاً. فلم يكن في القديمة شبابيك.

كادت تيريزه أن تصل إلى البيت. انقطع مطر الحلم. وتبيّنت الأشياء العادية. وهذه كانت بسيطة جداً، أقل ثراء، ولهذا يضمن المرء أنه سيجدها ويمتلكها. عندما وقفت أمام باب البناية قالت تيريزه: "رجاء، من حسن حظي أنه تزوج. الآن كل شيء لي وحدي". وبدأت تفكر جدّياً برأس المال الذي كانت ستديّنه للسيد غروب. للقيام بصفقات كهذه لا بد من وجود عقود وتواقيع. يحقّ لها المطالبة بفوائد عالية. كما أنها ستكون شريكة مساهمة. السرقة ممنوعة. لحسن الحظ لم تصل الأمور إلى هذه الدرجة. كم يستخفّ الإنسان ويبذّر نقوده. لا أحد يُرجع منها شيئاً. كذا هم البشر.

"ماذا جرى للسيد البروفسور؟"، مزمجراً قطع عليها البواب الطريق. ارتعدت تيريزه وصمتت. وجدت جواباً، الرجل كان لصّاً ولهذا يجب عليه أن يعمل بلاغاً. أرادت أن تنتظر بشأن البلاغ، وإلا كانت الشرطة ستجد

t.me/yasmeenbook

المصروف وتقول إن عليها أن تضيفه إلى الحسابات. مع أنه هو من أعطاها المصروف بذاته.

"ما شفته من ثمانية أيام. لا تقولي لي إنه مات!".

"لكن رجاء، من قال مات؟! هو يعيش مثل سمكة. لا يعرف ما هو الموت".

"توقعت أنه مريض. تحية طيبة مني وسأجيء أزوره. أنا أفضّل أن أطمئن عليه بنفسي".

أخفضت تيريزه رأسها لعوبة وقالت: "هل تعرفون أين هو؟ أنا أحتاجه كثير، المصروف."

كشف البوابُ المخادعَ من خلال زوجته. يريد أن يحتال عليه بالجعالة. البروفسور يتخفّى عنه كي لا يعطيه شيئاً. مع أنه ليس بروفسور. هو من صنع منه بروفسور، بقواه الذاتية. حتى قبل عدة سنوات كان اسمه دكتور كين فقط. وهذا اللقب لا شيء. لقد تصبّب عرقاً كثيراً حتى لقّبه جميع السكان بروفسور. لا يوجد إنسان يعمل بالمجان. لكل عمل راتب تقاعد. لا يرضى بإكرامية من الهيكل العظمي، إنما يريد الجعالة لأن هذه راتب تقاعده. زمجر بوجه تيريزه: "تدّعون أن زوجكم ليس بالبيت؟!"

"رجاء، لا، منذ ثمان أيام. يقول إنه اكتفى. فجأة يروح ويتركني وحيدة. ما يوجد مصروف. هل يعمل أحد هكذا شيء؟ أريد أعرف في أي ساعة ينام الآن؟ ابن الأكابر يدخل التخت الساعة تسعة".

"الإنسان يقدّم بلاغ عن ضائع".

"لكن رجاء. إذا كان راح من حاله. قال إنه سيرجع".

"متى؟"

t.me/yasmeenbook

"يقول: على هواه، طول عمره هكذا، لا يفكر إلا بنفسه، الثاني أيضاً إنسان. ما الذي يطلع بيدي؟"

"انتبهي، يا خرى، سأجي وأبحث عنه. إذا كان فوق أكسر عظامكم أنتم الاثنين. لي عنده مئة شيلينغ. وخلي الروح الوسخة تنتبه إذا طلعت الآن إلى فوق. أنا لست هكذا، لكن الآن سأصير هكذا".

تقدمته تيريزه. تناهى إليها من كلماته حقد على كين أنعش روحها. كانت تعتبر البواب صديقه الأوحد الذي لا يقهر. والآن تأتيها ضربة الحظ الثانية. سيساعدها إذا وجد أنها تقول له الحقيقة الصافية. الكلّ ضد اللصّ. لماذا صار لصّاً؟

أغلق البواب باب الشقة خلفه صافقاً إيّاه. أخافت خطواته الثقيلة الغاضبة الجيران تحت المكتبة. فقد كانوا قد اعتادوا الهدوء المطلق منذ ثماني سنوات. امتلأ بيت السلم بأناس يثرثرون. توقع الجميع أنه البواب. حتى الآن كان البروفسور طفله المدلل. كان السكان يكرهون كين بسبب الجعالة التي يذكّرهم بها البواب بكل مناسبة. أغلب الظن أن البروفسور لا يرغب في الاستمرار بالدفع. معه حقّ، لكنه أيضاً يستحقّ الضرب. البوّاب لا يعرف غير الضرب. استغرب السامعون المتوترون من أنهم لا يسمعون صوتاً غير زمجرة الخطوات المعروفة.

وصل غضب البواب إلى درجة بحيث أنه فتش الشقة صامتاً. كان بخيلاً حتى في غضبه. سيجعل من كين مضرب مثل إذا وجده. تجمعت خلف أسنانه التي يصرّ عليها عشرات السباب. انتصبت الشعيرات الحمراء على قبضتيه. شعر بها عندما فتش الخزن في غرفة نوم تيريزه الجديدة. ذلك الجيفة قد يختبئ في أي مكان. لحقته تيريزه متفهّمة. توقفت حيث يتوقف، نظرت حيث ينظر. كانت خيالاً بالنسبة إليه، وبعد عدة دقائق صارت مثل ظل له. شعرت أنه يحبس حقده المتصاعد. ومعه اشتدّ

t.me/yasmeenbook

حقدها أيضاً. لم يكن الزوج فقط لصّاً، بل تركها وحيدة، المرأة التي لا تقدر على الدفاع عن نفسها. صمتت كي لا تزعج البواب. كلما اقتربا أحدهما من الآخر أكثر، ابتعد خوفها منه. دعته يلج غرفة نومها قبلها. وسبقته عندما فتح الغرفتين الأخريين. مرّ سريعاً على حجرتها القديمة. فلم يتصور كين إلا في غرفة كبيرة، حتى لو كان متخفّياً. في المطبخ شعر برغبة في تكسير كل الأدوات. لكنه تحسّر على قبضتيه، بصق على الموقد وغادر المكان كما كان عليه. من هنا تقدم خابطاً بقدميه إلى المكتب. على الطريق إلى هنالك توقف طويلاً يراقب علاقات الثياب. لم يرَ كين معلّقاً عليها. قلب طاولة المكتب الهائلة جانباً. ولهذا الفعل احتاج إلى قبضتيه الاثنتين وانتقم انتقاماً رهيباً لهذا العار. فمدّ يده إلى أحد الرفوف ورمى عشرات المجلدات على الأرض. ثم تطلّع حوله ليرى ما إن كان كين ظهر أم لا. وهذا الفعل كان أمله الأخير.

"هرب"، قال متأكداً. عاف السباب. شعر بالضيق على خسارة المئة شيلينغ. فهذه كانت تعينه في درب آلامه على راتب التقاعد. لقد كان إنساناً ذا شهية هائلة. ما الذي سيحدث للعين السحرية إذا جاع؟ مدّ قبضتيه نحو تيريزه. ما زال الشعر واقفاً. زمجر: "انظري! طوال عمري ما كنت متوحّش مثل الآن، ولا مرّة!".

تملّت تيريزه في الكتب على الأرض. اعتبر القبضتين علامة على الاعتذار. شعرت بالإشباع، لكن ليس من القبضتين. قالت: "رجاء، ما كان رجل".

زمجر الرجل: "كان شرموط. مجرم. مكّار. قاتل". كانت تيريزه تريد القول شحّاذ فصار هو عند القاتل. وعندما أرادت أن تقول لصّ، كان القاتل قد تجاوز كل احتمالاتها. للدهشة كانت لعناته قصيرة. وسرعان ما عاد رقيقاً ورفع الكتب عن الأرض. صعب عليه إعادة صفّها بقدر ما هان عليه إسقاطها. جاءت تيريزه بالسلم وصعدت عليه. كل التوفيق الذي وجدته

t.me/yasmeenbook

في يومها دعاها لهزّ ردفيها. كان البواب يمدّ الكتب إليها بيد ويقرص فخذها باليد الأخرى. تدفق الماء في فمها. كانت أول امرأة يغزوها بغزله هذا. كان يغتصب الأخريات اغتصاباً. فحّت تيريزه في ذهنها: يا له من رجل! راجية أن يكرّر فعلته. قالت باستحياء رافعة صوتها: "مرة ثانية". مدّ إليها حزمة أخرى من الكتب وقرصها بكل ذلك العنف في يسراها. فاض اللعاب من فمها. فتذكرت أن هذا عيب. صرخت، وارتمت عن السلم إلى حضنه. تركها تسقط على الأرض، نزع عنها التنورة القاسية ونال منها.

عندما نهض قال: "سيرى المكرسح!"، قالت تيريزه وهي تنشج: "رجاء، أنا الآن ملكك!". لقد عثرت أخيراً على رجل ولا تفكّر أن تعتقه أبداً. ردّ عليها: "كشّ!" وفي المساء ذاته نقل سكنه عندها. كان يقضي النهار في مكان عمله ويقدم لها المشورة ليلاً في السرير. علم تدريجياً بما جرى فعلاً وأمرها أن ترهن الكتب دون أن يلاحظ أحد شيئا قبل أن يعود الزوج. احتفظ بنصفها، لأنه ملكه هو. وضع ذعراً شديداً في قلبها بسبب وضعها المهدّد بالمخاطر، قائلاً لها إنه من السلك وسيساعدها. ولهذا أيضاً كانت تطيعه طاعة عمياء. كانا يذهبان كل ثالث أو رابع يوم محمّلين إلى تيريزيانوم.

t.me/yasmeenbook

اللص

عرف البواب بروفسوره السابق من النظرة الأولى. كان أكثر انشراحاً في وظيفته الجديدة كمستشار لتيريزه، كما أنه يكسب أكثر من الجعالة السابقة. لم يعد يرغب في الانتقام. كانت نار الحقد في قلبه قد انطفأت ونحّى أنظاره غير عابئ. كان البروفسور على يمينه. أخيراً استقرّت العلبة على الذراع اليسرى. وازنها هناك برهة وكان جاداً جداً في هذا الاختبار. كانت تيريزه تحاكيه في كل ما يعمل. أدارت بحركة مفاجئة كتفاً باردة للص وتمسّكت بكل قواها بعلبتها الكبيرة، الحلوة. كان البواب قد تجاوزه. وهنا قطع عليها الرجل الطريق. دفعته جانباً وهي صامتة. وضع يده على العلبة صامتاً. جرّتها، تمسّك هو بها. سمع البواب جلبة. تابع طريقه دون أن يلتفت. أراد أن يمضي هذا اللقاء بسلام، وظن أنها حزرت الجدار بعلبتها. هنا بدأ كين أيضاً يجرّ العلبة. توجهت نحوه، أغمض عينيه. أربكها هذا. الرجل فوق لم يتدخل. فتذكرت الشرطة والجرم الذي ارتكبته. إذا سُجنت سيستعيد اللص شقّته، هو هكذا، لئيم ولا يخجل على حاله. وما إن خسرت الشقة حتى خارت قواها. صار الجزء الأكبر من العلبة ناحية كين. قوّت الكتب عزيمته وقال: "أين تذهبين بها؟". رأى الكتب. لم تتمزّق أي ورقة. رأت فيه السيد في البيت. استعادت ذكرى ثمانية أعوام طويلة من خدمتها خلال جزء من الثانية. لقد ولّى زمن سيادتها. مازال لديها عزاء. طلبت مساعدة الشرطة. صرخت: "يتغالظ عليّ!".

عشر درجات فوق اضطرّ أحدهم على التوقف. لو أن كتلة الخراء توقفت

t.me/yasmeenbook

بعد الآن لكان الأمر عادياً. لكن الآن، وقبل استلام ثمن العلبة! تمكّن من إمساك الصرخة المزمجرة في الحنجرة وأشار إلى تيريزه باليد. كانت مشغولة جداً ولم تنتبه إليه. وتفحّصت اللص عميقاً بينما هي تصرخ مرتين أخريين "يتغالظ عليّ!". حسب تصوراتها، كان يرتدي أسمالاً، لا يخجل على حاله، يمدّ يده الفارغة إلى أيٍّ كان، هكذا هي حال الشحادين، ويسرق كلما وجد شيئاً. في الواقع يبدو أفضل بكثير مما في البيت. لم تجد تفسيراً لهذا. لاحظت فجأةً انتفاخاً تحت قفطانه على يمين الصدر. حين خرج من بيتها لم يكن يحمل معه نقوداً قطّ، كانت محفظته شبه فارغة. والآن تبدو سميكة. فهمت كل شيء. دفتر الحساب في جيبه. إذاً فقد سحب كل رصيده. وعوض أن يخبئ المصاري في البيت، يحملها معه. كان البواب يعرف كل التفاصيل، حتى قضية دفتر توفيرها. كان يستخرج كل شيء منها بالقرص. ولم تحتفظ بسرّ من أسرارها سوى بحلمها عن دفتر الحساب في شقٍّ ما سرّي. فالحياة غير سعيدة دون سند كهذا. سعيدة كل السعادة بالسرّ الذي خبأته عنه طوال أسابيع، نادت – وهي التي كانت تهتف شاكية قبل غمضة عين "يتغالظ علي" – "رجاء، حرامي!". ترافق في صوتها السخط والهياج في الآن ذاته، كما يحدث لكل البشر الذين يسلّمون لصّاً إلى الشرطة. ما كان ينقصها إلا تلك النبرة الداخلية التي تطلقها بعض النساء وهن يطلبن النجدة، إذ يتعلق الأمر برجل، لأن هذا كان زوجها الأول الذي تسلّمه لزوجها الثاني، فقد كان هذا شرطياً يوماً ما.

نزل وكرّر بحياد: "أنتم سرقتم". لم يجد مخرجاً آخر من الوضع المحرج. اعتبر السرقة كذبة بيضاء من قبل تيريزه. وضع يده الثقيلة على كتف كين وأعلن، كأنما عاد للسلك: "باسم القانون، أعلن القبض عليكم. اتبعوني دون إثارة الانتباه!". كانت العلبة معلّقة بالإصبع الصغيرة ليسراه. نظر إلى كين نظرة طاغية ورفع كتفيه. الوظيفة لا تجيز الاستثناءات. لقد ولّى الماضي. آنذاك كانا قادرين على أن يتحمّل كلٌّ منهما الآخر. وهو الآن

t.me/yasmeenbook

مضطرّ للقبض عليه. كم كان يودّ أن يقول له: "هل ما زلتم تتذكرون؟" تصاغر كين، ليس فقط تحت ضغط اليد وغمغم: "كنت أعرف". ارتاب البواب بهذه العبارة. المجرمون المسالمون كذّابون. يتصرفون هكذا ثم يقومون بمحاولة الهرب. ولهذا يجب تقييد يديه خلف ظهره. خضع له كين. حاول أن يبقى منتصباً إلا أن طوله أرغمه على الانحناء. رقّ قلب البواب. فهو لم يقبض على أحد منذ سنوات. خشي أن تحدث نكايات. الجناة عنيدون. وإن لم يكونوا، فهم يهربون. إن كان الشرطي يرتدي البزة يطالبونه برقمه، إن لم يرتديها يطلبون إشارة الشرطة. أما هذا فلا يطلب. يسمح بالسؤال، يتبع، لا يقسم على براءته، لا يثير الضجة. للشرطي أن يهنئ نفسه على مجرم كهذا. قبل الباب الزجاجي بقليل توجّه إلى تيريزه وقال: "الشغل الصح كذا". كان يعلم أن حرمته تنظر إليه إلا أنه غير واثق مما إن كانت تعرف تفاصيل عمله. "غيري يقوم على الفور بالضرب. معي أنا تمشي عملية الاعتقال وحدها. يجب ألا تصير ضجّة. اللخمة يعملون ضجّة كبيرة. المعلم، يتبعه المجرمون وحدهم. الحيوانات الأليفة نروّضها. القطط بطبيعتها وحشية. نرى الأسود المتدربة في السيرك. النمور تقفز عبر حلقات النار. الإنسان عنده روح. العضو يمسكه من روحه وهو يتبع مثل الخروف." هكذا تكلم في ذهنه، مع أنه يتحرق لأن يزمجر العبارات زمجرة.

لو كان المكان مكاناً آخر والزمان زماناً آخر لكان ذاق الكثير خلال عملية الاعتقال. عندما كان في الخدمة كان يعتقل الناس ليثير الضجة، وكان موقفه سيّئاً جداً أمام رؤسائه بسبب تصرفاته العملية. يصرخ وينادي طويلاً حين يقوم بعملية حتى يتجمع حوله الفضوليون. خُلق ليكون رياضياً يلعب نمرته يومياً في سيركه الخاص. ولأن البشر يبخلون بالتهليل يصفق لنفسه بنفسه. وليبرهن في الآن ذاته على قواه، يستخدم المعتقلين عوض يده الثانية. إن كان هؤلاء أقوياء يمتنع عن صفعهم ويدعوهم إلى الملاكمة. ولاحتقاره الشديد لضعفهم، يدّعي أثناء التحقيق أنهم أساؤوا التصرف معه.

t.me/yasmeenbook

يمنّ على الضعفاء بإطالة مدة عقوبتهم. إن تورّط مع قوي – هكذا هم المجرمون الحقيقيون أحياناً – يعرض عليه ضميره أن يتهمهم زوراً، فالعناصر الضارّة يجب أن تختفي. نزل سقف متطلباته منذ أن اضطرّ للاكتفاء ببناية بعد أن كان قيّماً على منطقة كاملة. صار غرماؤه من المتسولين والباعة الجوالين المساكين، بل وينتظر حتى هؤلاء أياماً طويلة. كانوا يخافونه، ينذر أحدهم الآخر ولا يأتي منهم إلا الأغرار المستجدّون، بينما يتوسل هو قدومهم. يعلم أنهم يستكثرون أنفسهم عليه. اقتصر السيرك على سكان البناية. وهكذا ظل يعيش على أمل عملية اعتقال حقيقية، صاخبة في أصعب الظروف.

هنا أعانته الأحداث الجديدة. جلبت له كتب كين نقوداً. كان يجمع معظمها إلى أملاكه، ويؤمّن على مستقبله صفحة صفحة. رغم هذا ما تخلّى عنه الشعور بأنه يحصل على المال مقابل لا شيء. كان خلال عمله لدى الشرطة واثقاً من أن جهده العضلي يكافأ. هو الذي يتوثق من وزن القائمة وينتقي أكبر الكتب حجماً. بيعت الكتب المجلدة بجلد الخنزير، الأثقل والأقدم، أولاً. كان يحمل علبته طوال الطريق إلى تيريزيانوم، يضعها أحياناً على رأسه، يحمل عن تيريزه علبتها، يأمرها بالابتعاد، يقذف العلبة إلى أحضانها. كانت تعاني من هذه الضربات، بل إنها اشتكت مرة. فأقنعها أنه يفعل هذا لأجل الناس. فكلما عاملا الكتب بطريقة أسوأ، قلّت شكوك الناس في أن الكتب ليست ملكهما. اقتنعت لكنها لم تسرّ. وهو أيضاً لم يرضَ بهذا، بدا لنفسه مخنّثاً ويقول أحياناً، بعد قليل سيصير مثل اليهودي. بسبب هذه الشوكة، التي يعتبرها ضميره، أحجم عن تحقيق أحد أحلامه، واعتقل كين بكل هدوء.

لكن تيريزه لم تُخفِ فرحتها. فهي من لاحظت المحفظة السميكة. بسرعة تزحلقت حول الرجلين ووقفت بين مصراعي الباب الزجاجي، الذي شوّه كسرات تنورتها. أمسكت بيمناها رأس كين، كأنها تريد معانقته،

t.me/yasmeenbook

وجرّته نحوها إلى الأسفل. أخرجت المحفظة بيسراها. كان كين يتحمل ذراعها مثل إكليل الشوك. لا يقوم بأيّ حركة. ذراعاه مقيدتان خلف ظهره في قبضة البواب. استلّت تيريزه ربطة الأوراق النقدية وهتفت: "رجاء، وجدتها!". دهش الزوج الجديد بكمية المال، لكنه هزّ رأسه. أرادت تيريزه أن تردّ. قالت: "ما كان معي حقّ، ما كان معي حقّ!؟". ردّ البواب: "أنا ما خروق". كانت الجملة معطوفة على ضميره والباب الذي تسدّه تيريزه. أرادت الحصول على اعتراف، مديح، كلمة تتعلق بمالها، قبل أن تدسّه. وعندما فكرت في الدسّ، تحسّرت على نفسها. فالرجل يعرف الآن كل شيء، لم يعد لديها أسرار. رغم عظمة اللحظة يبقى صامتاً. ليقل ما هي. هي من وجد اللص. وهو كان يريد إهماله. والآن يريد إهمالها أيضاً. هذا لا يجوز. هي أيضاً عندها قلب. هو يكتفي فقط بالقرص. لا ينطق بكلمة واحدة حلوة. فَلْيُوَلِّ. إنه ليس مثيراً. شعرت بالخجل من السيد غروب. رجاء، ماذا كان قبل الآن؟ مجرد بواب. لا امرأة تتورط مع هكذا شيء. هي التي أمّنت له شقة. حتى شكراً لا يقول. لو علم السيد غروب بهذا. لن يقبّل يديها بعد ذلك. ما أحلى صوته! هي تجد المال الكثير. وهو يأخذه منها. هل هي مضطرّة لأن تعطيه كل شيء. رجاء، لقد ملّت منه. تريده دون مصاري. إذا طلب المصاري، تقول له لا. تحتاجها لأيامها الصعبة. تريد شيخوخة محترمة. من أين تؤمّن التنورات إذا كان يكسرها دائماً؟ يكسر ويأخذ المصاري. عليه أن يقول أي شيء. يا له من رجل!

غاضبة مهانة لوحت بالنقود. قرّبتها إلى أنفه. تفكّر. كفّ عن الرغبة في الاعتقال. منذ أن بدأت تلوح بالمحفظة تبيّنت له العواقب. لن يدخل السجن لأجلها. هي نبيهة لكنه يعرف القوانين. فهو ابن السلك. وما أدراها هي؟ ودّ لو يعود إلى مقرّه السابق، شعر بالقرف منها. لقد دمرته. خسر جعالته بسببها. كان يعرف القصة الحقيقية منذ زمن بعيد. ولم يتمسك بكراهيته الرسمية لكين إلا بسبب المعاشرة. هي عجوز. متطلّبة. تريد كلّ

t.me/yasmeenbook

ليلة. هو يريد الضرب وهي تريد شيئاً آخر. لا تسمح له بأكثر من القرص قبلها. ما إن يضربها عدة مرات حتى تصرخ. اللعنة! إنه يخرى على هكذا حرمة. سينكشف كل شيء. سيخسر راتب التقاعد. سيبلّغ عنها. عليها عن أن تعوضه عن راتب التقاعد. وسيحافظ على نصيبه. أفضل الحلول أن يبلّغ عنها. الشرموطة. هل الكتب ملكها؟ ومن أين؟ خسارة السيد البروفسور. هي لا تستحقّه. لا يوجد أمثاله بين الرجال بعد. ويتزوج الخنزيرة الوسخة. لم تكن قطّ مدبرة منزل. نفقت أمها وهي تشحد. اعترفت بهذا بنفسها. لو كانت أصغر أربعين سنة. المرحومة ابنته، نعم، هذه كانت مخلوقة طيبة النفس. كانت مجبرة على أن تضطجع بجانبه، حين يراقب المتسولين. كان ينظر ويقرص، يقرص وينظر. يا لها من حياة! لمّا يجيء متسول، يكون بين يديه من يضربه. وإذا لم يأتِ أحد، كانت الفتاة موجودة. آه كم كانت تبكي. لكن لم ينفعها هذا. لا شيء يقف بوجه الأب. كانت حنونة. ماتت فجأة. الرئات، الحجرة. كان بحاجتها. لو عرف هذا كان سيحرّرها قبلاً. لقد تعرف عليها السيد البروفسور. لم يؤذِها قطّ. السكان كانوا يعذّبون الطفلة. لأنها ابنته هو. وهذه الخنزيرة، لم تسلّم عليها قطّ. سيقتلها لو يطلع بيده.

يتواجهان ممتلئين كراهية. كلمة واحدة من فم كين، حتى لو كانت كلمة خير، ستقرّبهما أحدهما من الآخر. حقدهما يتّقد على نار صمته. أحدهما يمسك بجسم كين والآخر بنقوده. الرجل بحدّ ذاته لا يعني لهما شيئاً. لو أن له وجوداً. الجسم يميل مثل القشة. عاصفة قوية تحنيه. الأوراق النقدية تلمع في الهواء. فجأة يصرخ البواب في وجه تيريزه: "أرجعي الفلوس!". لا تقدر. تفكّ رأس كين من عناقها، لا ينتصب، يظل على ما هو عليه. توقعت منه حركة. وبما أنه لم يقم بها، تقذف الأوراق النقدية في وجه الزوج الجديد وتصرخ بمرارة: "أنت ما تقدر تضرب! أنت خائف! أنت خروق! من يعمل هكذا شيء، يا جبان. وسخ. ضعيف. أرجوك!". يوحي لها الكره تماماً بتلك الكلمات التي تؤلمه. يبدأ بهزّ كين بإحدى يديه.

t.me/yasmeenbook

لا يسمح لأحد أن يتهمه بالضعف. وبالأخرى يضرب تيريزه. عليها أن تفتح الطريق. عليها أن تعرفه على حقيقته. إنه ليس عنيفاً. الآن يصبح عنيفاً. تتراقص الأوراق النقدية على الأرض. تيريزه تنشج: "المصاري الغالية!" الرجل يمدّ يده عليها. الضربات ضعيفة جداً. يفضّل أن يرجّها رجّاً. يرتطم ظهرها بمصراعي الباب. تتمسك بالمقبض المدور. يجذبها، يمسكها من ياقة البلوزة، يجرّها ويضربها من جديد بالباب، يجرّها ويضربها بالباب. وبين الحين والآخر يعالج كين أيضاً. كأن هذا خرقة بالية، كلما ضعف شعوره به اشتدّ ضرباً على تيريزه.

هنا يدخل فيشرله. أعلمه منظف القنوات برفض كين. إنه غاضب. ما معنى هذا؟ يعمل قصص بسبب ألفي شيلينغ؟ هذا ما كان ينقصه. أمس يدفع أربعة آلاف وخمسمئة شيلينغ واليوم يوقف الدفوعات. على الموظفين أن ينتظروا. سيعود فوراً. يسمع صراخاً من الممر: "المصاري الغالية! المصاري الغالية". هذه نصيبه هو. لقد سبقه أحدهم. يكاد يبكي. أحدهم يرهق نفسه وآخر يستفيد. وهذا الآخر حرمة. لا أحد يرضى بهذا. سيلحقها. يجب أن تعيد كل المال. يرى الباب الزجاجي يفتح ويغلق. يبقى واقفاً مذعوراً. هناك أيضاً رجل. يتردّد. الرجل يضرب الباب بالمرأة. المرأة ثقيلة. لا بد أن الرجل قوي. الطويل ما عنده كل هذه القوة. ربما لا دخل للطويل بالموضوع. لماذا يفترض بالرجل ألّا يضرب المرأة، من المؤكد أنها لا تعطيه الفلوس. فيشرله مشغول. طبعاً يفضل أن ينتظر حتى يحسم الاثنان خلافاتهما، لكن شأنهما يطول ويطول. يتسلّل بحذر من الباب. "اسمحوا لي!" يقول ويتبسّم. من المستحيل ألا يثير انتباهاً. لهذا يضحك مسبقاً. يجب أن يلاحظ الزوجان أن نيّته طيبة. وبما أنه يجوز أن لا يلحظا الضحك يفضل التبسم من فوره. تدخل حدبته بين تيريزه والبواب، وتمنع الأخير من جرّ الحرمة إلى قربه بما يكفي للطمة قوية كفاية. يرفس الحدبة. يسقط فيشرله على كين ويتمسك به. كين هزيل جداً ودوره الجسدي ضعيف جداً

t.me/yasmeenbook

بحيث لا يلاحظه القزم إلا بعد أن يلمسه. يعرفه. وفي هذه اللحظة تندب تيريزه حظها من جديد: "المصاري الغالية!". يحدس بالأواصر القديمة، تشتدّ قوة ملاحظته ستة أضعاف وبنظرة واحدة يحيط بجيوب كين، جيوب الغريب، حمّالات جوارب المرأة – للأسف تخفي عنه التنورة المشهد -، بيت السلم، الذي تقع في نهايته علبتان ضخمتان، والأرض تحت قدميه. فيرى النقود. ينحني بسرعة البرق ويجمعها. تتحرك ذراعاه الطويلتان بين ستة أرجل. يدفع قدماً جانباً بعنف، يرفع ورقة نقدية برقة. لا يصرخ إذا داس أحدهم على أصابعه، فهو معتاد على هذه الصعاب. لا يعامل جميع الأقدام سواسية. يرمي قدمي كين رمياً، يتصرّف مع قدمي الحرمة كإسكافي، ويتجنّب أيّ تلامس مع قدمي الرجل، لأنهما خطيرتان وعديمتا النفع. ينقذ خمس عشرة ورقة، ويعدّها خلال بحثه ويعرف تماماً إلى أين وصل في العدّ. بل إنه يحرك حدبته برشاقة عالية. فوق يضرب أحدهم. يعرف من السماء أن على المرء ألا يتدخل بين زوجين يتشاجران. إذا تمكّن من هذا يمكنه الحصول على كل شيء منهما. الأزواج أشدّاء. رأى أربعاً من الأوراق الناقصة بعيداً، والأخرى تحت قدم الرجل. بينما يزحف نحو الأربع البعيدة، يراقب فيشرله تلك القدم. فقد ترتفع، وعليه ألا يفوّت اللحظة.

تلاحظه تيريزه عن مبعدة وهو يلعق شيئاً ما عن الأرض. شابكاً يديه على ظهره، داسّاً النقود بين رجليه، يعمل بلسانه كي لا يفهم الآخرون، إذا رأوه، ما الذي يلتقطه. تشعر تيريزه بالضعف وهذا المشهد يقويها. تفهم نيّة القزم تماماً كأنها تعرفه منذ ولادته. ترى نفسها باحثة عن دفتر الحساب، آنذاك كانت ربة البيت. فجأةً تتحرّر من يدي البواب وتصرخ: "حرامي، حرامي، حرامي!". تقصد الحدبة على الأرض، البواب، اللص، تقصد كل البشر ولا تكفّ عن الصراخ، يعلو صوتها ويعلو، لا تقطع صراخها، نفسها يكفي لعشرة.

فوق تُسمع أصوات أبواب تفتح، خطوات ثقيلة، وقع أقدام كثيرة على الدرج. خادم المصعد، يقترب متمهّلاً. حتى لو كانوا سيقتلون طفلاً لما

t.me/yasmeenbook

تنازل عن وقاره وغادر مكانه. يخدم المصعد منذ ستة وعشرين عاماً، إنها عائلته، يشرف عليه.

يتجمّد البواب. يرى أحداً يأتيه في أول كل شهر ويأخذ منه راتب التقاعد عوض أن يجلبه له. كما أنه يُسجن. تذبل طيور الكناري لأنها لا تغني لأحد. تُسدّ العين السحرية. تفتضح كل الأسرار وينتهك السكان ابنته وهي في القبر. إنه لا يخاف. لم يكن يستطيع النوم بسبب البنت. كان يخاف عليها. كان يحبها كثيراً. كان يعطيها الأكل، يعطيها الشرب، نصف لتر حليب في اليوم. إنه متقاعد. إنه لا يخاف. الدكتور ذاته قال إنها الرئة. ابعثها إلى مكان آخر. لكن من أين، يا سيدي الكريم؟ إنه بحاجة إلى راتب التقاعد للطعام. لا يستطيع العيش دون طعام. هذا بسبب المهنة. دونه تتدمر البناية. تأمين صحي! وفجأة تعود إليه بطفل. في الحجرة الصغيرة. إنه لا يخاف.

على العكس يقول فيشرله بصوت عالٍ: "الآن صرت أخاف" ويدسّ النقود بسرعة في جيب كين الجانبي. ثم يتضاءل أكثر فأكثر. الهرب مستحيل. ها قد بدأ الناس يتعثرون بالعلبتين. يضغط يديه على جسده بشدّة. النقود السابقة، نقود الرحلة، ملفوفة في الآباط. لحسن الحظ إن إبطَيه مخلوقتان هكذا. حين يرتدي ثيابه لا يرى أحد شيئاً. لن يسمح لهم أن يحبسوه. عند الشرطة يقلعونه ثيابه ويأخذون منه كل شيء. كلما صار عندهم يتهمونه بالسرقة. ما أدراهم هم بشركته؟ كان عليه أن يكتب ضبطاً رسمياً بها. كي يدفع الضرائب؟ عنده شركة. الطويل أبله. لماذا يتعرف على منظف القنوات، وهذا في آخر لحظة؟ ها قد استعاد نقوده. المسكين! يجب ألا يتخلّى عنه. فقد يأخذون منه نقوده. إنه يعطي كل ما لديه فوراً. إنه ساذج جداً. فيشرله وفيّ. يخلص لأصدقاء العمل. إذا صار في أمريكا سيكون على الطويل أن يدبّر نفسه بنفسه. لن يساعده أحد آخر. عند ركبتي كين يتقلص فيشرله أكثر فأكثر، لم يعد أكثر من حدبة. أحياناً تتحول الحدبة إلى صدفة تنغلق عليه.

t.me/yasmeenbook

يقف البواب منفرج الساقين، كصخرة، عيناه مصوّبتان نحو الابنة المقتولة ضرباً. بحكم عادة العضلات يمسك المزقة كين في يده. تيريزه تدعو سكان تيريزيانوم بالصراخ. لا تفكر في أي شيء. مشغولة بتدبّر أمور نَفَسها. تصرخ آلياً. تشعر بالراحة في الصراخ. تشعر أن اليد العليا لها. لم تعد تتلقّى الضربات.

أيادٍ كثيرة تباعد فيما بين الجمادات الأربعة. يمسكونها كأنها ما زالت تتضارب. كل يريد أن ينظر إلى وجه الآخر. يتحلقون حولهم. يتدفق المارة من الخارج إلى تيريزيانوم. يتمسّك الموظفون والمراهنون بامتيازاتهم. فهذا بيتهم هم. على خادم المصعد، الذي يراقب المصعد منذ ستة وعشرين عاماً أن يقوم بواجبه، يعيد الانضباط، يرمي المارّة الفضوليين خارجاً ويغلق أبواب تيريزيانوم. ما عنده وقت لهذا. لقد وصل أخيراً إلى السيدة التي تطلب النجدة ويعتقد أنه لا يمكن الاستغناء عنه. امرأة أخرى تلاحظ حدبة فيشرله على الأرض وتركض صارخة إلى الشارع. "جريمة قتل، جريمة قتل!". تظن أن الحدبة جثة. لا تعرف المزيد من التفاصيل. من هو القاتل؟ إنه رجل نحيف، ضعيف، كيف فعلها، لن تصدق أبداً أنه قادر على فعلته. لم نسمع عيارات نارية، يقول آخر. بالعكس، سمع الجميع صوت إطلاق النار. بل سمع الصوت على مسافة ثلاثة أزقة. هذا غير صحيح، كان ذاك صوت انفجار عجلة سيارة. لكن هنا صدر صوت طلقة. لا يسمح الحشد أن يسلبه أحد قصة إطلاق النار. ويتخذ موقفاً معادياً من المشكِّك. يجب أن يوقفوه! إنه شريك في الجريمة. يريد أن يمسح آثار الجريمة. تأتي أخبار جديدة من الداخل. يتم تصحيح أقوال المرأة. القتيل هو النحيف. والجثة على الأرض؟ ما تزال حية. هذا هو القاتل، لقد تخفّى. أراد أن يتسلل عبر الأرجل، فأمسكوه. الأنباء الأحدث أكثر دقة. الصغير قزم. نعم، هؤلاء هم المكرسحون. واحد آخر هو القاتل. إنه ذو الشعر الأحمر. نعم، أصحاب الشعر الأحمر هؤلاء! لقد حرّضه القزم على القتل. اضربوه. الحرمة هي التي

t.me/yasmeenbook

كشفته. برافو! ظلت تصرخ طول الوقت. حرمة! لا تعرف الخوف. هدّدها القاتل. الأحمر. كل الذنب على الحمر. خنقها. لم يتم إطلاق النار. طبعاً لا. لم يسمع أحد الطلقة. ماذا قال؟ أحد ما نشر حكاية الطلقة. القزم. أين هو؟ إنه في الداخل. إلى الأمام. لا أحد يدخل بعد. المكان مكتظّ على آخره. يا لها من جريمة قتل! لقد تحملت الحرمة الكثير. كل يوم ضرب. ضربها حتى كاد يقتلها. ولماذا تأخذ قزماً؟ أنا ما آخذ قزم. لأن عندك واحد صحيح. عند الحاجة. الرجال الحقيقيون قليلون جداً. إيه، الحرب! قسوة قلوب الشباب. هو أيضاً كان شابّاً. لم يبلغ الثامنة عشرة. وبهذا العمر صار قزماً. ما هذا الغباء، إنه مكرسح. أنا الذي أعرف. لقد شاهدته. كان في الداخل. لم يتحمّل. كل ذلك الدم. ولهذا هو نحيف. كان حتى قبل ساعة واحدة سمين. نعم، نزف دماً. أنا أقول الجثث تنتفخ. نعم، جثث الغرقى. ما فهّمكم أنتم بالجثث!؟ سرق مجوهرات الجثة. بسبب المجوهرات. أمام جناح الذهب. عقد لؤلؤ. البارونة. كان الخادم وحده. كان البارون. عشرة آلاف شيلينغ. عشرين ألفاً. أرستقراطي. إنسان لطيف. وماذا ترسل له؟، آخ، عليه أن يهجر المرأة! بل على المرأة أن تهجره. يا للرجال! ما تزال حية. هو الجثة. بارون ويموت هذه الميتة. يستاهل. العاطلون عن العمل لا يجدون ما يأكلونه. ما علمه بعقد اللؤلؤ؟ يستحقّ الشنق. هذا قصدي. كلّهم. تيريزيانوم أيضاً معهم. تُحرق! وستصدر منها نار عجيبة.

في الداخل تسير الأوضاع لادموية، تماماً مثلما هي دموية في الخارج. مع بدء التراحم يتهشّم زجاج الباب إلى آلاف الشظايا. لا أحد يُجرح. تنورة تيريزه تحمي الوحيد الذي قد يتعرض للخطر، فيشرله. ما إن أمسكوا خناقه حتى نعب: "اتركوني! أنا الممرّض". يشير إلى كين ويكرّر المرة تلو الأخرى: "لازم تعرفون أنه مجنون. تفهمون، أنا الممرض. انتبهوا، هو خطير. لازم تعرفون أنه مجنون. أنا الممرّض!". لا يوليه أحد بالاً. إنه صغير جداً وينتظرون أمراً جللاً. الوحيدة، التي جعلت له اعتباراً، اعتبرته جثة وأعلنت هذا

t.me/yasmeenbook

في الخارج. تيريزه تستمر في الصراخ. والأمور تسير على هواها. تخاف أن يهملها الناس إن توقفت. تستمتع من ناحية بحسن حظها، ومن ناحية أخرى تخاف مما سيأتي. تثير شفقة الجميع. يواسونها. إنها مرعوبة. بل إن خادم المصعد يضع يده على كتفها. يؤكد أنه يفعل هذا للمرة الأولى منذ ستة وعشرين عاماً. عليها أن تتوقف. يرجوها شخصياً. يمكنه أن يفهمها. عنده ثلاثة أولاد. يسمح لها أن ترافقه إلى شقته. هناك سترتاح. لم يطلب هذا من أحد منذ ستة وعشرين عاماً. تمتنع تيريزه عن التوقف. يشعر بالإهانة. بل ويرفع يده عنها. يدّعي دون أن يتخلى عن وقاره، أنها فقدت عقلها من شدة الرعب. يتلقف فيشرله تعبيره ويعول: "لكن أؤكد لكم، إنه هو المجنون، هي طبيعية. صدّقوني، أنا أفهم بالمجانين. أنا الممرض".

يتم توقيفه من قبل الموظفين الذين لا يخطر لهم شيء أفضل، لكن لا أحد يعيره لا أذناً ولا عيناً. كلّ الأنظار مصوّبة إلى ذي الشعر الأحمر. فقد سمح لهم بإمساكه وإيقافه دون أن يقتل أحداً منهم، بل لم يصرخ فيهم مرة واحدة. لكن ما إن يرغبوا في فصله عن كين حتى تلحق هدوءَه المطلق عاصفةٌ مرعبة. لا يسلِّم البروفسور، يتمسك به بقوة، وبيمناه يذبّ الناس عن نفسه، ويلقي على أسماع كين أعذب الكلمات متذكّراً ابنته الرقيقة الحبيبة: "يا سيدي البروفسور، صديقي الوحيد هو أنتم. لا تتخلّوا عني! سأشنق نفسي. لست أنا المذنب. صديقي الوحيد. أنا ابن سلك. لا تزعلوا مني. أنا أفضل إنسان!".

حبه صداح قاتل بحيث يعثر كل من حوله في كين على اللص. يكشف المرء هذه السخرية سريعاً ويعجب بحدّة ذكائه الذاتي. لكل ذكاؤه، الكل يشعر بعدالة الثأر الذي يأخذه ذو الشعر الأحمر بيديه من المجرم. لقد أمسكه من ذراعه، يضمّه إلى صدره ويذيقه الكلمات التي استحقّ. القبضاي يأخذ ثأره بنفسه، مثله يتنازل عن طلب الشرطة. يحاولون إيقافه، لكن حتى من يريد إيقافه معجب به، بالبطل، الذي ينجز كل شيء بنفسه.

t.me/yasmeenbook

لو كانوا مكانه لفعلوا مثله تماماً، يفعلون هذا، إنهم هو، بل يبدون إعجاباً بالكلمات القاسية التي يتبادلونها.

يعتقد خادم المصعد أن شرفه محفوظ هنا أكثر. يتنازل عن المرأة التي اعتبرها ممسوسة من الرعب، ويمسّد كتف الرجل الهائج بيده السمينة، لكن الجادة. يعلمه بصوت غير عالٍ وغير خفيض، أن لا مصعد يتحرك دون رقابته منذ ستة وعشرين عاماً، إنه يعمل هنا منذ ستة وعشرين عاماً على حفظ النظام، ولم يجرِ له قطّ مثل ما جرى اليوم ويضمن هذا شخصياً. تضيع كلماته في الصخب. وبما أن الأحمر لا يلاحظه، يميل على أذنه ويبوح له بسرّية إنه يتفهّم وضعه جيداً. له منذ ستة وعشرين عاماً ثلاثة أولاد. تقرّبه صدمةٌ قوية مرة أخرى من تيريزه. تسقط قبعته على الأرض. يرى أنه لا بد من إجراء ما ويذهب ليحضر الشرطة. لم يتذكر أحد هذه الفكرة حتى الآن. المشاركون المباشرون يعتبرون أنفسهم من الشرطة، والواقفون بعيداً يأملون الوصول إلى هذه الرتبة. يتكفّل اثنان بوضع علبتي الكتب الثقيلتين في موضع آمن. يستغلّون الطريق التي فتحها خادم المصعد ويهتفون بكل الجهات: "طريق!"، يجب أخذ العلبتين إلى المحرس قبل أن تضيعا. وعلى الطريق يقرّران فحص المحتويات. يختفيان دون أن يلحظهما أحد. لا تُسرق علب أكثر لعدم وجود غيرها.

بفضل خادم المصعد تشمّ الشرطة أيضاً الرائحة، وهي شرطة لها مخفر في تيريزيانوم، ولأن رجل الثقة أخطرَهم بوجود أربعة مشاركين، خرجوا في دورية قوية تعدادها ستة رجال. يعلمهم خادم المصعد بالموقع بدقّة. لكنه أيضاً يهبهم مساعدته ويتقدمهم. يحيط الجمع الشرطة بالإعجاب. من زيّهم، يشعر المرء بكل ما يجوز لهم. للآخرين يحقّ هذا فقط في غياب الشرطة. يفسحون الطريق طواعية. الرجال الذين كافحوا للحصول على مواقعهم، يخلونها لصالح الزيّ الرسمي. الأقل تصميماً فيهم يتأخرون في التراجع، يلمسهم قماش الزيّ فيذعرون. الكل يشير إلى كين. حاول السرقة.

t.me/yasmeenbook

سرق. الكلّ فكّروا فيه فوراً. تُعامَل تيريزه باحترام من قبل الشرطة. هي الضحية. هي التي اكتشفت الجريمة. يعتبرونها زوجة الأحمر، لأنها ترميه بنظرات كراهية. ينزرع شرطيان على يمينها ويسارها. وما إن يلاحظا التنورة الزرقاء حتى تتحول مهابتهما إلى ودّ. الأربعة الآخرون ينقذون الضحية من يد كين. وطبعاً لا تتم العملية دون استخدام العنف. فالأحمر يلتصق باللص التصاقاً. ولا بد أن الأخير مذنب في هذا بشكل من الأشكال، لأنه هو المشتبه به. يعتقد البواب أنه سيعتقل. يزداد خوفه. يزمجر في كين طالباً المساعدة. إنه ابن السلك! أيها السيد البروفسور! لا تقبضوا عليه! أطلقوا سراحه! البنت! وبوحشية يضرب من حوله. قوته تثير أعصاب الشرطة. ويثيرهم أكثر ادعاؤه أنه منهم. يدخلون في عراك طويل. يرفقون بأنفسهم. وعلى الأحمر ينهالون من كل الأنحاء وبكل الطرق.

ينقسم الحاضرون إلى فريقين. قلب أحد الفريقين يدقّ للبطل والآخرون واقفون يدعمون الشرطة. لكن الأمر لا يتوقف عند حدود القلب. يكوّر الرجال قبضاتهم، تنطلق الصيحات من حناجر النساء، وكي لا يتورطوا مع الشرطة، يهجمون على كين. يُضرب، يُدفَع، يُرفَس. مساحة الهجوم الصغيرة لا تمنح سوى القليل من الرضا. يتفقون على أن يعصروه مثل خرقة رطبة. يدرك الجميع من صمته كم هو مجرم. لا تصدر منه نأمة، عيناه مغمضتان، لا شيء قادر على فتحهما.

لا يتحمل فيشرله رؤية هذا. منذ وصول الشرطة لا يني يفكّر بموظفيه الذين ينتظرونه في الخارج. يوقفه المال الموجود في جيب كين غمضة عين. تسكره فكرة أن يستعيده بحضور ستة رجال شرطة. لكنه يحذر من تنفيذها. ينتظر فرصة مناسبة للهرب. لا تسنح له. يراقب معذّبي كين مشدوهاً. يشعر بوخزة في القلب كلما جاءت ضربة على الجيب الذي خبّأ فيه النقود. وهذا العذاب يكاد يقضي عليه. مُعمى بالغضب ينقذ نفسه تحت الأرجل التالية. يساعده الهياج الجسدي للحلقة الأضيق. في الخارج،

t.me/yasmeenbook

حيث لا يشعر أحد بكينونته، يلاحظونه. يصيح بقدر مستطاعه من التأوه: "آه، ما آخذ هواء، خلّوني أطلع!". يضحك الجميع ويسرعون لمساعدته. عندهم ما يسلّيهم تعويضاً عن هياج أولئك الفرحين في المقدمة. لم يرَه أحد من رجال الشرطة الستة، كان عميقاً جداً، لم يلمح أحد حدبته. عادة ما يوقفونه على الشارع حتى دون ذنب. اليوم يوم سعده. ينجو إلى الحشد الرهيب أمام تيريزيانوم. يُنتَظَر هنا منذ ربع ساعة. إبطاه سليمان.

تتصرف الشرطة مع ديّان كين بهدوء. فهي مشغولة. أربعة منهم يصارعون الأحمر، اثنان يحرسان تيريزه. لا يمكن تركها وحيدة. كانت قد صمتت. وبدأت من جديد بالنعيب: "أقوى، أقوى، أقوى!". تضبط الإيقاع الذي يعصر عليه الخرقة كين. تحاول حاشيتها تهدئتها. ما دامت اهتاجت بهذه الطريقة الجارفة، يعتبر الاثنان أي تدخل عديم المنفعة. نداءات تيريزه تسري أيضاً على الرجال الأربعة الشجعان الذين يعملون على طرد الهيجان من جسد البواب. لقد اكتفت من السماح بالقرص. لقد اكتفت من السماح بسرقتها. ينزاح خوفها من الشرطة لصالح الشعور بالفخر. يفعلون ما تريد. هي الآمرة هنا. وهذا ما يجب أن يكون. إنها سيدة محترمة. "أقوى، أقوى، أقوى". تيريزه ترقص، تنورتها تتمايل. سيطر على الناس إيقاع عظيم. بعضهم يرتطم ببعض وتشتد حيوية الحركات. يتوحد إيقاع الضجيج. حتى غير المشاركين يلهثون. شيئاً فشيئاً يخبو الضحك. يتوقف الرهان. يتم الإصغاء في أقصى الشبابيك. توضع الأيدي على الآذان، الشواهد على الأفواه، الكلام ممنوع. من يحضر لحاجة ما، ينال نصيبه من الغضب الصامت. طغى على تيريزيانوم الصاخبة أبداً هدوء شامل. اللهاث الموحد فقط يبشر بأن المؤسسة ما زالت حية. كل المخلوقات التي تسكنها تأخذ أنفاساً عميقة وتزفر معاً بشغف.

بفضل هذه الروح العامة يتمكن الشرطة من التغلب على البواب. اثنان منهم يقيّدان يديه على ظهره، ثالث يراقب قدميه، اللتين تحاولان الرفس

t.me/yasmeenbook

مرة وتقريب البروفسور مرة، والرابع يضبط النظام. ما زال كين يُضرب، لكن لم يعد أحد يشعر بمتعة حقيقية في هذا. يتصرف لا كإنسان ولا كجثة. لا يستخرج منه العصر أي صريف. يمكنه أن يدافع عن نفسه، أن يغطّي وجهه، أن يستدير أو يرتعش على الأقل، فقد توقعوا منه كل شيء، إلا أنه يخيب الآمال. صحيح أن مثله قادر على المزيد من الجرائم، ولكن لا تعاقِب على ما لا تعرفه. سلّموه للشرطة متقزّزين ومنتهين من واجب ثقيل. يصعب عليهم جداً أن يتمالكوا أنفسهم عن العراك بعد أن فرغت أيديهم من الواجب. ينظر أحدهم شزراً إلى الآخر، وما إن يشاهدوا الزيّ الغريب، حتى يعود كل منهم متقهقراً إلى لباسه ويكتشف في الآخر زميلاً أو رفيقاً. تقول تيريزه: "انتهينا". ما الذي تستطيع أن تقوده الآن. تودّ الانصراف وتجهّز له مرفقيها ورأسها. يستغرب ذلك الشرطي الذي تعهّد بشؤون كين من دماثة هذا الإنسان الذي يتحمل مسؤولية كل هذا اللغط. ولأنه أكثر من عانى من لكمات الأحمر يكره زوجته. يجب أن ترافقهم بكل حال من الأحوال. يقبض عليها الشرطيان بمرح. يخجلان من عطالتهما، ذلك أن الأربعة الآخرون قامروا بحياتهم ضد الأحمر. تذهب معهم تيريزه لأن لا دخل لها بالموضوع. كانت سترافقهم بجميع الأحوال. تنوي أن تورّط الرجلين في المخفر كما ينبغي.

شرطي آخر، مشهور بقوة ذاكرته، يعدّ المعتقلين على أصابعه، واحد، اثنان، ثلاثة. أين الرابع؟ يسأل خادمَ المصعد. كان هذا يراقب العراك من أوله بنظرات مهانة، وأنهى مسح قبعته عندما تم القبض على كل الأعداء. انبعثت فيه الروح وادّعى أنه لا يعرف شيئاً عن مشارك رابع. الشرطي، صاحب الذاكرة القوية، زعم أنه هو من ذكر أربعة مشاركين. أنكر خادم المصعد. قائلاً إنه يحافظ على النظام هنا منذ ستة وعشرين عاماً، عنده ثلاثة أولاد. أي أنه قادر على العدّ. دعم آخرون أقواله. لم يذكر أحد شيئاً عن مشارك رابع. الرابع اختراع. الرابع اختراع من اللص كي يزيل الشبهات

t.me/yasmeenbook

عن نفسه. الكلب المكّار يعرف لماذا لا يتكلم. اقتنع فنان الذاكرة أيضا بالحكاية. كان للستة ما يكفيهم من العمل. جرى إرشاد المعتقلين الثلاثة بحذر عبر حطام الباب الزجاجي والجمع المزدحم. جرح كين بقطعة الزجاج الوحيدة المتبقية في الباب ومزق كمّه. وعندما حطّوا أمام المخفر تسرّب الدم. استغربت القلة التي لحقت بهم سيلان الدم. صعقت به. لقد كانت هذه أولى علامة على الحياة من طرف كين.

كان جميع الناس تقريباً قد التفتوا إلى شؤونهم. بعضهم عاد للجلوس خلف شباكه، بعضهم يمدّ رهنياته بقسمات راجية أو عنيدة. إلا أن الموظفين تنازلوا عن وقارهم لدرجة تبادل بعض الكلمات حول الأحداث حتى مع الشياطين الفقيرة. استمعوا إلى آراء أناس، كان واجبهم المقدس هو سدّ آذانهم. لم تتفق الآراء حول موضوع الجريمة. خمّن البعض أنه أشياء ثمينة وإلا ما الداعي لكل ذلك اللغط. زعم آخرون أنه كُتب، وموقع الجريمة خير دليل. السادة الأكثر حصافة أشاروا إلى صحف المساء. لكن أغلب الفرقاء رجّحوا النقود. قرّعهم الموظفون بحدّة أخفّ من المعتاد: من يملك كل هذا المال لا يدخل دار الرهنيات. لكن ربما كانوا قد رهنوا من قبل. بدا هذا أيضاً مستبعداً، فكل صاحب شأن كان سيعرفهم ولا يوجد بين الموظفين من لا يعتبر نفسه صاحب شأن. تحسّر البعض على بطلهم الأحمر، لكنه غدا قيد النسيان عند أغلبهم. ولكي يظهروا حسن نواياهم، وجدوا أن زوجته جديرة بالشفقة أكثر، ولو أنها عجوز. ما كان أحد منهم سيتزوجها. خسارة الوقت الضائع، لكنه مضى ببعض المتعة.

t.me/yasmeenbook

أُخضع المعتقلون للتحقيق في المخفر. زمجر البواب: "يا زملاء، أنا بريء!". أرادت تيريزه الإساءة إليه وهتفت: "رجاء، هو متقاعد". بهذا محت الانطباع السيّئ الذي ولّده خطابه الحميمي لدى الزملاء. فقد دلّت الإضافة العملية "هو متقاعد" على أنه فعلاً شرطي سابق. فله ذلك المظهر المهيب، إلا أن رواج الإشاعة عن جريمة نصب كبيرة ارتكبها السجين بحقه، تدحض تلك المهابة. حقّقوا معه. زمجر: "أنا ما مجرم!".

أشارت تيريزه إلى كين، فقد نسوه، وقالت: "رجاء، هذا الحرامي!". دفع خيلاء الأحمر الشرطة على إعمال الفكر. لم يتوثقوا بعد مع من يتعاملون. فجاءت تلميحة تيريزه فرصة مناسبة. انهال ثلاثة رجال على كين وفتشوا جيوبه دون أي تساؤلات فائضة. ظهرت رزمة من الأوراق النقدية المجعدة، وجاءت نتيجة العد ثماني عشرة ورقة من فئة مئة شيلينغ. سألوا تيريزه: "هل هذه النقود لكم؟". "ما كانت مجعلكة؟ أملاكي ستة أضعاف". توقعت العثور على كامل المبلغ الذي تعرفه عن دفتر الحساب. سألوا كين عن الباقي، فلم يحر جواباً. كان في مكانه كما وضعوه حين وصلوا، مستنداً على ظهر كرسي، مترهلاً ومتآكلاً. من يراه يقتنع فوراً أنه آيل للسقوط في أيّ لحظة. لكن لا أحد يراه.

كراهة في تيريزه جلب له حارسه كأس ماء وقرّبها من فمه. لم يعبأ لا بالكأس ولا بالإحسان، وبذلك انضمّ عدوّ جديد إلى أعدائه الذين بدؤوا بتفتيشه من جديد. باستثناء قليل من القطع المعدنية في المحفظة جاءت

t.me/yasmeenbook

النتيجة صفراً. هزّ بعضهم الرأس. سأل رئيس المخفر: "أين وضعتم النقود يا بني آدم؟!". تبسّمت تيريزه بسمة عريضة: "وماذا قلت أنا؟ حرامي!". قال رئيس المخفر لتيريزه، التي ترتدي برأيه ثياباً على موضة قديمة: "سيدتي الكريمة! أديروا وجهكم، سيتم خلع ثيابه. وليس هناك شيء!". ابتسم ابتسامة ماكرة، كأن سيان عليه إن نظرت الحيزبون أم لا. كان واثقاً من أنه سيجد المبلغ، وتكدّر لأن شخصاً بسيطاً يملك كل ذلك المال. قالت تيريزه: "وهذا أيضاً رجل؟ هذا ليس رجل!". ولم تأبه بأمر رئيس المخفر. زمجر البواب: "أنا بريء" ونظر إلى كين كأنه يرجو استرداد جعالته، مؤكداً براءته، ليس من قتل ابنته، إنما من التفتيش المهين الذي سيتعرض له البروفسور.

تراجع رجال الشرطة، الذي أخرجوا أصابعهم للتو من جيوب اللص، في الآن ذاته، خطوتين كأنما تنفيذاً لأمر. لم يكن أيٌّ منهم راغباً في قلع ثياب ذلك الإنسان المثير للغثيان. كان هزيلاً جداً. في هذه اللحظة سقط كين على الأرض. صاحت تيريزه: "هو كذّاب". "لكنه لا يتكلم"، ألزمها أحد رجال الشرطة بالتقيد بحدودها. ردّت عليه: "أيّاً كان يقدر يحكي". هجم البواب على كين كي يرفعه. فقال القائد: "هذا عمل جبان، إنه على الأرض". ظن الجميع أن الأحمر ينوي ضرب الرجل الطريح. ما كان لدى أحدهم مانع، فالهيكل العظمي العاجز يثير أعصاب أي كان. إلا أنهم ضد التدخل في امتيازاتهم. وقبل أن يصل إلى كين، أُمسك الأحمر وجُرجر إلى الوراء. ثم رفعوا المخلوق الساقط. بل إنهم كفّوا حتى عن التظارف على وزنه، لهذا الحد كان يقرّزهم. حاول أحدهم أن يجلسه في الكرسي. قال رئيس المخفر: "كل ما عليه هو أن يقف، هذا الممثل". برهن للمرأة، التي خجل من حدة بصيرتها، أنه هو أيضاً كشف المسرحية الهزلية. أنهض الشرطة ذلك العدم الطويل، على الأقل قام الشرطي المخوّل بالكرسي بإبعاد رجلي الجانح إحداهما عن الثانية كي يوسّع المساحة التي يرتكز عليها. تركه أحدهم من

t.me/yasmeenbook

فوق. انهار كين من جديد وظل معلّقاً في يد الثالث. قالت تيريزه: "هذا لؤم، يتقصد يموت". تشفّت بالعقوبة المفروضة عليه. زمجر البواب: "سيدي البروفسور! لا تعملوها!". كان راضياً بأن أحداً لا يأبه بابنته، إلا أنه يضع أملاً كبيراً في أقوال الإنسان الطيب.

وجد رئيس المخفر أن الفرصة سنحت له كي يلقّن الأنثى المبالغة في الذكاء درساً ذكورياً. كان يُكثر من مدّ يده إلى أنفه الصغير، همّه الكبير. (ينظر خارج الخدمة، خلال الخدمة، في جميع أوقات الفراغ إلى مرآة الجيب الصغيرة ويتنهّد. كان الأنف يكبر في المحن الكبرى. وقبل أن يشرع بالتغلب على هذه، يتوثق سريعاً من حجم أنفه، لأنه يستمتع كل المتعة بنسيانه في اللحظات الثلاث التالية). قرّر أن يخلع ثياب الجاني بالتمام والكمال. بدأ بالقول: "كلّكم أغبياء". أما الجملة التالية التي وجّهها لنفسها، فقالها في سرّه: "الميت تنفتح عيونه وإلا ما كانوا أغلقوها. الممثل غير قادر على هذا. إذا فتح عيونه لن تظهر عليهما الطبقة الزجاجية. إذا أغلق عيونه لن أصدق موته لأنه، كما قلنا، الميت تنفتح عيونه. موت دون طبقة زجاجية ودون عيون مفتوحة ما له طعمة. هذا غير متحقق في حالتنا. أنا لا أحد يضحك علي. لاحظوا هذا يا سادتي. أطالبكم، عطفاً على السجين، بالنظر إلى العينين!".

نحّى الطاولة التي يجلس خلفها جانباً – هذه المشكلة أيضاً ينحّيها عوض أن يلتفّ حولها -، تقدّم نحو الجانح المعلّق بيدي أحد رجاله ونقر بشدّة، بالإصبع الوسطى البيضاء، الثخينة، على جفن ثم على الآخر. شعر رجال الشرطة بالراحة. فقد خشوا من أن الحشد أشبعه قتلاً حتى الموت. لأنهم تدخلوا متأخرين. وربما أدى هذا إلى متاعب، على المرء أن يفكر بكل الاحتمالات. الحشد يجيز لنفسه إثارة الشغب، وعلى الشرطة أن تكون يقظة. كان لتجربة العيون أثر مقنع. رئيس المخفر رجل حقيقي. رفعت تيريزه رأسها عالياً. لوّحت للعقاب الذي تم إنقاذه من الفناء. شعر البواب بوخزات في قبضتيه، كما هو حاله دائماً حين يشعر بالراحة. حيث يبقى

t.me/yasmeenbook

مثل هذا الشاهد حيّاً، يفرح الإنسان. رفّ حاجبا كين تحت أظافر رئيس المخفر الخشنة. كرّر هذا النقر. فكّر أن يفتح عيني ذلك الإنسان على أشياء كثيرة، على غبائه مثلاً بتمثيل دور الميت دون طبقة زجاجية. ولكي يُظهر المرء مثل تلك العيون المتظاهرة بالموت، يجب فتحها بالقوة. إلا أنها ظلت مغلقة. "اتركوه يقع!"، أمر رئيس المخفر الشرطيَّ الرحيمَ، الذي لم يرهق بعد بحمله، وأمسك في الآن ذاته الوغد العنيد من ياقته وهزّه. هيّجته خفّته. "ومثل هذا يسرق!"، قال باحتقار. تبسّمت له تيريزه بسمة عريضة. بدأ يعجبها. هكذا يكون الرجل. لكن الأنف غير مناسب. تفكّر البوّاب مليّاً (مطمئناً لأنهم لا يحققون معه، قلقاً لأن لا أحد يعبأ به) في كيف يسرد القصة على حقيقتها. دائماً ما كان مستقلاً برأيه، اللص ليس السيد البروفسور. يصدق ما يصدقه هو، لا ما يقوله الآخرون. لا أحد يموت من شدة الخضّ. ما إن يعود إلى الحياة حتى يذوب الثلج ويجري بالكلام.

واصل رئيس المخفر احتقار الهيكل قليلاً، ثم بدأ يخلع ملابسه بيديه. رمى القفطان على الطاولة. تبعه الصديري. كان القميص عتيقاً لكنه محترم. فتح أزراره وحدّق شزراً بين الأضلاع. فعلاً لم يكن هناك شيء. ازداد تقزّزه. لقد شاهد الكثير. مهنته تجعله يختلط بكل أصناف المخلوقات. لم يحدث أن شاهد واحداً بهذا الهزال. مثله يجب أن يعرض في محل النوادر وليس في مخفر صغير. وهل هو مدير صالة متحف أم ماذا؟ قال للآخرين: "الحذاء والبنطلون أتركها لكم". تقهقر وهو مهان جداً. تذكّر أنفه. مدّ يده إليه. كان قصيراً جداً. لو يستطيع نسيانه! جلس متجهماً خلف طاولته. وجدها في وضعية خطأ للمرة الألف. دفعها. لا بد أن أحدهم غيّر وضعها. "ألا يمكنكم أن تتركوا طاولتي بحالها؟! أقول هذا للمرة المئة، يا حثالة!". سرّاً تبسّم الشرطي الذي كان مشغولاً بحذاء اللص وبنطاله. بينما ظل غيره واقفاً باستعداد. فكّر، يجب التخلص من أفراد كهذا. إنهم يكدّرون الأمن العام. يشعر المرء بالغثيان عندما يرى أمثالهم. يفقد المرء شهوته. وكيف

t.me/yasmeenbook

تكون الحياة دون شهوة؟ وهنا يجب على الواحد أن يحافظ على صبره. يجب أن يمُارس التعذيب في مثل هذه الحالات. كانت حياة الشرطة في القرون الوسطى أجمل. إذا كان أحدهم بهذا الشكل، فالحل الأمثل هو الانتحار. تتحمل الإحصاءات هذا، مثله لا يؤثر على العدد الإجمالي. عوض أن يقتل نفسه يمثل دور الميت ظاهرياً. مثل هذا المخلوق لا يعرف الحياء. أحدهم يخجل من أنفه لأنه قصير قليلاً. والآخر يمرح في حياته ويسرق. ستُخرب على رأسه. يأتي إلى العالم مخلوقات من كل الأشكال والأصناف. بعضهم يجلب معه الهمة والجد، الفهم، الذكاء والسياسة وغيرهم لا يحملون سنتمتراً واحداً من الشحم فوق عظامهم. ومن هذا يستنتج مدى الصعوبات التي على المرء أن يعانيها. ما إن يستلّ أحدهم المرآة من جيبه، حتى يضطرّ من فوره إلى إعادتها إلى مكانها.

وهذا ما حدث. وضع الحذاء والبنطال على الطاولة، وفتش الاثنان بدقة شديدة. اختفت المرآة في جيب داخلي يناسبها، صنع خصيصاً لها. في القميص وحده، فقد نزعت جراباته أيضاً، استند الجانح مرتعشاً على أحد رجال الشرطة. توجهت كل الأنظار إلى الربلتين. قال فنان الذاكرة: "هذه تقليد". انحنى وقرع عليهما. كانتا حقيقيتين. بدأ الشكّ يدخل قلبه أيضاً. في البدء اعتبر الرجل شاذّاً. ثم اقتنع أنه ممثل خطير. زمجر البواب: "لا قيمة لهذا يا سادتي!". ضاع تلميحه في دهشة رئيس المخفر. الذي تنازل بكل سرعة وحزم، كان يتميز بالإلهام، عن النقود المسروقة من المرأة، والتي لم تظهر، وبدأ بتفتيش أعمق في المحفظة. وجد فيها مختلف الأوراق الثبوتية. وجدها تحمل اسم د. بيتر كين، أي أنها مسروقة. لو كان بينها وثيقة عليها صورة، لاعتبرت مزورة. كانت الجدران تردّد صدى إنذار البواب، حين نهض رئيس المخفر، مدّ يده إلى أنفه وصرخ نحو الجاني بصوت لا يتوقعه أحد من الأنف: "أوراقكم مسروقة!". اقتربت تيريزه متزحلقة. أقسمت على هذا. كل من يتحدث عن سرقة محقّ.

t.me/yasmeenbook

كان كين يرتجف من البرد. فتح العينين وصوّبهما نحو تيريزه. كانت واقفة بقربه وتهزّ رأسها وكتفيها. شعرت بالفخر لأنه عرفها، فهي الشخصية الرئيسية. أعلن رئيس المخفر مرة أخرى: "أوراقكم مسروقة" ووشى صوته بهدوء أكثر مما قبل. لم تكن العينان المفتوحتان تريانه، لكنه أصبح يحدّق فيهما. اعتبر أنه ربح اللعبة. ما إن يتضعضع أول جدران المقاومة، حتى تأخذ الأمور مجراها. تسمّرت عينا الجانح على المرأة، ثقبتاها، وتزجّجتا بشكل جنوني. علاوة على كل مساوئه، كان هذا الجزيء من المخلوق ديوثاً. ناداه رئيس المخفر: "ألا تخجلون من نفسكم؟! أنتم شبه عار!". توسّعت حدقتا اللص، اصطكّت أسنانه، ظل رأسه في نفس الاتجاه لا يتحرك. هل هذه الطبقة الزجاجية حقيقية؟ تساءل رئيس المخفر وخاف قليلاً.

هنا رفع كين إحدى ذراعيه ومدّها حتى لمس تنورة تيريزه. ضغط على كسرة بإصبعين، تركها، عاد إلى الضغط عليها، تركها ومدّ يده نحو التالية. اقترب خطوة. بدا أنه لا يثق بالعينين والأصابع، ومال بأذنه على الصوت الذي تصدره يده من الكسرة المنشّاة. ارتجف منخاراه. صرخ رئيس المخفر: "هذا يكفي، أيها الخنزير!"، لقد لاحظ بالتأكيد السخرية اللاذعة بالأنف: "هل تقرّ بالجريمة أم لا؟". "نعم، ماذا؟!" زمجر البواب. لم يلتفت أحد إلى شوشرته، كان الجميع ينتظر جواب المجرم. فتح كين فمه، ربما ليتذوق التنورة أيضاً وقال: "أعترف باقتراف الجريمة. وهي ذاتها تتحمل جزءاً من الذنب. لقد حبستها، لكن هل كان عليها أن تتغذى على جسدها؟ لقد استحقّت الموت. لي عندكم رجاء، أشعر ببعض الشواش. كيف تفسّرون وجود القتيلة هنا؟ أنا أعرفها من التنورة".

تحدث بصوت خفيض جداً. دنا منه البشر، أرادوا أن يفهموه. كان على وجهه تشنّج المحتضر الذي يشي بأعمق الأسرار التي تعذّبه. "صوت أعلى!"، هتف رئيس المخفر، أحجم عن النطق بجملة من جمل الشرطة، بل تصرف كمن يحضر مسرحية. كان سكون الآخرين خاشعاً ومتجلّداً. وعوض

t.me/yasmeenbook

التشديد على أوامره دخل بينهم بألفة. استند البواب على أكتاف زميلين من زملائه يقفان أمامه، أراح ذراعيه بكل طولهما. تشكّلت حلقة حول كين وتيريزه. اكتملت الدائرة، لم يعد أحد يتزحزح من مكانه، قال أحدهم: "إنه يهرف" مشيراً إلى صدغه. إلا أنه شعر من فوره بالخجل وطأطأ رأسه، التحمت كلماته بالفضول العام، جاءته نظرات غاضبة. وشوشت تيريزه: "رجاء". كانت هي السيدة، هي محور كل الأحداث، لم تتحمل من شدة الفضول، أرادت أن تترك الرجل ينهي أكاذيبه، ثم يأتي دورها بعد ذلك. على الآخرين أن يسدّوا أفواههم.

أخفض كين صوته أكثر. أحياناً كان يمدّ يده إلى ربطة العنق ويعدّلها، فهذه كانت الحركة التي يقوم بها عندما يواجه أحاجي ملغزة. بدا في أعين المشاهدين أنه لا يعرف أنه لا يرتدي سوى القميص. امتدّت يد رئيس المخفر عفواً إلى مرآته الصغيرة، كاد أن يضعها أمام أنف السيد. كان يحب ربطات العنق المعقودة بشدّة، إلا أن السيد كان مجرّد لصّ.

"تعتقدون أني أعاني الهلوسات. عموماً لا. يقتضي مني العلم الوضوح، أنا لا أرتضي بالخلط بين الأمور ولا بالاختلال الذهني. غير أني عانيت الكثير في الفترة الأخيرة، أمس وصلني خبر وفاة زوجتي. تدركون هول الأمر. بسببها أتشرّف بوجودي بينكم. ومذّاك لا أني أفكر في محاكمتي. حين ذهبت اليوم إلى تيريزيانوم صادفت زوجتي المغدورة. كانت رفقة بوّابنا، صديقٍ وفيّ لي. كان قد شيّع جنازتها في مكاني، لأنّ لدي موانعي. لا تعتقدَن أني غليظ القلب. توجد نساء لا ينساهن المرء قطّ. أودّ أن أقول لكم الحقيقة المطلقة: لقد تحاشيت دفن جثتها عمداً، فقد عظم عليّ الأمر. لا بد أنكم تفهمونني، ألم تتزوجوا قطّ؟ حينذاك مزّق كلب جزارين التنورة مزقاً مزقاً وافترسها. ربما كان لها اثنتان منها. ارتطمت بي على الدرج. كانت تحمل علبةً خِلتُ وجود كتبي فيها. أنا أعشق مكتبتي. إنها أكبر مكتبة خاصة في المدينة. اضطررت لإهمالها بعض الوقت. كنت موقوفاً على

t.me/yasmeenbook

عمل الخير. أقصاني اغتيال زوجي عن المنزل. لا أدري كم أسبوعاً غبت عن المنزل! استغللت الوقت جيداً، الوقت علم، العلم انضباط. علاوة على اقتناء مكتبة صغيرة، وهبت نفسي، كما أدليت أعلاه، لعمل الخير. أنا أنقذ الكتب من الإعدام حرقاً. أعرف خنزيراً يتغذّى على الكتب، لكن لننسينّ ذكر هذا. أحيلكم إلى كلمتي أمام المحكمة، فأنا أستطيب أن أكشف هناك بعض الأشياء للعامة. أغيثوني! إنها لا تتحرك من مكانها. حرّروني من هذه الهلوسات. عادة لا أعانيها. إنها تتبعني، منذ ساعة، كما أخشى. لنثبت الوقيعة، سأهوّن عليكم المساعدة. أنا أراكم جميعاً، وأنتم ترونني. وهكذا تماماً تقف المغدورة بحذائي. لقد تخلّت عني جميع حواسي، ليس العينان فقط. سيّان ما فعلت، أسمع التنورة، أحس بها، تفوح برائحة النشاء، هي ذاتها تحرك رأسها، هكذا كانت طريقتها عندما كانت على قيد الحياة، بل إنها تتكلم، قالت منذ لحيظات: "رجاء"، عليكم أن تعلموا أن قاموسها يتألف من خمسين كلمة[1]، ورغم هذا لم تكن تتكلم أقل من البشر الآخرين، أعينوني! أثبتوا لي أنها ميتة!".

بدأ المحيطون به بالتقاط كلمات من الأصوات التي يصدرها. اعتادوا على طريقته، أصاخوا محتارين، أمسك واحدهم بالآخر كي يسمع أفضل. كان يتحدث بلغة المثقفين، يزعم أنه ارتكب جريمة قتل. جمعاً لم يصدقوا أنه اقترف جريمة، فرادى رغب كل منهم أن يكون محقّاً. ممن يطلب النجدة؟ لقد تركوه على راحته في القميص، إنه يخاف. حتى رئيس المخفر ذاته شعر بنفسه عاجزاً، فضّل السكوت، فجمله هو ما كانت ستنطق بالفصاحة. الجانح من أسرة كريمة. ربما لم يكن جانحاً. استغربت تيريزه لأنها لم تلاحظ شيئاً في السابق. إذاً، فقد كان متزوجاً عندما دخلت بيته، وهي التي ظنت أنه أعزب، كانت تعلم بوجود سرّ ما، السرّ كان الزوجة الأولى،

---

1) كارل كراوس (1874 – 1936) كاتب نمساوي. كان كانيتي يحضر محاضراته اللاهبة في شبابه ويعتبر نفسه تلميذاً له. راجع كتاب "ضمير الكلام" لكانيتي، منشورات المتوسط.

t.me/yasmeenbook

قتلها، المياه الراكدة قاتلة[1]، ولهذا لم يكن يتكلم قطّ، ولأن الزوجة الأولى كانت تلبس نفس التنورة، تزوجها هي حبّاً. لملمت الأدلة؛ في الفترة بين السادسة والسابعة كان يختلي بنفسه، ظل كلّ شيءٍ مخبّأً حتى أخرج كل القطع من البيت، وهل يعمل أحد هكذا، وتذكرت كل التفاصيل. لهذا هرب منها، كان يخاف أن تفضحه. اللص قاتل، وما الذي كانت تقوله دائماً، وهنا يعجب بها السيد غروب أيضاً.

ألمّ الرعب بالبواب، ارتخت الأكتاف التي كان يستند إليها. ها هو ذا السيد البروفسور ينتقم منه متأخراً، فلم يعد أحد يأتي على سيرة البنت. السيد البروفسور يتحدث عن المرأة لكنه يقصد البنت. البواب رآها أيضاً، لكن أين هي؟ السيد البروفسور يستغبيه، لكن الآخرين لا يصدقونه. ها هو ذا الإنسان الطيب يورّطه، وإلا ما معنى هذا، هكذا ينغشّ المرء بالبشر. سيطر على نفسه رغم حسرته، اتهامات البروفسور هيّنة عليه، فهو يعرف زملاءه. بل إنه لم يخطر له أنه هو من صنع من البروفسور ما هو عليه، وفكر أن يخلع عنه اللقب في أجل بعيد.

بعد تكرار طلب العون – نطقه متماسكاً لكنّه عناه متضرّعاً -، انتظر كين. شعر بالراحة للسكون المطبق. حتى تيريزه التزمت الصمت. تمنّى لو أنها تتلاشى. ربما اختفت كما سكتت. بقيت. وبما أن رغبته لم تلبّى، أخذ زمام المبادرة لعلاج نفسه من الهلوسة. كان يعي ما يدين به للعلم. تنهّد، تنهّد عميقاً؛ ومن لا يستحيي من طلب المساعدة من الآخرين؟ جريمة القتل مفهومة، يمكنه المرافعة عن جريمة القتل، كل ما يخشاه هو عاقبة هذه الهلوسات. إن اعتبرت المحكمة أن قدراته العقلية غير سليمة، سينتحر في أرضه. ابتسم، ليكسب ودّ المستمعين، فهؤلاء هم الشهود

---

1) المياه الراكدة قاتلة. هنا يحيل الكاتب إلى المثل الألماني "المياه الراكدة عميقة" الذي يقال بالعربية العامية في إحدى صياغاته: يا ما تحت السواهي دواهي.

t.me/yasmeenbook

لاحقاً. كلما تحدث إليهم بودٍّ وعقلانية أكثر، بدت لهم هلوساته طفيفة أكثر. رفعهم إلى مصافّ المثقفين.

"إن علم النفس يدخل اليوم في مجال كل ... مثقف"، مهما علا مقدار لطفه، قام باستراحة قصيرة قبل النطق بكلمة مثقف أمام هؤلاء. "لست ضحية أنثى، كما قد تظنون. براءتي مؤكدة. إنكم تجالسون في شخصي أعظم علماء الصينيات الأحياء في زمننا. وحدث أن عانى من هم أكبر مني الهلوسة. إن فرادة الطِبيعة الحرجة تكمن في السطوة التي تلاحق بها من اصطفته. منذ ساعة وأنا مشغول بحدة وتركيز على تهيُّؤاتي، بحيث لم أعد قادراً على التخلّص منها بقواي الذاتية. توثّقوا أنتم بأنفسكم، رجاء، كيف أحكم عليها بعقلانية؟ اسمحوا لي أن أرجوكم بإلحاح اتخاذ الإجراءات التالية: ارجعوا جميعاً إلى الوراء. اصطفّوا في صف واحد. وليتقدم كل منكم إليّ في خط مستقيم. آمل أن أتيقّن من أنكم لن تجدوا عثرة هنا وهنا وهنا. إني أرى هنا تنورة، المرأة في داخلها قتيلة، تشبه المغدورة شبهاً كاملاً، إنها الآن لا تتكلم، قبلاً كان لها صوتها أيضاً، هذا يشوّشني. أنا بحاجة إلى ذهن صافٍ. سأقوم وحدي بالمرافعة عن نفسي. لست بحاجة إلى أحد. المحامون مجرمون، إنهم يكذبون. أنا من يعيش لأجل الحقيقة. أعرف أن هذه الحقيقة هنا تكذب، ساعِدوني، أعرف، يجب أن تختفي. ساعدوني، هذه التنورة تقلقني. لقد كنت أكرهها، حتى قبل يوم الكلب، فلماذا عليّ أن أراها بعده؟!"

أمسك بتيريزه، ليس بتهيّب، إنما أمسك بتنّورتها بكل قوة، دفعها، جذبها، أحاط بها بذراعيه النحيفتين الطويلتين. لم تمانع. فهو لا يودّ سوى معانقتها. قبل شنقهم يحصل القتلة على وجبة عشاء أخيرة. لم تكن تعرف كيف هم القتلة قبل الآن. وها هي ذي تتعرف على أحدهم: هزيل وكتب كثيرة فيها كل شيء. أدارها حول محورها الذاتي وأحجم عن العناق. فغضبت. بحلق فيها من مسافة سنتمترين. مسّد بأصابعه

t.me/yasmeenbook

العشرة التنورة طولياً. مدّ لسانه وتشمّم بأنفه. ترقرقت الدموع في عينيه من شدة الإجهاد. "أنا أعاني هذه الهلوسة"، أقرّ لاهثاً. من دموعه استنتج المستمعون أنه يشهق بالبكاء.

"لا تبكوا، أيها السيد السجين!" قال أحدهم، كان له أولاد، يحصل بِكُرْه على علامة "ممتاز" في الإنشاء. شعر رئيس المخفر بالحسد. فجأة تصور الإنسانَ في القميص أمامه، الذي خلع ثيابه بنفسه، في ثياب محترمة: "حسناً، حسناً"، دمدم. هكذا حاول العبور بصوته إلى نبرة أشدّ، وكي يهوّن على نفسه ألقى نظرة على الأسمال على الطاولة. سأل فنان الذاكرة: "لماذا سكتّم حتى الآن؟". لم ينسَ أيّ حدث من الأحداث التي جرت. وفي سؤاله تنازل عن الجواب، سأل فقط كي يعيد إلى الذاكرة ذكرى عبقريته، كما يسميها الزملاء بين الحين والآخر، خاصة عندما يسود الهدوء. الآخرون، وهم جبلات أقل حظوة، ما زالوا يصغون أو بدؤوا بالضحك. انقسموا بين الفضول والرضا. شعروا بالراحة دون أن يدركوا هذا. في مثل تلك اللحظات النادرة كانوا ينسون وظيفتهم، بل حتى وقارهم، مثل الكثير من البشر أمام خشبات مسرح تسبقه سمعته. كان زمن التمثيل قصيراً. ودّوا لو يحصلوا على المزيد ثمناً لبطاقات الدخول. تحدّث كين ومثّل، بذل جهداً شديداً. لاحظوا مدى جدّه في مهنته. كسب لقمة عيشه بمرارة. ما كان أيّ بهلول سيتفوق عليه. لم يتحدث طوال أربعين عاماً عن نفسه كما فعل خلال العشرين دقيقة. قسماته مقنعة. كادوا يصفقون. حين اشتغل على المرأة صدّقوا جريمة القتل بحسن نيّة. تبيّن لهم أن محتده أشرف من أن يكون ممثلاً سوقياً؛ وربلتاه أهزل من أن تمثّلا على المسرح. كانت آراؤهم ستتوافق لو كان نجماً آفلاً، إلا أنهم كانوا مشغولين جداً به وسعداء بالمشاعر المختلطة التي يثيرها فنّه.

زعلت منه تيريزه. لأنها كانت قبلاً تلفت النظرات النهمة لجميع الرجال، وكلٌّ منهم رجل حقيق، فقد تقبّلت تزلّفه طويلاً بأناة. أما هو ذاته فقد كان

t.me/yasmeenbook

يقرّزها. وماذا تنتفع منه؟ فهو واهن وهزيل، ليس لديه أدنى علم بمعنى الرجولة، لا رجل يعمل مثله. نعم، إنه قاتل، لكنها لا تخاف، فهي تعرفه، إنه جبان. إلا أنها شعرت أن السلوك المبروك للقاتل يأتي على مقاسها. كان مفتوناً والتزمت هي السكون. فقد البواب فراسته. لاحظ أن البروفسور لا يلتف حول ابنته. تعمّق في تمثيلية الساقين. ليتجرّأ شحاذ كهذا ويمرّ بعينه السحرية. سيقصم رجلي هذا إلى نصفين مثل عودي كبريت. إما أن يكون للإنسان ربلتان أو فليخجل من نفسه. لماذا يتنطنط بكل هذا الضعف حول تلك العاهرة العجوز. هي لا تستحق أن يسترضيها. عليها أن تتوقف عن إغرائه. لقد سحرت السيد البروفسور المسكين تماماً. إنه ينوء تحت عذابات الحب، كما يقال. خسارة هكذا إنسان راقي. على الزملاء أن يلبسوه بنطاله. فجأة يأتي غريب إلى المخفر ويرى كم ربلتاه صغيرتان. بذلك ينفضح كلّ السلك. عليه التوقف عن الكلام، لا أحد هنا يفهم كلماته الذكية، إنه يتكلم دائماً بهذه الحذاقة. أغلب الأحيان لا يفتح فمه بكلمة. واليوم أمسك الكلام بتلابيبه. ما غاية هذا؟

هنا انتصب كين فجأة. تسلّق أعالي تيريزه. ما إن استطال عليها، كان أطول منها بمقدر رأس، حتى بدأ يقهقه. "لم تطُل"، قال وضحك، "لم تطُل!". لكي يتحرّر من أصفاد الشبح، قرّر أن يرتقي أعاليه. وكيف له أن يطول رأس شبح تيريزه؟ كان يراها طويلة عملاقة. سيقف بكامل طوله، سيقف على أصابع قدميه، فإن ظلت أطول منه، سيقول لنفسه بكل حقّ: "في الواقع كانت أقصر بمقدار رأس، طوال حياتها، إذاً فهذا خيال".

لكنه عندما صار فوق بخفّة القرد، انهار مخططه الماكر على طول تيريزه المعهود. لم ينتهر بهذا، بل على العكس، هل هناك دليل أقوى على دقّته؟ حتى تخيّله دقيق. ضحك. عالم من طرازه لا يتحطم. آفة الإنسانية اللادِقّة. عدّة مليارات من البشر العاديين يقضون حياة عديمة المعنى ويموتون موتاً عديم المعنى. إن ألفاً دقيقين، ألفاً في أقصى حدّ، بنوا صرح

t.me/yasmeenbook

العلم. وإن موت واحد من هذه الألف الأعلى موتاً مبكراً، انتحار للإنسانية العاجزة. ضحك من قلبه. تصوّر تخيّلات العاديين الذين يحيطون به. لو كانوا مكانه، لكانت تيريزه أطول منهم، تصل إلى السقف أغلب الظن. لكانوا بكوا من الخوف وطلبوا مساعدة الآخرين. إنهم يقضون حياتهم في الوهم، هم غير قادرين حتى على صياغة جملة واضحة. على المرء أن يحزر ما يفكرون فيه، هذا إن كان مهمّاً له، والأفضل ألا يعبأ بهم أساساً. بينهم يشعر المرء أنه في مصحّ مجانين. وسواء إن بكوا أم ضحكوا، تظل وجوههم دميمة، أحدهم جبان على غرار الآخر، لن يشفوا، ما كان أحد منهم سيقتل تيريزه، أيّ منهم يستسلم لها لتعذّبه حتى الموت. بل إنهم يخشون أن يساعدوه لأنه قاتل. ومن غيره يعرف دوافع جريمته؟ أمام المحكمة، وبعد خطابه العظيم، ستستغفره البشرية الشقية. إنه يضحك على راحته. من في الدنيا يملك مثل ذاكرته؟ الذاكرة شرط الدقة العلمية. تمحّص في تخيّله طويلاً حتى تيقّن ما هو. لقد كان معتاداً على التغلّب على مخاطر من نمط أدهى، نصوص مشوهة، سطور ناقصة. لا يتذكر قطّ أنه فشل مرّة. لقد حلّ جميع الواجبات التي ألقاها على عاتقه. ويعتبر القتل أيضاً واجباً انتهى منه. واحد من طراز كين لا ينفصم بهلوسة، بل تتهدم هذه عليه، حتى لو كانت من لحم ودم. إنه صلب. لم تتكلم تيريزه منذ عهد بعيد. أنهى ضحكته. ثم عاد إلى العمل.

مع جسارته وازدياد ثقته بنفسه تناقصت جودة عرضه. عندما بدأ بالضحك، اعتبره الجمهور مسلّياً بعد، فقد كان يبكي قبل قليل بمرارة، والمفارقة بينهما رائعة. قال أحدهم: "كيف يطلع بكل هذا؟". ردّ جاره: "الشمس تطلع بعد المطر". ثم حلّ الجدّ على الجميع. مدّ رئيس المخفر يده إلى أنفه. كان يحب الفن لكنه يفضّل الضحك الواقعي. ذكر فنان الذاكرة أنه يسمع السيد ضاحكاً للمرة الأولى. زمجر البواب قائلاً: "لا نفع من الكلام". اعترض والد الطالب الشاطر على وجهة النظر هذه وأوصى:

t.me/yasmeenbook

"الأفضل أن تتحدثوا أيها السيد السجين". لم يطعه كين، فأردف الوالد: "نيّتي طيّبة تجاهكم"، وكان يعبّر عن حقيقة دواخله. انحسر إعجاب المشاهدين بسرعة عالية. ضحك السجين أطول من المحبّذ، اعتادوا شخصيته الغرائبية. شعر رئيس المخفر بالخجل، فقد كاد ذات يوم أن يحصل على البكالوريا واستلهم عدة جمل فصيحة. لقد حفظها اللص غيباً، الدجال الخطير. لا أحد يخدعه بهذا. يتصور أنه إذا جاء على ذكر جريمة قتل، سينسون جريمة السرقة وتزوير الثبوتيات الشخصية. إنه ابن سلك ذو خبرة طويلة، قد مرّت عليه حالات أصعب بكثير، ومن الوضاعة الشديدة الضحك في مثل هذا الموقف. سيعود من فوره إلى البكاء ولكن ليس من باب التسلية.

جدوَلَ فنان الذاكرة كل أكاذيب اللص ليستخدمها في التحقيقات التالية. في محيطه أكثر من عشرة أشخاص، من المؤكد أن أحداً منهم لم يلاحظ كلمة واحدة. كانوا يعتمدون على ذاكرته هو. تنهّد عالياً. لا ينال مقابلاً على خدماته التي لا يستغنى عنها. إنه ينجز أكثر مما يفعله الآخرون جميعاً. لا أحد منهم جدير بشيء. المخفر يعيش عليه. رئيس المخفر يعتمد عليه. كل الحمل على ظهره هو. الكل يحسده. تكاد الترقية تكون في جيبه. إنهم طبعاً يعرفون لماذا لا يرقّونه. فوق يخافون من عبقريته. وبينما يسلسل مزاعم الجانح على أصابعه، نبّه الوالد الفخور كينَ للمرة الأخيرة. تيقن أن ذلك الإنسان لم يعد قادراً على الكلام، وقال: "يفضّل أن تبكوا أيها السيد السجين". كان عنده إحساس غامض بأنهم لا يعطون في المدرسة علامة ممتاز على الضحك. أطلق كلّ منهم جاره. ابتعد بعضهم عن الدائرة. تكسرت الحلقة وكذلك التوتر. بدأ حتى قليلو الموهبة بينهم بتشكيل رأي خاص. خطر على بال المُعاد إلى الواقع كأس ماء. اكتشف عكازا البوابِ البوابَ ورغبا لو ينهالان عليه ببضع صفعات على وقاحته الودودة. أما هو فزمجر: "هذا الرجل يحكي كثيراً". عندما عاد كين للتعمّق في دراساته

t.me/yasmeenbook

كان الوقت متأخراً جداً. ولن ينقذه سوى مشهد جديد صاعق. تجاسر على تقديم العرض القديم مرة أخرى. أحست تيريزه بجذوة نار الإعجاب تنطفئ. قالت: "رجاء، أنا اكتفيت". فلم يكن رجلاً.

سمع كين صوتها وانصعق. قضت على كل آماله، وهذا كان أبعد ما يتوقعه. كان يتصوّر أنها ستختفي رويداً رويداً، ما دامت صامتة. كان قد بسط أصابعه للتو كي لا يشعر بالخيال. تصور أن خلاص العيون منها سيكون المرحلة الأخيرة، فإن خدع الوجه تستعصي أكثر. وفي هذه اللحظة تكلمت. لا، لم يخطئ السمع. قالت: "رجاء". عليه أن يعود إلى نقطة البداية، يا للإجحاف! أُعيدَ عملٌ هائل إلى الوراء سنوات، قال لنفسه ما إن خرقه الصوت، وتجمّد قربها بظهرٍ منحنٍ، بأصابع اليدين المتشنجة. صمت بدل أن يتحدث، نسي البكاء، وحتى الضحك، لم يفعل أي شيء. وبهذا قضى على آخر بقايا التعاطف معه.

هتف رئيس المخفر: "clown". تجاسر على التدخل ونطق الكلمة باللفظ الإنكليزي. كان الانطباع الذي أخذه عن كين منقطع النظير. تطلّع حوله ليعرف ما إن كانوا قد فهموه. ترجم فنان الذاكرة الكلمة إلى النطق الألماني. كان يعرف المقصود وأعلن أن هذا هو النطق الصحيح. واعتباراً من هذه اللحظة، وقع تحت الشكوك بأنه يتقن الانكليزية سرّاً. انتظر رئيس المخفر قليلاً ليعرف ردّ فعل المُهان. خشي أن يردّ عليه هذا بجملة مثقفة واستحضر واحدة للردّ بها عليه: "يبدو أنكم تتصورون أن لا أحد من موظفي الدولة الحاضرين هنا قد تفرّغ للدراسة". أعجبته الجملة. مدّ يده إلى أنفه. ولم يُتِح له كين الفرصة ليستعمل جملته، فغضب وصرخ: "يبدو أنكم تتصورون أن لا أحد من الموظفين الحاضرين قد حاول الحصول على البكالوريا".

"ما المناسبة؟"، زمجر البواب. إنهم يتقصدونه، يتقصدون ابنته، التي يجد اليوم أيُّ شخصٍ أن من حقه التدخل في حياتها، لا يمنحون الفتاة الراحة في القبر. كان كين على درجة من الفتور ولا يقدر حتى على

t.me/yasmeenbook

تحريك شفتيه. تكاثرت مصاعب المحاكمة. القتل يظل قتلاً. ألم تحرق هذه الوحوش أحداً اسمه جوردانو برونو[1]؟ إذاً فهو يحارب دون طائل ضد الهلوسة. من يمنحه الطاقة على إقناع محلّفين جهلة بقيمته.

هتف رئيس المخفر: "من أنتم في الحقيقة أيها السيد؟ يفضّل أن تكفّوا عن سكوتكم!". أمسك كمّ كين بإصبعين. كان يرغب في أن يهرسه بين أظافره. ما قيمة هذه الثقافة القادرة على النطق بعدة جمل وتسكت عن الجواب على أسئلة عقلانية؟ الثقافة الحقيقية في السلوك، في الاستقامة وفي الفن الصحيح للتحقيق. جاداً ومستعيداً ثقته بنفسه ذهب رئيس المخفر وراء طاولته. كانت الأرضية الخشبية لكرسيّه مغطاة بوسادة ناعمة، هي الوحيدة في المخفر، طرّز فيها بحروف حمراء: ملكية خاصة. على هذه العبارة أن تذكّر المأمورين بأنها ليست من حقّهم حتى في غيابه. كان الناس يميلون كثيراً لدسّ الوسادة تحت مؤخراتهم. عدّلها بعدّة حركات متقنة قبل أن يجلس عليها. كان على نقش "الملكية الخاصة" أن يكون موازياً لخطّ نظره، الذي لا يفوته أبداً أن يستمدّ العزيمة من تلك الكلمات. أدار ظهره للكرسي. كان يصعب عليه أن يتحرّر من مرأى الوسادة، والأصعب أن يجلس بحيث لا تتزحزح من مكانها. استعد للجلوس ببطء، تماسك هنيهات على مؤخرته. ولم يضغط على "الملكية الخاصة" إلا بعد أن تأكد أنها في مكانها الصحيح من تلك الناحية أيضاً. ما إن يجلس، لا يقنص منه أيّ لصٍّ أيّ ذرّة احترام، حتى لو معه بكالوريا. بسرعة ألقى آخر نظرة على مرآته. ربطة العنق في مكانها، مثل مؤخرته، مستعدّة لا تعدم الأناقة. الشعر المرتد للوراء مصفّف بالدهن، لا شعرة واحدة تخرج من مسارها، الأنف قصير جداً. بعث فيه الحميّا، الشيء الوحيد الذي ينقصه، وابتدأ التحقيق.

---

1) جوردانو برونو (1548 – 1600)، كاهن، شاعر وفيلسوف. اتهمته محاكم التفتيش بالزندقة وحكمت عليه بالإعدام حرقاً. في 12 آذار 2000 أعلن البابا يوحنا بولص الثاني أن عقوبة الإعدام لم تكن محقة.

t.me/yasmeenbook

يقف ناسه بصفّه. فقد قال clown، وهم وافقوه. بما أن السجين صار مملاً، تذكّروا وقارهم. تحرّق فنان الذاكرة. كان قد اتفق مع نفسه على أربع عشرة نقطة. تم اقتياد كين في القميص إلى الطاولة، ما إن تركته أظافر رئيس المخفر المحتقرة. وتركوه هناك. وقف وحده. وهذا كان حسناً. لو سقط الآن لن يسنده أحد. وثقوا بقواه الذاتية. اعتبره كلٌّ منهم بهلولًا متماسكاً. لم يعد أحد يصدق هزاله بشكل جدّيّ. من المؤكد أنه لم يقاس الجوع في حياته. شعر الوالد الفخور بالهلع من العلامات الجيدة لابنه. فالمرء يرى عاقبة المتفاصحين.

سأل رئيس المخفر كين: "هل تعرفون هذه الملابس؟" وأشار إلى القفطان، الصديري، البنطلون، الجوارب والحذاء التي تغطي الطاولة، ناظراً إلى عينيه بحدّة ليراقب أثر كلماته. كان مصمّماً على المضيّ بمنهجية وأن يضيّق على المجرم. أومأ كين. كان ممسكاً بحافة الطاولة بقوة يديه الذاتية. يدرك أن الخيال وراءه. دحر الشهوة العارمة في الالتفات ليرى ما إن كان لا يزال في مكانه. تصور أن الأفضل أن يردّ على الأسئلة. وكي لا يثير أعصاب قاضي التحقيق، فقد كان أمامه، استجاب لأسئلته. كان يفضّل لو يصف جريمة القتل في خطاب مترابط. يشمئزّ من الحوارات، اعتاد أن يطور آراءه في أبحاث مستفيضة. إلا أنه أقرّ بأن لكلّ مختص نهجه الذي يحبذه وكيّف نفسه. تمنّى في سرّه أن يستعيد تجربة موت تيريزه في لعبة السؤال والجواب الجارفة بحيث يذوب ذلك الخيال ذاتياً. قال إنه سيصمد قدر الإمكان أمام قاضي التحقيق ويبرهن له أن تيريزه كانت تستحقّ الموت. إن تم تدوين المحضر بكل تفاصيله وتلاشى كلّ شكّ بمشاركته في الجريمة، إن تم البرهان على نهايتها بقرائن تلمس لمس اليد، فآنئذٍ، وليس قبل ذلك، سيلتفت ويضحك على الفراغ في المكان البعيد الذي كانت تحتلّه قبلاً، فقد كان يشعر بقربها. كلّما غرز أصابعه في الطاولة أشدّ نكصت عن عينه. لا تستطيع لمسه أي لحظة إلا من الخلف. حسب الحساب لوجود

t.me/yasmeenbook

صورة فوتوغرافية للهيكل العظمي كما وجدوه. اعتبر أقوال البواب وحدها غير كافية. البشر قد يكذبون. الكلاب لا تستطيع الكلام للأسف. الشاهد الموثوق سيكون كلب الجزارين الذي مزق تنورتها مزقاً مزقاً ثم افترسها.

إلا أن رجلاً في مقام رئيس المخفر لا يكتفي بإيماءة من الرأس. أمر: "أجيبوا بنعم أو لا. أكرّر السؤال".

قال كين: "نعم".

"انتظروا حتى أكرّر. هل تعرفون قطع الملابس هذه؟"

"نعم"، تصور كين أن السؤال عن قطع ملابس المغدورة ولم ينظر إلى الطاولة.

"تقرّون أن هذه الملابس لكم؟"

"لا، لها".

كشفه رئيس المخفر بكل سهولة. كي ينكر النقود والأوراق المزورة التي وجدوها في ملابسه، يزايد الوغد الخبير ليدّعي أن الملابس ملك المرأة التي سرقها. ظل رئيس المخفر هادئاً، مع أنه هو من نزع ملابسه، ولم يرَ مثل هذه الصفاقة طوال خبرته العملية. بابتسامة عارضة مدّ يده إلى البنطال ورفعه عالياً: "هذا البنطلون أيضاً؟"

لاحظ كين البنطلون. قال: "لكن هذا بنطال رجّالي" محرجاً جداً لأنه ليس للغرض أيّ علاقة بتيريزه.

"إذاً، تقرّ، بنطال رجّالي".

"طبعاً".

"ولمن هذا البنطال برأيكم؟"

"من أين لي أن أعرف. هل عثر عليه عند القتيلة".

t.me/yasmeenbook

تجاهل رئيس المخفر الجملة الأخيرة مثابراً. كان يفكر أن يخنق خرافة القتل وغيرها من المناورات في مهدها.

"هكذا إذاً، لا تعرفون!".

بسرعة البرق أخرج مرآته من جيبه ووجّهها نحو كين، لم يقرّبها كثيراً، بحيث يرى كامل هيئته.

سأل: "هل تعرفون من هذا؟". كانت كل عضلة من عضلات وجهه متوترة لحد التمزّق.

"أنا ... نفسي" تلعثم كين ومدّ يده إلى قميصه. "أين ... أين بنطالي؟". كان مندهشاً بشكل مفرط من رؤية نفسه بهذا الشكل، فهو ينقصه الحذاء والجوارب أيضاً.

فرح رئيس المخفر: "آها. هنا. ارتدوا بنطالكم من جديد!".

سلّمه له متوقّعاً خدعة جديدة. استلمه كين وارتداه بأقصى سرعة. وقبل أن يدسّ الشرطي المرآة في جيبه، ألقى عليها النظرة التي استغنى عنها قبل الآن في سبيل هجوم مباغت أكثر نجاحاً. كان يعلم كيف يسيطر على نفسه. لا شائبة تشوب سلوكه. ويجد فرحة خاصة في الخفّة التي تجري بها تحقيقاته. ارتدى المجرم الملابس الأخرى دون أمر. فقد بدا أن لا حاجة للبرهان على أن قطع الثياب الأخرى أيضاً تعود إليه. أدرك قبالة من يقف ووفّر جهوده. لم تدُم المقدمة ثلاث دقائق. فليحاول آخر أن ينجح نجاح رئيس المخفر. كان راضياً لدرجة أنه يريد التوقف فوراً. وكي يتابع ألقى نظرة أخيرة على المرآة، تضايق من الأنف الصغير وسأل بطاقة طازجة، بينما اللص يرتدي قفطانه:

"والآن، ما هو اسمكم؟"

"د. بيتر كين".

t.me/yasmeenbook

"ولم لا؟ المهنة؟"

"عالم خاص وأمين مكتبة".

تذكّر رئيس المخفر أنه سبق له أن سمع هذه المعطيات. رغم ذاكرته، القصيرة قصر أنفه، مدّ يده إلى إحدى الثبوتيات المزورة وقرأ بصوت عال: "د. بيتر كين. عالم خاص وأمين مكتبة". أخرجته حيلة المجرم الجديدة من سياقه. لقد عرف أن الملابس ملابسه وها هو ذا يتظاهر بأن الأوراق أيضاً حقيقية. ترى ما مدى اليأس الذي يشعر به ليلجأ إلى هذه الوسيلة الجنونية! في هذه الحالات، غالباً ما يؤدي سؤال مفاجئ إلى الهدف مباشرة.

"وكم كان معكم من نقود عندما خرجتم اليوم من البيت، قصدي، يا سيادة الدكتور كين؟"

"لا أعرف، أنا عادة لا أعدّ نقودي".

"من المؤكد أنكم لن تعدّوا النقود ما دام ما عندكم نقود".

راقب تأثير تلميحه. حتى خلال التحقيقات المادية كان يوحي بأنه يعرف كل شيء، حتى لو تصرّف مؤقتاً بلطف. امتعض المجرم. اتضحت خيبته. قرّر رئيس المخفر أن يقوم بهجمة أخرى، وذلك على موقع لا يقلّ هشاشةً في المتهم، على شقته. دون أن يلفت الأنظار، تردّد كأنه غائب عن الوجود ومرّر يده اليسرى على الثبوتيات الشخصية حتى غطّت على خانة معينة وكامل محيطها. خانة العنوان. المجرمون الشطار يتمكّنون من القراءة بالمقلوب.

"أين قضيتم الليلة؟"

"في الفندق ... لا أعرف الاسم"، ردّ كين.

ارتفعت يسرى رئيس المخفر وقرأ: "شارع إرليش، رقم 24".

t.me/yasmeenbook

"هناك عثروا عليها"، قال كين متنفّساً الصعداء. أخيراً جاء الحديث على جريمة القتل.

"تقولون عثروا عليها؟ أتعرفون ماذا يسمّون هذا في عرفنا؟"

"عليّ الإقرار بأنكم على حقّ. إذا أخذنا الأمور بدقة أكثر، لم يبقَ منها شيء".

"أخذنا؟ لنقل من فورنا سرقنا".

ذعر كين. ما الذي سرق؟ ليس التنورة بكل تأكيد؟ كانت كل مرافعته ضد الشبح مبنية على التنورة وإبادتها من ثم في فم كلب الجزارين. أعلن بصوت واثق: "عثر على التنورة في موقع الجريمة".

"موقع الجريمة؟ هذه الكلمة تدينكم من فمكم." تناوب رجال الشرطة المجتمعون الإيماء. "أنا أعتبركم إنساناً مثقفاً. هل تعترفون، أنه في كل موقع جريمة توجد جريمة؟ لكن عليّ أن أنبّهكم إلى الانطباع غير الحميد. نيّتي صافية تجاهكم. سيكون وضعكم أفضل إذا اعترفتم. إذاً، دعنا نعترف أيها الصديق. اعترفوا، نحن نعرف كل شيء. لن يفيدكم الإنكار في أيّ شيء. لقد خرجت كلمة موقع الجريمة من فمكم دون قصد. اعترفوا، وأنا سأقول كلمة طيبة بحقكم. احكوا كل شيء بالتسلسل. لقد قمنا بتحرياتنا. وماذا تستطيعون أن تفعلوا أنتم؟ لقد ورّطتم نفسكم بنفسكم. في كل موقع جريمة توجد جريمة. معي حقّ يا سادتي، أليس كذلك؟"

حين يقول يا سادتي، يعرف السادة أنه يمسك قوس النصر بيديه ويهيلون عليه نظرات الإعجاب. يسرع أحدهم ليسبق الآخرين. يقرّ فنان الذاكرة أنه لن يستفيد شيئاً ويغيّر خططه القديمة. يسرع قبل الجميع، يتلقف يدي رئيس المخفر السعيدتين ويهتف: "سيدي رئيس المخفر، اسمحوا لي بتهنئتكم!".

t.me/yasmeenbook

طبعاً يعرف رئيس المخفر أنه قام بإنجازات لا تضاهى. كإنسان متواضع يتفادى التشريفات. واليوم تغلبه. شاحباً ومنفعلاً ينهض، ينحني في جميع الاتجاهات، ينازع للعثور على الكلمات ويلخص تأثره بجملة بسيطة: "أشكركم يا سادتي!".

"كشفه"، يقول الوالد، فهو عنده إحساس بالمشاهد العائلية.

يودّ كين أن يبدأ الكلام. لقد طلبوا منه أن يروي كل شيء بالتسلسل. وما الذي يتمنّاه أفضل من هذا؟ يعود مرّة تلو الأخرى للانطلاق. يقطع التصفيق كلامه. يتحاشى الردّ على انحناءات الشرطة التي يظن أنها موجهة إليه. يقاطعه الناس حتى قبل أن يبدأ. يتشمّم من وراء سلوكهم الغريب محاولة للتأثير عليه. لا يلتفت مع أنه يحسّ بالحركة خلف ظهره. ينوي أن يظهر كامل الحقيقة. بذلك سيكون موقفه أهون في المحكمة، لكن ما يهمّه ليس التهوين. يفضّل أن يصور تفاصيل موتها الذي شارك فيه بطريقة حاسمة. يجب أن يعرف السارد كيف يخلب ألباب الشرطة، فهم يحبون أن يسمعوا ما هو في إطار اختصاصهم. القتل من اختصاص كل البشر. هل هناك من لا يفرح بالقتل؟

أخيراً يجلس رئيس المخفر، ينسى على ماذا، بل ولا ينظر إلى وضعية "الملكية الخاصة". ومنذ أن أدان المجرم، يكرهه أقل. يفكر أن يتيح له فرصة الكلام. لقد غيّر النجاح مسار حياته. في وجهه أنف عادي. بل ينسى المرآة في أعماق الجيب، لا نفع منها. لماذا يعذّب البشر أنفسهم هكذا؟ الحياة أناقة. يومياً تظهر نماذج جديدة لأربطة العنق. ما على المرء إلا أن يعرف كيف يرتديها. أغلب الناس يبدون فيها مثل القردة. هو ليس بحاجة إلى مرآة. عملية الربط ملك يديه. ونجاحه يصادق على كلامه. إنه متواضع. أحياناً ينحني للآخرين. ناسه يجلّونه. منظره الحسن يحبّب العمل إلى قلبه. لا يلتزم مرّة بالتعليمات. التعليمات تسري على المجرمين. إنه يدينهم بسهولة، لأن تأثيره لا يعاب.

t.me/yasmeenbook

يبدأ كين: "ما إن انغلق الباب عليها حتى تيقّنت من طلوع نجمي". استفاض في الكلام، لكن في ذاته، في أعماق روحه الحازمة. يعلمُ علم اليقين كيف جرت الأحداث كلها. ومن يعلم بواعث الجريمة أكثر من المجرم؟ يرى من البداية إلى المنتهى كل حلقة من حلقات الأصفاد التي وضع فيها تيريزه. يختصر ببعض الهزء الأحداث أمام هذه القاعة المزدحمة بالراغبين في الاعتقال والغرائبية. عنده حقائق أهمّ كي يرويها، لكن يأسف لحالهم، فهم ليسوا بالعلماء، فيعاملهم معاملة المتعلمين العاديين. وربما كانوا أقلّ شأناً. يتحاشى الاقتباس عن المؤلفين الصينيين. قد يقاطعه أحدهم ويسأله عن كلمات مونغ تسه. أساساً يسرّه الحديث عن وقائع بسيطة ومفهومة للعامة. يحكّم روايته بالدقة والجفاف اللذين يمتنّ بهما لقدماء الصينيين. وبينما تيريزه تموت من جديد تعود به الأفكار إلى مكتبة ينبع منها هذا الإنجاز العلمي المبهر. يفكر في متابعته. يعتبر البراءة مؤكدة، إلا أنه يخطط أن يترافع في المحكمة بخبطة من طراز مختلف كلّياً. هناك سيكشف كل بهائه العلمي. سيصغي العالم كله حين يدلي أعظم علماء الصينيات الأحياء بدفاعه عن العلم. هنا يتحدث حديثاً متواضعاً. إنه لا ينسخ، لا يغفر لنفسه، إنما يبسط فقط.

"تركتها وحيدة عدة أسابيع. واثقاً أنها ستذوب جوعاً، قضيت الليالي في النزل. كنت أتحسّر على مكتبتي، صدِّقوني! اكتفيت بمكتبة بديلة صغيرة تكون في متناول يدي عند الحاجة القصوى. أقفال شقتي آمنة. لم أعانِ قطّ من خوف أن يفكّها اللصوص. تصوروا حالها: انتهى التموين. ملقاة هي خائرة القوى وطافحة بالبغض على الأرض، أمام تلك الطاولة ذاتها، حيث اعتادت البحث فيها عن النقود. كل أفكارها كانت مركزة على النقود لا غير. لم تكن مثل الوردة[1]. لن أسرد على أسماعكم اليوم، ما هي الأفكار

---

1) الوردة الزرقاء تعتبر من أهم رموز الرومانسية. هناك خرافة ألمانية قديمة تقول إنه يمكن العثور على الوردة الزرقاء العجيبة في الليل وبذلك على ثروات طائلة. تناول الشاعر الألماني نوفاليس (1772 – 1801) هذه الفكرة في عمله المعنون "هاينريش فون أوفتردينغن". بطل

t.me/yasmeenbook

التي كانت تتوارد عليّ حين كنت أقاسمها الشقة. اضطررت للتصلب في شكل تمثال حارس عدة أسابيع خوفاً من السطو على مخطوطاتي. كانت تلك أحطّ أزمنتي. حين يتحرّق رأسي على العمل أقول: أنت من حجر، وآمنت بهذا كي أصون ثباتي. من منكم كان لديه نفائس يحفظُها، يعرف كيف يضع نفسه مكاني. أنا لا أؤمن بالقدر. إلا أن قدرها أخذها. وعوضاً عني، الذي كادت تقتله بهجمات غادرة، غدت هي هناك، يأكلها جوعها الجنوني. لم تعلم كيف تنجو. تعوزها القدرة على تمالك النفس. افترست نفسها بنفسها. سقط جسدها ضحية للجشع قطعة قطعة. هزلت يوماً إثر يوم. عجزت عن النهوض وظلت مستلقية في فضلاتها. ربما أبدوا هزيلاً في أعينكم. كانت مقارنة بي مجرد ظل إنسان، قميئة وواهية، لو نهضت لطرَحَتْها نفخةُ هواء على الأرض، غدت مثل عود كبريت، يكسرها أضعف الضعفاء؛ بل أظن أن طفلاً كان قادراً على كسرها. لا يمكن سرد تفاصيل دقيقة. كانت التنورة الزرقاء التي ترتديها دائماً تغطي على هيكلها العظمي. كانت منشّاة واستجمعت بفضل هذه الخصلة البقايا المقزّزة لجسدها. وذات يوم أطلقت الصعداء. هذا التعبير يبدو لي أيضاً زيفاً. أغلب الظن لم يعد لها رئة. لم يكن بقربها أحد في تلك الساعات الأخيرة، ومن سيطيق الحياة جانب هيكل عظمي؟ تصبّبت قذارة. أطلقت الجروح، كما كانت تقطع اللحم من جسدها، رائحة نتنة تصل إلى السماء. بدأ التعفّن يسري في الجسد الحي. حدث هذا في مكتبتي أنا، بحضور الكتب. سيكون عليّ تعقيم الشقة. لم تختزل زمن هذه الصيرورة بالانتحار. لم يكن لديها أيّ مقدّسات، كانت غاشمة. تصنّعت الحب ما دامت تتوقع وصية. ظلت

العمل هاينريش ينجذب إلى وردة زرقاء ومن هنا بدأت رمزية الشوق في المرحلة الرومانسية. كما أن هناك حكاية صينية عن الوردة الزرقاء وهذه تمثل هنا الأحلام غير التي لا يمكن تحقيقها. تقول الحكاية الصينية إن القيصر أراد أن يزوج ابنته لكنها تمتنع وكي لا تتزوج تشترط أن يجلب لها الطالب وردة زرقاء. طبعاً يفشل الرجال في هذا. ذات يوم يصل مغنٍ إلى بلاط القيصر وتحبه الفتاة، لكنها تصطدم بشرطها الذي فرضته. يجلب لها المغني وردة بيضاء. يرى القيصر أن الوردة بيضاء لكن ابنته تصر على أنها زرقاء وبذلك تتزوج حبيبها.

t.me/yasmeenbook

تتحدث عن الوصية ليلاً نهاراً. عالجتني حتى المرض وتركتني على قيد الحياة فقط، لأنها لم تكن متأكدة من وجود الوصية. أنا لا أختلق شيئاً. أشكّ كثيراً فيما إن كانت تتقن القراءة والكتابة. صدّقوني، إن العلم يلزمني بقول الحقيقة. منبتها غامض. أغلقت الأبواب في الشقة ولم تخلّي لي إلا غرفة واحدة. وحتى هذه أخذتها مني بالنهاية. خلع البواب باب الشقة. نجح باعتباره شرطياً سابقاً، فيما كان سيفشل فيه اللصوص فشلاً ذريعاً. أعتبره إنساناً وفيّاً. وجدها في تنورتها، هيكلاً عظمياً مقرّزاً، منتناً، قبيحاً، ميتاً، ميتة تماماً، لم يُدانِه الشكّ غمضة عين واحدة في موتها. جاء بالناس، فرح جميع السكان. كان تأكيد ساعة الموت صعباً، إلا أنه مؤكد، وكان هذا ما يهمّ الجميع. ألقى خمسون قاطناً على الأقل النظرة الأخيرة على الجثة. لم يُدلِ أحدٌ بشكّ، أومأ الجميع وأقرّ كلّ منهم بما لا يمكن تغييره.

حالات التظاهر بالموت محقّقة، وأيّ عالم ينكر هذه الحقيقة؟ لكنني لم أسمع بحالات تظاهر بالموت عند الهياكل العظمية. منذ القدم يتصور الشعب الأشباح على هيئة الهيكل العظمي. وفي هذا الاعتقاد الكثير من العمق والعظمة، وهذا أيضاً مما يقبل البرهان عليه. لماذا نخشى الشبح؟ لأنه تمظهر لميت، ميت تماماً، دون شكّ، متوفىّ ومدفون. هل نشعر بالخوف ذاته إذا ظهر بجسده القديم، المألوف؟ كلا! لأننا في هذه الحال لا نرى الموت، أمامنا الحيُّ ولا شيء آخر. لكن حين يظهر الشبح على هيئة الهيكل العظمي، نتذكر شيئين معاً: الحيَّ كما كان والميت كما هو. إن الهيكل العظمي، كصورة عن الشبح، قد غدا التجسيد الحي للموت لدى شعوب لا تحصى. قوة برهانه صاعقة، إنه أكثر مواتٍ مطلق نعرفه. تقشعرّ أجسادنا أمام القبور القديمة حين يكون فيها هياكل عظمية، وإن كانت خالية لا نشعر بها كقبور. وحين نصف إنساناً حيّاً بصفة الهيكل العظمي، فإننا نعني بهذا أن نهايته أزفت.

أما هي فقد كانت كلاّنيّة الموت. تأكّد كلّ السكان من هذا، وانتشر

t.me/yasmeenbook

بينهم اشمئزاز مهول من نهايتها الجشعة. مازالوا يخافونها. كانت خطيرة جداً. بصفته الوحيد الذي برهن على من هو الرجل، رماها البواب في التابوت. ثم غسل يديه مباشرة، أخشى أنهما ستظلان متسختين إلى الأبد. لكني ومن موقفي هذا أتقدّم له بأسمى آيات الشكر على فعله الشجاع. لم يخشَ أن يشيّعها. ووفاءً منه لي طالب عدّة سكان بمساعدته على أداء واجبه الكريه. لم يتطوّع أحد. كان يكفي هؤلاء الناس البسطاء والجفلين النظر إلى الجثة ليكشفوا حقيقتها. أنا عشت بقربها شهوراً عديدة. عندما تحرك التابوت، الأبيض والأملس، على عربة متهالكة في الشوارع، شعر كل من مرّ به بمحتوياته. بعض الصبية، الذين كلّفهم خادمي الأمين ليؤمّنوا العربة من هجمات الحشد الغاضب، هربوا، ارتجفوا فرَقاً، أذاعوا الخبر معولين في شتى أنحاء المدينة. انطلقت صيحات عظيمة في الشوارع. رجال غاضبون تركوا أعمالهم، ألمّ العويل بالنساء، أطلقت المدارس سراح الأطفال، احتشد الآلاف مطالبين بقتل الجثة. لم يحدث أن قام شعبٌ مثل هذا منذ ثورة ثمانية وأربعين[1]. قبضات مرفوعة، تشتم، شوارع لاهثة وهتاف جماعي: الموت للجثة! الموت للجثة! أتفهّم هذا. الحشد مستهتر. أنا بالعموم لا أحبه. لكني أتمنى لو اختلطت به آنذاك. الشعب لا يعرف المزاح. نقمته رهيبة. أعطوه الموضوع المناسب وسيحكم بعدل. عندما فتحوا غطاء التابوت اكتشفوا الجثة، ذلك الهيكل العظمي المقزز. خفّ الغضب. لا يمكن فعل شيء آخر بالجثة. تفرّق الحشد. وحده كلب جزّارين أصر على البقاء. بحث عن لحم ولم يجده. لشدّة حنقه طرح التابوت أرضاً ومزق التنورة إلى قطع بالغة الصغر. والتهم هذه دون رحمة على آخرها. ولهذا لم تعد التنورة موجودة. ستبحثون عنها دون طائل. لأيسّر عليكم عملكم أعلمتكم بكل التفاصيل. سيكون عليكم أن تبحثوا عن بقية باقية

1) ثورة ثمانية وأربعين، تسمى أيضاً ثورة آذار، هي حركة ثورية قامت في دويلات الاتحاد الألماني وبروسيا والنمسا وغيرها من الدويلات في وسط أوروبا. استمرت الثورة من آذار 1884 إلى تموز 1849.

t.me/yasmeenbook

على مكب القمامة على أطراف المدينة. عظام، عظام رميم، أشكّ في تميّزها عن باقي القاذورات. ربما أُسعدتم حظاً. مثل تلك الوحوش لا تستحقّ دفناً محترماً. وبما أني واثق الآن من موتها، لن أشتمها. لقد ولّى الخطر الأزرق. الحمقى وحدهم يخشون الخطر الأصفر. الصين أمّ البلاد، الأرض الموعودة قبل كل أرض أخرى. آمِنوا بالموت! أنا أشكّ منذ شبابي بوجود الروح. أعتبر فكرة تقمّص الأرواح فكرة سفيهة، ومستعدّ لأن أقول هذا في وجه أيّ هندي كان. عندما وجدوها على الأرض أمام طاولة المكتب، كانت هيكلاً عظمياً وليس روحاً ....″

يصيب كين في مرافعته مقتلاً. تنحو أفكاره بين الفقرة والأخرى نحو العلم، سينال قربه من جديد، كم يتمنى لو يتوسع فيه. فهو موطنه. إلا أنه يتراجع كل مرة – يقول لنفسه، لنؤجّل المتع حتى تعود إلى ديارك. الكتب في الانتظار، الأبحاث في الانتظار، لقد خسرت الكثير من الوقت. إرادته تطوع كل الدروب إلى الأرض المهاد أمام مكتبه. حين يرى هذا، تنفتح أسارير وجهه، يبتسم للميتة، إنها صورة وليست خيالاً. يتوقف عندها بكل حب. بصعوبة يلاحظ تفاصيل الأحياء، تشتغل ذاكرته أمام الكتب فقط. وإلا لكان فيه رغبة أن يصفها بتفصيل أكثر. وفاتها ليست أمراً عادياً، إنه حدث. إنه الخلاص الأبدي للإنسانية المضطهدة اضطهاداً رهيباً. رويداً رويداً يبدأ كين بالاستغراب من كرهه. إنها لا تستحقّه. كيف يكره المرء هيكلاً عظمياً يرثى له. لقد انتهت إلى الحضيض بسرعة. لا تزعجه سوى الرائحة التي التصقت بالكتب مذّاك. لا بد من التضحية. سيعرف كيف يزيلها.

فقد رجال الشرطة الصبر منذ زمن بعيد. ما زالوا يستمعون فقط احتراماً لرئيسهم، لكن يصعب على هذا الرجوع إلى حصافة التحقيق. حين يحمل كأس النصر في اليد التي اعتادت النصر، لا يعجبه النثر الجاف. يودّ الآن أن ينكش في أربطة عنق جديدة، برسومات متنوعة، حرير صافٍ بضمان، ويختار أجملها على الإطلاق، فذوقه رفيع. يعرفه جميع أصحاب المحلات،

t.me/yasmeenbook

يحقّ له تقليب البضاعة عدة ساعات، فهو يفهم كيف يختبر ربطات العنق دون أن يجعدها، ولهذا يعرضون عليه كل البضاعة. وبعضهم يرسلها إلى بيته. وهو لا يحبذ هذا. يريد الوقوف أياماً وأياماً والتحادث مع المدير في المحل. عندما يأتي يتركون زبائنهم. مهنته تأتيه بأقاصيص مثيرة وهو يسردها. يحب الناس سماع ما يقوله. للأسف، ما عنده وقت وإلا لعرف كيف يستغلّها. غداً سيخرج في جولة. خسارة أن اليوم ليس غداً. إنه مضطرّ للاستماع أثناء كل تحقيق. وهو لا يفعل هذا من حيث المبدأ، فهو يعرف كل شيء سلفاً. لقد أثبت إدانته، لا أحد يستطيع أن يغشّه. أعصابه منهارة بسبب العمل الشاق. مع أنه يفترض أن يكون راضياً. فقد حصل على نتائج جيدة وهو مسرور بربطة العنق الجديدة.

يصغي البوّاب. لم يخِب ظنه في السيد البروفسور. يشي بقيمته. لكنه ليس خادماً. إنه وفيّ صحيح وإذا أراد فإنه ابن السلك. يستطيع فتح أي شقة. لا يقف أي قفل بوجهه، لأنه يكسر الأبواب كسراً، وذلك بقبضته. يوفر كعب الحذاء، غير مضطرّ للركل. غيره يستخدم قدمه مباشرة، أما هو فعنده قوة في كل مكان.

تيريزه قرب كين. تهضم كلماته بصعوبة. تحرّك قدماً تلو الأخرى تحت التنورة في حركة دائرية دون أن تتحرك من مكانها. هذه الحركة عديمة المعنى تعني عندها الخوف. إنها تخاف الرجل. سكنت معه ثمانية أعوام في شقته. يبدو لها مع تقدم الوقت أكثر إجراماً. سابقاً لم يكن ينبس بكلمة. والآن ينبس بجرائم قتل. يا للإنسان الخطير! حين يأتي على ذكر الهيكل العظمي أمام طاولة المكتب تسرع للقول في نفسها: هذه كانت الزوجة الأولى. هذه أيضاً كانت تريد الحصول على وصية، كانت شاطرة، لكن الإنسان الجبان لا يعطي شيئاً. التنورة إهانة. وأين بالله يفترس كلبٌ التنانير؟ يريد قتل كل النساء. دائما يضربنه لكنّه لا يشبع. يختلق الأكاذيب. هو من أهداها الغرف الثلاث. وماذا تستفيد هي من المخطوطات؟ كل

t.me/yasmeenbook

ما تريده هو دفتر الحساب. الكتب تفوح برائحة الجثث! لم تلاحظ هذا قطّ. فقد ظلت تمسح عنها الغبار ثمانية أعوام متتالية يومياً. على الشارع صرخ الناس عند التابوت. لا أحد يعمل هذا مع الجثث. يتزوج عن حب ثم يقتل زوجاته. مثله يستحق المشنقة. هي لن تقتل أحداً. لأنها لم تتزوجه عن حب. وهو يريد أن يعود إلى شقتها! إنها تخاف منه. هو الذي يفكر في النقود لأنه لا يتنازل عن قرش. قصة التنورة الزرقاء كذبة. كلّ ما يريده هو أن يزعجها. لن يستطيع قتلها. الشرطة موجودة. يعنّ على بالها البكاء. المرأة بالنسبة له مثل الحيوان. إنها ضحيته. بين السادسة والسابعة كان دائماً وحده. وهنا قتلها. ليدع طاولة المكتب وشأنها. وهل وجدت فيها شيئاً؟ البوّاب يُريها من هو الرجل. تريد عربة جميلة. التابوت يجب أن يكون أسود. ولا بد من وجود أحصنة.

يتسارع خوف تيريزه. مرة يقتل الزوجة الأولى ومرة يقتلها هي. تقصي صورة التنورة عن الجثة، التنورة أكبر عوامل قلقها، تحزن للزوجة الأولى لأنه يتعامل مع التنورة بهذا اللؤم. تخجل من التشييع التعيس. تكره كلب الجزارين. الناس غير محترمين، أولاد المدارس لا يحصلون على عقوبات كافية. يجب على الرجال أن يعملوا، النساء لا يعرفن الطبخ. ستقول لهن الحقيقة في وجوههن. وما علاقة سكان البناية بهذا؟ كلهم يأتون ليتفرجوا. تبتلع كلماته مثل خبز قاسٍ. تستمع كي لا تخاف. بغمضة عين توفق تصوراتها مع جُمله. تشعر بالدوار لشدّة التفكير. لم تعتد هذه السرعة. لولا الخوف الذي يعذّبها لافتخرت بفطنتها. عشر مرات تريد التقدم لتقول له ما هو، إلا أن الخوف من أفكاره يرغمها على التزام الهدوء. تحاول أن تخمّن ما الذي سيعقب وهو يباغتها. يضيق عليها الخناق. تدافع عن نفسها، هي ليست غبيّة، وهل تنتظر حتى تختنق؟ كلا، عندها وقت حتى تبلغ الثمانين لتموت، بعد خمسين سنة. ليس قبل هذا. هكذا يريد السيد غروب.

t.me/yasmeenbook

ينهي كين خطبته بإيماءة كبرياء. يرفع ذراعه عالياً، سارية دون علم. يمطّ جسمه، تطقطق عظامه، يوجز صوته واضحاً وواثقاً: "عاش القتل!".

على هذا الهتاف يستيقظ رئيس المخفر. ملولاً يدفع ربطات العنق جانباً، مجموعة كاملة، كان قد اختار أجملها. ومن أين له الوقت ليلتقطها؟ يدعها تختفي لأوقات أفضل.

يقول: "انظر يا عزيزي! كما أسمع، توقفنا عند القتل. يفضّل أن تعيد الحكاية من أولها".

يتدافع رجال الشرطة. له نكاته. تتجاوز قدم تيريزه الدائرة. لا بد أن تقول شيئاً. يجد عبقري الذاكرة أنه قد وصل إلى غايته. يتذكر كلّ كلمة قيلت. يفكّر أن يعيد أقوال السجين بنفسه. يقول: "تعب" ويشير بكتفه باستهانة نحو كين. "أنا أقوم بهذا أسرع". تسبقه تيريزه: "رجاء، راح يقتلني!". تتحدث نتيجة الخوف بصوت خفيض، يسمعها كين، ينكر وجودها. لا يتلفت إليها. مستحيل، ولماذا؟ إنها ميتة. تنادي تيريزه: "رجاء، أنا خائفة". يصرخ فيها العبقري غاضباً من الإزعاج: "ومن يفترسك أنت؟!". يهدئ الأب: "المرأة بطبعها من الجنس اللطيف"، وهذا شعار استمدّه من آخر موضوع إنشاء كتبه ابنه. يستخرج رئيس المخفر مرآته، يتثاءب ويتنهّد: "لكن، أنا الآن تعبان". يفلت منه الأنف، لم يعد يعبأ بأي شيء. تيريزه تصرخ: "رجاء، لازم يختفي!". ما زال كين يقاوم صوتها. إلا أنه يتنهّد بصوت عالٍ. يملّ البواب من الندب. يصرخ من الخلف: "سيدي البروفسور، الوضع ليس بكل هذا السوء، كلنا أحياء. وكلنا أصحّاء". لا يستطعم الموت. هكذا طبيعته. يتقدم بخطوات كبيرة. يتدخل.

قال إن السيد البروفسور شاطر. كل هذا من وراء الكتب. إنه يخلط الأشياء. وهو رجل مشهور وطيب القلب فوق هذا، عليهم ألا يصدقوا منه كلمة واحدة. مستحيل يكون قتل. ومن أين يأتي بالقوة؟ يقول هذا

t.me/yasmeenbook

فقط لأن المرأة لا تستحقه. ما يقوله موجود في الكتب. يعرف كل شيء. يخاف حتى من الدبوس، والمرأة جعلت حياته مراراً. الخنزيرة شريرة. تعطي نفسها لأيٍّ كان وترفع رجليها تحته. ويؤدي اليمين القانونية على هذا. بعد أسبوع واحد من غياب البروفسور أغوته. إنه من السلك، متقاعد ويعمل إضافة إلى هذا بوّاباً. اسمه بينيديكت بفاف. يسكن الدار رقم 24 في شارع إرليش منذ أن تسعفه الذاكرة. على المرأة أن تتراجع عن الكذب بشأن السرقة. تزوجها السيد البروفسور شفقة عليها لأنها كانت خادمة. غيره كان سيكسر رأسها. نفقت أمها في الزبالة. كان عليها حكم بتهمة الشحادة. ما كان عندها علف لتعلفه. يعرف هذا من البنت. حكت له هذا في السرير. لسانها يحكي عن خمسين. السيد البروفسور بريء، يقسم براتب التقاعد. يكفله. يقدر ابن السلك على هذا. لقد أثّث في حجرته مخفراً سيدهش به الزملاء: طيور كناري وعين سحرية. على الإنسان ألّا يتوقف عن العمل. من لا يعمل يصبح عبئاً على الدولة.

استمع إليه الجمع منذهلاً. ثقبت زمجرته كل أذن. فهمه حتى الوالد. هذه كانت لغته، رغم كل الإعجاب بالابن الكاتب لمواضيع الإنشاء. بل ثار بعض الاهتمام حتى في رئيس المخفر ذاته. أقرّ أن الأحمر من الشرطة. الإنسان العادي لا يصرخ ويتواقح في مخفر. حاولت تيريزه أن تعترض أكثر من مرة. كانت كلماتها ضعيفة. صارت تنزلق مرّة إلى اليمين ومرّة إلى اليسار حتى أمسكت قفطان كين. جرّته كي يلتفت، ليشهد ما إن كانت خادمة أم مدبرة منزل. راحت تبحث عن المساعدة عنده، معه ظنّت نفسها غير متأذّية بمسبّات الرجل الآخر. تزوجها عن حب. وأين راح الحب الآن؟ صحيح أنه قاتل، لكنه يقدر على الكلام. لا تسمح لأحد أن يسمّيها خادمة. إنها منذ أربعة وثلاثين عاماً تعمل في التدبير المنزلي. وهي ربة بيت محترمة منذ حوالي سنة. عليه أن يقول شيئاً! عليه أن يستعجل! وإلا لحكت عن سرّه بين السادسة والسابعة.

t.me/yasmeenbook

قرّرت في سرّها أن تخونه ما إن برهن لها على ما تستحقّ، الحب. كان الوحيد الذي يسمع كلماتها. رغم الصراخ الهائل يسمع صوتها، خفيضاً، إلا أنه مثل عهده مستاء. شعر باليد الخشنة على قفطانه. بحذر، لا يعرف نفسه كيف، شدّ عموده الفقري، أدار الكتفين وضيّقهما، خرج من الكُمّين، طرحه بأصابعه على الأرض وتحرّر فجأة بعد آخر دفقة من القفطان، ومن تيريزه. لم يعد يشعر بها. إذا أمسكت بصديريه سيفعل الشيء نفسه. لم يسمّ في أفكاره لا الخيال ولا هي. تحاشى اسمها وتحاشى صورتها، ما زال يعرف ماذا يقاوم.

كان البواب قد أنهى خطبته. ودون أن ينتظر أثرها، لأنهم ليس بيدهم شيء ضده، دخل بين كين وتيريزه وزمجر: "كشّ كشّ!". جرّ القفطان من يديها وألبسه البروفسور مثل الرضيع. صامتاً أعاد رئيس المخفر النقود والأوراق وعبّر عن أسفه على الخطأ، لكنه لم يشكّ لحظة واحدة في نجاح التحقيق. شكّ عبقري الذاكرة في بعض الأقوال، لكنه حفظ بجميع الأحوال خطاب الأحمر وعدّ مختلف النقاط التي احتواها على أصابعه. اختلطت أحاديث رجال الشرطة. أدلى كلٌّ منهم برأيه. قال أحدهم، من مكثري الحكم والأمثال: "الشمس تطلع بالنهار". وخرجت هذه الجملة من جميع القلوب. ضاعت خدمات تيريزه طوال أربعة وثلاثين عاماً في قصف الأصوات. خبطت الأرض بقدمها. أخيراً أعارها السمعَ الوالدُ الذي ذكّرته بأخت زوجته؛ وثمار محرّمة. أرجوانية الوجه وبصوت زاعق برّرت لنفسها بالأرقام. يستطيع الزوج أن يشهد على هذا، وإذا لم يفعلها هو فستأتي بالسيد غروب، من شركة الأثاث غروب وحرمه. لقد تزوج قبل وقت قصير. ارتعش صوتها عند "تزوج". لكن لم يصدقها أحد. ظلت مجرد خادمة وطالبها الوالد بموعد، في الليلة ذاتها. سمع البواب هذا وأعلن قبل أن تجيب أنه موافق. بيّن للزميل بودّ: "لأجل هذا تركض إلى البرازيل". فأمريكا ليست بعيدة كفاية بالنسبة له. ثم تطلّع حوله مبتسماً وهامساً في المخفر،

t.me/yasmeenbook

واكتشف على الجدران ملصقات للاعبي الكاراتيه. زمجر: "على أيامي كان هذا كافياً"، كوّر قبضته ودسّها تحت أنوف أكثر من زميل معجب. "إيه، يا زمن!"، قال الوالد وهو يدغدغ حنك تيريزه. سيكون مستقبل ابنه أفضل. تحقّق رئيس المخفر من هوية كين. تبين له أن هذا بروفسور، شعر من فوره بأنه ابن عائلة راقية، وطبعاً مثله يحمل النقود كالقش في جيبه. غيره كان سيعرف كيف يلمّع نفسه. وله منظر الشحاد. الدنيا ظالمة. قالت تيريزه للأب: "موافقة، لكن الأول تقول لي ربة بيت". كانت تعرف أنها تبدو في الثلاثين، لكن الإهانة كانت عميقة لا تزال. كان كين يبحلق في رئيس المخفر جامداً ويصغي إلى قرب كلماتها أو بعدها.

عندما قرّر البواب الذهاب وتناول كمّ البروفسور برفق، هزّ هذا رأسه وتمسك بقوة مدهشة بالطاولة. حاولوا جرّه إلا أن الطاولة ذهبت معه. فصرخ بينيديكت بفاف في تيريزه: "انقلعي، يا شرموطة!" وأضاف متوجّهاً إلى الزملاء: "لا يستطعم الحرمة". أمسك الوالد بتيريزه وأخذها خارجاً تحت الضغط وهو يروي لها مختلف أصناف النكات. استاءت وهمست له، عليه ألا يتركها ترتاح في المستقبل. وعلى الباب استجمعت بقايا صوتها وقالت: "وهل القتل شيء هيّن؟ هل القتل شيء هين؟". تلقّت قبلة على الفم وتزحلقت بأقصى سرعة إلى البيت. لن تسمح بدخول قاتل إلى بيتها. أقفلت بسرعة، مرتين في الأسفل، مرتين في الأعلى، ومرتين في الوسط. وتطلعت لتتأكد من عدم وجود مجرمين في البيت.

'لكن عشرة رجال شرطة لا يستطيعون تحريك البروفسور. يهوّن عليه البواب: 'لكن هي راحت" ويرمي رأسه، مثل نرد، ناحية الباب. يصمت. يتطلع رئيس المخفر في أصابعه. إنها شرسة، تحرّك طاولته من مكانها وإذا ما استمر الوضع على ما هو عليه، سيخسر هيبته. ينهض، الوسادة أيضاً تحركت في مكانها. يقول: "يا سادتي، هذا لا يجوز!". يحيط دزينة شرطة بكين ويحادثونه بلطف كي يترك الطاولة. يقول أحدهم: "بيدك

t.me/yasmeenbook

تصنع قدرك". يعد الوالد بأن يطرد من الحرمة كل عفاريتها؛ وهذا اليوم مساء. يصادق العبقري على كلامه: "على الرجل أن يتزوج فقط من عائلة محترمة". قائلاً إنه لن يتزوج إلا امرأة معها مال، ولهذا ليس له زوجة بعد. يقود رئيس المخفر العرض ويفكر: ما شأني أنا بالموضوع؟ يتثاءب ويحتقر الجميع. يزمجر بينيديكت بفاف: "لا تجلب لي العار، يا سيدي البروفسور، وتعالوا معي بكل هدوء. الآن نروح إلى البيت!". يظل كين صامداً.

لكن هنا يكتفي رئيس المخفر. يأمر: "اخرجوا!". يهجم الاثنا عشر، الذين كانوا إلى الآن يحاولون إقناع كين، على الطاولة. يهزّون كين مثل ورقة ذابلة. لا يسقط. يبقى متجذراً. لا يستسلم لهم. عوض الكلمات عديمة النفع، يخرج منديله ويربطه على عينيه بنفسه. يشد العقدة حتى تؤلمه. يقوده صديقه من ذراعه خارجاً.

ما إن ينغلق الباب، حتى يضع العبقري يده على جبينه ويعلن: "المجرم كان الرابع". يقرّر المخفر أن يشدّد من اليوم فصاعداً المراقبة على خادم المصعد في تيريزيانوم.

على الطريق عرض البواب حجرته على السيد البروفسور، قائلاً إنه قد ينزعج في الشقة، ولماذا وجع الرأس! إنه الآن بحاجة إلى الهدوء. قال كين: "نعم، أنا لا أحب تلك الرائحة". سيعتمد هذا الاقتراح حتى يتم تعقيم الشقة.

t.me/yasmeenbook

الصغير

أمام تيريزيانوم لقي فيشرله، الذي نجح في الهروب، استقبالاً غير متوقع. عوض موظفيه، الذين كان يخاف على مصيرهم، ومن حبهم للثرثرة، تدافع على البوابة جمعٌ مضطرب. ثغا عجوز اكتشفه: "المكرسح!" وانكمش بقدر ما تسمح له أعضاؤه المتصلّبة. ذعر من المجرم، الذي أشهرته الإشاعة قزماً عملاقاً. منكمشاً على نفسه كان بطول هذا. سمعت امرأة استغاثة العجوز الخافتة وضخمتها. هنا سمعها الجميع، وانبثّ فيهم حافز الرغبة في فعل عام. ذاع في الساحة: "المكرسح! المكرسح! المكرسح!".

قال فيشرله: "فرصة سعيدة" وانحنى احتراماً. من جمع غفير يمكن لملمة ثروة هائلة. ممتعضاً من خسارة المال الكثير الذي أودعه جيب كين، أمل أن يجد تعويضاً هنا. ما زال يشعر بالدوار من الخطر السابق ولم يحدس باللاحق من فوره. سرّه هو أيضاً ذلك النداء المثير الذي حاصره. هكذا تماماً سيطلّ من قصر الشطرنج في أمريكا. ستعزف الموسيقا، سيصرخ البشر، وهو سيسرق الدولارات من جيوبهم. سيخيّب أمل الشرطة، لن يكون لها إلا أن تقف موقف المتفرج. لن يقبضوا عليه. المليونير معبد مقدّس. ينتظر مئات رجال الشرطة ويحاولون بكل أدب أن يقوموا على خدمته. أما هنا فلا يتفهّمونه إلا قليلاً. لقد تركها في الداخل. عوض الدولارات وجد فقط قطعاً نقدية صغيرة، لكنه يرضى بكل شيء.

وبينما هو يستكشف ساحة الوغى، أزقّة قد يهرب عبرها، جيوباً قد يمدّ يده إليها، أقداماً قد ينقذ نفسه في ظلها، تحوّل الإعجاب إلى خطر

t.me/yasmeenbook

محدق. كلٌّ أراد حصته من سارق عقد اللؤلؤ. حتى أكثرهم هدوءاً فقد اتزانه. تجرّأ على الدخول بين ناس عرفوا من هو. سحقه الرجال هريساً. ذرته النساء في البدء ثم معسنه. رغب الجميع في إفنائه حتى لا يبقى منه سوى وصمة العار التي كانها، لا شيء آخر. لكن يجب رؤيته قبل ذلك. فحتى لو صاحت آلاف الحناجر المأخوذة به "المكرسح"، لم يره منهم سوى دزينة بأقصى حدّ. فالدرب إلى مغارة الأقزام كانت معبّدة بإخوة طيبين في البشرية. الجميع يبتغونه، الجميع متعطشون إليه. رفع الآباء المتوجسون أطفالهم فوق الرؤوس. فقد يداسون، كما أن عليهم أن يختبروا الحياة. عصفوران بحجر واحد. آخذهم الجيران لأنهم لا همّ لهم حتى في هذا الوقت العصيب إلا الأطفال. تجاوزت الكثير من الأمهات أطفالهن، تركنهم يبكون على راحتهم، لا يسمعن سوى: "المكرسح".

رأى فيشرله أنهم يبالغون في الضجيج. عوض: "عاش بطل العالم"، كان الناس يصيحون: "المكرسح!". ولم يوافقهم على أن يعيش هذا بالذات. دُفع من جميع الجهات. يفضّل أن يقلّلوا من الحب ويزيدوا في العطاء. فهو بهذه الطريقة لن يطال شيئاً. هنا يسحق أحدهم أصابعه، هناك لا يعرف بعد أين حدبته. السرقة بيد واحدة خطرة جداً. هتف: "يا ناس، أنتم تحبونني أكثر من اللازم". لم يفهم سوى جيرانه المقربون. لكن أحداً لم يتفهّم عبارته. لقّنته الدفعات عبراً، وأقنعته الركلات. لقد فعل مكروهاً ما؛ لو يعرف فقط ما هو. هل كشفوه سلفاً؟ نظر إلى يده الحرة. لا، لم تدخل بعد في أي جيب. دائماً ما كان يجد صغائر: مناديل، أمشاط، مرايا. كان لا يني يلتقطها ليرميها انتقاماً من تفاهتها. لكن يده الآن فارغة فراغاً شائناً. ما الذي خطر للناس إذاً كي يضبطوه بريئاً؟ لم يسرق شيئاً بعد واستبقوه ركلاً. يلكزونه من فوق ومن تحت يرفسونه، وطبعاً تقرص الحريم حدبته. لم يكن كل هذا يؤلمه، فهؤلاء الأغبياء لا يعرفون ما معنى الضرب. لو أرادوا لتعلموا الضرب في السماء مجاناً. لكن، بما أن أحداً لا يعلم

t.me/yasmeenbook

الغيب وكثيراً ما برهن المبتدئون، الأغرار ظاهرياً، فجأة، على أنهم خبراء في الضرب، بدأ فيشرله بالنواح. عادة ما كان ينعق، لكنه عند الضرورة، كما هو الحال الآن، يصدر صوتاً يشبه صوت الرضيع. كما كان له قدرات الرضيع الحقيقي على الاستمرار. ارتبكت امرأة قريبة منه وتلفتت حول نفسها. كان طفلها في البيت. خافت أن يكون قد لحق بها واختلط بين البشر. بحثت عنه بالعينين والأذنين، دون طائل، تمطّقت بأصوات مهدئة كما عند عربة الأطفال، ثم هدأت هي ذاتها أخيراً. أما الآخرون فلم يرتضوا أن يلتبس عليهم سفاح بلبوس الرضيع. خافوا أن يزاحمهم آخرون فقد كان التدافع قوياً. واستعجلوا. ضعفت ضرباتهم وغدوا يخطئون الهدف كثيراً. إلا أن جدداً دخلوا الحلبة بالنيّة ذاتها. عموماً لم يكن فيشرله راضياً. كان يمكن له أن يتخلص منهم بكل سهولة إن أراد، ما عليه إلا أن يمدّ يده إلى إبطه ويوزع الأوراق النقدية بينهم. ربما كانوا طامعين فيها. طبعاً، تاجر الشنطة، الأناني، الأفعى الدنيئة، هو من ألّب الناس عليه وها هم يريدون أمواله. ضغط ذراعيه على جسده بشدة، مستاء من الصفاقات التي يتحملها مديرو اليوم من موظفيهم. أما هو فلن يرضى، سيبعث بالأفعى إلى الشيطان، إنه مفصول من العمل، كان سيفصله بجميع الأحوال. قرّر أن ينطرح ميتاً. إذا فتش المجرمون جيوبه، فسيعرف ما الذي يريدونه منه؟ إذا لم يفتشوه، فسينصرفون عنه لأنه ميت.

إلا أن التفكير في خطة أكثر سهولة من تنفيذها. جاهد لكي يسقط. أوقفت ركب المحيطين به حدبته عن السقوط. الوجه وجه المحتضر، الأرجل المقوسة انحنت، في مكان الفم، بالغ الصغر، أطلق الأنف الصعداء، العيون المحكمة انفتحت متصلبة وكسيرة. لكن كل التحضيرات جرت مبكراً جداً. فشلت الخطة على الحدبة. سمع فيشرله ما يتهم به. حلت كارثة على رأس البارون المسكين. لا يستحق ما جرى له بسبب عقد لؤلؤ. الروع الفظيع للبارونة الشابة. لقد تلفت حياة المرأة منذ الآن،

t.me/yasmeenbook

دون زوج. ربما ستتخذ زوجاً ثانياً. لا أحد يستطيع إرغامها. الأقزام يسجنون عشرين عاماً. يجب العودة إلى تطبيق عقوبة الإعدام. يجب القضاء على المكرسحين. كل المجرمين مكرسحون. لا، كل المكرسحين مجرمون. لماذا ينظر هذه النظرة البليدة كالأبرياء. يفضّل أن يعمل عملاً ما. عليه ألا يختطف لقمة الناس من أفواههم. ماذا سيفعل باللؤلؤ، هذا المكرسح؟ كما يجب جدع أنفه، أنف اليهود. غضب فيشرله، هؤلاء الناس يتحدثون عن عقد اللؤلؤ كما يتحدث الأعمى عن الألوان. لو أن عنده واحداً!

هنا ارتخت الركب الغريبة فجأة، تحرّرت حدبته، وهبط أخيراً على الأرض. تيقّن بعينيه الكسيرتين أنهم تركوه. حتى بينما كانوا يشتمونه بدا له التدافع أقلّ ضعفاً. ارتفعت حدّة صرخات: "المكرسح"، لكنها أتت من ناحية الكنيسة. قال معاتباً: "تشوفون!"، نهض وتطلّع في آخر الأنصار الذين بقوا له. "الصحيح الذي تبحثون عنه"، تعقّبت أنظارهم يمناه التي تشير صوب الكنيسة، باليسرى نشل بسرعة البرق ثلاثة جيوب، باحتقار رمى المشط، الشيء الوحيد الذي وجده، وفرّ.

لم يعلم فيشرله لمن يدين بخلاصه. كانت الصيادة تنتظره برفقة الآخرين في المكان المعتاد، وهي الوحيدة التي طال عليها الانتظار.

فمنظف القنوات لم يلاحظ أساساً كم غاب المدير. كان يستطيع أن يظل ساعات طويلة على قدميه منتظراً، ويستطيع كذلك أن يظل طوال الوقت دون أن يفكر بشيء. لا يعرف الملل ولا السمر. يستغرب من جميع البشر لأنهم إما بطيئون أو سريعون. كانت زوجته توقظه، كانت زوجته ترسله خارج البيت، كانت زوجته تستقبله. كانت هي ساعته وقيامه. يشعر بأقصى السعادة حين يكون سكران، لأن ساعة الآخرين أيضاً تنقضي حينئذٍ.

كان "الأعمى" يتسامر خلال الانتظار مثل الملك. كان مغترّاً بالبقشيش العالي أمس ويطمح ببقشيش أعلى اليوم. وبما أنه سيكون قد كسب

t.me/yasmeenbook

تقريباً ما يكفيه، يفكر أن يستقيل من شركة زيغفريد فيشر ويفتتح محلاً خاصاً. يجب أن يكون شاسعاً، يكفي، لنقُل، لتسعين بائعة. هو بذاته سينتقيهن. لن تُقبل من هي أقل من تسعين كيلو. هو الرب ويحق له أن يختار من يشاء. يدفع أعلى الأجور، يستنزف الأثقل من المنافسين. وأنى ظهرت واحدة تسمع من فورها الإشاعة، وهي حقيقة: في محل يوهان شفير يحصل العامل على أجر أفضل. صاحب المحل، وهو أعمى سابق، ربّ عمل حادّ البصر. يعامل كل واحدة منهن كأنها زوجته. بهذا تهجر الرجال الآخرين وتقبل عليه. في محله يمكن شراء كل الحاجيات: فزلين، أمشاط حقيقية، شبكات الشعر، مناشف نظيفة، قبعات للرجال، طعام الكلاب، نظارات سوداء، مرايا للجيب، كل ما تشتهي النفس. الأزرار فقط غير متوافرة. سيكتب على كل الواجهات بحروف كبيرة: هنا لا تباع الأزرار.

تاجر الشنطة كان يفتش في الكنيسة عن المخدّرات. شعوره بقربها ينعسه. طالما وجد علباً سرّية، لكنه يدرك أنها ليست ما يبحث عنه. إلى هذه الدرجة كان نبيهاً.

كان الرجال الثلاثة صامتين. والصيادة هي الوحيدة التي تعبّر عن مخاوف تتفاقم. لا بد أن شيئاً جرى لفيشرله. لم يأتِ بعدُ وهو، يا حرام، صغير. هو عند كلمته. قال إنه سيعود بعد خمس دقائق. صباح اليوم ورد في الجريدة حادث، فتذكّرته على الفور. اصطدمت قاطرتان. ماتت إحداهما وجرّوا الأخرى بإصابات بليغة. ستذهب فوراً وترى. لولا أنه منعها لذهبت. لقد اعتدوا على فيشرله، لأنه مدير كبير. يكسب مصاري كثيرة ويحملها كلّها معه. تقول، إنه استثناء. زوجته ألّبت عليه الأعداء، لأنه لم يحبها قطّ. إنها عجوز جداً بالنسبة إليه. كل ما عليه أن يطلّق، كلّ من في السماء تتمنّاه. يتجمع الناس أمام الكنيسة في كتلة سوداء. دعست سيارة على فيشرله. ستذهب إذاً لتطمئن عليه. على الآخرين أن يبقوا حيث هم. هو يسبّ كثيراً. تخاف من عينيه. ينظر إليها، فتودّ الهرب ولا تستطيع.

t.me/yasmeenbook

وهؤلاء الثلاثة، لا همّ لهم، إنه المدير. من واجبهم هم أيضاً أن يخافوا. هو تحت العجلات. سحقوا حدبته. راحت عليه علبة الشطرنج. يبحث عنها في تيريزيانوم لأنه بطل العالم. وهو غضبان وثائر. لا ينقصها إلا أن يمرض أيضاً. عليها أن تعتني به. فكرت في هذا منذ الصباح. لقد ورد في الجريدة. وهو لن يقرأها. ستذهب الآن، ستذهب الآن.

كانت تصمت بعد كلّ جملة وتقطّب الجبين قلقاً. ذرعت المكان جيئة وذهاباً، هزّت الحدبة، وتقدّمت، كلّما تذكّرت كلمات جديدة، من الزملاء لتتلفّظها عالياً. شعرت أن الجميع قلقون مثلها تماماً. حتى الأعمى لم ينطق بكلمة، وهو عادة لا يسدّ فمه إذا كان مزاجه جيداً. أرادت أن تبحث عن فيشرله وحدها وخشيت أن يتعقبها الآخرون. "سأعود فوراً"، نادت عدة مرات وصوتها يرتفع أكثر كلما ابتعدت. لم يتحرك الرجال من مكانهم. كانت على مبلغ من السعادة رغم ذعرها. ستجد فيشرله. عليه ألا يسمّم بدنه بالموظفين، يكفيه ما هو فيه من متاعب. أمرهم بالانتظار.

بهدوء تتسحب إلى الساحة أمام الكنيسة. انعطفت على الزاوية منذ زمن بعيد؛ عوض الاستعجال، تبطئ خطواتها القصيرة أصلاً وتدير رؤيسَها إلى الخلف متشنّجة. إذا جاء تاجر الشنطة أو أبو الأزرار أو منظف القنوات، ستتوقف في مكانها، مثل السيارة التي دهست فيشرله، وتقول: "أنا أريد أشوف فقط". ولن تكمل طريقها قبل أن يرجعوا. أحياناً تنتظر قليلاً، تتخيل أنها ترى خلف الكنيسة بنطالاً، وتكتشف أن لا بناطيل هناك وتواصل التسلّل. لم ترَ مثل كل هؤلاء البشر متجمعين منذ زمن بعيد. لو أن كلاًّ منهم اشترى جريدة، سيكفيها هذا لمدة أسبوع. حزمة جرائدها كلها في السماء، لا وقت لديها اليوم للجرائد لأنها موظفة لدى فيشرله. هو يدفع عشرين شيلينغاً في اليوم، من تلقاء نفسه، يريد هذا لأن الشركة كبيرة. تختفي لتجده. تتضاءل أكثر، إنه في مكان ما على الأرض. تسمع صوته. لماذا لا تراه؟ تتحسّس الأرض بيدها. تهمس: "ما هو صغير لهذه الدرجة"

t.me/yasmeenbook

وتهزّ رأسها. علقت وسط الناس، ولأنها تنحني، لا يرون سوى حدبتها. وكيف تعثر عليه بوجود كل هؤلاء الكبار؟ الكل يضغطونها، يضغطونه هو أيضاً، فيشرله منسحق، عليهم أن يفلتوه. لا يستطيع التنفس، يشهق، يختنق، إنه في الحضيض.

فجأة يصرخ أحدهم بجوارها: "المكرسح" ويضرب حدبتها. آخرون يصرخون أيضا، آخرون يشاركون في المعمعة. يتألّب عليها الجمع، الواقفون هنا كانوا بعيداً عن حفلة الضرب، ولهذا ينهالون أقوى فأقوى. تسقط الصيادة على الأرض. تنبطح وتسكن. تُضرَب ضرباً مبرحاً. يقصدون الحدبة ويضربونها في كل الأنحاء. ينسحب الجمع البعيد ويلتمّ حولها. لا أحد يشكّ بصحة الحدبة. يفرغ الحشد غضبه فيها. طالما تتحمل، ترتعش الصيادة على نصيب فيشرله وتتأوّه: "هو الشيء الوحيد الذي أملكه في الدنيا". ثم يغمى عليها.

كان وضع فيشرله جيداً. التقى أمام الكنيسة بثلاثة من موظفيه الأربعة. الصيادة غائبة. "أين هي؟" سأل باسطاً يده الممدودة على ارتفاع بطنه، يقصد الصغيرة. ردّ تاجر الشنطة بسرعة بديهة: "هربت"، كان نومه خفيفاً. قال فيشرله: "طبعاً، حرمة. ما تقدر تنتظر، عندها شغل، مشغولة الآنسة، راح عليها الراتب، خرب بيتها، كل الحريم مكرسحات". قاطعه الأعمى مهدّداً: "اتركوا نسواني بحالهن، أستاذ فيشرله. نسواني ما مكرسحات. لا تسبّوا!". كاد أن يبدأ بتصوّر لوحة محله، ولقنته نظرة على المنافسين عبرة أخرى. اكتفى بذكر: "عندي الأزرار ممنوعة بقرار من الشرطة" وسكت. "راحت"، دمدم منظف القنوات. جاء هذا الجواب العنيف، الذي انتهى من صياغته توّاً، ردّاً على سؤال فيشرله الأول.

إلا أن المدير رسم على وجهه تجاعيد الهمّ. خسف رأسه في صدره وتغرغرت عيناه الموسعتان بالدموع. نقل أنظاره من أحدهم إلى آخر منقبضاً وسكت. ضرب نفسه بيمناه، عوض أن يضرب الجبهة ضرب الأنف،

t.me/yasmeenbook

وارتعشت الرجلان المقوستان بقوة تضاهي قوة ارتعاش الصوت عندما تكلّم أخيراً وبكى: "يا حضرات، خرب بيتي. عميلي غشّني!" -هنا مرّ تيار من السخط بجسده الفصيح - "تعرفون ماذا؟ لقد أوقف الدفوعات وراح بفلوسي إلى الشرطة. منظف القنوات شاهدي". انتظر تأكيداً. أومأ منظف القنوات، لكن بعد مرور عدة دقائق. في هذا الوقت انهار محلّ الأعمى ودفن تحته تسعين موظفة. سقط سقف الكنيسة، عطبت المخدرات التي كانت فيها أو كانت ستخبَّأ فيها بعد. لم يعد هناك وقت للنوم. أثناء رفع الأنقاض عثر في أقبية المحل على تلال هائلة من الأزرار.

وافق فيشرله على إيماءة منظف القنوات وقال: "كلّنا خربت بيوتنا. أنتم تخسرون وظائفكم وأنا قلبي يتقطع. كلّ فكري فيكم. كلّ فلوسي ضاعت وأنا مطلوب الآن بأمر قبض، بتهمة تجارة الممنوعات. بعد كم يوم يصل أمر القبض. سترون. دريت به من مصدر موثوق. لازم أتخفّى. من يدري أين سأظهر من جديد، ربما في أمريكا. لو أن عندي نفقات الرحلة. لكني سأتدبر شغلي. واحد مثلي لا يضيع أبداً. كل خوفي عليكم أنتم. الشرطة قد تأكلكم أكل. عقوبة الاشتراك في هذه الجرائم سنتين حبس. تقوم أنت وتساعد الناس لأنهم رفاقك، وفجأة يقعدون سنتين في الحبس. ولماذا؟ لأنهم لا يسدّون فمهم. تعرفون ماذا؟ أنتم غير مجبرين تنحبسوا سنتين. إذا كنتم عاقلين لن تقولوا شيء. تسأل الشرطة: "أين فيشرله؟"، تردّون: "ما عندنا علم". "كنتم موظفين عند فيشرله؟". تردّون: "مستحيل". "وصلتنا إشاعات". "بعد إذنكم، الإشاعات كيدية". "متى شفتم فيشرله آخر مرّة؟". "منذ أن اختفى من السماء، ربما زوجته تعرف التاريخ". إذا قلتم تاريخ معيّن تولّدون فوراً انطباع غلط. إذا ما قلتم تاريخ معين، سيسألون الزوجة، هي أيضاً تقدر تتشرف عند الشرطة لأجل زوجها، لن تخسر شيء. "بماذا كانت تتاجر شركة فيشر وشركاه؟". "ما أدرانا نحن، سيدي الجنرال؟" ما إن تبدؤوا بالإنكار سيتركونكم. قفوا، تخطر في بالي الآن فكرة عظيمة. بعمركم

t.me/yasmeenbook

ما سمعتم مثلها. أنتم ما لازم تروحو عند الشرطة أساساً، مطلقاً. الشرطة تترككم بحالكم، لا تريد منكم أي شيء، ولا تهتم بكم أصلاً، بالنسبة للشرطة مانكم على وجه الأرض، ما عندكم رحمة أصلاً، كيف أشرح لكم؟ ولماذا؟ بكل بساطة، لأنكم تسدّون بوزكم. ما تحكون كلمة، ولا لأيٍّ كان في السماء. والآن أسألكم، كيف يخطر على بال أحد الفكرة الجنونية، أنكم تشتغلون معي؟ مستبعد، أقول لكم، وأنتم خالصين. تروحون إلى أشغالكم كأن شيئاً لم يكن. أنت تذهب تسرح وما تنام، أنت تعطي حرمتك ثلاثة أرباع دخلك وتنظف الأوساخ، أنا أقول حتى منظّف القنوات مفيد، ماذا تعمل مدينة مليونية بكل القاذورات إذا ظلت، وأنت ترجع للشحادة من جديد، وبجميع الأحوال عندك كلب ونظارات. إذا أعطاك أحد زرّ، تصرف نظر، إذا ما أعطاك زرّ، تنظر. الأزرار قدرك، انتبه في يوم من الأيام راح تقتل أحد. لازم تعملوا مثل ما قلت لكم، أنا نفسي ما عندي شيء ورغم هذا أعطي كل واحد نصيحة. أريد أن أحصل على الذهب الذي تسواه نصيحتي، وكله أهديه لكم، لأني قلبي عليكم".

متأثراً ومتوتراً بحث فيشرله في جيوبه. كان الحداد العام على خراب بيته قد زال. تحدث بحماس ونسي عظم التعاسة، ما دامت هذه حصته هو. تحول إلى ذروة العطاء والإغاثة، يهمّه قدر أصدقائه أكثر من قدره هو. كان يعلم تماماً أن جيوبه خاوية. قلب حشوة الجيب الأيسر الممزقة، ولدهشته وجد شيلينغاً واحداً في الجيب الأيمن وزرّاً. أبرز الاثنين، من بدأ عليه أن يكمل، ونعق متحمساً: "أتقاسم معكم آخر شيلينغ! أربعة موظفين ومدير واحد، المجموع خمسة. لكل واحد عشرين قرش. أنا أحتفظ بحصة الصيادة حتى تأتي، لأن الشيلينغ لي. ربما التقيت بها. من يدفع؟". تبيّن بعد حسابات دقيقة أنه ليس معهم صرافة شيلينغ. ونجح التقسيم بشكل من الأشكال. أخذ تاجر الشنطة الشيلينغ ودفع ستين قرشاً من جيبه. وبهذا ظل مديناً بعشرين قرشاً لمنظف القنوات، الذي لن يتمكن من

t.me/yasmeenbook

إعطاء زوجته شيئاً ولهذا لم يفهم ما يجري حوله. من نقود تاجر الشنطة أخذ الأعمى حصته البسيطة وفيشرله حصته المضاعفة. قال فيشرله: "أموركم ميسرة" وكان الوحيد بينهم ذا التيسير. "ما فائدة عشرين قرش، أنتم عندكم أعمالكم، أغنياء، مثلما أنتم. أنا من ناحيتي عندي طموح، أنا هكذا طبيعتي. أريد أن يقول الكل عني في السماء: فيشرله اختفى، لكنه كان نبيل".

شكا تاجر الشنطة: "من أين نأتي ببطل شطرنج ثانٍ؟ الآن أنا البطل الوحيد، بطل شدّة تاروك". تراقص الشيلينغ الثقيل في جيبه رقصة مرحة. كان الأعمى متخشّباً في مكانه، مغلقاً عينيه بحكم العادة، مادّاً يده بحكم العادة. فيها حصته، قطعتا نيكل خاملتان وجامدتان مثل سيدهما. ضحك فيشرله: " بطل تاروك، شيء عظيم". بدا له من المهزلة أن يتحدث بطل العالم للشطرنج مع أناس كهؤلاء، منظف قنوات عنده عائلة، تاجر شنطة لا ينام، أعمى انتحاري بسبب أزرار. لاحظ اليد الممدودة، دسّ فيها الزرّ بسرعة وارتجّ من شدّة القهقهة: "الوداع، كلكم معاً!"، نعق: "خلّكم قنوعين يا ناس، خلّكم قنوعين!". فتح الأعمى عينيه ورأى الزرّ. كان قد شعر بشيء ما وأراد أن يتيقن من العكس. فزعاً لدرجة القتل نظر وراء فيشرله. التفت هذا وهتف: "إلى اللقاء في عالم آخر أفضل، يا صديقي العزيز، لا تأخذ ببالك!". ثم استعجل رغم هذا، فالرجل كان قادراً على كل شيء وتقبّل المزحة على مضض. توقف فيشرله في زقاق جانبي لينهي ضحكه، لأن كل الناس أغبياء. دخل بوابة بناية، وضع يديه تحت حدبته، تطلّع نحو اليسار ونحو اليمين. كان الأنف يسيل، قطع النيكل تقعقع، آلمته الحدبة فهو لم يضحك طوال عمره بهذا القدر، دام الأمر خمس عشرة دقيقة على الأقل. وقبل أن يتابع طريقه مسح أنفه على الجدار، دسّها تحت إبطيه وشمّ كلاًّ منهما مرّةً. فيهما كان رأسماله.

ما إن عبر عدة أزقة أخرى حتى حلّ الحزن على خساراته الكبيرة. من

t.me/yasmeenbook

المبالغة قول كلمة خراب، لكن ألفي شيلينغ ثروة، وهذا المبلغ ظل لدى كار الكتب. الشرطة لن تنفع. ستخربط العملية كلّها. ما الذي يفهمه موظف بسيط، براتب متدنٍّ، ليس لديه رأسمال، قدره الحراسة، من الصفقات التي تعقدها شركة كبيرة؟ هو، فيشرله، مثلاً لا يخجل من الزحف على الأرض ليلتقط بنفسه المال الذي يدين به له زبونه ويرميه من الغضب. ربما نالته ركلة، لكن هذا لا يهمّه. عليه أن يجد وسيلة ليزيح قدماً، قدمين، أربعة أقدام، كل الأقدام، هو بنفسه، المدير. المال وسخ ومتجعد، لم يخرج توّاً من المطبعة، المدني يأنف من لمسه، هو يأخذه، طبعاً لديه موظفون، - أربعة بالمجموع، كان يستطيع توظيف ثمانية أيضاً، لا، لا يستطيع توظيف ستة عشر-، طبعاً يستطيع أن يرسلهم مكانه ويتأمر عليهم: "يا بشر، لمّوا الفلوس الوسخة!". لكنه لا يغامر بهذا. الناس لا يفكرون بشيء سوى السرقة، رؤوسهم محشوة بالسرقة، وكل منهم يعتبر نفسه فناناً عظيماً لأنه أخفى ورقة. المدير مدير لأنه يعتمد على نفسه. يطلقون على هذا اسم المخاطرة. إذاً، يلتقط ثماني عشرة ورقة نقدية من فئة المئة شيلينغ، لا ينقصه سوى اثنتين، كادتا أن تصيرا في جيبه، يتعرق ويتعب نفسه، يقول لنفسه ماذا أستفيد منها، وفي اللحظة الخطأ تأتي الشرطة. يخاف خوفاً عظيماً، لا يطيق الشرطة، يكرهها، كلّهم شياطين مسكينة، يدسّ النقود في جيب الزبون، المال الذي يدين به الزبون له، هو فيشرله، ويهرب به. وماذا تعمل الشرطة؟ تحتفظ بالمال لنفسها. يمكنها أن تتركه لدى الزبون، فقد تأتي أوقات أطيب مرة أخرى، ويستعيده فيشرله، لكن لا، تعتبر الشرطة كار الكتب مجنوناً. تقول إن رجلاً مثل كار الكتب فلوسه كثيرة وعقله خفيف، سيتم الاعتداء عليه ونهبه، وهذا يؤدي إلى متاعب. يقولون: لدينا شغل كفاية، ولهذا نحتفظ بالمال عندنا، وفعلاً يتحفظون عليه. الشرطة تسرق وعلى المواطن أن يبقى محترماً.

خلال ثورة غضبه حدّق به شرطيّ مرّ به. وبعد ابتعاده بزمن أطلق

t.me/yasmeenbook

ساقيه للريح. هذا ما ينقصه، أن يمسكه هؤلاء اللصوص عن الذهاب إلى أمريكا. قرّر أن ينتقم من الشرطة على جنحة الاستيلاء على الملكية التي ارتكبتها بحقّه، وهذا قبل سفره إلى أمريكا. لو كان بيده، لقرصهم جميعاً حتى يصرخوا من الألم. كان واثقاً من أنهم سيتقاسمون النقود المسروقة. يوجد، لنقل، ألفا شرطي، بهذا يكون من نصيب كل منهم شيلينغاً واحداً. لن يقول أحد منهم: "لا، لن آخذ الفلوس لأنها مسروقة". ولهذا فالكلّ متساوٍ في الذنب ولم ينفذ أيٌّ منهم من قرصات فيشرله.

ثم قال فجأة بصوت عالٍ: "لكن لا تتخيل أنها تؤلمهم في الواقع. أنت هنا وهم هناك. وكيف يحسّون بالقرص؟". عوض اتخاذ الخطوات التي كان قد قرر القيام بها لرحلته، ظل يعرج ساعات طوالاً في المدينة دون هدف، منزعجاً، باحثاً عن إمكانية لمعاقبة الشرطة. عادة ما تخطر له خطة مناسبة لأصغر نواياه، أما هنا فقد كان محتاراً، ولهذا بدأ تدريجياً يتنازل عن أقصى متطلباته. كان مستعدّاً للتنازل عن المال، إذا تمكّن من أخذ ثأر صغير. ضحّى بألفي شيلينغ كاملة مكملة. لم يعد يرغب فيها قطّ، أصلاً لم يطلبها هدية، كلّ ما يهمّه أن يسترجعها أحد من الشرطة.

كانت الشمس قد زالت، لم يأكل شيئاً من شدة الكراهية، فوقعت نظراته على يافطتين كبيرتين معلقتين على مبنى. على إحداهما: د. أرنست فلينك، نسائية. اللوحة أسفلها تماماً د. ماكسيميليان بوشر، اختصاصيّ أمراض عصبية. "هنا تجد حرمة مهرّجة كل ما تحتاجه"، فكر وتذكر من فوره أخا كين في باريس، الذي صنع ثروة كطبيب نسائية ثم حول إلى النفسية. بحث عن الورقة التي كتب عليها عنوان ذلك البروفسور المشهور، وفعلاً وجدها في جيب قفطانه. كما كانت رسالة التوصية هناك، لكن عليه أولاً أن يصل بهما إلى باريس. وهذه بعيدة جداً، وفي هذه الأثناء ستكون الشرطة قد أنفقت كل نقوده على السكر. لو كتب بنفسه رسالة إلى الأخ ووقعها باسمه، سيسأل السيد الراقي: "فيشرله؟ من هو فيشرله؟" ولن

t.me/yasmeenbook

يتعب نفسه. فهو صاحب ثروة ومتعجرف. على المرء أن يعرف كيف يتعامل مع شخص يجمع صفتي البروفسور والثروة. هذا الأمر ليس كما في الحياة، إنما كما في الشطرنج. لو عرف أن البروفسور ابن شطرنج، لأمكن التوقيع بصفة: "فيشرله، بطل العالم في الشطرنج". لكنه مثله مقتدر ولا يصدق أحداً. بعد شهرين، حين سيهزم فيشرله كابابلانكا[1]، يقضي عليه، ينهيه مثل كلب أجرب، سيكتب وقتذاك لكل البشر المهمين في العالم برقية: "يشرّفني أن أعرفكم على نفسي، بطل العالم الجديد للشطرنج زيغفريد فيشر". هنا لن يكون أيّ مجال للشك، سيعرف كل الناس، ينحني كل الناس، حتى البروفسورات الأثرياء، ومن لن يصدق سيمثل أمام المحكمة بتهمة إهانة الشرف. ثم إنه يحلم طوال عمره أن يرسل برقية حقيقية.

وهكذا أخذ بثأره. دخل أول مكتب بريد وطلب ثلاث استمارات: بسرعة رجاء، أنا مستعجل. كان يعرف الاستمارات. طالما اشترى من قبل استمارات، فقد كانت رخيصة، وكتب عليها بخطّه الكبير تحدّيات هازئة إلى أبطال العالم. الكلمات العظيمة مثل "أحتقركم. يا مكرسح" أو "جرِّبوا حظّكم معي، إذا كنتم تجرؤون، أيها المكرسح"، كان يقرؤها في السماء المثلى ويشتكي من جبن أبطال العالم، الذين لم يرسلوا له قطّ جواباً. كانوا يصدقون الكثير من ترهاته، لكن لم يصدق أحد حكاية البرقيات، فهو لا يملك مالاً كافياً لإرسال واحدة، وهكذا كانوا يلكزونه بالعنوان الذي نسيه أو كتبه خطأ. وعده رجل دين كاثوليكي طيب القلب أن يُنزِل على الأرض الرسائل التي يحفظها له بطرس، حالما دخل إلى السماء الحقيقية فوق. "لو عرفوا أي برقية حقيقية أرسلها الآن!" فكر فيشرله وتبسم على المزحات التي سيحكيها الأوباش بحقّه. ماذا كان آنذاك؟ زبون يومي في ماخور السماء المثلى. وماذا هو الآن؟ الآن يرسل برقية إلى بروفسور.

---

1) خوسيه راؤول كابابلانكا (1888 – 1942)، دبلوماسي ولاعب شطرنج كوبي. احتفظ بلقب العالم في الشطرنج بين 1921 – 1927.

t.me/yasmeenbook

الأمر يتوقف الآن على الكلمات الصحيحة. يفضل ألّا يذكر اسمه. لنكتب: "الأخ طار عقله. صديق الأسرة". بهذا تكون الاستمارة الأولى قوية نوعاً ما. السؤال هو ما إن كان طبيب النفسية سيتأثر بـ"طار عقله". يعايش هذا يومياً، سيقول لنفسه: "أكيد الحالة غير مستعصية" وينتظر حتى يكتب له صديق الأسرة برقية جديدة. بهذا سيخسر فيشرله فلوسه أولاً، ثم إنه لم يسرقها سرقة ثانياً، وثالثاً تأخذ القصة وقتاً طويلاً. لن يكتب صديق الأسرة، لأنه تعبير يدل على ألفة شديدة، في هذه الحالة يتوقعون منه الكثير، ويعزّز تعبير "طار عقله" بـ"كلّيّاً". كتب على الاستمارة الثانية "الأخ طار عقله كلّياً". ومن سيوقع؟ لن يردّ أيّ إنسان محترم على برقية غير موقعة. توجد مهن مثل التشهير، الابتزاز وغيرها، وطبيب نسائية متقاعد يعرف الكثير. ما زال مع فيشرله استمارة ثالثة، غضب بسبب الأخريين اللتين ملأهما دون جدوى، وشخبط على الثالثة دون وعي: "أنا طقّ عقلي نهائياً". قرأها وأعجب بها. إذا كتب أحد هكذا عن نفسه، يصدقه الآخرون، فمن يكتب مثل هذا عن نفسه؟ يوقع عليها "أخوك" ويركض بالخبطة المتقنة إلى شباك البريد.

الموظف، المنحوت من خشب عفن، يهزّ رأسه. لا يمكن أن يكون هذا جداً، ولا يعرف المزاح. يضغط عليه فيشرله: "يجب أن تقبلوها. هل أنتم تأخذون راتباً على هذا أم أنا؟" فجأة يخشى من أنه قد لا يحقّ للمقموعين أن يرسلوا برقيات. من أين يعرفه الموظف؟ بالتأكيد ليس من السماء، كما أنه كان يشتري الاستمارات من مكتب آخر.

"هذا لا يعني شيئاً"، يقول الرجل ويعيد له البرقية. يحفزه المكرسح. "الإنسان الطبيعي لا يكتب هذا".

يصرخ فيشرله: "هذا هو تماماً! لهذا أرسل برقية إلى أخي. عليه أن يلحقني. أنا مجنون".

t.me/yasmeenbook

"اذهبوا في طريقكم يا سيد"، يقول الموظف متضايقاً ويبدأ الزبد يسيل من فمه.

رجل سمين يرتدي فراءين، أحدهما حقيقي وفوقه واحد صناعي، ينتظر وراء فيشرله، ساخط من تضييع الوقت، يزيح القزم جانباً، يهدّد حبيس الشباك بشكوى رسمية وينهي خطابه - تُظاهِر كل كلمة من كلماته محفظة مليئة - بجملة: "لا يحق لكم رفض أي برقية، هل فهمتم؟ أنتم لا".

يصمت الموظف، يبلع حقه في الفهم ويؤدي واجبه. يغشّه فيشرله بقرش. ينبّه السيد السمين، الذي ساعده من باب المبدأ وليس لأنه مستعجل، القزم إلى خطئه. "ولا يهمّك، غير مهمّ"، يقول فيشرله ويختفي. عندما يصبح في الخارج يتخيل أن البرقية لن ترسل عقاباً له على خدعته. يؤنب نفسه: "بسبب قرش واحد يا فيشرله والبرقية كلّفتك 267 ضعفاً". يرجع، يعتذر بخنوع من السيد السمين، مدّعياً أنه لم يفهمه، سمعه ثقيل، أنه مجنون على الأذن اليمنى. ويقول أشياء أخرى ليقترب من محفظة الآخر ذهنياً على الأقل. فيتذكر في الوقت المناسب تجاربه الأليمة مع أناس يرتدون فراءين. هم لا يفتحون المجال للرحمة ويسلّمون النشال للشرطة حتى قبل أن ينال منهم شيئاً. يدفع قرشه، يحيّي بكرم نفس ويذهب. يتنازل عن المحفظة لأن انتقامه على الطريق.

ولكي يؤمّن جواز سفر مزوراً ذهب إلى محل قريب من السماء، لكنه أقذر منه. اسمه "قرد الرباح". الاسم الحيواني وحده يشي بوضاعة زبائنه. كل من يدخل المحل من أصحاب السوابق. ورجل مثل منظف القنوات، يعمل وله سمعة حسنة، يتجنب "قرد الرباح". زعم في السماء أن زوجته كادت تطلقه عندما شمت منه رائحة القرد. هنا لا توجد متقاعدة أو بطل شطرنج يفوز على الجميع. إنما يفوز هذا مرة ومرة ذاك. ينقصهم الذكاء الذي يرغم على الفوز. المحل في قبو ينزل إليه الزبون ثماني درجات، حتى يصل إلى الباب. غطّي جزء من الزجاج المهشم بالورق المقوى. على

t.me/yasmeenbook

الجدران صور نساء عاريات. ما كانت صاحبة السماء ستسمح بمثلها في مقهاها المحترم. الطاولات من خشب عارٍ، لأن المرمر سُرق شيئاً بعد شيء. حاول المستأجر المتوفّى أن يغري جمهوراً ثابت الدخل ووعد السيدات بأن يمنحهن فنجان قهوة مجاناً على كل زبون محترم يأتين به. آنذاك جلب رساماً رسم له لوحة جميلة وعمّد المحل باسم "تغيير زيت". قالت زوجته: الشعار يسري عليّ أنا أيضاً وظلّت تغيّر، بينما توفي هو من لوعة الحب لأن عنده مرارة والشغل خاسر. ما إن توفي حتى أعلنت الزوجة: "أنا أفضل القرد المراح".. أزالت اللوحة القديمة وبذلك ذهبت السمعة الحسنة نوعاً ما. ألغت المرأة القهوة المجانية، ومنذ ذلك الوقت لم تعد أي سيدة تحترم نفسها تدخل قبوها. ومن يأتي إلى هنا؟ مزوّرو جوازات السفر، المهدّدون بالترحيل، المطلوبون للعدالة، أفقر اليهود، وعداهم من الرعاع الخطيرين. كانت الشرطة تدخل السماء بين الحين والآخر، أما إلى هنا فهي لا تجرؤ على الدخول. لاعتقال قاتل بدافع السطو، يؤمّن نفسه لدى صاحبة القرد، يُخصّص ثمانية مخبرين بالضبط. هكذا كانت الأحوال هنا. القوّاد العادي لا يأمن على حياته هنا. لا يُحترَم سوى كبار المجرمين. سيّان عليهم إن كان مكرسحاً ذا حذاقة أو مكرسحاً بلا حذاقة. هؤلاء الناس لا يميزون لأنهم أنفسهم بلهاء. كانت السماء ترفض أيّ تعامل مع القرد. فما إن يدخل أحد من رواد القرد حتى يختفي مرمر الطاولات. وبعد أن تنتهي كل الأصابع الوسخة في السماء من قراءة المجلات المصورة، تحوّل إلى صاحبة القرد، ليس قبل ذلك بلحظة واحدة.

اعترف فيشرله بأنه ملّ من السماء، لكنها من ذهب مقارنة بالقرد. حين دخل، قفز نحوه عدة رجال مخيفين. صفقوا له فخورين من جميع الأنحاء، وعبروا عن فرحهم بالزيارة النادرة. قالوا إن المديرة ليست حاضرة وكانت ستفرح به. توقعوا أنه قادم مباشرة من السماء. فقد حُرِّم عليهم دخول ذلك المكان المبارك بالنساء. سألوه عن هذه وتلك. كذب فيشرله قدر

t.me/yasmeenbook

مستطاعه. لم يتكبّر عليهم وكان دمثاً معهم. كان يرغب في دفع أقل سعر ممكن لجواز السفر المزور. انتظر حتى يقول سبب مجيئه وإلا لارتفع السعر. بعد أن تيقنوا أنه هو، صفقوا مرة أخرى، فاليد تقوّي من عزيمة الرأي. عليه الجلوس، فقد جاءهم، وعليه البقاء. لن يتركوا مثل هذا القُزَيم النبيل سريعاً. هل سقط سقف السماء؟ ادّعى: لم يعد أحد يجرؤ على دخول المحل الخطر على الحياة. حتى إن الشرطة تراقب ما إن كانوا سيجدّدونه. مع كلّ الحريم اللواتي يتردّدن عليه! كيف ينجون إذا سقط السقف؟

وبينما هم يحاولون إقناع فيشرله بتحمل هذه المسؤولية، سقطت قشرة كلس في القهوة التي وضعها أحدهم أمامه. احتسى وتأسف لضيق وقته. ادّعى أنه جاء ليودّعهم. فقد عرضت عليه رابطة الشطرنج في طوكيو وظيفة لتدريس الشطرنج. "طوكيو تقع في اليابان. أسافر بعد غدٍ. تدوم الرحلة نصف سنة. معي تطول هكذا. في كل مدينة أشارك في دوري. لهذا تطول الرحلة. تكاليف الرحلة مدفوعة، لكن ليس قبل أن أصل إلى طوكيو. اليابانيون شكّاكون. يقولون، ماذا لو أخذ أحدهم الفلوس، وبقي في مكانه. أنا طبعاً لن أبقى، لكن عندهم تجاربهم السيئة. والتجربة خير برهان. جاء في الرسالة: إننا، أيها البطل الفاضل، نشعر بأعلى درجات الثقة نحوكم ولكن هل سرقنا فلوسنا سرقة؟ لا، لم نفعلها."

طالب الرجال برؤية الرسالة. رجاهم فيشرله المعذرة. مدّعياً أنها عند الشرطة. هناك وعدوه بإصدار جواز سفر، رغم كل السوابق. البلد يتشرف بالمجد الذي سيحمله على رقعة شطرنجه حتى اليابان.

"وتريد السفر إلى هناك بعد غد؟"، تحدث ستة معاً بينما يفكّر الآخرون في الأمر ذاته. خاطبوه بصيغة المفرد مع أنه من السماء لأنهم أشفقوا على سذاجته. أقسم أحدهم: "من الشرطة لا تأخذ غير الخرى، أقسم بشرف تسع سنين قضيتها في الحبس!". "سيسجنونك أيضاً، بتهمة محاولة الفرار". "وفي الأخير يرسلون السوابق إلى اليابان".

t.me/yasmeenbook

اغرورقت عينا فيشرله بالدموع. أبعد طاسة القهوة وبدأ بالنحيب. سمعوه بين الفينة والأخرى يقول: "سأطعن هذه العصابة. سأطعنهم كلّهم!". من هنا وهناك تحسّروا عليه، كلّ هذه التجارب، كلّ هذه الآراء. ادّعى مزوّر جوازات سفر مشهور أنه ليس له إلا حلّ واحد فقط، وهذا الحل بيده هو. على فيشرله أن يدفع نصف السعر لأنه نصف إنسان. ألبس حزنه بهذه المزحة. ما كان أيٌّ منهم سينطق بكلمة مواسية. ابتسم فيشرله بين دموعه. قال: "أعرف أنك مشهور، لكنك لم تعمل جوازاً يوصل إلى اليابان، أنت لا."

غضب المزوّر، المسمّى "طبّاخ الجوازات"، ذو الشعر المرسل، الرسام الفاشل، الأسود كالقطران، الذي ما زال يحتفظ بالغرور من أيام ما كان فنّاناً، أشدّ الغضب وهسهس: "جوازاتي توصل حتى أمريكا!".

اعتذر فيشرله على ملاحظة أن أمريكا شيء واليابان شيء آخر. كما أنه لا يريد أن يكون فأر تجارب. ما إن يصل إلى الحدود اليابانية، حتى يمسكوه ويحبسوه. ليس به فضول ليتعرف على الحبوس اليابانية. حاولوا إقناعه وديّاً، لكنّه تمنّع. جاء الرجال ببراهين دامغة. كان طبّاخ الجوازات قد سُجن كثيراً، لكن لم يُسجَن أيّ من زبائنه، لهذه الدرجة كان حريصاً على الناس. يعطي آخر قميص له لأجل الفن، يحبس نفسه أثناء العمل. والعمل يرهقه لدرجة أنه ينام طويلاً بعد أن ينجز كل جواز. لا ينتج بالجملة. إنما يبدع قطعة بقطعة. ومن ينظر إليه أثناء العمل يُرفَس. لم ينكر فيشرله كل هذا، إلا أنه ظل صامداً على موقفه. ثم إنه ليس معه قرش واحد. ولهذا السبب على الأقل فكلّ الحكي كلام فارغ. أعلن طباخ الجوازات أنه على استعداد لأن يهديه جوازاً متميزاً بالمجّان، إذا تعهّد بأن يستخدمه. ويمكنه أن يعوّضه عن أتعابه بالدعاية لتحفته في اليابان. شكرهم فيشرله بالقول إنه صغير جداً على هذه الدعابات، هم عماليق كبار بينما هو ضعيف مثل حرمة عجوز. فليحرق أحدٌ آخر أصابعه الخرقاء بهذه النار. دفعوا له

t.me/yasmeenbook

فنجاني قهوة آخرين. ضجّ طبّاخ الجوازات. فيشرله مجبر على قبول جوازه وإلا لقتله بعد واحد، اثنين .... تمكّن الآخرون من إمساكه مؤقتاً، اغتاظ الجميع معه ووافقوه. دامت المفاوضات ساعة كاملة. جرّ طبّاخ الجوازات أصحابه واحداً بعد الآخر جانباً ووعدهم بمكافآت مناسبة. فانقطع حبل صبرهم. صرّحوا لفيشرله بكلمات جافة أنه سجينهم ولن يطلق سراحه إلا بشرط واحد. وهذا الشرط هو قبول جواز السفر المزوّر واستخدامه، وهو لن يدفع ثمنه، لأنه بجميع الأحوال ما معه فلوس. رضخ فيشرله للظرف القاهر. ظل يزعق طويلاً. اصطحبه شابّان قويّان إلى المصور ليأخذ له صورة على حساب طباخ الجوازات. هدّدوه، إذا طلع منه حرف واحد، فلن يرحموه. لم يطلع منه حرف. انتظرت مرافقته حتى تم تحميض الصورة وطبعها.

عندما عادوا كان طباخ الجوازات قد حبس نفسه. لم يسمح لأحد بإزعاجه. مدّ له أقرب أصدقائه الصور التي ما زالت رطبة عبر شقّ في الباب. عمل كالمهووس. سال العرق من خصلات شعره على الطاولة وشكل خطراً على عذرية جواز السفر. ولم يتدنّس هذا بفضل حركات متقنة. كان أشدّ سروره في التواقيع. بين يديه الخاتم الدائري وباقي الأختام المستطيلة لكلّ الرتب العليا في الشرطة. تواقيعه لوحات ساحرة. يرافق ميلان الخطوط بهزّات عنيفة من صدره. وعلى إيقاع ضرباته يدندن: " أصلي وجميل، أصلي وجميل. ما له مثيل!".

حين يتمكّن من توقيع، بحيث يغترّ به هو ذاته، يحتفظ بالجواز للذكرى ويعتذر لصاحب الطلب الذي يسحله خياله إلى حجرة العمل الضيقة مع شعار: "الذات أولى من الغريب". كان يملك العديد من جوازات سفر كهذا متقنة ونموذجية. يخفيها في حقيبة صغيرة. وحين تبور تجارته ينتقل بتشكيلته إلى المدينة التالية. وهناك يريها للجميع. فتحمرّ وجوه أبناء الصنعة القدماء، المنافسين والتلاميذ، خجلاً من عجزهم عن الإتيان بهكذا معجزات. يرسلون له الحالات المعقدة، يتجرّدون بهذا من العصبيات الذاتية. وطلب العمولة

t.me/yasmeenbook

عليها يعني الانتحار المحقّق. كان صديقاً لأعتى المجرمين وأشهرهم، كلٌّ منهم ملك في كاره، وهم في مجموعهم الزبائن المعتادون في القرد المراح. كان لفوضى طباخ الجوازات حدّ واحد فقط، يضع في تشكيلة جوازاته قصاصات مربعة عليها: "النسخة البديلة تعمل دولارات في أمريكا" أو "صاحبه يرسل سلامات من جنوب إفريقيا. أرض الألماس" أو "نجح في صيد اللؤلؤ. عاش طباخ الجوازات" أو "لماذا لا تلحقونني إلى مكة؟ هنا يرمي أنصار محمد فلوسهم من الشبّاك. الله أكبر". كان يقتبس هذه المعطيات من رسائل الشكر والاعتراف التي لا تحصى وترافقه حتى في أعمق أحلامه. كانت أغلى على قلبه من ألّا يريها لأحد، محتوياتها دليلٌ كافٍ، الواقع ينطق بنفسه. ولهذا يشرب عدة أقداح روم بعد الانتهاء من كل وثيقة، يضع رأسه الملتهب على الطاولة، يفرق تيار الشعر بأصابعه ويحلم بمستقبل وإنجازات الزبون التالي. لم يكتب له أحد بعد، لكنه يعرف من أحلامه ماذا كانوا سيكتبون ويستغل مصائرهم لغرض الدعاية.

بينما يعمل لخدمة فيشرله، فكر في الإعجاب الذي سيثيره جوازه في اليابان. فهذه البلاد جديدة عليه، لم يجرؤ بعد على التوغل حتى تلك المسافات القصية. صنع نسختين، قرّر، استثناءً، أن يسلّم النسخة الأصلية، التي لا تضاهى، إلى الزبون، فالرسالة عظيمة.

في هذه الأثناء عُذّب فيشرله بكل أصناف الطعام المتوفرة في القرد. حصل على قطعتي نقانق قديمة له وحده، قطعة جبن كريهة الرائحة، خبز يابس، قدر ما شاء، وعشر سكائر من ماركة "القرد المراح"، مع أنه لا يدخن، ثلاث كؤوس من مشروب محليّ الصنع، كأس شاي بالروم، كأس روم دون شاي، أعداد لا تحصى من النصائح على طريق الرحلة. عليه أن يحذر من النشّالين، فهؤلاء مهووسون بمثل الجواز الذي سيحصل عليه. أيّ فاشل يقدر أن يزيل الصورة، يلصق صورة غيرها وبذلك يحصل على أفضل جواز سفر في العالم. عليه ألا يريه في كل مكان، فالقطارات مليئة

t.me/yasmeenbook

بالحساد. ثم إن عليه أن يجدّ في الكتابة، فطباخ الجوازات عنده صندوق بريد سرّي وتسرّه كلّ رسالة عرفان بالجميل، يحتفظ بها كما تحتفظ صاحبة المحل برسائل الغرام، ولا يرى أحدٌ أيّاً منها. من سيلاحظ من الرسالة أن الكاتب مجرد مكرسح؟

وعد فيشرله بكل شيء، بالشكر، بالاعتراف بالجميل، بالأخبار والمعارف التي سيكسبها. وادّعى أنه خائف رغم هذا. هكذا هو خلقه. لو أن اسمه على الأقل د. فيشر، وليس مجرد فيشر ببساطة، فالشرطة لا تحترم البسطاء.

عليه ائتمر الرجال في جلسة استشارية. ظلّ واحد منهم فقط يحرس الباب، وهذا كي لا يهرب الصغير. تحملوا مسؤولية إزعاج صديقهم أثناء العمل رغم شدة تعليماته والتمسوا منه لقب الدكتور لأجل فيشرله. لا يهتاج طباخ الجوازات من فوره، حين يكون أحدهم مهذّباً ويناديه باسم المعلم. اتفق الرجال على هذا، لكن لا أحد منهم جرؤ على حمل الرسالة إليه. لأنه إن اهتاج، رغم كل الحذر، فلن يدفع للمزعج المكافأة الموعودة. وليس بين الموجودين من هو أحمق.

هنا عادت صاحبة المحل من مهماتها. كانت تحب الخروج إلى الشارع، أغلب الأحيان حبّاً به، وأحياناً، حين تريد أن تبرهن لزبائنها أنها امرأة، لأجل التكسب. استغلّ الرجال الفرصة بكل مسرّة كي يتفرّقوا هنا وهناك. نسوا نيّتهم ونظروا بحنان إلى صاحبة المحل وهي تعانق حدبة فيشرله. صبّت عليه المداعبات، قائلة إنها حنّت إليه، إلى أنفه الظريف، إلى رجليه المقوّستين وفن الشطرنج الغالي. في محلّها لا يوجد قزم حبيب. سمعت أن المتقاعدة، زوجته، قد سمنت أكثر، ماذا تلتهم إن كان هذا صحيحاً؟ لم يجاوب فيشرله ونظر خائب الرجاء إلى الفراغ. جلبت مجموعة المجلات القديمة التي كانت فخورة بها – وكلها من السماء – ووضعتها أمام حبيبها. لم يفتح فيشرله أي واحدة وظل عابساً. ما الذي يوجع كُبَيدَه، حبيب القلب كبيده بهذا الحجم الصغير، تقريباً كوّرت ربع يدها المبسوطة.

t.me/yasmeenbook

قال فيشرله، إنه ما دام ليس دكتوراً فإنه سيبقى خائفاً.

اضطرب الرجال. أقنعوه أنهم ليسوا جبناء. الدكتور مستحيل، زأروا بعضهم على البعض الآخر، لأنه لا يمكن أن يكون المكرسح دكتوراً. مكرسح ودكتور معاً، لا يجوز. هذا ما ينقص! الدكتور يحتاج شهادة حسن سلوك. المكرسح وسوء السمعة نفس الشيء. لا بد أنه يقرّ بهذا. هل يعرف مكرسحاً يعمل دكتوراً؟!

قال فيشرله: "أعرف واحد، أعرف واحد. هو صغير مثلي. ما عنده أيدي. كما أنه ما عنده أرجل. حالته حالة. يكتب بالفم ويقرأ بالعيون. دكتور مشهور".

بهذا أبهر الرجال قليلاً. تحدث أحدهم باسم الجميع: "هذا شيء آخر تماماً. هذاك كان دكتور وبعد ذلك قطعوا له اليدين والرجلين. هذا ليس ذنبه".

مثل هذه الأكاذيب كانت تثير أعصاب فيشرله. صرخ: "كذب. هو ولد هكذا، إذا كنت أنا أقول هذا. أعرف ماذا أقول. جاء إلى الدنيا دون يدين ورجلين. أنتم مجانين. قال لنفسه، أنا ذكي، فلماذا لا أصير دكتور؟ فجلس ودرس. الإنسان العادي يدرس خمس سنين، عند المكرسحين تطول الدراسة اثنتا عشرة سنة. هو نفسه حكى لي. هو صديقي. في حوالي الثلاثين كان دكتور ومشهور. ألعب معه شطرنج. من نظرة واحدة يشفي المريض. غرفة الانتظار ملآنة على آخرها. يجلس في عربة صغيرة وعنده اثنتين نسوان يساعدوه. يشلّحون المريض، يفحصوه ويعرضوه على الدكتور. يشمّه لحظة واحدة فقط ويفهم ماذا به. ثم ينادي: "السيد التالي رجاء". يكسب ثروات. لا يوجد طبيب جيد مثله بعد. يحبني حب قوي. يقول، لازم المكرسحين يتضامنوا. آخذ دروس خصوصية عنده. وعدني أن يعمل مني دكتور. شرط ألّا أقول لأحد، لأن الناس لا تتفهم هذا. أعرفه

t.me/yasmeenbook

منذ عشر سنين. كنت بعد سنتين سأنهي الدراسة. وهنا تجيء الرسالة اليابانية وأترك كل شيء ورائي. أريد أن أروح لأودّعه، فهو يستحقّ هذا، لكني لا أجرؤ. هو مقتدر وسيمنعني، وبذلك تروح وظيفتي في طوكيو. أنا أقدر أسافر إلى الخارج وحدي، فأنا لست مكرسح مثله".

طلب منه البعض أن يريهم الرجل. لكنهم كانوا مقتنعين جزئياً. دسّ فيشرله أنفه في جيب صديريه وقال: "هو اليوم ليس معي. عادة ما يكون هنا. شو أعمل بحالي؟!".

هنا ضحك الجميع. ارتجّت أذرعهم وقبضاتهم على الطاولات، ولأنهم يسرّون بالضحك ونادراً ما تسنح لهم الفرصة، نهضوا، نسوا رعبهم، خبطوا بأقدامهم القوية، ثمانية رجال معاً، الأرض أمام حجرة طباخ الجوازات، كي لا يتحمل أحدهم وحده الذنب، فتحوا الباب وزمجروا في مجموعة: "لا تنسَ الدكتور! لا تنسَ الدكتور! هو يدرس من عشر سنين". أومأ طباخ الجوازات. نعم، سيصل صيته حتى اليابان، كان اليوم في مزاج رائق.

شعر فيشرله بمدى سكره. عادة ما كان الكحول يجعله سوداوياً. قفز، ضامناً جواز السفر ولقب الدكتور في جيبه، ورقص على بطن صاحبة القرد في أرجاء المحلّ. لفّ ذراعيه الطويلتين على رقبتها، وتمكّن حقّاً من الإحاطة بها. نعق وتهادت. امتشق قاتل، لا يعرفه أحد، مشطاً كبيراً من جيبه، وضع عليه ورقاً شفّافاً ونفخ فيه لحناً شجيّاً. حبّاً بالمالكة دقّ آخر، لصٌّ بسيط، أكثر الإيقاعات نشازاً بقدمه. قرع الآخرون على أفخاذهم العنيفة. جاء نغم حنون عبر زجاج الباب المهشّم. تقوّست رجلا فيشرله أكثر، والمالكة تبحلق منبهرة بأنفه. جعجعت: "كلّ هذا البعد، كلّ هذا البعد!"، أخذها هذا الأنف الأكبر والأعزّ إلى اليابان. نفخ القاتل مشطه، مفكّراً فيها، الكلّ يعرفها جيداً، الكلّ مدينٌ لها بالكثير. في الداخل هلهل طباخ الجوازات معهم، كان صداحه محبوباً، وسُرّ بقرب نهاية العمل. يعمل منذ ثلاث ساعات وسينتهي في ساعة بكل تأكيد. غنّى كلّ الرجال، أما

t.me/yasmeenbook

كلمات الأغنية فقد كانت غريبة عليهم، كلٌّ منهم غنّى على هواه. زمجر أحدهم: "الجائزة الكبرى" وتنهد آخر: "حبيبتي". أراد الثالث "قطعة ذهب مثل رأس ولد صغير" والرابع نرجيلة لا تنتهي. "هنا نرى"، صدرت دندنة تحت شارب تعود ملكيته لرجل كان مدرّساً في شبابه ويتحسر على راتب التقاعد. إلا أن الغلبة كانت للتهديدات الخطيرة ورغبة الجميع في الهجرة، كلٌّ وحده، حتى يرى الآخرون إلامَ وصل. انخفض رأس فيشرله أعمق وأعمق، ضاعت ترنيمته على اللحن "شاه مات، شاه مات!" في الضجيج.

فجأة هفهفت المالكة واضعة يدها على فمها: "نام، نام". وضعه خمسة رجال بحذر على كرسي في الزاوية وزمجروا: "هس! أوقِفوا الموسيقى! يجب أن يشبع فيشرله من النوم قبل الرحلة البعيدة". سكت الورق الشفاف على المشط. انحشروا معا وتحدثوا في مخاطر الرحلة إلى اليابان. خبط أحدهم على الطاولة وهدّد: يموت كل ثانٍ في صحراء تاكلاماكان التي تقع تماماً بين القسطنطينية واليابان. كان المعلم السابق قد سمع بها أيضاً وقال: "سفين هيدين[1]، هذا صحيح". فضلوا الطرق البحرية. لا بد أن الصغير يستطيع السباحة، وإذا لم يستطع فالحدبة ستحمله ففيها ما يكفي من الشحم. نصحوه ألا ينزل في أيّ مكان. سيمرّ بالهند. هناك في الميناء آلاف أفاعي الكوبرا. نصف لدغة ويموت، لأنه نصف إنسان.

لم يكن فيشرله نائماً. تذكّر رأسماله وتطلّع من الزاوية ليعرف ما إن كان سقط منه خلال الرقص، فوجده في مكانه. مدح بنيان إبطيه، مع غيره كانت هذه الفخامة قد ضاعت منذ زمن بعيد، أو أن الأرض كانت ستنخسف بالأوراق النقدية. لم يكن متعباً، بالعكس، وبينما يتحدث الأغبياء عن بلاد كثيرة وأفاعي الكوبرا، كان يحلم بأمريكا وقصره المليونيري.

خرج طباخ الجوازات من مقصورته متأخراً، كان الليل قد حل، وهو يلوح

---

1) سفين هيدين (1865 – 1952)، رحالة ومستكشف سويدي، قام بأربع رحلات في أسيا الوسطى.

t.me/yasmeenbook

في كل من يديه بجواز سفر. ران الصمت على الرجال، كانوا يحترمون عمله لأنه يدفع بسخاء. تسلّل بهدوء نحو القزم، وضع الجوازين أمامه على الطاولة وأيقظه بصفعة متوحشة. رآهم فيشرله يتقدمون والتزم الهدوء رغم هذا. كان يعرف أن عليه أن يدفع ثمناً وكان سعيداً بألا يخضعوه للتفتيش. صرخ طباخ الجوازات: "أطالب بالدعاية"، تأتأ وترنّح. كان يسكر منذ ساعات بالمجد الياباني. وضع الصغير على الطاولة وجعله يقسم رافعاً يديه الاثنتين:

أن يستخدم جواز السفر، ألّا يدفع عليه شيئًا، أن يدسّه تحت أنف اليابانيين، أن يصفه، هو رودولف آمزل، الملقب طباخ الجوازات، بما سيعتبره جميع الناس في أوروبا بعد مماته، بأعظم فنان حديث. أن يحكي عنه يومياً. أن يذكره في مقابلاته. أنه ولد كذا وكذا، لم يتحمل الأكاديمية، اعتمد على الذات ووقف على قدميه، دون عكازات وقدوات، رجل صاحب كلمته، بلغ ما هو عليه اليوم.

أقسم فيشرله وأقسم وأقسم. أرغمه طباخ الجوازات على ترديد ما يقوله كلمة كلمة بصوت صارخ. في النهاية انسحب من السماء رسمياً، ووعد أن يلعن وكر المجرمين ذاك قبل سفره. نعق: "السماء خراء" بصوت مبحوح ملزم بأداء الواجب "سأحذر من الأوباش، سأؤسّس فرعاً للقرد المراح في اليابان، وإذا كسبت فلوس كثيرة سأبعثها لكم. مقابل هذا لا يحقّ لكم أن تحكوا أي شيء للسماء قبل سفري. خريجو الحبوس أولئك مقتدرون وسيقلبون الشرطة علي. حبّاً بكم سأتحمل الجواز المزور على حدبتي وأقسم إني طلبته طواعية. خلِّ السماء تنقلع". ثم سُمِح له أن يجلس للنوم، في الزاوية ذاتها. قفز عن الطاولة ووضع الجواز الأفضل في جيبه، قرب علبة الشطرنج الصغيرة، في المكان الأكثر أماناً. شخر في البداية قليلاً من باب المزاح، ليتنصت على الرجال. إلا أنه نام فعلاً، مصلّباً يديه بقوة على صدره، داسّاً الأصابع في الإبطين، بحيث يستيقظ عند أول محاولة نهب.

في الرابعة صباحاً، ساعة الإغلاق، أُوقِظ فيشرله عندما راح وجه هذا

t.me/yasmeenbook

الشرطي أو ذاك يظهر فوق لوحة الباب الزجاجية. سريعاً تمخّط النومَ من أنفه وانتعش فوراً. فاجؤوه بالعضوية الفخرية في القرد المراح، التي قرّروا منحها له وهو نائم. شكر بحرارة. كان المزيد من الزبائن قد جاؤوا، تمنّوا له كلهم رحلة سعيدة. ارتفعت الصيحات المهللة لفن الشطرنج. كادت آلاف اللطمات الودودة أن تبعجه. متبسّماً، كي يلاحظوا، انحنى بجميع الجهات وصرخ بقوة: "إلى اللقاء في طوكيو، في القرد المراح الجديد!" وغادر المحل.

بودّ سلّم في الشارع على عدة رجال شرطة رآهم وهم متيقظين. قرّر: "اليوم سأكون لطيفاً مع الشرطة". تجنّب السماء التي كانت قريبة. قرّر، بصفته دكتوراً، أن ينهي علاقاته مع كل المحلات سيئة الصيت. كما يجب ألا يروه. ما زال الليل مظلماً جدّاً. وللتوفير لا يضيء سوى كل ثالث مصباح غاز. في أمريكا توجد مصابيح مقوّسة، لا تتوقف عن الإنارة ليلاً ونهاراً. الناس هناك مبذرون ومجانين لكثرة فلوسهم. وإذا كان الرجل يخجل، لأن زوجته قحبة عجوز، فهو غير مضطر للعودة إليها. يذهب بكل بساطة إلى جيش الفادي، ففي فنادقه أسرّة بيضاء، يحصل كل نزيل على ملاءتين بيضاوين للاستخدام الشخصي حتى لو كان يهودياً. لماذا لا يعملون مثل هذه الجمعيات الرائعة في أوروبا؟ ربت على جيب قفطانه الأيمن، فشعر بعلبة الشطرنج وجواز السفر معاً. ما كان أحد في السماء سيشرّفه بجواز سفر. هناك يفكر كل منهم في نفسه فقط وكيف يحصل على المال. القرد نبيل. إنه يحترم القرد. القرد أعلنه عضواً فخرياً. وهذا ليس شأناً هيّناً، فعليه يتردّد أفاضل المجرمين. في السماء يعتاش الكلاب على حساب البنات، عليهم أن يعملوا. سيسمّي القصر الهائل الذي سيبنيه في أمريكا "قصر القرد المراح". لن يعرف أحد أن هذا اسم ماخور.

انتظر النهار تحت جسر. تناول حجرة جافة قبل أن يجلس. ارتدى في خياله البزّة الجديدة التي تلائم حدبته، مقلّمة بالأبيض والأسود، تفصيل،

t.me/yasmeenbook

وتكلّف ثروتين. لا يستحقّ أمريكا من لا يعرف كيف يداريها. تجنّب القيام بحركات عنيفة رغم البرد. مدّ رجليه كأن البنطال مكويّ. نفض بين الوقت والآخر ذرّة غبار، تضيء في الظلام دون جدوى. جثا ماسح أحذية ساعاتٍ طويلة أمام الحجرة ولمّع بكل ما فيه من قوى. لم يأبه به فيشرله. إذا تكلم المرء مع الصبي، سيهمل عمله، والأفضل أن يركّز على الشمع. قبعة حديثة ستحمي قصة شعر فيشرله من الريح التي كانت تهبّ هنا صباحاً، اسمها نسيم البحر. على الناحية الأخرى من الطاولة يجلس كابابلانكا ويلعب واضعاً قفازات. "ربما تعتقدون أني لا أملك قفازات"، قال فيشرله وجرّ زوجاً جديداً من جيبه. شحب كابابلانكا، فقد كانت قفازاته مستعملة. رمى فيشرله الجديدة أمام قدميه وهتف: "أتحدّاكم!". قال كابابلانكا وهو يرتجف هلعاً: "ليكن! لكن أنتم لستم دكتور وأنا لا ألعب مع أيٍّ كان!". "أنا دكتور. اقرؤوا إن كنتم تستطيعون القراءة!"، رد فيشرله بهدوء ووضع جواز السفر أمام أنفه. أقرّ كابابلانكا بالهزيمة. بل إنه بكى ولم يجد السلوى. قال له فيشرله: "لا شيء يدوم للأبد" وربت على كتفه: "منذ كم سنة وأنتم بطل العالم؟ غيرك أيضاً يريد أن يعيش. انظروا إلى طقمي الجديد! هل تعيشون وحدكم في العالم؟!" إلا أن كابابلانكا كان كسيراً، يبدو مثل رجل عجوز، وجهه مليء بالتجاعيد وقفازاته دبقة. قال فيشرله، فقد شعر بالشفقة على الشيطان المسكين: "تعرفون ماذا؟ سأمنحكم سبقاً". فنهض العجوز، اهتزّ رأسه، أهدى فيشرله بطاقة وبكى: "أنتم إنسان نبيل. زوروني!". على البطاقة كتب العنوان كاملاً بحروف غريبة. ومن يستطيع قراءتها؟ تعذّب فيشرله، كل رسم يختلف عن الآخر، لم يستخرج منها كلمة واحدة. هتف كابابلانكا: "تعلّموا القراءة!" وتلاشى، لا يسمع منه سوى صراخه، وكم كان صراخه عالياً، ذلك الدجّال المتذبذب: "تعلّموا القراءة!" وفيشرله يريد العنوان، العنوان. صرخ الشيطان من بعيد: "هو على البطاقة". تنهّد فيشرله، ربما لا يجيد الألمانية، أدار البطاقة بين يديه، أراد أن يمزّقها لكن

t.me/yasmeenbook

الصورة عليها أعجبته. فقد كانت صورته هو، في برته القديمة، دون قبعة وبحدبة. كانت البطاقة جواز سفر، وهو ذاته مستلقٍ على حجرة، فوقه الجسر القديم، وعوض نسيم البحر بزغ النهار شبه منير.

نهض ولعن كابابلانكا رسمياً. لم يكن ما فعله عدلاً. حسناً، في الحلم يجيز المرء لنفسه الكثير، لكن في الحلم تظهر حقيقة الشخصية أيضاً. يعطيه فيشرله مباراة سبق وهو يغشّه بالعنوان. ومن أين يأتي الآن بالعنوان اللعين؟

في البيت كان فيشرله يحتفظ بمفكرة جيب. كل صفحتين متقابلتين فيها مخصصتان لأحد أبطال العالم. حين يظهر في الجريدة عبقري جديد، يحاول في اليوم نفسه أن يجمع كل المعلومات عنه، من تاريخ الميلاد إلى العنوان، ويقيّدها في المفكرة. نظراً للقطع الصغير للمفكرة وخطه الكبير كان التدوين يتطلب وقتاً أطول بكثير مما تتحمله طبيعة عمل المتقاعدة. كانت تسأله وهو يكتب ماذا يعمل، فلا يرد عليها بكلمة. لأنه في حال قطع العلاقات، وهو ما يحسب حسابه كقاطن في السماء، يرجو أن يجد ملاذاً وحماية عند المنافسين الكريهين من أبناء صنعته. ظل محتفظاً بقائمته سرّاً لمدى عشرين سنة. كانت المتقاعدة تتوقع قصص غرام. كانت المفكرة مخبأة عميقاً في شقّ في الأرضية تحت السرير. أصابعه الرفيعة وحدها تقدر على الوصول إليها. أحياناً كان يهزأ بنفسه ويقول: "فيشرله ماذا تستفيد منها؟ ستظل المتقاعدة على حبّك إلى الأبد". لكنه لا يلمس المفكرة إلا إذا وجب إدخال شخصية عظيمة جديدة فيها. فيها أسماء الجميع بكل وضوح، حتى كابابلانكا. سيجلبها حين تذهب المتقاعدة إلى العمل، الليلة.

بدأ النهار الجديد بالمشتريات. لكل دكتور محفظة، ومن يريد شراء بزة جديدة عليه أن يبرزها وإلا لسخروا منه. شاب شعره إلى أن فتحت المحلات. أراد أكبر محفظة، جلد مقلم، لكن يجب أن يكون السعر واضحاً

t.me/yasmeenbook

عليها. لن يسمح لأحد بأن يغشّه. قارن واجهات عشرات المحلات وساوم على قطعة عملاقة، لم تجد حيّزاً في جيب قفطانه إلا لأنه ممزّق. وعندما حان موعد الدفع، أدار ظهره. أحاط به العمال مرتابين. وقف اثنان على الباب؛ بذريعة تنفس الهواء النقي. مدّ يده إلى إبطه ودفع نقداً.

تحت الجسر وضع رأسماله في الهواء، مسّد الأوراق بالحجرة ذاتها التي كان قد استلقى عليها، ووضعها من ثم دون أن يطويها في المحفظة المخططة. وجد أن فيها متسعاً للمزيد. تنهّد، يفترض أن تكون مليئة عندما يشتريها المرء وأن تكون الآن بإضافة رأسمالي سميكة. على كل حال سيلاحظ الخياط ما فيها. ما إن دخل مشغلاً راقياً حتى سأل من فوره عن المعلم. جاء ونظر متفاجئاً إلى الزبون الواثق. رغم كل العيوب في المسخ لاحظ أول ما لاحظ البزة الرثة. انحنى فيشرله بأن رفع رأسه، كما هو عُرفه وعرّف بنفسه.

"أنا بطل الشطرنج دكتور زيغفريد فيشر. لا بد أنكم عرفتموني على كل حال من الجريدة. ما أحتاجه هو طقم تفصيل، جاهز مساء اليوم. أدفع أعلى الأثمان. النصف تأخذونه مقدّماً والقسط الثاني عند الاستلام. أسافر بقطار الليل إلى باريس، ينتظرونني في دوري نيويورك. سرقت كل ثيابي في الفندق. تفهمون، وقتي من بلاتين. أستيقظ وأجد أن كل شيء ضاع. اللصوص جاؤوا ليلاً. تصوروا رعب إدارة الفندق. كيف أخرج إلى الشارع؟ نموّي غير طبيعي، ما ذنبي أنا، ومن أين أحصل على طقم جاهز يناسبني؟ لا قميص، لا جوارب طويلة دون حمالات، لا أحذية، وهذا مع إنسان مثلي، يقدّر الأناقة كل التقدير. خذوا المقاسات في هذه الأثناء، لا أريد أن أصرفكم عن العمل. لحسن الحظ وجدوا في ماخور ما مخلوقاً، مكرسحاً محدودباً، لم تروا أنتم مثله من قبل، ساعدني بإعطائي أفضل طقومه. وبرأيكم، كيف تبدو أفضل طقومه؟ هذا هنا. ورغم كل شيء، لست مكرسحاً مثل هذا الطقم. لا يلاحظ أحد عليّ شيئاً إذا لبست طقومي

t.me/yasmeenbook

الإنكليزية. أنا صغير، طيب، ماذا أفعل بحالي؟ لكن الخيّاطين الإنكليز عباقرة، أقول أنا، كلهم عباقرة، كل واحد مثل الآخر. دون طقم عندي حدبة. أروح عند خياط إنكليزي وتختفي الحدبة. الموهبة الحقيقية تجعل الحدبة أصغر، والعبقري يقصّها. خسارة الطقوم الحلوة. طبعاً أنا مؤمّن. وعليه يمكن أن أشكر المجرم. يضع جواز سفري الجديد، الذي استخرجته أمس، على الكومودينة. ويأخذ كل شيء آخر. هنا، انظروا. أنتم تشكّون في هويتي، تعرفون، في هذا الطقم أظن حتى أنا، أنني لست أنا. كنت سأطلب ثلاثاً دفعة واحدة، لكن ما أدراني كيف شغلكم أنتم؟ في الخريف سأعود إلى أوروبا مرة أخرى. إذا كان طقمكم جيد، سترون العجب. سأرسل كل أمريكا إلى مشغلكم. وأنتم تعرضون عليّ سعراً جيداً، برهاناً على حسن النية. عليكم أن تعرفوا، أني أتوقع أن أفوز ببطولة العالم. هل تلعبون الشطرنج؟"

أخذوا مقاساته بعناية فائقة. ما يقدر عليه الإنكليز سيتمكّنون منه هنا أيضاً. ليس من الضروري أن يكون المرء لاعب شطرنج ليعرف السيد الدكتور. الوقت ضيّق، لكنْ، في خدمته اثنا عشر عاملاً، أناس رائعون، وهو، المعلم، سيتشرف بالقص بنفسه، الأمر الذي يفعله لزبائن متميزين فقط. باعتباره لاعب شدة تاروك يقدّر فن الشطرنج. المعلم معلم، سواء كان في الخياطة أو في الشطرنج. دون أن يضغط عليه، ينصحه أن يفصّل بزّة ثانية. البروفة في تمام الثانية عشرة، وفي تمام الثامنة تجهز الاثنتان. قطار الليل ينطلق في الحادية عشرة، وحتى ذلك الوقت، يستطيع السيد الدكتور أن يقضي أمتع الأوقات. وسواء فاز ببطولة العالم أم لا، فإن المرء يتشرف بمثل هذا الزبون في جميع الأحوال. في القطار سيندم السيد الدكتور على عدم تفصيل بزة ثانية. كما يرجو منه بكل أدب أن يذيع ذكر بزته القديرة في نيويورك. طبعاً سيقدّم له عرضاً خاصاً، سعراً تافهاً. وحقيقة لن يربح شيئاً في البزة، فإنه يعمل لهذا الزبون من باب الحب والفن. وما نوع القماش الذي يطلبه؟

t.me/yasmeenbook

أخرج فيشرله محفظته وقال: "مثل هذا تماماً. مقلّم، نفس الألوان، فهذا يثير إعجاباً أفضل في الدوري. أفضّل المخطّط بالأبيض والأسود، مثل رقعة الشطرنج، لكن ليس عندكم مثله، أنتم الخياطين. ولنبقَ على طقم واحد فقط. إذا أرضاني أبرق من نيويورك لطلب ثانٍ. ضع يدك بيدي! الإنسان المشهور يفي بوعده. هذه الداخليات، هذه الداخليات. أنا مضطر للبس هذه الوساخة. الداخليات أيضاً له. والآن ستسألونني لماذا لا يهتم ذلك المكرسح بالنظافة أكثر؟ هل تضرّ؟ هل يؤلم الصابون؟ أنا لا يؤلمني."

مضى بقية الصباح في صفقات مهمة. أُقتُنيَ حذاء أصفر فاقع وقبعة سوداء. الداخليات الغالية تبرق بالجدة من خلال مزق البزة. لسوء الحظ يُرى منها القليل. يجب أن تكون البزات شفافة، كما هي عند الحريم. لماذا لا يحقّ للرجل أن يظهر قيمته؟ غيّر فيشرله ثيابه الداخلية في حمّام عام. أعطى المرأة بقشيشاً وسألها من تتوقع أن يكون. "من يعني؟! واحد مكرسح!" وتبسمت ابتسامة قذرة، كما تتطلب مهنتها. قال فيشرله مغتاظاً: "قصدك بسبب الحدبة. قريباً ستطير. هل تظنون أنني ولدت هكذا؟ ورم، مرض، كما تريدين، بعد ستة أشهر أصير مستقيماً، لنقل خمسة. ما رأيك بالحذاء؟" هنا جاء زبون جديد، ظلت مدينة له بالجواب، فقد كان قد دفع. قال لنفسه: "اللعنة! ما حاجتي بالقحبة العجوز؟ أروح أتحمّم بكل بساطة".

طلب في أرقى حمّام حجرة فارهة فيها مرآة. ولأنه كان قد دفع، فقد تحمّم فعلاً، لم يكن يحب التبذير. قضى ساعة كاملة أمام المرآة. وقف أمامها من الحذاء إلى القبعة، البزة القديمة على الديوان الفاره، من يأبه بالخرقة؟ بخلافه كان القميص منشّى وأزرق، لون رقيق، مناسب وكبير، للأسف يتذكر المرء السماء لمرآه، لماذا، البحر أيضاً أزرق هكذا. للأسف لم يحصل على سروال داخلي أبيض، كان يفضل الوردي الأحمر. مطّ حمّالات الجوارب، ليتأكد من شدة صوت ارتطامها. فيشرله له ربلتان، وهاتان ليستا

t.me/yasmeenbook

مقوستين، ورباط الحمالات من حرير، على الضمانة. كان في الحجرة طاولة صغيرة، مضفورة من القصب. عليها شجيرات نخيل تجدر بأثاث الغرف من النخب الأول. أما هنا فقد كانت الطاولة إضافة على الحمام. دفعها الزبون الغني أمام المرآة، أخرج رقعة الشطرنج من جيب البزة المحتقرة، أخذ مكاناً بلا حرج وهزم نفسه في جولة سريعة. صرخ مؤنّبا نفسه: "لو كنتم كابابلانكا، كنت هزمتكم ستّ مرات في نفس هذه المدة. عندنا في أوروبا يسمون هذا شطرنج الكرع. انقلع واشحذ على أنفك! تظنون أني أخاف. واحد، اثنين وتنهار. يا أمريكي. يا مشلول. هل تعرف من أنا؟ أنا دكتور. درست. لاعب الشطرنج يلزمه ذكاء. وواحد مثلك كان بطل العالم".

ثم جمع القطع بسرعة. ترك الطاولة في مكانها. سيكون لديه العشرات منها في "قصر القرد المراح". حين خرج إلى الشارع، لم يعد يعرف ماذا يشتري. حزمة الثياب العتيقة كانت تبدو مثل الورق. المسافرون في الدرجة الأولى يملكون حقيبة. اشترى حقيبة قصب. أخفى فيها ما كان يبرزه قبلاً على جسده. سلّمها لمكتب حفظ الأمانات. قال الموظف: "فارغة". نظر إليه فيشرله بأنفه من الأسفل. "لو كان عندكم مثلها لكنتم أسعد إنسان". قرأ جدول مواعيد القطارات. قطاران ليليان يسافران إلى باريس. استطاع أن يرى موعد الأول، وكان الثاني عالياً جداً عليه. أعطته سيدة المعلومات. لم تكن ثيابها متميزة. قالت له: "هكذا تخلعون رقبتكم، أيها الرجل الصغير. أي قطار تريدون؟". ردّ باستصغار: "اسمي دكتور فيشر". تساءلت كيف يقدر على هذه الكذبة. "أسافر إلى باريس. عادة ما أركب قطار الساعة الواحدة وخمسة، أترون، هذا هنا. وسمعت أن غيره ينطلق أبكر". لأنها ليست أكثر من امرأة، لم يبح بسرّ أمريكا والدوري ومهنته. قالت السيدة: "تقصدون قطار الحادية عشرة، انظروا، هنا". "شكراً، سيدتي المصون"، واستدار باحتفالية. شعرت بالخجل. كانت تتقن السلم الموسيقي للشفقة وعزفت النغمة الخطأ. لاحظ خنوعها، إنها من سماء ما، ودّ لو يلقي على

t.me/yasmeenbook

أسماعها شتيمة، لقد كشفها. هنا سمع قصف قاطرة تدخل المحطة وتذكّر أنه في المحطة. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً. بهذا خسر وقته الثمين مع الحريم. في ثلاث عشرة ساعة سيكون على الطريق إلى أمريكا. قرّر السفر بالقطار الأخير بسبب المفكرة التي لم ينسها رغم كل الأحداث الجديدة. حبّاً في الطقم أخذ تكسي: "خياطي ينتظر" قال للسائق خلال سير السيارة. "عليّ أن أسافر هذه الليلة إلى باريس، وفي الصباح الباكر إلى طوكيو. هل تعرفون كم هو ضيق وقت الدكاترة؟" كانت النقلة غير مريحة للسائق. كان لديه إحساس أن القزم لن يدفع بقشيشاً ولهذا ثأر لنفسه سلفاً: "أنتم لستم دكتور يا سيد، أنتم مشعوذ". كان يتردّد على السماء سوّاقون بقدر ما شئت. يلعبون لعباً سخيفاً، هذا إن تمكّنوا من اللعب أساساً. فكر فيشرله: سأهديه إهانة الشرف هدية، لأنه لا يعرف يلعب الشطرنج. أساساً كان فرحاً، لأنه بهذا وفر البقشيش على نفسه.

تقلصت الحدبة أثناء التجربة. في البداية لم يصدق الصغير المرآة واقترب منها ليرى ما إن كانت مسطحة. أزاح الخياط نظره سرّاً. صرخ فيشرله: "تعرفون ماذا؟ أنتم ولدتم في إنكلترا. أراهن على هذا إذا أردتم. أنتم ولد.تم في إنكلترا". شيئاً فشيئاً أقرّ الخياط أنه يعرف لندن جيداً، لم يلد في لندن، إنما كاد أن يقيم هناك بعد شهر العسل، لكن المنافسة القوية ... "وهذه ليست إلا البروفة. مساء ستختفي تماماً"، قال فيشرله ومسّد على حدبته. "ما رأيكم بالقبعة؟". كان الخياط مذهولاً. استاء من السعر، مدح الشكل الحديث ونصحه من القلب بمعطف ملائم. قال: "الإنسان يعيش مرة واحدة". وافقه فيشرله. اختار لوناً يوفق بين صفار الحذاء وسواد القبعة، الأزرق الفاقع. "عدا هذا لقميصي الظل ذاته". رفع الخياط قبعته أمام كل ذلك الذوق الرفيع: "السيد الدكتور يرتدي قمصانه كلها بذات اللون والنموذج"، توجّه إلى بعض العاملين وكشف لهم عن فرادة هذا الشخص المشهور: "بهذا الشكل يتبدى أبو الهول المنير. نادراً ما تتجلى

t.me/yasmeenbook

الشخصيات الحقيقية. حسب رأيي المتواضع تضفي اللعبة على الإنسان المحافظة. سيّان، لاعب شدة تاروك أو الشطرنج، يتعادلان. قناعات رجل الأعمال صلبة وهو متين. يسمو بنفسه ليكون تجسيداً للهدوء. بعد انتهاء يوم العمل يحقّ للمرء أن يسكن إلى الهدوء. حتى العائلة الضيقة لها حدودها في الحياة. أثناء لعبة شدة رائقة يغضّ ربّنا نظرة الأب القاسية. أطلب من أي آخر مقدّماً على المعطف. لكن نظراً لشخصكم، فلا أسمح لنفسي بأن أهينكم".

قال فيشرله: "طيب، طيب. زوجة المستقبل تسكن في أمريكا. لم أرها منذ سنة. المهنة، هذه المهنة البائسة. الدوريات جنونية. هنا تقوم تتعادل، هناك تربح، غالباً تربح، لنقل دائماً، الخطيبة تتحرق شوقاً. ستقولون، لتسافر معك. الحكي سهل. إنها من عائلة مليونيرية. يقول أهلها: "إما الزواج أو البقاء في البيت. وإلا هجرك وانفضحنا." ما عندي أي مانع ضد الزواج. ستجلب بائنتها قصر ملآن، لكن ليس قبل أن أصبح بطل العالم. قبلها لا. هي تتزوج اسمي وأنا أتزوج فلوسها. لن أرضى بالفلوس وحدها. إذاً، إلى اللقاء في الثامنة."

من خلال كشف مشاريع زواجه أخفى فيشرله التأثير العميق، الذي ولّده فيه وصف شخصيته. فهو لم يكن يعرف حتى الآن أن الرجال يملكون أكثر من قميص واحد. زوجته السابقة، المتقاعدة، كانت تملك ثلاثة، وهذا ليس من زمن بعيد. لم يعد السيد الذي يأتي أسبوعياً يرغب في رؤيتها في القميص نفسه دائماً. أعلن ذات اثنين أنه ملّ، أن الأحمر الأبدي يثير أعصابه. الأسبوع يبدأ بداية غير جيدة، إنه منهار تماماً، تجارته تبور. يحق له أن يطالب بشيء محترم مقابل نقوده. ثم إن عنده زوجة. لماذا، لأنها نحيفة؟ هي رغم هذا أنثى. حياته لا تتعلق بالزوجة. إنها أمّ أطفاله. يعيد ويقول: إذا جاء الاثنين القادم وشاهد القميص الأبدي ذاته فإنه يتنازل عن المسرّة. والرجال الدفّيعة قلّة. ثم تحسّن مزاجه. بعد ساعة شعر بالنعومة.

t.me/yasmeenbook

ثم سبّ من جديد قبل ذهابه. عندما عاد فيشرله إلى البيت، كانت المرأة عارية تماماً وسط الحجرة وكان القميص الأحمر مكوّماً في الزاوية. سأل، ماذا جرى. قال التمثال المضحك: "أبكي. راح ولن يعود بعد". سأل فيشرله: "ماذا يريد. سألحق به". ثغت فزّاعة الطيور السمينة: "القميص لا يعجبه. يريد واحد جديد". نعب فيشرله: "وأنت لا تعدينه بهذا. ما فائدة فمك". نزل الدرج مثل المجنون وصرخ على الشارع: "يا سيد، يا سيد!"، لم يكن أحد يعرف اسمه. ركض آملاً بالعثور عليه واصطدم بعمود إنارة. وهنا تماماً كان السيد يقضي حاجة. انتظر فيشرله حتى انتهى. ثم، لم يعانقه رغم أنه عثر عليه، بل قال: "لكم كل اثنين قميص جديد. على ضمانتي أنا. هي زوجتي. أقدر أعمل بها ما أريد. شرفونا الاثنين القادم من جديد!". قال السيد وتثاءب: "سأرى ما الذي أستطيع فعله لها". ولكيلا يعرفه الناس، أخذ طريقاً بعيداً. في الثلاثاء اشترت المتقاعدة قميصين جديدين، أخضر وبنفسجياً. في الاثنين جاء السيد. كانت ترتدي الأخضر. في البداية سألها حانقاً ما إن كانت قد لونت قميصها القديم، فلا أحد يغشّه، ليس أحمق. أرته الآخرين وسُرّ أيّما سرور. كان يفضّل البنفسجي على الأخضر، ولونه المفضل كان الأحمر، لأنه يذكره بأيامه الأولى. وهكذا أنقذ فيشرله المرأة بحذاقته. وإلا لماتت جوعاً في تلك الأوقات العصيبة.

وبينما هو يفكر في الحجرة الضيقة والمرأة بالغة العرض، قرّر أن يعفّ عن المفكرة. ربما التقاها في البيت. تحبه جداً. وربما لن تتركه. حين تقول لا، تبدأ بالصراخ وتقف في الباب. فلا يمكنه دفعها جانباً، فهي أعرض من الباب. وإذا أصرّت على شيء ما فإنها تنسى العمل وتمضي الليل في البيت. بهذا يتأخر عن القطار ويصل متأخراً إلى أمريكا. يمكنه أن يجد عنوان كابابلانكا في باريس أيضاً. إذا لم يعرفه أحد هنا، سيسأل عنه في أمريكا. المليونيرات يعرفون كل شيء. لم يعد فيشرله يرغب بالعودة إلى الحجرة. مع أنه يود أن يزحف تحت السرير للوداع، لأنه هناك كان مهد سيرته. هنا

t.me/yasmeenbook

وضع مصائد وغلب أبطالاً، كان يهجم كالبرق من خانة إلى خانة، هنا يسود هدوء لا يسود في أي مقهى، الخصوم يتقنون اللعب، لأنه هو الخصم. سيبني في قصر القرد المراح مثل تلك الحجرة تماماً بمثل ذلك السرير تماماً لأجل النقلات الماهرة، هو وحده من يحق له الزحف تحته. لا داعي للوداع. كل تلك المشاعر مجانية. السرير سرير أيّاً كان. هكذا أيضاً يتذكر كل تفاصيله. وعليه، سيشتري الآن أحد عشر قميصاً، كلّها زرقاء. سيكافَأ من يستطيع التمييز بينها. الخياط يعرف الشخصيات القوية، لكن يفضّل أن يكفّ عن ذكر شدة تاروك. هذه لعبة الحمير.

حاملاً حزمته اتجه من جديد إلى المحطة، فتح الحقيبة القصب ووضع فيها القمصان واحداً تلو الآخر. انقلب احتقار الموظف إلى احترام. فكر المالك: "دزينة أخرى ويفقد عقله". عندما حمل الحقيبة المحكمة، كادت أن تجذبه إلى قطار مستعدّ للانطلاق. حمل عنه الموظف هذه الغواية. في شباك خاص افتتحه مكتب سفريات للأجانب طلب فيشرله بألمانية مكسرة بطاقة سفر بالدرجة الأولى إلى باريس. طردوه. كوّر قبضته ونعق: "إذاً، عقاباً لكم أسافر بالدرجة الثانية، ولتتحمل شركة السكك الحديدة الخسائر! انتظروا فقط حتى أرجع في طقمي الجديد". لم يكن غاضباً في الحقيقة. فهو لا يشبه الأجانب بكل بساطة. بسرعة تناول أمام المطعم نقانق ساخنة. قال لبائع النقانق: "أستطيع أن أدخل مطعماً وأقعد على طاولة مستقلّة وأرمي مبلغاً هائلاً على الطاولة، محفظتي تسمح لي"، دسّ المحفظة تحت أنف الرجل المكذب، "لكنني لست من أصحاب الأكل، أنا من أصحاب الحذاقة". ردّ عليه الآخر: "بمثل هذه الرأس! صدقت". فقد كان يحمل فوق جسد أخرق رأس طفل ويحسد كل من له رأس أكبر. قال فيشرله وهو يدفع: "برأيكم، ماذا فيه؟ الدراسة الطويلة ولغات، لنقل ستّ".

أمضى الأصيل في تعلّم الأمريكانية. أراد العاملون في المكتبات أن

t.me/yasmeenbook

يورّطوه بكتب تعليم الإنكليزية. إلا أنه ردّ عليهم ممازحاً: "يا سادتي، الواقف أمامكم ليس غبياً. أنتم لكم مصالحكم وأنا لي مصالحي". أقسم العمال والملاك إنهم في أمريكا يتحدثون الإنكليزية. "الإنكليزية أعرف، قصدي شيء مختلف". بعد أن تأكد من أن الجميع قالوا له الشيء نفسه أينما ذهب، اشترى كتاباً يحوي العبارات الإنكليزية الدارجة. حصل عليه بنصف السعر، لأن أمين هذه المكتبة يتغذى كليّاً على كارل ماي، ويبيع الكتب الأخرى بشكل ثانوي، وتذكّر مخاطر صحراء تاكلاماكان، التي يفكر هذا القزم بتجاوزها، عوض السفر بالقطار عبر سيبيريا أو بالسفينة عبر سنغافورة، فأخرجته عن طوره وسعة اهتمامه.

على مقعد في الحديقة دسّ البحاثة المغوار أنفه في أول درس. كان فيه معلومات جديدة كثيرة، مثل "الشمس مشرقة" أو "الحياة قصيرة". للأسف كانت مشرقة حقيقة. فالوقت نهاية آذار ولا تلسع بعد. وإلا لاتقاها فيشرله. كانت له تجارب مريرة مع الشمس. كانت ساخنة مثل الحمى. لم تكن تشرق في السماء قطّ. تُبلِّد المرء عندما يلعب الشطرنج.

هتفت امرأة بلهاء بجانبه: "أنا أيضاً أتكلم الإنكليزية". كان لها ضفائر ويبلغ عمرها حوالي الرابعة عشرة. تجاهلها وتابع قراءة المستجدات بصوت عالٍ. انتظرته. بعد ساعتين أغلق الكتاب. ثم أخذته منه كأنها تعرفه منذ عشرين سنة وراحت تحفّظه، ما كان عبقرية المتقاعدة ستعجز عنه. كان قد حفظ كل كلمة. سألته القاصرة: "منذ كم سنة تتعلمون؟ نحن لم نصل إلى هذا المستوى، أنا أتعلم فقط منذ سنتين". نهض فيشرله، طالبها باستعادة أملاكه، ألقى عليها نظرة غاضبة، قاتلة، واحتجّ صارخاً: "أعفّ عن التعرف عليكم! هل تعلمون متى بدأت؟ قبل ساعتين تماماً". بهذا الكلام هجر المخلوق المتخلف.

بحلول المساء كان قد تعلم محتويات الكتاب الصغير. غيّر أكثر من مقعد لأن الناس كانوا ينتبهون إليه أينما جلس. هل بسبب الحدبة السابقة

t.me/yasmeenbook

أم بسبب القراءة بصوت عالٍ؟ وبما أن الحدبة في آخر أيامها، قرّ قراره على الأخيرة. كان يهتف من بعيد حين يقترب أحدهم من مقعده: "لا تزعجوني، أرجوكم، سأرسب غداً في الامتحان، وماذا تستفيدون أنتم، أنتم إنسان طيب". فلا يستطيع أحد مقاومته. امتلأت مقاعده، وبقيت بنوك الآخرين فارغة. أصغوا إلى إنكليزيته ووعدوه أن يشدّوا على أياديه لأجل الامتحان. عشقت مدرّسة مثابرته ولاحقته حتى نهاية الحديقة، من مقعد إلى مقعد. قالت إن قلبها على الأقزام، تحب الكلاب، لكنها تفضل كلاب تسفيرغبينتشر[1]، رغم أنها بلغت السادسة والثلاثين فإنها ما زالت عزباء، تدرس الفرنسية بهمّة ومستعدّة أن تتبادل معه الإنكليزية، لا تؤمن بالحب. احتفظ فيشرله برأيه لنفسه طويلاً. فجأة أعلنت أن مؤجرتها واحدة حقيرة قابلة للبيع والشراء وصبّت اللعنات على الشفاه المصبوغة، معلنة أن البودرة مقبولة نوعاً ما. فضاق ذرعا، كيف؟ امرأة دون زينة، كيف تتصور هذه المرأة طبيعة العمل؟ هسهس بها: "أنتم الآن في السادسة والأربعين وتتحدثون هكذا، ماذا ستقولون إذا وصلتم للسادسة والخمسين؟". ذهبت المدرسة. وجدت أنه غير مثقف. لا يرضى كل الناس بالإهانات. أغلبهم كان راضياً بأن يتعلم عنده بالمجان. كان عجوز حسود يصحّح له ويصرّ على القول: في إنكلترا لا يقولون هكذا إنما هكذا. "أنا أتكلم أمريكاني"، قال فيشرله وأدار له حدبته. وافقه الجميع. هزئوا بالعجوز الذي يخطئ بين الأمريكانية والإنكليزية، فقد أضاف الجميع هذه المعلومة الجديدة إلى معارفهم. عندما هدّدهم ذلك الإنسان الوقح، الذي سيبلغ الثمانين بالتأكيد، بالشرطة، قفز فيشرله وقال: "حسناً، سأجلبها أنا" فأسرع العجوز في الذهاب وهو يرتعش.

بأفول الشمس غاب الناس شيئاً فشيئاً. تجمهر بعض الصبية وانتظروا حتى يتفرق آخر البالغين. فجأة حاصروا مقعد فيشرله وانطلقوا في جوقة

1) تسفيرغبينتشر، فصيلة من الكلاب القزمة.

t.me/yasmeenbook

إنكليزية. كانوا يزعقون yes ويعنون يهودي. قبل استعداده للسفر كان فيشرله يخاف الأولاد خوفه من الطاعون. أما اليوم فقد وضع الكتاب جانباً، صعد على المقعد وقاد الجوقة بذراعيه الطويلتين وغنّى معهم ما تعلّمه قبل قليل. يصرخ الصبيان، فيصرخ أعلى منهم، ترقص القبعة الجديدة رقصة وحشية على رأسه وينعق بين الحين والآخر: "أسرع يا سادتي، أسرعّ" لينطلق الصبيان في المراح وفجأة صاروا بالغين. رفعوه على الأكتاف، فسألهم: "ما الذي تفعلونه يا سادتي؟!"، وبعد تكرار "سادتي" عدة مرات غدوا كباراً بشكل نهائي. دعموا حذاءه، سندوا حدبته، تشاجر ثلاثة منهم على كتاب مدرسي، لمجرد أنه خاصته، جرّ أحدهم قبعته. رفعه الآخران مزهوين، تأرجح نحو الخلف على أكتاف ضعيفة، لم يعد يهوديّاً ولا مكرسحاً، غدا فتىً مسلّياً يفهم لعبة خيام الهنود الحمر. صار بطلهم النبيل حتى وصلوا إلى بوابة الحديقة. تركهم يمرجحونه وكان ثقيلاً جداً. للأسف أنزلوه في الخارج. سألوه ما إن كان سيأتي غداً أيضاً. لم يخذلهم. قال: "يا سادتي، إن لم أكن في أمريكا، سأكون معكم". تفرقوا متحمسين ومستعجلين بخطوات بطيئة. كان العقاب ينتظر أغلبهم في البيت.

سار فيشرله الهوينى على الشارع، حيث ينتظره المعطف والبزة. صار يثمن الدقة والوعود منذ أن علم أن القطار ينطلق في الحادية عشرة. بدا له الوقت مبكراً على الخياط، انعطف في زقاق جانبي، دخل مقهى غريباً، أمامه احتفت به نساء ملونات وشرب، معجبا بإنكليزيته المدهشة، كأساً من مشروب قويّ. قال thank you، رمى النقود على الطاولة، لم يلتفت إلا بعد أن وصل إلى الباب ومط good by إلى أن سمعه الجميع، وسقط نتيجة لهذه الإطالة في حضن طباخ الجوازات، الذي كان سيتهرّب منه في ظرف آخر. "غريب، من أين لك هذه القبعة؟"، سأل هذا مندهشاً بالقزم اندهاشاً لا يقل عن اندهاشه بالقبعة الجديدة، كان هذا ثالث زبون له يصادفه في المنطقة. همس له فيشرله: "هس" ووضع إصبعه على فمه ثم

t.me/yasmeenbook

أشار إلى المحل خلفاً. وكي يقطع عليه طريق أسئلة إضافية، مدّ له حذاءه الأيسر وقال: "تموّنت لأجل الرحلة". فهم طباخ الجوازات وسكت. أبهره العمل الناجح في النهار وانطلاقة رحلة في أرجاء العالم. شعر بالشفقة على الصغير لأنه مضطر للسفر إلى اليابان وليس معه نقود. فكر هنيهة أن يدسّ في جيبه عدة أوراق نقدية ذات قيمة كبيرة، فقد كان عمله يسير على أحسن ما يرام. لكن جواز سفر وأوراق نقدية، هذا كثير جداً. قال، موجّهاً الكلام إلى نفسه بالدرجة الأولى وليس إلى الصغير: "إذا احترت في أي مدينة، اذهب مباشرة إلى بطل العالم في الشطرنج. ستجده بسهولة. العناوين معك؟ الفنان يضيع دون عناوين. إياك أن تنسى العناوين!".

كانت هذه النصيحة الآتية من فوق الأكتاف كافية لإعادة فيشرله تحت السرير. المغادرة دون وداع إنكار للجميل. ما ذنب السرير في تلك المرأة الغبية. والفنان لا ينفصل عن مفكرة الجيب. قطار الساعة الواحدة وخمسة ينطلق أيضاً في موعده المحدد. وصل في تمام الثامنة إلى مشغل الخياط. ناسبته البزّة كأنها مسكوكة عليه. اختفت بقايا الحدبة تحت المعطف. هنأ المعلمان كلٌّ منهما الآخر، وكلٌّ منهما غبط الآخر على فنه.

قال فيشرله: wonderfull وأضاف: "علماً أنه هناك بشر لا يجيدون حتى الإنكليزية. أعرف واحداً. يودّ أن يقول thank you ويقول شكراً".

كان الخياط من ناحيته يعشق أكل هاماندغس[1]. ذهب أول أمس إلى مطعم ولم يفهمه النادل. سبقه زبونه بالقول: "مع أن الكلمات الإنكليزية تشبه الألمانية كثيراً. والآن أسألكم، هل هناك لغة أسهل؟ حتى إن اليابانية أصعب بكثير".

"مع أني، واسمحوا لي هنا أن أشي بسرّ، شعرت منذ النظرة الأولى لحظة تجاوزكم خط الدخول من الباب، بأنكم خبير لغات لا يشقّ له غبار. أتفق

---

1) شطيرة ham and egges

t.me/yasmeenbook

معكم تماماً بصدد وعثاء قاموس اللغة اليابانية التي لا سبيل لاستئصال شأفتها. كاما[1] الحسود تذيع عشرات آلاف الحروف المختلفة. استعرضوا فقط ملحقات الصحف اليابانية الصارخة. تجدون الإعلانات فيها في طور الأغرار. اللغة تبرأ جَرَمَ المرض اللامستشعَر لحركة الاقتصاد. نعاني من انتعاش شامل لأجل خير الشعب الصديق. ننظر نظرة محققة بعين العطف في الجهود اللامجدية، منذ أن بدأ جرح الحرب المحتمة في الشرق الأقصى بالاستشفاء".

قال فيشرله: "معكم مطلق الحق ولن أنساكم. بما أن قطاري ينطلق قريباً، نفترق كأصدقاء مدى الحياة".

أضاف الخياط: "لغاية اللحد" وعانق بطل العالم القادم. كان يسيطر على مجمل كيانه الخوف والحنان حين ينطق باللحد، فقد كان له أولاد، وحضن الدكتور بقوة في سكرة الموت. انشبك زر المعطف الجديد وانقلع من مكانه. أغرق فيشرله في الضحك، تذكر موظفه السابق، كاره الأزرار الأعمى. طالبه الخياط، منتهكاً في أقدس مشاعره، بتوضيح سريع. لهث الصغير لهاثاً سريعاً: "أعرف إنساناً، أعرف إنساناً يكره الأزرار. مناه أن يبتلع كل أزرار الدنيا، حتى لا يبقى منها شيء. ففكرت، ماذا سيفعل السيد معلم الخياطة معه. ألا توافقونني؟"

فنسي المُهان مستقبلُه في اللحد وضحك ضحكاً راعداً. وبينما يعيد خياطة الزر بنفسه، وعد المرة تلو الأخرى أن يرسل هذه الفكرة الخرافية إلى صحيفة طرائف ليطلعوا عليها. خاط ببطء كي يكون له رفاق في الضحك. كان يفعل كل شيء في حضور رفاق، فهو لا يجد مسرّة حقيقية حين يكون وحده، ولا في الدموع. تأسف على رحيل السيد الدكتور من أعماق قلبه. فيه يخسر أفضل أصدقائه، لأنهما كانا سيصبحان أفضل الأصدقاء لو بقي،

1) كاما، ربة النصر والإشاعة.

t.me/yasmeenbook

كما هو واثق من أن حاصل اثنين في اثنين أربعة طوال الدهر. افترقا وهما يتخاطبان بصيغة المفرد. وقف المعلم في الباب ونظر وراءه طويلاً. ثم تلاشت صورة القزم المحبوب – المهم هو الصورة في القلب – في طيف المعطف المتميز، الذي يُشاهَد تحته مشكوراً بنطال برة لها قيمة استثنائية.

حمل فيشرله البزة القديمة مغلّفة إلى المحطة. ظهر في القاعة للمرة الثالثة، إنساناً يرتدي ثياباً جديدة، عاد شابّاً وكريم المحتد. بلامبالاة ملوكية وضع بطاقة حفظ الأمتعة بين الوسطى والشاهدة ورفعها إلى الموظف وطلب "حقيبة القصب". تحول احترام الموظف إلى توقير. ربما كان المكرسح قد ساوم عصر اليوم على القمصان، وها هو ذا الآن يرتدي الأناقة على جسده. دسّ الحزمة بيديه في الحقيبة وأعلن: "لنتركها مغلقة. فتحها عمل جنوني". على شباك الأجانب سأل بألمانية وفظاظة: "هل يمكنني الحصول هنا على بطاقة سفر إلى باريس بالدرجة الأولى أم لا؟". "طبعاً، بديهي"، أكد الرجل ذاته، الذي طرده قبل عدة ساعات. من هذا فهم فيشرله، عن حقّ وعن فخر، أنه لم يعد يُعرف. اشتكى بلكنة إنكليزية: "الأمور تجري عندكم ببطء، يا سادتي"، فما زال يحتفظ بكتاب التعليم تحت إبطه: "أرجو أن قطاراتكم تسير أسرع". سأله الموظف ما إن كان يرغب في عربة منامة، فما زال هناك سريران فارغان. "رجاء، في قطار الساعة الواحدة وخمسة. "هل مواعيد السفر عندكم دقيقة؟". "طبعاً، بديهي، نحن في مركز ثقافي قديم".

"أعرف. لا علاقة لهذا بالقطارات السريعة. أهم شيء عندنا في أمريكا هو العمل. بيزنس، إذا كنتم تفهون قدراً قليلاً من الإنكليزية". قوّت الطريقة اللافتة التي يحمل بها السيد القصير محفظة مقلّمة ومليئة قناعةَ الموظف بأن من أمامه أمريكي، كما أكدت الهيبة اللامحدودة التي يستحقها مثله. بعد أن دفع فيشرله ودسّ البطاقات في المحفظة المقلّمة قال: "أنا أزهد بهذه البلاد. لقد غشّوني. عاملوني معاملة المكرسح، وليس معاملة

t.me/yasmeenbook

الأمريكي. تمكّنت بفضل معرفتي اللامعة باللغة من إحباط نوايا أعدائي. هل تعرفون، أني أُختُطفت إلى المواخير؟ عندكم لاعبو شطرنج جيدون، هذا هو الشيء الوحيد، الذي أستطيع الإقرار به". وهذا هو أيضاً رأي عالم النفس الباريسي المشهور، البروفسور كين، صديقي العزيز. حبسوني تحت سرير وابتزّوا مبلغاً طائلاً كفدية تحت التهديد بالقتل. دفعت، لكن شرطتكم ستدفع لي ثلاثة أضعاف. تم اتخاذ الإجراءات الدبلوماسية. قال مركز ثقافي قال!". استدار دون تحية. غادر القاعة بخطوات واثقة. وعلى فمه رعشة احتقار. له يقولون مركز ثقافي! له هو، من ولد هنا ولم يغادر المدينة بعد، من حفظ كل جرائد الشطرنج غيباً، من كان أول من يقرأ المجلات المصورة في السماء واستطاع تعلّم الإنكليزية خلال ساعات بعد الظهيرة. تأكد منذ نجاحه من سهولة تعلم كل اللغات ونوى أن يتعلم لغتين في الأسبوع، في أوقات فراغه، هذا إن سمحت له مهنة بطل العالم في أمريكا. يعني هذا ستّاً وستّين لغة في سنة، لا أحد يحتاج إلى لغات أكثر، ولماذا، إنه يبصق على اللهجات، فهو يعرفها بجميع الأحوال.

كانت الساعة nine o´ clock، الساعة الكبيرة أمام المحطة تمشي بالإنكليزية. تسدّ بوابات البنايات في العاشرة. يفضّل تجنّب أي لقاء مع البواب. تدوم الطريق إلى الثكنة المتداعية، التي أضاع فيها فيشرله للأسف عشرين عاماً من حياته مع عاهرة، أربعين دقيقة، forty minutes. دون أن يستعجل طرقه بالحذاء الأصفر. توقف هنا وهناك تحت قنديل غاز وفتح الكتاب ليحفظ الكلمات التي يفكرها بالإنكليزية. أطلق على الأشياء أسماء وخاطب أناساً يصادفونه، لكن بصوت خافت كي لا يوقفوه. تبيّن أنه يعرف أكثر مما يتصور. وعندما لم يصادف شيئاً جديداً بعد عشرين دقيقة، ترك البنايات، الشوارع، القناديل والكلاب تمشي، وتفرّغ للعبة شطرنج إنكليزية. وأطال هذه حتى وصل إلى الثكنة القذرة. فاز بالمباراة أمام البوابة ودخل إلى الممرّ. كانت زوجته السابقة تثقل على أعصابه،

t.me/yasmeenbook

وبقوة. كي لا يرتمي في حضنها اختفى خلف الدرج. فوجد متسعاً مريحاً. ثقب الدرابزين بالعيون. وهو كثير الثقوب أصلاً. لو أراد لتمكّن من إقامة متاريس على الدرج بأنفه. ظل هادئاً كامل الهدوء حتى العاشرة. أغلق البواب، الإسكافي الحثالة، البوابة وأطفأ إنارة الدرج بيدين مرتعشتين. عندما اختفى في شقته القذرة، كان حجمها تقريباً يتجاوز ضعفَي حجم زوجة فيشرله، نعب هذا بصوت خفيض: "how do you do"، سمع الإسكافي صوتاً رفيعاً، ظن أن إحدى النساء في الخارج، وانتظر ليتأكد مما إن كانت ستقرع الجرس أم لا. ظل كل شيء هادئاً. لقد أخطأ، لم يمر أحد في الشارع. دخل واستلقى، مستثاراً بالصوت، جانب امرأته التي لم يلمسها منذ شهور، لينام.

انتظر فيشرله المتقاعدة، ليعرف ما إن كانت ستأتي أم تذهب. كان يفترض أن يعرفها من خلال عود الثقاب، فهي ترفعه عالياً دائماً لأنها مهووسة بالسكائر، أكثر من كل عاهرة أخرى في البناية. أشدّ ما يتمناه هو أن تخرج. لأنه آنئذٍ سيصعد، يأخذ مفكرة الجيب من تحت السرير، يودّع مهد الهدوء، فهناك مكانه النموذجي عندما كان مكرسحاً صغيراً بعد، ثم يركض خارجاً من البناية ويأخذ التكسي إلى المحطة. فوق سيجد مفتاح الباب الخارجي، الذي رماه في زاوية غضباً من ثرثرتها البقرية، وقتئذٍ كان أكسل من أن يستعيده. فإن جاءت، عوض أن تذهب، فإنها ستأتي بزبون. على أمل ألا يطيل هذا البقاء. في أسوأ الأحوال سيزحف د. فيشر، مثل فيشرله سابقاً، إلى الحجرة. فإذا سمعته المرأة ستصمت، وإلا لاهتاج سيدها. وحتى تستطيع الكلام، سيكون قد اختفى. لماذا تعيش مثل تلك المرأة طوال النهار؟ إما أنها تستلقي مع رجل في السرير، أو أنها لا تستلقي مع رجل في السرير. إما أنها تسرق من رجل فلوساً، أو تهديها إلى آخر. إما أنها عجوز، فيملّ المرء منها، أو أنها شابة، وبذلك تكون أكثر غباء. إذا أعطت أحدهم شيئاً ليعلفه، فإنها تفترسه بالمقابل كلياً، إذا لم تكسب

t.me/yasmeenbook

شيئاً، يذهب المرء ليسرق أمشاط الجيب لأجلها. اللعنة! وأيّ شطارة في هذا؟! الرجل الذي ترعرع لتوه يضع نفسه وقضيته في خدمة الشطرنج. خلال الانتظار رفع فيشرله صدره. فمن يعلم كيف سيبدو ظهر المعطف والبزة غداً، الحدبة ترهقهما، تحمّلهما ما لا طاقة لهما به.

لم يظهر أحد طويلاً. كان المطر يتقاطر من المزراب إلى الباحة. كل القطرات تصب في المحيط. د. فيشر يمخر عباب المحيط إلى أمريكا. في نيويورك عشرة ملايين نسمة. الشعب فرح فرحة عارمة. يتعانق الناس على الشوارع ويصرخون: عاش! عاش! عاش! مئة مليون منديل تلوح في الاستقبال، يلفّ المواطنون منديلاً على كل إصبع. تختفي دائرة الهجرة. ولماذا تكثر السؤال؟ مندوبات عاهرات نيويورك يضعن سماءهن تحت قدميه. هذه موجودة هناك أيضاً. يشكر. لقد تخرّج في الجامعة، الطائرات ترسم في الهواء د. فيشر. ولماذا لا يعملون له دعايات؟ إنه أكثر قيمة من مسحوق برسيل. لأجله يسقط الآلاف في الماء. يأمرهم، عليكم إنقاذهم، قلبه ضعيف. يرتمي كابابلانكا في أحضانه. يهمس: "أنقذوني!". لحسن الحظ يبقى قلب فيشرله أيضاً أصمّ في الضجيج. "انقلعوا!"، يصرخ، يدفعه. الحشد الغاضب يمزق كابابلانكا. تطلق المدافع نيرانها فوق ناطحة سحاب. يصافحه رئيس الولايات المتحدة. خطيبته تريه جهازها، بكل وضوح. يرضى به. تُقَدَّم له مشاريع اشتراك في قصر القرد المراح. وفي كل ناطحات السحاب. يتم توقيع السندات. يؤسّس مدرسة للمواهب الشابة. يتواقحون. يطردهم. في الطابق الأول تدقّ الساعة الحادية عشرة. هناك تعيش امرأة في الثمانين مع ساعة جدتها. ستغادر عربة المنامة بعد ساعتين وخمس دقائق إلى باريس.

يصعد فيشرله الدرج على رؤوس أصابع قدميه. لا يمكن أن تغيب الحرمة طوال الوقت. من المؤكد أنها منبطحة تحت زبون. يتوقف تحت الحجرة في الطابق الثالث ويسمع أصواتاً. لا يسقط ضوء من خلال الشقوق. لأنه

t.me/yasmeenbook

يحتقر المرأة لا يفهم شيئاً من لغطها. يخلع الحذاء الجديد ويضعه على الدرجة الأولى من بيت السلّم، أقرب إلى أمريكا. يضع القبعة الجديدة فوقها ويبدي إعجابه بها، وهي أكثر سواداً من العتمة. لا يبتعد عن كتاب تعلّم الإنكليزية، فيخبّئه في جيب المعطف. يفتح الباب حذراً، فهو متمرّس في هذا. تتابع الأصوات الحديث، سباب في سباب. كلاهما جالسان في السرير. يترك الباب مفتوحاً ويزحف مباشرة إلى الشقّ. يبدأ بدسّ أنفه فيه: المفكرة موجودة بعد، تفوح منها رائحة الكاز الذي تسرب في الشق قبل شهور. "لي الشرف"، يفكر فيشرله وينحني لكل فناني الشطرنج أولاء. ثم يدفع المفكرة بشاهدة يمناه إلى آخر الشق ويرفعها نحو الأعلى، يلتقطها. يسدّ فمه بيسراه لأنه يودّ أن ينطلق بالضحك. فالزبون فوق يتحدث مثل كاره الأزرار. يعرف تماماً كيف هي المفكرة، أين مبتدأها وأين منتهاها ويقيد اسمه في آخر الصفحات الفارغة حسب إحساس أصابعه. تصعب عليه الكتابة بخط صغير أكثر من قبل. ولهذا يسجل على صفحة "دكتور" وعلى ثانية "فيشر"، على ثالثة "نيو" وعلى الرابعة "يورك". سيدوّن العنوان الدقيق تالياً، حتى يعرف أين يقع قصر القرد المراح لخطيبته. لم يهتم حتى الآن بهذه الزيجة إلا قليلاً. كلّفه القلق على رأس المال، جواز السفر، البزة وبطاقات السفر أياماً عديدة ثمينة. في أنفه رائحة الكاز. تقول المليونيرة "دارلينغ" وتنتف أنفه، تحب الأنوف الطويلة، تأنف من القصيرة، من أين جاء بأنفه؟ تسأل عندما يتمشيان معاً على الشارع، كلّ الأنوف قصيرة في نظرها، هي جميلة وأمريكانية، شقراء كما في الأفلام، قامتها عملاقة وعيناها زرقاوان، تتجول في سيارتها الخاصة، تخاف من الترام، ففيه مكرسحون ونشّالون، يسرقون الملايين من جيوب المرء، خسارة، من أين لها أن تعرف كرسحته السابقة في أوروبا.

يقول الرجل في السرير: "المكرسح والخرى شيء واحد". يضحك فيشرله لأنه لم يعد مكرسحاً ويراقب ساقي الرجل غير الحافيتين. يضغط الحذاء

t.me/yasmeenbook

على الأرضية. لولا أنه يعرف أن كاره الأزرار يملك عشرين قرشاً فقط، لا نصف قرش غيرها، لأقسم أنه هو. يخلق من الشبه. يتحدث الآن عن الأزرار. لم لا؟ كل ما يريده أن تخيط له المرأة زرّاً. لا، إنه مجنون، يقول: "ابلعيه"، "أعطيه ليعلف"، تقول المرأة. ينهض الرجل ويذهب إلى الباب المفتوح. "إنه في البناية، أقول لك". "طيّب، ابحث عنه، ما ذنبي أنا؟!". يحكم الشبيه سدّ الباب ويذرع المكان. فيشرله لا يعرف الخوف. إذا جدّ الجدّ سيزحف باتجاه الباب.

تصرخ المرأة: "هو تحت السرير". يزمجر الشبيه: "ماذا؟". تخرج أربعة أيد القزم من تحت السرير، اثنتان تمسكانه من الخناق والأنف. يعرّف أحدهم على نفسه في الظلام: "اسمي يوهان شفير"، يفلت الأنف، وليس الخناق ويزمجر: "ابلع". يأخذ فيشرله الزر في فمه ويحاول أن يبلعه. تترك اليد خناقه هنيهة حتى يبتلع الزر. وفي الهنيهة ذاتها يحاول فم فيشرله أن يتبسم، ويلهث ببراءة: "هذا زرّي أنا"، فتمسكه اليد من جديد وتضيق الخناق. تهوي قبضة على رأسه.

يقذفه الأعمى على الأرضية ويجلب من الطاولة في زاوية المخدع سكين قطع الخبز. بهذه يقطع البزة والمعطف ويبتر حدبة فيشرله. يلهث أثناء تأدية العمل الشاق، السكين مثلمة، ولا يريد إشعال الضوء. تنظر إليه المتقاعدة وتخلع في هذه الأثناء ثيابها. تستلقي على السرير وتقول: "تعال!"، لكنه لم ينتهِ بعد. يصرّ الحدبة في مزق المعطف، يبصق فوقها عدة مرات ويترك الصرّة في مكانها. يقول: "ولا أحد رأى شيئاً" ويضحك. هو مرهق، لكن المرأة سمينة. يحبها طوال الليل.

t.me/yasmeenbook

الجزء الثالث
عالم في الرأس

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الأب الصالح

كانت شقة البواب بينيديكت بفاف مؤلفة من مطبخ متوسط المساحة، معتم، وحجرة صغيرة بيضاء، وهي أول غرفة يدخلها المرء من الممر. في الغرفة الكبيرة كان منام الأسرة المؤلفة من خمسة أفراد، الأم، الابنة وثلاث مرات هو ذاته. هو الشرطي، هو الزوج وهو الأب. لسخطه الشديد كانت الأسرّة بالسعة نفسها. ولهذا أرغم الابنة والزوجة على النوم في سرير، بينما استفرد هو بالآخر. وضع لنفسه فراشاً من شعر الخيل، لا لأجل النعومة، فقد كان يكره مطيلي النوم والحريم، إنما لأجل مبادئه. هو من يأتي بالنقود إلى البيت. شطف الدرج شأن الزوجة وفتح باب البناية ليلاً، إذا قرع أحدهم الجرس، شأن البنت وذلك منذ سنتها العاشرة. كي تنسى الجبن أخيراً. أما إيرادات هذه الخدمات فيحتفظ بها لنفسه، لأنه هو المشرف على البناية. يسمح لهما بين الوقت والآخر أن يكسبا بعض النقود بعد أوقات الدوام، من الخدمة في البيوت أو غسيل الثياب. فبذلك تجرّبان بجسديهما معاناة أب تعتاش العائلة عليه. يزعم خلال تناول الطعام أنه من أنصار الحياة العائلية، وفي الليل يهزأ بالزوجة المهترئة. يبدأ بممارسة حقوقه التربوية ما إن يصل إلى البيت. بحبٍّ حقيقي يفرك قبضتيه، ذواتيَ الشعر الأحمر، بجسد الابنة ولا يستعمل الزوجة إلا قليلاً. يترك كل نقوده في البيت ولا تنقص هذه حتى لو لم يعدّها. فعندما لاحظ ذات يوم نقصاً اضطرّت الزوجة والابنة للمبيت على الشارع. عموماً كان هانئاً.

آنذاك كان الطهي يتم في الحجرة البيضاء التي تستغلّ كمطبخ أيضاً.

t.me/yasmeenbook

نظراً لمهنته المرهقة التي تتطلب جاهزية عضلات عالية، يقضي فيها نهاراته، وأحلامَه ليلاً، كان بينيديكت بفاف بحاجة إلى وجبات غنية، مغذية، كبيرة، صحية ومفيدة. لا يسمح من هذه الناحية بأيّ تراخٍ، وإذا أوصلته زوجته إلى حدّ الضرب فهي المذنبة، الأمر الذي لا يستطيع ادّعاءه مع الابنة. تفاقم جوعه مع السنوات. وجد أن الحجرة ضيقة جداً على الطبخ وأمر بنقل المطبخ إلى الغرفة الخلفية. قوبل، استثناء، بالممانعة، لكن مشيئته لا تخالف. مذّاك جعل الثلاثة يعيشون وينامون في الحجرة الصغيرة التي تسع سريراً واحداً فقط، وخصّصت الغرفة الأكبر للطهي وتناول الطعام، للضرب والزيارات النادرة من قبل زملائه الذين يتهيّبونه رغم الأكل الوافر. بعد هذا التغيير بقليل ماتت الزوجة. من شدّة الإرهاق. لم تتحمّل أعباء المطبخ الجديد. كانت تطبخ ثلاثة أضعاف ما تطبخه قبلاً، لكنّها تهزل يوماً بعد يوم. بدت مغرقة في الشيخوخة، كأنها ستينية. رغم رعبهم منه وكرههم له كان سكان البناية يتحسّرون عليه لأمرٍ واحد: وجدوا أنه من العسف أن يجبر الرجل الجبار على الحياة مع امرأة عجوز. في الحقيقة كانت تصغره بثماني سنوات ولا أحد يعلم هذا. أحياناً كانت تتقصّد طبخ كميات هائلة بحيث لا تفرغ من واجبها مع وصوله إلى البيت. غالباً ما ينتظر الطعام خمس دقائق طوالاً. إلا أنه لا يلبث أن يفقد صبره ويبدأ بضربها حتى قبل أن يشبع. ماتت تحت يديه. لكنها كانت بجميع الأحوال ستنطفئ بعد أيام بالتأكيد. لم يكن قاتلاً. بدت في سرير الموت، الذي أعدّه لها في الغرفة الكبيرة، كأنها نافقة منذ سنوات، بحيث خجل من استقبال المعزّين.

طلع نجم سعده في اليوم التالي لدفنها. صار يتعامل مع الابنة بحرية أكثر. يحبسها في الغرفة الخلفية قبل أن يذهب للعمل، كي تتفرّغ كلّياً للطبخ. وبهذا تفرح عندما يعود إلى البيت. يزمجر بينما يدير المفتاح في القفل: "ما أخبار المحبوسة؟!". يشرق وجهها الشاحب لأنها ستذهب

t.me/yasmeenbook

لتتسوق لأجل اليوم التالي. وهذا يسرّه. عليها أن تضحك قبل التسوق، فبهذا تحصل على لحم أفضل. قطعة اللحم الرديئة نظير الجريمة. حين تتأخر أكثر من نصف ساعة، يستوحش في غيابها ويركلها عند عودتها إلى البيت. لأن هذا لا يريحه، يشتدّ غضبه على وقت راحته الذي بدأ بداية سيئة. أما إذا أعولت، فيعود ليكون الأب الصالح ويأخذ برنامجه مساره المعهود. كان يفضّل أن تعود في موعدها المحدد. يختلس خمس دقائق من نصف الساعة المخصّصة لها. ما إن تخرج حتى يقدّم الساعة خمس دقائق، يضعها على السرير في الحجرة ويجلس في المطبخ الجديد أمام الموقد، حيث يتشمّم الأطعمة التي لا تطولها يده. تتسقّط أذناه السمينتان، الجبارتان، خطوات الابنة الهشّة. تسير لشدة خوفها دون أن يُسمع وقع خطواتها، خشية أن تكون نصف الساعة قد مرّت، وتلقي نظرة مروعة على الساعة من الباب. تتمكن أحياناً من التسلّل إلى السرير، رغم الرعب الذي يبثه فيها هذا الأثاث، وتؤخّر الساعة عدّة دقائق بيد سريعة، مذعورة. غالباً ما كان يسمعها بعد خطوة واحدة لأن صوت نفَسِها عالٍ، ويفاجئها في منتصف الطريق. فهي، لكي تصل إلى السرير، بحاجة إلى خطوتين.

كانت تحاول أن تنسلّ منه وتعمل على الموقد مستعجلةً إبراز مهاراتها. تتذكر بائعاً ضعيفاً، هزيلاً، يعمل في الجمعية الاستهلاكية، همس لها: "أقبّل اليد" غاضّاً بصره عن الأخريات ونظراتها الحييّة. كي تبقى معه فترة أطول، تسمح للنساء الواقفات وراءها في الصف أن يسبقنها دون أن تلفت الانتباه. كان أسود وأهداها مرة، بعد أن غادر الجميع المكان، سيجارة. غلّفتها بمنديل حريري أحمر، كتبت عليه بحروف تكاد لا تُرى تاريخ وساعة الإهداء، وخبّأت اللفافة المنيرة في المكان الوحيد من جسمها الذي لا يهمّ الوالد، قرب القلب تحت النهد الأيسر. كانت تخاف اللكمات أكثر من الرفسات. حينئذٍ تنبطح مستميتة على الأرض فلا تتأذى السيجارة، أما قبضاته فكانت تنال من كل مكان. وقلبها يرتعش تحت السيجارة.

t.me/yasmeenbook

ستنتحر إذا كسرها. في الأثناء كانت السيجارة قد صارت رميماً من لوعة الحب، لأنها تفتح اللفافة خلال ساعات حبسها التي تمتد أياماً، تتملّى فيها، تمسّدها وتقبّلها. بقي منها كويمة تبغ لم تُضِع منها ذريرة واحدة.

كان فم الأب يطلق بخاراً خلال تناول الطعام. عظام فكّه الطاحنة لا تعرف الشبع، على غرار يديه. تظل واقفة لتتمكن من ملء صحنه أسرع قبل أن يفرغ، ويبقى صحنها فارغاً. كانت تخشى أن يسألها فجأة لماذا لا تأكلين. كلماته تبثّ فيها هولاً أشدّ من حركاته. فلم تفهم ما يقول إلا بعد أن بلغت، أما أفعاله فقد تركت آثارها عليها منذ أولى لحظات حياتها. ستردّ: لقد أكلت، يا بابا، أنت كُلْ. إلا أنه لم يسألها طوال سني شراكتهما ولا مرة واحدة. يكون مشغولاً خلال المضغ. عيناه مركّزتان على الصحن، جامدتان ومسحورتان. يخفّ بريقهما بتناقص كمية الطعام. تتوتر عضلات المضغ، بسبب قلة الشغل، وتكاد تهدد بأن تنطلق بالزمجرة قريباً. الويل للصحن إن فرغ. ستقطعه السكين، تثقبه الشوكة، تحطمه الملعقة ويفجّره الصوت. لكن الابنة تقف بجانبه. تراقب المعارك على جبينه متلهّفة. ما إن تهلّ بين الحاجبين أولى بشائر ثنية عمودية، حتى تضيف على الصحن، سيّان كم بقي فيه بعد. فحسب مزاجه تعلن الثنية عن نفسها بسرعات مختلفة. ضلعت في هذا. في البداية، بعد موت الأم، كانت تتصرف مثلها وتضبط وتيرتها على الصحن. لكنها لم تفلح. فهو يطالب الابنة بالمزيد. بعد فترة قصيرة تعلّمت أكثر وراحت تقرأ مزاجه من جبينه. في بعض الأيام ينتهي من الطعام دون كلام. وعندما ينتهي يتلمّظ مدّة. فتصغي إليه. تبدأ بالارتعاش إن تلمّظ سريعاً وطويلاً، فأمامها ليلة تعيسة، وتحاول بأرقّ الكلمات أن تقنعه بتناول وجبة أخرى. غالباً ما يتلمّظ برضاً ويقول: "للرجل منّا فاكهته. من فاكهتي أنا؟ المحبوسة!".

وهو يشير إليها بالقبضة عوض الشاهدة. كان على شفتيها أن تصيغا "المحبوسة" مع ابتسامة. تقترب منه. يمتدّ بوطه الثقيل نحوها.

t.me/yasmeenbook

"من حق الأب ...". "تحبه بنته". تكمل جملته بصوت رتيب وعالٍ كما في المدرسة، إلا أن حماسها خافت جداً.

"البنت ما عندها وقت ....", يمدّ ذراعه، "للزواج".

"العلف يؤمن لها ..."، "الأب الصالح"

"الرجال ما تريد ..."، "تتزوجها"

"لأنه الرجل ما فائدته ..."، "من البنت الهبلة".

"والآن تمسك ..."، " أبوها".

"بحضن أبوها تقعد..."، "البنت العاقلة".

"الإنسان ما لازم يشتكي ..."، "للشرطة"

"إذا البنت العاقلة ما طاعت ..."، "تنضرب".

"يعرف أبوها سبب ..."، "ضربها".

"هو ما ..."، "يوجع البنت".

"وهكذا تتعلم، كيف ..."، "تقدّر أبوها".

يكون قد أمسكها وجرّها إلى حضنه، يقرص رقبتها باليمنى، لأنه قبض عليها، وباليسرى يدفع التجشّؤات من عنقه. الفعلان يريحانه. تستجمع ذكاءها الضعيف، لتكمل جمله بشكل صحيح وتحذر من البكاء. يدلّلها ساعات. يدرّبها على مسكات اخترعها بنفسه، يدفعها ويجرّها، يبرهن لها، كيف لها أن تهزم أيّ مجرم بلكمة قوية على المعدة. ومن ذا الذي لا يشعر بالغثيان من هذا؟

دام هذا النعيم نصف سنة. ذات يوم تقاعد الوالد ولم يعد يذهب إلى العمل. قال إنه سيتفرغ الآن لرعاع الشحاذين في البناية. وكانت العين السحرية في الباب على ارتفاع خمسين سنتمتراً حصيلة عدة أيام من

t.me/yasmeenbook

الإمعان في التفكير. عاونته الابنة خلال التجارب. جرت في المسافة بين باب البناية والدرج مرات لا تحصى. كان يزمجر خلالها: "أبطأ" أو "اركضي". ثم أرغمها بعد ذلك على ارتداء بنطاله القديم لتلعب دور رجل. كما أنها نالت الصفعات التي خصصها لهذا الرجل. ما إن لمح بنطاله عبر الثقب المستحدث توّاً حتى قفز حانقاً، فتح الباب، طرح الفتاة على الأرض بعدة ضربات قاصمة. ثم اعتذر منها كأنه يضربها للمرة الأولى: "هذا ضروري، لأنك عنصر. الأوباش نحلق لهم. قطع الرأس أحسن بكثير. هم حمل ثقيل. يشبعون أكل في الحبوس. والدولة تدفع من دم قلبها. أنا أمسح البقّ عن وجه الأرض. الآن صار القطّ في البيت. والفئران تهرب للجحور. أنا القط الأحمر. سآكلها أكل. لازم كل عنصر ينسحق".

أحسّت بهذا وامتلأت أملاً بمستقبلها الزاهي. لن يسجنها بعد، لأنه سيكون في البيت. يراها طوال النهار، يحقّ لها أن تقضي وقتاً أطول في التسوق، أربعين دقيقة، خمسين، ساعة كاملة، لا، هذا كثير جداً، تذهب إلى الجمعية الاستهلاكية، هي بنفسها تحدّد أوقات الفراغ، عليها أن تشكره على السيجارة، أهداها إياها قبل ثلاثة أشهر وأربعة أيام، كانت متوترة وقتئذٍ، وكان داخل الجمعية كثيرون، لم تشكره قطّ، ما رأيه فيها، إذا سألها عن طعمها، ستقول: جيد، كاد الوالد أن يأخذها منها، قال إنها أفخم نوع، أراد أن يدخنها بنفسه.

صحيح أن الوالد لم يرَ السيجارة قطّ، لكن لا همّ، تودّ أن تشكر السيد الأسود فرانتس وتقول له، إن النوعية كانت فاخرة، الوالد يفهم في هذه الأمور. ربما حصلت على سيجارة أخرى. ستدخن هذه فوراً هناك. إذا دخل أحد ستدير ظهرها وترمي السيجارة بسرعة عبر الطاولة. سيطفئها قبل أن ينشب حريق. هو فطين. في الصيف يدير الفرع وحده، لأن المدير في إجازة سنوية. المحل فارغ بين الثانية والثالثة. يجب أن ينتبه لئلّا يراه أحد. سيمدّ لها عود الثقاب وتشتعل السيجارة. تقول له: سأحرقكم. يخاف. فهو

t.me/yasmeenbook

رقيق جداً. في طفولته كان دائم المرض. تعرف هذا. تلكزه، فقد ضبطته. يصرخ: آخ، يدي، هذا يوجع. تنادي: "ضرب الحبيب" وتركض خارجة. سيأتي في الليل ليخطفها. الوالد نائم. سيقرع الجرس. تفتح له الباب. تأخذ كل النقود معها. فوق قميص النوم ترتدي معطفها هي، الذي لا يسمح لها بلبسه، وليس معطف الوالد العتيق، فتبدو مثل عذراء، مَن على الباب؟ هو. تنتظر عربة بأربعة جياد سوداء. يمدّ لها يده. في يسراه سيفه. إنه فارس وينحني لها. يرتدي بنطالاً مكوياً. يقول: "جئت. أنتم حرقتموني. أنا الفارس النبيل فرانتس". هذا ما كانت تخمّنه طوال الوقت. فهو أجمل من أن يعمل في جمعية استهلاكية، فارس سرّي. يرجوها أن تسمح له بقتل أباها. المسألة مسألة شرف، شرفه هو. تتوسّل إليه: "لا، لا. سيقتل سموّكم". يدفعها جانباً، تخرج من جيبها النقود الوافرة وتبرزها له، ينظر إليها نظرة ثاقبة، إنه يطالب بشرفه. بضربة واحدة يفصل رأس الأب عن جسده في الحجرة. تبكي. فرحاً. لو كانت أمها المسكينة رأت هذا، لكانت حيّةً حتى اليوم. يأخذ السيد الفارس فرانتس رأس الأب معه. يقول لها أسفل باب البناية: "أيتها الآنسة الفاضلة، اليوم كان آخر يوم تفتحون فيه باب البناية، سأخطفكم إلى مملكتي". ثم تصعد قدمها الصغيرة العربة. يساعدها على الصعود. يمكنها الجلوس داخلها، ففيه متّسع. يسأل: "هل أنتم راشدون؟". تقول: "فوق العشرين". لا يلاحظ عليها عشرون عاماً، فقد كانت حتى اليوم حبيبة والدها. (في الواقع يبلغ عمرها السادسة عشرة، لو أنه لا يلاحظ). لكنها تريد زوجاً كي تتخلّص من البيت. والفارس الأسود الجميل يقف وسط العربة التي تنهب الرياح ويرتمي على قدميها. يتزوجها هي، هي وحدها، وإلا لتقطّع قلبه الباسل. تستحي وتمسح شعره، وهذا أسود. يجد معطفها جميلاً. سترتديه حتى موتها، ما زال جديداً. يسأل: "إلى أين نذهب؟". تخنفر الجياد وتدكّ الأرض. في المدينة بنايات كثيرة جداً. تقول: "إلى الوالدة. من حقها أيضاً أن تفرح". تقف الجياد في

t.me/yasmeenbook

المقبرة، الأم في مقدمتها. هنا شاهدة قبرها. يرمي الفارس فرانتس رأس الوالد أمام القبر. هذه هديته. يسأل: "أما جلبت شيئاً للوالدة؟"، آه، كم تخجل! كم تشعر بالخجل! هو يأتي بهدية لأمها وهي لا تأتي بشيء. وهنا تستلّ لفافة حمراء صغيرة من تحت قميص نومها، فيها سيجارة حب، وتضعها جانب الرأس الأحمر. تسرّ الأم بالأولاد السعداء. يركع الاثنان أمام قبر الأم ويطلبان بركتها.

يجثو الوالد أمام فتحته. يمدّ يده نحوها كل غمضة عين، يجرّها، يضع رأسها على العين السحرية ويسألها ما إن كانت ترى شيئاً. تشعر بالإرهاق من التجربة الطويلة، يومض الممرّ أمام عينيها، وتقول في كل الأحوال: "نعم". "ما معنى نعم هذه؟"، يزمجر الوالد المقطوع الرأس. ما زال حيّاً تماماً. الليلة سيرى العجب، حين تقف العربة أمام الباب. "نعم، نعم"، يحاكيها ويهزأ بها. "أنت ما عمياء. بنتي أنا وعمياء. والآن أسألك: ما الذي تشوفيه؟". تظل جاثية حتى تجد الجواب الصحيح. يقصد بقعة على الجدار المقابل.

تتغيّر نظرته إلى العالم مع ابتكاره الجديد. حتم عليها أن تشارك في اختراعاته. تعلّمت القليل ولا تعرف شيئاً. إذا مات، لنقل بعد أربعين سنة، فكل إنسان مصيره الموت، ستكون عالة على الدولة. لن يسمح بهذه الجريمة. يجب أن تفهم شيئاً ما من عمل الشرطة. وهكذا يشرح لها طباع سكان البناية، ينبّهها إلى مختلف أصناف التنانير والبناطيل، معانيها في عالم الجريمة. نتيجة لحماسه في التدريس، يدع بين الوقت والآخر متسولاً يمرق ويحاسبها حساباً عسيراً على هذه التضحية. يقول إن السكان ناس أكابر، لكنهم رغم هذا منحرفون. لأنه، ما الذي يعطونه له مقابل الحماية التي يقدّمها للبناية؟ يجنون ثمرات عرقه. وعوض الشكر، ينمّون عليه بالسوء. كأنه قتل أحداً. ولماذا يشتغل بالمجان؟ هو متقاعد ويمكنه أن يقضي يومه نائماً، أو يركض وراء الحريم، أو يسكر طوال الوقت، لقد عمل طوال حياته ومن حقه الآن أن يستريح. لكنه صاحب وجدان. يقول لنفسه، أولاً عنده بنت، عليه أن يعيلها.

t.me/yasmeenbook

ومن يتحمل أن يتركها وحدها في البيت؟ يبقى معها وتبقى معه. المعيل الصالح يضمّ ولده إلى قلبه. ظلت وحيدة طوال نصف سنة، بعد أن ماتت العجوز، كان عليه الذهاب إلى العمل، حياة الشرطة صعبة. وثانياً، تدفع له الدولة راتب تقاعد. الدولة مجبرة على الدفع، فلا مجال للتقاعس هنا، وحتى لو خربت الدنيا، يكون أول واجبات الدولة دفع راتب التقاعد. يقول إنسان لنفسه: اشتغلت بما فيه الكفاية. آخر ممتنّ لراتب التقاعد ويعمل طواعية. هؤلاء هم أفضل الناس. يصيد الحثالة حيث استطاع، يطرّيهم، لأن القتل ممنوع، وبذلك يقلل العمل على الدولة. هذا اسمه تخفيف، لأنه ينزل الثقل عن أكتاف زملائه. على الشرطة، المتقاعدين أيضاً، أن يقفوا معاً، أصلاً يفترض ألا يحال أصحاب مثل هذا الوجدان إلى التقاعد. لا يمكن التعويض عنهم، وما إن يموتوا حتى تنشأ فجوة.

يوماً إثر يوم ارتقت الابنة في مراتب العلم. كان عليها أن تكتسب براعة والدها وتساعد ذاكرته إذا خانته، فلماذا ينجب المرء ابنة؟ لتشفط القسم الأعظم من راتب التقاعد؟ حين يأتي متسول جديد، يأمرها أن تنظر من العين السحرية ولا يسألها ما إن كانت تعرفه إنما: "متى كان آخر مرة هنا؟". المصائد أكبر المعلمين، خاصة لها، هي التي تقع فيها دائماً. بعد الانتهاء من المتسول، يحدد الجزاء الذي ستناله هي على إهمالها وينفذه فوراً. لا ينجح الإنسان في الحياة دون عقوبة الضرب. الإنكليز شعب عظيم.

شيئاً فشيئاً تمكّن بنديكت بفاف من تطوير مهارات ابنته بحيث يمكنها أن تنوب عنه. أطلق عليها إثر ذلك اسم بولي[1]، ما اعتبره لقب شرف لها. معبّراً بذلك عن استحقاقها لممارسة عمله. اسمها الأصلي كان آنا، لكنه لم يستخدمه قطّ لأنه لا يعني له شيئاً، فهو لم يكن من المعجبين بالأسماء، ويكنّ الكثير للألقاب. وكان مهووساً خاصة بتلك التي يخلعها هو على الآخرين. بوفاة الأم ماتت آنا أيضاً. كان اسم البنت طوال نصف

1) اجتزاء من كلمة Polizei، الشرطة.

t.me/yasmeenbook

عام "أنت" أو "البنت العاقلة". وغدا فخوراً بها منذ أن رفعها إلى منزلة بولي. إذاً، الحريم قادرات على شيء ما، وما على الرجل أن يفهم، كيف يستخرج منهن أجيالاً من بولي.

تطلبت رفعتها الجديدة خدمات أدنى. أصبحت تجلس أو تجثو طوال النهار جانبه على الأرض، على أهبة الاستعداد لتنوب عنه. يحدث أن يختفي لحظات، فتأخذ عنه مهمته. إن دخل تاجر شنطة أو متوسّل في مجال نظرها، فمن واجبها أن توقفه بالعنف أو المكر حتى يستلم منها والدها الخراء. يستعجل جداً. يفضل أن يقوم بكل شيء وحده، يكفيه أن تتفرج عليه. بدأ نمط حياته يشبعه. فقدت وجبات الطعام قيمتها، خفّت وطأة الجوع. بعد عدة أشهر اقتصرت الحركة والهواء، الذي ينفسّه، على مستجدات قليلة. تحاشى المتسوّلون بنايته تحاشي الجحيم، وهم يعرفون لماذا. تراجع نهم معدته المهول، الذي كان فخوراً به. تم تحديد زمن الطبخ بساعة واحدة فقط. بهذا يسمح لها بالإقامة في الغرفة الخلفية طوال هذه الفترة فقط. تقشر البطاطا بجانبه، بجانبه تغسل الخضار، وبينما تدقّ على اللحم لوجبة الغداء، يخبط عليها من باب التسلية. لا تعرف عينه ماذا تفعل يده، فهي تتحرق فاترة على الأرجل الداخلة والخارجة.

بما أنه صار يأكل نصف ما كان يأكله سابقاً، سمح لبولي بالغياب ربع ساعة فقط. ماكرة، كما تعلمت في مدرسة الوالد، كانت تتنازل يوماً عن فرانتس الأسود، تبقى في البيت وبذلك تنال ربعي ساعة في اليوم التالي. لم تلتقِ بالفارس وحده قطّ. كانت تعبّر عن امتنانها على السيجارة سرّاً. ربما فهمها، فهو يشيح بصره عنها بكل احترام. تسهر والوالد نائم، لكنه لم يقرع الجرس، الاستعدادات تدوم طويلاً، آه لو أنها حرقته، عليه أن يستعجل، فالحريم تلتمّ في الجمعية الاستهلاكية دائماً. ستهمس له مرة بينما هو يملأ استمارتها بسرعة: "شكراً، العربة غير ضرورية، لا تنسوا السيف!".

في يوم من الأيام كانت الحريم واقفات على باب الجمعية الاستهلاكية

t.me/yasmeenbook

ويثرثرن. "هرب فرانتس"، "قليل أصل"، "بكل ما في الخزنة"، "ما كان يقدر ينظر في وجه الواحدة منا"، "68 شيلينغ"، "يجب إعادة تطبيق عقوبة الإعدام، زوجي يدعو إلى هذا منذ سنوات". دخلت المحل مسرعة وهي ترتجف. كان المدير يقول: "الشرطة تطارده. هو من سيتحمل الأضرار لأنه تركه وحده في المحل، الوغد يعمل في المحل منذ أربع سنين، من كان يصدق أن أخلاقه هكذا، ظلت الخزنة سليمة طوال الوقت، لم يلاحظ عليه أحد شيئاً، ظلت الخزنة سليمة طوال الوقت، أربع سنين، تلفنت الشرطة قبل قليل، الساعة السادسة في أقصى حد يكون وراء القضبان".

هتفت بولي: "هذا غير صحيح" وأجهشت فجأة بالبكاء. "أبي بذات نفسه يشتغل عند الشرطة". لم يعرها أحد انتباهاً لأنهم يعانون من خسائر مالية. ركضت وعادت إلى البيت وكيسها فارغ. حبست نفسها في الغرفة الخلفية دون أن تسلّم على الوالد. كان مشغولاً وانتظر ربع ساعة. ثم نهض بعدها وطلب منها الخروج. التزمت الصمت. زمجر: "بولي، بولي!"، لم تردّ عليه. وعدها ألا يعاقبها، مصمّماً على أن يقتلها ثلاثة أرباع القتل فقط، وقتلاً ناجزاً إذا احتجّت. عوض جوابها سمع صوت سقوط. لشدة غضبه وجد نفسه مضطراً ليكسر بابه. زمجر بحكم العادة: "باسم القانون". كانت الفتاة صامتة وهامدة أمام الموقد. قلّبها عدة مرات قبل أن يبدأ بالضرب. كانت غائبة عن الوعي. شعر بالخوف، كانت شابة ويستلطفها. طلب منها عدة مرات أن تستعيد وعيها. أثار صممها أعصابه رغم إرادته. بجميع الأحوال كان يرغب بأن يبدأ بالضرب على مكان أقل حساسية. عندما بحث عن هذا وقع نظره على الكيس. كان فارغاً. فهم الآن كل شيء. لقد أضاعت النقود. وافقها على خوفها. لا يحب مثل هذه الطرائف. كانت قد غادرت البيت بورقة من فئة عشرة شيلينغات. لن تكون قد أضاعتها كلّها؟ فتّشها تفتيشاً دقيقاً. للمرة الأولى لامسها بالأصابع عوض القبضات. وجد لفافة صغيرة فيها غبار سيجارة. مزقها ورماها في الجاروف. فتح

t.me/yasmeenbook

المحفظة. وجد فيها ورقة عشرة شيلينغات. لم تنثنِ أيّ زاوية من زواياها. فارتبك من جديد. محتاراً بأمره أعادها إلى الوعي تحت تأثير الصفعات. عندما استعادت وعيها كان يعرق، فقد ترقّق معها لهذه الدرجة، ودموع ثخينة تتدفق من فمه.

زمجر: "بولي، بولي، المصاري في مكانها".

قالت ببرود وحدّة: "اسمي آنا".

كرر: "بولي"، تأخر شعوره بصوتها، تكورت الراحتان في قبضتين، تدفقت فيه مشاعر رقيقة. اشتكى: "ماذا سيأكل الأب الصالح اليوم؟".

"ولا شيء".

"لازم تطبخ له بولي أي شيء".

صرخت الفتاة: "آنا، آنا".

قامت فجأة، دفعته، دفعة كانت ستُسقط أيّ والد آخر على الأرض، بل شعر بها حتى هو، جرت إلى الحجرة (كان الباب الفاصل محطّماً، وإلا لحبسته)، ولتعلو عليه قفزت في الحذاء على السرير وصرخت: "هذا يكلّفك رأسك. بولي من الشرطة. رأسك لأمي".

فهم. فهي تهدّده ببلاغ. فاكهته هو تنوي أن تفتري عليه. لأجل من يعيش؟ لأجل من ظل محافظاً على نفسه متماسكاً؟ لقد ربّى في حجره سليلة الأفاعي. تستحقّ المقصلة. هو من شيّد لها ابتكاره كي تتعلم، في زمن فتحت له فيه أبواب العالم والحريم، هو من يبقى عندها من باب الرحمة والشفقة لأنه طيب القلب. وهي تدّعي أنه ظالم. هذه ليست ابنته. لقد خانته العجوز. لم يكن ضربه لها عن عبث. كان أنفه حسّاساً جداً. لقد أنفق نقوده ستة عشر عاماً على ابنة زنا. لا يكلف شراء بناية أكثر من هذا. البشرية تصبح شريرة أكثر من عام إلى عام. قريباً سيلغون الشرطة،

t.me/yasmeenbook

تصير السلطة بيد المجرمين. تقول الدولة: لن أدفع راتب التقاعد وتخرب الدنيا. لكل إنسان طبيعة. المجرم يعيش على راحته والرب سيرى كل شيء.

نادراً ما كان يجاور الرب. كان يخشى من الرتب العليا. الرب أكبر من رئيس الشرطة. ولهذا شعر أكثر بالخطر الشديد، الذي يتهدّد الرب ذاته اليوم. طبعاً سحل ربيبته عن السرير وضربها حتى أدماها. لكن لم يشعر بسعادة حقيقية. كان يعمل آلياً، ما يقوله يفيض بالحسرة والحزن الباطني. ضرباته تعارض الصوت. لم تعد به رغبة للزمجرة. مرة واحدة ذكر فتاة اسمها بولي خطأ. صححت عضلاته الخطأ على الفور. اسم سلالة الحريم التي يربّيها آنا. تدّعي أنها تتطابق مع ابنة له. لم يصدّقها. تساقط شعرها وانكسر إصبعان من أصابعها لأنها دافعت عن نفسها. ظلت تموء بذكر اسمه كجزار شرير جداً. سبّت الشرطة. تبيّن أن أفضل أساليب التربية لا تنفع مع أصل شرير. لم تكن الأم تسوى شيئاً. كانت مريضة وتتهرب من العمل. يمكنه الآن أن يوصل الابنة إلى الأم، هنالك مكانها. لكنه ليس بهذا السوء. أحجم وذهب إلى المطعم.

ابتداء بهذا اليوم لم يعودا يمثّلان كلٌّ منهما للآخر سوى بدنَين. آنا تتسوق وتطبخ وتتحاشى الجمعية الاستهلاكية. عرفت أن فرانتس الأسود مسجون. اختلس لأجلها لكنه تصرّف بخراقة. الفارس الحقيقي يتغلب على كل الصعاب. لم تعد تحبه منذ أن اختفت سيجارته. رأس الوالد أكثر ثباتاً في مكانه، عيناه تتوسلان عبر العين السحرية حضور المتسولين. برهنت له على احتقارها بأنها لم تعد تأبه باختراعه مطلقاً. هربت من مدرسته. كل عدة أيام كان فمه يجري بذكر مواضيع جديدة. مارست عملها مقرفصة بجانبه، تستمع إليه بهدوء وتصمت. لم تعد تأبه بالعين السحرية. حين يعرض عليها النظر من خلالها في محاولة للتصالح، تهزّ رأسها لا مبالية. ولّى عهد الأحاديث القلبية على طاولة الطعام. تملأ صحنه مثل صحنها، تجلس، تأكل، ولو قليلاً، ولا تقوم على خدمته إلا بعد أن تشعر بالشبع. ظل

t.me/yasmeenbook

يعاملها تماماً كما في السابق. يعوزه رعبها. يقول لنفسه وهو يضربها، إنه خسر حظوته عندها. بعد عدة أشهر اشترى أربعة طيور كناري جميلة. ثلاثة منها ذكور، علّق قبالتها القفص الأصغر للأنثى. يغني الثلاثة كالمهووسين. يمدحهم بشكل لافت للنظر. ما إن تبدأ بالغزل حتى يسدل سدادة العين السحرية، ينهض ويستمع إليها واقفاً. لا يسمح له وقاره بالتصفيق لها في نهاية العرض. ورغم هذا يقول: "شاطرين" ويحوّل نظرة الإعجاب عن الطيور إلى الفتاة. يأمل بالكثير من غزل طيور الكناري. كما أن غناءها أيضاً كان يمرّ بآنا دون أن يترك أثراً.

عاشت بعد ذلك عدة سنوات كمستخدمة وحرمة لوالدها. ترعرع، ازدادت قوة عضلاته عوض أن تنقص. لكنه لم يشعر بالسعادة الحقيقية. كان يقول هذا لنفسه يومياً. ويفكر فيه حتى خلال تناول الطعام. ماتت بالسلّ، لسوء حظ طيور الكناري التي لا ترضى أن تأكل إلا من يدها. استمرّت هذه بحياتها بعد المأساة. باع بينيديكت بفاف أثاث المطبخ وأقام جداراً مكان باب الغرفة الخلفية. وضع صندوقاً أمام الطلاء الكلسي الأبيض الجديد. لم يعد يأكل في البيت مطلقاً. ظلّ في الحجرة يمارس وظيفته. تجنّب كل ما يذكّره بالحجرة المجانبة. فقد خسر حظوته عند ابنته هناك، ولا يعرف لغاية اليوم لماذا.

t.me/yasmeenbook

البناطيل[1]

"يا سيدي البروفسور، حصان السبق النبيل يلزمه شعير. دمه حامٍ ويرفس. الأسد في حديقة الحيوانات يفترس اللحم الطازج الدامي. لماذا؟ لأن ملك الحيوان يزأر مثل الرعد. الشعوب البدائية تهدي الغوريلا الذي يكشر عن أنيابه حريماً. لماذا؟ لأن الغوريللا يفور بقوة العضلات. هكذا هي الحياة العادلة. لي لا يدفع أحد من السكان. أنا قيمتي عالية كثير. يا سيدي البروفسور! أنتم كنتم الإنسان الوحيد في الدنيا الذي يعرف الامتنان. جعالتكم، كما تسمّونها، أنقذتني من هموم الأكل الصعبة. بالنهاية أسأل بكل تواضع: ما الذي صار لكم يا سيدي البروفسور؟ وأسمح لنفسي أن أستودعكم".

كانت هذه أولى الكلمات التي وجّهها بينيديكت بفاف، ما إن وصل إلى حجرته، إلى البروفسور الذي بدأ بإزالة عصابة عينيه. اعتذر ودفع ما تأخر في دفعه، جعالة شهرين.

قال: "نحن متفقان على الأوضاع فوق".

"أتمنى هذا"، غمز بفاف، قاصداً تيريزه من ناحية، ومن ناحية أخرى وخاصة حقّه، الذي كان يرجو أخذه وتحقّق فوراً.

"بينما تشرفون على تنظيف شقتي على أكمل وجه، سأستجمع قواي هنا في هدوء. العمل ينادي".

1) ربما تجدر الإشارة هنا إلى أن البنطال بالمطلق يرمز للرجل والتنورة للمرأة.

t.me/yasmeenbook

"الحجرة كلها في خدمتكم! يا سيدي البروفسور، أنتم هنا في بيتكم. الحرمة تفرق بين أفضل الأصدقاء. بين أصدقاء مثلنا لا توجد واحدة اسمها تيريزه".

"أعرف، أعرف" قاطعة كين متعجّلاً.

"خلّوني أكمل كلامي، يا سيدي البروفسور. نخرى على الحرمة. بنتي، كانت شيء ثاني".

أشار إلى الصندوق كأنها في داخله. ثم طرح شروطه. قال إنه إنسان وسيتحمل مسؤولية تنظيف الشقة. فيها الكثير يجب كنسه. سيجلب عدة شغالات ويقودهن. ما لا يطيقه هو الفرار من الخدمة. الفرار من الخدمة وقسم الزور جريمتان متماهيتان. في غيابه سيكون على السيد البروفسور أن ينوب عنه في وظيفة حياته في البناية.

ليس من قبيل الإحساس بالواجب إنما لنزعة الطغيان، نوى أن يرغم السيد البروفسور على النزول على ركبتيه عدة أيام. تذكر ابنته اليوم بحيوية. ولأنها ميتة فعلى البروفسور أن يقوم مقامها. طفح بالمبررات. برهن له على صدق حبّهما ووفائه. أهداه كل الحجرة بكل ما فيها من أثاث. قبل قليل كان في خدمته وحده فقط. كما أنه يرفض رفضاً قاطعاً أن يأخذ إيجاراً على الأيام التي سيقضيها صديقه عنده.

ركّب في أقصر وقت خطّاً لجرس يربط الحجرة بالمكتبة في الطابق الرابع. ما على البروفسور، في الحالات المشبوهة، سوى أن يشدّ رأس الحبل. سيصعد المشتبه به الدرج إلى فوق دون أن يعلم. سيلقى جزاءه. بهذا تم حساب كل الاحتمالات.

في مساء اليوم ذاته بدأ كين بممارسة مهنته الجديدة. نزل على ركبتيه وتابع عبر العين السحرية التحركات في بناية مزدحمة بالسكان. كانت عيناه تتوقان للعمل. وأفسدت البطالة الطويلة أخلاقهما. ولكي يشغل الاثنتين

t.me/yasmeenbook

ولا يفضّل إحداهما على الأخرى، جعلهما تتعاقبان على العمل. توقدت فيه روح الدقّة. بدت له مدة خمس دقائق للعين الواحدة مقبولة. وضع ساعته بجانبه على الأرض والتزم بها بكل دقة. أظهرت العين اليمنى ميلاً للإثراء على حساب اليسرى. ردعها. وما إن صارت الفترات المحددة جزءاً من لحمه ودمه، حتى أعاد الساعة إلى مكانها. خجل قليلاً من الابتذال الذي يراه. لقول الحقّ، كان هو هو لا يتغير. لم تظهر إلا فروق طفيفة بين بنطال وبنطال. ولأنه لم ينتبه قبلاً إلى السكان قطّ، استحال عليه أن يعرفهم من لباسهم. تقبّل البناطيل كبناطيل وشعر بالعجز. إلا أن لها خصلة مريحة، مدحها عليها: يجوز له النظر إليها. كان عدد التنانير التي تمرّ به أكثر، وهذه تثقل عليه. أخذت من حيث العدد والمساحة حيّزاً أكبر مما يجدر بها. قرّر أن يتجاهلها. قلبت يداه الصفحات اعتباطاً كأنهما تمسكان كتاباً مصوراً وقسمتا للعينين كمية عملهما. تصفحتا أسرع أو أبطأ حسب سرعة البناطيل. استحوذ عليهما اشمئزاز سيدهما من التنانير، تجاوزتا الصفحات التي لا يرغب في قراءتها. بهذا تختفي عدة صفحات دون أن يقرأها، الأمر الذي لا يأسف عليه، فمن يعلم ما الذي يربض وراءها.

رويداً رويداً هدّأته رتابة وتيرة العالم. شحبت ذكرى الحدث العظيم في ذلك النهار الفارط. ندر أن اختلطت تلك الهلوسات بالعابرين. لم يرَ فيها أيّ أثر من تنورة زرقاء. الأمر الذي حاولته التنانير المحظورة، التي لا يبالي بها، بألوان أخرى. لم يكن أحد يرتدي ذلك الأزرق بعينه، الواضح، الفاقع، المهين واللئيم. كانت علة هذه القرينة، الاستثنائية مثل معجزة إحصائية، بسيطةً. الهلوسة تستمرّ مادام المرء لا يكافحها. للمرء القوة على استحضار الخطر الذي يتهدّده. ليحشُ المرء إدراكه بالصورة التي يجزع منها. ليصدر المرء أمر القبض على الهلوسة ويعمّمه. ثم ليرغم المرء ذاته على مواجهة الحقيقة ويفتش عن الهلوسة. إن وجدت في مكان ما من العالم الواقعي، يعي المرء أنه مجنون ويستسلم للعناية المختصة. إن لم

t.me/yasmeenbook

توجد التنورة الزرقاء في أي مكان، يكون المرء قد تخلّص منها. مَن ما زال قادراً على التمييز بين الواقع والخيال متوثق من ثبات قدراته العقلية. إن ثقةً ينتزعها المرء رغم كل هذه الصعاب لخالدة.

جاء البواب مساء بوجبة طبختها تيريزه وقبض عنها ثمناً يعادل ما تكلّفه في المطعم. دفع كين فوراً واستمتع بالطعام. قال: "كم يطيب لي هذا! أنا راضٍ عن عملي". جلسا متجاورين على السرير. "هذه المرّة أيضاً لم يأتِ أحد، ما هذا اليوم؟!"، تنهّد بفاف وأكل أكثر من النصف، مع أنه كان شبعان. فرح كين بسرعة رفع المائدة. سرعان ما ترك البقية في يد الآخر وعاد للجثو بحماس.

زمجر بفاف: "ما لك! استطعمت! هذا يجيء من وراء فتحتي. الإنسان يعشق". شعّ وجهه وضرب مع كل جملة على أحد فخذيه. ثم وضع الصحن، دفع البروفسور، الذي يحاول التركيز في الظلمة، جانباً وسأل: "كلّ شيء تمام؟ خلّني أتأكد!". دمدم مبحلقاً : "آه، البقرة رجعت لنوازعها. ترجع للبيت على الثمانية. الزوج ينتظر. ماذا طبخت له؟ ولا شيء. أنتظر جريمة القتل منذ سنين. الثاني واقف في الخارج. الزوج ما فيه دم. لو أني أنا كنت خنقتها، ثلاث مرات في اليوم. القطة! والآن مازالت واقفة. يحبها بعنف. الزوج ما يعرف شيء. هذا بسبب الجبن. أنا أشوف كل شيء".

"لكن، لقد حلّ الظلام"، اعترض كين، ناقداً وحاسداً في الآن ذاته.

استولت على البواب نوبة من نوبات ضحكه وخرّ بكامل قواه. دخل جزء منه تحت السرير، وهزّ الجزء الآخر الحائط. ظلّ على حاله طويلاً. انكمش، فرّ كين مذعوراً في زاوية. شُحِنت الحجرة بموجات الضحك الراكدة، تهرّب منها، فقد كان يقطعها. رغم كل شيء، يشعر هنا ببعض الاغتراب. كان الأصيل الذي قضاه معتكفاً أجمل بكثير. يحتاج إلى الهدوء. والبيادة البربري لا يتفتح سوى في الضوضاء. وحقاً قام فجأة، ثقيلاً مثل فرس النهر، ونفخ:

t.me/yasmeenbook

"هل تعرفون ما كان لقبي طيّب الذكر عند الشرطة، يا سيدي البروفسور؟!" – وضع قبضتيه على كتفين خائرتين – "أنا القط الأحمر. لأني أولاً أتميّز بهذا اللون النادر، ولأني أفضح أسرار الظلام. عيوني قوية. هذا من طباع القطط البرية".

أمر كين بأن يستخدم كامل السرير وحده وودّعه قائلاً إنه سينام فوق. ولما وصل إلى الباب أخيراً أوصى بحماية خاصة على فتحته. قال: كثيراً ما يندفع المرء في الحلم، هو ذاته خرق السدادة مرّة ولم يستيقظ لأسفه الشديد إلا في الصباح التالي. يرجو الانتباه وتذكّر الجهاز الثمين.

مرهقاً وساخطاً على إقلاق أفكاره الخاشعة، ظل ثلاث ساعات وحده قبل وجبة العشاء، استلقى كين في السرير واشتاق إلى مكتبته، كما سيراها قريباً: أربع غرف عالية، الجدران ملبّسة بالكتب من فوق إلى تحت، كل الأبواب الداخلية مشرعة دائماً، لا نوافذ عاتية، إنارة متناسقة من الأعلى للأسفل، طاولة تتزاحم فوقها المخطوطات، عمل، عمل، أفكار، أفكار، الصين، محاورات علمية، رأي ضد رأي، في المجلات، دون فم مادي يضطر للكلام، كين ينتصر، ليس في الملاكمة، في نزاع العقول، هدوء، هدوء، كتب مبهجة، منعشة، لا كائن حيّ، لا وحش فاقع، لا حرمة تفح، لا تنورة. الشقة خالية من الجثث. إزالة آثار الجريمة أمام طاولة المكتب. مراوح حديثة ضد العطن المستوطن في الكتب. ما زال بعضها يحمل الرائحة بعد أشهر. إلى المحرقة بها. الأنف أخطر عضو. أقنعة الغاز تسهّل التنفس. دزينة منها فوق طاولة المكتب. أعلى، وإلا سرقها قزم. يمدّ يده إلى الأنف الغريب. يسرق منك قناعاً ويضعه على أنفك. عينان هائلتان حزينتان. ثغرة لا تتوقف عن الكلام. خسارة. يجب تغييرها. اقرأ طريقة الاستعمال. ملاكمة بين العينين. تريد الاثنتان أن تقرأا. لمن القيادة هنا؟ أحدهم يضغط على الأجفان. عقاباً لكما سأغلقكما. ظلام دامس. قطط برية في الليل. الحيوانات أيضاً تحلم. كان أرسطوطاليس محيطاً بكل علم.

t.me/yasmeenbook

أول مكتبة. مجموعات حيوانية. عشق زرادشت للنار. رفعه شعبه. نبي رديء. بروميثيوس، شيطان. النسر لا يفترس سوى الكبد. افترس ناره! تيريزيانوم في الطابق السادس – لهب – كتب – الهرب عبر سلالم منحدرة – بسرعة، بسرعة – اللعنة – ازدحام – نار، نار – الواحد للكلّ والكلّ للواحد – متحدون، متحدون، متحدون – كلنا كتب، كتب – أحمر، أحمر – من يسدّ الدرج؟ أسأل. أريد جواباً – دعوني أتقدم - سأمهد لكم الطريق – سأقتحم ثغور العدو – اللعنة – أزرق – التنورة – صلبة متصلبة كصخرة تصل السماء – فوق درب التبانة – الكلب الأكبر[1] – كلاب الجزارين - لنعض الغرانيت – تتكسر أسنان، تتمزق أفواه، دم، دم.

يستيقظ كين. ورغم تعبه يكوّر قبضتيه. يصرّ على أسنانه. لا جزع، ما زالتا هنا. لقد قدّر لهما شأناً خارقاً. الدم أيضاً خرافة. الحجرة ضاغطة. المكان هنا ضيق للنوم. يقفز، يفتح السدادة ويريح أعصابه برتابة وتيرة العالم خارجاً. يخال المرء خيالاً أن لا شيء يحدث. من اعتاد الظلام، يرى شتى بناطيل الأصيل، مشهداً مستمراً، اختفت منه التنانير. ليلاً يرتدي جميع البشر بناطيل. سيتم إعداد مرسوم بصدد إلغاء جنس الإناث. يخطط للهجوم العام صباح الغد. البواب مناديه. تسمع صوته المدينة كلها، البلد، البلاد، يكفي هذا الفضاء الأرضي، على الكواكب الأخرى أن تدبر شؤونها بنفسها، إننا على عروة أكثر من وثقى مع الحريم، الإعدام عقوبة التبريرات، الغفلة عن القانون لا تحمي منها. تلغى علامة التأنيث عن كل الأسماء، إعادة كتابة التاريخ للجيل الشاب. الأمر هين على المجمع التاريخي، فهو برعاية البروفسور كين. ما الذي أنجزته النساء في التاريخ؟ أطفالاً ودسائس.

يعود كين ليستلقي في السرير. ينام بأساليب ملتوية. بطرق ملتوية يصل إلى الصخرة الزرقاء، التي حسب أنه حطمها. لن يستمر الحلم إن لم تتزحزح الصخرة، فينهض في موعده المحدد وينحني على الجهاز. فهو

---

1) يطلق عليه أيضاً اسم الشعرى اليمانية.

t.me/yasmeenbook

في متناول اليد. يحدث هذا بضع عشر مرات في ليلة واحدة. في الصباح يستنبت العين السحرية، عينه لرتابة وتيرة العالم، مهدّئه، سعادته، في مكتبة الحلم التي يملكها. يحفر في كل جدار عدة عيون سحرية. بهذا لا يضطرّ للبحث مطوّلاً. وحيث لا توجد كتب، يركّب سدادات صغيرة حسب منظومة بينيديكت بفاف. بمهارة يتحكم في مسيرة حلمه، يعيد نفسه، مربوطاً بسير، أينما كان، إلى المكتبة. تغريه فتحات لا تحصى للوقوف عندها. يخدمها، كما تعلم في النهار، على ركبتيه ويتيقن أنه ليس في العالم سوى البناطيل وخاصة في الظلام. تختفي التنانير ذات الألوان الأخرى. تنهار الصخور الزرقاء المنشّاة. لم يعد مضطراً للنهوض من السرير. تنتظم أحلامه آلياً. يغرق قبيل انبلاج الصباح في النوم، دون شروط، دون فسق. رأسه ملقى بأفكار جادّة على طاولة المكتب.

لسعته أولى تباشير الضياء وهو منكبّ على العمل. في السادسة راقب الشفق وهو يزحف في الممرّ. اتخذت البقعة في الجدار المقابل شكلها الحقيقي. ارتمت ظلال مجهولة المصدر – ليست ظلال بشر، ظلال أشياء، لكن أي أشياء؟ - على البلاط، تحولت إلى خليط أشيب خطير ومذموم، واقتربت من لون لا يريد أن يعكر يومه الجديد بذكر اسمه. دون أن يشرع بها، رجاها في البداية بلطف أن تختفي أو أن تصطبغ بلون آخر. تردّدت. ألحّ. لم يفُته اضطرابها. قرّر أن يصدر إنذاراً نهائياً وهدّدها بقطع العلاقات حال لم تأخذ الإنذار بعين الاعتبار. قال إن بيديه وسائل ضغط أخرى، يحذرها، ليس أعزل، سيغدر بها ويهشّم غطرستها وخيلاءها، غرورها وعجرفتها بضربة فأس واحدة. فهي بجميع الأحوال وضيعة وتافهة، وجودها يقوم على البلاط. والبلاط يتفتت بسهولة. ضربة هنا وضربة هناك ولا يبقى لشظاياه سوى الحداد والتأسف. علامَ؟ على إن كان من العدل تعذيب إنسان بريء، لم يؤذِ أحداً، يتأهب مستقوياً بالنوم لمعركته الحاسمة. فاليوم سيُقضى على حدث الأمس المخزي، سيُفنى، ويُلحد ويُنسى.

t.me/yasmeenbook

تزعزعت الظلال. اتسعت تلك القطاعات التي كانت تفرق صفوفها وتلألأت بالضوء. لا شك، كان كين سينتصر على أعدائه وحده. فنصرته عدة بناطيل شديدة البأس وسلبته شرف النصر. وقعت رجلان ثقيلتان على البلاط وظلتا واقفتين. ارتفع حذاء كبير ودار حول العين السحرية بودّ، كأنه لا يريد إيذاءها، كأنه يتوثق من شكلها القديم المألوف. تراجع هذا الحذاء وقام آخر بالحركة الرقيقة نفسها، باتجاه الدوران المعاكس. ثم تقدمت الرجلان. سُمعَت ضوضاء، جعجعة كأنها آتية من مفاتيح، صليل وقرقعة. أنّت الظلال وانسحبت. الآن يجب على الناظر أن يقرّ: لقد كانت زرقاء، زرقاء بكل معنى الكلمة. مرّ الإنسان المتثاقل ثانية. على المرء أن يشكره. دون حضوره أيضاً كان سيتمّ عمله. الظلال ظلال، يرميها جسم. لو أقصيناه، تحتضر الظلال وتموت. ما الذي أقصي هنا؟ لن يستطيع الجواب عن هذا السؤال سوى الفاعل. يدخل بنديكت بفاف.

"ما لك! فقت! صباح خير عطر يا سيدي البروفسور. أنتم النشاط في شخص. سأجلب زيتاً. هل سمعتم الباب يئن؟ على التخت ينام الإنسان نوم عميق، دبّ الشتاء مجرّد يتيم مقارنة به. فيه كان ينام ثلاثة، لما كانت العجوز عايشة والمرحومة بنتي. أعطيكم نصيحة صديق ومربي في ملجأ. ابقوا حيث أنتم الآن. ستشوفون عجائب الطبيعة، كما يقال. بناية كاملة تقوم من النوم. الكل يركض للشغل. البشر مستعجلون، ينامون طويلاً، كلهم حريم وكسالى. إذا كان حظكم جيد، تمر ثلاثة أزواج أرجل دفعة واحدة. منظر مثير. الواحد لا يعرف من هم. يقول الإنسان لنفسه آها، ويتبيّن له أنه آخر. مسرحية كلها صريخ. أقول: وفر الضحك. وإلا هذا آخر صباح لكم قبل الموت".

مرعداً ومحمراً لفرط السعادة بنكتته ترك كين وحيداً. إذاً، فقد كان مصدر ذلك الظل المقزز، القطاعات الكثيرة القبيحة، قضبان باب البناية. ما إن يعرف المرء الأشياء على حقيقتها حتى تفقد سحرها الخطير. كان

t.me/yasmeenbook

الإنسان البدائي يطلق أسماء خطأ على كل ما حوله. كان محاطاً بمدار سحري، ومتى وأين لم يكن مهدّداً بالخطر؟ لقد حرّرنا العلم من الخرافة والإيمان. إنه يضع الاسم ذاته لشيء بعينه، مفضّلاً الأسماء الإغريقية-اللاتينية، ويعني بها الأشياء الواقعية. يستحيل الإبهام. من يخال مثلاً أن يكون الباب شيئاً سوى باب، وظلّه في أقصى حدّ؟

إلا أن البواب كان محقّاً. غادرت البناية بناطيل كثيرة، البسيطة، الباهتة، ما اعتني بها عناية خفيفة، التي تشي بالقليل من ثقة البناطيل بنفسها وربما، هفا كين، بعض الذكاء أولا. وكلّما مرّ الوقت، ظهرت بناطيل أقل سرعة وأكثر حدّةً. كلما اقتربت سكين من أخرى، خشي أن تتناحر وهتف: "حذار!". تذكّر مختلف الخصال، لم يخش من ذكر الألوان، نوع النسيج والقيمة، الارتفاع عن الأرض، الثقوب الممكنة، العرض، التناسب مع الحذاء، البقع ومصدرها. وتمكّن رغم عظم مادته من الوصول إلى نتائج عديدة. عندما هدأ الحراك حوالي العاشرة، حاول أن يخمّن من الحدث أعمار مرتدي البناطيل، وشخصياتهم، ومِهنهم. بدا في الإمكان القيام بعملية منهجية، تحديد مواصفات البشر من خلال بناطيلهم. وعد بإنجاز بحث قصير عنها، سينتهي منه خلال ثلاثة أيام بسهولة، ولام عالِماً معيناً، يشغل نفسه على أحد قطاعات الخياطة، شبه مازح. لكن الوقت هنا ضائع، سيّان ما عمل. يعرف جيداً لماذا صبّ اهتمامه على العين السحرية. لقد ولّى الأمس، يجب أن يولّي الأمس. ويريحه التركيز العلمي أيّما راحة.

زاحمت نساءٌ عنيدات وسمجات الرجالَ المتوجهين إلى أعمالهم. استيقظن في باكورة الصباح. عدن على الفور وبذلك تضاعف عددهن. أغلب الظن أنهن ذهبن للتبضّع. سُمعت تحيات ومجاملات ممجوجة. حتى أكثر البناطيل حدّة ورزانة توقفت لهن. عبّرت عن خنوعها الذكوري بطرق شتى. أحدهم قرع كعبيه بكل عنف، تخدّرت أذن كين المنخفضة

t.me/yasmeenbook

إثر ألم فظيع. غيره توازن على رؤوس الأصابع، اثنان ثنيا الركب. ارتعشت كسرات الكوي لدى البعض ارتعاشاً خفيفاً. وشت الرغبات الجياشة عند البعض عن نفسها في شكل زاوية حادّة شكّلها البنطلون مع الأرضية. تمنى كين أن يرى رجلاً، رجلاً واحداً يعبّر عن نفوره من حرمة، يفضل الزوايا المنفرجة على الحادة. لم يمرّ به هذا. ليتذكر المرء الوقت: للتوّ هرب البشر من أسرتهم، زوجاتهم الشرعيات، فسكان البناية كلهم متزوجون. يشرع لهم النهار والعمل أبوابهما. يسرعون للخروج. يتدفق الانتعاش والرغبة في العمل من أقدامهم. كم من الفرص! كم من القوى! صحيح ليس في انتظارهم حياة ذهنية، لكنها حياة. انضباط، ترتيب، غايات مألوفة، أسباب معلومة، نسيج، فعل، تتابع الزمن وتقسيمه حسب الإرادة الذاتية. وبماذا يلتقون في باب الممر؟ الزوجة، الابنة، طبّاخة الجيران، وليست المصادفة هي من يجمعهم. الحريم يخططن لهذا، يرابطن خلف باب الشقة، ما إن يسمعن خطوات الذي حكمن عليه بالحب، حتى يتسحّبن خلفه، يسبقنه، يزحفن بمحاذاته، كليوباترات صغيرات، كل منهن قادرة على كلّ كذبة، متملّقات، ملوّحات، متوسّلات نظرة، واعدات بأجرهن، خطيئتهن، مشوّهاتٍ، دون رحمة، اليومَ البكر السعيد الذي يقبل عليه الرجال، بقوة وعلى أهبة الاستعداد لفضّه بكل شرف. فهؤلاء الرجال فاسدون، يعيشون في مدرسة زوجاتهم، يكرهون زوجاتهم، طبعاً يكرهونهن، لكن وبدل أن يعمّموا كراهيتهم، يسعون للتالية. تبتسم لهم إحداهن فيقفن لها. يا لهم كم يتذلّلون! يؤجلون مشاريعهم، يفرجون عن أرجلهم، يخسرون وقتهم، يساومون على أفراح ضئيلة. يخفضون القبعة بحيث تحجب عن المرء الرؤية، والنفَس. وإذا سقطت على الأرض، تمتد إليها يد مقوسة، يتبعها وجه متبسم. كان قبل لحظتين جادّاً. تمكّنت المرأة المعنية أن تخرج رجلاً عن جدّه. لقد نصبت حريم البناية غدرهن أمام العين السحرية تماماً. حتى وهن يمارسن أسرارهن لا بد لهن من عين ثالثة تبدي الإعجاب بهن.

t.me/yasmeenbook

لكن كين لم يبد بهن إعجاباً. استطاع أن يتجاهلهن، ويعلم الرب كم سهل عليه هذا، إنها مسألة إرادة لا غير. التجاهل يجري في عروق العالِم. العلم فن التجاهل. يحافظ لسبب معلوم على بكارة فنه. الحريم أميات، غبيات وثقيلات، خلل أبدي. كم كان العالم غنياً لولاهن، مخبر هائل، مكتبة مكتظة، سماء نقية للعمل في النهار وفي الليل. لكن، والعدل يفرض قول هذا بحق النساء: رغم أنهن يرتدين تنانير، لكن ليس بينها تنورة زرقاء واحدة، مهما أطال كين النظر واتسع فيه، لا تذكر أي امرأة في البناية بامرأة كانت تتزحلق قبل زمن سحيق في الممرّ ثم ماتت جوعاً، للأسف متأخراً جداً.

على الساعة الواحدة ظهر بنديكت بفاف وطالب بثمن وجبة غداء. قال، عليه أن يجلبها من المطعم وليس معه نقود. الدولة تدفع راتب التقاعد في أول الشهر وليس في آخره. رجا كين الهدوء. أيامه هنا في الأسفل نادرة ومعدودة. قريباً سينتقل للسكن في شقته. ويرغب أن ينهي البحث العلمي على العين السحرية قبل ذلك. يخطّط لعمل اسمه "شخصيات البشر حسب بناطيلهم"، مع "ملحق عن الأحذية". لا وقت لديه للطعام، ربما غداً.

زمجر البواب: "ما لك! أنا غير موافق. سيدي البروفسور، أطالبكم بالرفق واللين أن تدفعوا المصاري. الإنسان يجوع في هذه الوقفة المهمة. أنا مكلّف برعايتكم".

وقف كين وألقى نظرة متفحصة على بنطال الكائن المزعج: "أرجوكم، غادروا محلّ عملي فوراً". شدّد على ياء الملكية منفصلة عن "محل العمل" الذي نطق به كأنه إهانة.

جحظت عينا بفاف. حكّته قبضتاه. وكي لا يهوي بهما مباشرة، فركهما بقوة بأنفه. هل جنّ البروفسور؟ محل عمله هو؟ بماذا يبدأ؟ هل يكسر رجليه، يحطم جمجمته، يفجر مخّه، أم يبدأ بلكمة على البطن؟ أم يسحله

t.me/yasmeenbook

نحو الأعلى إلى الحرمة؟ هناك ينتظره مصير أليم. قالت، ستسجن القاتل في المرحاض. أم يرميه على الشارع؟ يفتح الحائط ويحبسه في الغرفة الخلفية، حيث خسر الحظوة عند المرحومة ابنته؟

لم يحدث شيء من كل هذا. نزولاً عند أمر بفاف كانت تيريزه قد طبخت طعاماً، جاهز في الأعلى ويريد أن يكسب به مهما كلّفه الأمر ولو كان ثمنه الانتقام اللذيذ. كان يودّ أن يكون صاحب مطعم أيضاً، وليس صاحب عضلات فقط. استخرج من جيبه قفلاً، دفع كين جانباً بإصبعه، انحنى وأقفل السدادة.

زمجر: "فتحتي ملكي أنا". مرة أخرى أرادت القبضتان أن تنجزا ما عليهما. "هش"، وبّخهما غاضباً. انسحبتا إلى الجيب متبرمتين. بكامل الجاهزية. شعرتا بالإهانة. فركتا فراءهما بحشوة الجيب وقرقرتا.

تفكر كين: "أيّ بنطال، أيّ بنطال؟!". افتقد مهنة معينة، مهنة مهمة في أبحاثه قبل الظهر، مهنة القتل بدافع السطو. هنا يرتدي أحدهم، هو ذاته من يسد عليه أداة البحث بدم بارد، البنطالَ النموذجي الذي يليق بقاتل بدافع السطو: منتفخ، يومض بالأحمر إثر الدم الباهت، الحركة داخله كريهة، دبق ومهلهل، سمين، داكن، مقزّز. لو كانت الحيوانات ترتدي بناطيل، لارتدت مثل هذا تماماً.

فحّ الحيوان: "الأكل وطلبناه. وما نطلبه ندفع حقّه". أمر بفاف إحدى القبضتين بالخروج، فتحها رغم احتجاجها الشديد، ومدّ راحته. "لن أدفع من جيبي أنا يا سيدي البروفسور، أنتم مخطئون تماماً. لا أطيق دفع الخوة. أطلب منكم آخر مرة. فكِّروا بصحتكم. إلى أين تصل المواصيل بالإنسان".

لم تبدر من كين أي حركة.

"إذاً، أنا مجبور أحجزكم". اعتقله وقال: "هذا شكل بني آدم؟". رماه على السرير، فتش كل الجيوب، عد النقود الموجودة بدقة، أخذ ما يستحقه

t.me/yasmeenbook

على ثمن وجبة، ولا قرش زائداً، قال عن نفسه إنه إنسان طيب، بسبب أمانته، وهدّد: "الأكل أبعثه. أنتم لا تستحقون أن أجلبه لكم بنفسي. عدم الاعتراف بالجميل قطعة منكم. يجب حلاقتها. أحذّركم. فتحتي تبقى مغلقة. هكذا هي عدالة الحياة. البناطيل الكثيرة تصنع منكم مجرماً. يجب أن أدير بالي. إذا كان سلوككم جيداً، أفتحها لكم غداً، لأجل الاحترام والشفقة. أنا أعرف شعوركم. ظلوا عاقلين. في الساعة أربعة يصلكم فنجان قهوة. في الساعة سبعة يجيئكم عشاء خفيف. لازم تدفعوا حقّه. أو، الأحسن تدفعوا الآن سلفاً".

كان كين قد وقف تواً على رجليه، فأُبطح من جديد. ودرءاً للمتاعب دفعة واحدة، حسب بفاف تكاليف الإقامة لمدة أسبوع، وحسب أجراً كبيراً لشرطي، لاح له أن المبلغ مناسب بعد الحساب للمرة الثالثة، ولأنه باهظ، أخذه وكتب أسفل الوصل: "مع كامل التقدير، بفاف، مفتش متقاعد"؟ دسّ الوريقة تحت المخدة بحذر، لأنه هو من استخدمها، ومن ثم بصق (وقد عبّر بهذا من ناحية عن خيبة أمله في البروفسور، ومن ناحية أخرى خيبة أمل قبضتيه لأنهما اضطرّتا لالتزام العطالة) وخرج. ظل الباب سليماً. إلا أنه أقفله من الخارج.

انصبّ اهتمام كين الأكبر على قفل آخر. شدّ سدادة العين السحرية، ارتخت قليلاً، لكن لم يتمكن من رفعها. بحث في الحجرة عن مفاتيح. ربما ناسبها أحدهم. كان تحت السرير خالياً. فتح الصندوق. كان فيه أزياء عسكرية قديمة، بوق، قفازات ملاكمة غير مستعملة، حزمة مربوطة جيداً فيها ملابس داخلية نسائية، نظيفة ومكوية حديثاً (قطع كلّها بيضاء)، مسدس عسكري، طلقات وصور، نظر إليها لا عن فضول إنما عن كراهية. والد يجلس منفرج الساقين، يمناه على كتف امرأة هزيلة كأنه يعتقلها، يعصر بيسراه طفلاً لا يتجاوز عمره ثلاثة أعوام، يسبح خجلاً في حضنه. كتب على الخلفية بحروف عريضة، متكالبة: "القط الأحمر مع حرمته وابنته".

t.me/yasmeenbook

فتذكر كين أن البواب كان متزوجاً منذ زمن قصيّ جداً، قبل أن تتوفى الزوجة. كانت هذه الصورة له وهو في عزّ عهد الزوجية. متشفّياً مسح كلمة "القط" وكتب فوقها "القاتل بدافع السطو". وضع الصورة في الأعلى، فوق قطع البزة العسكرية، التي يستنتج من وضعها أنها استخدمت كثيراً جداً، وأقفل باب الصندوق.

مفتاح! مفتاح! كم سيدفع لأجل مفتاح! كأن أحدهم يشدّه من كل مَسمّ من مسامات جلده بشريط، كأن أحدهم عقد هذه الشرائط في حبل وهذا الشيء القوي، الثخين، الثقيل، يمرّ من العين السحرية إلى الممرّ حيث تشده كتيبة كاملة من البناطيل. تنهّد كين: "أريد، نعم أريد، ولكنهم يثبطونني" وارتمى في السرير قانطاً. استحضر ما رآه. مرّوا به رجلاً رجلاً. استعادهم، لم يغفر لهم تعلقهم بالنساء وانهال على رؤوسهم بتهم إضافية. ما زال هناك الكثير لتصحيحه ومراجعة الفكر فيه. لو ظل الذهن مشغولاً! وضع على بوابات ذهنه أربعة حراس سماء يابانيين، غلاظاً، شداداً، مكفهرّة وجوههم، مرعبين. يعرفون من ينهون من الدخول. المباح هو ما يحثّ على أمن الأفكار.

لا مفرّ من ضبط النظريات المشتّتة. للعلم أيضاً نقاط ضعفه. الشكّ أساس العلم الحقيقي. لقد برهن كارتيزيوس[1] على هذا. لماذا مثلاً تنطلق الفيزياء من وجود ثلاثة ألوان أساسية؟ لن ينكر أحد أهمية الأحمر. هناك آلاف البراهين على دوره الجوهري. يمكن الاعتراض على الأصفر بأنه يقع على حدود الأخضر في الطيف. لكن، الأخضر، الذي يتألف من مزيج الأصفر ولون لا يمكن النطق باسمه بزعمهم، على المرء أن يكون حذراً في النظر إلى الأخضر، مع أنه يريح العين كما يزعم. إذاً لنعكس الوقائع! ما له تأثير حسن على العين، لا يمكنه أن يكون مؤلفاً من مركبات أحدُها أكثر المركبات ضرراً، وقبحاً وعقماً مما يمكن استحضاره في الذهن على

1) الاسم اللاتيني لديكارت.

t.me/yasmeenbook

الإطلاق. الأخضر لا يحتوي على الأزرق. لننطق بالكلمة بكل راحة، إنها مجرد كلمة، لا شيء آخر، وتحديداً ليست لوناً أساسياً. من الواضح أن هناك سرّاً في الطيف، مركّباً مجهولاً علينا، يشارك علاوة على الأصفر في تأليف الأخضر. ومن واجب الفيزيائيين البحث عنه. عندهم واجبات أهمّ. يغرقون العالم يومياً بأشعة جديدة، وكلّها من مجال الطيف اللا مرئي. وجدوا وصفة سحرية لألغاز ضوئنا الأساسي. يدّعون أن اللون الأساسي الثالث، الذي نحتاجه، الذي نعرفه من أثره وليس من كينونته هو الأزرق. يتداولون كلمة ما، يربطونها بلغز ما، ويعتبرون اللغز محلولاً بذلك. وكي لا يكشف أحد الخدعة، يختارون له كلمة بذيئة وكريهة عموماً، ومن المعلوم أن البشر يرتدعون من أن يضعوا هذه الكلمة تحت المجهر. يقولون، إنه كريه الرائحة ويتحاشون كل ما يصطبغ بالزرقة. الإنسان جبان. يفضل أن يساوم عشر مرات على أن يتخذ قراراً، ربما تخلص بذلك من اتخاذ القرار. ولهذا، ما زال المرء يؤمن حتى اليوم بوجود لون متخيّل إيماناً أقوى من الإيمان بوجود الرب. الأزرق غير موجود. الأزرق مجرد اختلاق فيزيائي. لو كان هناك أزرق، لكان شعر القتلة بدافع السطو من هذا اللون. ما هو لقب البواب؟ هل هو القط الأزرق؟ على العكس: القط الأحمر.

إضافة إلى البراهين الذهنية ضد وجود الأزرق توجد براهين تطبيقية. يحاول كين بعينين مغمضتين أن يستجلب صورة قد تصف الرأي العام بالأزرق. يتأمل في البحر. ينبعث منه ضوء مريح. ذرا الأشجار التي تهمس لها الريح. لا يشبّه الشعراء، الواقفون في مرصد، الغابة أسفلهم بالبحر عن عبث. يكرّرون هذا مرّات ومرّات. لا يمكنهم الابتعاد عن تشابيه معينة. لهذا سبب أعمق. الشعراء يعتمدون على مشاعرهم. يرون الغابة. وهي خضراء. تستيقظ صورة أخرى في ذاكرتهم، هائلة أيضاً، خضراء أيضاً: البحر. إذاً فالبحر أخضر. فوقه تتقبّب سماء. مكتظة بالسحب. سحب سوداء وثقيلة. عاصفة ما تقترب. لن تتفرغ. السماء ليست زرقاء في أي بقعة.

t.me/yasmeenbook

يمضي النهار عبثاً. تنقضي الساعات سريعاً. لماذا؟ من يطاردها؟ يتمنى أحدهم أن يرى السماء قبل حلول الليل، لونه اللعين. إنه كذبة. تتفرق الغيوم مساء. يظهر بينها أحمر ساطع. وأين الأزرق؟ الأحمر يتوقد، الأحمر، الأحمر. ثم يحلّ الليل. وهذا أيضاً كشف جديد فاضح. لم يشكّ أحد يوماً في الأحمر.

يضحك كين. يتمكن من إنجاز كل ما يبدؤه، يخضعه لبراهينه. ينام ملء جفونه عن العلم الرؤوف. هو غير نائم. إن فتح عينيه ستقعان على العين السحرية المسدودة. يريد أن يوفر على نفسه قلقاً لا نفع فيه. يحتقر القاتل بدافع السطو. إن منحه مقعد الشرف من جديد، أي إن أبعد تلك الستارة المسدلة واعتذر عن سلوكه الوقح، سيفتح كين عينيه. قبل ذلك لا.

يردّ عليه الصوت المعروف: "تفضّل، سيادة القاتل!".

يأمر: "هدوء". لقد أهمل، علاوة على اللون الأزرق، صوتاً بعينه. سيمحوه عن وجه الأرض مثل التنورة التي لا رجعة لها. يشدّ جفنيه أكثر ويأمر: "هدوء".

"رجاء، هذا الأكل".

"هراء! البواب هو من سيرسل الطعام"، مطّ شفتيه هازئاً.

"بعثني أنا. أنا مجبورة. مفكر أنا كنت أريد لحالي؟".

كأن الصوت استاء. سترغمه حيلة بسيطة على السكوت: "لا أريد طعاماً!". يفرك أصابعه بعضها بالبعض الآخر. لقد أحسن في هذا. سيتظاهر بأنه يصدق وجوده. سيخاتله، هو المساجل المتمكن، يضيق عليه فقرة فقرة.

"بجهنّم! سأتركه يقع. خسارة الأكلة الحلوة فيك. رجاء، من يدفع حقها؟ واحد ثاني؟"

t.me/yasmeenbook

تُسمَع من الصوت بوادر استهتار. يشعر هنا وكأنه في بيته. يعتقد كين أنه انبعث من مكبّ الجيف النافقة. رتق فنان قطعه، فنان كبير، عبقري. يفهم عمله، ينفخ في الجثث طبائعها القديمة.

"أن يترك طعاماً غير موجود يسقط! فأنا سأقول لكم، يا جثتي العزيزة، أمراً. ما بي خوف. لقد ولّى ذلك العهد. أنا أكشف حقيقة الأشباح. ما سمعت صوت سقوط الطعام بعد. هل تزعمين أني لم أسمع الصوت؟ كما أني لا أرى شظايا. حسب علمي يتناول المرء الطعام من صحون. والمعلوم أن البورسلان يتكسّر بسرعة. ربما كنت مخطئاً. سأنصحكم الآن أن تذكروا لي قصة عن بورسلان لا يتكسر. الجثث أم الاختراع. ما زلت أنتظر. ما زلت أنتظر". تبسم كين. أسعده هزؤه المنتقم.

"رجاء، هذا ما شطارة. العيون المفتوحة تشوف كل شيء. أيّاً كان يقدر يعمل نفسه أعمى".

"سأفتح عيني، وإن لم أركم، آنئذٍ ستغورون في الأرض خجلاً. كنت حتى الآن ألعب معكم بروح رياضية. أي حملتكم محملاً شبه جادّ. غير أني إن رأيت، ما لا أريد رؤيته شفقة عليكم، أنكم تتحدثون دون أن تكونوا موجودين، فستنتهون. سأفتح عيني على وسعهما، بحيث تذهلون. سأمدّ أصابعي إلى المكان الذي يفترض أن يكون وجهكم، إن كان لكم وجه. عيناي تنفتحان ببطء، تتألمان لأنهما لا تريان شيئاً، لكن الويل لكم إن فتحتا. إن النظرة التي تستعد هنا لا تعرف الرحمة. صبراً قليلاً بعد. سأنتظر لأني آسف لحالكم. الأفضل لكم أن تختفوا بنفسكم. أجيز لكم انسحاباً مشرّفاً. سأعدّ حتى العشرة وأريح ضميري. هل يجب إراقة الدم دائماً لأتفه سبب؟ إننا بشر متحضرون. هذه أفضل وسيلة لكم للذهاب، صدّقوني. علماً أن هذه الحجرة ملك قاتلٍ بدافع السطو. أحذركم، إن جاء سيقتلكم!".

"ما أخلّي أحد يقتلني. الزوجة الأولى نعم، لكن الثانية لا"، نعق الصوت.

t.me/yasmeenbook

تسقط على كين حاجات ثقيلة. لو كان أحدهم موجوداً، لآمن أنه يرميه بأدوات تناول الطعام. لقد وقعت الفأس على الرأس. لا يرى شيئاً مع أنه مازال مغمض العينين وهذا الظرف يساعد على ظهور الهلوسات. يشمّ رائحة طعام. خانه الشمّ. يرجع صدى سباب مقذع في أذنيه. لا يصغي بحدّة، لكن كلمة "قاتل" تتكرر في كل جملة. جفناه يتماسكان. تتقلص العضلات المحيطة بالعينين بشدة. أذنان مسكينتان مريضتان. يزحف سائل على الصدر. يصرخ الصوت: "راح أروح"، أحدهم يعود ليصغي إلى كل كلمة "ولن أجلب أي شيء للأكل بعد اليوم. القتلة لازم يموتوا من الجوع. حينئذٍ يبقى الناس الأكابر أحياء. وهو بجميع الأحوال محبوس. تفو، مثل حيوان. التخت كله ملآن. السكان يشمّون. أهل البناية يقولون مجنون وأنا أقول: قاتل. الأحسن أروح. لمَ أتعب حالي؟! الحجرة نشحة. ما ذنبي أنا؟! الأكل كان جيد. في الوراء غرفة ثانية. لازم يسدّوا الحيطان على القتلة. راح أروح".

فجأةً يحلّ السكون. غيره كان سيفرح فوراً. كين ينتظر. يعدّ حتى الستين. يستمر السكون. يتلو إحدى خطب بوذا، بلغة بالي الأصل، ليست إحدى الخطب الطويلة. ولهذا لا يهمل حرفاً واحداً ويكرّر بأمانة ما يجب تكراره. يقول بصوت خفيض جدا: والآن نبدأ بفتح العين اليسرى، المكان هادئ، جبان من يخاف. تتبعها العين اليمنى. الاثنتان تحدّقان في حجرة مظلمة. على السرير عدّة أطباق، صحفة وأدوات الطعام، على الأرض كأس مكسورة. هنا قطعة لحم بقر وعلى الحلة بقايا السبانخ. تسرّب الحساء حتى وصل إلى جلده. لكل شيء رائحة طبيعية وحقيقية. من جلب هذا؟ فلم يكن أحد هنا. يذهب إلى الباب. وهذا مقفل. يرجّه، دون طائل. من حبسه؟ البواب عندما ذهب. السبانخ غير موجود. يبعده عن ثيابه. يجمع شظايا الزجاج. تجرحه همومه. يسيل دم. هل يجب الشك في دمه أيضاً؟ تروي كتب التاريخ عن انزياحات جنونية. السكين إحدى أدوات تناول

t.me/yasmeenbook

الطعام. وكي يجربها، يجرح نفسه، إنها حادة وتؤلم ألماً فظيعاً، يقطع خنصر يسراه. يسيل المزيد من الدم. يقمط اليد الجريحة بمنشفة بيضاء تتدلى من السرير. هذه المنشفة منديل. يقرأ على زاويته الحروف الأولى من اسمه. كيف وصل إلى هنا؟ كأن أحدهم رمى وجبة غداء عبر السقف، الجدران والباب المغلق. النوافذ سليمة. يتذوق اللحم. طعمه مناسب تماماً. يشعر بالدوار، وهو جائع، يأكل قطعة اللحم كلها. يشعر بكل لقمة تأخذ طريقها في المريء بأنفاس مكتومة، متصلباً ومتزلزلاً. لقد دخل أحدهم عندما كان مستلقياً على السرير مغمضاً عينيه. يصيخ السمع. كي لا يفوته أي شيء يرفع إصبعه. ثم ينظر تحت السرير وفي الصندوق، لا يرى أحداً. لقد كان أحدهم هنا دون أن ينطق بكلمة ثم تلاشى، من شدة الخوف. لم تغني طيور الكناري. ما مبرّر تربية الطيور. لم يؤذها. تركها على راحتها منذ أن جاء إلى هنا. خانته. يغشى على عينيه. فجأة تنطلق طيور الكناري بالغناء. يهددها بالقبضة المعصوبة. ينظر إليها: الطيور زرقاء. إنها تسخر منه. يخرجها الواحد تلو الآخر من القفص ويضغط على حناجرها حتى تختنق. مفتوناً يفتح النافذة ويرمي الجثث على الشارع. ويقذف خنصره، الجثة الخامسة، وراءها. ما إن أقصى كل ما هو أزرق من الغرفة حتى بدأت الجدران بالرقص. تحولها الحركات العنيفة إلى بقع زرقاء. إنها تنانير، يهمس ويزحف تحت السرير. يبدأ بالشك في عقله.

t.me/yasmeenbook

المصحّ العقلي

ذات مساء حارّ مثير في أواخر آذار، كان الطبيب النفسي الشهير جورج[1] كين يسير في ردهات مصحّه في باريس. كانت النوافذ مشرعة. نشب بين المرضى صراع حاد على الأماكن الخالية عند القضبان. رأس يرتطم بآخر. لم توفر في السباب. كان الجميع تقريبا يعاني من الهواء الثقيل الذي تنشّموه وابتلعوه، حرفياً، في الحديقة خلال النهار. تبرّموا عندما أعادهم الحراس إلى قاعات النوم. أرادوا المزيد من الهواء، لم يقرّ أحد منهم بتعبه. استمدّوا على القضبان حتى موعد النوم ما كانوا يشعرون به من بقايا المساء. كانوا يؤمنون أنهم هنا أقرب إلى الهواء الذي يملأ غرفهم المنارة والعالية.

لم تنقطع انشغالاتهم حتى مع مجيء البروفسور الذي يحبونه، لأنه جميل وطيب. عندما كانوا يسمعون في الأيام الخالية أنه قادم، كان المرضى في كل قاعة يتجمعون ويهلون نحوه. عادة ما كانوا يتشاجرون على لمسه، سواء باليد أو الكلمات، كما يتشاجرون اليوم على النوافذ. لم يفرَّغ الحقد، الذي يكنّه بعضهم للمصح حيث يحتفظ بهم ظلماً، على رأس البروفسور الشاب. صار يحمل صفة مدير للمصح الواسع قبل عامين فقط، بينما كان يديره في الواقع قبلاً، الملاك الخيّر لربٍّ شرّير. من كان يعتقد أنه مغتصَب، أو كان مغتصَباً حقاً، يرمي الذنب على المدير السابق العاتي، الذي توفي في الأثناء.

---

1) هنا يذكر اسم الأخ باللفظ الفرنسي، بخلاف اللفظ الألماني غيورغ.

t.me/yasmeenbook

كان ذاك يعمل في الطبابة النفسية الرسمية بمراس مجنون. يعتبر واجب حياته أن يستغل المادة الهائلة تحت تصرفه كدعامة لكل الألقاب الممكنة. لا تدعه الحالات النمطية، برأيه، ينام. كان من أنصار تكريس النظام ويكره المرتابين. سيان عليه البشر، خاصة المرضى العقليون والمجرمون. كان يقر لهم بحق معين في الحياة. أن يمدّوه بخبرات تبني عليها السلطات العلم. هو ذاته كان سلطة. اعتاد أن يلقي، هو العابس قليل الكلام، خطباً رنانة على أسماع التلاميذ، يستمع إليها جورج كين، معاونه، واقفاً ساعات، من البداية إلى النهاية ومن النهاية إلى البداية، مضطرّاً وهو يغلي خجلاً من قصور الذهن ذاك. حين يصدر رأي أحد ضد رأي أقل حدّةً، كان المدير السابق يأخذ بالأحد. يقول للمرضى الذي يزعجونه خلال جولاته بالحكايات المملّة ذاتها: "أعرف كل شيء". يشكو أمام زوجته بمرارة من العمل مع أناس لا يتميّزون بقدرات عقلية سليمة. كما كان يكشف لها أيضاً أعمق أسراره عن جوهر الأمراض العقلية، أسرار يتحفظ عليها أمام الرأي العام، لأنها فظة وبسيطة، أي خطرة على النظام. يقول لزوجته عالي الثقة وهو ينظر إليها نظرة ثاقبة وكاشفة، فتحمرّ: يجن الناس الذين لا يفكرون سوى بأنفسهم. خلل الذهن عقاب على الأنانية. ولهذا يجتمع في المصحات معظم حثالة المجتمع. السجون تقوم بالمهمة ذاتها لكن العلم بحاجة إلى عصفوريات كمادة تشريحية. لم يكن لديه ما يقوله لزوجته غير هذا. كانت تصغره بثلاثين سنة وتضفي جمالاً على خريف عمره. كانت زوجته الأولى قد هربت منه قبل أن يدسّها، مثل الثانية، في مصحّه باعتبارها غير قابلة للشفاء من الأنانية. والثالثة، التي لا يكنّ لها شيئاً سوى الغيرة، تحب جورج كين.

لها يدين بنجاحه السريع. كان طويلاً، قوياً، ناريّاً وواثقاً من نفسه، في ملامحه بعض من تلك الرقة، التي تحتاجها النساء ليشعرْنَ بالراحة مع الرجل. يسمّيه كل من رآه آدم ميكيل أنجلو. كان يعرف تماماً كيف

t.me/yasmeenbook

يربط الذكاء واللباقة. وتم تصعيد موهبته اللماعة عبر سياسة حبيبته إلى تأثير سحري. عندما تأكدت أن لا أحد سيخلف زوجها في إدارة المصح سوى جورج، عبرت سبيل القتل بالسمّ، بل وسكتت عليه. كانت قد فكرت وخططت له منذ سنوات، وأنجزته. مات الزوج دون أن تظهر عليه أي علامات. وفوراً أُعلن جورج مديراً وتزوجها امتناناً على خدماتها السابقة. لم يكن له أدنى علم بآخرها.

بسرعة كان قد انقلب في المدرسة القاسية لسلفه إلى القطب المعاكس تماماً. يعالج المرضى كأنهم بشر. يصبر على الاستماع إلى قصص سمعها ألف مرة ويظهر اندهاشاً أبدياً بالمخاطر والمخاوف الأزلية. يبكي ويضحك مع المريض الذي يجلس قبالته توّاً. قسم يومه بحسابات دقيقة: يقوم بجولات ثلاث، بعد الاستيقاظ مباشرة، قبل الظهر، ومساء، بحيث لا يهمل نزيلاً واحداً من ثمانمئة. تكفيه نظرة سريعة كالبرق. حيث يلمح أدنى تغيير، شرخاً، احتمالاً لأن يدخل إلى الروح الكسيرة، يسرع بالمبادرة ويصحب المريض إلى شقته الخاصة. يرافقه بكلمات متأدبة يلقيها بذكاء على أسماعه إلى غرفة العمل، عوض غرفة الانتظار غير الموجودة، ويدلّه على أفضل مقعد. هكذا يكسب بسهولة ثقة البشر، إن لم يكن قد كسبها قبلاً، الذين يتسترون مع غيره خلف حجاب جنونهم. يخاطب الملوك بتذلل بعبارة سموّكم، يخرّ أمام الآلهة على ركبتيه ويعقد يديه. هكذا ينزل إليه السادة المبجلون ويشون له بما يضمرون. صار كاتم أسرارهم الذي يخبرونه، منذ لحظة اعترافهم به، بالتغييرات الجارية في مجالاتهم ويسألونه النصح. يشير عليهم بذكاء جليّ، كأن رغباتهم رغباته، واضعاً نصب عينيه غاياتهم ودينهم، مشورة تختلف من فرد إلى فرد، معبّراً عن الشك في قدراته، لا يتكبّر قطّ على الرجال، متضع، بحيث أن بعضهم يحدّثه مبتسماً: فهو بالنهاية وزيرهم، نبيّهم، رسولهم، وبل وأحياناً صاحب الخزانة.

تحول مع الزمن إلى ممثل كبير. تتوافق عضلات وجهه، نادرة الحركة، مع

t.me/yasmeenbook

مواقف مختلفة في نهار واحد. ولأنه يدعو ثلاثة مرضى على الأقل، ورغم حرصه أكثر، في اليوم الواحد، فقد كان مضطراً للبس أدوار كثيرة، بصرف النظر عن التلويحات والكلمات السريعة، لكن المصيبة، خلال جولاته، فهذه تحصى بالمئات. تجادلت شريحة العلماء حول معالجته لانفصام الوعي بطرق شتى. مثلاً، لو تصرّف مريض كاثنين لا يطيقان أحدهما الآخر أو يتصارعان، يستخدم جورج كين طريقة بدت له ذاته خطيرة جداً في البداية: كان يصادق الطرفين. كان شرط هذه اللعبة هو شدة المراس. كي يختبر الجوهر الحقيقي للفريقين، يدعم كلاًّ منهما بدلائل يستقرئ من آثارِها نتائجَه. يستخلص من النتائج حدسيات ويبتدع تجارب ناعمة ليبرهن عليها. ثم يبدأ بالشفاء. يقرب في وعيه الذاتي النصفين المنفصمين للمريض، كما يجسدهما هو، ويؤالف بينهما هما من ثم ببطء. يستشعر نقاط التقائهما ويصرّ على توجيه انتباه النصفين إليها باستخدام صور نافذة حتى يستقرّا عندها ويلتصقا معاً بطريقة ذاتية. كثيراً ما تحدث أزمة مفاجئة، اقتلاع جذري، انشقاق عنيف، حيث يرتجى الاتحاد النهائي، ولا مفرّ منها. عمليات الشفاء لم تكن نادرة. إن أخفق يعيد الإخفاق إلى سطحيته. فقد أغفل حلقة خفية في مكان ما، كان لخمة، استسهل العمل، ضحّى ببشر أحياء على مذبح قناعاته المكرسة، كان مثل سلفه. وهنا يبدأ من جديد، بدفقة جديدة من البنود والتجارب. فقد كان مؤمناً بصحّة منهجه.

هكذا كان يعيش في عدد لا يحصى من العوالم في آن واحد. بعمله مع المختلّين عقليا تحول إلى أحد أسمى العقول في زمنه. تعلّم منهم أكثر مما أعطاهم. أغنوه بحيواتهم المركبة، كان يفرحها فقط بأن يجعل منهم أصحاء. كم من ذهن وقّاد وذكاء حادّ وجد لدى البعض منهم! كانوا الشخصيات الحقيقية الوحيدة، كاملة التحيز، شخصيات ذات استقامة وقوة إرادة، يحسدها عليهم نابليون. تعرّف بينهم على هجّائين ظرفاء أقوى موهبة من جملة الشعراء، لم يدوّن وحيهم في صحف، جاء من قلب يخفق

t.me/yasmeenbook

خارج الأشياء ويهجم عليها كغزاة أجانب. الشهوانيون أفضل المرشدين بعد ثروات أرضنا.

استغنى عن قراءة الأدب منذ أن انتمى إليهم واختمر بهم. للروايات الموضوع ذاته دائماً. سابقاً كان يقرأ بشغف ويجد متعة في استخدام الجمل المكرورة، التي كان يعتبرها آنذاك أيضاً متحجرة، باهتة، مستهلكة وممجوجة. كانت اللغة لا تعنيه كثيراً. يطلب منها الدقة الأكاديمية؛ كانت أفضل الروايات تلك التي يتحدث فيها البشر بسموّ. من يستطيع التعبير مثل كل الكتبة الآخرين، يعتبر خلفهم الشرعي. أحد واجبات هذا هو أن يصبّ التنوع المتعرج، المؤلم، اللاذع، للحياة التي تحيط بالإنسان، في ورقة مسطحة يقرأها المرء بسرعة وارتياح. القراءة كمداعبة، الشكل الآخر للحب، للسيدات وأطباء السيدات، الذين تفرض عليهم مهنتهم تفهّماً عميقاً للقراءة الحميمية للسيدات. لا عبارات مشوّشة، لا كلمات أجنبية، كلما كانت الدرب مطروقة أكثر، كانت الشهوة التي يغتنمها المرء منها أكثر تميّزاً. مجمل الروايات كتب لتعليم آداب السلوك. يتهذّب القارئ رغماً عنه. تقتصر مشاركته في حياة الآخرين على عبارات التهاني والتعازي. كان جورج كين قد بدأ طبيباً للنساء. لقي إقبالاً شديداً لشبابه وجماله. استسلم زمناً دام بضع سنين فقط للروايات الفرنسية؛ التي كانت لها حصة رئيسية في نجاحه. يتصرف مع السيدات بعفوية كأنه يحبهن. كل منهن توافق على ذوقه وتعتبر به. انتشرت عادة التمارض لدى القردات. يأخذ ما يسقط في حضنه ويصعب عليه متابعة كل انتصاراته. محاطا بنساء لا تحصى في خدمته، مدلّلاً، غنيّاً، مرفّهاً كان يعيش مثل الأمير غوتاما قبل أن يصبح بوذا. لم يمنعه أبٌ أو ملك يخاف عليه من بؤس العالم، شاهد جمعاً غفيراً من الشيوخ، الموتى والمتسولين، بحيث لم يعد يراهم. إلا أنه رغم هذا كان منغلقاً بالكتب التي يقرؤها، بالجمل التي ينطقها، النساء اللاتي يحطن به كما الأسوار المغلقة، النهمة.

t.me/yasmeenbook

وجد طريق التشرد في الثامنة والعشرين من عمره. خلال زيارة لزوجة صيرفي، ترفة وملحاحة، تمرض دائماً عندما يسافر زوجها. التقى بأخيه، مختلّ بريء، حبسته العائلة، حرصاً على سمعتها، في البيت؛ حتى المنتجع بدا للصيرفي ضرراً في حساباته. خصصت غرفتان من الفيلا السخيفة للأخ الذي يستبدّ فيهما بممرّضته، أرمل شابة، بيعت له واستعبدت ثلاثة أضعاف: عليها ألّا تتركه وحده قطّ، عليها أن تكون طوع مشيئته، عليها أن تزعم أمام الناس أنها سكرتيرته، فقد كانوا يقدمونه للضيوف على أنه فنان غريب الأطوار، لا يحب مخالطة البشر ويعمل سرّاً على لوحة عظيمة. وهذا كل ما كان جورج كين يعرفه بصفته الطبيب الخاص للسيدة.

ولكي يدافع عن نفسه بوجه محاولات الحب التي تنضح بها، رجاها أن تريه الأعمال الفنية في الفيلا. نهضت من سرير المرض متمهّلةً وراضية. أملت أن تمهّد جسوراً أفضل أمام صور نساء عاريات، لكن جميلات، فقد كان زوجها يجمع مثل هذه اللوحات؛ لا غير. تحدثت عن روبن ورينوار. كرّرت جملة زوجها الأثيرة: "في هذه اللوحات ينسج الشرق". كان تاجر سجاد في الأصل. ويعتبر كل سفاهات البذخ في الفن حاملة لأثر الشرق ذاته. كانت مدام تتطلع في جورج بكل لوعة. تناديه باسمه الأول لأنه مثل "أخي الصغير". تقف حيث تتوقف عيناه. اعتقدت أنها أدركت ما الذي يبحث عنه. قالت، كما على المسرح: "في عينيك كثير من الحزن" وأخفضت نظراتها نحو ثدييها. لم يفهم د. جورج. كان رقيق المشاعر. "تاج المجموعة معلّق عند سلفي. لا داعي للخوف منه". أملت في المزيد بإلهام من تلك اللوحة الفاحشة. منذ أن راح يدخل البيت أناس مثقفون، كان زوجها، مضطراً وصارخاً أنه هو رب البيت، قد نفى تلك اللوحة الأثيرة إلى قلبه، الأولى التي تمكن من شرائها بسعر زهيد (عموماً كان يشتري أعمالاً رخيصة ويدفع عليها جيداً) إلى غرف أخيه. لم يظهر د. كين ميلاً شديداً للقاء بالمجنون. ظن أنه سيجد نسخة معتوهة عن الصيرفي.

t.me/yasmeenbook

أقسمت المدام أن اللوحة هناك أكثر قيمة من مجموع الأعمال الأخرى، عنت القيمة الفنية لكن كان للكلمة ذلك الجرس الواضح الذي تستمدّه مثل كل شيء آخر من زوجها. ثم عرضت أن تستند على ذراعه، أطاعها ولحق بها. بدا له رفع الكلفة أكثر أمناً خلال المشي منه خلال الوقوف.

كان الباب المؤدي للسِّلف مغلقاً. رنّ د. جورج الجرس. سُمِع خطوٌ بطيء قوي. ثم حل السكون. ظهرت عين سوداء خلف العين السحرية. وضعت المدام إصبعاً على فمها وتبسّمت بحنان. ظلت العين جامدة. انتظرا بصبر. ندم الطبيب على لطفه والوقت الذي أضاعه رغم ضيق وقته. فجأة فتح الباب دون صرير. ظهر فيه غوريلا يرتدي ثياباً، مدّ ذراعيه الطويلتين، وضعهما على كتفي الطبيب ورحب به بلغة غريبة. لم يكترث بالمرأة. تبعه ضيفاه. رجاهما الجلوس إلى طاولة دائرية. كانت إشاراته فظة، لكنها مفهومة وودودة. أعمل الطبيب فكره في اللغة. ذكّرته أكثر ما ذكّرته بلهجة من لهجات الزنوج. جاء الغوريلا بسكرتيرته. كانت خفيفة الثياب وواضحة الارتباك. بعد أن جلست، أشار سيدها إلى لوحة على الحائط وضربها على ظهرها. التصقت به. هدأ نفورها. كانت اللوحة تمثل اتحاد إنسانين شبيهين بالقرود. نهضت المدام وتطلعت فيها من أبعاد مختلفة، من جميع الجهات الممكنة. أمسك الغوريلا بالضيف الذكري، كان لديه الكثير ليشرحه له. كانت كل كلمة جديدةً على جورج. لكنه فهم أمراً: إن للزوج إلى الطاولة قرابة قوية مع الزوج في اللوحة. السكرتيرة تفهم سيدها. تردّ عليه بكلمات تشبه كلماته. فيتكلم بجرس أعلى، يصدر من العمق، تكمن خلف أصواته مؤثرات. تنطق بين الوقت والآخر بكلمة فرنسية، ربما لتشير إلى المقصود. سألها جورج: "ألا تتكلمون الفرنسية؟" فردّت باحتجاج: "طبعاً يا سيدي، ماذا تظنون بي، أنا ابنة باريس". وألقت على أسماعه بكلمات سريعة متلاحقة، سيئة النطق، وأسوأ تركيباً، كأنها نسيت اللغة. زأر فيها الغوريلا، فسكتت على الفور. تلألأت عيناه. وضعت يدها

t.me/yasmeenbook

على صدره. فبكى كطفل صغير. همست للضيف: "يكره اللغة الفرنسية. ويعمل منذ سنوات على لغة خاصة به. لم ينتهِ منها بعد".

كانت المدام مشغولة تماماً باللوحة. وكان جورج ممتنّاً لهذا. كانت كلمة منها ستخرجه عن طور الأدب. هو ذاته لم يجد كلمة يقولها. لو أن الغوريلا عاد للكلام. لأجل هذه الرغبة نسي الوقت الضيق، الواجبات، النساء، النجاح، كأنه يبحث منذ ولادته عن الإنسان أو الغوريلا، الذي له لغة خاصة. لم يأسره البكاء كثيراً. نهض فجأة وانحنى بعمق وخشوع أمام الغوريلا. تحاشى الأصوات الفرنسية، إلا أن سيماه عبرت عن عميق الاحترام. ردت السكرتيرة على هذا التقدير لسيدها بإيماءة ودودة. فتوقف الغوريلا عن البكاء، عاد إلى لغته وأجاز لنفسه البطش السابق. كان كل مقطع يخرج من حنجرته يعادل حركة معينة. بدا أن العلامات الدالة على الأشياء تتغير. قصد الصورة مئة مرة وأطلق عليها كل مرة اسماً يغاير سابقيه؛ الأسماء تصدر حسب الإشارة التي يشير بها. لم يكن أي صوت يماثل الآخر وهو يصدر من كل الجسد ويرافقه كل الجسد. ينشر ذراعيه على وسعهما حين يضحك. كأن جبينه خلف رأسه. فهناك تساقط الشعر كأنه ظل يهرشه دون توقف خلال الساعات الطويلة لعملية الخلق.

قفز فجأة وارتمى بكل عنف على الأرضية. لاحظ جورج أن هذه مغطاة بالتراب، لا بد أنها طبقة سميكة. جرّت السكرتيرة معطف المنطرح أرضاً. كان ثقيلاً. رجت الضيف المساعدة متوسلة. قالت إنها غيورة، غيورة جداً. رفعا الغوريلا معاً. ما إن جلس، حتى قصّ لهما عن تجربته في الأسفل. بعدّة كلمات متجبّرة، قُذفت في الغرفة مثل جذوع أشجار حية محتطبة، سمع جورج قصة حب خرافية هزّت كيانه إلى درجة الشك العميق بذاته. رأى نفسه بقّة بجوار إنسان. تساءل، كيف له أن يفهم ما أتاه من هاوية أعمق مما يستطيع النزول إليه بألف باع. كيف تطاول على الجلوس مع كائن كهذا إلى طاولة واحدة، مهذّباً، محسناً، محشوّاً بالشحم في كلّ مسمّ من مسامات

t.me/yasmeenbook

الروح، تزداد امتلاء بشحم طازج يوماً بعد يوم، نصف إنسان للاستخدام العملي، دون جرأة على أن يكون، لأن الكينونة في عالمنا تعني كينونة أخرى، قالباً للذات، دعاية مشذبة لخياط ما، في حالة حركة أو سكون بحكم مصادفة منعمة، حيث تميل المصادفة، دون أدنى تأثير، دون وميض قوة، مردّداً الجمل الفارغة ذاتها دائماً، مدرَكاً دائماً من المسافة المحسوبة ذاتها. فأين يحيا الإنسان العادي، الذي يعرّف القريب، يغيّره، يشكله؟ النساء اللواتي يعصفن على جورج بالحب ومستعدات لأن يهبن حياتهن حبّاً به، خاصة لحظة يحتضنهن، يعدن ليصرن ما كنّ قبلاً، قشوراً صقيلة، مشغولة بالزينة أو الرجال. أما هذه السكرتيرة، المرأة العادية بالأصل، التي لا تختلف عن الأخريات، فقد استحالت بالمشيئة العزيزة للغوريلا إلى كائن فريد، أقوى، أكثر شهوانية، أكثر تضحية. تضطرب حين يشبب بمغامرته مع التراب. تقاطع قصته بنظرات وملاحظات غيورة، تتأرجح عاجزة في كرسيها، تلكزه، تبتسم، تمطّ لسانها؛ ولا يعبأ بها.

لم تعد اللوحة تستهوي المدام. ترغم جورج على النهوض. لدهشتها يودّع السِّلف كأنه كرويسيوس[1] والسكرتيرة كأنها ضمنت عقد النكاح من كرويسيوس. "يعيش على حساب زوجي"، قالت في الخارج. معلنة أنها تكره الانطباعات الخطأ. سكتت عن الحصة المسروقة من الميراث. تمنى عليها الدكتور رقيق المشاعر أن يسمحوا له بمعالجة المختل عقلياً، لغايات علمية، للمتعة الخاصة، ما لن يدفع عليه السيد البعل مقابلاً مادياً. أساءت فهمه مثلما أساء فهمها ووافقت بشرط واحد، هو حضورها في الجلسات مع الوسيط. ولأنها سمعت خطوات، ربما عاد زوجها، أسرعت بالقول: "تجعلني نوايا السيد الطبيب فضولية جداً". وافق جورج على حضورها. نقلها كنتفة من حياته السابقة إلى الجديدة.

جعل يتردّد عليه يومياً عدّة أشهر. ازداد إعجابه بالغوريلا زيارة إثر زيارة.

---

1) أخر ملوك ليديا، حكم بين 560 – 546 وكانت ثرواته مضرب الأمثال.

t.me/yasmeenbook

تعلم لغته بجهد لا يقارن. لم تساعده السكرتيرة إلا قليلاً؛ كانت، عندما تطيل المكوث في الفرنسية، تشعر بنفسها مطاردة، تستحق العقاب على خيانتها للرجل الذي خضعت له دون قيد أو شرط. كي يسرّ الغوريلا، استغنى جورج عن الطرق الملتوية عبر لغات أخرى أيّاً كانت. تصرّف كطفل يعلّمونه مع الكلمات علاقة الأشياء فيما بينها. هنا كانت العلاقات هي المنبع، تضمحل الغرفتان بمحتوياتهما في حقل قوى وجدانيات. لم يكن للأشياء أسماء معينة، بذلك تأكد الانطباع الأول. يتغيّر اسمها بتغير الشعور الذي تطوف فيه. يتبدل وجهها بعين الغوريلا، الذي يمارس حياة وحشية، مثيرة، عاصفة. تنتقل حياته إليها ولها نصيب فعال فيها. أسكن الغرفتين بعالم كامل. خلق ما يحتاجه وبعد أيام الخلق الستة، وجد نفسه في يومه السابع حسناً. وعوض أن يرتاح وهب الخليقة لغة. كل ما حوله ينبع منه. فالمتاع الذي وجده هنا والسقط الذي جيء به لاحقاً يحملان آثار خلقه. عامل الغريب الذي حط فجأة على كوكبه بأناة. غفر له انتكاساته إلى لغة زمن ماضٍ، منته، لأنه ذاته كان ذات زمن من البشر. كما كان يلحظ بعين النعيم كم يتطور الغريب، الذي كان في البداية أقل من ظلٍّ ثم ارتقى إلى مستوى الند.

كان جورج على مقدار كافٍ من العلم، لينشر بحثاً عن لغة هذا المختل عقلياً. سُلِّط ضوء جديد على سيكولوجيا الأصوات. تمكن غوريلا من حل مشاكل احتدم العلماء في الجدال فيها. كلّلت علاقة الصداقة معه بالمجد طبيباً شاباً لم يكن يعرف قبلها سوى النجاح. امتناناً له تركه هناك حيث هو. أحجم عن محاولة شفائه. كان واثقاً، منذ أن أتقن لغته، أنه قادر على استعادته من غوريلا إلى الأخ المخدوع لصيرفي. إلا إنه اتقى ارتكاب جريمة يحثه عليها شعوره باكتساب سلطة مفاجئة، وحوّل اختصاصه إلى الطب النفسي إعجاباً منه بعظمة المجانين الذين تصور أنهم نظراء صديقه، على نية التعلم منهم وعدم شفاء أي منهم. كان قد عاف قراءة الأدب.

t.me/yasmeenbook

لاحقاً، بعد أن نبش في مئات التجارب، تعلّم التمييز بين مجنون ومجنون. عموماً ظل حماسه شديداً. يستحوذ عليه تعاطف حارق مع أناس، انفصموا كفاية عن الآخرين حتى يعتبروا مجانين. كلّما جاءه مريض جديد. بعضهم يلذع حبه الرهيف، خاصة تلك الطبائع الضعيفة التي تتلوع على لحظات الصحو التي تعيشها وهي تترنح بين نوبة ونوبة، كاليهود النائحين على قدور لحم المصريين. كان يلبي رغباتهم ويعيدهم إلى مصرهم. كانت الطرق التي يسلكها معجزات كمعجزات الرب حين أخرج شعبه. خلافاً لإرادته كان غيره يطبّق الطرق التي ابتكرها لحالة معينة على آخرين ما كان سيمدّ يده إليهم إجلالاً وخشوعاً لغوريلاه. ينتشر سراعاً كلّ ما يثيره، يتفوّه به. سرّ مدير المصحّ، الذي كان معاونه، بالضجة التي انطلقت من مدرسته. فقد كان معتاداً على أن يعتبر عمل حياته مكتملاً. انظروا، ما الأزاهير التي ينثرها فجأة أحد تلاميذه!

كان يحدث أن يلتقي جورج بأحد مرضاه المعافين عندما يسير في شوارع باريس. يُحضَن ويكاد يُرمى أرضاً كأنه صاحب كلب كبير وعاد إلى البيت بعد غياب طويل. يخفي وراء أسئلته الودودة أملاً ضعيفاً. يسأل عن الحال، المهنة، خطط المستقبل وينتظر ملاحظات صغيرة على غرار: "آنذاك كانت الحياة أجمل"، أو "حياتي الآن فارغة وتافهة"، "لو أني مرضت من جديد"، "لماذا أعدتم إليّ الصحة"، "لا يعرف البشر مدى المباهج في الرأس"، "الصحة العقلية نوع من أنواع البلادة"، "يجب أن يمنعوكم من ممارسة المهنة! لقد سرقتم مني أثمن ممتلكاتي"، "أعزّكم كصديق. لكن مهنتكم جريمة بحق الإنسانية"، "اخجلوا على حالكم، يا حذّاء النفوس!"، "أعيدوا لي مرضي!"، "سألاحقكم قانونياً"، "الشفاء والخراء نفس القافية".

وعوض هذا تتهاطل عليه المدائح والدعوات. الناس سمينون، أصحّاء وعاديون. لا تختلف تعابيرهم عن تعابير أيّ من المارة الآخرين. يساومون في التسوق أو يغفلون دكاناً. ويقفون في أفضل الأحوال على ماكينة. عندما

t.me/yasmeenbook

كان يعتبرهم أصدقاءه وضيوفه، كانوا يتعذّبون بذنب يحملونه عن الجميع، ربما بصغار قد يكون تافهاً مقارنة بعظمة البشر اللئيمين، باكتساح العالم، بالموت الذي عادوا فجأة ليعتبروه طبيعياً. انطفأت جذوة اللغز فيهم. قبلاً كانوا يحيون للغز، والآن لكل ما وجد حلاً منذ زمن بعيد. يشعر جورج بالخجل دون أن يطالبه أحد منهم بذلك. يؤلّهه أهل المرضى، يتوقعون منه المعجزات. يعتقدون أنه سيصلح كل الأعطاب حتى لو كانت هناك أضرار جسدية. كان أبناء مهنته يعجبون به ويحسدونه. يستقون أفكاره فوراً، وهي بسيطة وواضحة مثل كل الأفكار العظيمة. يستغربون أن أحداً منهم لم يصل إليها قبلاً. يستعجلون لينالوا أقساطاً صغيرة من مجده، بأن يعتبروا أنفسهم مقرّبين منه ويجرّبوا طرائقه في شتى الحالات. جائزة نوبل مضمونة له. كانوا سيرشحونه؛ وبسبب صغر سنه بدا من الأفضل أن ينتظر عدة سنوات أخرى.

هكذا غلبته مهنته الجديدة. كان قد بدأ تلبيةً لشعور بالفقد، بخشوع عميق لوجه الوديان والجبال التي اختبرها. وغدا في أقصر وقت فادياً، يرافقه ثمانمئة صديق، وأيّ أصدقاء! نزلاء المصحّ، ويبجّله الآلاف الذين أعاد لهم أحباءهم من جديد. فدون هؤلاء الأحباء، الذين نعذبهم ونحبهم، لا تبدو الحياة لأحد جديرة بالحياة.

يهلّل له ثلاث مرات في اليوم خلال جولاته بين القاعات. اعتاد ذلك، كلما كان الإقبال عليه أشدّ وكلما كان الازدحام أصخب، سهلت عليه الأمثال والقسمات التي يحتاجها. المرضى شعبه. يسمع الجلبة المألوفة قبل دخول الجناح الأول. ما إن يلمحه أحد من النافذة حتى يحلّ الضبط والنظام في اللغط. كان ينتظر هذا الانقلاب. كأن الجميع بدأ فجأة بالتصفيق. يبتسم بعفوية. تلبّسته أعداد لا تحصى من الأدوار وصارت من لحمه ودمه. روحه تتعطش لتحولات اللحظة. يتبعه عشرات المعاونين، كي يتعلموا. بعضهم أكبر سنّاً ومعظمهم أقدم منه في ممارسة المهنة.

t.me/yasmeenbook

يعتبرون الطب النفسي مجالاً خاصاً من مجالات الطب، وأنفسَهم مشرفين إداريين على المجانين. امتلكوا بالجد والأمل ما يقع في مجال اختصاصهم. بل كانوا يصغون أحياناً إلى مزاعم المرضى الجنونية كما تنصحهم الكتب التعليمية التي يستقون منها علمهم. يكرهون من أولهم إلى آخرهم المدير الشاب الذي لا يني يؤكد عليهم أنهم خدم المرضى لا المنتفعون بهم.

كان يقول لهم مثلاً عندما يكون معهم على انفراد: "ترون يا سادتي كم أننا، مقارنة بهؤلاء البارانويين العباقرة، سذّج متواضعون، مواطنون قساة وخاوون. نحن الفقراء وهو الغني؛ نحن بتجارب الآخرين وهو بتجاربه الذاتية. يسبح منعزلاً متفرّداً كالأرض في فضائه. يحق له هو أن يتخوف. ما يشغله هو وحده لإيضاح مداره، لا نشغله مجتمعين في مدارنا نحن. يؤمن بما يوحي له وهمه. نحن نرتاب في ذهننا السليم. القلة القليلة من المؤمنين بيننا تتمسك بمعارف جايلها آخرون قبل آلاف السنين. إننا بحاجة إلى رؤى، كشوف، أصوات - تقرُّب صاعق من الأشياء والبشر - وإن لم تكن هذه موجودة فينا نلجأ إلى ما سنّه لنا الأقدمون. نؤمن لأننا فارغون. والأكثر فراغاً بيننا يستغنون حتى عن هذا. وهو؟ إنه الله، النبي والمسلم في واحد. هل تزول صفة المعجزة عن المعجزة لأننا نلصق بها إتيكيت بارانويا مزمنة؟ نتشبّث بعقلنا السميك مثل الجشعين بأموالهم. الرشد، كما نفهمه نحن، ضلال. إن كانت هناك حياة ذهنية محضة فإن هذا المجنون يحياها".

كان المعاونون يصغون إليه متظاهرين بالاهتمام. لا يستصغرون أي نوع من التمثيليات إذا تعلق الأمر بارتقائهم السلم الوظيفي. يركزون على طرق العلاج الاستثنائية أكثر من اهتمامهم بنظراته العامة التي يتظارفون عليها سرّاً. يلتقطون كل كلمة توحى إليه لحظتئذٍ ويقولها لمريض، ويتبارزون في تطبيقها وهم على ثقة تامة بأنهم سينجزون بها ما ينجزه هو.

كان عجوز يعيش في المصحّ منذ تسع سنين، حدّاد قريته، انهار نتيجة تكاثر السيارات في منطقته. لم تتحمل زوجته الحياة معه بعد عدة أسابيع

t.me/yasmeenbook

من الفقر المدقع وهربت مع صف ضابط. ما إن استيقظ ذات صباح، حتى بدأ يشكو سوء حظه معها، لم يتلقَّ جواباً. كانت قد فرّت. بحث عنها في جنبات القرية، كانت عشيرته منذ ثلاثة وعشرين عاماً، دخلت بيته طفلة، تزوجها في ريعان شبابها. بحث عنها في المدينة المجاورة. ونزولاً على نصيحة الجيران سأل في الثكنة عن الرقيب ديلبوف، الذي لم يره قبلاً. قيل له إنه غائب منذ ثلاثة أيام، لا بد أنه صار في الخارج، لأنه معرّض لعقوبة قاسية لفراره من الجيش. لم يعثر الحداد على زوجته مهما بحث. قضى ليلته في المدينة. كان الجيران قد ديّنوه نقوداً. كان يدخل كل حانة، يدسّ رأسه تحت الطاولات وهو يوأوئ: "جين، هل أنت هنا؟" لم تكن تحت المقاعد أيضاً. حين يتدلى عبر طاولة الحانة، يصرخ الناس: "سيمدّ يده إلى الخزنة" ويسحلونه. كان الجميع يعتبرونه الرجل الأمين منذ ولادته. لم يضرب الزوجة مرة واحدة منذ أن تزوجها. كانت تضحك عليه دائماً لأن عينه اليمنى حولاء. لم يغضبه ذلك. كان يكتفي بالرد: "اسمي جان. سأضربك فوراً". لهذه الدرجة كان طيباً معها.

حكى مأساته لكل أهل المدينة. أعطاه كل منهم نصيحة جيدة. قال له إسكافيّ قذر، إنّ عليه أن يفرح. كاد يقتله ضرباً. ثم صادف جزاراً. ساعده هذا على البحث لأن الحركة خلال الليل بركة، كان سميناً جداً. أخبرا الشرطة وبحثوا عند النهر عن جثة طافية. قبل حلول الصباح وجدا امرأة، لكن هذه كانت لرجل آخر. كان الضباب كثيفاً وبكى جان حين تبيّن له أنها ليست زوجته. بكى الجزار أيضاً وتقيّأ في النهر. في الصباح الباكر صحب جان إلى المسالخ. كان الجميع يعرفونه ويرحبون به. خارت العجول، صدرت رائحة دم الخنازير، قبعت الخنزيرات وعلا صراخ جان: "جين، هل أنت هنا؟" وخار الجزار، فلم يعد أحد يسمع العجول: "هذا الحداد صديقي، جلبوا زوجته إلى هنا. أين هي؟" هزّ الرجال رؤوسهم. ثار الجزار، هذه هي الزوجة، لقد ذبحوها. بحث بين الخنازير المعلقة في صف طويل. زمجر:

t.me/yasmeenbook

هذه هي الخنزيرة. تطلّع فيها جان، شمّها، لم يكن قد أكل نقانق الدم منذ زمن بعيد، كان يحبها حباً جماً طوال عمره. وبعد أن تشبع من الرائحة قال: هذه ليست زوجتي. فغضب الجزار ولعن: انقلع، يا أبله!

ذهب جان إلى المحطة وهو يضلع، كانت المرأة ضلعه الجريح؛ والنقود ضاعت. أعول: "كيف أذهب إلى البيت؟" وارتمى على السكة. وعوض القاطرة جاء رجل صالح وأهداه تذكرة سفر؛ بسبب المرأة. تبيّن في القطار أن التذكرة مزورة. قال جان: لكنه أهداها لي، زوجتي هربت. لم يجد في جيوبه قرشاً واحداً. في المحطة التالية استقبلته الشرطة. "هل هي هنا؟ أين هي؟"، وأوأ جان. قالت الشرطة: "ها هي ذي!" مشيرة إلى نفسها وأخذته. وهكذا دخل زنزانة، فضاج عدة أيام وضاعت المرأة نهائياً. كان سيجدها.

فجأة أخلوا سبيله. فكر: ربما عادت. لم يجد في البيت سريراً، لم يجد في البيت طاولة، لم يجد في البيت كراسي، لم يجد في البيت شيئاً. لن تعود امرأة إلى بيت فارغ.

سأل الجيران: "لماذا فرغ البيت؟"

"أنت مدين لنا بفلوس يا جان".

"وأين تنام زوجتي إذا جاءت؟"، سأل جان.

"زوجتك لن ترجع. إنها مع الرقيب الشاب. وأنت ستنام على الأرض. أنت الآن فقير".

ضحك جان وأشعل النار في القرية. أخذ سرير زوجته من بيت ابن عمه المحترق. وقبل أن يحمله خارجاً، خنق الأطفال النائمين، ثلاثة غلمان وبنيّة. كان لديه عمل كثير تلك الليلة. إلى أن وجد الطاولة والكراسي وكل حاجياته، احترق بيته الخالي. حمل أملاكه إلى البرية، أثث الكوخ العتيق ونادى جين. ثم استلقى في السرير. ترك لها مكاناً واسعاً لكنها لم

t.me/yasmeenbook

تأتِ. ظل مستلقياً زمناً طويلاً وهو ينتظر. قرصه جوعٌ شديد، خاصة في الليالي، من يتصور مثل ذلك الجوع. كاد أن ينهض لشدة الجوع، سال المطر في فمه، شرب وشرب. كان حين يحلّ النهار، يمدّ يده إلى النجوم، لو أنه وصلها. كان يكره الجوع. وعندما لم يعد يتحمل، نذر نذراً. أقسم بالعذراء أنه لن ينهض حتى تعود المرأة إليه وتضطجع بجانبه. ثم عثرت عليه الشرطة وحنثت بنذره. كان سيفي به. أراد الجيران أن يقتلوه. كانت القرية قد احترقت على آخرها. سُرّ وهتف: "أنا من فعلها! أنا من فعلها!". خافت الشرطة وانطلقت مسرعة.

كان هناك معلّم في الزنزانة الجديدة. ولأن كلامه جميل روى له حكايته. سأل المعلم: "ما اسمكم؟". "جان بريفال". "هراء. اسمكم فولكان. أنتم أحول وأعرج. أنتم حداد. بل حداد جيد إذا كنتم تعرجون. إذاً، اصطادوا المرأة!".

"أصيد؟"

"اسم زوجتكم هو فينوس، واسم الرقيب هو مارس. سأحكي لكم حكاية. أنا مثقف. كل ما عملته هو أني سرقت".

وأصغى إليه جان موسّعاً عينيه. يا للخبر السعيد! إذاً، يمكنه أن يصطادها. وهذا ليس صعباً. تمكّن منه حداد عجوز. خانته زوجته مع جندي، شاب وقوي. عندما كان الحداد فولكان يذهب إلى العمل، يتسلل الشيطان الجميل، مارس، إلى بيته ويضاجع زوجته. رأى الديك ما كانوا عليه، ذهل وأخبر سيده. صنع فولكان شركاً، تحفة، لا ترى، كان الحدادون المتقدمون يبدعون في عملهم، ونصبه حول السرير. زحف الاثنان إليه، الأنثى والجندي. فطار الديك إلى السيد وصاح: إنهما في البيت. بسرعة صحب الحداد أولاد عمومته والقرويين. اليوم أقيم لكم عرساً، انتظروا في الخارج، انتظروا. دخل سرّاً، اقترب من السرير، شاهد زوجته مع الشيطان،

t.me/yasmeenbook

كاد أن يبكي. لقد عاش معها ثلاثة وعشرين عاماً، ولم يضربها قطّ. انتظر الجيران. شدّ الشرك، شدّه بقوة، بقوة، صادهما، نال منها، الزوجة. ترك الشيطان يذهب في سبيله، ضربه كل واحد من أبناء القرية لكمة على خطمه. ثم جاء الجميع وسألوا: أين المرأة؟ كان الحداد قد أخفاها. كانت تشعر بالخجل وهو سعيد. هكذا يجب أن يتصرف الرجل. قال المعلم. القصة حقيقية. وللتذكير بها أطلقوا أسماءهم على ثلاثة نجوم، مارس، فينوس وفولكان. يمكن رؤيتهم في السماء. لكن لمشاهدة فولكان يجب أن تكون العيون قوية.

قال جان: "الآن عرفت لماذا كنت أمدّ يدي إلى النجوم".

بعد ذلك أخرجوه من الزنزانة. بينما بقي المعلم. عوضاً عنه وجد جان صديقاً جديداً. كان هذا الإنسان جميلاً. الحديث معه حلو. يودّ الجميع أن يجلسوا معه. صاد جان زوجته. أحياناً كانت الأمور تسير على ما يرام. فيسرّ بهذا. غالباً ما يكون حزيناً. فيأتي صديقه إلى القاعة ويقول: "لكن انظر يا جان، إنها في الشبك، ألا تراها؟!". ودائماً يكون محقّاً. ما إن يفتح الصديق فمه حتى تعود الزوجة. تقول لجان أنت أحول، فيضحك ويهدّدها: سأستلقي فوقك فوراً، اسمي جان.

لم يكن هذا الحداد، الذي قضى تسع سنين في المصح، غير قابل للشفاء. لم يأتِ بحث المدير عن زوجته بنتيجة. حتى لو وجدوها، من يرغمها على العودة إلى زوجها؟ تخيّل جورج كيف يحقق ذلك المشهد الذي يقبس منه الحداد فرح حياته. ينصب في شقته سريراً وشبكاً، تظهر المرأة بعد بحث مرير، يقترب منها جان خفية ويشد الشبك. يتبادلان عباراتهما السابقة. يزداد جان هيجاناً. يختفي الشبك وتسع سنين. تنهّد جورج: آه، لو أني وجدت تلك المرأة!

كان يساعد جان على الوصول إليها. تمنى لو يطولها ليقدّمها له، كأنه

t.me/yasmeenbook

يحملها بين يديه. ظن المعاونون، القردة، وجود محاولة سرية. ربما يشفيه بهذه الكلمات. حين يكون أحدهم وحده في القاعة، لا يفوّت على نفسه الفرصة وينطق بالوصفة السحرية: "لكن انظر يا جان، إنها في الشبك، ألا تراها؟!" يهوّنون عليه بالإلهام الذي نزل على قلب معلمهم سواء أكان جان فرحاً أم حزيناً، أكان يستمع إليهم أم يسدّ أذنيه. يوقظونه إن كان نائماً، يصرخون فيه إن كان مرتبكاً. يرجّونه ويدفعونه، يتهمونه بالقصور ويهزؤون بذكرى زوجته. تصطبغ الجملة ذاتها بألف جرس وجرس حسب شخصياتهم وأمزجتهم، وحين لا تثمر محاولاتهم، فقد كانوا سيّان عند الحداد، يكون لهم مبرّر آخر للسخرية من المدير. يكرّر المعتوه محاولته الساذجة منذ سنوات، وما زال يؤمن أنه سيعيد الصواب إلى مريض غير قابل للشفاء بجملة بسيطة.

لولا أنّ العقود التي أبرمها سلفه تلزم جورج بهم، لأقالهم جميعاً. كان يعرف أنهم يريدون الشرّ بالمرضى ويخشى على مصيرهم إن مات فجأة. لم يفهم عمليات التخريب القميئة لجهده الذي لا ينتظر منه رجاء، لكنه مفيد في أعينهم الضيقة. سيحيط نفسه مع الزمن بأناس يتمتعون بقدرات عالية، كي يساعدوه حقيقة. وبالنتيجة سيصارع المعاونون الذين ورثهم عن سلفه على وجودهم. يشعرون أنه لا يودّهم ويرتضون جفاءه كي يجدوا عملاً ما بصفتهم تلاميذه النجباء بعد أن تنتهي آجال عقودهم. فقد كان يستشعر أيضاً العوالم الداخلية للبشر السطحيين، الخاملين والمتوازنين منذ الولادة، بحيث لا يمكنهم أن يصابوا بلوثة. عندما يتعب ويريد أن يرتاح من التوتر العالي الذي يشحنه به أصدقاؤه المدهشون، يتعمق في نفس أحد المعاونين. كل ما يقوم به جورج يجري في أناس غرباء. حتى طمأنينته، إلا أنه لا يجد هذه هنا إلا ببالغ الصعوبة. تدفعه الاكتشافات المستغربة على الضحك. مثلاً، ما الذي يتصوّره محدودو العقل عنه. لا شك في أنهم يبحثون عن تفسير لنجاحاته وارتباطه الفائق بمرضاه. لقّنهم

t.me/yasmeenbook

العلمُ الإيمانَ بالأسباب. كبشر يرتدون البزات الرسمية يلتزمون بمطلق الوفاء بتقاليد ورؤى الأغلبية في زمنهم. يحبّون الملذات ويفسرون كل شيء وكل أحد بالرغبة في الملذّات، فورة الزمن، التي تسيطر على كل الأذهان ولا تنتج إلا القليل. وطبعاً الملذّات عندهم هي تلك الترهات التقليدية التي يمارسها الفرد بدناءة متواصلة منذ أن وُجِد الحيوان.

لا يدركون شيئاً عن الحافز الأعمق والمتأصل للتاريخ، نزوع الإنسان إلى الانحلال في جنس حيواني أرقى، الحشد، والضياع فيه كلياً، كأنه لم يوجد قطّ إنسان واحد. فهم مثقفون، والثقافة حزام[1] يحصّن الفرد ضد الحشد في ذاته.

بحدّة لا تقلّ عن الصراع على الجوع والحب، نخوض صراع الحياة على محق الحشد فينا. يقوى أحياناً بحيث يرغم الفرد على سلوك متجرّد من الذات أو موجّه ضد مصالحه. كانت "البشرية" أزلية، قبل أن تُخترَع اصطلاحاً وتُموَّه كحشد. يغلي الحشدُ فينا كلّنا حيواناً مخيفاً، وحشياً، حارّ الدم ونابضاً بالعصارات، عميقاً جداً، أعمق من الأمهات. رغم عمره الطويل فهو الحيوان الأحدث، المخلوق الجوهري للأرض، غايتها ومستقبلها. لا نعرف عنه شيئاً، ما زلنا نفترض أننا نحيا كأفراد. أحياناً يطغى علينا الحشد، عاصفة هوجاء، أوقيانوساً متوحداً ثائراً، لكل قطرة فيه حياة وتريد ما تريد الأخريات. إلا أنه يتشرذم أحياناً، فنعود لنكون شياطين مسكينة، وحيدة. لا نستوعب في الذاكرة أننا كنا يوماً ما بتلك الكثرة وتلك المنعة وتلك الوحدة. هنا يقول أحد الذين تلوثوا بالفهم: "المرض، الوحش في الإنسان[2]"، يسكِّن حَمَل التواضع هنالك ولا يدرك كم يجانب الحقيقة هنا. في هذه الأثناء يعدّ الحشد فينا العدة لهجوم جديد. ذات يوم لن

---

1) في إشارة إلى حزام أفروديت الذي يمنحها المنعة.

2) الوحش في الإنسان، عنوان رواية لإيميل زولا، La Bête Humaine ، وهي الجزء السابع عشر من سلسلة روايات عن عائلة روغون باسم Rougon-Macquart-Zyklus

t.me/yasmeenbook

يتشرذم، ربما بدءاً بدولة واحدة، ويبتلع الأخريات انطلاقاً منها، حتى لا يعود أحد للشكّ به، لأنه لن يوجد أنا، أنت، أنت بعد، إنما هو وحده، الحشد.

سُرّ جورج باكتشاف معين، ألا وهو: عمل الحشد في التاريخ وفي حياة الفرد، تأثيره على انزياحات معينة في الذهن. تمكن من البرهان عليه عند مرضاه. يختلّ عقل الكثيرين لأن الحشد فيهم ضاغط جداً ولا يجد الإشباع. ولا يفسّر لا ذاته ولا عمله إلا كذلك. سابقاً كان يحيا لميوله الذاتية، طموحاته والنساء؛ والآن يدأب على أن يضيع ذاته. بهذا يدنو من رغبات الحشد وأفكار الحشد أكثر من الآخرين الذين يحيطون به.

حاول معاونوه أن يجدوا تفسيراً آخر، يوائمهم أكثر. يتساءلون: لماذا يكرّم المدير المجانين هكذا؟ لأنه هو ذاته مجنون، لكن نصف مجنون فقط. لماذا يشفيهم؟ لأنه لا يرتضي أن يكونوا مجانين أفضل منه. يحسدهم. لا يدعه حضورهم ينعم بالراحة. يعتبرون شيئاً استثنائياً. فيه يحيا النزوع المرضي، للفت الأنظار إلى ذاته مثلهم. العالَم يعتبره عالِماً طبيعياً. لن يتمكن من إنجاز المزيد. كمدير لمصحّ عقلي سيموت وهو بكامل قواه العقلية وقريباً، كما يهفون. أريد أن أكون مجنوناً! يصرخ مثل طفل صغير. طبعاً تعود هذه الأمنية الوضيعة إلى حدث جرى له في شبابه. يجب أن يفحصوه ذات مرة. وطبعاً سيرفض طلب استخدامه موضوعاً لمثل هذه الفحوصات. إنه أناني، ويفضّل ألا يتعاملوا مع أمثاله. إن أوهام المريض العقلي ترتبط منذ الطفولة بالشهوة. يخاف العنّة. لو استطاع إقناع نفسه بأنه مجنون، فسيحافظ على طاقاته. أي مجنون يبعث فيه سعادة أكثر من نفسه. لماذا يستمتعون بالحياة أكثر مني؟ يشكو. يشعر أنه مهمل كلياً. يعاني من عقدة النقص. يظل يرهق نفسه حتى يشفي أحداً لأنه حسود. يتشوقون لأن يعرفوا مشاعره حين يخلي سبيل مريض. لا يعلم أن آخرين سيأتون. يتغذّى على الانتصارات اللحظية الصغيرة. هذا هو الرجل المشهور، الذي يشيد به العالم.

t.me/yasmeenbook

اليوم، خلال الجولة الأخيرة، تخاملوا أيضاً عن أداء واجبهم على أتمّ وجه. كان الطقس حارّاً، التقلبات الجوية في أواخر آذار تثقل على أنفسهم الضحلة. شعروا شعور النزلاء المحتقرين. معاونون تحت الوصاية، لهم أيضاً نوافذ عليها قضبان ويضغطون رؤوسهم عليها. قلقون من خلخلة مشاعرهم. عادة كان بعضهم يسبق المدير ويتبارون على فتح الأبواب، إن لم يسبقهم الحراس أو المرضى. اليوم يتأخرون عن جورج عدة خطوات، شاردين ومتجهمين، لاعنين العمل المملّ، وكذلك مديرهم وكل البشر المرضى في العالم. تمنّوا، أن يكونوا الآن مسلمين، ويجلس كل منهم على حدة في فراديس نعيم صغيرة. أصغى جورج للضجة المألوفة. شاهده أصدقاؤه من النوافذ، ظلوا لا مبالين على غرار أعدائه وراءه. قال لنفسه هامساً، إنه يوم كئيب، افتقد التهليل والكراهية، فهو دائماً يتنفس في تيار مشاعر الآخرين. لم يشعر اليوم بشيء من محيطه، سوى بالهواء الثقيل.

كان يسود في القاعات هدوء كريه. تجنّب المرضى الشجار أمامه. ظلوا مشغولين بالنوافذ رغم حضوره. ما إن أغلقت الأبواب وراءه حتى عادوا للتدافع والسباب. تمنّت عليه الحريم متوسلات، دون أن يغادرن أمكنتهن، أن يغدق عليهن بالحب. لم يجد ردّاً. خانته كل الأفكار الخيرة والشافية. إحداهن، مثل ليلة قبيحة لم يسبق له أن عاينها، تنعق: "لا، لا، لا أوافق على الطلاق!". هتفت الأخريات في جوقة: "أين هو؟" وأوأت صبيّة بولع: "اتركني!". هدّد جان، جان الطيب، زوجته بصفعة. اشتكى: "تصير في الشبك، أريد أن ألمسها، وفجأة تختفي!". قال جورج: "انزل عليها بواحدة"، ملّ من الوفاء لمدى اثنين وثلاثين عاماً. ضرب جان وصرخ طالباً النجدة على لسان الزوجة. في قاعة أخرى بكى الجميع معاً لأن الظلام حلّ. قال الحرس: "كأنهم كلهم جنّوا اليوم". أمر أحد الأرباب الكبار: "ليكن نهار" واهتاج بسبب النكران الذي يلحق به هنا. همس جاره في السرير في أذن جورج سراً: "هو مجرد كاتب صغير". سأل أحدهم: "هل يوجد إله." وطلب

t.me/yasmeenbook

عنوانه. اشتكى سيد محترم، سديد البصر، دفعه أخوه إلى الحضيض، من سير العمل السيّئ مساء اليوم. "بعد أن أربح القضية مباشرة، سأشتري قمصاناً تكفي لخمس عشرة سنة". "ولماذا يمشي الناس عراة؟"، رد عليه صفيُّه مكتئباً، فقد كانا يفهمان كلٌّ منهما الآخر على أمثل وجه.

سمع جورج جواب هذا السؤال في القاعة التالية. كان أحد العزّاب يروي للآخرين كيف ضبطوه مع زوجته في وضع مخلّ بالآداب: "وأنا أقلع ثيابها، ما كانت لابسة. فجأة يدخل حماي رأسه من ثقب الباب ويطالب بحفيده". "أين، أين؟"، قهقه المشاهدون. كانوا جميعاً مشغولين على الأمر ذاته، لحسن حظهم أنهم يفهمون ما يقوله كلٌّ منهم. لم يمانع الحراس الاستماع إليهم. سجل أحد المعاونين، يعمل في إحدى الصحف، الحالة العامة بكلمات معبرة. لاحظ جورج هذا دون أن ينظر نحوه، ففي فكره تجول الخواطر ذاتها. كان لوحاً شمعياً متحركاً تنطبع فيه الكلمات والحركات. يتشرب بها ميكانيكياً بدل أن يستوعبها ويتجاوب معها. عدا هذا، كان اللوح يذوب. فكر: "ربما مللت من زوجتي". بدا له المرضى غرباء. ذلك الباب الخلفي الذي يؤدي إلى مدنهم المحصنة، ظل اليوم مسدوداً بوجهه، وعادة ما يكون موارباً. نكسره؟ لماذا؟ الأفضل أن نتوقف. للأسف فإن الغد[1] يوم آخر. سألقى كلاًّ منهم في قاعته، سألقى طوال عمري ثمانمئة مريض. ربما وسعت سمعتي المصحّ. سيصبحون مع الزمن ألفين إلى عشرة آلاف. ستتمم أفواج الحجاج من كل أصقاع الأرض سعادتي. يتوقع ميلاد جمهورية عالمية خلال ثلاثين سنة. سيعلنونني آمراً على شعب المجانين. رحلات في جميع أنحاء المعمورة. استطلاع وتفتيش جيش تعداده الملايين من الأذهان غير الصالحة للاستعمال. على يساري المعتوهون، وعلى يميني اللبيبون. تأسيس مختبرات تجارب على الحيوانات خارقة الذكاء. ترويض حيوانات مجنونة لتصير بشراً. أطرد المجانين الذين شفوا من جيشي بأقذع

1) "الغد يوم آخر"، هي الجملة الأخيرة لرواية "ذهب مع الريح".

t.me/yasmeenbook

السباب ودون حفل تشريف. أصدقائي أقرب إليّ من أنصاري. نعلن الأنصار الصغار كباراً. كم هي صغيرة زوجتي إذاً! لماذا لا أذهب إلى شقتي أخيراً؟ لأن الزوجة تنتظرني هناك. تريد الحب. اليوم يريد الكلُّ الحب.

ضُغِط لوح الشمع. كل ما سجّل فيه ذو قيمة. فجأة ظهرت زوجته في القاعة قبل الأخيرة. جاءت راكضة.

"برقية"، هتفت وابتسمت في وجهه.

"ولهذا السب تتعبين نفسك هكذا"، كان التهذيب قد غدا جلداً له، يتمنّى أحياناً أن يخرج منه، وهذه كانت قمة فظاظته. فتح وقرأ: "أنا طقّ عقلي نهائياً. أخوك". كان هذا الخبر أهون ما يتوقعه من الأخبار. نكتة سمجة؟ تحايل؟ لا. ضد كل هذا تنطق كلمة "طقّ عقلي". أخوه لا يستخدم مثل هذه التعابير. بارك البرقية. لا بد من القيام برحلة. يستطيع الآن أن يبرّرها لنفسه. كل ما كان يتمناه الآن هو القيام برحلة.

قرأت المرأة: "من هو أخوك؟"

"آه، صحيح، لم أذكره لك قطّ. أعظم علماء الصينيات الأحياء. تجدين على مكتبي بعض آخر أعماله. لم أره منذ اثني عشر عاماً."

"وماذا ستفعل؟"

"سآخذ أول قطار سريع".

"صباح الغد".

"لا، الآن".

زمّت شفتيها.

قال مستطرداً: "نعم، نعم، إنه أخي. إنه في أيدٍ غير أمينة. وإلا كيف صار في وضع يكتب لي فيه مثل هذه البرقية".

t.me/yasmeenbook

مزقت البرقية في قصاصات صغيرة. لو أنها مزقتها أول ما تلقتها. تدافع المرضى على القصاصات. كل منهم يحبها، كل يريد ذكرى منها، بعضهم ازدرد الورق. أغلبهم دسّه قرب قلبه أو في البنطال. كان أفلاطون، الفيلسوف، واقفاً بوقار جانبها. انحنى وقال: "مدام نحن نحيا في العالم".

t.me/yasmeenbook

طرق ملتوية

كان جورج قد نام طويلاً حين توقف القطار. تطلّع حوله. استقلّ كثيرون القطار. ظلت مقصورته المحتجبة خالية. في آخر لحظة وقد بدأ القطار بالسير، تمنى عليه زوج أن يجلسا معه. ابتعد بلطف إلى زاوية. ارتطم به الرجل ولم يعتذر. مصدوماً نظر إليه جورج الذي ينعشه كل توحش بين القردة المتحضرة الظريفة. فسرت المرأة نظراته خطأ وتمنّت عليه، ما إن جلسا، العذر لزوجها قائلة إنه كفيف. قال جورج: "ما كنت أتصور هذا، إنه يتحرك بثقة عالية. يجدر القول إني طبيب وعالجت الكثير من المرضى العميان." انحنى الرجل. كان طويلاً وهزيلاً. قالت المرأة: "هل يزعجكم إن قرأت له؟". كان الاستسلام المدجّن على وجهها جذاباً، يبدو أنها تعيش لأجل الكفيف. "على العكس. لكن لا تستاؤوا إن نمت لاحقاً". تم تبادل عبارات المجاملة عوض التعابير الفظة التي يرغب فيها. أخرجت رواية من حقيبة السفر وقرأت بصوت عميق، متزلف.

سيكون مظهر بيتر مثل هذا الكفيف، جامداً ومريراً. ترى، ما الذي جرى لبيتر؟ كان يعيش معتكفاً وهانئاً، لا علاقة له بالبشر. يستحيل أن يضطرب عالمه ذلك الاضطراب الذي تتعرض له الطبائع الحساسة أحياناً، فعالمه مكتبته. يتميز بذاكرة منقطعة النظير. تنهار الأذهان الأضعف على أنقاض الكتب الكثيرة، أما لديه فقد ظلت كل كلمة قرأها منفصلة بنقاء عن التالية. كان الوجه المعاكس للممثل، ظل هو ذاته، هو فقط. وبدل أن يقسم ذاته في الآخرين، يقيسهم، كما يراهم من الخارج، بنفسه، التي

t.me/yasmeenbook

يعرفها هي الأخرى من الخارج ومن رأسه فقط. ولهذا نجا من المخاطر الكبيرة التي يجلبها الانشغال على الحضارات الشرقية حين يعمل عليها إنسان منعزل سنين طوالاً. كان بيتر محصناً ضد لاوتسه وكل الهنود. يميل إلى الفلاسفة الملزمين لشدة حصافته. سيجد كونفوشيوسه في كل مكان. ما الذي يعتمل فيه، هذا الكائن عديم الجنس.

"أنت تدفعني إلى الانتحار"، كان جورج يصغي إلى الرواية بأذن واحدة، الصوت القارئ مريح، يفهم جرسه. اضطر فجأة للضحك على هذه الجملة البلهاء لبطل الرواية. وبّخه صوت حانق: " لو كنتم أيها السيد ضريراً لما ضحكتم". تكلّم الكفيف، كانت أولى كلماته فظة. قال جورج: "المعذرة، لكني لا أؤمن بهذا النوع من الحب". "إذاً لا تقطعوا على رجل جاد متعته. أنا أعرف في الحب أكثر منكم. أنا كفيف البصر. لا شأن لكم أنتم بهذا". بدأ جورج: "لقد أسأتم فهمي". أدرك معاناة الرجل من فقدان البصر وأراد أن يعينه. فلاحظ المرأة. كانت هذه تقوم بحركات متلاطمة، تضع إصبعاً على فمها ثم تبسط يدها، داعية إياه إلى الصمت، فصمت. شكرته شفتاها. كان الكفيف قد رفع يده. للدفاع عن النفس؟ للهجوم؟ تركها تنزل وأمر: "تابعي!". قرأت المرأة وصوتها يتهدج. خوفاً؟ فرحاً بالإنسان رقيق المشاعر الذي التقته هنا؟

أعمى، أعمى، عصفت برأسه ذكرى قاتمة بائدة، انبعثت عكرة وأليمة. كان هناك غرفة وغرفة أخرى بجوارها. كان هناك سرير أبيض صغير. فيه صبي محمر. كان الصبي خائفاً. يشهق صوت غريب: "أنا عميت، أنا عميت" واستمر بالبكاء: "أريد أن أقرأ". كانت الأم تذرع المكان. ذهبت عبر الباب إلى الغرفة المجاورة، حيث يصرخ الصوت. تلك الغرفة مظلمة وهذه مضاءة. كان الصبي يريد أن يسأل: "من هذا الذي يصرخ؟". كان خائفاً. لكنه فكر، قد يأتي الصوت ويقطع لسانه بمشرط. فراح الصبي يغني، انتهى من كل الأغاني التي يعرفها وبدأ من جديد. غنى بصوت عالٍ،

t.me/yasmeenbook

زمجر، كاد رأسه يتفجر من شدة الأصوات. غنى: "أنا أحمر"[1]. فتح الباب. قالت الأم: "اهدأ من فضلك. عندك حمى. ما الذي يخطر لك؟!". تنهد في الجوار ذلك الصوت المرعب وصرخ: "أنا عميت، أنا عميت". يسقط غيورغ الصغير من السرير ويزحف تجاه الأم. يمسك ركبتها. "ما بك؟ ما بك؟". "الرجل، الرجل". "أين الرجل؟". "في الغرفة المعتمة يصرخ رجل. رجل". "لكن هذا بيتر، أخوك بيتر". هاج غيورغ الصغير: "لا، لا، اتركي الرجل، ابقي معي!". "لكن غيورغ، حبيبي، هذا بيتر. عنده حصبة مثلك. الآن لا يستطيع أن يرى. لهذا يبكي قليلاً. غداً ترجع له صحته. تعال، هل تريد أن تراه؟" "لا، لا"، يتمنّع. يفكر غيورغ: "إنه بيتر. بيتر آخر"، يتشنّف باكياً ما دامت الأم في الغرفة. ما إن تذهب إلى "الرجل" في الغرفة المجاورة، حتى يختبئ تحت اللحاف. ينطلق بالبكاء كلما سمع الصوت. يدوم هذا طويلاً، لم يبكِ طويلاً قبل هذا. تتموّه الصورة بالدموع.

هنا تمالك غيورغ الخطر الذي يشعر بيتر أنه يتهدده: يخشى العمى. ربما ساءت عيناه. ربما اضطر للتوقف عن القراءة مؤقتاً. أيّ مصيبة ستعذبه أكثر؟ تكفي ساعة واحدة خارج مسار مخططاته ليغرق في أفكار غريبة. غريب على بيتر كل ما قد يحدث لشخصه. يبدو له نفع عزلته آمناً، طالما عايرت رأسه وقائع، أنباء، آراء منتقاة. لم يكن قط منعزلاً انعزالاً حقيقياً، على نفسه. هذا ما يميز العالم الحق، أن يعيش وحيداً ليكون مع أشياء كثيرة في الآن ذاته. وهل كان ذات يوم مع شيء واحد كينونة حقيقية. أغلب الظن أن عينا بيتر أرهقتا. من يعلم ما إن كانت الإنارة لديه كافية أثناء العمل؟ ربما ذهب، بخلاف طبيعته واستهانته بالأطباء، إلى طبيب ونصحه هذا بالرفق والراحة المطلقين. وهذه الراحة التي قد تدوم أياماً ستقضي عليه. عوض

1) "أنا أحمر"، أغنية موت، يغنيها الأطفال في منطقة بورغنلاند، شرق النمسا، تقول كلماتها: أنا اليوم أحمر، وغداً أموت، واليوم خداي فقط محمران، اليوم ما زلت مستلقياً في سرير أبي وغداً يأتي ستة ويحملونني، يحملونني خارجاً ولن يعيدوني أبداً، يأخذونني إلى المقبرة للأبد، يا سادتي، كل ما أرومه يا سادتي ان تغنوا لأجلي: آبانا الذي في السماء

t.me/yasmeenbook

أن يعوض بأذنيه السليمتين ما يفوت عينيه المريضتين دون أضرار، أن يسمع الموسيقا والبشر (هل هناك ما هو أغنى من جرس أصوات البشر؟)، لا بد أنه تمشّى أمام كتبه ذهاباً وإياباً، كفر بإرادة العينين، حلفهما، لعنهما، تذكر بكل حنق ذلك العمى الذي أصابه ليوم واحد في صباه، تجمّد رعباً من أن يعود إليه لفترة أطول، هاج، يئس ونادى، هو أكثر الناس قسوة وكبرياء، أخاً له قبل أن يتقدم إلى الجيران، المعارف أو أي أحد آخر ببضع كلمات تقصد طلب المساعدة. أقسم غيورغ، سأطرد منه هذا العمى. لم يسبق لي أن شفيت أحداً بهذه السرعة. عندي ثلاث واجبات: فحص تامّ للعينين، فحص تناسب الإنارة في شقته، استنطاق حذر وحنون يقنعه بحماقة مخاوفه، إن لم يكن لهذه أسباب واقعية.

نظر بودّ إلى الكفيف بجواره وشكره في سرّه على حضوره. لقد أتاح له أن يفسر البرقية تفسيراً صحيحاً. يخسر الإنسان الحساس أو ينتفع بكل لقاء لأن هذا يوقظ فيه المشاعر والذكريات. الخامدون ظروف طارئة تتحرك، لا شيء يصب فيهم، لا شيء يخرج منهم، حصون متجمدة، يمشون في الدنيا على عواهنهم. لماذا يتحركون؟ ما الذي يحركهم؟ بالمصادفة يسيرون مثل الحيوان، إلا أنهم في الحقيقة نبات. قد تقطع رؤوسهم ويبقون رغم هذا أحياء، لهم جذورهم. الفلسفة الرواقية فلسفة للنبات، خيانة للحيوان. لنكن حيوانات! من كان له جذور فليقتلعها. وجد غيورغ راحة في معرفة سبب سرعة تنقله بالقطار. استقلّه دون تبصر. حلم بصباه دون تبصر. استقل القطار كفيف. ثم اتخذت القاطرة وجهتها بغتة: نحو شفاء أعمى. فسيّان على طبيب نفسي إن كان بيتر أعمى أم يخشى العمى. هنا يحقّ له الإغفاء. تبلغ الحيوانات بغرائزها إلى ذراها ثم تقتطعها. أكثر ما تحبه هو التغيّرات الكثيرة على سرعتها. تعلف حتى الشبع وتحب حتى الممات. تصعّد راحتها إلى حدود النوم. وغفا من فوره.

كانت السيدة القارئة تمسح بين السطور على يده الجميلة، التي وضع

t.me/yasmeenbook

رأسه عليها. كانت تعتقد أنه يسترق السمع إلى صوتها. تركز على كلمات بعينها؛ عليه أن يفهم أساها. لن تنسى هذه الرحلة أبداً، ستنزل قريباً. ستترك الكتاب هنا، كذكرى، وترجوه أن ينظر إليها نظرة واحدة. نزلت في المحطة التالية. دفعها الرجل أمامه، وعادةً ما كانت تجرّه وراءها. توقفت في الباب عن التنفس. قالت دون أن تلتفت، خوفاً من زوجها، فحركاتها تثير غضبه، لأنها تتجرأ على الكثير: "الوداع". كانت قد ادخرت هذا الجرس سنين طوالاً. لم يستطع الردّ. انشرح صدرها. ساعدت الأعمى على النزول من القطار وهي تبكي بكاء خفيضاً وتسكر سكراً خفيفاً بجمالها. تغلّبت على نفسها ولم تلقِ نظرة على نافذة المقصورة، حيث يراه حدسها. لو نظر لرأى دموعها، التي تخجل منها. الرواية معه. كان نائماً.

اغتسل في الصباح. وصل في المساء. نزل في فندق متواضع. لو نزل في فندق أكبر لأثار قدومه الكثير من اللغط، فقد كان من قلة من العلماء الذين تنشر صورهم في الجرائد باستمرار على حساب البقية. أجّل زيارة أخيه إلى اليوم التالي، كي لا يزعجه ليلاً. ولأنه لم يطق الصبر ذهب إلى الأوبرا. شعر بالحميمية مع موزارت.

حلم ليلاً بديكين. كان الكبير أحمر وضعيفاً، والصغير أنيقاً ومكّاراً. استمرّ صراعهما طويلاً. كان مثيراً بحيث ينسى المرء التفكير. قال أحد المشاهدين: ترون إلام يصير البشر. بشر؟ صاح الديك الصغير. أين هم البشر؟ نحن ديوك. ديوك صراع. لا تسخروا منا. انسحب المشاهد. ازداد حجمه صغراً. فجأة تبيّن أنه هو الآخر ديك. لكنه جبان، حان وقت الاستيقاظ، قال الأحمر. أظهر الصغير علامات الرضا. كان قد انتصر وطار بعيداً. ظل الديك الأحمر مكانه. ازداد حجمه كبراً. ازداد عمق لونه مع كبر حجمه. أوجع عين أحدهم. ففتحت. كان في النافذة شمس حارقة.

استعجل غيورغ ولم تمضِ ساعة حتى كان واقفاً على باب البناية 24 في شارع إرليش. كانت متواضعة ودون أي خصوصية. صعد إلى الطابق

t.me/yasmeenbook

الرابع وقرع الجرس. فتحت امرأة عجوز. كانت ترتدي تنورة زرقاء صلبة وتبسمت. نوى أن يتأكد مما إن كان هناك خطأ ما، سيطر على نفسه وسأل: "هل أخي في البيت؟"

للفور توقفت المرأة عن التبسّم، حدقت فيه وقالت: "رجاء، هنا ما يوجد أخ".

"اسمي بروفسور غيورغ كين. أبحث عن الدكتور بيتر كين. عالم خاص من حيث المهنة. أنا واثق من أنه كان يسكن هنا قبل ثماني سنين. ربما تعرفون، من أي سكان البناية أحصل على عنوانه، في حال كان قد انتقل".

"الأحسن ما أقول شيء".

"لكن اسمحوا لي، أنا جئت خصيصاً من باريس. ستعرفون بالتأكيد إن كان يسكن هنا أم لا".

"رجاء، حظكم سعيد".

"لماذا يفترض أن حظي سعيد؟".

"الواحد منا ما غبي".

"أكيد".

"الناس تطلع قصص وحكايات".

"هل أخي مريض".

"أخ أكابر. لازم يخجل على حاله".

"قولوا، إذا كنتم تعرفون شيئاً".

"وأنا ماذا استفدت؟"

أخرج غيورغ من محفظته قطعة نقدية، أمسك بذراعها ودسّها بلطف مبالغ في يدها، التي انفتحت ذاتياً. تابعت المرأة التبسم.

t.me/yasmeenbook

"أليس كذلك، والآن ستحكون لي ماذا تعرفون عن أخي".

"أيّاً كان يقدر يحكي".

"وماذا الآن؟"

"فجأة تخلص الحياة. رجاء، أكثر". رفعت منكبيها.

أخرج غيورغ ورقة ثانية، مدّت له يدها الأخرى. وبدل أن يلمسها، رمى فيها القطعة النقدية رمياً.

"الآن أقدر أروح"، قالت ونظرت إليه بجفاء.

"ما الذي تعرفونه عن أخي؟"

"مروا أكثر من ثماني سنين. أول البارحة طلع كل شيء".

لم يكتب له بيتر منذ ثماني سنوات. وصلت البرقية أول أمس. لا شك أن المرأة تعرف شيئاً ما. "وماذا فعلتم؟"، سألها غيورغ كي يهمزها على الكلام أسرع.

"كنا عند الشرطة. الامرأة الأكابرية تروح فوراً عند الشرطة".

"طبعاً، طبعاً. أشكركم على المساعدة التي قدمتموها لأخي".

"هنا يقولون رجاء. الشرطة فتحت عيونها على الآخر".

"ما الذي فعله؟"، تخيّل غيورغ أخاه المشوّش قليلاً وهو يشكو للشرطة الخرقاء ألم جفنه.

"سرق. طول عمري أقول، ما عنده قلب".

"سرق؟"

"قتلها. وما ذنبي أنا؟ كانت الزوجة الأولى. أنا الثانية. خبّأ القطع. يوجد مكان كفاية وراء الكتب. طول عمري أقول حرامي. وأول البارحة يطلع القاتل.

t.me/yasmeenbook

والعيب كله على رأسي أنا. لماذا كنت غبية لهذه الدرجة؟ طول عمري أقول، ما لازم يكون. هكذا هم البشر. وكثير ما فكرت. كل تلك الكتب. ماذا يعمل الإنسان بين الستة والسبعة؟ يقطع جثث. يأخذ معه القطع للنزهة. ما أحد لاحظ شيء. دفتر البنك سرقه. وأنا، ما يبقى لي شيء؟ يمكن أموت من الجوع. أراد أن يعملها فيّ أيضاً. أنا الثانية. راح أتطلق. رجاء، بالأول يدفع. كان لازم يفوت الحبس من ثمان سنين. وهو الآن محبوس تحت. حجرته أنا. أنا ما أخلّي أحد يقتلني". بكت وأغلقت الباب.

بيتر قاتل! بيتر الساهية، الهزيل، الذي كان التلاميذ يضربونه دائماً. تمايل الدرج. انهار السقف. رجل على مبلغ من النظافة، غيورغ، تسقط قبعته ولا يرفعها. بيتر متزوج. من كان يعلم بهذا. الزوجة الثانية، فوق الخمسين، دميمة، محدودة العقل، لئيمة، لا تبس بجملة مما ينطق بها البشر، نجت أول أمس من اعتداء. قطع الأولى تقطيعاً. يحب كتبه ويستخدمها مخبأ. بيتر والحقيقة. لو أنه تعلم الكذب، لو أنه ظل في طفولته يكذب حتى يعمى ويزرق. ولهذا طلبوا غيورغ. البرقية مزيفة، من الزوجة أو من الشرطة. خرافة بيتر عديم الجنس. ظريفة مثل غيرها من الخرافات، ساذجة، جاءت من فراغ. لغيورغ أخ قاتل بدافع الشهوانية. عناوين عريضة في كل الصحف. أعظم علماء الصينيات الأحياء. أفضل خبراء شرق آسيا. حياة مزدوجة. الاستقالة من إدارة المصح. خطوة خاطئة. الطلاق. أحد المعاونين يستولي على مركزه. المرضى، المرضى، سيذيقونهم العذاب، سيشفونهم. ثمانمئة. يحبونه، يحتاجونه، عليه ألا يتخلى عنهم، الاستقالة مستحيلة. يجرجرونه من كل النواحي، لا يحقّ لك الذهاب، سنذهب معك، ابقَ معنا، نحن وحيدون تماماً، أولئك لا يفهمون لغتنا، أنت تستمع إلينا، أنت تفهمنا، أنت تضحك معنا، طيوره الجميلة النادرة، غريبة هنا كلياً، من كل مملكة طير، لا أحد يفهم قريبه، يتشاتمون ولا يعون هذا، يعيش من أجلهم، لن يهجرهم، سيبقى. يجب إيجاد حل لفضيحة بيتر.

t.me/yasmeenbook

مسألة قابلة للاحتمال. كان هو يعيش للإشارات الصينية وغيورغ للبشر. يجب إدخال بيتر إلى مصحّ مغلق. عاش مدة طويلة متزهداً. اضطرب عقله مع الزوجة الأولى. وكيف كان له أن يتغلب على مصاعب النقلة المفاجئة؟ ستطلق الشرطة سراحه. ربما تمكن من نقله إلى باريس. سيمكن البرهان على عدم سلامة قدراته العقلية. لن يتراجع غيورغ من إدارة مصحّه بأي حال من الأحوال.

بل بالعكس، يتقدم، يرفع قبعته، يمسحها ويقرع الباب بتهذيب، لكن بحزم. ما إن يمسك بقبعته حتى يعود ليكون ذلك الطبيب الواثق، العارف بشؤون الحياة. يكذب: "سيدتي الرؤوم، سيدتي الرؤوم". كعاشق شاب، يكرر هاتين الكلمتين، بعذاب ووله، يبدو له ذاته مثيراً للسخرية، كأنه مشاهد في صالة مسرح، يمثل عليه هو ذاته. يسمع استعداداتها. ربما كان لديها مرآة صغيرة، ربما تتزين وتريد أن تستجيب لي. تفتح وتتبسم. "أودّ أن أستعلم منكم عن بعض الأشياء". يشعر بخيبة أملها. توقعت تواصل التحبّب أو سيدتي الرؤوم مرة أخرى على الأقل. يظل فمها مفتوحاً، ونظرتها غاضبة.

"رجاء، كل ما أعرفه قاتل".

"كش"، يزمجر صوت كصوت حيوان مفترس. تلوح قبضتان، يتبعهما رأس كبير أحمر. "لا تصدّقوا ولا كلمة من الحرمة. كله كذب بكذب. لا مكان للقتلة في بنايتي أنا. ما دامت كلّها تحت تصرفي أنا، لا. كان مديون لي بأربعة طيور كناري، هذا إذا كنتم أخوه، حيوانات من عرقٍ صافٍ، تربية شخصية خاصة. دفع. دفع سعر جيد. البارحة بالليل فوراً. يمكن أفتح له اليوم فتحتي التي ابتكرتها. الإنسان جنّ. هل تريدون أن تروه؟ الأكل يصل له. الذي يخطر له على بال. أنا حجرته. هو خائف من الحرمة. ما يستطعمها. ولا أي إنسان يستطعمها. انظروا إليها! ويلي، ما فعلت برأسه. دمرته. يقول، إنها غير موجودة بالنسبة له. يفضل أنه يعمل نفسه أعمى.

t.me/yasmeenbook

معه حقّ. ما هي إلا شقفة خراء من الحريم. لولا أنه تزوج منها، كانت أموره تمام التمام، ورأسه أيضاً، أقول أنا." تريد المرأة أن تتكلم، يعيدها إلى الشقة بلكزة قوية من ذراعه.

يسأل غيورغ: "من أنتم؟"

"في شخصي ترون الصديق المفضل للسيد أخيكم. أنا بينيديكت بفاف، مفتش متقاعد، ملقب بالقط الأحمر. أنا المسؤول عن البناية. في شخصي المتواضع عين حادة للقانون. من أنتم إذا سمحتم؟ أقصد، ما هي مهنتكم؟"

طلب غيورغ أن يرى أخاه. انطمست كل جرائم القتل، كل المخاوف، كل أحابيل الدنيا. أعجبه البواب. ذكّره رأسه بالشمس المشرقة صباح اليوم. كان جلفاً، لكن منعشاً، فتى قوياً منفلت العقال، لم يعد المرء يرى أمثاله في المدن والبيوتات الحضارية إلا نادراً. هدر الدرج. بدل أن يحملها على كتفيه، هدّ أطلس[1] الأرض الضعيفة. دكّ فخذاه الجباران الأرض. حذاؤه وقدماه من حجر. تردّ الحيطان رجع كلماته. فكر غيورغ بسكان البناية وقدرتهم على تحمله. خجل بعض الشيء لأنه لم يكشف فدامة[2] المرأة فوراً. كانت بساطة بناء جملتها دليلاً كافياً ليقنعه بحقيقة غبائها. وضع الذنب على الرحلة، على موسيقا موزارت أمس، التي أخرجته للمرة الأولى منذ زمن بعيد عن أفكاره اليومية، وعلى توقعاته بلقاء أخ مريض وليس بوابة مريضة. اتضح له لماذا وقع بيتر، الحصيف، ضحية لهذه العجوز. ضحك على عمى أخيه وعدم خبرته، فقد أبرق له بسببها ولا بد، وسرّ بسهولة إصلاح العطب. أثبت له سؤال طرحه على البواب ظنونه: كانت

---

1) أطلس، في الأساطير اليونانية وقف مع الجبابرة ضد أرباب الآلهة الاثني عشر وعاقبه زيوس بعد نهاية الحرب بحمل الأرض، أو قبة السماء برواية أخرى، على كتفيه.

2) الفدامة، القماءة (حسب المورد)، هو متلازمة نقص اليود الخلقي، التي تؤدي إلى التشوه الجسدي وضعف القدرات الذهنية.

t.me/yasmeenbook

قد خدمت بيتر سنوات طوالاً في تدبير منزله، واستغلّت وظيفتها الأصلية هذه لتنال وظيفة أكثر قدراً. امتلأ قلبه شفقة على أخيه الذي وفر عليه المتاعب الممكنة بسبب جريمة القتل. كان للبرقية البسيطة معنى بسيط. من يعلم، إن لم يركب غيورغ القطار غداً ويتجول بعد غد في قاعاته.

في الأسفل توقف أطلس على باب، استلّ مفتاحاً من جيبه وفتح الباب. همس: "سأدخل قبلكم" ووضع إصبعاً ثخيناً على فمه. سمعه غيورغ من الخارج يقول: "سيدي البروفسور، يا صديقي العزيز، جئت لك بضيف. ماذا تعطيني مقابله؟". دخل غيورغ، أغلق الباب وذهل بالحجرة القفر كما وجدها. كانت النوافذ قد سدّت بعوارض، يسقط قليل من الضوء على سرير وصندوق، لا يرى أي شيء بوضوح. صعدت إليه رائحة مقززة لطعام بائت، فمدّ يده عفواً عنه إلى أنفه. أين بيتر؟ سمع خمشاً، كما يصدر من قفص حيوانات. التمس غيورغ الحائط. وحقّاً كان حيث توقعه. هذا الضيق مرعب. "والآن افتحوا النافذة!" قال بصوت عالٍ. جاء الجواب بصوت أطلس: "هذا غير مسموح". إذاً بيتر يعاني حقاً من عينيه، وليس من الزوجة فقط، وهذا هو تفسير الظلام الذي يعيش فيه. أين هو؟ "هنا، هنا"، زأر أطلس كأسد في عرينه. "مقرفص أمام ابتكاري". تقدم غيورغ خطوتين مع الجدار واصطدم بكومة. بيتر؟ انحنى ولمس الهيكل العظمي لإنسان. رفعه، كان الإنسان يرتجف، أم مرّ تيار هواء، لا، كل شيء محكم الإغلاق، والآن يزفر أحدهم، دون صوت وشاحب، كالمحتضر، كميت حين يتكلم:

"من هذا؟"

"أنا، أخوك غيورغ، ألا تسمعني، يا بيتر؟"

"غيورغ؟"، صدر جرس من الصوت.

"نعم، غيورغ، أردت أن أراك، جئت لزيارتك. أنا قادم من باريس".

t.me/yasmeenbook

"أأنت هو حقاً؟"

"لماذا تشكّ؟"

"الرؤية هنا ضعيفة. المكان معتم".

"عرفتك، من نحولك".

فجأة صرخ أحدهم نزقاً وجازماً، بحيث خاف غيورغ قليلاً: "غادروا المكان، يا بفاف[1]".

"نعم، ماذا؟!"

أضاف غيورغ: "رجاء، دعونا وحدنا!".

"فوراً!"، أمر بيتر. بيتر عاد كما كان.

خرج بفاف. كان السيد الجديد راقياً، يبدو مثل رئيس، لا بد أنه من تلك المقامات. سيكون لديه وقت كافٍ ليردّ للبروفسور صفاقته. كسلفة صفق الباب وراءه. لم يقفله توقيراً للرئيس.

وضع غيورغ بيتر على السرير، لم يلاحظ إلا بصعوبة أنه لم يعد يحمله بين ذراعيه، ذهب إلى النافذة وبدأ بخلع العوارض.

قال: "سأغلقها مرة ثانية، أنت بحاجة للهواء. أغمض عينيك مؤقتاً إذا كانتا تؤلمانك"

"لا تؤلمني عيناي".

"لماذا تترفق بهما إذاً؟ خلت أنك بالغت في القراءة وتريحهما قليلاً في الظلام".

"العوارض وضعت مساء أمس".

---

1) اسم بفاف يعني في أصله اليوناني: الأب الروحي، أطلق من ثم على الخوري في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. لكنه وحتى قبل الإصلاح الديني اللوثري، ونظراً لتكاثر شريحة الخوارنة، صارت الكلمة تستخدم ابتذالاً ومسبّة.

t.me/yasmeenbook

"هل أنت من ثبتها؟ أكاد لا أستطيع خلعها. لم أتوقع منك كل هذه القوة".

"البواب، البيادة، هو من فعلها".

"البيادة؟"

"جلف قابل للشراء".

"بدا لي لطيفاً، مقارنة بآخرين في محيطك".

"لي أيضاً، في السابق".

"فما الذي فعله بك؟"

"يتصرّف بقلّة أدب، يخاطبني بصيغة المفرد".

"أظن أنه يفعل هذا ليبرهن لك على صداقته. لا يمكن أن تكون في هذه الحجرة منذ زمن بعيد؟"

"منذ ظهيرة أول أمس".

"هل تشعر أنك تحسنت منذ ذلك الوقت؟ أعني عينيك. آمل أنك لم تأتِ معك بكتب".

"الكتب فوق. مكتبتي اليدوية الصغيرة اختلست مني".

"لحسن الحظ! وإلا لكنت حاولت القراءة هنا أيضاً. ولكان هذا سمّاً لعينيك المعتلّتين. سابقاً لم تكن تبالي بعينيك. كنت تسيء استغلالهما".

"عيناي على أتمّ الصحة".

"حقا؟ ألا تشتكي منهما قطّ؟"

"كلا".

خلّعت العوارض. نفذ ضوء فاقع إلى الحجرة. هب الهواء عبر النافذة

t.me/yasmeenbook

المفتوحة. حتى الآن جرت الفحوصات على أتم وجه. ردود بيتر على الأسئلة المحسوبة جيداً، كانت صحيحة، عملية، جافة قليلاً كما في السابق. الشر كله من المرأة، من المرأة وحدها. تقصّد التغافل عن إشارة استهدفتها. لم يخف على عينيه، كانت طريقة ردّه على السؤال المتكرر عن حالهما تشي ببعض الاحتدام المحقّ. التفت غيورغ. رأى قفصي طيور فارغين. على الجدار بقع حمراء. في الزاوية الخلفية حوض غسيل. الماء القذر فيهما يتوهج أحمر. بيتر أشد نحولاً مما توقعته الأصابع. ثنيتان حادتان تقطعان وجنتيه. الوجه أطول، أضيق وأحدّ مما قبل سنين. على الجبهة أربعة أثلام، كأن العينين ظلتا مفتوحتين على وسعهما طوال الوقت. لا يرى المرء شيئاً من الشفتين، يوحي شقّ ممتعض بمكانهما. العينان، المقفرتان والزرقاوان كالماء، تتحرّيان الأخ، متظاهرتين باللامبالاة، على الزوايا يتراقص الفضول والارتياب. بيتر يخبئ يده اليسرى خلف ظهره.

"ما بها يدك؟"، اختطفها غيورغ عن ظهره. كانت معصوبة بمنديل مشرب بالدم.

"جرحت نفسي".

"كيف حدث هذا؟"

"فجأة جاءت السكين خلال تناول الطعام على خنصري. فقدت السلاميتين الرأسيتين".

"لا بد أنك عالجتهما بكل قوة؟"

"كانت السلاميتان شبه منفصلتين، فقلت إنهما ماتتا وجززتهما تماماً. كي أنهي الألم دفعة واحدة".

"ما الذي أرعبك؟"

"أنت نفسك تعرف".

t.me/yasmeenbook

"من أين لي أن أعرف يا بيتر؟"

"قالها لك البواب".

"أنا نفسي مستغرب من أنه لم ينبس لي بحرف بهذا الصدد".

"الذنب ذنبه. لم أكن أعلم أنه يربّي طيور كناري. كان قد أخفى القفصين تحت السرير، لا يعلم إلا الشيطان لماذا. عمّ الهدوء التام الحجرة طوال أصيل واليوم التالي. أمس، أثناء تناول العشاء، وأنا أقطع اللحم، انطلق فجأة ضجيج جحيمي. كلفتني لحظة الرعب الأولى إصبعي. لا تنسى أني معتاد على الهدوء التام أثناء العمل. لكني انتقمت من البائس. إنه يحب مثل هذا المزاح الغليظ. أعتقد أنه أخفى القفصين تحت السرير عمداً. كان له أن يتركهما معلّقين على الجدار، حيث هما الآن".

"كيف انتقمت؟"

"أطلقت سراح الطيور. وهذا انتقام هيّن مقارنة بألمي. أغلب الظن أنها ماتت. بلغ به الحنق أن سدّ عليّ النافذة بالعوارض. علاوة على هذا عوّضته عن ثمن الطيور. يدّعي أنها لا تقدر بثمن، وأنه دجنها سنوات طوالاً. طبعاً يكذب. هل حدث أن قرأت أن طيور الكناري تغني بناء على أمر وتسكت بناء على أمر؟"

"لا".

"أراد بهذا أن يرفع سعرها. قد يعتقد المرء أن الحريم وحدهن طامعات بأموال الرجال. هذا خطأ فادح. ها أنت ترى، ما الثمن الذي دفعت".

ذهب غيورغ إلى أقرب صيدلية، اشترى يودا، ضمادات وبعض الصغائر لإنعاش بيتر. لم يكن الجرح خطيراً. تأثر لأن إنساناً ضعيفاً بالأصل فقد كل ذلك الدم. كان المفترض أن يضمد جرحه أمس فوراً. هذا البواب ليس إنساناً، لم يفكر سوى بطيور الكناري. بدت حكاية بيتر ذات مصداقية. لكن

t.me/yasmeenbook

لا يستغنى عن الاطلاع على التفاصيل لدى المتهم. الأفضل أن يصعد من فوره إلى الشقة ويستمع لوصفه لأحداث الأمس وسابقاتها أيضاً. لم يسّر غيورغ بهذا. للمرة الثانية يخطئ في إنسان. كان يعتبر نفسه، وتؤيده نجاحاته كطبيب مجانين في هذا، خبيراً كبيراً بالنفس الإنسانية. لم يكن القبضاي الأحمر مجرد أطلس قويّ، إنما كان غدّاراً وخطيراً. مزحته مع الطيور، التي خبأها تحت السرير، تشي بأنه لم يُلقِ بالاً لبيتر الذي ادّعى أنه صديقه الأثير. طاوعه قلبه على قطع الهواء والضوء عن المريض بأن ثبّت عوارض على النافذة. لم يعبأ بالجرح. كانت إحدى أولى جمله حين تعرّف عليه غيورغ: إن الأخ دفع ثمن أربعة طيور كناري كان مديناً له بها، دفع سعراً جيداً. كان همّه المال. من الواضح أنه في صف المرأة. يقيم معها في الشقة. خضعت بنصف فرح على نصف غضب لضرباته الفظيعة التي ينهال بها عليها، ومسبّاته التي لا تقل شناعة. فهي إذاً خليلته. لم يستخلص غيورغ أياً من هذه النتائج فوق. لقد فرح كثيراً لبراءة بيتر من جريمة القتل. ويشعر الآن بالخجل، فقد ترك حدّة بصيرته في البيت. أليس من السخف أن نصدّق مثل تلك المرأة! أليس من الغباء التعامل بمودة مع بيادة، الوصف الذي أطلقه عليه بيتر مناسب. طبعاً سيبتسم في وجهه، فقد احتال عليه. التبسم متأصل في هؤلاء المخادعين، كانوا واثقين من تفوقهم وانتصارهم على بيتر. لا بد أنهم فكروا في الاستيلاء على الشقة والمكتبة ونفي بيتر إلى الجحر في الأسفل. كانت المرأة قد رحبت به متبسمة عندما فتحت الباب.

قرّر غيورغ أن يضمّد جرح بيتر قبل أن يصعد إلى البواب. الجرح أهم من الاستيضاح. لن يعلم منه المزيد. سيجد ذريعة ليغادر الحجرة لنصف ساعة لاحقاً.

t.me/yasmeenbook

أحابيل أوديسيوس

قال عندما دخل من جديد: "بالمناسبة، لم نسلّم أحدنا على الآخر بشكل صحيح بعد. لكني أعرف أنك عدو للمشاهد العائلية. أكيد لديك مياه جارية هنا؟ رأيت في الممر صنبوراً".

جلب ماء ورجا بيتر الالتزام بالهدوء.

جاءه الرد: "عادة ما أفعل هذا بنفسي".

"تسرّني رؤية مكتبتك. لم أفهم حبك للكتب ونحن أطفال. كنت أقل ذكاء منك بكثير، لم يكن لديّ ذاكرتك التي لا تصدّق. يا لي! كنت صبيّاً أحمق، يحب السكاكر، ومهرّجاً. أريد أن أمثّل ليلاً نهاراً وأقبل الوالدة. وأنت كان لك هدف نصب عينيك منذ البدء. لم ألتقِ بعد بإنسان تمكّن من تطوير نفسه باتساق منطقي مثلك. أعرف، لا تحب سماع الإطراء، تريد أن أسكت وأدعك على راحتك. لا تزعل مني، لكني لن أتركك على راحتك. لم ألتقِ بك منذ اثني عشر عاماً، طوال ثمانية أعوام كنت أقرأ اسمك في المجلات لا أكثر، منعت عني رسائلك المباشرة لأني لا أستحقّها. ومن المحتمل أنك لن تعاملني في السنوات الثماني القادمة بصورة أفضل من الآن. لن تأتي إلى باريس، أعرف وجهة نظرك عن الفرنسيين وعن السفر. ليس عندي وقت لأعود وأزورك قريباً، أنا مثقَل بالعمل. ربما سمعت أني أعمل في مصحّ قرب باريس. قل بنفسك، متى سأتمكن من شكرك إن لم يكن الآن؟ عليّ أن أشكرك، أنت متواضع بشكل مبالغ فيه، لا تدري بماذا أدين لك: شخصيتي، هذا إن كان عندي شخصية، حبي للعلم، وجودي،

t.me/yasmeenbook

نجاتي من النساء، الجدّ نحو الأعمال العظيمة والخشوع أمام الصغيرة، كما تتملكهما أنت، أكثر من ياكوب غريم[1] ذاته. كما أنك أنت السبب بالنتيجة لتحوّلي إلى الطب النفسي. أنت الذي أثرت اهتمامي بمشاكل اللغات، وقمتُ بوثبتي الأولى بناء على عمل عن لغة أحد المجانين. طبعاً لن أتمكّن مثلك بالتأكيد، لدرجة الإيثار التام، العمل لأجل العمل والواجب لأجل الواجب، كما طالب عمانوئيل كانط وقبله كونفوشيوس. أخشى أنني ضعيف جداً على هذا. أستحسن المديح، وربما كنت أحتاجه. أنت الجدير بالحسد. عليك الإقرار بأن طبائع كهذه، لها كل قوة الإرادة تلك نادرة، للأسف نادرة جداً. فكيف يظهر منها اثنان في عائلة واحدة؟ بالمناسبة قرأت بحثك عن كانط وكونفوشيوس بإثارة لم أقرأ بها كانط ذاته أو محاورات كونفوشيوس. فهو حادّ، مرهق، لا يرحم أصحاب الآراء الأخرى، ذو عمق خانق وشمول معرفة. ربما وقع تحت أنظارك ذلك المقال النقدي الهولندي، حيث يلقبونك بياكوب بوركهاردت[2] الحضارات الشرقية. سوى أنك أقل تبسيطاً وأشدّ حدّة ضدّ نفسك. أنا عن نفسي أعتبر ثقافتك أكثر كونية من ثقافة بوركهاردت. قد يفسّر هذا جزئياً بالمعارف الأغنى في زمننا، لكنه في الجزء الأعظم منه يعود إلى شخصك، إلى قدرتك على الاعتكاف. كان بوركهاردت بروفسوراً ويلقي محاضرات، تسوية ساهمت هي الأخرى في صياغة أفكاره. تأويلك للسفسطائيين الصينيين عظيم. بناء على عدد قليل من الجمل، أقل مما نعرفه عن الإغريق حتى، تعيد بناء عالمهم، يجب القول عوالمهم، فهم يتميزون فيما بينهم كما يتميز فيلسوف عن آخر. أما أكثر ما بعث الراحة في نفسي فقد كان بحثك الأخير الموسع. تقول إن مدرسة أرسطوطاليس لعبت في الغرب الدور ذاته الذي لعبته مدرسة

---

1)ياكوب غريم (1785 – 1863)، لغوي، مؤلف قاموس ألماني ضخم، اشتهر مع أخيه فيلهلم بجمع الحكايات الشعبية باسم الأخوين غريم. ويعتقد أنه كان عديم الجنس.

2)كارل ياكوب بوركهاردت (1818 – 1897) مؤرخ سويسري في مجال الفن والثقافة. أكثر أعماله شهرة هو "حضارة عصر النهضة في إيطاليا".

t.me/yasmeenbook

كونفوشيوس في الصين. يتشرب أرسطوطاليس، حفيد سقراط، ببقية روافد الفلسفة الإغريقية أيضاً. بل إن من بين أنصاره في القرون الوسطى مسيحيين كباراً. على غرارهم نشر متأخرو الكونفوشيوسية كل ما بدا لهم مفيداً وضرورياً للحفاظ على سلطتهم، من مدرسة مو تي، من أنصار تعاليم تاو وثَمّ من البوذية ذاتها. لكن لا يمكننا أن نطلق صفة التلفيقيين لا على أصحاب كونفوشيوس ولا على أصحاب أرسطوطاليس. فهم قريبون جداً هؤلاء من أولئك – كما برهنت – من ناحية التأثير، بعضهم على القرون الوسطى المسيحية هنا، والآخرون على الوقت ذاته ابتداء بسلالة سونغ هناك. طبعاً لا أفهم شيئا من هذا، فأنا لا أعرف كلمة صينية واحدة، لكن استدلالاتك تعني كل من يريد أن يفهم جذوره، آخر مصدر لآرائه، للآلية الفكرية فيه. هل يحقّ لي أن أعرف علامَ تعمل الآن؟"

بينما يغسل اليد ويضمدها، كان يراقب بدأب، لكن دون أن يلفت الانتباه، آثار كلماته على وجه أخيه. سكت بعد السؤال الأخير.

سأل بيتر: "لماذا تثابر على النظر إليّ؟ لعلّك تخلط بيني وبين أحد مرضاك. أنت لا تفهم من وجهات نظري العلمية سوى النصف لأن ثقافتك ضحلة جداً. لا تتحدث بهذه الكثرة. لا تمتنّ لي بشيء. أنا أكره التزلف. سيّان عليك أرسطوطاليس وكونفوشيوس وكانط. تفضّل عليهم أيّ أنثى. لو أن لي تأثيراً عليك، لما كنت اليوم مديراً لمصحّة بُلَهاء".

"لكن يا بيتر، أنت ..."

"أنا أعمل في عشرة أبحاث دفعة واحدة. كلّها تلصّص على الحروف، كما تسمي كل عمل فيلولوجي. أنت تضحك على المصطلحات. العمل والواجب في نظرك مصطلحات. أنت لا تؤمن سوى بالإنسان، وأقوى إيمانك بالحريم. ما بغيتك مني؟"

"لست على حق يا بيتر. قلت لك إني لا أفهم كلمة صينية واحدة.

t.me/yasmeenbook

سون يعني ثلاثة وفو يعني خمسة، هذا كل ما أعرفه. أنا مضطرّ للنظر إلى وجهك. كيف سأعرف إن كنت أؤلم إصبعك؟ أنت لن تفتح فمك بنفسك. لحسن الحظ أن وجهك أكثر كلاماً من فمك بقليل".

"أسرِع إذاً! نظراتك متغطرسة. دع علومي وشأنها! لست بحاجة إلى اصطناع الاهتمام بها. ابقَ حيث مجانينك. أنا أيضاً لا أسألك عنهم. أنت تتحدث أكثر من اللازم، لأنك تخالط البشر كثيراً".

"حسناً، حسناً. سأنتهي فوراً".

استشعر غيورغ من خلال يد بيتر كم يودّ هذا أن ينهض وهو ينطق بهذه الكلمات الحادة. إذاً، يمكن إيقاظ إحساسه بنفسه بكل سهولة. كان هذا يعبر عن نفسه منذ عقود بالنقض. قبل نصف ساعة كان يتلوّى على الأرض، ضعيفاً ومضمحلاً، ركام عظام، يصدر منها صوت تلميذ معذب. ها هو ذا يدافع الآن عن نفسه بجمل قصيرة غاضبة، ويبدي الرغبة في استخدام طول جسمه سلاحاً.

"أودّ أن أشاهد كتبك فوق، إن لم يكن لديك مانع". قال غيورغ عندما انتهى من الضماد. "هل تأتي معي أم تنتظرني؟ عليك أن ترفق بنفسك اليوم، خسرت دماً كثيراً. توقّع أن أغيب ساعة، ثم آتي لأصحبك".

"ماذا ستفعل خلال ساعة؟"

"أتفرج على مكتبتك. البواب فوق، أليس كذلك؟"

"أنت بحاجة إلى يوم كامل لأجل مكتبتي. لن ترى شيئاً في ظرف ساعة واحدة".

"سألقي عليها لمحة، وسنتفرج عليها بشكل تام معاً في وقت آخر".

"ابقَ هنا! لا تصعد فوق. أحذّرك!".

t.me/yasmeenbook

"ممّ؟"

"رائحة الشقة كريهة".

"رائحة ماذا؟"

"رائحة المرأة، كي لا أستخدم تعبيراً أعنف".

"أنت تبالغ".

"أنت خليع".

"خليع؟ لا".

"زير نساء. هل هذا أحسن في عينك؟" تهدّج صوت بيتر.

"أفهم كراهيتك يا بيتر. هي تستحقّ أكثر".

"أنت لا تعرفها".

"أعرف كم عانيت".

"أنت تتحدث مثل أعمى يتحدث عن الألوان. عندك هلوسات. تستوحيها من مرضاك. رأسك مثل المشكال. تمزج الأشكال والألوان على هواك. الألوان، كل الألوان، نستطيع أن نذكر كلاًّ منها باسمه. فلا تذكر أشياء لم تعايشها بذاتك".

"سأسكت. كل ما أريد قوله هو أني أفهمك، يا بيتر، لقد عايشت أيضاً الشيء ذاته، أنا اليوم أختلف عمّن كنته في السابق. ولهذا السبب غيّرت اختصاصي. المرأة شرّ، أثقال رصاصية على روح البشرية. على من يحمل واجبه على محمل الجدّ أن يهمّشهن، وإلا لضاع. لا أحتاج إلى هلوسات مرضاي، لأن عيني السليمتين، المفتوحتين، رأتا أكثر. تعلمت الكثير خلال اثنتي عشرة سنة. لحسن حظك أنك كنت تعرف منذ البدء ما دفعت أنا ثمنه من تجارب مرعبة".

t.me/yasmeenbook

كي يزرع بذرة الثقة، تحدث غيورغ بحدة أقل مما يفترض به. اتخذ فمه مسحة مرارة عاناها لسنوات مديدة. تعمّق ارتياب بيتر، وكذلك فضوله، ما ظهر واضحاً في ازدياد التوتر في زوايا عينيه.

"تبدي عناية فائقة بملابسك"، قال، جواباً وحيداً على كل الاستكانة.

"حتمية بشعة. هذا ما تجلبه مهنتي عليّ. يتولّد في المرضى الجهلة انطباع جيد حين يعالجهم بالحسنى سيد يبدو في أعينهم رفيعاً. بعض المصابين بالملانخوليا يتحسنون بالنظر إلى كسرات الكوي أكثر من الاستماع إلى كلماتي. إن لم أشفِ الناس، فيستمرون على حالة بربرية. كي أفتح لهم طريق العلم، ولو متأخراً، عليّ أن أجعلهم أصحّاء".

"للعلم كل هذه القيمة عندك! منذ متى؟"

"منذ أن تعرّفت على إنسان مثقّف فعلاً. الإنجازات التي قام بها وما زال يقوم بها يومياً. الثقة التي يعيش فيها ذهنه".

"تعنيني أنا".

"ومن غيرك؟"

"نجاحاتك تقوم على نفاق وضيع. الآن بدأت أفهم سرّ الضوضاء التي أثيرت عنك. أنت كذّاب ماكر. كانت أول كلمة نطقت بها كذبة. لأنك تستمتع بالكذب أصبحت طبيب مجانين. لماذا ليس ممثلاً؟ اخجل من مرضاك! الحقيقة المرة تقضي عليهم، يشكون إن لم يعودوا يعرفون نصحاً. أستطيع تخيل أحد تلك الشياطين المسكينة يعاني من الهلوسة بلون معين. يواصل الشكوى: أنا أرى الأخضر فقط. وربما بكى. ربما أجهد نفسه أشهراً طوالاً بلونه الأخضر التافه. ماذا تعمل أنت؟ أعرف ماذا تعمل. تنافقه، تمسكه من عقب أخيل، حيث مددت يدك تجد العقب، الإنسان مركب من نقاط ضعف، تخاطبه بعبارات على غرار صديقي وعزيزي، يرقّ، يبدأ

t.me/yasmeenbook

باحترامك وينتهي باحترام نفسه. قد يكون أسوأ شيطان مسكين على بريّة الرب، تهيل عليه بالتوقير. ما إن يبدو لنفسه مديراً معاوناً لمصحّك العقلي، منعته مصادفة ظالمة من أن يكون مديراً وحده، حتى تظهر له وجهك الحقيقي. تقول له: صديقي العزيز، اللون الذي تراه ليس أخضر إطلاقاً، إنه، إنه، لنقل، أزرق". تهدّج صوت بيتر: "هل شفيته بهذا؟ كلا! ستعود زوجته لتعذّبه في البيت كما في السابق تماماً، ستعذبه حتى يموت. إذا كان الناس مرضى وأقرب إلى الموت، فإنهم يشبهون المخابيل، كما يقول وانغ شونغ، الذهن المتوقد، الذي عاش في القرن الأول من تأريخنا، بين 27 إلى 98 في الصين تحت حكم أسرة هان المتأخرة، ويعرف عن النوم والهبل والموت أكثر مما توصلتم إليه أنتم، بعلومكم الرصينة كما تدّعون. اشف مريضك من زوجته! مادام معها سيظل مخبولاً وقريباً إلى الموت، الحالتان المتقاربتان حسب وانغ شونغ. أقصِ المرأة إن كنت قادراً! ولن تقدر، لأنها ليست بين يديك. لو كانت بين يديك لاستوليت عليها لنفسك، لأنك زير نساء. ضع كل النساء في مصحّك، افعل بهن ما تشاء، عشْ حياتك، مُت مستهلَكاً وغبيّاً في الأربعين، ستكون على الأقل قد شفيت الرجال المرضى وتعلم لماذا نلت المجد والشرف."

كان غيورغ يلاحظ متى يخون بيتر صوتُه. يكفي أن تعود أفكاره إلى المرأة فوق. لم يتحدث عنها بعد إلا أن صوته يشي بكراهية صارخة، فاقعة، لا تشفى. من الواضح أنه ينتظر من غيورغ أن يقصيها، مهمة تبدو له صعبة وخطيرة، بحيث يقرّعه سلفاً على الفشل فيها. يجب إرغامه على البوح بأكثر ما فيه من الكراهية. لو أنه بكل بساطة يتعقب بالكلام الماجَريات من منشئها كما وسمتْه. كان غيورغ يتقن لعب دور الممحاة في حالات استحضار الماضي، ويمسح كل الآثار عن الصفحة الحساسة للذكريات. لكن بيتر لا يتكلم عن نفسه قطّ. لقد أزاحت تجاربه جذورها إلى نطاق علمه. يسهل عليه الإلمام بالمنطقة الحساسة من هذا النطاق.

t.me/yasmeenbook

قال غيورغ راسماً على وجهه مسحة عطف أخاذة، ومن ذا الذي لن يتخيل أنه يتعاطف معه: "أعتقد أنك تضخم دور النساء كثيراً. أنت تبالغ في حملهن على محمل الجد، تعتبرهن بشراً مثلنا. لا أرى في النساء سوى شرّ لا بدّ منه مؤقتاً. حتى إن مجتمع بعض الحشرات أحسنُ تصرفاً منا. أمّ واحدة، أو أمهات قليلات، تنجب كامل القفير. الحيوانات الأخرى متخلفة. هل يستطيع أي كائن أن يعيش مع آخرين في مساحة ضيقة كما اعتاد النمل الأبيض؟ ما هو حاصل الإغراءات الجنسية التي تعتمل في القفير، إن كان للحيوان جنس؟ لا جنس لها وليس لها من الغرائز المتحصلة منه سوى القليل. وهي تتقي حتى هذا القليل. في الخلية، حيث تموت آلاف، عشرات آلاف الحيوانات عبثاً، كما يبدو للعيان، أرى تحرّراً من الجنسانية الموروثة في القفير. تضحي بجزء ضئيل من الحشد لكي يتحرّر الجزء الأعظم من اهتياجات الحب. ستقضي ممارسة الحب على القفير لو سُمح بها. لا أتذكّر مثلاً أعظم من صورة طقوس العربدة في قفير النمل الأبيض. تنسى الحيوانات، وقد استملكتها ذكرى داعرة، ما هي، خلايا عمياء لجمع متعصب. يريد كل منها أن يكون لذاته، يبدأ هذا عند المئات أو الآلاف منها، يستولي عليها الهذيان، الهذيان بها هي،

الهذيان الجمعي، يترك الجنود الثغور، يمور القفير بحب بائس، لا تستطيع التزاوج، فلا جنس لها، يفتن الضجيجُ، الانتشاءُ، متجاوزاً كلّ معتاد، سربَ النمل، يتغلغل العدو اللدود عبر البوابات التي تركها الحراس، أيّ جندي يفكر بالدفاع، كل يسعى للحب، يموت القفير، الذي ربما عاش خالداً، الخلود الذي نبغيه نحن، حباً، يموت حباً، يموت غريزة، الغريزة التي نواصل بها حياتنا، نحن البشر. تحول مفاجئ من المعنى إلى اللامعنى. كأن، لا يمكن مقارنة هذا بشيء، كأنه، أعتذر، كأن تقوم أنت يوماً ما، بعينين سليمتين وعن كامل وعي، بإشعال النار بنفسك في مكتبتك. لا أحد يهدّدك، عندك مال بقدر ما تحتاج وتريد، يوماً إثر يوم تزداد أعمالك

t.me/yasmeenbook

ثراء وفرادة، تأتيك كتب قديمة نادرة، تحصل على مخطوطات رائعة، لا امرأة تتجاوز عتبتك، تشعر بالحرية والأمان في عملك، بكتبك؛ وهكذا، دون مناسبة، وفي هذا الظرف المبارك والخلاق، تشعل النار بكتبك وتستسلم أنت وإياها بكل رضا إلى الحريق. سيكون هذا حدثاً، دانياً من بعيد، من الذي يجري في قفير النمل الأبيض، طروء اللامعنى كما هناك، لكن ليس بتلك الأعداد الكبيرة. هل نستطيع يوماً ما الانتصار على الجنس مثل النمل الأبيض؟ إيماني بالعلم يزداد يوماً بعد يوم، ويقلّ يوماً بعد يوم بعدم وجود تعويض عن الحب".

"لا يوجد حب. ما لا يوجد، غير قابل للتعويض أو اللا تعويض. بمثل هذه الثقة كنت أودّ القول أيضاً: لا توجد نساء. لا شأن لنا بالنمل الأبيض. من يعاني هناك من النساء؟! هذه هي المرأة، فاغطس[1]. لنبقَ عند البشر. لا موضع هنا لإناث العنكبوت التي تقطع رؤوس الذكور بعد أن يستبحن ضعفاءهم، ولا لإناث البعوض التي تمصّ الدماء. معارك اليعاسيب في ممالك النحل بربرية. إن لم تكن بحاجة إلى اليعاسيب لماذا تربّيهم، إن كانوا مفيدين لماذا تذبحهم؟ إني أرى في العنكبوت، أكثر الحيوانات قبحاً ووحشية، تجسيداً للأنوثة. تلمع شباكها تحت الشمس سامّة؛ وزرقاء".

"لكن ها أنت ذاتك تتحدث عن الحيوانات".

"لأني أعرف عن البشر ويلاتهم. لا أودّ البدء بسردها. لن أتحدث عن نفسي، أنا مجرد حالة واحدة لا غير، أعرف ألف حالة أكثر إيلاماً، كل حالة

---

1) في الأصل الإغريقي hic rhodus hic salta "هنا/هذا رودوس فاقفز". عبارة وردت في خرافات أيسوب. يحكي أن فتى ذهب إلى رودوس وعندما عاد إلى قريته صار يحدث الناس عن بطولاته والأمور الخارقة التي قام بها هنالك، إنه رمى القرص لمسافة كذا وكذا وقفز لمسافة كذا وكذا، فطلب منه الناس أن يقوم بالقفزة نفسها أمام أعينهم إن كان صادقاً. في الرواية يحوّر كانيتي العبارة إلى hic salta hic mulier، "هذه/هذا موليير فاقفز". Hic اسم إشارة للدلالة على المذكر وموليير هنا، المرأة المسترجلة، إشارة إلى صحيفة هازئة صدرت في إنكلترا 1620 تدين النساء المسترجلات. اعتمد المترجم هنا القول الشائع "الميّ تكذّب الغطاس".

t.me/yasmeenbook

هي الأكثر إيلاماً عند صاحبها. المفكرون العظماء حقيقة مقتنعون بدناءة المرأة. ابحث في كل محاورات كونفوشيوس حيث تجد ألف رأي وحكم حول أشياء الحياة اليومية، والأتفه من اليومية، عن جملة واحدة بصدد المرأة. لن تجد. يغفلهن سيد الصمت بالصمت. بل يبدو له، هو الذي يقرّ بقيمة باطنية للورع، حتى الحداد عليهن مثيراً للقلق وغير مؤات. تموت زوجته، التي تزوجها في مقتبل العمر بحكم الأعراف، لا عن قناعة، فما بالك عن حب، بعد زواج مديد. ينطلق ابنها بالعويل على الجثمان. يبكي، ينتفض، لأن هذه المرأة أمه بالمصادفة، يعتبرها غير قابلة للتعويض. فيؤنبه كونفوشيوس الأب بكلمات قاسية على ألمه. هذا هو الرجل![1] بينت المجريات التالية صحة هذا الرأي. استوزره أمير مقاطعة لو لعدة سنوات. ازدهرت البلاد في ظل إدارته. انتعش الشعب، تنفس، تشجّع ووثق بالرجال الذين يقودونه. أخذ الحسد بالبلاد المجاورة، خشوا من تغيّر في التوازن المألوف منذ أقدم الأزمان. ماذا فعلوا ليثبطوا كونفوشيوس؟ أرسل أحدّهم ذكاء، أمير تسي، هدية لجاره أمير لو، الذي كان كونفوشيوس يخدمه، ثمانين أنثى مصطفاة، راقصات وعازفات ناي. أوقعن الأمير الشاب في شركهن. أوهنّه، ملّ من السياسة، استثقل مجلس الحكماء، غرّته الحياة مع الحريم أكثر. وعلى صخرتهن تحطم حلم حياة كونفوشيوس. حمل عصا الترحال وطاف شريداً في الأمصار، قانطاً من عذابات الشعب، راجياً تأثيراً جديداً، عبثاً، وجد السلاطين في يد الحريم حيثما حلّ. مات مريراً. إلا أنه ظل أنبل من أن يجأر بالشكوى. شعرت بها في قليل من أقصر عباراته. أنا أيضا لا أشكو. إنما أكتفي بالتعميم وأستخلص تبعات جبرية.

كان بوذا أحد معاصري كونفوشيوس. تفصل بينهما جبال شاهقة، فكيف يعرفان أحدهما الآخر؟ ربما لم يكن أحدهما قد سمع باسم الشعب

---

1) C’est un homme يشاع أنها عبارة وجهها نابليون للشاعر الألماني غوته عندما التقيا للمرة الأولى في 4 / 10/ 1808 في مدينة أرفورت.

t.me/yasmeenbook

الذي ينتمي إليه الآخر. سأل أناندا، خدين بوذا، معلّمه: ما هو السبب يا مولاي، ما هي العلة، لماذا لا يحقّ للنساء الجلوس في المجلس العام، لا يحقّ لهن القيام بالتجارة ولا يحقّ لهن كسب رزقهن بعملهن؟

حنوقات هنّ النساء يا آناندا، غيورات هن النساء يا آناندا، حسودات هن النساء يا آناندا، حمقاوات هن النساء يا آناندا. هذا هو يا آناندا السبب، هذه هي يا آناندا العلة، لماذا لا يحقّ للنساء الجلوس في المجلس العام، لا يحق لهن القيام بتجارة ولا يحقّ لهن كسب رزقهن بعملهن.

استجدت النساء لقبولهن في الطائفة، انتصر لهن التلاميذ، أحجم بوذا طويلاً عن أن يستجيب لهم، فما زالوا يلحّون عليه حتى سقط بعد عقود صريع حِلمه، أشفق عليهم وأسّس، خلافاً لرأيه الأفضل، رهبانية للنساء. أولى القواعد التي فرضها على النساء تقول:

على الراهبة، ولو كانت في الطائفة منذ مئة عام، أن تؤدي التحية الخاشعة للراهب حتى ولو دخل الرهبنة هذا اليوم، تنهض له، تعقد يديها، ترفع له آيات الشرف بما يليق به. عليها أن تحترم هذه القاعدة، توقرها، تقدسها، تبجلها ولا تخرج عنها طوال عمرها.

تقول القاعدة السابعة، التي يفرض عليها تقديسها بالحدّة نفسها: لا يحقّ للراهبة أن تهزأ بالراهب أو أن توبّخه بأيّ حال من الأحوال.

تقول الثامنة: منذ اليوم يسدّ سبيل الكلام على النساء في حضور الرجال.

رغم هذه المحظورات التي وضعها الجليل في قواعده الثماني ضد النساء، اغتمّ غمّاً شديداً بعد أن قبلهن وتحدث إلى آناندا قائلاً:

لو لم يسمح للإناث يا آناندا، حسب التعاليم والقواعد التي بشّر بها

t.me/yasmeenbook

الكامل، بأن يعتزلن العالم ويتفرّغن للتشرد لظل الأمر المقدس طويلاً، لدام الإيمان الحق ألف سنة. لكن يا آناندا لأن أنثى اعتزلت العالم وتفرغت للتشرد، لن يستمر هذا الأمر المقدس طويلاً يا آناندا، سيتواتر الإيمان الحق خمسمئة سنة فقط.

مثل حقل الذرة اليافع يا آناندا يصيبه المرض الذي اسمه العفونة، فلا يظل هذا الحقل طويلاً، كذلك لا يستمر الأمر المقدس طويلاً حين يسمح للإناث في التعاليم والقواعد بأن يعتزلن العالم ويتفرّغن للتشرّد.

مثل نبات السكر اليافع يا آناندا يصيبه المرض الذي اسمه المرض الأزرق، فلا يظل النبات طويلاً، كذلك لا يستمر الأمر المقدس طويلاً حين يسمح للإناث في التعاليم والقواعد بأن يعتزلن العالم ويتفرغن للتشرد.

من ثنايا لغة الإيمان المبنية للمجهول هنا أسمع قنوطاً شخصياً عظيماً، جرساً متألماً، كما لم أجده في أي عبارة من العبارات التي لا تحصى المروية عن بوذا.

قاسياً كشجر

ملتوياً كنهر

شريراً كأنثى

شريرٌ وغرّ

هذا نصّ إحدى أقدم المقولات الهندية، مصوغاً بلغة خفيفة الوطء، كما هي الأمثال عموماً، مقارنة بموضوعها المرعب، الذي ينطق باسمه، لكنه يعبر أحسن تعبير عن حكمة شعب الهند".

"ما تقوله هنا جديد عليّ فقط في التفاصيل. تدهشني ذاكرتك. إنك

t.me/yasmeenbook

تقتبس ما يوافق محاججتك من مرويّات لا ضفاف لها. تذكرني بمتقدمي البراهما الذين كانوا ينقلون الفيدا شفاهة إلى التلاميذ، وهي أشمل وأوسع من الكتب المقدسة للشعوب الأخرى قاطبة قبل أن تكتشف الكتابة. تحفظ الكتب المقدسة لكل الشعوب في رأسك وليس كتب الهنود فقط. إلا أنك والحق تدفع ثمن ذاكرتك العلمية بعجز خطير. تغفل عما يجري حولك. لا ذكريات لك عما جرى لك شخصياً. لو تمنّيت عليك، ما لن أفعله طبعاً: اذكر لي كيف وقعت في أحابيل هذه المرأة، كيف غشّتك وكذبت عليك، عاملتك وغيّرتك، اذكر لي الشرور والحماقات التي تتكون منها حسب مقولتك الهندية، بالتفصيل، كي أشكل لنفسي صورة خاصة ولا أتقبل صورتك أنت دون نقد، فلن تكون قادراً. أنا واثق من أنك ستجهد ذاكرتك لأجلي، لكن دون طائل. أترى، هذا النوع من الذاكرة التي تعوزك، أملكها أنا، أتفوق عليك فيها. لا أنسى أبداً ما قاله لي ذات يوم إنسان أراد أن يؤلمني أو يواسيني. مع الوقت تتسرب مني العبارات المجردة، الأحكام المبسطة، التي قد تسري على أي آخر كما تسري علي. الفنان يملك ذاكرة حسية، كما أسميها. الاثنتان معاً، الذاكرة الحسية والذاكرة العقلية، وهذه ذاكرتك، تصنعان الإنسان الكوني. ربما كنت قد بالغت في تقديرك. لو كنا نستطيع الانحلال في إنسان واحد، أنت وأنا، لنشأ منا كائن كامل ذهنياً".

رفع بيتر حاجبه الأيسر: "المذكّرات غير مهمة. النساء، هذا إن قرأن، يتغذين على المذكرات. أحفظ ما أعايشه. أنت فضولي، أنا لا. تسمع يومياً أقاصيص جديدة وتريد اليوم من باب التغيير أن تسمع اليوم واحدة مني. لا رغبة بي في الأقاصيص. هذا هو الفرق بيننا. أنت تعيش على مجانينك وأنا على كتبي. أيهما أكثر رفعة؟ لو قطنت في جحر سترافقني كتبي في رأسي، وأنت تحتاج إلى مصحّ مجانين كامل. أيها المسكين! آسف لحالك. أنت في الأصل امرأة. أنت تتألف من مجموعة من الحوادث المثيرة. دع

t.me/yasmeenbook

نفسك على هواها، من نبأ إلى آخر. أنا راسخ. حين تقلقني فكرة ما، لا تدعني وشأني أسابيع. أنت تتعجل لتفكر في غيرها. تعتبر هذا سليقة. لو كنت أعاني هوساً، لكنت فخوراً به. هل هناك دليل أقوى على الشخصية والقوة؟ جرّب هوس الملاحقة. مكتبتي أهديها لك أنت إن ارتقيت للجدارة بها. أنت حنكليس، تتهرب من كل فكرة مستقرة. لن تقوى على الوصول إلى مرحلة الجنون. أنا أيضاً لا، لكن لدي قابلية له: الشخصية. هذا اختيال بالنسبة لك. لكني برهنت على قوة شخصيتي. بإرادتي الذاتية وحدها، دون عون من أحد، بل لم يتواطأ معي أحد، حرّرت نفسي من مشقة، من عبء، من موت، من قشور من الفولاذ اللعين. أين سأكون الآن لو أني انتظرتك؟ فوق! خرجتُ إلى الشارع، نكثت بوعدي مع الكتب، لا تعرف أي كتب هي، تعرّف عليها أولاً، ربما كنتُ مجرماً. حسب الأخلاقيات المتشددة أنا مجرم، لكني أتحمل المسؤولية، أنا لا أخاف. الموت يفرق الزيجات. أيجب أن يباح لي ما هو أقل من الموت؟ ما هو الموت؟ تعطيل للوظائف، سلب، عدم. أكان عليّ أن أنتظره؟ مزاجَ جسدِ عجوزٍ قاسٍ. من ينتظره حين يعيق العملَ، الحياةَ، الكتب؟ كنت أكرهها. ما زلت أكرهها حتى الآن، أكرهها بعد الموت. عندي حق في الكراهية. سأبرهن لك على أن كل النساء استوجبن الكراهية. تظن أني أعرف الشرق وحده. إنه يأتي بالبراهين التي يحتاجها من مجال اختصاصه. هكذا تفكر. سأجلب لك الأزرق من السماء، لكن ليس بأكاذيب، إنما بحقائق، حقائق متينة، حادة، ظريفة، حقائق من كل الأحجام والأنواع، حقائق للحس وحقائق للعقل، علماً إن الحس وحده يعمل عندك، يا أنثى، حقائق حتى تزرقّ الدنيا أمام عينيك، لا تسود إنما تزرقّ، تزرقّ، تزرقّ، فالأزرق هو لون الوفاء. لكن دعنا من هذا. لقد أخرجتني عن طوري مبتدأ حديثنا. هوينا بسعادة إلى مستوى الأميين. أنت تذلّني. عليّ السكوت. تجعل مني مغيرة[1] سبابة وأنا لدي براهيني".

---

1) إحدى الايريوينات الثلاث، إلهات الثأر، والمغيرة هي إلهة الغضب الحسود.

t.me/yasmeenbook

لهث بيتر. ارتعشت العضلات حول فمه. بدا منه لسان يقوم بحركات يائسة تُذكّر بغريق. اختلّت منظومة الأثلام على الجبين. لاحظ هذا خلال حديثه ومدّ يده إليها. دسّ ثلاثة أصابع في الأخاديد ومسّدها عدة مرات من اليمين إلى اليسار. فكر غيورغ: الثلم الرابع لا ينال نصيبه. عجباً، في الشقّ فم. له مثلنا جميعاً شفتان ولسان، من كان يتصور هذا. لا يريد أن يذكر لي شيئاً. لماذا يشكّ فيّ؟ كم هو معتدّ بنفسه. يخشى أني أهزأ به سرّاً لأنه تزوج. حتى في صغره كان فمه ينطق بالعداء للحب، لم يعتبره جديراً بأن يجهد الرجل نفسه بالكلام عنه. "لو وجدت أفروديت لقتلتها[1]". كان يحبّ أنتستينيس، مؤسس المدرسة الكلبية، بسبب هذه المقولة. فجاءت حيزبون وجرّت الويلات على قاتل أفروديت. الشخصية العظيمة! كم كان واثقاً! شعر غيورغ بالتشفّي. أهانه بيتر. كان قد اعتاد الإهانات، لكن هذه تصيب منه مقتلاً. لكلمات بيتر معنىً. حقّاً، ما كان غيورغ قادراً على الحياة دون مرضاه، لا يدين لهم بالمجد والرزق وحده، هم قوام وجوده الذهني والروحي. فشلت تلك الحيلة التي جرّبها ليستنطق بيتر. بدل الكلام، سبّ غيورغ وأدان نفسه بارتكاب جريمة. فرّ من وجه الزوجة. وكي لا يخجل خجلاً شديداً من هذه الواقعة المهينة، يسم نفسه بالمجرم. يمكنه تحمل الوعي بارتكاب هذه الجريمة، التي ليست جريمة. الشخصيات القوية أيضاً تبرهن على استقامتها بطرق ملتوية. كان لبيتر سببٌ في اعتبار نفسه جباناً. لم يطرد الزوجة من الشقة، إنما نفسه. ومن الشارع، حيث تشرّد فترة طويلة، في هيئة طويلة رذية، لاذ بحجرة البواب. هنا يكفّر عن جريمته بعقوبة الحبس. وكي لا يطول عليه الوقت كثيراً، أبرق لأخيه. لهذا قدر محتم في الخطة. عليه أن يطرد المرأة ويقضي عليها، يضع للبوّاب حدوده، يقنع الشخصية ببراءته ويعيده مكلّلاً بالنصر إلى المكتبة المحرّرة والمنظّفة. رأى غيورغ نفسه مسنّناً مهمّاً في آلية، وضعها آخر في مسارها للحفاظ

1)لو وجدت أفروديت لقتلتها، حرفياً لأطلقت عليها النار، عبارة تروى عن أنتيستينيس، في مؤلفه إيروتيكوس. والسؤال قد يطرح ممّ كان سيطلق عليها النار.

t.me/yasmeenbook

على ذاته المهدّدة. الكوميديا جديرة بدفع إحدى سلاميات إصبع اليد اليسرى ثمناً لها. لم يزل يشفق على بيتر. لكنه استقبح التظاهر باضطراب نفسي، استغلال كرامة الآخرين ليستعيد كرامته هو، هذه اللعبة التي تعوّد أن يلعبها مع الآخرين. كان يودّ أن يُفهِمه أنه يفهَم. قرّر أن يعيد بيتر إلى هدوء حياة العلماء، بأثرة وأناة، كما يفرض عليه عمله. احتفظ بثأر صغير للمستقبل. إن زار بيتر مرة أخرى، وصمّم على هذه الزيارة منذ الآن، سيناقشه بمودّة، لكن دون شفقة، بما جرى في هذه الحجرة في الواقع.

"لديك براهين؟ فهاتِها إذاً! أعتقد أن جملك ستعيدك المرة تلو الأخرى إلى الصين أو إلى الهند".

اختار الطريق الطويل، فالقصير مسدود. بما أن بيتر يمتنع عن الكلام السهل، اضطرّ غيورغ أن يستنبط من الجمل العلمية في ظاهرها، أيّ أثقال كلّبت بها الزوجةُ قلبَ أخيه. كيف له أن يخرج الأشواك من اللحم إن لم يرها؟ كيف له أن يعيد إليه السكينة دون أن يعلم إلى أين تسرّب الرعب، ما الذي حرّكه، كيف يمكن تفسيره، ما الذي يتصوره عن ماضي العرق البشري، الذي يستعيض به طفل مستبدَل[1] مرعب عن ماضيه هو.

وعد بيتر: "سأبقى في أوربا. ففيها أمثال أكثر عن الحريم. فأكبر الملاحم الشعبية التي تعبر عن ضمير الألمان، وكذلك اليونانيون، تعالج مكر الحريم. لا يمكن هنا ادّعاء وجود تأثير لشعب على آخر. لا بد أنك معجب بالثأر الجبان لكريمهيلد[2]؟ هل تنزل بنفسها إلى ساحة المعركة، هل تعرّض نفسها لأدنى

---

1)الطفل المستبدل، المبدول، في الرواية الشعبية المسيحية للقرون الوسطى هو طفل يستبدله الشيطان أو الساحرات بالطفل البشري الحقيقي خلال الأسبوع الأول بعد ولادته، ليعمل شراً بالبشر. في الخرافات الأقدم، كان هذا طفل الجنيات أو الأقزام، يريدونه أن يتربى على يد البشر ليتشبه بهم وبذلك يحافظون على نسلهم.

2) للاطلاع على تلخيص للملحمة يمكن الرجوع إلى قصة الحضارة، ص 6198 – 6202 ، كريمهيلد وهاغن ملحمة جرمانية. تلعب فيها شخصية كريمهيلد زوجة ملك الهون آتيلا المتوفي في 453 أهم دور. دونت الملحمة في ما يسمى نيبلونغنليد وتبعتها تدوينات أخرى عديدة.

t.me/yasmeenbook

المخاطر؟ إنها تكتفي بتحريض الآخرين، تكيد المكائد، تستغلّ وتخون. في النهاية، حين تزول كلّ المخاطر، تجزّ رأس غونتر وهاغن بيدها. أوفاءً؟ أحبّاً بزيغفريد، الذي تسبّبت بموته؟ أتسوطها آلهة الانتقام؟ أتعلم أنها ستنتهي إلى الدرك الأسفل بسبب ثأرها؟ لا، لا، لا. لا شيء عظيماً يهمزها. كلّ همّها هو كنز نيبيلونغن. لقد خسرت حليّها لأنها ثرثارة، إنها تنتقم للحليّ. وكان بين الحليّ رجل. يُفقَد هو أيضا مع الحليّ، ومع الحليّ ينتقَم له أيضاً. ما زالت تأمل حتى آخر لحظة أن يعلمها هاغن بمكان الكنز. أعطي الحقّ للشاعر، أو للشعب الذي أوحى للشاعر، في مقتل كريمهيلد".

يفكر غيورغ: إذاً، فقد كانت جشعة وتطالبه كثيراً بالمال.

"كانت عدالة الإغريق أقل حدّة. يغفرون لهيلينا كلّ ما فعلته لأنها جميلة. أنا يقشعرّ بدني سخطاً كلما رأيتها في إسبارطة مرحة ومتذلّلة ككلب قرب مينيلاوس. كأن شيئاً لم يكن. عشر سنوات حرب، صرع أفضل الإغريق وأجملهم وأقواهم، طروادة احترقت على آخرها، مات باريس، حبيبها، لو أنها تسكت بعد كل هذا. مرّت سنوات طوال، لكنها لما تزل تتحدث عن ذلك الزمن ببراءة، خذ هذه الأبيات: لعينيّ الناعستين، جررتم الحرب إلى ثغور طروادة، أنتم أيها الأبطال. تروي كيف تسلّل أوديسيوس في هيئة شحاذ إلى طروادة وقتل فيها كثيراً من الرجال.

تندب نساء طروادة. لكن قلبي يضحك:

كان هواي قد انقلب، وددت العودة إلى الوطن بسرور ولعنت الوله

الذي أعماني بسبب الإلهة أفروديت، وأغوتني بهجر الابنة والوطن بازدراء

ومخدعي الطهور وحليلي المغوار

الذي يبزّ الجميع روحاً وجسداً.

t.me/yasmeenbook

تروي هذه الحكاية أمام ضيوفها و، لاحِظ جيداً، أمام مينلاوس. لأجله تستخلص عبرة من الحكاية. هكذا تعود لتتزلّف إليه. هكذا تعزّيه عن الفجور السابق. آنذاك وجدتْ باريس أجمل روحاً وجسداً، هذا هو المعنى المستتر لكلماتها، واليوم أعرف أنك جميل مثله. ومن يتذكر أن باريس لم يعد على قيد الحياة؟ الحي أجمل من الميت لدى الأنثى. يعجبها ما بين يديها. بل إنها تستنفع من ضعف الشخصية وتمالئ".

يفكر غيورغ: واجهتْه بقوامه التعيس وخانتْه مع قوام أقل تعاسة. عندما مات الآخر عادت إليه تتملّقه.

"يا ويحنا، هوميروس يعرف أكثر منا بشؤون النساء! الأعمى يعلمنا، نحن المبصرين! تذكر زنى أفروديت. هيفيستوس لا يعجبها لأنه يعرج. مع من تخونه؟ هل مع أبولو، الشاعر، الفنان مثل هيفيستوس، الذي يتمتع بكل الجمال الذي تفتقده في الحدّاد الصدئ؟ هل مع هاديس، الحالك والخفي، ملك العالم السفلي؟ مع بوسيدون، القوي والغاضب، باعث الأعاصير فوق البحار؟ المفترض أن يكون هو سيدها الحق، فقد خرجت من بحره. مع هرمس الذي يجيد دسائس لا تحصى، بينها دسائس النساء، واضطرّت هي، إلهة الحب، لأن تسحر مهارته ودهاءه؟ لا، تفضل عليهم جميعاً آريس، الذي يعوض عن خواء رأسه بعضلات مفتولة، أخرق أحمر الشعر، إله البيادة الإغريق، ليس ذا ذهن إنما ذو قبضات، واسع في جلافته فقط، وعدا هذا فهو تجسيد لمحدودية العقل.

يفكر غيورغ: ها قد جئنا على البواب. هو الذي تسبّب له في الإحراج التالي.

"لخراقته يعلق بالشرك. كلما قرأت كيف يعلّقهما هيفيستوس بالشرك، أغلق الكتاب من شدة الفرح وأقبل بحرارة اسم هوميروس، عشر مرات، عشرين مرة. لكني لا أتخلى عن النهاية أيضاً. يتهرّب آريس مجلّلاً بالخزي،

t.me/yasmeenbook

صحيح أنه حمار، لكنه بكل حال رجل. ما زال فيه ذرة حياء. أفروديت ترحل مشرقة إلى بافوس، حيث أقيمت لها المعابد والمذابح، وتستريح من عارها -فلقد سخر منها جميع الآلهة وهي في الشرك- بأن تدخل الحمّام".

يفكر غيورغ: عندما ضبط الاثنين معاً، هرب البواب، كان وقتذاك متواضعاً بعد، محرجاً، ونسي قبضتيه قبالة العالم الغني. أما هي فقد رسمت -وهو السلاح الوحيد لامرأة ضُبطت- على وجهها علامة استياء، أخذت ثيابها إلى الغرفة الأخرى وارتدتها هناك. أين أنت يا جان؟

"أنا أتكهن بأفكارك. تقول إن الأوديسة تخالف رأيي. أقرأ في عينيك أسماء كاليبسو، نوسيكا وبينيلوب. سأكشف لك الحجاب فوراً عن جمالهن، الذي يتناقله أحد الناقدين عن الآخرين دون تمحيص، ثلاثة عصافير بحجرة واحدة. أذكر أولاً أن سيرس، حرمة، تمسخ جميع الرجال إلى خنازير. كاليبسو، التي تعشق أوديسيوس بكل جسدها، تمسكه في جزيرتها سبعة أعوام. يقضي نهاره باكياً بكاء مرّاً على الساحل، يشقى من شوقه إلى وطنه ومن العار، وعليه أن يضاجعها في الليل، يجب عليه، ليلة إثر ليلة، سواء شاء أم لا. لا يريد. يريد الوصول إلى بيته. إنه إنسان كفء، نابض بالقوة والشجاعة والعقل، ذهن متوقد، أكبر ممثل عبر الأزمان؛ ورغم هذا بطل. تراه يبكي، تعرف تماماً ممّ يعاني. عاطلاً ومنقطعاً عن البشر، وهو الذي يتنفس كلامهم وأفعالهم، يُمضي لديها أقوى سنين عمره. لا تدعه يرحل، وما كانت ستدعه يرحل لولا أن أتاها هرمز بأمر الآلهة: يجب تسريح أوديسيوس. عليها أن تطيع. تستغلّ آخر الساعات التي بقيت لها، لكي تغويه بمعسول الكلام. تقول له: أطلق سراحك بكامل إرادتي لأني أحبك، لأني آسفة لك. يكشفها لكنه يصمت. هكذا تتصرف إلهة خالدة: أمامها الكثير من الرجال والحب للأبد، لن تشيخ أبداً. ما همّها كيف يقضي هو، المنذور للموت، حياته القصيرة، الصغيرة، التي قضم الزمن نصفها؟

يفكر غيورغ: لم تدعه ينعم بالهدوء. لا ليلاً ولا أثناء العمل.

t.me/yasmeenbook

"لا نعلم الكثير عن نوسيكا. فهي صغيرة بعد. لكن يلاحظ المرء فطرتها. تهفو نفسها لرجل مثل أوديسيوس. رأته عارياً على الساحل. ويكفيها هذا، فهو جميل. لا تعلم من هو. تختار بناء على الجسم. تزعم الأسطورة أن بينيلوب انتظرت أوديسيوس عشرين عاماً. عدد الأعوام صحيح، لكن السؤال هو لماذا انتظرت؟ لأنها لا تستطيع أن تستقرّ على أيٍّ من عشاقها. لقد أفسدتها قوة أوديسيوس. لم يعد يعجبها أي رجل. لا تتوقع الكثير من النشوة مع أولئك المتذوقين. تحب أوديسيوس؟ يا للخرافة! يعرفه كلبه العجوز، الهزيل، القريب من الموت، عندما يتقدم منه في هيئة شحاذ، ويموت فرحاً. وهي لا تعرفه وتتابع حياتها مرحاً. تكتفي بالبكاء كل ليلة قبل النوم. بداية كانت تشتاق إليه، كان رجلاً متوقداً وقوياً. ثم أمسى البكاء عادة، منوماً، لا يمكنها الاستغناء عنه. عوض أن تقشّر بصلة تستعين بذكرياتها عن حبيبها أوديسيوس وتذرف الدموع لتنام. المرضع العجوز يوريكليا، الأميمة الجزعة، ذات القلب الرهيف، الدؤوبة، تتشفى لمرأى العشاق القتلى والخادمات المعلّقات على الأعواد. يضطرّ أوديسيوس، المنتقم، المهان، يضطرّ لأن يعاتبها".

يفكر غيورغ: يكره التدبير لدى بينيلوب ويوريكليا، فقد كانت مدبرة منزله.

"إني لأرى أكثر وصايا هوميروس فرادة وذاتية في تلك الكلمات التي يقولها أغاممنون لأوديسيوس، وهو ظل أزرق باهت في العالم السفلي، ذبحته زوجته:

من أجل ذلك أوصيك ألا تلين عريكتك لحرمك

لا تجعلها محلّ ثقتك، مهما كنت تعرف

إن أسررت لها بشيء فخبئ عنها أشياء،

قُد سفينك خفيةً إلى أرض الآباء

t.me/yasmeenbook

دون أن تدري هي، فالثقة والوفاء ليسا من شيم النساء.

ثم إن التجبّر مثلبة تتميز بها إلهات الإغريق أيضاً. الآلهة أكثر رفقاً. متى عذّب كائن بكل ذلك الطغيان ولوحق في حياته كما فعلت هيرا بهيراكليس، الذي لم يقترف ذنباً سوى محتده؟ وحين يموت وينجو أخيراً من الحريم المرعبات، اللواتي يجعلن حتى من موته جحيماً، تفسد عليه الخلود بأحبولة غادرة. ترغب الآلهة أن تجازيه على عذاباته، تشعر بالعار من كراهية قلب هيرا القاسي. تهبه الخلود كمكافأة ملائمة. فتدسّ هيرا حرمة في هديتها. تورّطه مع ابنتها هيبوليت. الآلهة متغطرسة. تسعد بأن يقترن أحد بامرأة منهم. هيراكليس مهيض الجناح. لو كانت هيبوليت لبوة لقتلها بمزراقه. إلا أنها إلهة. يبتسم ويحمد. أين زرعوه بعد تلك الحياة الخطيرة؟ في قران خالد. قران خالد في الأوليمب، تحت سماء زرقاء، مشرفاً على بحر أزرق ..."

إن أخشى ما يخشاه هو عدم انفكاك زواجه. سُرّ غيورغ بالطلاق، هديته لأخيه. صمت بيتر وحدّق متشنّجاً في الفراغ.

بدأ متردّداً: "قل لي، أنا أعاني من تشوش في الرؤية. حاولت الآن أن أستحضر بحر إيجة. يبدو لي أخضر أكثر مما هو أزرق. هل يدعو هذا إلى القلق؟ ما رأيك؟"

" آه يا بيتر، ما بك؟ أنت تتوهم المرض. ألوان البحر تتبدل. فيك ذكرى مريحة عن شيء ما أخضر. حالي حالك. أنا أيضاً أحب اللون الأخضر الغدار، قبل العواصف، في الأيام المكفهرّة".

"يبدو لي الأزرق أكثر غدراً من الأخضر".

"حسب خبرتي تختلف علاقة الإنسان بالألوان من شخص إلى شخص. عموماً يعتبر الأزرق مريحاً. تذكّر الأزرق الهادئ، الطفولي في لوحات فرا أنجيليكو!"[1].

1)فرا أنجيليكو (1395 – 1455)، فنان إيطالي في عصر النهضة المبكر.

t.me/yasmeenbook

عاد بيتر للصمت. بغتةً مدّ يده إلى كمّ غيورغ وقال: "بما أننا أتينا على ذكر اللوحات، ما رأيك بميكيل أنجلو؟"

"ما الذي ذكّرك الآن بميكيل أنجلو؟"

"في وسط سقف كنيسة سيستين تخلق حواء من ضلع آدم. إن تصوير هذا الحدث، الذي جعل من أخيَر عالم بدأ للتو أكثرَ العوالم شروراً، جاء في حجم أصغر من عمليتي خلق آدم والخطيئة على جانبيه. ما يجري هنا ضيّق الذهن وخبيث: الاستيلاء على أقصر ضلع للرجل، التقسيم إلى جنسين، أحدهما لا يمثل سوى جزء قميء من الآخر، لكن هذا الحدث الصغير يقع في مركز الخلق. آدم نائم. لو كان يقظاً لحافظ على ضلعه. آه، قدرت الرغبة المارقة في شريكة مصيره. طوى الربّ حسن نيته بعد أن انتهى من خلق آدم، نظر إليه من ثم كمن ينظر إلى الغريب، وليس كمن ينظر إلى خليقته. جازاه على الكلمات والأمزجة، التي تذروها الرياح بأسرع من الغيوم، وأرغمه على تحمل أقدار نزواته إلى أبد الآبدين. من نزوات آدم نشأت غرائز الجنس البشري. ينام. يخرِج منه الرب، الأب الرحيم، ذو الرأفة الجديرة بالتهكم في هذه الحالة، يخرج منه حواء. لم تضع بعد سوى قدم واحدة على الأرض، الأخرى لم تزل في جنب آدم. قبل أن تتعلّم السجود، تعقد يديها. يهمهم فمها بنفاق ما. يطلق على النفاق الموجّه إلى الربّ اسم صلاة. لم ترغمها الحاجة على الصلاة. هي محتاطة. تلملم كنزاً من الأعمال الصالحة بينما آدم نائم. بسليقتها تحدس غرور الرب، الكبير، مثله تماماً، ويتبدّى بأشكال تختلف باختلاف عمليات الخلق. يبدل ثوبه بين عمل وعمل. ينظر إلى حواء في ردائه الواسع، الجميل المنسدل. لا يرى جمالها لأنه لا يرى سوى نفسه في كل مكان. يقبل تسبيحها. قسماتها وضيعة ورذيلة. تحسب حساباتها منذ لحظتها الأولى. إنها عارية لكنها لا تستحي من الرب في ردائه الواسع. ولن تخجل إلا إذا فشلت في ارتكاب معصية. آدم مستلقٍ واهناً كما يستلقي الرجل بعد المضاجعة. نومه خفيف. يحلم

t.me/yasmeenbook

بالأحزان التي سيهبها له الربّ. ولد أول حلم للإنسان من الخوف من المرأة. حين يستيقظ آدم، يتركهما الرب الجبار وحدهما، ستجثو أمامه، عاقدة يديها كما أمام الرب، على شفتيها النفاق ذاته، في عينيها الوفاء، في قلبها الاستبداد، وستغريه بالفحشاء كي لا يعود قادراً على الاستغناء عنها. آدم أرحب صدراً من الرب. الرب يحب ذاته في خليقته. آدم يحب حواء، الثاني، الآخر، الشرير، الشقاء. يغفر لها ما هي: ضلعه المتضخم. ينسى. ومن الواحد يصبح اثنين. يا للشؤم الأبدي!".

إذاً، تحمل نزوةٌ، إحدى تقلبات المزاج، الذنب في زواجه. عقد نكاحه رغم إرادته. ولا يغفر لنفسه هذا. يقلقه أنه يؤمن بالأمر القطعي[1] وليس بالرب. وإلا لوضع الذنب على عاتق هذا. يتطلع في سقف كنيسة سيستين ليتمكن من تصور الرب قليلاً. لا يوجد في الفن التشكيلي ربّ توراتي أكثر مصداقية. يحتاجه لكي يلعنه. ينطق غيورغ بجملة ما بعيدة كلياً عن أفكاره:

"لماذا للأبد؟ لقد ذكرنا قبل الآن النمل الأبيض، الذي تخلّص من الجنس. إذاً فهذا ليس شرّاً لا بدّ منه، ولا شرّاً لا يمكن القضاء عليه."

"نعم، تماماً معجزة مثل فورة الحب في قفير النمل الأبيض وحريق مكتبتي، مستحيل، مستبعد كلياً، محال، جنون واضح، خيانة، لا مثيل لنوادر لا تجتمع في مكان آخر، خسّة صرف وقذارة، لا يحقّ لك أن تذكرها أمامي ولو من باب المزاح، فما بالك بأن تتوقعها، ترى أني لست مجنوناً، بل ولست مضطرباً حتى، لقد مرّ بي الكثير، التوتر ليس عاراً، لماذا تهزأ بي، ذاكرتي سليمة، أعرف كل ما أريده، أنا مسيطر على نفسي، لماذا؟ لأني أخطأت مرة وتزوجت، ليس لي أي علاقة غرامية، ولطالما غامرت أنت في

---

1) الأمر القطعي عند كانط. يميز كانط بين الأمر القطعي/المطلق والأمر الشرطي. اعتبر كانط أن الأمر القطعي مبدأ يمكن أن تستخلص منه المطالب الأخلاقية. المطالب الأخلاقية برأيه يجب أن تكون كلانية، تسري على جميع الناس. الأمر الشرطي يعني إذا أراد المرء الوصول إلى هدف، غاية ما، فعليه أن يوسط بينه وبين هذا الهدف تصرفات معينة. ولهذا لا يكون الأمر الشرطي قاعدة عامة، لأن أهداف الناس وغاياتهم تختلف من شخص إلى آخر.

t.me/yasmeenbook

الحب، الحب جذام، مرض موروث من وحيدات الخلية، آخرون يتزوجون مرّتين وثلاثاً، لم أُقم معها أي علاقة جنسية، أنت تهينني، ما كان عليك أن تقول ذلك، ربما فعلها المهووسون، أما أنا فلن أشعل النار في مكتبتي، تماسك، وإذا كنت مصرّاً على رأيك هذا، فارجع إلى مصحّ معتوهيك! أين رأسك؟! تصدّق على كل ما أقول. لم أسمع منك حتى الآن فكرة واحدة من بنات أفكارك، تعتقد أنك تعرف كل شيء. أشمّ أفكارك الهازئة شمّاً. رائحتها نشحة. تقول: هو مجنون لأنه يلعن النساء. لست الوحيد. سأبرهن لك على هذا. استرجع أفكارك القذرة. مني أنا تعلمت القراءة، أيها المقمّل. حتى إنك لا تجيد الصينية. سأرفع دعوى طلاق رجعية بعد الوفاة. عليّ أن أعيد الاعتبار إلى شرفي. لا ضرورة لوجود المرأة عند الطلاق. لتتقلّب في قبرها. أصلاً ليست مقبورة. لا تستحق قبراً. تستحقّ الجحيم. لماذا لا توجد جهنم؟ يجب بناء جهنم: للحريم ولزير نساء على غرارك. أنا أقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. أنا إنسان جادّ. ستسافر الآن ولن تهتمّ بي. أنا وحيد تماماً. معي رأسي. أستطيع الاعتناء بنفسي وحدي. لن أوصي بالكتب لك. أفضّل أن أحرقها. أنت بجميع الأحوال ستموت قبلي، فأنت مستهلَك سلفاً، هذا نتيجة حياتك القذرة، اسمع نفسك وأنت تتكلم، خائر القوى، بجمل طويلة التفافية، أنت دائم اللطافة، يا حرمة، أنت مثل حواء، لكني أنا لست الرب، لن ينجح مسعاك معي. استرح من الأنثوية! ربما عدت لتكون إنساناً. أيها المخلوق البائس، الدبق. أشعر بالشفقة عليك. هل تعرف ماذا كنت سأفعل لو أجبرت على أن أكون مكانك؟ لست مجبراً، لكن لو أجبرت، لو لم يكن من حل آخر، لو لم يرحمني قانون الطبيعية؛ كنت سأجد حلاًّ. أُشعل النار في مصحّ مجانينك، حتى يحترق على آخره، بكل ما فيه من نزلاء، بنفسي، لكن لن أفعلها بمكتبتي. الكتب أكثر قيمة من المجانين، الكتب أكثر قيمة من البشر، أنت لا تفهم هذا لأنك ممثل كوميدي، تحتاج إلى التصفيق، الكتب خرساء، تتكلم وهي خرساء، هذا هو العظيم فيها، تتحدث وتسمعها

t.me/yasmeenbook

أسرع مما يفترض بك أن تسمع. سأريك كتبي. ليس الآن. لاحقاً. ستطلب المعذرة على تصوّرك المقزّز، وإلا طردتك خارجاً".

لم يقاطعه غيورغ، أراد أن يسمع كل شيء منه. تكلم بيتر بسرعة وثورة، بحيث لن توقفه أي كلمة لطيفة. كان قد نهض. ما إن جاء الحديث على الكتب حتى غدت حركاته الضعيفة قوية وحازمة. ندم غيورغ على أنه، نظراً لافتقاره إلى أخرى، أساء اختيار الصورة بتسليط الضوء على النمل الأبيض وعدم جنسانيته كي يوجه خيال أخيه في الاتجاه المرغوب. مجرد التفكير بإمكانية أن يضع النار في مكتبته، أحرقت بيتر أكثر من النار. يحب مكتبته إلى هذه الدرجة، تعوّضه عن البشر. كان يجب توفير هذا الألم عليه، لكنه أيضاً أتى أُكله. فمنه علم غيورغ أن هناك دواء شافياً من المرأة، أكثر أمناً من السمّ، حبّاً ضارماً، ما على المرء سوى أن يوقده بوجه تلك الكراهية، حتى يطفئ جذوتها ويقضي عليها. يجدر الاستمرار بالحياة لأجل كتب يضع عليها أحدهم درع الوقاية لمجرّد وجود خطر متخيّل عليها. قرّر غيورغ: سأرمي المرأة خارجاً بسرعة ودون ضجيج، وأقصي من الشقة كلّ ما قد يذكره بها، سأختبر سلامة المكتبة، سأحلّ مشاكله المالية، من المؤكد أنه لا يملك غير القليل أو لا شيء مطلقاً، سأعيده إلى قلب مكتبته، سأؤجج الحب القديم يوماً كاملاً، سأجلسه إلى عمله الذي كان ينوي عليه قبلاً، ثم أدع السمكة الجافة لمصيرها في عنصرها البارد، الذي تجده دافئاً. سأزوره بعد نصف سنة، فأنا مدين له بهذه الزيارات القصيرة، رغم أنه أخي وأنا أحتقر مهنته السفيهة. سمعت كل ما أحتاجه عن قصة زواجه. أحكامه التي يعتبرها موضوعية أشفّ من الماء. عليّ أولاً أن أهدّئه. يسكن أكثر عندما يخفي كراهيته وراء إناث أسطوريات أو تاريخيات. خلف هذه الحصون في ذاكرته يشعر بالأمان من المرأة فوق. فهي لن تستطيع حتى الرد عليه. إنه في الواقع محدود العقل وذو شخصية تافهة. تعطيه الكراهية بعض الحيوية. ربما بقي له القليل منها لأجل أعماله التالية.

t.me/yasmeenbook

بنبرة هادئة ومتوسلة قطع غيورغ هجمات بيتر المتلعثمة: "قطعت أفكارك. كان لديك شيء أخطر تريد قوله". سكّن هذا الجدّ الواضح والاستعداد للسماع غضبه. عاد للجلوس. فتش رأسه وسرعان ما عاد ووجد رأس الخيط.

"تمام مثل فورة الحب في قفير النمل الأبيض والحريق المستحيل لمكتبتي، سيكون من المعجز أن يدمر ميكيل آنجلو سقف كنيسة سيستين بيده. ربما طلى أو مسح، رغم عمل أربعة أعوام، شخصية إثر شخصية، نزولاً عند أمر أحد الباباوات المجانين. إلا أنه كان سيحمي حواء، حواء هذه، متحدّياً مئات الحراس السويسريين. إنها تركته".

"عندك شعورٌ عالٍ بتركات كبار الفنانين. والتاريخ أيضاً يدعم رأيك، وليس فقط هوميروس والتوراة. دعنا من حواء، دليلة، كليتيمنيسترا[1] وحتى بينيلوب، التي برهنت على فجورهن. إنها أمثلة قوية، شخصيات استعارية متميزة، لكن من يعلم ما إن كنّ عشن في الواقع؟ كليوباترا، تعلّمنا، نحن عشاق التاريخ، آلاف الدروس الأفضل".

"نعم. لم أنسَها. لم أصل إليها بعد. لندع الأخريات جانباً. لست دقيقاً مثلي. كليوباترا تقتل أختها، كل حرمة تصارع حرمة. تخدع أنطونيوس، كل حرمة تخدع رجلاً. تستغله والأمصار الرومانية الآسيوية لرفاهيتها. كل حرمة تعيش وتموت لأجل حبها للرفاهية. تخون أنطونيوس في أول لحظة خطر. تقنعه أنها ستحرق نفسها. يقتل نفسه. وهي لا تحرق نفسها. لكنها ترتدي رداء الحداد، وهذا جميل عليها، بهذا تنصب فخّاً لأوكتافيان. كان على درجة من الذكاء فأخفض بصره. أراهن على أنه لم يرَها قطّ. كان الفتى الذكيّ متجهّزاً بدرعه. وإلا لحاولت الإيقاع به بجلدها وتمسّحت به بينما أنطونيوس يسلم الروح. رجل، أوكتافيان رجل حقيقي، يحمي جلده بالدرع،

---

1)زوجة أغاممنون التي قتلته حسب أسخيلوس، كانت تكره زوجها لأنه قبل التضحية بابنتها إيفغينيا لأجل تهدئة الرياح والذهاب إلى حملة طروادة.

t.me/yasmeenbook

يحمي عينيه بأن يخفضهما. زعموا أنه لم يردّ بكلمة واحدة على غنائها الشبيه بغناء السيرينيات. أظن أنه سدّ أذنيه كما فعل أوديسيوس. وطبعاً لا تستطيع أن تسحره عن طريق أنفه وحده. وثق بأنفه. ربما كانت حاسة الشم لديه ضعيفة. رجل، رجل حقيقي، كم أنا معجب به! سقط قيصر صريعاً لها، أما هو فلا. مع أنها كانت أخطر بكثير بتقدمها في العمر، أي أكثر إلحاحاً".

فكّر غيورغ: إنه يحقد على سنّ الزوجة أيضاً، الأمر المفهوم. ظل يستمع إليه طويلاً. لم تبق سوءة من سوءات النساء إلا وذكرها، سواء كنّ استعارات تاريخية أم أساطير. برّر للفلاسفة آراءهم المحتقِرة. كانت اقتباسات بيتر موثوقة وتترسخ في الذهن لأنه يطلقها مثل معلم مدرسة بكل يقين. صُحِّحَت بعض الجمل من الذاكرة الأقدم، الخاطئة. يمكن للمرء أن يتعلم طوال عمره، حتى من متشدّق. كان الكثير جديداً على غيورغ. ادّعى بيتر أن القديس توما الأكويني قال: "المرأة عشبة ضارّة تنمو بسرعة. إنسان ناقص التكوين. ينضج جسمها مبكراً لأنه من قيمة دنيا، لأن الطبيعة لا تأبه به إلا قليلاً". وأين وضع توماس مور، أول شيوعي حداثي، قوانين الزواج في اليوتوبيا؟ في الباب عند العبيد والمجرمين. دُعي آتيلا، ملك الهون، من قبل امرأة، هونوريا، أخت القيصر الروماني، إلى وطنها، إيطاليا، التي نهبها ودمر أجمل ما فيها. بعد عدّة سنوات جلبت أرمل القيصر ذاته، التي تزوجت بقاتله وخليفته بعد وفاته، ويلات الفانداليين على روما. هي التي جلبت على روما السبي العظيم، كما جلبت أخت زوجها اجتياح الهون.

شيئاً فشيئاً خبت حماسة بيتر. بدأ يتحدث بهدوء أكثر، مرّ بالجرائم المرعبة بخفّة أسرع. كانت المادة التي يعالجها أكبر من كراهيته. وكي لا يفوّت حدثاً، فقد ظلّت ميرته الرئيسية دقّته، وزّعها بعدل على مختلف العصور، الشعوب والمفكرين. لم يحظ الفرد إلا بالقليل. لو تحدث عنها قبل ساعة، لسمعت ميسالينا[1] عن نفسها أخباراً أكثر بشاعة. أما الآن فقد

1) ميسالينا (17 – 48) الزوجة الثالثة للإمبراطور كلوديوس. أعدمت في مؤامرة حيكت ضد زوجها.

t.me/yasmeenbook

كان مصيرها أهون من خلال عدة جمل لجوفينال[1]. بل ظهر أن أساطير القبائل الزنجية ذاتها مليئة باحتقار النساء. جاء بيتر بمناصرين له حيث وجدهم. غفر للأميين جهلهم إن كانوا يفهمون شؤون النساء.

استغلّ غيورغ استراحة قصيرة بين الذكريات، وطلب بكل اتضاع أن يسمح له بالإدلاء باقتراح صغير بشأن الطعام. قبل بيتر قائلاً إنه يفضّل تناول الطعام خارج البيت. شبع من الحجرة. ذهبا إلى أقرب مطعم. شعر غيورغ أن العيون تراقبه بحدّة من إحدى النواحي. ما إن فتح فمه، حتى عاد بيتر للحديث عن الضباع. إلا أن جمله سريعاً ما تضيع، تصبّ في الصمت. فصمت غيورغ أيضاً. استراحا عدة دقائق من شدة التركيز. تكلّف بيتر في اتخاذ مكانه في المطعم. ظلّ يحرك مقعده حتى أدار ظهره لسيدة. بعدها بقليل ظهرت أخرى، أكبر سناً وأوسع نظراً، تطلّعت حتى في بيتر، ممتنّة لنظرة ترجو أن يلقيها عليها، ولم تتقزّز من هيكله العظمي. وقف النادل، عجوز بهيّ الطلعة، أمام غيورغ، الذي اعتبره محسناً على الجائع، وسجّل الطلبات. بإيماءة خفيفة من رأسه نحو المتسوّل عرض تقديم وجبتين مختلفتين: مغذّية للمتسوّل، وراقية للمنعم. فجأة نهض بيتر وقال محتدّاً: "سنغادر هذا المطعم". عبّر النادل عن أسفه الشديد. حمّل نفسه الذنب وفاض بعبارات المجاملة. شعر غيورغ بخجل شديد. سأله بيتر وهما في الخارج: "هل شاهدت الحيزبون؟" "نعم". لقد نظرت إليّ، إليّ أنا! أنا لست مجرماً. كيف تعطي لنفسها الحقّ في مراقبتي؟ أنا لا أتهرّب من مسؤولية ما قمت به".

حجز غيورغ مقصورة في المطعم الثاني. أثناء تناول الطعام واصل بيتر إلقاء محاضرته، ببطء وملل، متربّصاً إن كان أخوه يسمعه. تاه في أنباء معتادة وقصص معروفة. تراخى في الكلام. غفا بين الفقرات. قريباً ستتخلّل دقائق طويلة الحروفَ أيضاً. طلب غيورغ شامبانيا. لو أنه يتكلم

---

1) جوفينال، شاعر روماني هزلي هجاء، عاش بين القرنين الأول والثاني.

t.me/yasmeenbook

بسرعة، لانتهى أيضاً بسرعة. علاوة على هذا سأعرف آخر أسراره، إن كان لديه أسرار. امتنع بيتر عن الشرب. معلناً أنه يبغض الكحول. وشرب رغم ذلك. وإلا لظن غيورغ أنه يريد أن يخفي عنه شيئاً. لا شيء لديه يخفيه. إنه الحقيقة بعينها. تعاسته متجذرة في حبه للحقيقة. تزحزحت أستذته. برهن على أن لديه معلومات مدهشة عن قضايا القتل التاريخية. دافع بروح نارية عن حقّ الرجل في التخلّص من زوجته. تحوّل خطابه إلى دفاع محامٍ يفسّر للمحكمة لماذا اضطرّ موكله لاغتيال المرأة الشيطانية. تُستنتَج شيطانيتها من الحياة الداعرة التي أرادت أن تحياها، من الثياب المغرية، من عمرها الذي ظلت تتستر عليه، من الكلمات البذيئة التي تؤلف قاموسها، وخاصة من الاعتداءات السادية، التي انتهت بالمحصلة إلى الضرب المبرح. أيّ رجل لن يقتل مثل تلك المرأة. رافع بيتر بهذه الحجج طولاً وعرضاً. وعندما انتهى مسح ذقنه راضياً مثل محامٍ حقيقي. ثم رافع عن قتل النساء المتخلفات عقلياً.

لم يعلم غيورغ جديداً عن حالة أخيه. ظل رغم الكحول على الرأي الذي شكّله لنفسه. يسهل إصلاح الأضرار التي لحقت بعقل متحذلق. منشؤها محدّد وشفاؤها محدّد. هذه هي الحالات الوحيدة التي لا يحبها غيورغ، فهي ليست حالات. من ظل وهو نشوان كما هو قبل الشرب، يستحق أسوأ الآراء. أي خواء في بيتر! مخّ رصاصي، مسبوك من أحرف طباعية، بارد، جامد وثقيل. ربما كان معجزة من الناحية التقنية، لكن هل ظل مكان للمعجزات في زمننا التقني؟ إن أخطر ما يجرؤ عليه الفيلولوجي هو قتل زوجته. وهذا شرط أن تكون الزوجة شيطاناً، أكبر بحوالي عشرين عاماً من الفيلولوجي المعني، نظيره الشرير، الذي يتعامل مع البشر الأحياء كما يتعامل هو مع نصوص كبار الشعراء. ولو أنه نفذ القتل، لو أنه رفع يده بوجهها ولم يتراجع في اللحظة الأخيرة، لو أن جريمته أودت به، لو أنه ضحّى بتحقيق النصوص، المخطوطات والمكتبة، بكل ما يضمه قلبه الأعجف

t.me/yasmeenbook

لأجل الثأر، لنال شرف الذكر. لكنه يفضّل أن يتعايش مع كل هذا. يبرق أولاً إلى أخيه طالباً المساعدة على جريمة لم يرتكبها. سيعيش ثلاثين سنة أخرى ويعمل. سيذكر اسمه في بعض الحوليات نجماً ساطعاً من الدرجة الأولى إلى أبد الأرض. سيقرأ اسمه الأحفاد الذين يتصفحون حوليات الصينيات، فمثل هؤلاء الأحفاد أيضاً سيأتون إلى العالم للأسف. لغيورغ اللقب ذاته. يجب تغييره. بعد خمسين سنة ترفع الحكومة الصينية تمثالاً على شرفه. يلعب أطفال ظرفاء، مخلوقات رقيقة بعيون لوزية وجلد مشدود (تميل إليهم أقسى الحجارة حين يضحكون) على شارع سمّي باسمه. ستكون حروف أحد الأسماء نصب عيونهم (الأطفال صرّة ألغاز، هم وكل ما يحيط بهم)، سراً ظل حامله طوال عمره واضحاً، شفيفاً، مفهِماً ومفهوماً، وإن وجد لغز في حياته، فهو يحل فوراً. يا لسعادة البشر بأنهم غالباً لا يعرفون أسماء من أطلقت على شوارعهم! يا للسعادة بأننا لا نعرف إلا القليل إطلاقاً!

في الأصيل أخذ الفيلولوجي إلى فندقه، ورجاه أن يرتاح فيه إلى أن يحل مشاكله في البيت.

قال بيتر: "ستنظف الشقة".

"نعم، نعم".

"لا تستغرب من الرائحة الكريهة فيها".

ابتسم غيورغ، الجبناء يميلون عادة إلى الإيحاء: "سأسدّ أنفي".

"دع عينيك مفتوحتين! ربما شاهدت أشباحاً".

"لا أرى الأشباح البتّة".

"ربما شاهدت واحداً رغم هذا. أخبِرني إن رأيت".

"نعم، نعم". حتى مزاحه سمج.

"عندي رجاء".

t.me/yasmeenbook

"ألا وهو؟"

"لا تتكلم مع البواب. إنه خطير. سيعتدي عليك. ما إن تقول له كلمة لا تواتيه حتى يبدأ بضربك. لا أريد أن تتضرّر بسببي. سيكسر عظامك. يومياً يطرد المتسولين من البناية، وقبل ذلك يجرحهم. أنت لا تعرفه. عدني، ألا تورط نفسك معه. هو كذاب. يجب ألا نصدق منه أي شيء".

"أعرف، سبق أن أنذرتني".

"تعدني؟"

"نعم، نعم".

"حتى لو لم يفعل بك شيئاً، سيهزأ بي مستقبلاً".

إنه يخاف منذ الآن من الوقت الذي سيبقى فيه وحده: "تأكد من أني سأطرده من البناية كلّها".

"حقاً؟"، ضحك بيتر للمرة الأولى في حياته حسب ما يتذكر أخوه. مدّ يده إلى جيبه وسلم غيورغ حزمة أوراق نقدية متجعّدة. "سيطلب نقوداً".

"هل هذا كل ما تملك؟"

"نعم. تجد البقية فوق في صورة أنبل".

كاد غيورغ يتقيّأ من هذه العبارة الأخيرة. نصف ميراث الأهل الكبير جداً في كتب ميتة، والنصف الآخر في مصحّ مجانين. أيّ النصفين وظّف بشكل أفضل؟ كان يتوقع وجود بعض المال عند بيتر. قال لنفسه: أنا لا أتحسر لأني سأضطر لإعالته طوال عمره. يقرفني فقره لأني كنت سأساعد عدة مرضى بالمال نفسه.

ثم تركه وحده. مسح يديه بالمنديل على الشارع. كاد أن يمدّ يده إلى جبينه، كان قد رفعها، فتذكر حركة بيتر المشابهة. نزلت اليد بسرعة.

t.me/yasmeenbook

سمع صراخاً عالياً عندما وقف أمام باب الشقة. كانا يتشاجران. بهذا سيهون عليه التخلّص منهما. بعد القرع الشديد فتحت المرأة. كانت عيناها دامعتين وترتدي التنورة المضحكة ذاتها مثل يوم أمس.

نعبت: "رجاء، أستاذ أخ. هو وقح. هو رهن الكتب. ما ذنبي أنا؟ والآن يريد أن يشتكي علي. هذا ما يجوز، أقول أنا. أنا امرأة محترمة".

قادها غيورغ بتأدب بالغ إلى المكتب. عرض عليها ذراعه. استغلّت الفرصة دون تردّد. رجاها أن تجلس إلى طاولة مكتب أخيه. وعدل لها الكرسي بذاته.

قال: "تفضّلوا! أرجوا أن تشعروا بالراحة هنا. على الرجل أن يحمل امرأة مثلكم على كفوف الراحة. للأسف أنا متزوج. يجب أن يكون لديك محل خاص. أنتم سيدة أعمال بالولادة. هنا لن يزعجنا أحد، وإلا؟". ذهب إلى الباب ورجّ المزلاج. "مغلق. حسناً. رجاء، أغلقوا الباب الآخر أيضاً!".

أطاعت. كان يجيد كيف يحول نفسه إلى أصحاب البيت وهؤلاء إلى ضيوف.

"أخي لا يستحقّكم. تكلّمت معه. يجب أن يبتعد عنكم. أراد أن يبلغ عنكم بسبب الزنى المضاعف. فهو يعرف كل شيء. أوقفته. أي امرأة كانت ستخون مثل هذا الرجل. أظنّ أنه ليس رجلاً حقيقياً بالأساس. على كل حال، سيكون من السهل عليه أن يضع الذنب عليكم في قضية الطلاق. وستخسرون كل شيء. ولن تخرجوا من مصيبتكم مع إنسان رديء، أعرف كيف هو، بأي شيء. ستقضون شيخوختكم في الفقر والوحدة. سيدة محترمة مثلكم، ما زال أمامها ثلاثين سنة على الأقل. كم عمركم، إذا سمحتم؟ أربعين في أعلى حد. رفع الدعوى سراً. لكن سأقف إلى جانبكم. أنتم تعجبونني. عليكم الخروج من البيت فوراً. إذا لم يركم بعد الآن، فلن يقوم بأي شيء ضدكم. سأشتري لكم محل حليب في الطرف

t.me/yasmeenbook

الآخر للمدينة. سأدعمكم بسلفة رأس المال الضروري بشرط واحد: يجب ألا تظهروا أمام عيون أخي بعد ذلك أبداً. إذا فعلتموها رغم هذا الشرط، يرجع رأس المال الذي سلّفتكم إيّاه إليّ. ستوقّعون على تعهّد بهذا. بهذا تكون الفائدة لكم. أراد أن يسجنكم. والقانون يعطيه الحق. القانون ظالم. امرأة مثلكم، وتعاني المرارة بسبب عدة كتب ضاعت. لا أوافق على هذا. لو أني ما كنت متزوجاً! اسمحوا لي، سيدتي الرؤوم، أن أقبّل يدكم باعتباري سلفكم. قولوا لي رجاء بالضبط ما هي الكتب الناقصة. جعلت من واجبي التعويض عنها. وإلا ما كان تراجع عن دعواه. هو إنسان قاسٍ. سنتركه وحده. وعليه أن يدبّر رأسه وحده. لن يرعاه أيّ إنسان. هذا ما يستحقّه. وإذا عاد وارتكب حماقات، سيتحمل الذنب بنفسه. لكن الآن يضع كل الذنب على رأسكم. سأطرد البواب من عمله. كان فظيعاً معكم. وليجرّب اعتباراً من اليوم أن يعمل بواباً لبناية أخرى. ستتزوجون قريباً مرة ثانية. تأكدوا، أن العالم كله سيحسدكم على محلكم الجديد. وأيّ رجل كان، يتمنى الزواج بسيدة مثلكم. لديكم كل ما تحتاجه المرأة. ما بكم أي عيب. صدّقوني. أنا رجل ذواق. أي امرأة تعتني بالنظافة اليوم مثلكم؟ هذه التنورة عملة نادرة. والعينان! والشباب! والفم الصغير! كما قلت، لو ما كنت متزوجاً. كنت سأغريكم بارتكاب المعصية. لكني أحترم زوجة أخي. إذا رجعت مرة ثانية، كي أرى أحوال الغبي، أستسمحكم بكل أدب أن أزوركم في محل الحليب. وقتذاك لن تكونوا زوجته. وقتذاك نترك القلوب تحكي".

تكلّم بحرارة. كان لكل كلمة الأثر المحسوب. تبدّل لونها. كان ينتظر بعد بعض الجمل. لم يتجرأ من قبل على كل هذا التملق. لم تقل شيئاً. أدرك أنه هو الذي قضى عليها بالخرس. تكلم إليها معسول الكلام. خافت أن تضيع عليها كلمة ما. جحظت عيناها من محجريهما، من الخوف بداية، ثم من العشق. ورغم هذا عيناها حادتان، لكن ليس ككلبة. تدفق اللعاب

t.me/yasmeenbook

من فمها. طقطق الكرسي الذي تجلس عليه بأغنية[1]. مدّت يديها نحوه مضمومتين على شكل كأس. شربت بالشفاه والأيدي. عندما قبّل هذه، فقدت الكأس شكلها وفحت شفتاها، سمعها: رجاء، أكثر. فتغلّب على تقزّزه وقبّل اليدين مرة أخرى. ارتعش كيانها، وصلت الإثارة حتى شعرها. لو عانقها لسقطت مغشيّاً عليها. اتخذ في وقفته ذروة متصلبة بعد آخر جمله التي تحكي عن القلوب. كانت يده والجزء الأعظم من ذراعه على الصدر تؤكدان مزاعمه. فقالت إن لديها دفتر توفير. لم يضع أي من الكتب، فما زالت أوراق الرهن لديها. بحركة لافتة للنظر وخرقاء أدارت ظهرها، دلالة حياء امرأة لا تعرف الخجل، وأخرجت من تنورتها، التي تحوي جيباً، ربطة سميكة من أوراق الرهن. سألته ما إن كان يرغب في دفتر التوفير أيضاً. ستهديه إياه باسم الحب. شكرها بالقول إنه باسم هذا الحب تماماً لن يقبله. وبينما هو يمتنع، قالت في سرها: رجاء، من يعرف إذا كان يستحقه. ندمت على الهدية قبل أن يقبلها. سألته ما إن كان سيزورها حقاً، فردّ إنه رجل. استعادت وعيها إثر الكلمات القليلة التي نطقت بها. ما إن عاد وفتح فمه من جديد، حتى قضي أمرها.

بعد نصف ساعة عاونته في عمليته ضد البواب. صرخ غيورغ بالرجل: "أنتم بالتأكيد لا تعرفون من أنا. رئيس شرطة باريس في ثياب مدنية. كلمة واحدة مني ويأمر صديقي، رئيس الشرطة هنا، بالقبض عليكم. تخسرون راتب التقاعد. أعرف كل ما ارتكبتموه من جرائم. انظروا إلى هذه الأوراق. سأسكت على الأشياء الأخرى مؤقتاً. ولا كلمة! أنا أعرف كل شيء عنكم. أنتم واحد متخفٍّ. لا أعرف الرحمة على عناصر مثلك. سأطلب من صديقي، رئيس الشرطة هنا، أن يطهّر فريقه. ستتركون البناية. يجب ألا أراكم هنا اعتباراً من صباح الغد. أنتم فاعل. ضبّوا أغراضكم. سأكتفي

1)أغنية غاسنهاور، Gassenhauer، تعبير يطلق على أغنية مشهورة، ناجحة. في الأصل أطلق بين القرنين 16 – 18 على الأغاني التي يغنيها المغنون الجوالون في الأزقة والحارات. لاحقاً، في الفترة الرومانسية، أطلق التعبير على الأغاني البدائية الرتيبة، التي تدغدغ العواطف.

t.me/yasmeenbook

مؤقتاً بتوبيخ. سأفنيكم! يا أيها المجرم! هل تعرفون ما الذي فعلتموه؟ تغنّيه العصافير على السطوح."

قلّص بينيديكت بفاف، الذكر الأحمر، القوي، عضلاته وجثا، عقد يديه، وطلب الصفح من السيد رئيس الشرطة. كانت الابنة مريضة وكانت ستموت بجميع الأحوال، يرجوه رجاء حاراً ألا يطرده من وظيفته. وهل للإنسان سوى عينه السحرية. ما الذي يبقى للواحد منا؟ يجب أن يشفقوا عليه ويسمحوا له بعدة شحاذين ليضربهم. وبجميع الأحوال لا يأتي أحد منهم. البناية كلها مشبعة بحبه. هو منحوس. لو كان يعرف هذا. لا يظهر على السيد البروفسور أن له أخاً في مركز رئيس شرطة. وإلا لكان حرس الشرف وصل من باب البناية إلى المحطة. الرب نفسه يغفر. ممتنّاً يسمح لنفسه بالوقوف.

كان على أتمّ الرضا عن تسبيحه للسيد السامي. وغمز له بودّ لما نهض. ظل غيورغ عابساً وقاسياً. وافقه على طلبه في القضية. تعهّد بفاف بأن يعيد كل الكتب المرهونة غداً شخصياً. اضطرّ للتنازل عن بنايته. حصل على محل لبيع الحيوانات في الطرف الآخر للمدينة، جانب محل المرأة، وأعلن الطرفان أنهما مستعدّان للسكن معاً. اشترطت المرأة ألا تُضرب ولا تُقرص، علاوة على هذا يحقّ لها استقبال السيد الأخ متى ما أراد. وافق بفاف بكل رضا. كان له اعتراض على منع القرص. فهو أيضاً إنسان. علاوة على الحب الذي التزما به، كان عليهما أن يراقب أحدهما الآخر. إن اقترب أحد الطرفين من شارع إرليش، يكون من واجب الطرف الآخر أن يعلم باريس بهذا. وقتئذٍ يضيع المحل وتضيع الحرية دون رحمة. بعد أول إبلاغ يصدر أمر اعتقال ببرقية. للمبلِّغ الحق في مكافأة. أعلن بفاف أنه يخرى على شارع إرليش كله، إذا كان سيعيش بين طيور الكناري. اشتكت تيريزه: رجاء، عاد ليخرى. عليه ألا يخرى دائماً. أقنعه غيورغ أن يتكلم مثل رجل أعمال محترم. فهو لم يعد متقاعداً معوزاً، إنما صار رجلاً مقتدراً.

t.me/yasmeenbook

كان بفاف يفضّل أن يكون صاحب مطعم، الأفضل مدير سيرك له نمرته الرياضية الخاصة وطيور مدجّنة تغنّي فوراً بناء على أمره، ثم تسكت بناء على أمره. أجاز له الرئيس أن يفتتح مطعماً أو سيركاً إذا كان وفيّاً وملتزماً. قالت تيريزه: لا. السيرك ليس عمل الأكابر. المطعم نعم. قرّرا تقاسم العمل. هو السيد وهي السيدة. وعدهما السيد الرئيس بزبائن من باريس.

في المساء ذاته بدأت تيريزه بتنظيف الشقة على أكمل وجه. لم تستأجر خادمة، بل قامت بكل شيء بنفسها كي توفر على السيد الأخ مصاريف غير لازمة. لأجل الليل مدت ملاءات جديدة على سرير زوجها، وعرضته على السيد الأخ. قائلة إن أسعار الفنادق ترتفع يوماً بعد يوم. وهي لا تخاف. اعتذر غيورغ متذرّعاً ببيتر، الذي عليه أن يراقبه. احتجب بفاف للمرة الأخيرة في حجرته. النومة الأخيرة هي أكثر الأفكار وفاء. ظلت تيريزه تتقلب طوال الليل.

بعد ثلاثة أيام دخل المالك إلى البناية. أول نظرة ألقاها، كانت على الحجرة. كانت خالية، في محل السدادة ثقب مقفر في الجدار. كان بفاف، المخترع، قد نزع ابتكاره وأخذه معه. كانت المكتبة على حالها. ذرع بيتر المسافة أمام المكتبة عدة مرات جيئة وذهاباً. قال: "لا توجد بقع في السجاد" وابتسم: " لو كان فيها بقع لأحرقتها. أنا أكره البقع". أخرج مخطوطات من الدرج ورفعها قلاعاً على المكتب. قرأ العناوين لغيورغ. "ينتظرني عمل سنوات مديدة يا صديقي. والآن سأريك الكتب". برفقة "هنا ترى"، "انظر ما الذي هنا"، برفقة نظرات سمحاء وعبارات الابتهاج العطوفة (ليس أيّاً كان يجيد دزينة لغات شرقية)، أخرج مجلدات كانت قبل وقت قصير في دار الرهنيات، وأبرز لأخ يتظاهر بالدهشة فرادتها. بمطلق السرعة تغيّر الطقس، أرعد بأرقام السنين والصفحات. نالت الحروف معاني جارفة. وضعت الحدود لتراكيب خطيرة. تبيّن أن الفيلولوجيين المستسهلين غيلان، يجب التشهير بهم في الأسواق العامة في أردية

t.me/yasmeenbook

زرقاء. الأزرق أتفه الألوان، لون من يتقبلون الأمور دون نقد، لون السذّج والمؤمنين. تم البرهان على أن لغة اكتشفت حديثاً معروفةٌ منذ زمن بعيد وعلى أن مدّعي اكتشافها حمار. ارتفعت صيحات الغضب بوجهه. فقد تجرّأ الرجل على أن يكتب عملاً عن لغة بلد أقام فيها ثلاث سنوات فقط. يبدو أن اليد العليا صارت للوصوليين، حتى في حقل العلم. يجب أن يكون للعلم محاكم تفتيش خاصة، يسلم إليها زنادقتهم. ليس من الضروري أن يعاقبوا فوراً بالإعدام حرقاً. كان للاستقلال القانوني لطبقة القساوسة في القرون الوسطى مناقب كثيرة. لو أن علماء اليوم يتمتعون بما تمتعوا به آنذاك. اليوم يحكم الأغرار على عالِم، لا تقدّر أعماله بثمن، بسبب جنحة صغيرة، ربما ضرورية.

بدأ غيورغ يشعر بانعدام الثقة. لم يكن يعرف عُشراً من الكتب التي جاء الحديث عليها. احتقر هذه المعرفة التي تثقل عليه. عصفت به رغبة العمل النابعة من بيتر، أيقظت فيه الشوق إلى ذلك المكان، حيث يتمتع بسلطة مطلقة كما يسود بيتر في مكتبته. جاء بسرعة على إصدار جديد للايبنيتس، واستغلّ بعض الوقائع مبرّراً للتخلّص من سطوته بعد الظهر. عليه تأمين مستخدمة بريئة، الاتفاق مع أقرب مطعم لتوريد وجبات الطعام بانتظام، وضع أموال في المصرف، يسيل منها أوّلَ كل شهر مبلغٌ معيّن إلى البيت.

توادعا في آخر المساء. سأل غيورغ: "لماذا لا تشعل الضوء؟". كانت المكتبة معتمة تماماً. ضحك بيتر بكبرياء: "أستطيع التحرك هنا بحرية حتى في الظلام". تحول منذ أن عاد إلى البيت إلى إنسان واثق وشبه مرح. قال غيورغ: "أنت تضرّ بعينيك" وأشعل الضوء. شكره بيتر على الخدمات التي أدّاها. عدّها واحدة واحدة بحذلقة كريهة. أغفل أهمّها: إقصاء المرأة. أنهى خطابه: "لن أراسلك".

"هذا ما أتوقعه. مع كلّ هذا العمل الذي تنوي عليه".

t.me/yasmeenbook

"ليس بسبب العمل. أنا لا أراسل أحداً من حيث المبدأ. كتابة الرسائل عبث".

"كما تريد. أبرِق لي إذا احتجتني. سأعود لزيارتك بعد ستة أشهر".

"ما الداعي؟ لست بحاجتك". كان في صوته جرس غضب. الوداع يؤثر فيه. يخفي ألمه خلف فظاظته.

واصل غيورغ أفكاره في القطار. هل من المعجزة أن يتعلق بي قليلاً؟ لقد ساعدته. والآن حصل على ما يريد تماماً. لن تزعجه نسمة هواء.

بعث فيه الخلاص من المكتبة الجحيمية الفرح. ينتظره ثمانمئة مؤمن بفارغ الصبر. القطار يسير ببطء شديد.

t.me/yasmeenbook

الديك الأحمر

سدّ بيتر باب الشقة وراء أخيه. كان مؤمّناً بثلاثة أقفال معقّدة وعصي حديدية عريضة وثقيلة. رجّها، لم تتحرّك قيد أنملة. كأنما صبّ كامل الباب من قطعة واحدة من الفولاذ، كلّ امرئ آمن في بيته. ما زالت المفاتيح تناسب الأقفال، تقشر لون الخشب قليلاً، كأن أحدهم خدشه. الصدأ على العصي قديم، ولم يعد المرء يرى تماماً أين تم تصليح الباب. كان البواب قد حطّمه، آنذاك عندما دخل الشقة. بركلة منه التوت العصيّ كأنها عوارض خشبية، ذلك الكذاب التعيس، يكذب بيديه وقدميه، ولج الشقة أيضاً بكل بساطة. كان يا ما كان، كان أول الشهر، والسيد بفاف لم يحصل على جعالة. "لقد حدث له مكروه"، ثار واندفع نحو نبع النقود فوق، فقد جفّ فجأة. على الطريق إليه قتل حتى الدرج. أعول الحجر تحت قفازات قبضتيه. خرج الناس من كهوفهم، كلّهم رعيّة في بنايته، وسدّوا أنوفهم. اشتكى الجميع: "رائحة نشحة!". سأل مهدّداً: "أين؟". "من المكتبة". "أنا ما أطلّع رائحة". لم يكن يتقن اللغة. كان له أنف كبير ومناخير واسعة، لكن الشارب تحته كان مشمّعاً ويدخل المناخير. وهكذا كان يشمّ الشمع وحده، والجثة، لم يشمّ رائحة الجثة. كان شاربه صلباً ومتجمّداً، يمسّده طوال اليوم. كان يحفظ الفزلين الأحمر في ألف أنبوب وأنبوب. تحت سريره في حجرته كانت مجموعة من أنابيب المراهم، حمراء من كل الظلال، أحمر هنا، أحمر هناك، أحمر فوق. كان رأسه أحمر مثل النار.

أطفأ كين الضوء في الردهة. يكفي تدوير مفتاح واحد ويحلّ الظلام.

t.me/yasmeenbook

يسري ضوء خافت من المكتب ويمسّد بنطاله برقّة. كم من البناطيل رأى! لم تعد العين السحرية موجودة. لقد نزعها ذلك الجلف. بهذا صار الجدار يباباً. غداً يسكن بفاف جديد ويسد ثقب الجدار. لو أن المرء ضمّده فوراً. جفّ المنديل بالدم. تلوّن الماء في الحوض كما إثر معركة بحرية قرب جزر الكناري[1]. لماذا يختبئون تحت السرير؟ فقد كان هناك متسع على الجدار. وتم إعدام أربعة جنود. غير أنهم ينظرون بأنفة إلى حثالة الشعب. كانت أوعية اللحم فارغة. فطارت إليهم أسراب السمّان، وصار لبني إسرائيل ما يأكلونه. قُتلَت جميع الطيور. لها حناجر صغيرة جداً تحت الريش الأصفر. من سيؤمن بهذا، صوتها صارخ، وإلى أن يعثر المرء على الحناجر. فإن وجدها، يعصرها، تتوقف جوقة الغناء الرباعية، الدم يلطخ المكان، دم سميك، ساخن، هذه الطيور تقضي حياتها في الحمى، دم حار، يحرق أحدنا، البنطال يحترق.

مسح كين الدم والضوء عن بنطاله. عوض أن يدخل المكتب، حيث مصدر الضوء، ذهب في الممرّ الطويل المعتم إلى المطبخ. كان على الطاولة صحن فيه معجنات. الكرسي ليس في مكانه الصحيح، كأن أحداً كان جالساً عليه قبل قليل. دفعه بقسوة. أمسك المعجنات الطرية الصفراء، كانت مثل جثث طيور، ووضعها في سلّة الخبز. بدت كأنها محِرَقة. خبأها في صندوق الخزانة. ظل الصحن وحيداً على الطاولة، أبيض ساطعاً يعمي البصر، كمخدّة. عليها كانت رواية "السروال". كانت تيريزه قد فتحتها. توقفت عند الصفحة 20. يداها في قفازات. "أقرأ كل صفحة ستّ مرات". تنوي أن تغريه بالفحشاء. وهو لا يريد أكثر من كأس ماء. تأتي

---

1)كانت معركة سانتا كروث دي تينيريفه هجوماً برمائياً نفّذته البحرية الملكية البريطانية على مدينة سانتا كروث دي تينيريفه الواقعة على الميناء الإسباني في جزر الكناري. شنّ الهجوم اللواء البحري هوراشيو نيلسون في 22 يوليو 1797، لكنه باء بالفشل. وفي 25 يوليو، انسحبت بقايا الفرقة التي رست بموجب هدنة، بعد أن فقدوا عدة مئات من الرجال. أُصيب نيلسون في ذراعه الذي بُتر جزئياً نتيجة للإصابة: كانت وصمة عار تذكّره دائماً بفشله حتى وفاته.

t.me/yasmeenbook

به. "سأسافر لمدة ستة أشهر". رجاء، هذا غير ممكن". "أنا مضطرّ". "لا أسمح بهذا". "لكني سأسافر رغم اعتراضك". "إذاً، سأسدّ باب الشقة". "المفاتيح معي أنا". "رجاء، أين؟". "هنا". "وإذا شبّ حريق؟".

تقدم كين من الصنبور وفتحه على آخره. تدفّق الماء بكل عنفوان إلى القوقعة القاسية، كاد أن يفجرها. امتلأت بالماء سريعاً. سال الطوفان عبر المجلى على أرضية المطبخ وأطفأ كل أنواع الخطر. أغلق الصنبور. تزحلق على البلاط إلى الغرفة المجاورة. كانت فارغة. ابتسم لها. سابقاً كان هنا سرير وعلى الجدار المقابل حقيبة. في السرير تنام الخطايا السبع الزرقاء[1]. أسلحتها مخبأة في الصندوق: تنانير، تنانير وتنانير. تقيم صلاتها يومياً أمام طاولة الكيّ في الزاوية. هناك ترتمي كسرات تنورتها وتُبعث أقوى. لاحقاً انتقلت للسكن معه وجاءت بالأثاث. فشحبت الجدران طرباً. وظلت بيضاء مذّاك. وما الذي فعلته تيريزه لمنع هذا؟ أكياس طحين، أكياس طحين مليئة. حوّلت الحجرة إلى غرفة مؤونة، احتياطاً للسنين العجاف. تدلّت الأفخاذ المدخنة من السقف. وعلى الأرضية وُضعَت أقماع الخسّ صلبة. تدحرجت أرغفة الخبز نحو دنان السمن. امتلأت قراب الحليب لحدّ الصلابة. أكياس الطحين على الأسوار تحمي المدينة من هجوم الأعداء. موّنت ما يكفيها للأبد. ارتضت أن تحبس وأصرّت على المفاتيح. ذات يوم فتحت المخزن. لم يعد في المطبخ فتات، وماذا في المخزن؟ صارت أكياس الطحين ثقوباً. عوض الأفخاذ تتدلّى حبال. فرغت قراب الحليب ولم تكن أقماع الخس سوى أوراق زرقاء. كانت الأرضية قد خسفت بالخبز وسدّت كل شقوقها بالسمن. من؟ من؟ الجرذان. فجأة تظهر الجرذان، في بيوت لم تكن فيها قطّ، لا أحد يعلم من أين جاءت، لكنها هنا، تفترس كل ما تجده، جرذان مباركة وتترك للحريم الجائعات كومة صحف، فهذه ما

---

1)الخطايا السبع المميتة، والمعروفة أيضاً باسم الذنوب الكاردينالية ، وهي "الغرور" و "الجشع" و "الشهوة" و "الحسد" و "الشراهة" و "الغضب" و "الكسل".

t.me/yasmeenbook

زالت في مكانها، ولا شيء آخر. لا تحب الصحف. الجرذان تكره السللوز. صحيح أنها تنبش في الظلام لكنها ليست نملاً أبيض. النمل الأبيض يقرض الخشب والكتب. فورة الحب في قفير النمل الأبيض. حريق في المكتبة.

بقدر ما طاوعته ذراعه مدّ كين يده إلى ورقة من الصحف. ما كان عليه إلا أن ينحني قليلاً، فالحزمة تصل إلى ركبتيه. دفعها جانباً. كانت الصحف قد احتلت كامل الأرضية تحت النافذة، فهنا جمعت الصحف القديمة منذ سنوات. مدّ رأسه عبر النافذة. كانت الباحة مظلمة. وضوء النجوم يصل إليه. لم يكفِ لقراءة الصحيفة. ربما كانت بعيدة جداً عنه. قرّبها من عينيه، لمست الورقة أنفه وتنشّم رائحة الكاز بنهم وخوف. تزلزلت الورقة وتقصفت. جاء تيار الهواء، الذي استسلمت الورقة له، من منخريه وتكلبت بها أظافره. لكن العينين تحرّتا عنواناً، يكون كبيراً بحيث يمكن قراءته. إن وجد عوناً من عنوان كهذا، فسيقرأ الصحيفة في ضوء النجوم. تبيّن له أول ما تبيّن حرف ج[1]. إذاً فالخبر عن جريمة قتل. وفعلاً يعقبه حرف ر. كان هذا العنوان المكتوب بخط أسود عريض يملأ سدس الصفحة. لهذا الحدّ نفخوا في فعلته! إذاً فهو حديث المدينة، هو الذي يحب الهدوء والعزلة. وسيحصل غيورغ على نسخة، قبل أن يتجاوز الحدود. وسيعرف هو أيضاً بقضية القتل. لو كان هناك رقابة علمية، لكان نصف الصفحة فارغاً. وبهذا يقرأ الناس في الأسفل القليل من الأزرق. بدأ العنوان التالي بحرف ح يعقبه حرف ر: حريق. أنباء القتل والحرائق تشرّف الجرائد، البلد والرؤوس، لا شيء يجذب اهتمام القراء مثلهما، لو لم يتبع القتلَ حريق، يعوزهم بعض الانشراح، ويودّون لو يشعلونه بأنفسهم، فهم عاجزون عن القتل، جبناء هم. علينا ألا نقرأ الجرائد، بذلك تفنى بذاتها، بالمقاطعة الشاملة.

---

1) من البديهي أن الحروف في الأصل الألماني تختلف عنها في الترجمة. لكن المترجم لجأ إلى استخدام الحروف العربية لتقريب الفكرة من القارئ العربي.

t.me/yasmeenbook

رمى كين الورقة على كومة الأوراق الأخرى. قرّر أن يلغي اشتراكه في الجريدة بأقصى سرعة. غادر الحجرة الكريهة. قال بصوت عالٍ في الممرّ: لكن الآن ليل. كيف ألغي الاشتراك؟ وكي يتابع القراءة أخرج ساعته. لم يرَ سوى لوحة الأرقام. لم يتمكن من قراءة الوقت. كانت جريمة القتل والحريق أقلّ جفافاً. في المكتبة ضوء. تحرّق ليعرف الوقت. ولج مكتبه.

كانت الساعة الحادية عشرة. لكن لا تقرع أجراس الكنائس. آنذاك كان عزّ الظهر. يتسحّب البشر في الساحة الصغيرة هنا وهنالك. كان اسم القزم الأحدب فيشرله. كان يبكي فترقّ له الصخور. تقافزت حجارة الطريق. حاصرت الشرطة تيريزيانوم. قاد العملية رائد. كان أمر الاعتقال في جيبه. كشفه القزم. زحف الأعداء حتى بيت الدرج. كان الخنزير مسؤولاً فوق. الكتب العزلاء سلمت لوحوش عديمة الذمة. الخنزير يجمع كتاب طبخ من مئة وثلاث وصفات. أشيع أن بطنه حادّ الزوايا. ولماذا اتهم كين بارتكاب جريمة؟ لأنه أحسن إلى أفقر الفقراء. فقد أصدرت الشرطة أمر اعتقال حتى قبل أن تسمع بالجثة. جرّوا عليه تلك الحملة الهائلة. سرايا، مشاة وخيالة. مسدسات جديدة، بنادق، رشاشات، أسلاك شائكة ومدرعات. لكن لا سلاح يفيد معه، لا يلقون القبض عليه، لو أنهم أمسكوه. يتسلل الباسل بين الأقدام إلى الزهور، هو وقزمه الأمين. وها هم أولاء يلاحقونه، وهو يسمع اللهاث وتقطع أنفاس الخيل، والكلب الضخم يهجم على حنجرته. لكن، هناك مصائب أعظم. ففي الطابق السادس لتيريزيانوم، في مكان قصيّ، هناك يحتجزون آلاف الكتب خلافاً للقانون، عشرات الآلاف رغم إرادتها الحرة، دون ذنب، كيف تواجه الخنزير، مقطوعة عن الأرض، ثابتة الأقدام على السقف المشتعل، يتم تجويعها، حكم عليها، حكم عليها أن تكون فريسة النار.

سمع كين صيحات النجدة. يائساً جرّ الحبل الذي يؤدي إلى الكوة العلوية، وفتحت السدادت فوقه. تنصّت. ارتفعت صيحات الاستغاثة.

t.me/yasmeenbook

ارتاب فيها. جرى إلى النافذة الأخرى وشدّ الحبل هناك أيضاً. هناك كانت صيحات الاستغاثة أضعف صوتاً. أرجعت الغرفة الثالثة صدى رهيباً. بصعوبةٍ سمعه في الغرفة الرابعة. عاد عبر الغرف حيث كان. سار وتنصّت. تماوجت صيحات الاستغاثة. ضغط بيديه على أذنيه ورفعهما بسرعة، ضغط ورفع. هكذا تماماً كانت الأصوات فوق. آه، أذناه تشوّشان عليه. سحل السلم رغم عزوفه الممضّ، إلى وسط المكتب وصعد أعلى درجة. ارتقى جذعه السقف، تمسك باللوح الزجاجي بكل قواه. فسمع الصيحات الوحشية. كانت كتباً تستغيث. زحفت الصرخات متردّدة في السماء السوداء الخاوية. في أنفه رائحة الكاز. ألق النار، الصرخات، الرائحة النتنة: تيريزيانوم تحترق.

مغشيّ البصر أغمض عينيه. أمال رأسه المشتعل. طرقت القطرات على رقبته. كان المطر يهطل. أرجع رأسه للوراء وعرّض وجهه للمطر. كان الماء الغريب بارداً. حتى الغيوم تعرف الرحمة. فقد تطفئ الحريق. فجاءته صفعة جليدية على جفنه. اقشعرّ برداً. عرّاه أحدهم. فتشوا جيوبه. تركوا عليه قميصه. رأى نفسه في المرآة الصغيرة. كان هزيلاً. انبثقت حوله ثمار حمراء، سمينة ومتورمة. بينها البواب. حاولت الجثة أن تتكلم. لم يستمع إليها. كرّرت قول رجاء. سدّ أذنيه. قرعت على التنورة الزرقاء. أدار لها ظهره. كانت بزة رسمية لا أنف لها تجلس قبالته. "الاسم؟". "د. بيتر كين". "المهنة؟". "أعظم علماء الصينيات الأحياء". "مستحيل". "أقسم". "قسمكم زور". "لا". "مجرم". "أنا أدرك ماذا أقول. أقرّ. بكامل قواي العقلية. لقد قتلتها. ذهني صافٍ. أخي لا يعرف. ارحموه. هو مشهور. كذبت عليه". "أين النقود؟". "النقود؟". "سرقتم". "أنا لست لصّاً". "قاتل بدافع السطو؟". "قاتل". "قاتل بدافع السطو". "قاتل. قاتل". ألقي القبض عليكم. ستبقون عندنا". "لكن أخي قادم. أطلقوا سراحي ما دام هنا. يجب ألا يعلم. أحلفكم." ثم يتقدم البواب، فما زال صديقه،

t.me/yasmeenbook

ويقنعهم بأن يمنحوه الحرية عدة أيام. يصحبه إلى البيت ويحرسه، لا يتركه يغادر الحجرة. وهناك وجده غيورغ، بائساً، لكن ليس كمجرم. والآن هو في القطار، لو أنه ظل هنا. لساعده أمام القضاة. على المجرم أن يسلّم نفسه. لكنه لا يريد. سيظل هنا. يحرس تيريزيانوم وهي تحترق.

ببطء رفع جفنيه. كان المطر قد خفّ. خفت ذلك البريق الأحمر، وسيارات الإطفاء وصلت. أخيراً وصلت. لم تعد السماء تشكو. نزل كين عن السلم. سكنت صيحات الاستغاثة في جميع الغرف. وكي لا يفوتها، إن بدأت من جديد، ترك النوافذ العلوية مفتوحة. ظل السلم مهيّأً في وسط الغرفة. إذا بلغت الحاجة مبلغاً، سيساعده على الهروب. إلى أين؟ إلى تيريزيانوم. الخنزير جثة متفحمة تحت العوارض. أمامه عمل كثير هناك، فلن يعرفه أحد في الجمع الغفير. غادِر البيت! حذار! المدرعات تتجول في الشوارع. بالمشاة والخيالة والسيارات. يظنون أنهم سيقبضون عليه سريعاً. سيضربهم الربّ ضربة ماحقة وهو، القاتل، سينجو. لكنه قبل هذا سيمسح الآثار.

يجثو أمام طاولة المكتب. يمرّر يده على السجاد. هنا كانت الجثة. هل يمكن رؤية الدم بعد؟ لا يمكن رؤية شيء. يدسّ أصابعه عميقاً في منخاريه. ليس فيها سوى رائحة الغبار. لا دم. يجب التأكد. الضوء ضعيف. عالٍ جداً. شريط مصباح الطاولة ليس طويلاً كفاية. على المكتب أعواد ثقاب. يشعل ستّة منها معاً، ستة أشهر، ويعمل على السجاد. يضيئه عن قرب شديد، ليرى آثار الدم. الخطوط الحمراء في السجاد. كانت فيه طوال الوقت. يجب محوها. ستعتبرها الشرطة دماً. يجب حرقها. يدسّ أعواد الثقاب في السجاد. تنطفئ. يرميها. يشعل ستة أخرى. يمرّرها فوق أحد الخطوط الحمراء ويضغطها فيه. تترك أثراً بنّيّاً. تنطفئ فوراً. يشعل أخرى. يستهلك علبة كاملة. يبقى السجاد بارداً. يكتسي بخطوط بنية. حوله أسمال متوهجة. الآن لا توجد أدلّة ضدّه. آه، لماذا اعترف؟ بحضور

t.me/yasmeenbook

ثلاثة عشر شاهداً. الجثة كانت حاضرة والقط الأحمر بعينيه المتوهجتين. قاتل بدافع السطو بالقدّ والقديد. أحدهم يطرق. الشرطة على الباب. أحدهم يطرق.

كين لا يفتح. يسدّ أذنيه. يحتمي خلف كتاب. والكتاب على الطاولة. يريد أن يقرأه. تتراقص الحروف. لا يمكن فكّ حرف واحد. أرجو الهدوء. يتلألأ أمام عينيه جمر أحمر. هذا نابع من الفزع الرهيب، المتأخر، بسبب الحريق، ومن لن يفزع إذا احترقت تيريزيانوم وكانت كتب لا تحصى بين ألسنة اللهب. يقف. كيف يمكن القراءة في هذه الحال؟ الكتاب منخفض جداً. اجلس! يجلس. في السجن! لا، في البيت. طاولة المكتب، المكتبة. هنا كل شيء يعاضده. لم ينتهِ أيّ شيء. يحقّ له القراءة متى شاء. لكن الكتاب غير مفتوح. نسي أن يفتحه. الضرب عقوبة الحماقة. يفتحه. يضربه بيده. تدقّ الساعة الحادية عشرة. الآن صرت بين يدي. اقرأ! دع! لا! امسك! آخ. تنشقّ عصا من السطر الأول وتنهال عليه. رصاص. هذا مؤلم. اضرب، اضرب! ضربة أخرى! ضربة أخرى! يهشّم هامش قدمه. يترنّح. تنهال عليه السطور والصفحات. تهزّه وتضربه، تنهبه، تتقاذفه. دم. اتركوني بحالي! النجدة! غيورغ! النجدة، النجدة! غيورغ!

لكن غيورغ سافر. يقفز بيتر. يمسك الكتاب بعنف شديد ويغلقه. لقد حبس الحروف، كلّها، ولن يحرّرها بعدُ. أبداً. إنه حرّ. يقف. يقف معتمداً على نفسه. غيورغ سافر. تمكّن من خداعه. ما أدراه هو بالقتل. طبيب مجانين. أحمق. نفس خضراء. لكنه يحب سرقة الكتب. على المرء أن يموت سريعاً لأجله. بهذا تبقى المكتبة له. لن ينالها. صبراً. "ماذا تريد فوق؟". "نظرة سريعة". "نظرة لص". نعم، مناسبة لك. ابقَ مع مغفّليك يا حذاء! سيعود مرة أخرى. بعد ستة أشهر. سيكون أفضل حظاً. الوصية؟ لا داعي لها. الوريث الوحيد يأخذ ما يريد. قطار خاص إلى باريس. مكتبة كين. من خالقها؟ الطبيب النفسي غيورغ كين. طبعاً، ومن غيره. والأخ،

t.me/yasmeenbook

عالم الصينيات؟ خطأ. هذا ليس أخاه، مجرّد تشابه أسماء، مصادفة، قاتل، قاتل زوجته، جريمة قتل وحريق، في جميع الصحف، الحكم بالسجن لمدى الحياة، مؤبد، لمدى الموت، رقصة الموت، العجل الذهبي، ميراث بالملايين، الجريء يجني، يبكي، الوداع، لا، الاتحاد، متحدين حتى الموت، الموت حرقاً، الضرورة، ضرورة الحرق، تأججت، تأججت النار، نار، نار نار.

يستعين كين بالكتاب على الطاولة ويهدّد أخاه به. يريد أن يسرقه، الكل يسعى إلى الوصية، كلٌّ يتوقع موت قريبه. الأخ موجود ليموت، العالم مغارة لصوص، البشر يفترسون الكتب ويسطون عليها. الكل طامع، ولا أحد يبقى، ولا أحد يستطيع الانتظار. في العصور الماضية كانوا يحرقون ما للإنسان مع جثته، لم يكتب أحد وصية، ولا يبقى، لا يبقى سوى العظام. الحروف تطقطق في الكتب. مسجونة ولا تستطيع الفرار. لقد أدمته. يهدّدها بالإعدام حرقاً. هكذا ينتقم من كل الأعداء. الزوجة قتلها، الخنزير متفحّم، وغيورغ لا يحصل على الكتب. والشرطة لا تنال منه. الحروف تخفق مغشيّاً عليها. في الخارج تقرع الشرطة. "افتحوا الباب". "مستحيل". "باسم العدالة". "رذالة". "افتحوا". "اركض". "فوراً". "هرب". "سنطلق عليكم النار". "تخطئون المسار". "نشويكم على الدخان". "لستم في خان". يريدون أن يكسروا بابه. لن يتمكنوا من هذا بسهولة. بابه قوي ومن نار. طرق، طرق، طرق. تشتد الضربات. يصل صوتها إليه. بابه مطروق بالحديد. وإذا تآكله الصدأ؟ لا يوجد معدن قدير. طرق. طرق. على الباب خنازير وتحرقه ببطونها حادة الزوايا. لا بد أن الخشب سيتصدع. فهو قديم جداً. أخذوا ثغور الأعداء. التحصن. طرق، طرق، طرق. قرع أجراس. الأجراس تقرع في الحادية عشرة. تيريزيانوم. حدبة. ينسحبون بأنوف طويلة. أما معي حقّ؟! طرق طرق. أما معي حقّ؟! طرق طرق.

تتهاوى الكتب من الرفوف على الأرض. يتسقطها بأذرعه الطويلة. بحذر شديد، كي لا يسمعوه في الخارج، يحملها حزمة حزمة ويأخذها إلى الممرّ.

t.me/yasmeenbook

يرفعها أمام الباب الحديدي. وبينما يمزق الضجيج مخّه، يبني حصناً منيعاً من الكتب. يمتلئ الممر بالمجلدات. يجلب السلم ليساعده. سريعاً يصل إلى السقف. يرجع إلى غرفته. تتثاءب الرفوف بوجهه. يحترق السجاد أمام طاولة المكتب على أشدّه. يذهب إلى الحجرة المجاورة للمطبخ ويجلب كل الجرائد القديمة. يتصفّحها، يجعّدها، يكوّرها، ويرميها إلى كل الزوايا. يضع السلم وسط الغرفة، حيث كان قبلاً. يصعد على الدرج السادس، يحرس النار وينتظر. وعندما تصل إليه ألسنة اللهب أخيراً، يقهقه، كما لم يضحك طوال عمره.

ياسمين
قصص
روايات
t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

محطات في حياة إلياس كانيتي

25 حزيران 1905 ولد إلياس كانيتي لعائلة غنية من أصول سفاردية في مدينة روسه / بلغاريا، حيث تعلّم اللغة الإسبانية القديمة للسفارديين.

1911 انتقلت العائلة إلى مانشستر حيث تعلّم كانيتي الإنكليزية. وفي 1912 توفيّ والده.

1913 انتقلت العائلة إلى فيينا، وتعلّم كانيتي الألمانية من والدته.

1916 انتقلت العائلة إلى زيوريخ في سويسرا وفي 1921 إلى ألمانيا.

1924 وبعد الحصول على البكالوريا في فرانكفورت، بدأ كانيتي دراسة الكيمياء في فيينا، حيث حضر محاضرات كارل كراوس.

1925 اشتغل كانيتي للمرة الأولى على مسألة الحشود التي ستشغله طوال عمره.

1928 عمل مترجماً لدى دار النشر ماليك في برلين خلال العطلة الدراسية.

1929 نال درجة الدكتوراة.

1931 أنهى كانيتي العمل على الرواية دون أن ينشرها.

1932 كتب مسرحية (العرس/ حفل الزواج) للمسرح. نشرت المخطوطة لدى دار فيشر، لكن لم يكن لها تأثير نظراً لاستيلاء النازية على السلطة.

1934/1933 أنهى مسرحية (كوميديا الغرور) لكنها لم تنشر.

1934 تزوج كانيتي من فيزا تاوبنر-كاليرون.

t.me/yasmeenbook

1935 نشرت الرواية.

1938 هربت عائلة كانيتي عبر باريس إلى لندن بعد أن دخل هتلر فيينا، وأعلن ضمّ النمسا إلى الرايخ الألماني.

1946 نشر ترجمة الرواية إلى الانكليزية. لقيت الترجمة نجاحاً كبيراً، وبذلك اشتهر كانيتي ودخل الأوساط الفنية والأدبية في انكلترا.

1949 الجائزة العالمية prix international

1950 طبع مسرحية (كوميديا الغرور) دون أن تُنشر، لأن دار النشر فايسمان أفلست.

1952 كتابة مسرحية (المؤجلون).

1954 كتابة (أصوات مراكش). كان قد سافر قبل ذلك برفقة فريق تصوير إلى مراكش.

1956 العرض الأول لمسرحية (المؤجلون) في اكسفورد.

1960 نشر كتاب (الحشد/ الجماهير والسلطة) بعد أن عمل عليه أكثر من عشرين عاماً.

1963 وفاة زوجته فيزا. تبنّت دار هانسر نشر أعمال كانيتي القديمة والجديدة، وبهذا نشرت رواية (نار الله) بالألمانية واشتهر اسم كانيتي.

1964 الطبعة الأولى لمسرحيات (العرس)، (كوميديا الغرور) و(المؤجلون).

1965 العرض الأول لمسرحية (كوميديا الغرور) في نورنبرغ. ثم مسرحية (العرس) التي اتّهمت بخدش الحياء العام. ونشر مدوّنات 1942 – 1948.

1967 جائزة الدولة للأدب في النمسا.

1968 نشر (أصوات مراكش).

1969 نشر (المحاكمة الأخرى. رسائل كافكا إلى فيليس).

t.me/yasmeenbook

1971 تزوج كانيتي بهيرا بوشور.

1972 جائزة بوشنر ووسام الشرف النمساوي للعلوم والأدب. ولادة ابنته يوهانا. نقل كانيتي سكنه الرئيسي إلى زيوريخ، لكنه حافظ على شقته في لندن.

1973 جمع جميع مدوناته تحت عنوان (أقاليم الإنسان – مدونات 1942 – 1972).

1974 نشر مسرحية (شاهد أذن).

1975 نشر مجموعة مقالات تحت عنوان (ضمير الكلام). الحصول على جائزة نيلي زاكس.

1976 منح كانيتي دكتوراة الشرف في جامعة لودفيغ مكسيميليان في ميونيخ.

1977 نشر مسرحية (اللسان المنقَذ – قصة شباب)، الجزء الأول من السيرة الذاتية. الحصول على جائزة غوتفريد كيلر.

1980 نشر الجزء الثاني من السيرة الذاتية (المشعل في الأذن – قصة حياة 1921 1931-).

1981 جائزة نوبل للآداب وجائزة فرانتس كافكا.

1983 وسام الاستحقاق الرفيع لجمهورية ألمانيا الاتحادية.

1985 نشر الجزء الثالث من السيرة الذاتية (لعبة العيون – قصة حياة 1931 – 1937).

1987 نشر (سرّ الساعة. مدوّنات 1973 – 1985).

1988 وفاة زوجته هيرا.

1992 نشر مدوّنات (فيلغنباين).

14 آب 1994 وفاة كانيتي في زيوريخ.

t.me/yasmeenbook

من الرواية:

عندما قذف كين عربة الاغتسال نحو الغرفة سمع: „فقتم؟" غير معتادة. لماذا تصرخ تلك المرأة بهذا الصوت العالي. وهذا منذ الصباح الباكر، فما زال شبه نائم. صحيح، لقد وعدها بكتاب. لن تحصل منه سوى على رواية. للأسف لا تسمن الأرواح بالروايات. إن ثمن المتعة التي قد تقدّمها للقارئ باهظ جداً، فهي تفسد الكائن. يتعلّم القارئ أن يضع نفسه في كل أنواع البشر. ويتعود على التمزّق. يحلّ القارئ في الشخصيات التي تعجبه. يقبل بكل موقف. بطواعية يترك نفسه لأهداف غريبة عليه ويخسر بذلك أهدافه الذاتية. الروايات أسافين يدقّها ممثل كاتب في شخص قارئه المغلق. وكلما أتقن حساب الإسفين والمقاومة، تمزّق القارئ أكثر. يجب أن تُمنَع الروايات بحكم القانون.

Deutscher Übersetzerfonds

منشورات المتوسط

t.me/yasmeenbook

إليـاس كانيتـي: وُلد في مدينة روسه البلغارية عام 1905. هو كاتب وناقد ومُفكِّر بلغاري، مُجنَّس بريطاني، ويكتب باللغة الألمانية، وفيها حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1981، والتي جاء في بيانها: "لكتابة تتميَّز بنظرة واسعة، وثروة من الأفكار، ولقوَّتها الفنِّيَّة".

درس في فيينا قبل الحرب العالمية الثانية، ثمَّ انتقل مع زوجته فيزا إلى إنجلترا، ومكث هناك لفترة طويلة. توزَّعت حياته بين لندن وزيورخ منذ أواخر الستِّينيات وحتَّى أواخر الثمانينيات، حيث أصبحت زيورخ بعدها مدينة إقامته الأساسية، وتُوفيِّ فيها عام 1994.

المتوسط

t.me/yasmeenbook